الكاتبة الأولى على قائمة نيويورك تايمز للأكثر مبيعًا

ريبيكا ياروس

REBECCA YARROS

حلّق ... أو مُت

الجناح الرابع

FOURTH WING

FLY...OR DIE

أكثر رواية فانتازيا آسرة قرأتها منذ عقد من الزمان

القائمة الرسمية ورقم رقم 1 الأكثر مبيعاً نيويورك تايمز

رواية

ترجمة: شيرين سامي





2

الجناح الرابع

الجنـــاح الرابـــع

ريبيكيا ياروس

رواية

ترجمة : شيرين سامي



إشادات بالرواية

«سردٌ يحبس الأنفاس، مفعمٌ بالفتنة، وحكايةٌ تأسر الألباب ببراعتها. إن هذا الكتاب الأول من سلسلة إمبيريان بقلم ياروس سيبعث البهجة في قلوب عُشَّاق الفانتازيا الرومانسية المنسوجة بخيوط المغامرة.»

مجلة بوكليست، مراجعة متوجة بنجمة.

«سيقع القُرَّاء أسرى لسحرها، وستلتهب أفئدتهم شوقًا للمزيد.»

مجلة بابليشرز ويكلي، مراجعة متوجة بنجمة.

«عالمٌ من الفانتازيا لم تعهد لنسجه مثيلًا من قبل.»

جينيفر إل. أرمينتراوت، الكاتبة المتربعة على صدارة المبيعات في صحيفة نيويورك تايمز.

«دهاءٌ متوقد، وبأسٌ شديد، وروعةٌ لا تُضاهى. إنها بحقٍّ رحلةٌ تسلب اللُّب.»
تريسي وولف، الكاتبة المتربعة على صدارة المبيعات في صحيفة نيويورك تايمز.

«مغامرةٌ تأبى النسيان من دفتيها إلى دفتيها. لقد تعالت هتافاتي، وصدحت ضحكاتي، وافترّ ثغري عن ابتساماتٍ واسعة، واستحال عليّ أن أُفلتها من بين يدي.»
ليكسي رايان، الكاتبة المتربعة على صدارة المبيعات في صحيفة نيويورك تايمز.

«تنانينُ تستعر، وحروبٌ طاحنة، وشغفٌ يتأجج، وقوةٌ طاغية. إن رواية الجناح الرابع لهي تحفةٌ تخطف الأبصار. لقد أبدعت ريبيكا ياروس في نسج عوالم تأسر الألباب بقدر ما تفيض بالمهالك، وتحرقني لوعة الشوق لأرى إلى أي المرافئ ستمضي بنا في رحلتها القادمة.»
نالیني سينغ، الكاتبة بقائمة المبيعات في صحيفة نيويورك تايمز.



تم إعداد هذه النسخة الإلكترونية بواسطة /

مكتبة الوادي

إهداء إلى آرون، بطلي المغوار، وكابتن أمريكا الخاص بي.

تحية إجلال لأرباب الفنون؛ فبين أيديكم تكمن القدرة على إعادة صياغة هذا العالم.

بحر الزمرد
نافـــار
مقاطعة
لوسيراس
مقاطعة موزين
مقاطعة
سجنيس
مقاطعة
كالدري
مقاطعة ديكونشاير
مقاطعة
برايفيك
الأرض
اليباب
مقاطعة
تايريندور
بوروميل
مقاطعة
كروفلا
المحيط الأركتيلي
خليج مالك

نُقل هذا النص بأمانة بالغة من اللغة النافارية إلى لغتنا الحديثة، على يد جيسينيا نيلوارت، أمينة قطاع النسّاخين في كلية باسجيات الحربية.

إن جلَّ ما سُرد هاهنا من أحداث حقيقيٌّ لا مراء فيه، وقد حُفظت الأسماء دون مساس؛ تخليدًا لبسالة أولئك الذين سقطوا.

فلتُودع أرواحهم في كنف مالك.

«تنين من دون فارسه، مأساة.

فارس من دون تنينه، ميت.»

المادة الأولى، القسم الأول – دستور راكبي التنانين



الفصل الأول

طالما كان يوم التجنيد هو الأشد فتكًا على الإطلاق. ولعل هذا هو السر وراء ذلك الجمال الاستثنائي الذي يتجلى في شروق شمس هذا الصباح؛ لعلمي اليقين أنه قد يكون شروقي الأخير.

أشدُّ أحزمة حقيبة ظهري القماشية الثقيلة، وأتثاقل في صعودي عبر الدرج العريض لتلك القلعة الحجرية التي أسميها بيتي. يعلو صدري ويهبط من فرط الإجهاد، وتحترق رئتاي بحلول الوقت الذي أبلغ فيه الممر الحجري المؤدي إلى مكتب الجنرال سورنجيل. هذا هو جُلّ ما منحتني إياه ستة أشهر من التدريب البدني القاسي – القدرة على صعود ستة طوابق من السلالم بشق الأنفس، حاملةً حقيبة تزن ثلاثين رطلًا.

يا لي من هالكة.

إن آلاف الشبان والشابات في العشرين من عمرهم، الذين ينتظرون خارج البوابة لدخول القطاع الذي اختاروه للخدمة، هم النخبة الأذكى والأقوى في

مملكتنا. المئات منهم أعدّوا العُدة لدخول قطاع راكبي التنانين منذ نعومة أظفارهم، طمعًا في فرصة الانضمام إلى تلك النخبة. أما أنا، فلم أحظَ سوى بستة أشهر لا غير.

يتحاشى الحراس، بوجوههم الخالية من أي تعبير والمصطفين على طول الردهة العريضة أعلى السلم، النظر في عيني وأنا أمرق من أمامهم، بيد أن هذا ليس بجديد. علاوة على ذلك، فإن التجاهل هو أفضل سيناريو يمكنني تمنيه.

فـ كلية باسجيات الحربية لم تُعرف يومًا برأفتها... حسنًا، بأي شخص كان، حتى أولئك الذين تتولى أمهاتهم سدة القيادة.

يُصاغ كل ضابط نافاري بين هذه الجدران القاسية على مدار ثلاث سنوات، سواء اختاروا التخصص كمعالجين، أو نساخين، أو مشاة، أو راكبين، ليُصقلوا كأسلحة فتاكة تذود عن حدودنا الجبلية ضد محاولات الغزو العنيفة التي تشنها مملكة بوروميل وراكبو غريفيون الخاصون بها. الضعفاء لا ينجون هنا، ولا سيما في قطاع راكبي التنانين. والتنانين تتكفل بضمان ذلك.

يهدر صوت مألوف عبر باب الجنرال الخشبي السميك، فأشهق بصوت مسموع.

– «أنتِ ترسلينها إلى حتفها!»

لا توجد على القارة بأسرها سوى امرأة واحدة تبلغ من الحماقة ما يكفي لترفع صوتها في وجه الجنرال، ولكن من المفترض أن تكون الآن على الحدود مع الجناح الشرقي. إنها ميرا.

يأتي رد مكتوم من داخل المكتب، فأمد يدي نحو مقبض الباب. وتصرخ ميرا بينما أدفع الباب الثقيل لأفتحه، فينزاح ثقل حقيبتي إلى الأمام، وكاد يطرحني أرضًا.

– «لا تملك أدنى فرصة للنجاة!»

تبًا.

تلعن الجنرال من خلف مكتبها، فأتشبث بظهر الأريكة المكسوة بالقماش القرمزي لأستعيد توازني. وتندفع ميرا نحوي بحدة قائلة:

– «بحق الجحيم يا أمي، إنها لا تقوى حتى على حمل حقيبة ظهرها.»

فأرد، وقد اشتعلت وجنتاي خجلًا، وأجبرت نفسي على الوقوف باعتدال:

– «أنا بخير!»

لقد عادت منذ خمس دقائق فقط، وها هي تحاول إنقاذي بالفعل.

لأنكِ بحاجة لمن ينقذكِ أيتها الحمقاء.

أنا لا أريد هذا. لا أريد أي جزء من هراء قطاع راكبي التنانين هذا. ليس وكأنني أمتلك رغبة في الانتحار. كان الأجدر بي أن أرسب في اختبار القبول لكلية باسجياث وأتوجه مباشرة إلى الجيش مع غالبية المجندين. لكنني قادرة على التعامل مع حقيبتي، وسأتعامل مع نفسي.

– «آه، يا ڤيوليت.»

قالتها وعيناها البنيتان القلقتان تنظران إليّ، بينما أسندت يداها القويتان كتفيّ.

أبتسم ابتسامة خفيفة ارتسمت على زوايا شفتيّ، وأقول:

– «أهلًا يا ميرا.»

ربما أتت إلى هنا لتوديعي، لكنني سعيدة فحسب برؤية شقيقتي للمرة الأولى منذ سنوات.

ترقّ نظرتها، وتلتف أصابعها حول كتفيّ وكأنها توشك على جذبي في عناق، لكنها تتراجع خطوة للخلف وتلتف لتقف بجواري في مواجهة أمنا، وتقول:

– «لا يمكنكِ فعل هذا.»

تهز أمي كتفيها، فترتفع وتنخفض خطوط زيها الأسود الضيق مع حركتها، وتقول:

– «لقد انتهى الأمر.»

أسخر في سري. لقد تبخر كل أمل في الإعفاء. ليس وكأنني كان يجب أن أتوقع، أو حتى آمل، في ذرة من رحمة من امرأة ذاع صيتها بانعدامها.

تغلي ميرا غضبًا وتقول:

– «إذًا تراجعي عن قراركِ، لقد أمضت حياتها كلها تتدرب لتصبح نساخة. لم تُربَّ لتكون راكبة تنانين.»

تسند أمي يديها على سطح مكتبها الناصع وتتكئ قليلًا إلى الأمام وهي تقف، متفحصة إيانا بعينين ضيقتين ومقيمتين تحاكيان أعين التنانين المنحوتة في القوائم الضخمة لأثاثها:

– «حسنًا، إنها بالتأكيد ليست أنتِ، أليس كذلك يا ملازم سورنجيل؟»

لست بحاجة إلى القوة المحرمة لقراءة الأفكار لأعرف بالضبط ما تراه.

في السادسة والعشرين من عمرها، تبدو ميرا نسخة مصغرة من أمنا. إنها طويلة القامة، بعضلات قوية ومفتولة صُقلت من سنوات من النزالات ومئات الساعات التي أمضتها على ظهر تنينها. بشرتها تتوهج صحة ونضارة، وشعرها البني الذهبي مقصوص قصيرًا للقتال على غرار تسريحة أمي تمامًا. لكنها، أبعد من مجرد المظهر، تحمل الغطرسة ذاتها، واليقين الراسخ بأنها تنتمي إلى السماء. إنها راكبة تنانين حتى النخاع.

إنها كل ما لست عليه أنا، وهزة رأس أمي المستنكرة تؤكد اتفاقها مع هذا الرأي. أنا قصيرة جدًا. وهشة للغاية. وما أملكه من انحناءات كان ينبغي أن يكون عضلات، وجسدي الخائن يجعلني عرضة للخطر بشكل مخجل.

تخطو أمي نحونا، وحذاؤها الأسود المصقول يلمع تحت أضواء السحر المتلألئة من الشمعدانات الجدارية. تلتقط طرف ضفيرتي الطويلة، وتسخر من الجزء الواقع فوق كتفي مباشرة حيث تبدأ الخصلات البنية في فقدان دفء لونها وتتلاشى ببطء إلى فضي معدني قارس عند الأطراف، ثم تفلته قائلة:

– «بشرة شاحبة، عينان باهتتان، وشعر أشهب.»

تمتص نظراتها كل قطرة من ثقتي بنفسي حتى النخاع، وتتابع:

– «يبدو وكأن تلك الحمى قد سلبتكِ لونكِ مع قوتكِ.»

تومض مسحة من الحزن في عينيها وتقطب حاجبيها:

– «أخبرته ألا يبقيكِ حبيسة تلك المكتبة.»

ليست هذه هي المرة الأولى التي أسمعها تلعن فيها المرض الذي كاد يقتلها وهي حامل بي، أو المكتبة التي جعلها أبي بيتي الثاني بمجرد تعيينها هنا في باسجيات كمعلمة، وتعيينه هو كنساخ.

أرد عليها معترضة:

– «أنا أحب تلك المكتبة.»

لقد مر أكثر من عام منذ أن توقف قلبه أخيرًا عن الخفقان، ولا يزال الأرشيف هو المكان الوحيد الذي يُشعرني بالانتماء في هذه القلعة العملاقة، المكان الوحيد الذي لا أزال أستشعر فيه طيف أبي.

تقول أمي بصوت هادئ:

– «هذا حديث يليق بابنة نساخ.»

وألمح في تلك اللحظة المرأة التي كانت عليها حين كان أبي على قيد الحياة. أكثر رقة. أكثر حنانًا... على الأقل تجاه عائلتها.

فأجيبها:

– «أنا بالفعل ابنة نساخ.»

يصرخ ظهري ألمًا، فأترك حقيبتي تنزلق من على كتفيّ، وأسندها إلى الأرض، لآخذ أول نفس كامل منذ مغادرتي غرفتي.

تطرف أمي بعينيها، فتتلاشى تلك المرأة الرقيقة، ولا يتبقى سوى الجنرال الصارمة:

– «أنتِ ابنة راكبة تنانين، تبلغين من العمر عشرين عامًا، واليوم هو يوم التجنيد. لقد تركتكِ تنهين دروسكِ، ولكن كما أخبرتكِ في الربيع الماضي، لن أقف مكتوفة الأيدي وأنا أرى أحد أبنائي يدخل قطاع النساخين يا ڤيوليت.»

أغمغم بتذمر، مع علمي التام بأن راكبي التنانين يقبعون على قمة الهرم الاجتماعي والعسكري – ويعزز من ذلك أن تنانينهم المرتبطة بهم تحرق الناس من أجل المتعة –:

– «ألأن النساخين في منزلة أدنى بكثير من راكبي التنانين؟»

يفلت رباط جأشها المعتاد وتصيح:

– «أجل! وإذا تجرأتِ على السير نحو النفق المؤدي إلى قطاع النساخين اليوم، فسأسحبكِ من ضفيرتكِ السخيفة هذه وأضعكِ على المتراس الصخري بيدي.»

تنقلب معدتي ذعرًا.

تجادل ميرا، والدماء تحتقن في عنقها:

– «لم يكن أبي ليرضى بهذا!»

ترد أمي ببرود وكأنها تتلو نشرة الأخبار الجوية:

– «لقد أحببت أباكِ، ولكنه مات. وأشك أنه يرغب في أي شيء هذه الأيام.»

أحبس أنفاسي لكنني أطبق شفتيّ بقوة. الجدال لن يفضي بي إلى شيء. لم تُلقِ بالًا يومًا لأي كلمة تفوهتُ بها، واليوم ليس استثناءً.

تتابع ميرا، ويبدو أنها لم تفرغ من جدالها بعد:

– «إرسال ڤيوليت إلى قطاع راكبي التنانين بمثابة حكم بالإعدام.»

ميرا لا تكف أبدًا عن مقارعة أمي بالحجة، والمحبط في الأمر أن أمي لطالما احترمتها لأجل ذلك. مرحى لازدواجية المعايير.

تضيف ميرا بانفعال:

– «إنها ليست قوية بما يكفي يا أمي! لقد كُسرت ذراعها بالفعل هذا العام، وتتعرض لالتواء في أحد مفاصلها كل أسبوعين، وهي ليست طويلة بما يكفي لامتطاء أي تنين بحجم يضمن بقاءها على قيد الحياة في المعركة.»

– «أجادة أنتِ يا ميرا؟»

بحق الجحيم. تنغرز أظافري في راحتي يديّ وأنا أقبضهما بغضب. أن أدرك ضآلة فرصي في النجاة شيء، وأن تلقي شقيقتي بنواقصي في وجهي شيء آخر تمامًا.

أسألها بحدة:

– «هل تنعتينني بالضعف؟»

تعتصر ميرا يدي قائلة:

– «لا. فقط... هشة.»

فأرد:

– «هذا ليس أفضل حالًا.»

التنانين لا ترتبط بالنساء الهشات. بل تحولهن إلى رماد.

تمسحني أمي بنظراتها من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، متأملة التصميم الواسع لسترتي الكريمية المربوطة بحزام والسروال اللذين اخترتهما هذا الصباح لعملية إعدامي المحتملة، وتقول:

– «إذًا هي ضئيلة الحجم.»

أزفر بتهكم:

– «هل نحن بصدد سرد عيوبي الآن؟»

تلتفت أمي إلى شقيقتي وتقول:

– «لم أقل قط إن هذا عيب. يا ميرا، تتعامل ڤيوليت مع قدر من الألم قبل الظهيرة يفوق ما تكابدينه أنتِ في أسبوعٍ كامل. إن كان هناك من بين أبنائي من هو قادر على النجاة في قطاع راكبي التنانين، فهي ڤيوليت.»

يرتفع حاجباي دهشة. لقد بدا هذا أقرب ما يكون إلى إطراء، ولكن مع أمي، لا أستطيع الجزم أبدًا.

تغضب ميرا بشدة وتسأل:

– «كم عدد مرشحي الركوب الذين يلقون حتفهم في يوم التجنيد يا أمي؟ أربعون؟ خمسون؟ هل أنتِ متلهفة إلى هذا الحد لدفن ابن آخر لك؟»

أجفل بينما تهوي درجات الحرارة في الغرفة فجأة، بفضل قوة أمي السحرية في استدعاء العواصف والتي توجّهها عبر تنينها، إيمسير.

ينقبض صدري عند ذكرى أخي. لم يجرؤ أحد على ذكر برينان أو تنينه طيلة السنوات الخمس التي انقضت منذ مقتلهما في قتال تمرد التايريشي في الجنوب. أمي تتسامح معي وتحترم ميرا، لكنها كانت تعشق برينان.

وأبي كذلك. فقد بدأت آلام صدره فور وفاة برينان.

ينقبض فك أمي وتتوعد عيناها بالانتقام وهي تحدق في ميرا بغضب.

تبتلع شقيقتي ريقها لكنها تصمد في حرب النظرات هذه.

أبدأ بالقول:

– «يا أمي، إنها لم تقصد...»

تخرج كلمات أمي كنفثات بخار خفيفة في المكتب المتجمد:

– «اخرجي. أيتها. الملازم. قبل أن أسجل غيابكِ عن وحدتكِ دون إذن.»

تعتدل ميرا في وقفتها، وتومئ برأسها مرة واحدة، ثم تستدير بدقة عسكرية وتتجه بخطى واسعة نحو الباب دون أن تنبس ببنت شفة، مختطفة حقيبة ظهر صغيرة في طريقها للخارج.

إنها المرة الأولى التي أختلي فيها بأمي منذ أشهر.

تلتقي عيناها بعينيّ، وترتفع درجة الحرارة وهي تأخذ نفسًا عميقًا وتقول:

– «لقد حصدتِ درجات تضعكِ في الربع الأعلى من حيث السرعة والرشاقة خلال امتحان القبول. ستبلين بلاءً حسنًا. جميع أفراد آل سورنجيل يبلون حسنًا.»

تمرر ظهر أصابعها على وجنتي، بالكاد تلامس بشرتي، وتهمس:

– «تشبهين أباكِ كثيرًا.»

ثم تتنحنح وتتراجع بضع خطوات للوراء.

أظن أنه لا توجد أوسمة خدمة استحقاقية للتوافر العاطفي.

تجلس مرة أخرى على حافة مكتبها وتقول:

– «لن أتمكن من الاعتراف بكِ أو تمييزكِ طوال السنوات الثلاث القادمة، فبصفتي القائد العام لباسجيات، سأكون رئيستكِ العليا.»

أجيبها:

– «أعلم ذلك.»

وهذا أقل ما يقلقني، بالنظر إلى أنها بالكاد تعترف بوجودي الآن.

تتابع رافعة حاجبًا واحدًا:

– «ولن تحظي بأي معاملة استثنائية لمجرد أنكِ ابنتي أيضًا. بل على العكس، سيضغطون عليكِ بشراسة أكبر ليجبروكِ على إثبات جدارتكِ.»

فأرد:

– «أعي ذلك تمامًا.»

من حسن الحظ أنني كنت أتدرب مع الرائد غيلستيد طوال الأشهر القليلة الماضية منذ أن أصدرت أمي مرسومها.

تتنهد وتصطنع ابتسامة قائلة:

– «إذًا أظن أنني سأراكِ في الوادي في يوم التصفية أيتها المرشحة. على الرغم من أنكِ ستصبحين متدربة بحلول الغروب، كما أفترض.»

أو ميتة.

لم تنطق أي منا بالكلمة.

تقول وهي تعود للوقوف خلف مكتبها، في إشارة واضحة للانصراف:

– «حظًا موفقًا، أيتها المرشحة سورنجيل.»

فأرد:

– «شكرًا لكِ أيتها الجنرال.»

أرفع حقيبتي على كتفيّ وأغادر مكتبها، فيغلق الحارس الباب خلفي.

يأتيني صوت ميرا من منتصف الردهة، تمامًا بين موضع تمركز الحارسين:

– «إنها مجنونة حد اللعنة.»

أقول لها:

– «سيخبرونها بما قلتِه للتو.»

ترد من بين أسنانها المطبقة:

– «وكأنهم لا يعرفون ذلك بالفعل. هيا بنا. لم يتبقَّ أمامنا سوى ساعة واحدة قبل أن يصطف جميع المرشحين، وقد رأيت الآلاف ينتظرون خارج البوابات عندما حلقتُ فوقهم.»

تشرع في السير، وتقودني عبر الدرج الحجري وعبر الممرات وصولًا إلى غرفتي.

حسنًا... لقد كانت غرفتي.

ففي غضون الثلاثين دقيقة التي غبتها، عُبّئت جميع أغراضي الشخصية في صناديق تستقر الآن مكدسة في الزاوية. تهوي معدتي إلى الأرضية الخشبية الصلبة. لقد وضعت حياتي بأكملها في صناديق.

تغمغم ميرا قبل أن تلتفت نحوي، وتمرر نظراتها عليّ في تقييم صريح:

– «إنها فعّالة حد اللعنة، سأعترف لها بذلك. كنت آمل أن أتمكن من إثنائها عن الأمر. لم تُخلقي يومًا لقطاع راكبي التنانين.»

أرفع حاجبي نحوها وأقول:

– «لقد أشرتِ إلى ذلك سلفًا، وبشكل متكرر.»

تجفل قائلة وهي تهبط إلى الأرض لتفرغ محتويات حقيبتها:

– «آسفة.»

أسألها:

– «ماذا تفعلين؟»

تجيبني بنبرة خافتة، فتغص حنجرتي بالحزن:

– «ما فعله بريِنان من أجلي. هل تجيدين استخدام السيف؟»

أهز رأسي نفيًا:

– «ثقيل للغاية. لكنني سريعة جدًا في استخدام الخناجر.»

سريعة بشكل مخيف. سريعة كالبرق. ما أفتقر إليه في القوة، أعوضه في السرعة.

تقول وهي تفرز الأشياء التي أحضرتها، وتناولني حذاءً جديدًا وزيًا أسود اللون:

– «توقعت ذلك. جيد. الآن، اتركي حقيبتكِ واخلعي هذا الحذاء المريع، وارتدي هذه.»

أسألها وأنا أسقط حقيبتي على أي حال:

– «ما خطب حقيبتي؟»

تفتحها على الفور، وتنتزع كل ما حزمته بعناية فائقة، فأصيح:

– «ميرا! لقد استغرقني الأمر الليل بطوله!»

تجيبني بينما تتطاير الكتب لتهبط في محيط الصندوق:

– «أنتِ تحملين أكثر من اللازم، وحذاؤكِ هذا فخ للموت. ستنزلقين من على المتراس الصخري بهذه النعال الملساء. لقد طلبتُ صنع حذاء راكبين بنعل مطاطي خصيصًا لكِ تحسبًا لأي طارئ، وهذا يا عزيزتي ڤيوليت هو أسوأ طارئ ممكن.»

أندفع نحو الكتاب التالي قبل أن تسنح لها فرصة رميه، وبالكاد أتمكن من إنقاذ مجموعتي المفضلة من الخرافات المظلمة، وأصيح:

– «مهلًا، لا يُسمح لي إلا بأخذ ما يمكنني حمله، وأنا أريد هذه الكتب!»

تسألني وعيناها تزدادان قسوة:

– «هل أنتِ مستعدة للموت من أجله؟»

أرد عليها:

– «يمكنني حمله!»

هذا كله خطأ. من المفترض أن أكرس حياتي للكتب، لا أن ألقي بها في الزاوية لتخفيف وزن حقيبتي.

تقول بصرامة:

– «لا. لا يمكنكِ. وزنك بالكاد يعادل ثلاثة أضعاف وزن الحقيبة، والمتراس يبلغ عرضه نحو ثمانية عشر بوصة، ويرتفع مائتي قدم عن الأرض، وفي آخر مرة نظرت فيها إلى السماء، كانت هناك سحب ممطرة تقترب. لن يمنحوكِ تأجيلًا بسبب المطر لمجرد أن الجسر قد يصبح زلقًا قليلًا يا أختي. ستسقطين. ستموتين. والآن، هل ستستمعين إليّ؟ أم أنكِ ستنضمين إلى المرشحين الموتى الآخرين في نداء صباح الغد؟»

لا أثر لأختي الكبرى في راكبة التنانين الماثلة أمامي. هذه المرأة داهية، ماكرة، وفيها مسحة من القسوة. هذه هي المرأة التي نجت من السنوات الثلاث جميعها بندبة واحدة فقط، تلك التي تركها لها تنينها في يوم التصفية.

وتتابع:

– «لأن هذا كل ما ستكونينه. شاهد قبر آخر. اسم آخر يُحفر على الحجر. تخلّصي من الكتب.»

أغمغم وأنا أضم الكتاب إلى صدري:

– «أعطاني أبي هذا الكتاب.»

ربما يكون تصرفي طفوليًا، فما هو إلا مجموعة من القصص التي تحذرنا من غواية السحر، بل وتشيطن التنانين، لكنه كل ما تبقى لي.

تتنهد وتقول:

– «أهو ذلك الكتاب الفلكلوري القديم عن طفيليات الظلام وتنانين الويفرن الخاصة بها؟ ألم تقرئيه ألف مرة بالفعل؟»

أعترف قائلة:

– «ربما أكثر. وهم يُدعون الفينين، وليسوا طفيليات.»

ترد ميرا:

– «أبي واستعاراته. فقط لا تحاولي توجيه قوة سحرية دون أن تكوني راكبة مرتبطة بتنين، وحينها لن تختبئ الوحوش ذات العيون الحمراء تحت سريركِ، في انتظار اختطافكِ على ظهور تنانينهم ذات الساقين لتنضمي إلى جيش الظلام خاصتهم.»

تستخرج آخر كتاب حزمته في حقيبتي وتناولني إياه وتقول:

– «تخلصي من الكتب. أبي لن يستطيع إنقاذكِ. لقد حاول. وأنا حاولت. اتخذي قراركِ يا ڤيوليت. هل ستموتين كنساخة؟ أم ستعيشين كراكبة تنانين؟»

أنظر إلى الكتب بين ذراعيّ وأتخذ قراري:

– «أنتِ مزعجة حد اللعنة.»

أضع كتاب الخرافات في الزاوية، لكنني أحتفظ بالمجلد الآخر بين يدي وأنا أواجه شقيقتي.

تتحداني قائلة:

– «مزعجة حد اللعنة لكنني سأبقيكِ على قيد الحياة. وما الغاية من هذا الكتاب؟»

أناوله إياها وأقول:

– «قتل الناس.»

ترتسم ابتسامة بطيئة على وجهها وتقول:

– «جيد. يمكنكِ الاحتفاظ بهذا. والآن، بدّلي ملابسكِ بينما أرتب أنا بقية هذه الفوضى.»

يقرعِ الجرس عاليًا فوقنا. لم يتبقَّ أمامنا سوى خمس وأربعين دقيقة.

أرتدي ملابسي على عجل، لكن كل شيء يبدو وكأنه يخص شخصًا آخر، رغم أنه مفصل بوضوح على مقاسي. أُستبدلت سترتي بقميص أسود ضيق يغطي ذراعيّ، وسروالي الفضفاض بسروال جلدي يعانق كل انحناءة في جسدي. ثم تشد حبال مشد يشبه السترة فوق القميص.

تشرح قائلة:

– «ليمنع الاحتكاك.»

فأقول:

– «تمامًا كالعتاد الذي يرتديه راكبو التنانين في المعارك.»

يجب أن أعترف، الملابس تبدو مهيبة حقًا، حتى وإن كنت أشعر وكأنني محتالة. يا إلهي، هذا يحدث بالفعل.

ترد ميرا:

– «بالضبط، لأن هذا ما تفعلينه الآن. أنتِ ذاهبة إلى معركة.»

يغطيني مزيج الجلد والنسيج الذي لا أميزه من عظمة الترقوة حتى أسفل خصري بقليل، ملتفًا حول صدري ومتقاطعًا صعودًا فوق كتفيّ. أتحسس بأصابعي الأغماد المخفية المخيطة بشكل قطري على امتداد قفصي الصدري.

تقول ميرا:

– «هذه من أجل خناجركِ.»

أقول وأنا ألتقطها من الكومة الملقاة على الأرض:

– «ليس لدي سوى أربعة.»

ترد:

– «ستكسبين المزيد.»

أُدخل أسلحتي في أغمادها، وكأن ضلوعي ذاتها قد استحالت أسلحة. التصميم عبقري حقًا. فبين ضلوعي والأغماد المثبتة على فخذيّ، يسهل الوصول إلى الشفرات.

بالكاد أتعرف على نفسي في المرآة. أبدو كراكبة تنانين. لكني ما زلت أشعر وكأنني نساخة.

بعد دقائق، أصبح نصف ما حزمته مكدسًا فوق الصناديق. لقد أعادت حزم حقيبتي، متخلصة من كل ما يُعد غير ضروري وتقريبًا كل شيء يحمل قيمة عاطفية، بينما تفيض بالكلمات لتسدي إليّ نصائح حول كيفية النجاة في القطاع. ثم تفاجئني بفعل أكثر شيء عاطفي على الإطلاق – تطلب مني الجلوس بين ركبتيها لتتمكن من تضفير شعري على شكل تاج.

أشعر وكأنني طفلة مجددًا ولست امرأة ناضجة، لكني أذعن لطلبها.

أسألها وأنا أختبر القماش فوق قلبي مباشرة وأخدشه بظفري:

– «ما هذا؟»

تشرح وهي تشد ضفيرتي بقوة مؤلمة ضد فروة رأسي:

– «شيء صممته بنفسي. طلبت تفصيله خصيصًا لكِ، وحِيكت بداخله حراشف تنيني تايرِن، لذا كوني حذرة معه.»

أرجع رأسي للخلف لأنظر إليها مذهولة:

– «حراشف تنين؟ كيف؟ تايرِن ضخم للغاية.»

ترتسم ابتسامة ماكرة على شفتيها وتقول:

– «صادف أنني أعرف راكبًا يمتلك قدرة سحرية تجعل الأشياء الكبيرة صغيرة جدًا. والأشياء الصغيرة... أكبر بكثير.»

أدير عيني بملل. فلطالما كانت ميرا أكثر صراحة وتحدثًا عن رجالها مني... عن علاقاتي المتواضعة. وأسألها:

– «بالمناسبة، إلى أي مدى أكبر؟»

تضحك، ثم تجذب ضفيرتي قائلة:

– «رأسكِ للأمام. كان ينبغي عليكِ قص شعركِ.»

تشد الخصلات بقوة ضد رأسي وتستأنف التضفير:

– «إنه نقطة ضعف في النزالات والمعارك، ناهيك عن كونه هدفًا ضخمًا. لا أحد غيركِ يملك شعرًا يتلاشى إلى اللون الفضي هكذا، وهم سيستهدفونكِ في كل الأحوال.»

أرد عليها:

– «أنتِ تعلمين جيدًا أن الصبغة الطبيعية تبدو وكأنها تتخلى عنه تدريجيًا بغض النظر عن طوله.»

عيناي مترددتان بالقدر ذاته، بلون عسلي فاتح تتخلله درجات متباينة من الأزرق والكهرماني، ولا يبدو أنها تميل لأي لون حقيقي.

وأضيف:

– «علاوة على ذلك، وبغض النظر عن قلق الجميع بشأن لونه، فإن شعري هو الشيء الوحيد السليم تمامًا في جسدي. قصه سيشعرني وكأنني أعاقب جسدي لأنه تمكن أخيرًا من القيام بشيء ما على نحو صحيح، وليس وكأنني أشعر بالحاجة لإخفاء هويتي.»

تجذب ميرا ضفيرتي، مرجعة رأسي للخلف، وتتشابك نظراتنا:

– «أنتِ لستِ كذلك. أنتِ أذكى امرأة أعرفها. لا تنسي ذلك. عقلكِ هو أمضى أسلحتكِ. تفوقي عليهم دهاءً يا ڤيوليت. هل تسمعينني؟»

أومئ برأسي، فترخي قبضتها، ثم تنهي الضفيرة وتوقفني على قدميّ بينما تواصل تلخيص سنوات من المعرفة في خمس عشرة دقيقة محمومة، بالكاد تتوقف لتلتقط أنفاسها:

– «كوني شديدة الملاحظة. الهدوء أمر جيد، لكن تأكدي من ملاحظة كل شيء وكل شخص حولكِ واستغلال ذلك لصالحكِ. لقد قرأتِ الدستور؟»

أجيبها:

– «بضع مرات.»

إن كتاب قواعد قطاع راكبي التنانين لا يتجاوز جزءًا يسيرًا من حجم كتب الأقسام الأخرى. ربما لأن راكبي التنانين يجدون صعوبة في الامتثال للقواعد.

تقول ميرا:

– «جيد. إذًا أنتِ تعلمين أن الراكبين الآخرين يمكنهم قتلكِ في أي وقت، وأن المتدربين المتعطشين للدماء سيحاولون ذلك. فعدد أقل من المتدربين يعني فرصًا أفضل في يوم التصفية. لا يوجد أبدًا عدد كافٍ من التنانين الراغبة في الارتباط، وأي شخص متهور لدرجة تسمح بقتله لا يستحق تنينًا على أي حال.»

أقاطعها:

– «باستثناء أوقات النوم. الهجوم على أي متدرب أثناء نومه يُعد جريمة يعاقب عليها بالإعدام. المادة الثالثة...»

– «أجل، لكن هذا لا يعني أنكِ في مأمن بالليل. نامي بهذه إن استطعتِ.»

وتطرق بأصابعها على منطقة البطن في المشد.

أمرر يديّ على الجلد المتين وأقول:

– «من المفترض أن يُكتسب زي الراكبين الأسود عن جدارة. هل أنتِ متأكدة أنه لا ينبغي لي ارتداء سترتي اليوم؟»

تناولني حقيبتي التي أصبحت الآن أخف وزنًا بكثير وتقول:

– «الرياح العاتية فوق المتراس الصخري ستتلقف أي قطعة قماش فضفاضة كشراع. كلما كانت ملابسك أضيق، كان وضعكِ أفضل هناك، وفي حلبة القتال بمجرد أن تبدئي النزالات. ارتدي الدرع في جميع الأوقات. واحتفظي بخناجركِ معكِ في جميع الأوقات.»

وتشير إلى الأغماد الممتدة على فخذيها.

أردف قائلة:

– «سيقول أحدهم إنني لم أستحقها.»

ترد وكأن هذا الجواب يكفي:

– «أنتِ من آل سورنجيل. فليذهب ما يقولونه إلى الجحيم.»

أسألها:

– «ألا تعتقدين أن استخدام حراشف التنين يُعد غشًا؟»

تجيبني:

– «لا يوجد شيء اسمه غش بمجرد صعودكِ البرج. ليس هناك سوى النجاة أو الموت.»

يقرع الجرس – لم يتبقَّ سوى ثلاثين دقيقة. تبتلع ميرا ريقها وتسأل:

– «لقد حان الوقت تقريبًا. هل أنتِ مستعدة؟»

أجيب:

– «لا.»

ترتفع زاوية فمها بابتسامة ساخرة وتقول:

– «ولا أنا كنت كذلك. وقد أمضيت حياتي أتدرب لأجل هذه اللحظة.»

ألقي بحقيبتي فوق كتفيّ، وأتنفس بسهولة أكبر مما كنت عليه هذا الصباح. لقد باتت أخف وأسهل في الحمل بشكل لا يقارن، وأقول:

– «لن أموت اليوم.»

تخيم سكينة موحشة على ممرات الجزء المركزي الإداري من القلعة ونحن نشق طريقنا هبوطًا عبر سلالم متعددة، بيد أن الضجيج القادم من الخارج يزداد صخبًا كلما نزلنا أكثر. أرى عبر النوافذ آلاف المرشحين يعانقون أحباءهم ويودعونهم في الحقول العشبية القابعة أسفل البوابة الرئيسية مباشرة. ومما شهدتُه عامًا تلو الآخر، تتشبث معظم العائلات بأبنائها المرشحين حتى الرنة الأخيرة للجرس. تكتظ الطرق الأربعة المؤدية إلى القلعة بالخيول والعربات، ولا سيما عند نقطة التقائها أمام الكلية، لكن تلك العربات الفارغة الرابضة عند حافة الحقول هي ما تثير الغثيان في نفسي.

إنها عربات نقل الجثث.

وقبل أن ننعطف حول الزاوية الأخيرة التي ستفضي بنا إلى ساحة الانتظار، تتوقف ميرا فجأة.

– «ما ا. ... أوف.»

تجذبني بقوة إلى صدرها، وتعانقني بشدة في تلك الخلوة النسبية للممر وتقول بصوت يرتجف:

– «أنا أحبكِ يا ڤيوليت. تذكري كل ما قلته لكِ. لا تصبحي مجرد اسم آخر في سجل الموتى.»

ألف ذراعي حولها وأضمها بقوة، وأعدها قائلة:

– «سأكون بخير.»

تومئ برأسها، ويصطدم ذقنها بقمة رأسي:

– «أعلم ذلك. هيا بنا.»

هذا كل ما تقوله قبل أن تبتعد وتمشي نحو الساحة المزدحمة داخل البوابة الرئيسية للقلعة مباشرة. يتجمع المعلمون والقادة، وحتى أمنا، بشكل غير رسمي، في انتظار أن يتحول الجنون خارج الجدران إلى نظام وانضباط في الداخل. من بين جميع أبواب الكلية الحربية، تُعد البوابة الرئيسية هي الباب الوحيد الذي لن يدخله أي متدرب اليوم، حيث إن لكل قطاع مدخله الخاص ومرافقه المستقلة. تبًا، حتى إن لراكبي التنانين قلعتهم الخاصة.

يا لهم من أوغاد مغرورين ومدعين.

أتبع ميرا، وألحق بها ببضع خطوات سريعة. وتقول لي ونحن نعبر الساحة متوجهتين نحو البوابة المفتوحة:

– «ابحثي عن داين آيتوس.»

أردد متعجبة:

– «داين؟»

لم أستطع منع نفسي من الابتسام لمجرد فكرة رؤية داين مرة أخرى، وتتسارع نبضات قلبي. لقد مضى عام كامل، واشتقت لعينيه البنيتين الناعمتين وطريقته في الضحك، وكيف تشاركه كل ذرة في جسده تلك الضحكة. اشتقت لصداقتنا، ولتلك اللحظات التي ظننت فيها أن علاقتنا قد تتطور إلى ما هو أعمق في الظروف المناسبة. اشتقت لطريقته في النظر إليّ، وكأنني شخص يستحق الاهتمام. باختصار... لقد اشتقت إليه.

توبخني ميرا قائلة:

– «لم أغادر القطاع سوى منذ ثلاث سنوات، لكن مما سمعته، إنه يبلي حسنًا، وسيحافظ على سلامتكِ. لا تبتسمي هكذا، سيكون الآن في عامه الثاني.»

تهز إصبعها محذرة إياي:

– «لا تعبثي مع طلاب السنة الثانية. إذا أردتِ ممارسة الجنس، ويجب عليكِ ذلك...» – ترفع حاجبيها وتتابع – «...كثيرًا، نظرًا لأنكِ لا تعرفين أبدًا ما قد يخبئه الغد، فليكن ذلك مع أبناء دفعتكِ. لا شيء أسوأ من ثرثرة المتدربين بأنكِ بعتِ جسدكِ لتأمين حمايتكِ.»

أقول بابتسامة خفيفة:

– «إذًا أنا حرة في أخذ من أشاء من طلاب السنة الأولى إلى السرير، فقط أتجنب طلاب السنتين الثانية والثالثة.»

تغمز لي وتقول:

– «بالضبط.»

نعبر البوابات مغادرتين القلعة، لننضم إلى الفوضى المنظمة في الخارج.

أرسلت كل مقاطعة من مقاطعات نافار الست حصتها من مرشحي الخدمة العسكرية لهذا العام. بعضهم متطوعون. وبعضهم محكوم عليهم كنوع من العقاب. لكن الغالبية العظمى منهم مجندون. القاسم المشترك الوحيد بيننا هنا في باسجيات هو أننا اجتزنا امتحان القبول – بشقيه الكتابي واختبار الرشاقة الذي لا أزال عاجزة عن تصديق أنني نجحت فيه – مما يعني على الأقل أننا لن ننتهي كوقود للمشاة على خط المواجهة.

كان الجو مشحونًا بالترقب بينما تقودني ميرا على طول الممر المرصوف بالحصى المتآكل نحو البرج الجنوبي. بُنيت الكلية الرئيسية في سفح جبل باسجيات، وكأنها نُحتت من خط التلال الجبلي للقمة ذاتها. يشمخ البناء

المترامي الأطراف والمهيب فوق حشود المرشحين القلقين المنتظرين وعائلاتهم الباكية، بأسواره الحجرية التي تعلو لطوابق – شُيدت لحماية الارتفاع الشاهق للقلعة في الداخل – وأبراجه الدفاعية في كل زاوية من زواياه، والتي يضم أحدها الأجراس.

يتجه معظم الحشد للاصطفاف عند قاعدة البرج الشمالي – مدخل قطاع المشاة. ويتوجه جزء من الجموع نحو البوابة خلفنا – قطاع المعالجين الذي يستحوذ على الطرف الجنوبي للكلية. تعتصر الغيرة قلبي حين ألمح قلة من المرشحين يسلكون النفق المركزي المؤدي إلى الأرشيف أسفل القلعة للانضمام إلى قطاع النساخين.

لا يعدو مدخل قطاع راكبي التنانين أن يكون أكثر من باب محصن عند قاعدة البرج، تمامًا كمدخل المشاة في الشمال. ولكن، بينما يمكن لمرشحي المشاة السير مباشرة إلى قطاعهم الواقع في مستوى سطح الأرض، سيتعين علينا نحن مرشحي الركوب، أن نتسلق.

أنضم أنا وميرا إلى طابور راكبي التنانين، منتظرتين التسجيل، وأرتكب خطأ النظر إلى الأعلى.

عاليًا فوقنا، يعبر المتراس الصخري الوادي الذي يجري النهر في قاعه، ليفصل الكلية الرئيسية عن قلعة قطاع راكبي التنانين الأكثر ارتفاعًا وشموخًا على التلال الجنوبية؛ وهو ذلك الجسر الحجري الذي يوشك أن يفصل بين مرشحي الركوب والمتدربين على مدار الساعات القليلة القادمة.

لا أصدق أنني على وشك عبور هذا الشيء.

أقول بنبرة تقطر سخرية:

– «وللتفكير في أنني كنت أستعد لامتحان النساخين الكتابي طوال تلك السنوات، كان الأجدر بي أن ألهو على عارضة توازن.»

تتجاهلني ميرا بينما يتقدم الطابور ويختفي المرشحون عبر الباب وتقول:

– «لا تدعي الرياح تشتت خطواتكِ.»

على بُعد مرشحين اثنين أمامنا، تنتحب امرأة بينما ينتزعها شريكها بعيدًا عن شاب صغير، وينسحب الزوجان من الطابور، متراجعين بدموعهما أسفل التل نحو حشود الأحباء المصطفين على الطرقات. لم يعد هناك أي آباء آخرين أمامنا، فقط بضع عشرات من المرشحين يتقدمون نحو مسؤولي سجلات الحضور.

تتوتر خطوط وجه ميرا وهي تنصحني:

– «أبقي عينيكِ مثبتتين على الحجارة أمامكِ ولا تنظري إلى الأسفل. افردي ذراعيكِ لحفظ توازنكِ. وإذا انزلقت الحقيبة، دعيها تسقط. سقوطها أهون بكثير من سقوطكِ أنتِ.»

أنظر خلفنا، حيث بدا وكأن المئات قد اصطفوا في غضون دقائق معدودة. ويهمس الخوف معتصرًا قلبي:

– «ربما ينبغي لي أن أدعهم يتقدمونني.»

ما الذي أفعله بحق الجحيم؟

تجيب ميرا بحسم مشيرة نحو البرج:

– «لا. كلما طال انتظاركِ على تلك الدرجات، زادت فرصة تنامي خوفكِ. اعبري المتراس قبل أن يتملككِ الرعب.»

يتحرك الطابور، ويقرع الجرس مجددًا. إنها الثامنة تمامًا.

وبالفعل، انقسم حشد الآلاف خلفنا بالكامل إلى القطاعات التي اختاروها، واصطفوا جميعًا لتسجيل أسمائهم وبدء خدمتهم.

تأمرني ميرا بحدة، فألتفت برأسي للأمام فورًا:

– «ركزي. قد يبدو هذا قاسيًا، لكن لا تبحثي عن صداقات هناك يا ڤيوليت. اعقدي التحالفات.»

لم يتبقَّ أمامنا الآن سوى شخصين – امرأة تحمل حقيبة ممتلئة عن آخرها، تذكرني عظام وجنتيها البارزتين ووجهها البيضاوي بصور أماري، ملكة الآلهة. صُفف شعرها البني الداكن في عدة صفوف من الضفائر القصيرة التي تلامس بالكاد بشرة عنقها الداكنة بالقدر ذاته. أما الثاني فهو الرجل الأشقر ذو البنية العضلية الذي كانت تبكي عليه تلك المرأة. وكان يحمل حقيبة ظهر أكبر حجمًا.

أنظر متجاوزةً الزوجين نحو مكتب تسجيل الحضور، فتتسع عيناي وأهمس:

– «هل هو...؟»

تسترق ميرا النظر وتتمتم بلعنة قائلة:

– «من أبناء الانفصاليين؟ أجل. أترين تلك العلامة المتلألئة التي تبدأ من أعلى معصمه؟ إنها وشم خلفه التمرد.»

أرفع حاجبيّ دهشة. فالأوشام الوحيدة التي سمعت عنها هي تلك التي يَسِمُ بها التنين جلد راكبه المرتبط به باستخدام السحر. ولكن تلك الأوشام تُعد رمزًا للشرف والقوة، وغالبًا ما تتخذ شكل التنين الذي منحها. أما هذه العلامات فهي عبارة عن دوامات وندوب تبدو كتحذير أكثر من كونها وسم ملكية.

أهمس متسائلة:

– «أتنين هو من فعل ذلك؟»

تومئ برأسها مجيبة:

- «تقول أمي إن تنين الجنرال ميلغرين فعل ذلك بهم جميعًا عندما أعدم آباءهم، لكنها لم تكن منفتحة على مناقشة الموضوع أكثر من ذلك. لا شيء يردع الآباء عن ارتكاب الخيانة كمعاقبة أبنائهم.»

يبدو الأمر... قاسيًا، لكن القاعدة الأولى للعيش في باسجيات هي ألا تسائل تنينًا أبدًا. فهم يميلون إلى إحراق أي شخص يجدونه وقحًا.

تتابع ميرا:

- «معظم الأبناء الموشومين الذين يحملون آثار التمرد ينحدرون من تايريندور بالطبع، ولكن هناك قلة من مقاطعات أخرى تحول آباؤهم إلى خونة...»

تشحب ألوان وجهها فجأة، وتقبض على أحزمة حقيبتي لتلفني نحوها وتقول:

- «لقد تذكرت للتو.»

ينخفض صوتها، فأنحني نحوها، وقلبي ينتفض جزعًا من نبرتها الملحة:

- «ابتعدي بحق الجحيم عن زايدن ريورسون.»

ينسحب الهواء من رئتيّ. ذلك الاسم...

تؤكد ميرا والخوف يعتري نظراتها:

- «زايدن ريورسون ذاته. إنه في عامه الثالث، وسيقتلكِ في اللحظة التي يكتشف فيها هويتكِ.»

أقول بهدوء:

- «كان والده الخائن الأعظم. هو من قاد التمرد. ما الذي يفعله زايدن هنا؟»

تهمس ميرا ونحن نتقدم بخطوات جانبية مع الطابور:

- «تم تجنيد جميع أبناء القادة كعقاب على جرائم آبائهم. أخبرتني أمي أنهم لم يتوقعوا أبدًا أن ينجح ريورسون في عبور المتراس الصخري. ثم ظنوا أن

أحد المتدربين سيقتله، ولكن بمجرد أن اختاره تنينه...» – تهز رأسها وتتابع – «...حسنًا، لم يعد هناك الكثير لفعله آنذاك. لقد ارتقى إلى رتبة قائد جناح.»

أقول بغضب مكتوم:

– «هذا هراء.»

تستطرد ميرا:

– «لقد أقسم بالولاء لنافار، لكنني لا أعتقد أن هذا سيوقفه فيما يخصكِ أنتِ. بمجرد أن تعبري المتراس – لأنكِ ستعبرينه حتمًا – ابحثي عن داين. سيضعكِ في فرقته، وسنأمل فقط أن يكون ذلك بعيدًا عن ريورسون.» – تُحكم قبضتها على أحزمة حقيبتي أكثر وتؤكد – «ابتعدي. عنه. تمامًا.»

أومئ برأسي وأرد:

– «عُلم.»

ينادي صوت من خلف الطاولة الخشبية التي تحمل سجلات قطاع راكبي التنانين:

– «التالي.»

يجلس الراكب الموشوم الذي لا أعرفه بجوار نساخ أعرفه جيدًا، وترتفع الحاجبان الفضيان لـ النقيب فيتزجيبونز فوق وجهه المجعد وهو يسأل:

– «ڤيوليت سورنجيل؟»

أومئ برأسي، وألتقط الريشة لأوقع اسمي على السطر الفارغ التالي في السجل.

يقول النقيب فيتزجيبونز بصوت خافت:

– «لكنني ظننت أنكِ متجهة إلى قطاع النساخين.»

أحسده على سترته الكريمية اللون، وأعجز عن العثور على الكلمات.

تتكفل ميرا بالرد قائلة:

– «الجنرال سورنجيل اختارت خلاف ذلك.»

يملأ الحزن عيني الرجل العجوز ويقول:

– «يا للأسف. لقد كان مستقبلكِ واعدًا للغاية.»

يقول الراكب الجالس بجوار النقيب فيتزجيبونز:

– «بحق الآلهة، هل أنتِ ميرا سورنجيل؟»

يسقط فكه من الذهول، وأكاد أشم رائحة تقديسه للبطولة من مكاني هذا.

تومئ برأسها مجيبة:

– «أنا هي. وهذه أختي ڤيوليت. ستكون في سنتها الأولى.»

يضحك شخص خلفي بسخرية ويقول:

– «هذا إن نجت من عبور المتراس، فقد تطيح بها الرياح بسهولة.»

يقول الراكب خلف المكتب بانبهار:

– «لقد قاتلتِ في معركة ستريثمور، ومنحوكِ وسام المخلب لتدميركِ تلك المدفعية خلف خطوط العدو.»

فتتوقف الضحكات الساخرة.

تضع ميرا يدها على أسفل ظهري وتقول:

– «كما كنت أقول. هذه أختي، ڤيوليت.»

يومئ النقيب برأسه ويشير إلى الباب المفتوح المؤدي إلى البرج قائلًا:

– «أنتِ تعرفين الطريق.»

يبدو المكان مظلمًا ومشؤومًا بالداخل، وأصارع رغبة جامحة في الهرب بعيدًا.

تؤكد له ميرا وهي تقودني متجاوزتين الطاولة ليتمكن الوغد الساخر خلفي من التوقيع في السجل:

– «أعرف الطريق.»

نتوقف عند المدخل ونلتفت نحو بعضنا البعض. تبتسم ميرا ابتسامة عريضة وتقول:

– «لا تموتي يا ڤيوليت. سأكره أن أصبح طفلة وحيدة.»

تستدير وتمضي مبتعدة، متبخترة بجوار صف المرشحين المحدقين بذهول، بينما تنتشر الأنباء حول هويتها الحقيقية وما أنجزته.

تقول المرأة التي أمامي من داخل البرج مباشرة:

– «من الصعب الارتقاء لمستوى كل هذا.»

أوافقها الرأي وأنا أقبض على أحزمة حقيبتي وأتجه نحو الظلام:

– «بالفعل.»

تتكيف عيناي بسرعة مع الضوء الخافت المتسلل عبر النوافذ المتباعدة بمسافات متساوية على طول الدرج المنحني.

تسألني المرأة وهي تنظر من فوق كتفها بينما نشرع في صعود مئات الدرجات التي تقودنا نحو حتفنا المحتمل:

– «سورنجيل كما في...؟»

أجيبها:

– «أجل.»

لا يوجد درابزين، لذا أبقي يدي ملامسة للجدار الحجري ونحن نصعد أعلى فأعلى.

يسأل الرجل الأشقر أمامنا:

– «الجنرال؟»

أجيبه مانحة إياه ابتسامة سريعة:

– «الجنرال ذاتها.»

أي شخص تتشبث به والدته بهذه القوة لا يمكن أن يكون سيئًا لتلك الدرجة، أليس كذلك؟

يبادلني الابتسامة ويقول:

– «يا للعجب. ملابسكِ الجلدية رائعة أيضًا.»

أرد:

– «شكرًا. إنها هدية من شقيقتي.»

تقول المرأة وهي تلقي نظرة أسفل مركز الدرج بينما نصعد أعلى:

– «أتساءل كم عدد المرشحين الذين سقطوا من حافة هذه الدرجات ولقوا حتفهم قبل أن يصلوا حتى إلى المتراس.»

أميل برأسي عندما تنظر إليّ مرة أخرى وأجيب:

– «اثنان في العام الماضي. حسنًا، ثلاثة إذا حسبتِ الفتاة التي سقط عليها أحد الشبان.»

تتسع عيناها البنيتان ذعرًا، لكنها تلتفت مجددًا وتواصل الصعود لتسأل:

– «كم عدد الدرجات هنا؟»

أجيبها:

– «مائتان وخمسون درجة.»

ونستمر في الصعود بصمت لخمس دقائق أخرى.

تقول بابتسامة مشرقة ونحن نقترب من القمة ويتوقف الطابور عن الحركة:

– «ليس سيئًا للغاية. أنا ريانون ماتياس، بالمناسبة.»

يرد الشاب الأشقر ملوحًا بحماس:

– «وأنا ديلان.»

أرد بابتسامة متوترة، متجاهلة تمامًا نصيحة ميرا السابقة بتجنب الصداقات والاكتفاء بعقد التحالفات:

– «ڤيوليت.»

يعدل ديلان حقيبته على ظهره ويقول:

– «أشعر وكأنني انتظرت هذا اليوم طيلة حياتي. هل تصدقان أننا سنفعل ذلك حقًا؟ إنه حلم يتحقق.»

صحيح. من الطبيعي أن يكون كل مرشح هنا متحمسًا، سواي. فهذا هو القطاع الوحيد في باسجيات الذي لا يقبل المجندين إجباريًا – بل المتطوعين فقط.

تتسع ابتسامة ريانون وتقول:

– «أنا أكاد أطير شوقًا لذلك. أعني، من ذا الذي لا يرغب في امتطاء تنين؟»

أنا. ليس وكأن الأمر لا يبدو ممتعًا من الناحية النظرية. بل هو كذلك. إنها فقط تلك الاحتمالات المروعة للنجاة حتى التخرج هي ما تعكر صفو معدتي.

يسأل ديلان:

– «هل يوافق والداكِ؟ لأن أمي تتوسل إليّ منذ أشهر لأغير رأيي. أظل أخبرها أنني سأحظى بفرص ترقٍّ أفضل كراكب تنانين، لكنها كانت تريدني أن ألتحق بقطاع المعالجين.»

تجيبه ريانون:

– «والداي كانا يعلمان دومًا أنني أريد هذا، لذا كانا داعمين للغاية. إلى جانب ذلك، لديهما شقيقتي التوأم ليدللاها. ف ريغان تعيش حلمها بالفعل، متزوجة وتنتظر مولودًا.»

تسترق ريانون النظر إليّ وتتابع:

– «ماذا عنكِ؟ دعيني أحزر. باسم مثل سورنجيل، أراهن أنكِ كنتِ أول من تطوع هذا العام.»

أجيبها بنبرة أقل حماسًا بكثير:

– «لقد كان تطوعي أشبه بأمر إلزامي.»

– «فهمت قصدكِ.»

أقول لديلان بينما يعاود الطابور التحرك صعودًا:

– «يحصل راكبو التنانين بالفعل على امتيازات أفضل بكثير من الضباط الآخرين.»

يلحق بي المرشح الذي كان يضحك بسخرية خلفي، يتصبب عرقًا ووجهه محتقن بالدماء. انظروا من الذي لا يضحك الآن.

أتابع:

– «أجر أفضل، ومزيد من التساهل مع سياسة الزي الرسمي.»

لا أحد يكترث لما يرتديه الراكبون طالما أنه أسود. القواعد الوحيدة التي تنطبق على الراكبين هي تلك التي حفظتها عن ظهر قلب من الدستور.

تضيف ريانون:

– «والحق في أن تصف نفسك بأنك بطل لا يُشق له غبار.»

أوافقها الرأي:

– «ذلك أيضًا. أنا شبه متأكدة من أنهم يوزعون جرعة من الغرور مع الملابس الجلدية الخاصة بالطيران.»

يضيف ديلان:

– «علاوة على ذلك، سمعت أنه يُسمح لراكبي التنانين بالزواج في وقت أبكر من القطاعات الأخرى.»

أعقب:

– «هذا صحيح. فور التخرج.» – *هذا إن نجونا.* – «أعتقد أن للأمر علاقة بالرغبة في استمرار السلالات.» فمعظم الراكبين الناجحين يتوارثون ذلك المجد أبًا عن جد.

تتأمل ريانون قائلة:

– «أو لأننا نميل للموت في وقت أبكر من بقية القطاعات.»

يقول ديلان بثقة تفوق ما أشعر به، وهو يسحب قلادة من تحت سترته ليكشف عن خاتم يتدلى من السلسلة:

– «أنا لن أموت. لقد قالت إنه سيكون من سوء الطالع أن أتقدم لخطبتها قبل رحيلي، لذا سننتظر حتى التخرج.»

يُقبل الخاتم ويعيد إخفاء السلسلة تحت ياقته ويضيف:

– «ستكون السنوات الثلاث القادمة طويلة، لكنها ستستحق العناء.»

أكتم تنهيدتي في صدري، رغم أن هذا ربما يكون أكثر شيء رومانسي سمعته في حياتي.

يسخر الشاب خلفنا قائلًا:

– «قد تنجحون في عبور المتراس، أما هذه هنا، فبينها وبين قاع الوادي نسمة هواء واحدة.»

أدير عيني بملل، لتزجره ريانون بحزم بينما تنقر أقدامها على الحجر ونحن نصعد:

– «اخرس وركز على نفسك.»

تلوح القمة في الأفق، والمدخل يفيض بضوء مضطرب. لقد كانت ميرا محقة. تلك السحب ستعيث فينا فسادًا، ويجب أن نكون على الجانب الآخر من المتراس قبل أن تفعل. خطوة أخرى، ونقرة أخرى من حذاء ريانون.

أقول بهدوء حتى لا يسمعني الوغد خلفي:

– «دعيني أرى حذاءكِ.»

تتجعد جبهتها، ويملأ الارتباك عينيها البنيتين، لكنها تريني نعليهما. كانا أملسين، تمامًا كاللذين كنت أرتديهما في وقت سابق. تهوي معدتي كصخرة.

يبدأ الطابور في التحرك مجددًا، ليتوقف عندما نصبح على بُعد أقدام قليلة من الفتحة. أسألها:

– «ما مقاس قدميكِ؟»

تطرف ريانون بعينيها غير مستوعبة:

– «ماذا؟»

– «قدماكِ. ما مقاسهما؟»

تجيبني وقد تشكل خطان بين حاجبيها:

– «ثمانية.»

أقول بسرعة:

– «أنا مقاسي سبعة. سيؤلمكِ بشدة، لكنني أريدكِ أن تأخذي حذائي الأيسر. بادليني إياه.»

فأنا أخفي خنجرًا في الحذاء الأيمن.

تسألني وهي تنظر إليّ وكأنني فقدت عقلي – وربما أكون قد فعلت حقًا –:

– «عفوًا؟»

أشرح لها قائلة:

– «هذا حذاء راكبي التنانين. سيتشبث بالحجر بشكل أفضل. ستنحشر أصابع قدميكِ وستكونين بائسة بشكل عام، لكن على الأقل ستكون لديكِ فرصة لعدم السقوط إذا هطل المطر.»

تنظر ريانون نحو الباب المفتوح – والسماء التي تزداد قتامة – ثم تنظر إليّ وتقول:

– «هل أنتِ مستعدة للتخلي عن فردة حذاء؟»

أجيبها وأنا أنظر من خلال الباب المفتوح. كان ثلاثة مرشحين يسيرون بالفعل عبر المتراس الصخري، بأذرع ممدودة على اتساعها:

– «فقط حتى نصل إلى الجانب الآخر. ولكن يجب أن نسرع. لقد حان دورنا تقريبًا.»

تزم ريانون شفتيها في حيرة لثانية، ثم توافق، ونتبادل حذائينا اليساريين. بالكاد أنهي ربط الأربطة قبل أن يتحرك الطابور مجددًا، ويدفعني الشاب خلفي في أسفل ظهري، مما يجعلني أترنح لأخرج إلى المنصة وفي الهواء الطلق.

يقول بصوته الذي يثير حنقي لدرجة تستفز آخر أعصابي:

– «هيا تقدمي. بعضنا لديه أمور ليقوم بها على الجانب الآخر.»

أتمتم وأنا أستعيد توازني بينما تجلد الرياح بشرتي، في صباح منتصف الصيف المشبع بالرطوبة:

– «أنت لا تستحق العناء الآن.»

كان قرار الضفيرة صائبًا يا ميرا.

قمة البرج مكشوفة، والشرفات الحجرية ترتفع وتنخفض على طول الهيكل الدائري عند مستوى صدري، دون أن تحجب المشهد المروع على الإطلاق. بدا الوادي بنهره في الأسفل فجأة بعيدًا، بعيدًا جدًا. كم عدد العربات التي تنتظر هناك في الأسفل؟ خمس؟ ست؟ أعرف الإحصائيات جيدًا. يلتهم المتراس الصخري ما يقرب من خمسة عشر بالمائة من مرشحي الركوب. صُمم كل اختبار في القطاع – بما في ذلك هذا الاختبار – لقياس قدرة المتدرب على الركوب. فإذا لم يتمكن أحدهم من المشي على امتداد الجسر الحجري النحيف والرياح تعصف به، فمن المؤكد أنه لن يتمكن من الحفاظ على توازنه والقتال على ظهر تنين.

وماذا عن معدل الوفيات؟ أظن أن كل راكب آخر يعتقد أن المجد يستحق المخاطرة – أو ربما يملك من الغطرسة ما يجعله يظن أنه لن يسقط. أما أنا، فلست من هؤلاء ولا أولئك.

يدفعني الغثيان للإمساك بمعدتي، وأبدأ بالشهيق من أنفي والزفير من فمي وأنا أمشي على الحافة خلف ريانون وديلان، وتلامس أصابعي الحجارة بينما نشق طريقنا نحو المتراس.

ينتظر ثلاثة راكبين عند المدخل، الذي لا يعدو كونه فجوة مفتوحة في جدار البرج. يقوم أحدهم، بأكمام ممزقة، بتسجيل الأسماء بينما يخطو المرشحون نحو المعبر الغادر. بينما يقوم آخر، حلق شعره بالكامل باستثناء شريط في منتصف رأسه، بتوجيه ديلان أثناء اتخاذه موقعه، ويربت ديلان على صدره وكأن الخاتم المخبأ هناك سيجلب له الحظ. أتمنى أن يفعل.

يلتفت الثالث في اتجاهي، وبكل بساطة... يتوقف قلبي عن الخفقان.

إنه طويل القامة، بشعر أسود تعبث به الرياح وحاجبين داكنين. خط فكه حاد وقوي، تكسوه بشرة حنطية دافئة ولحية خفيفة داكنة، وعندما يطوي ذراعيه على صدره، تتموج العضلات في صدره وذراعيه، وتتحرك بطريقة تجعلني أبتلع ريقي بصعوبة. أما عيناه... عيناه بلون العقيق الأسود الموشح ببريق ذهبي. التناقض كان مذهلًا، يخطف الأنفاس حقًا – بل إن كل شيء فيه كان كذلك. ملامحه قاسية للغاية وكأنها منحوتة من الصخر، ومع ذلك فهي مثالية بشكل يثير الدهشة، وكأن فنانًا قضى عمره بأسره في نحته، وكرّس عامًا كاملًا من ذلك العمر لنحت فمه فقط.

إنه أوسم وأبهى رجل رأته عيناي على الإطلاق.

والعيش في الكلية الحربية يعني أنني رأيت الكثير من الرجال.

حتى تلك الندبة المائلة التي تشطر حاجبه الأيسر وتسم الزاوية العلوية من وجنته لا تزيده إلا جاذبية. جاذبية ملتهبة. جاذبية حارقة. جاذبية من النوع الذي يوقعكِ في المتاعب وتستمتعين بذلك. فجأة، لم أعد أتذكر بالضبط لماذا حذرتني ميرا من العبث مع شباب من خارج دفعتي.

يقول ديلان مبتسمًا بحماس وهو يلتفت من فوق كتفه قبل أن يخطو على المتراس فارشًا ذراعيه:

– «أراكما على الجانب الآخر!»

يسأل الراكب ذو الأكمام الممزقة:

– «هل أنت مستعد للتالي يا ريورسون؟»

زايدن ريورسون؟

تسألني ريانون وهي تتقدم للأمام:

– «مستعدة لهذا يا سورنجيل؟»

يصوّب الراكب ذو الشعر الأسود نظراته نحوي، ويلتفت بجسده كاملًا تجاهي، فيقرِع قلبي كالرعد لكل الأسباب الخاطئة. يبدأ وشم تمرد، يلتوي في منحنيات ودوامات، من معصمه الأيسر المكشوف، ثم يختفي تحت زيه الأسود ليظهر مجددًا عند ياقته، حيث يتمدد ويلتف صعودًا على عنقه، ليتوقف عند خط فكه.

أهمس:

– «يا للهول.»

فتضيق عيناه، وكأنه استطاع سماعي رغم عواء الرياح التي تفتك بضفيرتي المحكمة.

يخطو نحوي وهو يسأل:

– «سورنجيل؟»

وأنظر أنا إلى الأعلى... وإلى الأعلى.

يا للآلهة، أنا لا أصل حتى إلى عظمة ترقوته. إنه ضخم الجثة. لابد أن طوله يتجاوز الستة أقدام بأربع بوصات على الأقل.

أشعر تمامًا بما نعتتني به ميرا – بالهشاشة – لكنني أومئ برأسي مرة واحدة، فيتحول بريق العقيق في عينيه إلى كراهية باردة، كراهية خالصة لا تشوبها شائبة. أكاد أتذوق طعم المقت المنبعث منه كعطر مرير.

تسأل ريانون وهي تتقدم:

– «ڤيوليت؟»

يقول بصوت عميق يحمل نبرة اتهام:

– «أنتِ الابنة الصغرى للجنرال سورنجيل.»

أرد عليه بيقين هذا الاكتشاف الذي تغلغل في عظامي:

– «وأنت ابن فين ريورسون.»

أرفع ذقني وأبذل قصارى جهدي لتجميد كل عضلة في جسدي حتى لا أبدأ في الارتجاف.

سيقتلكِ في اللحظة التي يكتشف فيها هويتكِ. تتردد كلمات ميرا في جمجمتي، ويعقد الخوف حنجرتي. سيلقي بي من على الحافة. سيحملني ويرميني من هذا البرج مباشرة. لن أحظى حتى بفرصة المشي على المتراس الصخري. سأموت وأنا أجسد تمامًا ما لطالما حاولت أمي التلميح به – الضعف.

يأخذ زايدن نفسًا عميقًا، وتنقبض عضلة فكه مرة. مرتين، ويقول:

– «أمسكت أمكِ بأبي وأشرفت على إعدامه.»

مهلًا. هل يظن أنه الوحيد الذي يملك الحق في الكراهية هنا؟

يسري الغضب في عروقي كالنار وأرد:

– «ووالدك قتل أخي الأكبر. يبدو أننا متعادلان.»

يجيبني:

– «بالكاد.»

تمسح نظراته الحادة جسدي وكأنه يحفظ كل تفصيلة فيه أو يبحث عن أي نقطة ضعف، ويضيف:

– «شقيقتكِ راكبة تنانين. أظن أن هذا يفسر هذه الملابس الجلدية.»

فأرد:

– «أظن ذلك.»

أبادله تحديقته الغاضبة، وكأن الفوز في مسابقة التحديق هذه سيضمن لي الدخول إلى القطاع بدلًا من عبور المتراس الصخري خلفه. وفي كلتا الحالتين، أنا سأعبر. لن تفقد ميرا كلا شقيقيها.

تُقبض يداه وتتصلبان، ويشتد توتره.

أستعد لتلقي الضربة. قد يلقي بي من هذا البرج، لكنني لن أجعل الأمر سهلًا عليه.

تسأل ريانون ونظراتها تنتقل بيني وبين زايدن:

– «هل أنتِ بخير؟»

يسترق زايدن النظر إليها ويسأل:

– «هل أنتما صديقتان؟»

تجيبه رافعة كتفيها بثبات:

– «التقينا على السلالم.»

ينظر إلى الأسفل، ويلاحظ حذاءينا غير المتطابقين، فيرفع حاجبًا واحدًا. ترتخي يداه ويقول:

– «مثير للاهتمام.»

أرفع ذقني بوصة أخرى وأسأله:

– «هل ستقتلني؟»

تشتبك نظراته بنظراتي بينما تنشق السماء ويهطل المطر كطوفان، ليغرق شعري، وملابسي الجلدية، والحجارة من حولنا في غضون ثوانٍ.

تمزق صرخة مدوية سكون الهواء، فننتفض أنا وريانون ونوجه أنظارنا نحو المتراس الصخري، لنرى ديلان وهو ينزلق.

أشهق برعب، ويقفز قلبي إلى حنجرتي.

يتمكن ديلان من التشبث، معلقًا ذراعيه فوق الجسر الحجري بينما ترفس قدماه في الهواء تحته، باحثة بيأس عن موطئ قدم لا وجود له.

تصرخ ريانون:

– «اسحب نفسك لأعلى يا ديلان!»

أهتف ويدي تطير لتغطي فمي:

– «يا إلهي!»

لكنه يفقد قبضته على الحجر المنزلق بفعل الماء ويسقط، متواريًا عن الأنظار. تبتلع الرياح والأمطار أي صوت قد يصدره ارتطام جسده بقاع الوادي في الأسفل. كما ابتلعت صوت صرختي المكتومة.

لم يحِد زايدن بنظره عني ولو للحظة، يراقبني بصمت بنظرة عجزت عن تفسيرها وأنا أعيد نظرتي المذعورة لتلتقي بعينيه.

ترتسم ابتسامة خبيثة على شفتيه ويقول:

– «ولماذا أهدر طاقتي في قتلكِ، ما دام المتراس سيتكفل بالأمر نيابة عني؟ دوركِ الآن.»

«هناك مفهوم خاطئ سائد بأن الأمر في قطاع راكبي التنانين إما أن تقتل أو تُقتل. فالراكبون، كقاعدة عامة، لا يسعون لاغتيال المتدربين الآخرين... ما لم يكن هناك نقص في التنانين في ذلك العام، أو إذا كان المتدرب يمثل عبئًا يهدد سلامة الجناح الذي ينتمي إليه. وحينها قد تأخذ الأمور منحى... مثيرًا للاهتمام.»

– دليل الرائد أفيندرا لقطاع راكبي التنانين

(النسخة غير المصرح بها)



الفصل الثاني

لن أموت اليوم.

تستحيل تلك الكلمات تعويذة أرددها في عقلي، بينما تملي ريانون اسمها على الراكب الذي يسجل الحضور عند مدخل المتراس. الكراهية في تحديقة زايدن تلفح وجهي كوهج نار ملتهبة، وحتى المطر الذي يجلد بشرتي مع كل هبة ريح، لا يخفف من حدة ذلك الوهج – أو من قشعريرة الفزعِ التي تسري في أوصالي.

لقد مات ديلان. لم يعد سوى اسم، مجرد شاهد قبر آخر سينضم قريبًا إلى المقابر الممتدة على طول الطرق المؤدية إلى باسجيات، تحذير آخر للمرشحين الطموحين الذين يفضلون المخاطرة بحياتهم مع راكبي التنانين على اختيار الأمان

الذي يوفره أي قطاع آخر. الآن أدركت المغزى من تحذير ميرا لي بعدم تكوين صداقات.

تتشبث ريانون بجانبي الفتحة في البرج، ثم تلتفت إليّ من فوق كتفها وتصرخ بصوت يعلو فوق ضجيج العاصفة:

– «سأنتظركِ على الجانب الآخر.»

كان الخوف في عينيها مرآة تعكس ما يعتمل في داخلي.

أومئ برأسي، بل وأجبر نفسي على رسم شبح ابتسامة، وأرد عليها:

– «سأراكِ على الجانب الآخر.»

تخطو على المتراس وتبدأ في السير، ورغم يقيني بأن يدي إله الحظ، زينال، مثقلتان اليوم، إلا أنني أرفع صلاة صامتة إليه.

يسأل الراكب عند الحافة:

– «الاسم؟»

بينما يحمل شريكه عباءة فوق السجل في محاولة يائسة لحماية الورق من البلل.

أجيب، بينما يشق صوت الرعد عنان السماء فوقي، ليمنحني شعورًا غريبًا بالطمأنينة:

– «ڤيوليت سورنجيل.»

لطالما عشقت تلك الليالي التي تضرب فيها العواصف نوافذ القلعة، فتلقي بظلالها الراقصة على الكتب التي أتكور حولها، وإن كانت هذه العاصفة الهوجاء قد تكلفني حياتي. بنظرة خاطفة، أرى اسمي ديلان وريانون وقد بدأ حبرهما يتلاشى عند الأطراف بفعل الماء. إنها المرة الأخيرة التي سيُكتب فيها اسم ديلان في أي مكان باستثناء شاهد قبره. ستكون هناك قائمة أخرى في نهاية المتراس

حتى يحصل الناسخون على إحصائياتهم المحببة للضحايا. في حياة أخرى، كنت سأكون أنا من يقرأ ويسجل تلك البيانات للتحليل التاريخي.

يرفع الراكب رأسه، وحاجباه يعلوان في دهشة:

– «سورنجيل؟ كما في الجنرال سورنجيل؟»

أردف قائلة:

– «نعم، هي ذاتها.»

تبًا، لقد سئمت هذا بالفعل، وأعلم أن الأمر سيزداد سوءًا. لا مفر من المقارنة بأمي، ليس وهي القائدة هنا. والأسوأ من ذلك، أنهم ربما يظنون أنني راكبة تنانين موهوبة بالفطرة مثل ميرا، أو خبيرة استراتيجية بارعة كما كان بريّنان. أو أنهم سيختلسون نظرة واحدة إليّ، ويدركون أنني لا أمت لأي منهم بصلة، ويعلنون فتح موسم صيدي.

أضع يديّ على جانبي البرج وأمرر أطراف أصابعي على الحجر. لا يزال يحتفظ ببعض دفء شمس الصباح لكنه يبرد بسرعة بفعل المطر، أملس لكنه ليس زلقًا بفعل الطحالب أو ما شابه.

أمامي، تشق ريانون طريقها عبر المتراس، وقد بسطت ذراعيها لحفظ توازنها. من المحتمل أنها قطعت ربع المسافة، فخيالها يزداد ضبابية كلما توغلت أكثر في المطر.

يسأل الراكب الآخر، وهو يميل العباءة بينما تضربنا هبة ريح أخرى:

– «ظننت أن لديها ابنة واحدة فقط؟»

إذا كانت الرياح بهذه القوة هنا، ونصف جسدي السفلي محمي بالبرج، فإنني مقبلة على جحيم من العذاب على المتراس.

أجيبه قائلة:

– «كثيرًا ما أسمع هذا.»

أستنشق الهواء من أنفي وأزفره من فمي، أجبر أنفاسي على الهدوء، وقلبي على إبطاء خفقانه المتسارع. إذا استسلمت للذعر، سأموت. إذا انزلقت قدمي، سأموت. إذا... تباً لكل شيء. ليس بوسعي فعل المزيد للاستعداد لهذا.

أخطو الخطوة الوحيدة صعودًا إلى المتراس وأتشبث بالجدار الحجري بينما تضربني هبة أخرى، وتدفعني جانبًا نحو الفتحة في البرج.

يسخر المرشح الوغد خلفي:

– «وتظنين أنكِ ستتمكنين من امتطاء تنين؟ يا لها من سورنجيل عظيمة بهذا التوازن المضحك. أرثي لحال الجناح الذي سينتهي بكِ المطاف فيه.»

أستعيد توازني وأشد أحزمة حقيبتي بقوة أكبر.

يسأل الراكب مجددًا، لكنني أعلم أنه لا يقصدني:

– «الاسم؟»

يجيب الذي يقف خلفي بصوت تفوح منه رائحة الغطرسة:

– «جاك بارلو. تذكر هذا الاسم جيدًا. سأكون قائد جناح يومًا ما.»

يأمرني صوت زايدن العميق:

– «من الأفضل أن تمضي في طريقكِ يا سورنجيل.»

أنظر من فوق كتفي وأجده يرمقني بنظرة غاضبة تثبتني في مكاني.

يندفع جاك للأمام، رافعًا يديه ويقول:

– «إلا إذا كنتِ بحاجة إلى القليل من التحفيز؟»

يا إلهي، إنه سيقوم بدفعي.

يسري الخوف في عروقي كالنار، فأتحرك، متخلية عن أمان البرج لأندفع نحو المتراس. لا مجال للتراجع الآن.

يخفق قلبي بقوة حتى أنني أسمع دويه في أذنيّ كالطبل.

أبقي عينيكِ مثبتتين على الحجارة أمامكِ ولا تنظري إلى الأسفل. تتردد نصيحة ميرا في عقلي، ولكن من الصعب الالتزام بها عندما تكون كل خطوة قد تكون الأخيرة. أطوح ذراعيّ للحفاظ على توازني، ثم أخطو خطوات صغيرة ومحسوبة كما تدربت مع الرائد غيلستيد في ساحة التدريب. لكن مع الرياح والمطر والسقوط الذي يبلغ مائتي قدم، فإن هذا لا يشبه التدريب في شيء. الحجارة تحت قدمي غير مستوية في بعض الأماكن، مثبتة بملاط في الفواصل يسهل التعثر بها، لذا أركز على المسار أمامي لأبعد عيني عن حذائي. عضلاتي مشدودة بينما أثبت مركز ثقلي، محتفظة بوقفتي المنتصبة.

يدور رأسي بينما يحلق نبضي عاليًا.

الهدوء. يجب أن أبقى هادئة.

لا يمكنني الغناء أو حتى الدندنة بشكل مقبول، لذا فإن فكرة الغناء للتشتيت مستبعدة، لكنني باحثة. لا يوجد مكان يبعث على الهدوء كالأرشيف، لذا أفكر فيه. الحقائق. المنطق. التاريخ.

عقلك يعرف الإجابة سلفًا، فاهدئي ودعيه يتذكر.

هذا ما كان يخبرني به أبي دومًا. أحتاج لشيء يمنع الجانب المنطقي من عقلي من الالتفاف والعودة أدراجه مباشرة إلى البرج.

أبدأ بالسرد، مستخدمة البيانات الأساسية البسيطة التي غُرست في ذهني لتسهيل تذكرها استعدادًا لاختبار النساخين:

– «القارة موطن لمملكتين – ونحن في حالة حرب منذ أربعمائة عام.»

أشق طريقي عبر المتراس خطوة بخطوة. وأتابع:

– «مملكة نافار، وطني، هي الأكبر، وتتألف من ست مقاطعات فريدة. مقاطعة تايريندور، وهي مقاطعتنا الجنوبية الكبرى، تشترك في حدودها مع مقاطعة كروفلا داخل مملكة بوروميل.»

كل كلمة تريح أنفاسي وتثبت نبضات قلبي، وتقلل من حدة الدوار. وأستطرد:

– «إلى شرقنا تقع مقاطعتا برايفيك وسجنيسن المتبقيتان من بوروميل، حيث تشكل جبال إسبن حدودًا طبيعية.»

أتجاوز الخط المرسوم الذي يحدد منتصف المسافة. أنا الآن في أعلى نقطة، لكن لا يمكنني التفكير في ذلك. لا تنظري إلى الأسفل. وأكمل:

– «خلف كروفلا، خلف عدونا، تقع الأراضي القاحلة النائية، صحراء...»

يشق الرعد السماء، وتصطدم بي الرياح العاتية، فألوح بذراعيّ بغير انتظام. وأصرخ:

– «تبًا!»

يترنح جسدي يسارًا مع العاصفة، فأنخفض على المتراس الصخري، متشبثة بحوافه ومتقوقعة حتى لا أفقد موطئ قدمي، جاعلة نفسي صغيرة قدر الإمكان بينما تعوي الرياح حولي ومن فوقي. تضطرب معدتي، وأشعر وكأن رئتيّ توشكان على اللهث المرضي المفرط بينما يعتصرني الذعر كسكين حاد.

أصرخ في وجه الرياح العاوية، مجبرة عقلي على الاستمرار في العمل ضد التهديد الحقيقي والمشل للقلق:

– «داخل مملكة نافار، كانت تايريندور آخر المقاطعات الحدودية انضمامًا إلى التحالف، حيث أقسمت بالولاء للملك ريجينالد.»

وأتابع:

– «كما أنها كانت المقاطعة الوحيدة التي حاولت الانفصال بعد ستمائة وسبعة وعشرين عامًا، وهو ما كان ليترك مملكتنا بلا دفاعات بمرور الوقت لو كُتب لخطتهم النجاح.»

لا تزال ريانون تسبقني، أظنها بلغت ثلاثة أرباع المسافة. جيد. إنها تستحق النجاة.

أستطرد:

– «تتألف مملكة بوروميل في مجملها من سهول صالحة للزراعة ومستنقعات، وتشتهر بمنسوجاتها الاستثنائية، وحقول الحبوب الممتدة بلا نهاية، وأحجارها الكريمة البلورية الفريدة التي تملك القدرة على تضخيم السحر البسيط.»

أسترق نظرة سريعة إلى السحب الداكنة فوقي قبل أن أتقدم ببطء، واضعة قدمًا أمام الأخرى بحذر شديد.

– «في المقابل، تجود المناطق الجبلية في نافار بوفرة من المعادن، والأخشاب الصلبة من مقاطعاتنا الشرقية، وأعداد لا حصر لها من الغزلان والأيائل.»

تطيح خطوتي التالية ببعض قطع الملاط، فأتوقف بينما تترنح ذراعاي حتى أستعيد توازني. أبتلع ريقي وأختبر ثباتي قبل أن أتحرك مجددًا وأكمل:

– «تضمن اتفاقية ريسون التجارية، الموقعة قبل أكثر من مائتي عام، تبادل اللحوم والأخشاب من نافار مقابل الأقمشة والمحاصيل الزراعية من بوروميل أربع مرات سنويًا في نقطة آثبين الأمامية على الحدود بين كروفلا وتايريندور.»

يمكنني رؤية قطاع راكبي التنانين من مكاني هذا. ترتفع القواعد الحجرية الهائلة للقلعة على الجبل لتصل إلى قاعدة المبنى، حيث أعلم أن هذا المسار

ينتهي إذا تمكنت فقط من الوصول إلى هناك. أمسح مياه المطر عن وجهي بالجلد الذي يغطي كتفي، وأختلس نظرة إلى الخلف لأرى موقع جاك.

لقد توقف بعد تجاوز ربع المسافة بقليل، يقف ببدانته المكتنزة ثابتًا كالصخر... وكأنه ينتظر شيئًا ما. يداه تتدليان بجانبيه. ويبدو أن الرياح لا تؤثر على توازنه إطلاقًا، يا له من وغد محظوظ. أقسم أنني ألمح ابتسامة ساخرة ترتسم على وجهه رغم المسافة الفاصلة بيننا، ولكن لعلها مجرد قطرات المطر تداعب عيني.

لا يمكنني البقاء هنا. فالبقاء على قيد الحياة لرؤية شروق الشمس يتطلب مني الاستمرار في الحركة. لا يجب أن أدع الخوف يسيطر على جسدي. أقبض عضلات ساقيّ معًا للحفاظ على توازني، وأفلت ببطء قبضتي عن الحجر تحتي لأقف منتصبة.

الذراعان ممدودتان. امشِ.

عليّ أن أقطع أطول مسافة ممكنة قبل أن تهاجمني العاصفة التالية.

ألتفت خلفي لأرى أين يقف جاك، فيتجمد الدم في عروقي.

لقد أدار ظهره لي ويواجه المرشح التالي، الذي كان يترنح بشكل خطير مع كل خطوة يقترب بها. يقبض جاك على الصبي النحيل من أحزمة حقيبته المحشوة عن آخرها، وأنا أراقب، وقد أصابتني الصدمة بشلل تام، بينما يلقي جاك بالمرشح الهزيل من على المتراس الصخري وكأنه كيس من الحبوب.

يخترق صراخ مريع أذني للحظة قبل أن يتلاشى وهو يهوي بعيدًا عن الأنظار.

يا إلهي.

يزمجر جاك بصوت جهوري:

- «دوركِ هو التالي يا سورنجيل!»

أنتزع نظري من الوادي لأجده يشير إليّ، وابتسامة شريرة ترتسم على فمه. ثم يندفع نحوي، وتلتهم خطواته الواسعة المسافة بيننا بسرعة مرعبة.

تحركي. الآن.

أبدأ بالسرد من جديد، وخطواتي منتظمة لكنها مذعورة على المسار الزلق الضيق، وتنزلق قدمي اليسرى قليلًا في بداية كل خطوة:

– «تمتد مقاطعة تايريندور في الجنوب الغربي من القارة، وتتألف من تضاريس جبلية قاسية، ويحدها بحر الزمرد من الغرب، والمحيط الأركتيلي من الجنوب، مما يجعلها شبه منيعة. ورغم انفصالها الجغرافي بواسطة منحدرات درالور، وهي حاجز حماية طبيعي...»

تضربني عاصفة أخرى، وتنزلق قدمي من على المتراس الصخري. ينتفض قلبي. يندفع المتراس ليلقاني بينما أتعثر وأسقط. ترتطم ركبتي بالحجر، فأطلق صرخة ألم من اللدغة الحادة. تتخبط يداي بحثًا عن أي شيء أتشبث به بينما تتدلى ساقي اليسرى من على حافة هذا الجسر الملعون، وجاك يقترب مني بسرعة. ثم أرتكب الخطأ القاتل وألقي نظرة إلى الأسفل.

تتساقط المياه من أنفي وذقني، وتتناثر على الحجر قبل أن تهوي لتنضم إلى النهر المتدفق عبر الوادي على عمق يزيد عن مائتي قدم. أبتلع الغصة التي تتضخم في حلقي وأطرف بعينيّ، أقاوم لاستعادة انتظام نبضات قلبي.

لن أموت اليوم.

أتشبث بجوانب الحجر، وأسند أكبر قدر ممكن من وزني على الحجارة الملساء آمِلةً أن تصمد، وأتأرجح بساقي اليسرى لأعلى. تجد مقدمة قدمي ممشى الجسر. من هنا، لا توجد حقائق كافية في العالم لتثبيت أفكاري. أحتاج لوضع

قدمي اليمنى تحتي، فهي تتمتع بثبات أفضل، لكن حركة واحدة خاطئة وسأكتشف مدى برودة ذلك النهر في الأسفل.

ستموتين لحظة الارتطام.

أسمع صوته من خلفي:

– «أنا قادم من أجلك يا سورنجيل!»

أدفع نفسي عن الحجر وأدعو الله أن يجد حذائي المسار بينما أنهض واقفة. إذا سقطت، فليكن، سيكون ذلك خطئي. لكنني لن أسمح لهذا الوغد بقتلي. من الأفضل الوصول إلى الجانب الآخر، حيث ينتظر بقية القتلة. ليس وكأن الجميع في القطاع سيحاولون قتلي، فقط المتدربون الذين يعتقدون أنني سأكون عبئًا على الجناح. هناك سبب يجعلهم يقدسون القوة بين راكبي التنانين. فالفصيل، أو القسم، أو الجناح لا يكون فعالًا إلا بقدر قوة أضعف حلقة فيه، وإذا انكسرت تلك الحلقة، فإنها تعرض الجميع للخطر.

وجاك إما يعتقد أنني تلك الحلقة الضعيفة أو أنه مجرد وغد مختل يستمتع بالقتل. وربما الاثنان معًا. في كلتا الحالتين، أحتاج للتحرك بشكل أسرع.

أفرد ذراعيّ إلى الجانب، وأركز نظري على نهاية المسار، على ساحة القلعة، حيث تخطو ريانون إلى بر الأمان، وأسرع الخطى رغم المطر. أبقي جسدي مشدودًا، ومركزي ثابتًا، وللمرة الأولى في حياتي أكون ممتنة لكوني أقصر من معظم الناس.

يسخر جاك بصوت عالٍ، لكن صوته أصبح أقرب. إنه يضيق الخناق عليّ:

– «هل ستصرخين طوال طريق سقوطكِ للأسفل؟»

لا مجال للخوف، لذا أستبعده، وأتخيل أنني أحبس هذا الشعور خلف قضبان حديدية موصدة في عقلي. يمكنني الآن رؤية نهاية المتراس، والراكبين الذين ينتظرون عند مدخل القلعة.

يصيح جاك، وقد أصبح صوته أكثر وضوحًا، لكنني لا أخاطر بفقدان سرعتي للتحقق من مدى قربه مني:

- «من المستحيل أن يجتاز شخص لا يقوى حتى على حمل حقيبة ظهر كاملة امتحان القبول. أنتِ مجرد خطأ يا سورنجيل. من الأفضل حقًا أن أقضي عليكِ الآن، ألا تعتقدين ذلك؟ إنه أكثر رحمة بكثير من ترك التنانين تلتهمكِ. سيبدؤون في نهشكِ ساقًا بساق وأنتِ ما زلتِ على قيد الحياة.»

يتابع بنبرة متملقة:

- «هيا، سيكون من دواعي سروري مساعدتكِ.»

أتمتم قائلة:

- «تبًا لك.»

لم يتبقَّ سوى اثنتي عشرة قدمًا لبلوغِ السور الخارجي الضخم للقلعة. تنزلق قدمي اليسرى، وأترنح، لكني لا أفقد سوى نبضة قلب واحدة قبل أن أعود للتحرك للأمام. تلوح القلعة خلف تلك الشرفات الدفاعية السميكة، منحوتة في الجبل على شكل حرف L من مبانٍ حجرية عالية، شُيدت لتتحمل النيران، لأسباب بديهية. الجدران التي تحيط بساحة القلعة يبلغ سمكها عشرة أقدام وارتفاعها ثمانية أقدام، وبها فتحة واحدة - وأنا. تقريبًا. هناك.

أكتم شهقة ارتياح عندما يرتفع الحجر على جانبيّ.

يأتيني صوت جاك قاسيًا... وقريبًا جدًا:

- «أتظنين أنكِ ستكونين في مأمن بالداخل؟»

محمية من كلا الجانبين بالجدران، أركض الأقدام العشرة الأخيرة، وقلبي يخفق بشدة بينما يدفع الأدرينالين جسدي إلى أقصى طاقته، وخطواته تندفع خلفي. يهاجم حقيبتي ويخطئها، فتصطدم يده بخصري ونحن نصل إلى الحافة. أندفع للأمام، قاذفة بنفسي مسافة الاثنتي عشرة بوصة من المتراس المرتفع نزولًا إلى الساحة، حيث ينتظر راكبان.

يزمجر جاك غضبًا، ويفترس الصوت صدري اللاهث وكأنه كماشة.

أستدير بسرعة، وأسحب خنجرًا من غمده عند أضلاعي في اللحظة التي يتوقف فيها جاك متزلجًا فوقي على المتراس، أنفاسه متقطعة ووجهه محتقن. القتل محفور في عينيه الزرقاوين الجليديتين الضيقتين وهو يحدق فيّ بغضب... وحيث يغرز طرف خنجري الآن نسيج سرواله – تمامًا عند خصيتيه.

أقول بصعوبة بين أنفاسي اللاهثة، وعضلاتي ترتجف لكن يدي أكثر من ثابتة:

– «أعتقد. أنني سأكون في مأمن. في الوقت. الحالي.»

ترتعد فرائص جاك من شدة الغضب، وحاجباه الأشقران الكثيفان ينحدران فوق عينيه الزرقاوين الجليديتين، وكل شبر من جسده الضخم يميل باتجاهي. لكنه لا يخطو خطوة أخرى ويقول:

– «هل أنتِ متأكدة؟»

أردد ما حفظته من الدستور، بينما لا يزال قلبي يخفق في حنجرتي:

– «يُحظر على أي راكب إلحاق الأذى بآخر. أثناء التواجد في تشكيل القطاع أو في حضور. مشرف. من المتدربين ذوي الرتب الأعلى. حيث إن ذلك سيقلل من فعالية الجناح.»

وأستطرد:

– «وبالنظر إلى الحشد الذي يقف خلفنا، أعتقد أنه من الواضح أنه يمكننا اعتباره تشكيلًا. المادة الثالثة، القسم...»

يقاطعني بحدة محاولًا التقدم:

– «لا أكترث لذلك!»

لكني أثبت في مكاني، ويشق خنجري الطبقة الأولى من سرواله.

أعدل وقفتي تحسبًا لعدم تراجعه وأقول:

– «أقترح عليك إعادة النظر في الأمر. فقد تنزلق يدي.»

تسألني الراكبة بجواري بنبرة ممدودة، وكأننا أقل الأشياء إثارة للاهتمام التي رأتها اليوم:

– «الاسم؟»

أسترق نظرة نحوها لجزء من الثانية. تدفع خصلات شعرها الأحمر الناري الذي يصل إلى ذقنها خلف أذنها بيد واحدة وتمسك السجل باليد الأخرى، تراقب المشهد وهو يتكشف أمامها. تخبرني النجوم الفضية الثلاثية ذات النقاط الأربع المطرزة على كتف عباءتها أنها في عامها الثالث، وتضيف:

– «أنتِ صغيرة الحجم جدًا بالنسبة لراكبة تنانين، لكن يبدو أنكِ نجحتِ.»

أجيب، بينما يظل مائة بالمائة من تركيزي منصبًا على جاك مجددًا، وقطرات المطر تتساقط من جبينه المقطب:

– «ڤيوليت سورنجيل. وقبل أن تسألي، نعم، أنا من عائلة سورنجيل إياها.»

تقول المرأة وهي تمسك قلمًا تمامًا كما تفعل أمي فوق السجل:

– «لست متفاجئة، خاصة بعد تلك المناورة.»

قد يكون هذا ألطف إطراء تلقيته على الإطلاق.

ثم تسأل مجددًا:

– «وما هو اسمك؟»

أنا شبه متأكدة من أنها تسأل جاك، لكنني مشغولة جدًا بدراسة خصمي لدرجة تمنعني من النظر إليها.

يجيب:

– «جاك. بارلو.»

لم تعد هناك تلك الابتسامة الشريرة الصغيرة على شفتيه أو سخرية مرحة حول مدى استمتاعه بقتلي الآن. لم يتبقَّ سوى خبث خالص يرتسم على ملامحه، يتوعدني بالانتقام.

قشعريرة من الخوف توقف شعر عنقي.

يقول الراكب الشاب على يميني ببطء، وهو يخدش الخطوط المشذبة للحيته الداكنة. لا يرتدي عباءة، والمطر يتسرب إلى مجموعة الرقع المخيطة في سترته الجلدية البالية:

– «حسنًا يا جاك، المتدربة سورنجيل تمسك بك من خصيتيك حرفيًا هنا، وبأكثر من طريقة. إنها محقة. تنص اللوائح على أنه لا يوجد سوى الاحترام المتبادل بين الراكبين في التشكيل. إذا أردت قتلها، فسيتعين عليك فعل ذلك في حلبة القتال أو في وقتك الخاص. هذا بالطبع إذا قررت هي السماح لك بالنزول من على المتراس الصخري. لأنك من الناحية الفنية لست على أرض الكلية بعد، لذا فأنت لست متدربًا، بينما هي كذلك.»

يزمجر جاك، والنظرة في عينيه تؤكد أنه سيفعل ذلك:

– «وماذا لو قررت أن أكسر عنقها في اللحظة التي أنزل فيها؟»

تجيب الراكبة ذات الشعر الأحمر بنبرة باردة:

– «حينها ستحظى بفرصة لقاء التنانين مبكرًا. نحن لا ننتظر المحاكمات هنا. نحن نُعدِم وحسب.»

يسألني الراكب الشاب:

– «ماذا سيكون قراركِ يا سورنجيل؟ هل ستجعلين جاك هنا يبدأ مسيرته كمخصي؟»

تبًا. ماذا سيكون قراري؟ لا يمكنني قتله، ليس من هذه الزاوية، وقطع خصيتيه لن يزيده إلا كراهية لي، إن كان ذلك ممكنًا.

أسأل جاك، ورأسي يطن بشدة، وذراعي تبدو ثقيلة حد اللعنة، لكني أبقي سكيني مصوبًا نحو هدفي:

– «هل ستتبع القواعد؟»

ترتفع زاوية فمه في ابتسامة ساخرة، ويرتخي جسده وهو يرفع يديه، وباطن كفيه متجه للخارج، ويقول:

– «أظن أنني لا أملك خيارًا.»

أخفض خنجري لكني أبقيه في راحة يدي مستعدة لاستخدامه بينما أتحرك جانبًا، باتجاه الراكبة ذات الشعر الأحمر التي تسجل الأسماء.

ينزل جاك إلى الساحة، ويصطدم كتفه بكتفي وهو يمر بجانبي، ثم يتوقف ليميل مقتربًا مني ويهمس:

– «أنتِ في عداد الموتى يا سورنجيل، وسأكون أنا من يسلبكِ حياتكِ.»

«تنحدر التنانين الزرقاء من سلالة غورمفايلياس الاستثنائية. وتُعرف بحجمها المهيب، وهي الأكثر قسوة وشراسة، ولا سيما ذوات الذيل الخنجري الأزرق النادرة، التي يمكن لأشواكها الحادة كالنصال عند طرف ذيلها أن تبقر بطن العدو بنفضة واحدة.»

– دليل العقيد كاوري الميداني لفصائل التنانين



الفصل الثالث

إن كان جاك يريد قتلي، فعليه أن يقف في الطابور. فضلًا عن أنني أشعر بأن زايدن ريورسون سيسبقه إلى ذلك.

أرد على جاك:

– «ليس اليوم.»

ومقبض خنجري ثابت في يدي، وأتمكن بطريقة ما من كبح قشعريرة سرت في جسدي حين انحنى نحوي واستنشق الهواء. إنه يتشممني ككلب لعين. ثم يسخر ويمضي مبتعدًا وسط حشد المتدربين والراكبين المحتفلين المتجمعين في ساحة القلعة الفسيحة.

لا يزال الوقت مبكرًا، ربما في حدود التاسعة، لكنني أرى بوضوح أن عدد المتدربين لا يضاهي عدد المرشحين الذين سبقوني في الطابور. وبناءً على

الحضور الطاغي للملابس الجلدية، فإن طلاب السنتين الثانية والثالثة حاضرون هنا أيضًا، يتفحصون المتدربين الجدد.

يخف المطر ليتحول إلى رذاذ خفيف، وكأنه لم يهطل إلا ليزيد من قسوة أصعب اختبار في حياتي... لكنني فعلتها.

أنا على قيد الحياة.

لقد نجوت.

يبدأ جسدي في الارتجاف، وينفجر ألم نابض في ركبتي اليسرى – تلك التي ارتطمتُ بها على المتراس. أخطو خطوة، فتكاد تخونني وتسقطني أرضًا. يجب أن أربطها قبل أن يلاحظ أحد.

تقول ذات الشعر الأحمر وهي تعدل باسترخاء وضع القوس المستعرض القاتل المعلق على كتفها:

– «أظنكِ صنعتِ عدوًا هناك.»

وتسترق النظر إليّ من فوق اللفافة بنظرة ثاقبة في عينيها العسليتين وهي تتفحصني من الأعلى إلى الأسفل، ثم تتابع:

– «لو كنت مكانكِ لاحترستُ من ذلك الوغد.»

أومئ برأسي. سيتعين عليّ الاحتراس وحماية ظهري وكل جزء آخر من جسدي.

يقترب المرشح التالي من المتراس الصخري، حين تقبض يدان على كتفيّ من الخلف وتديرانني.

كان خنجري في منتصف المسافة نحو الأعلى حين أدركت أنها ريانون.

تبتسم ابتسامة عريضة وتعتصر كتفيّ قائلة:

– «لقد نجونا!»

أردد بابتسامة متكلفة:

– «لقد نجونا.»

فخذاي ترتجفان الآن، لكنني أنجح في إعادة خنجري إلى غمده عند أضلاعي. الآن وقد أصبحنا هنا، وكلتانا متدربتان، فهل يمكنني الوثوق بها؟

تقول ريانون:

– «لا أجد من الكلمات ما يكفي لشكركِ. كدت أسقط ثلاث مرات على الأقل لولا مساعدتكِ لي. كنتِ محقة – تلك النعال كانت زلقة حد اللعنة. هل رأيتِ الناس هنا؟ أقسم أنني رأيت للتو طالبة في السنة الثانية بخصلات وردية في شعرها، وشابًا وشم حراشف التنانين على كامل ذراعه المفتول.»

أقول بينما تشبك ذراعها في ذراعي وتجرني معها نحو الحشد:

– «الامتثال للقواعد خُلق لقطاع المشاة.»

تصرخ ركبتي ألمًا، وينتشر الوجع صعودًا إلى وركي ونزولًا إلى قدمي، فأعرج، ملقية بثقلي على جانب ريانون.

تبًا.

من أين نبع هذا الغثيان؟ لماذا لا يمكنني التوقف عن الارتجاف؟ سأسقط في أي لحظة الآن – يستحيل على جسدي أن يبقى منتصبًا مع هذا الزلزال الذي يضرب ساقيّ أو ذلك الطنين الذي يرجف في رأسي.

تقول وهي تسترق النظر إلى الأسفل:

– «وبالحديث عن هذا، علينا تبادل الأحذية. هناك مقعد...»

ينبثق من بين الحشد طيف رجل طويل القامة بزي أسود ناصع، مندفعًا نحونا، ورغم أن ريانون تنجح في تفاديه، إلا أنني أتعثر لأصطدم بصدره مباشرة.

تمسك يدان قويتان بمرفقيّ لتثبيتي، ويسألني:

– «ڤيوليت؟»

أرفع نظري لألتقي بعينين بنيتين مألوفتين وآسرتين، اتسعتا بصدمة جلية. يجتاحني شعور غامر بالارتياح، وأحاول الابتسام، لكنها على الأرجح خرجت كشبح ابتسامة مشوهة. يبدو أطول مما كان عليه في الصيف الماضي، وتلك اللحية التي تحدد خط فكه جديدة، وقد اكتنز جسده بطريقة تجعلني أرمش بذهول... أو لعلها مجرد رؤيتي التي بدأت تتشوش عند الأطراف. إن تلك الابتسامة الجميلة الهادئة التي احتلت الصدارة في الكثير من خيالاتي، تبدو بعيدة كل البعد عن تلك التجهمة التي تقبض فمه، وكل شيء فيه يبدو... أكثر قسوة بعض الشيء، لكنه يليق به. خط ذقنه، وتقطيبة حاجبيه، وحتى عضلات ذراعيه المفتولة تبدو صلبة تحت أصابعي وأنا أحاول استعادة توازني. في وقت ما خلال العام الماضي، تحول داين آيتوس من مجرد شاب جذاب ووسيم إلى رجل ساحر يخطف الأنفاس.

وأنا على وشك أن أتقيأ كل ما في معدتي على حذائه.

يزمجر بصوت خشن، وتتحول الصدمة في عينيه إلى شيء غريب، شيء مميت:

– «ما الذي تفعلينه هنا بحق الجحيم؟»

لم يعد هذا هو الفتى الذي كبرتُ معه. لقد أصبح الآن راكب تنانين في عامه الثاني.

أرد عليه بصعوبة:

– «داين. من الجيد رؤيتك.»

وهذا أقل ما يمكن قوله، لكن الارتجاف يتحول إلى انتفاضات كاملة، وتزحف العصارة الصفراوية في حلقي، ولا يزيد الدوار الغثيان إلا سوءًا. فتنهار ركبتاي.

يتمتم وهو ينتشلني لأقف على قدميّ من جديد:

– «تبًا يا ڤيوليت.»

وبيد يضعها على ظهري وأخرى تحت مرفقي، يقتادني بسرعة بعيدًا عن الحشد نحو كوة في الجدار، بالقرب من البرج الدفاعي الأول للقلعة. إنها بقعة مظللة وخفية تضم مقعدًا خشبيًا صلبًا، يجلسني عليه، ثم يساعدني في خلع حقيبة ظهري.

يغمر اللعاب فمي، فأقول:

– «سأتقيأ.»

يأمرني داين بنبرة قاسية لم أعهدها منه:

– «ضعي رأسكِ بين ركبتيكِ.»

لكنني أذعن لأمره. يمسح بيده في حركات دائرية على أسفل ظهري بينما أستنشق الهواء من أنفي وأزفره من فمي.

يتابع:

– «إنه الأدرينالين. امنحيه دقيقة وسيزول.»

أسمع وقع خطى تقترب على الحصى، فيسأل داين بحدة:

– «من أنتِ بحق الجحيم؟»

تجيبه ريانون:

– «أنا ريانون. أنا... صديقة ڤيوليت.»

أحدق في الحصى تحت حذائيّ غير المتطابقين، وأتوسل للمحتوى الهزيل في معدتي أن يبقى مكانه.

يأمرها بصرامة:

– «استمعي إليّ يا ريانون. ڤيوليت بخير. وإذا سأل أي شخص، فأخبريه بالضبط بما قلته؛ إنها مجرد تأثيرات الأدرينالين وهي تغادر جسدها. أواضح؟»

ترد عليه بنبرة لا تقل حدة عن نبرته:

– «ما يحدث مع ڤيوليت لا يخص أحدًا. لذا لن أتفوه بحرف. خصوصًا وهي السبب في عبوري المتراس الصخري.»

يحذرها والحدة في صوته تتناقض مع الدوائر المريحة التي يرسمها بلا توقف على ظهري:

– «من الأفضل أن تعني ما تقولين.»

تجيبه بحزم:

– «يمكنني أن أسألك أنا، من تكون بحق الجحيم؟»

أقول بينما يهدأ الارتجاف ببطء ويتلاشى الغثيان:

– «إنه أحد أقدم أصدقائي.»

لكنني لست واثقة إن كان ذلك بفضل مرور الوقت أم بفضل وضعيتي، لذا أبقي رأسي بين ركبتي بينما أتمكن من فك رباط حذائي الأيسر.

تجيب ريانون:

– «آه.»

يزمجر داين:

– «وراكب في السنة الثانية أيتها المتدربة.»

تطحن الحصى تحت الأقدام، وكأن ريانون تراجعت خطوة للوراء.

يقول داين بنبرة خافتة:

– «لا أحد يمكنه رؤيتكِ هنا يا ڤاي، لذا خذي وقتكِ.»

أرد عليه وأنا أنهض ببطء لأجلس معتدلة:

– «لأن تقيؤ أحشائي بعد النجاة من المتراس الصخري ومن الوغد الذي أراد إلقائي منه، سيُعد ضعفًا.»

يجيبني:

– «بالضبط. هل تأذيتِ؟»

تمسح نظراته جسدي بلهفة يائسة، وكأنه يحتاج لتفحص كل شبر بنفسه.

أعترف بهمس:

– «ركبتي تؤلمني.»

لقد همست بذلك لأنه داين. داين الذي عرفته منذ كنا في الخامسة والسادسة من عمرنا. داين الذي يُعد والده أحد أكثر مستشاري أمي ثقة. داين الذي كان سندي وعمادي حين غادرت ميرا لتلتحق بقطاع راكبي التنانين، ومرة أخرى حين مات بريِنان.

يمسك ذقني بين إبهامه وسبابته، ويدير وجهي يمنة ويسرة لتفحصه، ويسأل:

– «هذا كل شيء؟ هل أنتِ متأكدة؟»

تنزلق يداه على جانبي جسدي لتتوقفا عند أضلاعي، ويسأل:

– «هل تحملين خناجر؟»

تخلع ريانون حذائي وتتنهد بارتياح، محركة أصابع قدميها.

أومئ برأسي وأقول:

– «ثلاثة عند أضلاعي وواحد في حذائي.»

والشكر للآلهة على ذلك، وإلا فلست واثقة من أنني كنت سأجلس هنا الآن.

يتمتم قائلًا:

– «همم.»

يسقط يديه وينظر إليّ وكأنه لم يرني من قبل قط، وكأنني غريبة تمامًا، لكنه سرعان ما يطرف بعينيه فتتلاشى تلك النظرة، ويتابع:

– «بادلا أحذيتكما. تبدوان مثيرتين للسخرية. ڤاي، هل تثقين في هذه الفتاة؟»

ويشير برأسه نحو ريانون.

كان بإمكانها أن تنتظرني عند الأمان الذي توفره جدران القلعة لتلقي بي تمامًا كما حاول جاك أن يفعل، لكنها لم تفعل.

أومئ برأسي. أثق بها بقدر ما يمكن لأي شخص أن يثق بمتدرب آخر في السنة الأولى هنا.

يقول:

– «حسنًا.»

ينهض ويلتفت نحوها. هناك أغماد على جانبي ملابسه الجلدية أيضًا، لكنها تمتلئ بالخناجر في كل منها، بينما لا تزال أغمادي خاوية.

– «أنا داين آيتوس، وأنا قائد الفصيل الثاني، قسم اللهب، في الجناح الثاني.»

قائد فصيل؟ يقفز حاجباي دهشة. أعلى الرتب بين المتدربين في القطاع هي قائد الجناح وقائد الفصيل. وكلا المنصبين يشغلهما نخبة طلاب السنة الثالثة. يمكن لطلاب السنة الثانية أن يترقوا ليصبحوا قادة فصائل، لكن فقط إن كانوا

استثنائيين. أما الباقون فهم مجرد متدربين قبل يوم التصفية – حيث تختار التنانين من سترتبط بهم – ويصبحون راكبين بعده. فالناس يموتون هنا بكثرة تمنع من توزيع الرتب قبل الأوان.

يتابع داين:

– «يجب أن ينتهي عبور المتراس الصخري خلال الساعتين القادمتين، بناءً على سرعة عبور المرشحين أو سقوطهم. اذهبي للبحث عن الفتاة ذات الشعر الأحمر التي تحمل السجل – غالبًا ما تحمل قوسًا مستعرضًا – وأخبريها أن داين آيتوس أدرجكِ أنتِ وڤيوليت سورنجيل في فصيله. وإن جادلتكِ، فأخبريها أنها تدين لي بإنقاذ مؤخرتها في يوم التصفية بالعام الماضي. سأعيد ڤيوليت إلى الساحة بعد قليل.»

تسترق ريانون النظر إليّ، فأومئ برأسي موافقة.

يأمرها داين بحدة:

– «اذهبي قبل أن يرانا أحد.»

تجيبه وهي تدس قدمها في حذائها وتربطه بسرعة بينما أفعل المثل مع حذائي:

– «ذاهبة.»

يسألني داين وهو يرمقني بنظرة غاضبة يشوبها عدم التصديق:

– «عبرتِ المتراس بحذاء فروسية أكبر من مقاسكِ؟»

أرد عليه وأنا أنهض، فأتأوه ألمًا حين تحتج ركبتي وتحاول الانثناء:

– «كانت ستموت لو لم نبادل حذائينا.»

يقول وهو يعرض عليّ ذراعه:

– «وأنتِ ستموتين إن لم نجد لكِ مخرجًا من هنا. خذي ذراعي. يجب أن نأخذكِ إلى غرفتي. تحتاجين إلى ربط تلك الركبة.»

يرفع حاجبيه ويضيف:

– «إلا إذا كنتِ قد عثرتِ على علاج سحري أجهله خلال العام الماضي؟»

أهز رأسي نفيًا وآخذ ذراعه.

يتمتم قائلًا:

– «تبًا يا ڤيوليت. تبًا.»

يدس ذراعي بتكتم جانب جسده، ويلتقط حقيبتي بيده الفارغة، ثم يقودني إلى نفق في نهاية الكوة داخل الجدار الخارجي، نفق لم ألحظ وجوده من قبل. تومض أضواء السحر في الشمعدانات المضاءة أثناء مرورنا وتنطفئ بمجرد أن نتجاوزها.

ويضيف:

– «لا يفترض بكِ أن تكوني هنا.»

أرد عليه، وأنا أسمح لنفسي بالعرج قليلًا، فما من أحد يرانا الآن:

– «أعي ذلك تمامًا.»

يقول بغضب مكتوم وهو يقودني عبر النفق في الجدار:

– «من المفترض أن تكوني في قطاع النساخين. ما الذي حدث بحق الجحيم؟ أرجوكِ أخبريني أنكِ لم تتطوعي لقطاع راكبي التنانين.»

أتحدّاه قائلة ونحن نصل إلى بوابة من الحديد المطاوع تبدو وكأنها شُيدت لإبعاد غول... أو تنين:

– «ما الذي تظن أنه حدث؟»

يطلق لعنة ويقول:

– «أمكِ.»

أومئ برأسي وأجيب:

– «أمي. كل فرد من آل سورنجيل هو راكب تنانين، ألا تعلم؟»

نصل إلى مجموعة من الدرجات الدائرية، فيقودني داين صعودًا متجاوزين الطابقين الأول والثاني، ليتوقف بنا في الطابق الثالث ويدفع بوابة أخرى لتنفتح بصرير احتكاك المعدن بالمعدن.

يشرح بهدوء:

– «هذا طابق السنة الثانية. مما يعني...»

أقاطعه وأنا أنكمش مقتربة منه أكثر:

– «أنه لا يُفترض بي التواجد هنا، بوضوح. لا تقلق – إن رآنا أحد، سأخبره وحسب أن الشهوة قد تملكتني من النظرة الأولى، ولم أطق صبرًا لثانية أخرى حتى أخلع عنك سروالك.»

ترتسم ابتسامة ساخرة على شفتيه ونحن نمضي في الممر ويقول:

– «سليطة اللسان كعادتكِ.»

أعرض عليه بصدق تام:

– «يمكنني أن أضيف بضع تأوهات صاخبة مرددة آه يا داين بمجرد دخولنا غرفتك، فقط لإضفاء مصداقية على الأمر.»

يزفر بضحكة مكتومة وهو يلقي حقيبتي أمام باب خشبي، ثم يقوم بحركة دائرية بيده أمام المقبض. فيُسمع صوت طقطقة القفل بوضوح.

أقول:

– «أنت تملك قوى سحرية.»

لم يكن هذا بالخبر الجديد بالطبع. فهو راكب في سنته الثانية، وكل الراكبين يمكنهم أداء أسحار بسيطة بمجرد أن تختار تنانينهم توجيه قوتها عبرهم... لكنه... داين.

يقول وهو يدير عينيه ويفتح الباب، حاملًا حقيبتي ليساعدني في الدخول:

– «لا تبدي مندهشة هكذا.»

غرفته بسيطة، تضم سريرًا، وتسريحة، ومكتبًا، وخزانة ملابس. لا شيء شخصي فيها سوى بضعة كتب متناثرة على مكتبه. ألاحظ بومضة خفيفة من الرضا أن أحدها هو مجلد اللغة الكروفلية الذي أهديته إياه قبل رحيله في الصيف الماضي. لطالما امتلك موهبة فذة في تعلم اللغات. حتى البطانية على سريره تبدو بسيطة، بلون راكبي التنانين الأسود، وكأنه يخشى أن ينسى سبب وجوده هنا أثناء نومه. النافذة مقوسة، فأمضي نحوها. أستطيع رؤية بقية أرجاء باسجيات عبر الزجاج الصافي على الجانب الآخر من الوادي. إنها الكلية الحربية ذاتها، ومع ذلك تبدو كعالم منفصل تمامًا. ألمح مرشحين آخرين على المتراس، لكنني أشيح بنظري قبل أن أتعلق بمشاهدتهما يسقطان. فهناك حد لمقدار الموت الذي يمكن للمرء أن يشهده في يوم واحد، وقد بلغتُ حدي الأقصى حد اللعنة.

يسألني وهو يناولني الحقيبة:

– «هل لديكِ أربطة هنا؟»

أجيبه بإيماءة، وأنا أرتمي على حافة سريره المرتب بعناية فائقة وأبدأ في نبش حقيبتي:

– «أخذتها كلها من الرائد غيلستيد.»

لحسن حظي، فإن ميرا أبرِع بكثير مني في حزم الأمتعة، لذا كان من السهل العثور على الأربطة.

يبتسم متكئًا بظهره على الباب المغلق واضعًا كاحلًا فوق الآخر ويقول:

– «اعتبري المكان مكانكِ. وبقدر ما أكره وجودكِ هنا، يجب أن أعترف أنه من الرائع حقًا رؤية وجهكِ يا ڤاي.»

أرفع نظري، وتلتقي أعيننا. يتلاشى التوتر الذي كتم على صدري طوال الأسبوع الماضي – بل طوال الأشهر الستة الماضية – ولثانية واحدة، لا يوجد في العالم سوانا.

أقول:

– «لقد اشتقت إليك.»

ربما يُعد هذا كشفًا عن ضعف، لكنني لا أبالي. فداين يعرف عني تقريبًا كل ما يمكن معرفته على أي حال.

يقول بهدوء وقد رقت نظرة عينيه:

– «أجل. وأنا أيضًا اشتقت إليكِ.»

ينقبض صدري، ويسري بيننا إدراك صامت، إحساس شبه ملموس... بالترقب وهو ينظر إليّ. ربما بعد كل هذه السنوات، أصبحنا أخيرًا على الوفاق ذاته عندما يتعلق الأمر برغبتنا في بعضنا البعض. أو ربما يشعر بالراحة فحسب لرؤية صديقة قديمة.

يستدير ليواجه الباب ويقول:

– «من الأفضل أن تلفي تلك الساق. لن أنظر.»

أقول وأنا أقوس وركي لأدفع سروالي الجلدي للأسفل متجاوزًا فخذي وصولًا إلى ركبتي:

– «إنه ليس شيئًا لم تره من قبل.»

تبًا. الركبة اليسرى متورمة. لو أن أي شخص آخر تعرض لتلك العثرة، لكان قد أصيب بكدمة، أو ربما خدش طفيف. أما أنا؟ يجب أن أعالجها لأضمن بقاء صابونة الركبة في مكانها الصحيح. فالأمر لا يقتصر على ضعف عضلاتي فحسب، بل إن أربطتي التي تمسك بمفاصلي معًا لا تصلح لشيء هي الأخرى.

يمازحني قائلًا:

– «أجل، حسنًا، نحن لسنا بصدد التسلل للسباحة في النهر الآن، أليس كذلك؟»

لقد كبرنا معًا متنقلين عبر كل موقع عمل نُقل إليه والدينا، وبغض النظر عن المكان الذي كنا فيه، كنا دائمًا ننجح في العثور على مكان للسباحة وأشجار لنتسلقها.

أثبّتُ الرباط عند أعلى ركبتي، ثم ألفه وأحكم المفصل بالطريقة ذاتها التي اعتدت عليها منذ أن كنت في سن تسمح للمعالجين بتعليمي إياها. إنها حركة متمرسة يمكنني القيام بها وأنا نائمة، وألفتها تكاد تكون مريحة ومطمئنة، لولا أنها تعني أنني أبدأ مسيرتي في القطاع وأنا مصابة بالفعل.

بمجرد أن أحكم تثبيته بالمشبك المعدني الصغير، أنهض وأرفع سروالي الجلدي لأعلى مؤخرتي وأغلقه بأزراره.

– «تم التغطية بالكامل.»

يلتفت ويمسحني بنظراته قائلًا:

– «تبدين... مختلفة.»

أهز كتفي وأجيبه:

– «إنها الملابس الجلدية. لماذا؟ هل الاختلاف سيء؟»

يستغرقني الأمر ثانية لإغلاق حقيبتي ورفعها لتستقر فوق كتفيّ. شكرًا للآلهة، فإن الألم في ركبتي يمكن احتماله وهي مربوطة هكذا.

يهز رأسه ببطء، ويعض على شفته السفلى بأسنانها ويقول:

– «إنه مجرد أنكِ... مختلفة.»

أبتسم وأمشي نحوه، ثم أمسك بمقبض الباب إلى جانبه وأقول:

– «يا للعجب يا داين آيتوس. لقد رأيتني بملابس السباحة، والسترات، وحتى بفساتين الحفلات. هل تخبرني الآن أن الملابس الجلدية هي ما تثير إعجابك؟»

يسخر قائلًا، ولكن تظهر حمرة خفيفة على وجنتيه بينما تغطي يده يدي لفتح الباب:

– «سعيد برؤية أن عام فراقنا لم يثلم حدة لسانكِ يا ڤاي.»

أقول من فوق كتفي ونحن نمضي إلى الردهة:

– «أوه، يمكنني القيام بأشياء عدة بلساني. ستنبهر حتمًا.»

ابتسامتي عريضة لدرجة أنها تكاد تؤلمني، ولثانية واحدة، أنسى أننا في قطاع راكبي التنانين، أو أنني بالكاد نجوت من عبور المتراس.

تشتعل عيناه. أظن أنه قد نسي هو الآخر. ثم تذكرت أن ميرا لطالما أوضحت أن الراكبين ليسوا مجموعة من الأشخاص المكبوتين خلف هذه الجدران. فلا يوجد دافع قوي لحرمان الذات حين لا تدري إن كنت ستعيش لترى غدًا.

يقول وهو يهز رأسه وكأنه يحاول تصفية ذهنه:

– «علينا أن نخرجكِ من هنا.»

ثم يقوم بتلك الحركة بيده مرة أخرى، وأسمع صوت القفل وهو يستقر في مكانه. الردهة خاوية، ونصل إلى الدرج بسرعة.

أقول بينما نبدأ في النزول:

– «شكرًا لك. أشعر بتحسن كبير في ركبتي الآن.»

يقول:

– «لا أزال غير قادر على تصديق أن أملكِ ظنت أن الزج بكِ في قطاع راكبي التنانين كان فكرة سديدة.»

أكاد أشعر بذبذبات الغضب تتصاعد منه بجانبي ونحن نهبط السلالم. لا يوجد درابزين في جانبه، لكنه لا يبدو مكترثًا، رغم أن خطوة واحدة خاطئة قد تكون نهايته.

أرد:

– «ولا أنا. لقد أعلنت مرسومها حول القطاع الذي سأختاره في الربيع الماضي، بعدما اجتزت امتحان القبول المبدئي، وبدأت العمل مع الرائد غيلستيد فورًا.»

سيكون فخورًا جدًا عندما يقرأ السجلات غدًا ويرى أن اسمي ليس مدرجًا في قوائم الموتى.

يقول ونحن نقترب من الطابق الأول:

– «يوجد باب أسفل هذا الدرج، تحت المستوى الرئيسي، يؤدي إلى ممر نحو قطاع المعالجين أعلى الوادي. سنعبر بكِ من خلاله وصولًا إلى قطاع النساخين.»

أسأل متفاجئة:

– «ماذا؟»

أتوقف بمجرد أن تلامس قدماي بسطة السلم الحجرية المصقولة في الطابق الرئيسي، لكنه يواصل الهبوط.

كان قد هبط ثلاث درجات تحتي حين أدرك أنني لا أرافقه. يستدير ليواجهني ويقول ببطء:

– «قطاع النساخين.»

تمنحني هذه الزاوية طولًا يفوق طوله، فأحدق فيه من أعلى للأسفل وأقول:

– «لا يمكنني الذهاب إلى قطاع النساخين يا داين.»

يرتفع حاجباه بدهشة:

– «عفوًا؟»

أهز رأسي نفيًا وأقول:

– «إنها لن تسمح بذلك.»

يفتح فمه، ثم يغلقه، وتشتد قبضتاه على جانبيه وهو يتابع:

– «هذا المكان سيقتلكِ يا ڤيوليت. لا يمكنكِ البقاء هنا. سيتفهم الجميع ذلك. أنتِ لم تتطوعي – ليس حقًا.»

يتصاعد الغضب في عمودي الفقري، وأرمقه بنظرة ضيقة متجاهلة مسألة من تطوعني أو لم يفعل، وأرد بحدة:

– «أولًا، أنا أعي تمامًا ما هي فرصي هنا يا داين. وثانيًا، عادة لا يتمكن خمسة عشر بالمائة من المرشحين من عبور المتراس الصخري، وأنا لا أزال واقفة على قدمي، لذا أظن أنني أتغلب على تلك الاحتمالات بالفعل.»

يتراجع خطوة أخرى للوراء ويقول:

– «لا أقول إنكِ لم تبلي بلاءً حسنًا وأسطوريًا ببلوغكِ هذا المكان يا ڤاي. لكن يجب عليكِ الرحيل. ستتحطمين من أول مرة يزجون بكِ فيها في حلبة النزال، وهذا حتى قبل أن تستشعر التنانين أنكِ...»

يهز رأسه وينظر بعيدًا، بينما ينقبض فكه.

ينتفض غضبي وأسأله بحدة:

– «أنا ماذا؟ تفضل وقلها. عندما تستشعر أنني أقل من الآخرين؟ أهذا ما تعنيه؟»

يمرر يده في خصلات شعره البني الفاتح المجعد والمقصوص بعناية ويقول:

– «تبًا. توقفي عن تقويلي ما لم أقل. أنتِ تعرفين تمامًا ما أعنيه. حتى لو نجوتِ حتى يوم التصفية، فليس هناك ما يضمن أن يختاركِ تنين للارتباط. في العام الماضي وحده، بقي أربعة وثلاثون متدربًا دون ارتباط، يجلسون عاطلين بانتظار إعادة السنة مع هذه الدفعة للحصول على فرصة أخرى، وجميعهم في كامل لياقتهم البدنية...»

تهوي معدتي وأقاطعه:

– «لا تكن وغدًا.»

كونه محقًا لا يعني أنني أرغب في سماع ذلك... أو أن أُنعت بالضعيفة وغير اللائقة.

يصرخ داين، ويتردد صدى صوته بين جدران الدرج الحجري:

– «أنا أحاول إبقاءكِ على قيد الحياة! إذا تمكنا من تهريبكِ إلى قطاع النساخين الآن، فلا يزال بإمكانكِ اجتياز اختبارهم ببراعة، وستحظين بقصة مذهلة تروينها لأصدقائكِ وأنتِ تحتسين الشراب. أما إذا أعدتكِ إلى هناك...» – يشير إلى الباب المؤدي إلى الساحة – «...فالأمر سيخرج عن سيطرتي. لا يمكنني حمايتكِ هنا. ليس بالكامل.»

أردف:

– «أنا لم أطلب منك ذلك!»

مهلًا... ألم أكن أريد منه ذلك؟ ألم يكن هذا ما اقترحته ميرا؟

أسأله:

– «ولماذا طلبت من ريانون أن تضعني في فرقتك إذا كنت تخطط لتهريبي من الباب الخلفي؟»

تشتد قبضة الخوف حول صدري. فبعد ميرا، داين هو أكثر شخص يعرفني على وجه القارة اللعينة بأسرها، وحتى هو يعتقد أنني سأفشل هنا.

يرد وهو يصعد درجتين، مقلصًا المسافة بيننا، لكن لا تلين في كتفيه المشدودتين:

– «لأجعلها تنصرف حتى أتمكن من إخراجكِ!»

إذا كان للتصميم والصرامة هيئة بشرية، لكانت داين آيتوس في هذه اللحظة.

يتابع:

– «أتظنين أنني أرغب في رؤية أعز صديقاتي تموت؟ أتظنين أنه سيكون من الممتع أن أرى ما سيفعلونه بكِ، وهم يعلمون أنكِ ابنة الجنرال سورنجيل؟ ارتداء الملابس الجلدية لا يجعلكِ راكبة تنانين يا ڤيوليت. سيمزقونكِ إربًا، وإن لم يفعلوا، فستفعل التنانين. في قطاع راكبي التنانين، إما أن تتخرجي أو تموتي، وأنتِ تعلمين ذلك جيدًا. دعيني أنقذكِ.»

يرتخي جسده بالكامل، ويمزق الرجاء في عينيه جزءًا من كبريائي وغضبي:

– «أرجوكِ، دعيني أنقذكِ.»

أهمس:

– «لا يمكنك ذلك. لقد قالت إنها ستسحبني من ضفيرتي وتعيدني إلى هنا فورًا. إما أن أغادر هذا المكان كراكبة تنانين أو كاسم محفور على شاهد قبر.»

يهز رأسه منكرًا:

– «إنها لم تقصد ذلك. لا يمكن أن تقصده حقًا.»

أؤكد له:

– «بل تقصده. حتى ميرا لم تستطع إثناءها عن قرارها.»

يبحث في عينيّ، ثم يتصلب وكأنه يرى الحقيقة ساطعة فيهما، ويتمتم:

– «تبًا.»

أرد رافعة كتفيّ وكأننا لا نتحدث عن حياتي أنا:

– «أجل. تبًا.»

يقول أخيرًا، وأكاد أراه يعيد ترتيب أفكاره للتكيف مع هذه الحقيقة:

– «حسنًا. سنجد طريقة أخرى. في الوقت الحالي، هيا بنا.»

يمسك يدي ويقودني إلى تلك الزاوية المخفية التي اختفينا فيها، ويقول:

– «اخرجي إلى هناك وتعرفي على بقية طلاب السنة الأولى. سأعود أنا وأدخل من باب البرج. سيدركون قريبًا أننا نعرف بعضنا البعض، لكن لا تمنحي أحدًا أي ذريعة ضدكِ.»

يعتصر يدي بحنان ثم يفلتها، مبتعدًا دون أن ينبس بكلمة أخرى، ويختفي في النفق.

أقبض على أحزمة حقيبتي وأخطو نحو الساحة التي تداعبها خيوط الشمس المتناثرة. بدأت الغيوم تنقشع، ورذاذ المطر يتبدد بينما يتهشم الحصى تحت قدمي وأنا في طريقي نحو الراكبين والمتدربين.

الساحة الهائلة، التي تتسع لألف راكب بسهولة، تبدو مطابقة تمامًا للخريطة المحفوظة في الأرشيف. تتخذ شكل دمعة ذات زوايا حادة، وينتهي طرفها المستدير بجدار خارجي ضخم لا يقل سمكه عن عشرة أقدام. وتمتد القاعات الحجرية على طول الجانبين. أعلم أن المبنى المكون من أربعة طوابق المنحوت في الجبل عند الطرف المستدير مخصص للدراسة الأكاديمية، وأن المبنى الذي

يرتفع على اليمين ويطل على الجرف هو سكن الطلاب، حيث أخذني داين للتو. أما المبنى الدائري المهيب الذي يربط بين الاثنين، فيشكل مدخلًا لقاعة التجمع الكبرى، والصالة المشتركة، والمكتبة القابعة خلفه. أتوقف عن التحديق وألتفت في الساحة لأواجه الجدار الخارجي. ثمة منصة حجرية على الجانب الأيمن من المتراس، يعتليها رجلان بزي عسكري كامل، أميزهما كقائد الكلية ونائبه، وتلمع أوسمتهما تحت أشعة الشمس.

أستغرق بضع دقائق لأعثر على ريانون وسط الحشد المتزايد، وكانت تتحدث إلى فتاة أخرى بشعر أسود فاحم مقصوص قصيرًا كشعر داين.

تبتسم ريانون ابتسامة صادقة تفيض بالارتياح وتقول:

– «ها أنتِ ذي! لقد كنت قلقة. هل كل شيء...»

وترفع حاجبيها متسائلة.

أومئ برأسي وأنا ألتفت نحو المرأة الأخرى وأرد:

– «أنا جاهزة ومستعدة.»

تقدمنا ريانون لبعضنا البعض. اسمها تارا، وتنحدر من مقاطعة مورين في الشمال، على امتداد ساحل بحر الزمرد. إنها تتحلى بتلك الثقة الآسرة ذاتها التي تتمتع بها ميرا، وترقص عيناها حماسًا وهي تتحدث مع ريانون حول هوسهما المشترك بالتنانين منذ طفولتهما. أصغي لحديثهما، لكن بالقدر الذي يكفي لتذكر التفاصيل تحسبًا لاضطرارنا إلى عقد تحالف لاحقًا.

تمضي ساعة، ثم أخرى، وفقًا لأجراس باسجيات التي يتردد صداها حتى هنا. ثم يخطو آخر المتدربين إلى الساحة، يتبعه الراكبون الثلاثة من البرج الآخر.

وكان زايدن من بينهم. لم يكن طوله الفارع هو ما يميزه وسط هذا الحشد فحسب، بل تلك الهالة التي تجعل الراكبين الآخرين يتحركون حوله وكأنه سمكة

قرش وهم أسماك صغيرة تبتعد عن طريقه. للحظة، لا أملك إلا أن أتساءل عن طبيعة قوته السحرية، تلك الهبة الفريدة التي استمدها من ارتباطه بتنينه، وما إذا كانت هي السبب الذي يدفع حتى طلاب السنة الثالثة للابتعاد عن طريقه وهو يتبختر نحو المنصة بخطوات قاتلة ورشيقة. أصبح عددهم هناك عشرة الآن، ومن الطريقة التي يتقدم بها القائد بانشيك إلى الواجهة لمخاطبتنا... أدرك أن الأمر على وشك أن يبدأ.

أقول لريانون وتارا:

– «أعتقد أننا على وشك البدء.»

تستديران لمواجهة المنصة، كما يفعل الجميع.

يستهل القائد بانشيك حديثه بابتسامة سياسي محنك، مشيرًا إلينا بيده – فالرجل لطالما اعتمد على حركة يديه في حديثه:

– «ثلاثمائة وواحد منكم نجوا من عبور المتراس الصخري ليصبحوا متدربين اليوم. عمل رائع. بينما فشل سبعة وستون آخرون في ذلك.»

ينقبض صدري بينما يحسب عقلي النسبة بسرعة البرق. عشرون بالمائة تقريبًا. هل كان المطر؟ أم الرياح؟ إنها نسبة تفوق المعدل المعتاد. سبعة وستون شخصًا لقوا حتفهم في سعيهم للوصول إلى هنا.

تهمس تارا:

– «سمعت أن هذا المنصب مجرد نقطة عبور بالنسبة له. إنه يطمح لانتزاع منصب سورنجيل، ومن ثم منصب الجنرال ميلغرين.»

الجنرال ميلغرين، القائد الأعلى لجميع قوات نافار. لطالما جعلتني عيناه الثاقبتان كحبات الخرز أتقلص ذعرًا في كل مرة التقينا فيها طوال مسيرة أمي المهنية.

تهمس ريانون من جانبي الآخر:

– «منصب الجنرال ميلغرين؟»

أرد بهدوء بينما يرحب بنا القائد في قطاع راكبي التنانين:

– «لن يناله أبدًا. فتنين ميلغرين يمنحه القدرة على رؤية نتائج المعارك قبل وقوعها. لا سبيل للتغلب على ذلك، ولا يمكنك اغتيال شخص يعلم بقدومك سلفًا.»

يصيح بانشيك بصوته الذي يجلجل فوق رؤوسنا نحن الخمسمائة، كما خمنت، في هذه الساحة:

– «وكما ينص الدستور، الآن تبدؤون المحنة الحقيقية! سيختبركم رؤساؤكم، وسيصطادكم أقرانكم، وستقودكم غرائزكم. إذا نجحتم في البقاء على قيد الحياة حتى يوم التصفية، وإذا وقع الاختيار عليكم، فستصبحون راكبي تنانين. وحينها سنرى كم منكم سيكتب له النجاة حتى التخرج.»

تشير الإحصائيات إلى أن ربعنا تقريبًا سيعيش حتى يتخرج، تزيد النسبة أو تنقص قليلًا كل عام، ومع ذلك، لم يعانِ قطاع راكبي التنانين يومًا من نقص في المتطوعين. كل متدرب في هذه الساحة يظن أنه يمتلك ما يؤهله ليكون من النخبة، الأفضل على الإطلاق في نافار... راكب تنين. لا يسعني إلا أن أتساءل للحظة عابرة عما إذا كنت أنا أيضًا أمتلك ذلك. ربما أستطيع أن أفعل ما هو أكثر من مجرد النجاة.

يعدنا بانشيك وهو يلوح بيده نحو صف الأساتذة المصطفين عند أبواب الجناح الأكاديمي:

– «سيتولى أساتذتكم مهمة تعليمكم. ومدى استيعابكم يعتمد عليكم.»

ثم يوجه سبابته نحونا ويتابع:

– «أما الانضباط فهو مسؤولية وحداتكم، وقادة أجنحتكم هم أصحاب الكلمة الفصل. وإذا اضطررت للتدخل...» – ترتسم ابتسامة بطيئة وشريرة على وجهه – «...فثقوا أنكم لن تتمنوا تدخلي.»

يختتم حديثه قائلاً:

– «بناءً على ذلك، أترككم الآن في عهدة قادة أجنحتكم. وأفضل نصيحة أسديها لكم؟ لا تموتوا.»

يغادر المنصة برفقة نائبه، تاركًا الراكبين وحدهم على المسرح الحجري.

تتقدم امرأة سمراء عريضة المنكبين، وعلى وجهها ندبة تضفي عليها نظرة احتقار دائمة، وتلتمع الأشواك الفضية على كتفي زيها تحت أشعة الشمس.

– «أنا نايرا، القائدة العليا للقطاع وقائدة الجناح الأول. فليأخذ قادة الأقسام والفرق مواقعهم الآن.»

يصطدم كتفي بأحدهم وهو يمر دافعًا طريقه بيني وبين ريانون. ويحذو آخرون حذوه حتى يصطف أمامنا نحو خمسين شخصًا، موزعين في تشكيل منظم.

أهمس لريانون، تحسبًا لكونها لم تنشأ في عائلة عسكرية:

– «أقسام وفرق. ثلاث فرق في كل قسم، وثلاثة أقسام في كل جناح من الأجنحة الأربعة.»

ترد ريانون:

– «شكرًا لكِ.»

يقف داين في قسم الجناح الثاني، مواجهًا لي لكنه يتجنب النظر إليّ.

تنادي نايرا:

– «الفرقة الأولى! قسم المخلب! الجناح الأول!»

يرفع رجل أقرب إلى المنصة يده.

وتعطي نايرا تعليماتها:

– «أيها المتدربون، عندما يُنادى على أسمائكم، اصطفوا في التشكيل خلف قائد فرقتكم.»

تتقدم الفتاة ذات الشعر الأحمر التي تحمل قوس النشاب وسجل الحضور وتبدأ في تلاوة الأسماء. يخرج المتدربون واحدًا تلو الآخر من الحشد للانضمام إلى التشكيل، وأنا أعدهم، وأطلق أحكامًا سريعة بناءً على ملابسهم ومدى غطرستهم. يبدو أن كل فرقة ستضم حوالي خمسة عشر أو ستة عشر شخصًا.

يُنادى على جاك للانضمام إلى قسم اللهب في الجناح الأول.

ويُنادى على تارا إلى قسم الذيل، وسرعان ما يبدؤون في تشكيل الجناح الثاني.

أطلق تنهيدة شكر عندما يتقدم قائد الجناح، ولا يكون زايدن.

يُنادى عليّ أنا وريانون للانضمام إلى الفرقة الثانية، قسم اللهب، الجناح الثاني. ننضم للتشكيل بسرعة، ونصطف في شكل مربع. تكفي نظرة خاطفة لأتبين أن لدينا قائد فرقة – داين، الذي لا يزال يتجاهلني – ونائبة قائد فرقة، وأربعة راكبين يبدو أنهم في سنتهم الثانية أو الثالثة، وتسعة طلاب من السنة الأولى. إحدى الراكبات اللواتي يحملن نجمتين على زيها، ونصف شعرها محلوق والنصف الآخر وردي اللون، تحمل وشمًا للتمرد يلتف حول ساعدها، من معصمها حتى ما فوق كوعها، حيث يختفي تحت زيها، لكنني أشيح بنظري حتى لا تضبطني وأنا أحدق فيها.

نقف بصمت بينما يُنادى على بقية الأجنحة. الشمس الآن ساطعة بالكامل، تضرب ملابسي الجلدية وتحرق بشرتي. أخبرته ألا يبقيكِ حبيسة تلك المكتبة.

تطاردني كلمات أمي هذا الصباح، ولكن ليس وكأنني كنت أستطيع الاستعداد لهذا. فبشرتي تملك درجتين فقط عندما يتعلق الأمر بالشمس: إما شاحبة أو محترقة.

عندما يصدر الأمر، نلتفت جميعًا لمواجهة المنصة. أحاول إبقاء نظري مثبتًا على حارسة السجل، لكن عينيّ تخونانني وتلتفتان يمينًا، فيتسارع نبضي.

كان زايدن يراقبني بنظرة باردة حاسبة، وكأنه يخطط لموتي من موقعه كقائد للجناح الرابع.

أرفع ذقني متحدية.

يرفع حاجبه المشقوق بالندبة. ثم يهمس بشيء لقائد الجناح الثاني، وسرعان ما ينضم كل قادة الأجنحة إلى ما يبدو بوضوح أنه نقاش محتدم.

تهمس ريانون:

– «فيمَ تظنين أنهم يتحدثون؟»

يهمس داين بحزم:

– «اصمتي.»

يتصلب عمودي الفقري. لا يمكنني أن أتوقع منه أن يكون داين المألوف لي هنا، في ظل هذه الظروف، لكن نبرته تظل مزعجة وتثير حنقي.

أخيرًا، يلتفت قادة الأجنحة لمواجهتنا، وتلك الابتسامة الخفيفة التي ترتسم على شفتي زايدن تصيبني بالغثيان في الحال.

تأمر نايرا:

– «داين آيتوس، ستتبادل فرقتك موقعها مع فرقة أورا بينهافن.»

مهلًا. ماذا؟ ومن هي أورا بينهافن؟

يومئ داين برأسه، ثم يلتفت إلينا ويقول:

– «اتبعوني.»

يقولها مرة واحدة، ثم يخطو عبر التشكيل، تاركًا إيانا نهرول خلفه. نمر بفرقة أخرى في طريقنا من... من...

يتجمد الهواء في رئتيّ.

نحن ننتقل إلى الجناح الرابع. جناح زايدن.

يستغرق الأمر دقيقة، أو ربما دقيقتين، ونأخذ مكاننا في التشكيل الجديد.

أجبر نفسي على التنفس. هناك ابتسامة خبيثة حد اللعنة تعلو وجه زايدن الوسيم والمغرور.

لقد أصبحت الآن تحت رحمته تمامًا، مرؤوسة في تسلسله القيادي. يمكنه معاقبتي كما يشاء على أدنى مخالفة، حتى وإن كانت من نسج خياله.

تنظر نايرا إلى زايدن معلنة انتهاء التوزيع، فيومئ برأسه، ويتقدم خطوة للأمام ليحسم أخيرًا معركة التحديق بيننا. وأنا شبه متأكدة من أنه من انتصر فيها، بالنظر إلى أن قلبي كان يركض كحصان جامح.

يحمل الهواء صوت زايدن عبر الساحة، أقوى وأكثر حدة من الآخرين:

– «أنتم جميعًا متدربون الآن. انظروا إلى فرقتكم. هؤلاء هم الأشخاص الوحيدون الذين يضمن لكم الدستور ألا يقتلوكم. لكن كونهم عاجزين عن إنهاء حياتكم لا يعني أن الآخرين لن يفعلوا ذلك. هل تريدون تنينًا؟ استحقوه إذًا.»

يهلل معظم الآخرين بحماس، لكنني أبقي فمي مغلقًا.

لقد سقط سبعة وستون شخصًا أو لقوا حتفهم بطريقة أو بأخرى اليوم. سبعة وستون مرشحًا مثل ديلان، سيقوم آباؤهم إما بجمع جثثهم أو بمشاهدتهم يُدفنون عند سفح الجبل تحت شاهد قبر بسيط. لا يمكنني إجبار نفسي على التهليل لخسارتهم.

تلتقي عينا زايدن بعينيّ، فتنقبض معدتي قبل أن يشيح بنظره.

يتابع:

– «وأراهن أنكم تشعرون بمدى روعتكم الآن، أليس كذلك يا طلاب السنة الأولى؟»

يعلو هتاف آخر.

يصيح زايدن:

– «تشعرون بأنكم لا تقهرون بعد اجتيازكم المتراس الصخري، أليس كذلك؟ تظنون أنكم محصنون! وأنكم في طريقكم لتصبحوا من النخبة! القلة المختارة!»

ترتفع جولة أخرى من الهتافات مع كل إعلان، لتصبح أعلى فأعلى.

لا. هذا ليس مجرد هتاف، إنه صوت أجنحة تضرب الهواء لتخضعه.

تهمس ريانون بجانبي، بينما يلوحون في الأفق:

– «يا إلهي، إنها فاتنة.»

لقد كان سربًا من التنانين.

أمضيت حياتي بالقرب من التنانين، لكن دائمًا من مسافة آمنة. فهي لا تتسامح مع البشر الذين لم تخترهم. لكن هذه التنانين الثمانية؟ إنها تحلق مباشرة نحونا – وبسرعة هائلة.

وما إن خلت أنها ستمر فوق رؤوسنا، حتى انقضت عموديًا، وضربت الهواء بأجنحتها الشفافة الضخمة، لتتوقف فجأة، مثيرة رياحًا عاتية كادت تطيح بي للخلف بينما تحط على الجدار الخارجي نصف الدائري. تتموج حراشف صدورها مع حركتها، وتنغرز مخالبها الحادة كالشفرات في حافة الجدار من كلا الجانبين.

الآن أدركت سبب بلوغ سمك الجدران عشرة أقدام. إنها ليست مجرد حاجز. حافة القلعة هي أشبه بمجثم ملعون.

ينسدل فكي من فرط الدهشة. خلال سنواتي الخمس التي عشتها هنا، لم يسبق لي أن رأيت مشهدًا كهذا، لكن مرة أخرى، لم يُسمح لي قط بمشاهدة ما يحدث في يوم التجنيد.

يصرخ بعض المتدربين ذعرًا.

يبدو أن الجميع يرغبون في أن يصبحوا راكبي تنانين حتى يجدوا أنفسهم على بُعد عشرين قدمًا منها حقًا.

يضرب البخار وجهي بينما يزفر التنين الأزرق الداكن القابع أمامي مباشرة عبر فتحتي أنفه الواسعتين. ترتفع قرونه الزرقاء اللامعة فوق رأسه بانحناءة أنيقة وفتاكة، وتتوهج أجنحته للحظة قبل أن يطويها، ليتوج طرف مفصله العلوي مخلب واحد شرس. ذيول التنانين مميتة بالقدر ذاته، لكنني لا أستطيع رؤيتها من هذه الزاوية، أو حتى تحديد سلالة كل تنين دون ذلك الدليل.

إنها جميعًا كائنات مهلكة.

يتمتم داين، بينما تتفتت كتل صخرية تحت قبضة التنانين، وتتهاوى إلى الساحة في شكل صخور بحجم جذعي:

– «سنضطر لاستدعاء البنائين مرة أخرى.»

هناك ثلاثة تنانين بدرجات مختلفة من اللون الأحمر، واثنان بدرجتين من الأخضر – مثل تايرِن، تنين ميرا – وواحد بني مثل تنين أمي، وآخر برتقالي، بالإضافة إلى التنين الأزرق الداكن الهائل أمامي. إنها ضخمة بشكل يطغى على هيكل القلعة بأسرها، وتضيق عيونها الذهبية وهي تحدق فينا بنظرات تقييم مطلقة.

لو لم تكن التنانين بحاجة إلينا نحن البشر الضعفاء لتطوير قدراتنا السحرية من خلال الارتباط بها، ولنسج التعاويذ الوقائية التي تغذيها وتمدها بالطاقة حول نافار، لكنت شبه متأكدة من أنها ستلتهمنا جميعًا وتنتهي منا. لكنها تحب حماية

الوادي – الوادي الذي يقع خلف باسجيات والذي تعتبره التنانين موطنها – من غريفيون المرتزقة عديمي الرحمة، ونحن بدورنا نحب البقاء على قيد الحياة، لذا ها نحن ذا في أغرب الشراكات على الإطلاق.

يكاد قلبي يثب من صدري، وأنا أؤيده تمامًا في ذلك، لأنني أود الهرب أيضًا. مجرد التفكير في أنني من المفترض أن أمتطي أحد هذه الكائنات هو فكرة مجنونة حد اللعنة.

يندفع أحد المتدربين من الجناح الثالث، صارخًا وهو يركض نحو الحصن الحجري خلفنا. نلتفت جميعًا لنراقبه وهو يركض بأقصى سرعة نحو الباب المقوس الضخم في المنتصف. أكاد أرى الكلمات المنحوتة في القوس من هنا، لكنني أحفظها عن ظهر قلب بالفعل: *«تنين من دون فارسه، مأساة. فارس من دون تنينه، ميت.»*

بمجرد الارتباط، لا يستطيع راكبو التنانين العيش دون تنانينهم، لكن معظم التنانين يمكنها الاستمرار في العيش بصورة طبيعية بعد وفاتنا. ولهذا السبب تختار التنانين ركابها بعناية فائقة، حتى لا تتعرض للإذلال باختيارها شخصًا جبانًا، ليس وكأن التنين قد يعترف بارتكابه خطأً أبدًا.

يفتح التنين الأحمر القابع على اليسار فمه الشاسع، كاشفًا عن أسنان بحجمي تقريبًا. فك يمكنه أن يسحقني لو أراد، كما تُسحق حبة العنب. تندلع النيران على طول لسانه، ثم تندفع للخارج في لهب مروع نحو المتدرب الفارب.

فيتحول إلى كومة من الرماد على الحصى قبل أن يصل حتى إلى ظل الحصن.

ثمانية وستون قتيلًا.

تلفح حرارة النيران جانب وجهي بينما أسرع في إعادة انتباهي للأمام. إذا حاول أي شخص آخر الهرب وأُعدم بالمثل، فلا أريد أن أرى ذلك. تتعالى أصوات صراخ أخرى من حولي. فأطبق فكيّ بأقصى قوة أمتلكها لأظل صامتة.

تندلع عاصفتان أخريان من الحرارة، واحدة عن يساري والأخرى عن يميني. الآن أصبحوا سبعين.

يبدو التنين الأزرق الداكن وكأنه يميل برأسه نحوي، كما لو أن عينيه الذهبيتين الضيقتين قادرتان على اختراقي ورؤية الخوف الذي يعتصر معدتي والشك الذي يلتف بخبث حول قلبي. أراهن أنه يمكنه حتى رؤية الضمادة التي تلف ركبتي. إنه يعلم أنني في موقف ضعف، وأنني أصغر من أن أتسلق ساقه الأمامية وأمتطيه، وأضعف من أن أصمد في الرحلة. التنانين تعرف دائمًا.

لكنني لن أهرب. لم أكن لأقف هنا اليوم لو كنت أستسلم في كل مرة يبدو فيها التغلب على الصعاب أمرًا مستحيلًا. لن أموت اليوم. تتردد الكلمات في ذهني تمامًا كما حدث قبل صعودي المتراس وخلال عبوره.

أجبر كتفيّ على الاعتدال وأرفع ذقني بثبات.

يطرف التنين بعينيه، وهو ما قد يكون علامة على الموافقة، أو ربما الملل، ويشيح بنظره.

يصيح زايدن، وهو يمسح بنظراته صفوف المتدربين المتبقية بنظرة حاسبة لا تختلف عن نظرة التنين الأزرق الداكن خلفه:

– «هل هناك من يرغب في تغيير رأيه؟ لا؟ ممتاز. نصفكم تقريبًا سيكون في عداد الموتى بحلول هذا الوقت من العام القادم.»

يخيم الصمت على التشكيل، باستثناء بعض النحيب المتقطع من ناحية اليسار، فيستطرد:

– «وسيلقى ثلثكم المصير نفسه في العام الذي يليه، والشيء ذاته في عامكم الأخير. لا أحد يكترث بمن يكون والداك هنا. حتى الابن الثاني للملك تاوري لقى حتفه خلال يوم التصفية. لذا أخبروني مجددًا: هل تشعرون بأنكم لا تقهرون الآن بعد أن نجحتم في الانضمام إلى قطاع راكبي التنانين؟ هل تظنون أنكم محصنون؟ هل تعتبرون أنفسكم من النخبة؟»

لم يهلل أحد هذه المرة.

تندفع موجة أخرى من الحرارة – لكن هذه المرة نحو وجهي مباشرة – فتتقلص كل عضلة في جسدي، متأهبة للاحتراق. لكنها لم تكن نيرانًا... بل مجرد بخار، يطيح بضفائر ريانون للخلف بينما تنهي التنانين زفيرها المتزامن. في تلك اللحظة، يتغير لون سروال المتدرب في السنة الأولى الذي يقف أمامي، وتمتد بقعة داكنة على طول ساقيه.

إنهم يريدون بث الرعب في قلوبنا. وقد أنجزوا المهمة بنجاح.

يشير زايدن نحو التنين الأزرق الداكن ويميل بجسده للأمام قليلًا، وكأنه يهمس لنا بسر خطير بينما تتشابك نظراتنا، ويقول:

– «لأنكم لستم محصنين أو مميزين بالنسبة لهم. بالنسبة للتنانين، أنتم لستم سوى فرائس.»

«حلبة القتال هي البوتقة التي تُصقل فيها معادن الراكبين أو تُكسر. ففي النهاية، ما من تنين يحترم نفسه قد يختار راكبًا يعجز عن الدفاع عن نفسه، وما من متدرب يحترم نفسه قد يسمح بمثل هذا التهديد للجناح بمواصلة التدريب.»

– دليل الرائد أفيندرا لقطاع راكبي التنانين

(النسخة غير المصرح بها)



الفصل الرابع

يقرأ النقيب فيتزجيبونز من سجل الموتى، محاطًا بنساخين آخرين على المنصة بينما نقف في تشكيل صامت في الساحة، نحدق بأعين نصف مغمضة في شمس الصباح الباكر:

– «إيلينا سوسا، برايدن بلاكبيرن.»

في هذا الصباح، نرتدي جميعًا زي الراكبين الأسود، وتتألق نجمة فضية واحدة رباعية الرؤوس على عظمة الترقوة، وهي شارة متدرب في سنته الأولى، إلى جانب رقعة الجناح الرابع على كتفي. صُرفت لنا بالأمس أزياء رسمية قياسية، عبارة عن سترات وسراويل صيفية ضيقة وإكسسوارات بعد انتهاء اختبار المتراس، لكن لم تُصرف لنا الملابس الجلدية الخاصة بالطيران. فلا جدوى من توزيع أزياء قتالية أكثر سمكًا وحماية عندما يكون نصفنا في عداد الموتى بحلول يوم التصفية

في أكتوبر. لا يتوافق المشد المدرع الذي صنعته لي ميرا مع اللوائح، لكنني أبدو منسجمة تمامًا وسط المئات من الأزياء المعدلة من حولي.

بعد انقضاء الأربع والعشرين ساعة الماضية وقضاء ليلة واحدة في ثكنات الطابق الأول، بدأت أدرك أن هذا القطاع يمثل مزيجًا غريبًا من مذهب المتعة القائم على فكرة "قد نموت غدًا" والكفاءة الوحشية باسم السبب ذاته.

يواصل النقيب فيتزجيبونز القراءة، بينما يغير النساخون بجانبه وقفتهم:

– «جيس ساذرلاند. دوغال لوبركو.»

أعتقد أننا وصلنا إلى مكان ما في الخمسينيات، لكني فقدت العد عندما قرأ اسم ديلان قبل بضع دقائق. سيكون هذا هو التأبين الوحيد الذي ستحظى به هذه الأسماء، والمرة الوحيدة التي ستُذكر فيها في القلعة، لذا أحاول التركيز، لحفر كل اسم في ذاكرتي، لكن العدد هائل جدًا.

تتهيج بشرتي من ارتداء الدرع طوال الليل كما نصحتني ميرا، وتؤلمني ركبتي بشدة، لكني أقاوم الرغبة في الانحناء وتعديل الضمادة التي تمكنت من وضعها في الخصوصية المنعدمة لسريري في ثكنات السنة الأولى قبل أن يستيقظ أي شخص آخر.

نحن مائة وستة وخمسون متدربًا في الطابق الأول من مبنى السكن الجامعي، أسرتنا موزعة في أربعة صفوف مرتبة في المساحة المفتوحة. ورغم أن جاك بارلو قد وُضع في مساكن الطابق الثالث، إلا أنني لست على استعداد للسماح لأي منهم برؤية نقاط ضعفي. ليس قبل أن أعرف بمن يمكنني الوثوق. فالغرف الخاصة تشبه الملابس الجلدية للطيران – لا تحصل عليها إلا بعد أن تنجو من يوم التصفية.

يغلق النقيب فيتزجيبونز السجل ويقول:

– «سيمون كاستانيدا. نودع أرواحهم لـ مالك.» إله الموت.

أطرف بعينيّ. أظن أننا كنا أقرب إلى النهاية مما اعتقدت.

لا يوجد ختام رسمي للتشكيل، ولا لحظة صمت أخيرة. تغادر الأسماء المسجلة المنصة مع النساخين، وينكسر الصمت بينما يلتفت جميع قادة الفرق للبدء في مخاطبة فرقهم.

يقول داين، وعيناه تلتقيان بعينيّ لجزء من الثانية قبل أن يشيح بنظره متظاهرًا باللامبالاة:

– «آمل أن تكونوا جميعًا قد تناولتم إفطاركم، لأنكم لن تحظوا بفرصة أخرى قبل الغداء.»

تهمس ريانون بجانبي:

– «إنه يجيد التظاهر بأنه لا يعرفكِ.»

أجيبها بنفس الهدوء، وتراودني ابتسامة، لكنني أحافظ على تعبير وجهي خاليًا من الانفعالات قدر الإمكان وأنا أتشرب رؤيته:

– «بالفعل.»

تلعب الشمس في خصلات شعره البني الرملي، وعندما يدير رأسه، ألمح ندبة تطل من لحيته على طول ذقنه لم ألاحظها أمس بطريقة ما.

يتابع داين حديثه، بينما يشق النساخون طريقهم حول حافة الساحة إلى يميني، عائدين إلى قطاعهم:

– «طلاب السنتين الثانية والثالثة، أفترض أنكم تعرفون وجهتكم.»

أتجاهل ذلك الصوت الخافت بداخلي الذي يحتج بأن هذا كان من المفترض أن يكون قطاعي. فالتفكير فيما كان يمكن أن يكون لن يساعدني على البقاء حية لرؤية شروق شمس الغد.

تتعالى همهمة بالموافقة من كبار المتدربين أمامنا. وبصفتنا طلاب سنة أولى، فإننا نقف في الصفين الخلفيين من المربع الصغير الذي يشكل الفرقة الثانية.

يدوي صوت داين فوقنا، ويصعب التوفيق بين هذا القائد الصارم الجاد وبين الشاب المرح المبتسم الذي عرفته دومًا:

– «طلاب السنة الأولى، كان ينبغي لواحد منكم على الأقل أن يحفظ جدوله الأكاديمي عندما وُزع عليكم أمس. ابقوا معًا. أتوقع أن تكونوا جميعًا على قيد الحياة عندما نلتقي بعد ظهر هذا اليوم في صالة التدريب على القتال.»

تبًا، لقد كدت أنسى أننا سنتدرب على القتال اليوم.

ليس لدينا تدريب في الصالة سوى مرتين في الأسبوع، لذا ما دمت قادرة على اجتياز جلسة اليوم دون أذى، فسأكون في مأمن لبضعة أيام أخرى. على الأقل لدي بعض الوقت لأثبت قدميّ قبل أن نضطر للتعامل مع القفاز – مسار العقبات العمودي المرعب الذي أخبرونا أن علينا إتقانه عندما يتغير لون أوراق الشجر بعد شهرين.

إذا تمكنا من إكمال القفاز النهائي، فسنسير عبر وادي الصندوق الطبيعي فوقه والذي يؤدي إلى حقل الطيران من أجل العرض التقديمي، حيث ستلقي تنانين هذا العام الراغبة في الارتباط نظرتها الأولى على المتدربين المتبقين. وبعد ذلك بيومين، سيقام يوم التصفية في الوادي أسفل القلعة.

أسترق نظرة حولي إلى زملائي الجدد في الفرقة، ولا يسعني إلا أن أتساءل من منا، إن وجد، سيصل إلى حقل الطيران ذلك، ناهيك عن ذلك الوادي.

لا تستبقي هموم الغد.

يسأل المتدرب المتعجرف في السنة الأولى من خلفي:

– «وماذا لو لم نكن كذلك؟»

لا أكلف نفسي عناء النظر، لكن ريانون تفعل، وتدير عينيها بملل وهي تلتفت للأمام مجددًا.

يجيب داين بهزة لامبالية من كتفيه:

– «حينها لن أضطر للقلق بشأن تعلم اسمك، لأنه سيُتلى في صباح الغد.»

تضحك متدربة في السنة الثانية أمامي بسخرية، فتهتز حَلقتان صغيرتان في شحمة أذنها اليسرى إثر حركتها، بينما تظل الفتاة ذات الشعر الوردي صامتة.

ينظر داين إلى طالب السنة الأولى على يساري ويقول:

– «سويار؟»

يجيب المتدرب الطويل النحيف ذو البشرة الفاتحة المليئة بالنمش بإيماءة متوترة:

– «سأوصلهم إلى هناك.»

يرتجف فكه المنمش، فيعتصر صدري تعاطفًا. إنه أحد المعيدين – متدرب لم يرتبط بأي تنين خلال يوم التصفية، وعليه الآن أن يعيد العام بأكمله.

يأمر داين:

– «انطلقوا.»

ويتفرق فصيلنا في نفس الوقت تقريبًا الذي تتفرق فيه الفصائل الأخرى، لتتحول الساحة من تشكيل منظم إلى حشد من المتدربين الثرثارين. ينصرف متدربو السنتين الثانية والثالثة في اتجاه آخر، بمن فيهم داين.

يصيح سويار فينا نحن الثمانية من طلاب السنة الأولى:

– «أمامنا حوالي عشرين دقيقة للوصول إلى الفصل. الطابق الرابع، الغرفة الثانية على اليسار في الجناح الأكاديمي. اجمعوا أغراضكم ولا تتأخروا.»

لا يكلف نفسه عناء الانتظار لتأكيد أننا سمعناه قبل أن يتجه نحو السكن الجامعي.

تقول ريانون ونحن نتبع الحشد نحو السكن:

– «لا بد أن هذا صعب. أن يُعاد إلى الوراء ويضطر لفعل كل هذا من جديد.»

يقول المتعجرف وهو يتجاوزنا على اليمين، ويتأرجح شعره البني الداكن على جبهته السمراء مع كل خطوة يخطوها هذا المتدرب القصير:

– «أفضل من أن يكون ميتًا.»

اسمه ريدوك، إن لم تخني الذاكرة من خلال المقدمات الموجزة التي مررنا بها قبل العشاء الليلة الماضية.

أرد وأنا أتجه نحو الزحام الذي تشكل عند الباب:

– «هذا صحيح.»

تضيف ريانون:

– «سمعت متدربًا في السنة الثالثة يقول إنه عندما ينجو متدرب في السنة الأولى من يوم التصفية دون أن يرتبط بتنين، يسمح له القطاع بإعادة السنة والمحاولة مرة أخرى إذا أراد.»

ولا يسعني إلا أن أتساءل عن مقدار العزيمة التي يتطلبها النجاة في عامك الأول ثم الاستعداد لإعادته فقط من أجل فرصة أن تصبح راكب تنين يومًا ما. فمن السهل جدًا أن تلقى حتفك في المرة الثانية.

يصفر طائر إلى اليسار، فأنظر فوق الحشد، ويقفز قلبي لأنني أتعرف على النغمة على الفور. داين.

يتكرر النداء، فأحدد مصدره بالقرب من الباب المؤدي إلى القاعة المستديرة. إنه يقف في أعلى الدرج العريض، وفي اللحظة التي تتلاقى فيها أعيننا، يومئ برأسه إيماءة خفيفة نحو الباب.

أبدأ بالقول لريانون، لكنها كانت قد تتبعت خط بصري بالفعل:

– «سأكون...»

وتقاطعني قائلة:

– «سأحضر أغراضكِ وأقابلكِ هناك. إنها تحت سريركِ، أليس كذلك؟»

أسألها:

– «ألا تمانعين؟»

تمنحني ابتسامة تآمرية وتصطدم بكتفي بخفة وتقول:

– «سريركِ بجوار سريري يا ڤيوليت. ليس الأمر مزعجًا. اذهبي!»

أبتسم بسرعة وأقول:

– «شكرًا لكِ!»

ثم أشق طريقي عبر الحشد حتى أتحرر عند الحافة. لحسن الحظ، لا يتجه الكثير من المتدربين نحو القاعة المشتركة، مما يعني أنه لا توجد عيون تراقبني بمجرد أن أنزلق داخل أحد الأبواب الأربعة العملاقة للقاعة المستديرة.

أسحب نفسًا عميقًا وتتسع رئتاي. تبدو تمامًا كما رأيتها في الرسومات بالأرشيف، لكن ما من رسم أو وسيط فني يمكنه أن يجسد مدى روعة وعظمة هذا المكان، أو دقة كل تفصيلة فيه. قد تكون القاعة المستديرة أروع قطعة معمارية ليس فقط في القلعة بل في باسجيات بأكملها. يبلغ ارتفاع الغرفة ثلاثة طوابق، من أرضياتها الرخامية المصقولة إلى سقفها الزجاجي المقبب الذي يفلتر ضوء الصباح الناعم. إلى اليسار يوجد بابان مقوسان ضخمان يؤديان إلى الجناح

الأكاديمي، يقابلهما بابان مماثلان على اليمين يؤديان إلى مساكن الطلاب، وعلى ارتفاع نصف دزينة من الدرجات، توجد أربعة مداخل أمامي تفتح على قاعة التجمع.

تنتصب حول القاعة المستديرة، على مسافات متساوية، ستة أعمدة رخامية مهيبة تتلألأ بألوانها المتنوعة من الأحمر والأخضر والبني والبرتقالي والأزرق والأسود، منحوتة على هيئة تنانين، وكأنها هبطت محطمة من السقف في الأعلى. هناك مساحة كافية بين الأفواه المزمجرة عند قاعدة كل منها لتتسع لأربع فرق على الأقل في المنتصف، لكنها فارغة الآن.

أمر بجوار التنين الأول، المنحوت من رخام أحمر داكن، فتقبض يد على كوعي، وتسحبني للخلف وراء العمود حيث توجد فجوة بين المخلب والجدار.

يلفني داين لأواجهه ويقول بصوت خافت وهادئ:

– «إنه أنا فقط.»

كان التوتر يشع من كل ذرة في كيانه.

أبتسم وأهز رأسي وأقول:

– «توقعت ذلك، بما أنك كنت من يصفر كالطائر.»

لقد كان يستخدم تلك الإشارة منذ أن كنا أطفالًا نعيش بالقرب من حدود كروفلا بينما كان آباؤنا متمركزين هناك مع الجناح الجنوبي.

يعقد حاجبيه بينما تمسح نظراته جسدي، بحثًا عن إصابات جديدة بلا شك، ويقول:

– «أمامنا بضع دقائق فقط قبل أن يكتظ هذا المكان. كيف حال ركبتكِ؟»

أجيبه:

– «إنها تؤلمني، لكني سأعيش.»

لقد عانيت من إصابات أسوأ بكثير وكلانا يعلم ذلك، لكن لا جدوى من مطالبته بالاسترخاء وهو لن يفعل ذلك بوضوح.

تتغضن الجبهة لديه تعبيرًا عن القلق، وأعقد ذراعيّ لأمنع نفسي من تمليس تلك الخطوط بأصابعي، ويسألني:

– «لم يحاول أحد العبث معكِ الليلة الماضية؟»

يستقر قلقه على صدري كحجر ثقيل. وأمازحه، مجبرة ابتسامتي على الاتساع:

– «وهل سيكون الأمر سيئًا جدًا لو فعلوا؟»

يسقط ذراعيه إلى جانبيه ويتنهد بقوة حتى يتردد صدى الصوت في القاعة المستديرة ويقول:

– «أنتِ تعلمين أن هذا ليس ما أقصده يا ڤيوليت.»

أستند بظهري إلى الحائط لأخفف بعض الوزن عن ركبتي وأقول:

– «لم يحاول أحد قتلي الليلة الماضية يا داين، أو حتى إيذائي. أنا شبه متأكدة من أننا كنا جميعًا مرهقين وممتنين لكوننا على قيد الحياة لدرجة تمنعنا من البدء في ذبح بعضنا البعض.»

لقد خيم الهدوء على الثكنات بسرعة كبيرة بعد إطفاء الأنوار. كان هناك الكثير ليقال عن الإرهاق العاطفي لذلك اليوم.

يسأل داين:

– «ولقد أكلتِ، أليس كذلك؟ أعلم أنهم يخرجونكم من المهاجع بسرعة عندما تدق الأجراس معلنة السادسة.»

أجيبه:

– «لقد أكلت مع بقية طلاب السنة الأولى، وقبل أن تفكر حتى في إلقاء محاضرة عليّ، أعدت لف ركبتي تحت أغطيتي وضفرت شعري قبل أن تدق الأجراس. لقد اعتدت على الاستيقاظ مبكرًا كالنساخين منذ سنوات يا داين. إنهم يستيقظون قبلنا بساعة. هذا يجعلني أرغب في التطوع لمهمة الإفطار، في الواقع.»

يلقي نظرة على الضفيرة الفضية المشدودة التي ثبتّها كعكة فوق الشعر الداكن بالقرب من تاج رأسي ويقول:

– «يجب أن تقصيه.»

أهز رأسي وأقول:

– «لا تبدأ معي.»

يصر داين:

– «هناك سبب يجعل النساء يقصصن شعرهن هنا يا ڤاي. في اللحظة التي يمسك فيها شخص بشعركِ في حلبة القتال...»

أقاطعه بحدة:

– «شعري هو أقل ما يقلقني في حلبة القتال.»

تتسع عيناه ويقول:

– «أنا أحاول فقط الحفاظ على سلامتكِ. أنتِ محظوظة لأنني لم أدفعكِ بين يدي النقيب فيتزجيبونز هذا الصباح وأتوسل إليه أن يخرجكِ من هنا.»

أتجاهل هذا التهديد المبطن. نحن نضيع الوقت، وهناك معلومة واحدة أحتاج لمعرفتها من داين:

– «لماذا نُقل فصيلنا من الجناح الثاني إلى الجناح الرابع بالأمس؟»

يتصلب جسده ويشيح بنظره عني. وأطالبه:

– «أخبرني.»

أحتاج إلى معرفة ما إذا كنت أقرأ موقفًا لا وجود له.

يتمتم وهو يمرر يده في شعره:

– «تبًا. زايدن ريورسون يريدكِ ميتة. لقد أصبح هذا معروفًا بين كادر القيادة بعد أحداث الأمس.»

لا. أنا لا أبالغ في رد فعلي.

أقول، وقلبي لم يقفز حتى مع تأكيد ما كنت أعرفه سلفًا:

– «لقد نقل الفصيل ليكون لديه سلطة مباشرة عليّ. ليتمكن من فعل ما يشاء دون أن يثير تساؤل أحد. أنا وسيلته للانتقام من أمي. هذا ما ظننته. كنت أحتاج فقط للتأكد من أن مخيلتي لا تجمح بي.»

يخطو داين للأمام ويحيط وجهي بيديه، ويمسح بإبهامه على عظمة وجنتي بحركة مهدئة ويقول:

– «لن أسمح بأن يصيبكِ مكروه.»

أبتعد عن الحائط، خارجة من متناوله وأقول:

– «ليس بيدك الكثير لتفعله. يجب أن أذهب إلى صفي.»

بدأت بعض الأصوات تتردد في القاعة المستديرة مع مرور المتدربين.

ينقبض فكه للحظة، وتعود الخطوط بين حاجبيه ويقول:

– «فقط ابذلي قصارى جهدكِ لتظلي بعيدة عن الأنظار، خاصة عندما نكون في حصة الموجز القتالي. ليس وكأن ألوان شعركِ لا تفضحكِ، لكنها الحصة الوحيدة التي يحضرها القطاع بأكمله. سأرى ما إذا كان بإمكان أحد طلاب السنة الثانية الوقوف للحراسة...»

أدير عيني بملل وأقول:

– «لا أحد سيغتالني أثناء حصة التاريخ. الجانب الأكاديمي هو المكان الوحيد الذي لا يجب أن أقلق بشأنه. ماذا سيفعل زايدن؟ هل سيخرجني من الفصل ويطعنني بسيف في منتصف الردهة؟ أم تعتقد حقًا أنه سيطعنني في منتصف حصة الموجز القتالي؟»

يقول بجدية:

– «لا أستبعد ذلك عنه. إنه بلا رحمة يا ڤيوليت. لماذا تعتقدين أن تنينه اختاره؟»

تتقلص معدتي. الطريقة التي قيمتني بها تلك العيون الذهبية...

– «التنين الأزرق الداكن الذي هبط خلف المنصة أمس؟»

يومئ داين برأسه ويقول:

– «سجايل تنين أزرق ذو ذيل خنجري، وهي... شرسة.» ويبتلع ريقه قبل أن يتابع – «لا تفهميني خطأ. كاث خطير عندما يغضب – كما هو حال جميع التنانين الحمراء ذات الذيل السيفي – لكن حتى معظم التنانين تتجنب سجايل.»

أحدق في داين، في الندبة التي تحدد فكه والنظرة القاسية في عينيه، المألوفة والغريبة في آنٍ واحد.

يسألني بينما تزداد الأصوات من حولنا صخبًا وتتوالى وقع الخطوات ذهابًا وإيابًا:

– «ماذا؟»

أقول الجمل ببطء، آملة أن تترسخ في ذهني، وأن أدرك حقًا مدى التغيير الذي طرأ عليه:

– «لقد ارتبطت بتنين. ولديك قدرات سحرية لا أعرف عنها شيئًا. تفتح الأبواب بالسحر. وأنت قائد فصيل. من الصعب فقط استيعاب أنك ما زلت... داين.»

تسترخي وقفته، ويرفع الكم القصير لسترته، كاشفًا عن وشم لتنين أحمر على كتفه ويقول:

– «أنا لا أزال أنا. فقط امتلكت هذا الآن. أما بالنسبة للقدرات السحرية، فإن كاث يوجه كمية كبيرة من السحر مقارنة ببعض التنانين الأخرى، لكنني لست بارعًا فيها بعد. لم أتغير إلى هذا الحد. أما بالنسبة للسحر البسيط الموجه من خلال رابطة وشمي، فيمكنني القيام بالأشياء المعتادة مثل فتح الأبواب، وزيادة سرعتي، وتشغيل أقلام الحبر بدلاً من استخدام الريش غير العملية.»

أسأله:

– «ما هي قدرتك السحرية الفريدة؟»

كل راكب يمكنه أداء سحر بسيط بمجرد أن يبدأ تنينه في توجيه الطاقة إليه، لكن القدرة السحرية الفريدة هي المهارة الأقوى التي تنبع من الرابطة الفريدة بين التنين وراكبه. بعض الراكبين يمتلكون نفس القدرات السحرية الفريدة. مثل التحكم في النار، والجليد، والماء، وهي من أكثر القدرات السحرية الفريدة شيوعًا وأكثرها فائدة في المعارك. وهناك القدرات السحرية الفريدة التي تجعل الراكب استثنائيًا. كأمي التي يمكنها التحكم في العواصف. وميلغرين الذي يمكنه رؤية نتائج المعارك. ولا يسعني إلا أن أتساءل مجددًا عن القدرة السحرية الفريدة التي يمتلكها زايدن – وما إذا كان سيستخدمها لقتلي عندما لا أتوقع ذلك.

يعترف داين بهدوء:

– «يمكنني قراءة ذكريات الشخص الحديثة. ليس كقراءة الأفكار أو ما شابه
– يجب أن أضع يدي على الشخص، لذا أنا لا أشكل خطرًا أمنيًا. لكن قدرتي السحرية الفريدة ليست معروفة للجميع. أعتقد أنهم سيستخدمونني في الاستخبارات.»

ويشير إلى رقعة البوصلة أسفل رقعة الجناح الرابع على كتفه. ارتداء هذا الشعار يشير إلى أن القدرة السحرية الفريدة سرية للغاية. لم ألاحظها أمس فقط.

أبتسم، وأتنفس بعمق لتهدئة نفسي وأنا أتذكر أن زي زايدن لم يكن يحمل أي رقع وأقول:

– «مستحيل.»

يومئ برأسه، وابتسامة متحمسة ترتسم على شفتيه ويقول:

– «ما زلت أتعلم، وبالطبع أكون أفضل فيها كلما كنت أقرب إلى كاث، ولكن نعم. أضع يدي فقط على صدغي شخص ما، ويمكنني رؤية ما رآه. إنه... أمر لا يصدق.»

هذه القدرة السحرية الفريدة ستميز داين عن غيره. ستجعله واحدًا من أثمن أدوات الاستجواب التي نملكها.

أمازحه قائلة:

– «وتقول إنك لم تتغير.»

يقول بجدية:

– «هذا المكان قادر على تغيير كل شيء تقريبًا في الشخص يا ڤاي. إنه يجردكِ من كل الهراء والمجاملات، ليكشف عن جوهركِ الحقيقي. إنهم يريدون ذلك. يريدون قطع كل روابطكِ السابقة ليكون ولاؤكِ لجناحكِ فقط. هذا هو أحد الأسباب العديدة التي تمنع طلاب السنة الأولى من مراسلة عائلاتهم وأصدقائهم،

وإلا لتعلمين أنني كنت سأكتب لكِ. لكن عامًا واحدًا لا يغير من كوني ما زلت أعتبركِ أعز أصدقائي. أنا لا أزال داين، وفي مثل هذا الوقت من العام القادم، ستظلين ڤيوليت. سنظل نحن كما كنا.»

أمازحه بينما تقرع الأجراس:

– «إذا كنت لا أزال على قيد الحياة. يجب أن أذهب إلى صفي.»

يقول وهو يشير نحو حافة العمود:

– «أجل، وأنا سأتأخر عن حقل الطيران. اسمعي، ريورسون لا يزال قائد جناح. سيسعى خلفكِ، لكنه سيجد طريقة لفعل ذلك ضمن قواعد الدستور، على الأقل عندما يراقبه الناس. لقد كنت...» – تتورد وجنتاه – «...صديقًا مقربًا جدًا من آمبر مافيس – القائدة الحالية للجناح الثالث – في العام الماضي، وأنا أخبركِ، الدستور مقدس بالنسبة لهم. الآن، اذهبي أنتِ أولاً. سأراكِ في صالة التدريب على القتال.» يبتسم ليطمئنني.

أبتسم وأقول وأنا أستدير على عقبي وأمشي حول قاعدة العمود الضخم إلى القاعة المستديرة شبه المزدحمة:

– «أراك لاحقًا.»

هناك بضع عشرات من المتدربين هنا، يمشون من مبنى إلى آخر، ويستغرق الأمر ثانية لأستوعب محيطي.

ألمح الأبواب الأكاديمية بين الأعمدة البرتقالية والسوداء وأبدأ في هذا الاتجاه، مندمجة مع الحشد.

يقف شعر مؤخرة عنقي وتسري قشعريرة أسفل عمودي الفقري وأنا أعبر وسط القاعة المستديرة، ثم تتوقف خطواتي. يتحرك المتدربون حولي، لكن عينيّ تنجذبان للأعلى، نحو قمة الدرج المؤدي إلى قاعة التجمع.

يا للهول.

كان زايدن ريورسون يراقبني بعينين ضيقتين، وقد شمر أكمام زيه العسكري فوق ذراعيه الضخمتين المطويتين على صدره، ليعرض التحذير المحفور في ذراعه المغطى بالوشم بالكامل، بينما يتحدث إليه متدرب في السنة الثالثة بجانبه وهو يتجاهله بوضوح.

يقفز قلبي ويستقر في حلقي. تفصل بيننا مسافة لا تتجاوز العشرين قدمًا. ترتجف أصابعي، مستعدة لالتقاط أحد النصال المغمدة عند أضلاعي. هل سيفعلها هنا؟ في منتصف القاعة المستديرة؟ الأرضية الرخامية رمادية اللون، لذا لن يصعب على الموظفين تنظيف الدماء.

يميل رأسه، ويدرسني بتلك العينين الداكنتين بشكل لا يصدق، وكأنه يحدد أكثر نقاطي ضعفًا.

يجب أن أركض، أليس كذلك؟ لكن على الأقل يمكنني رؤيته قادمًا إذا بقيت في هذا الموقف.

يتحول انتباهه، وينظر إلى يميني، ويرفع حاجبًا واحدًا نحوي.

تضطرب معدتي بينما يخرج داين من خلف العمود.

يبدأ داين بمجرد وصوله إليّ، وقد قطب حاجبيه حيرة:

– «ما الذي...؟»

أقاطعه بحدة:

– «أعلى الدرج. الباب الرابع.»

يرفع داين نظره بسرعة بينما يقل الحشد من حولنا، ويتمتم بلعنة، مقتربًا مني بشكل غير خفي. عدد أقل من الناس يعني عددًا أقل من الشهود، لكنني لست من الحماقة لأظن أن زايدن لن يقتلني أمام القطاع بأكمله إذا أراد ذلك.

يصيح زايدن، وابتسامة قاسية تلتوي على شفتيه:

– «كنت أعلم بالفعل أن والديكما مقربان، ولكن هل يجب عليكما أن تكونا مفضوحين هكذا بحق الجحيم؟»

يلتفت المتدربون القلائل الذين لا يزالون في القاعة المستديرة لينظروا إلينا.

يتابع زايدن، ونظراته تتنقل بيني وبين داين:

– «دعني أحزر، أصدقاء طفولة؟ بل وحتى الحب الأول؟»

أهمس:

– «لا يمكنه إيذاؤك دون سبب، أليس كذلك؟ دون سبب ودعوة لاجتماع نصاب قادة الأجنحة لأنك قائد فصيل. المادة الرابعة، القسم الثالث.»

يجيب داين، دون أن يكلف نفسه عناء خفض صوته:

– «صحيح، لكنكِ لستِ كذلك.»

يتحرك زايدن، نازلًا الدرج ويقول:

– «توقعت منك أن تبذل جهدًا أفضل في إخفاء ميولك وعواطفك يا آيتوس.»

تبًا. تبًا. تبًا.

يأمرني داين:

– «اركضي يا ڤيوليت. الآن.»

وأنطلق مسرعة.

«لقد علمت، وأنا على يقين من مخالفتي المباشرة لأوامر الجنرال ميلغرين، أنني أسجل اعتراضي الرسمي على الخطة المطروحة في موجز اليوم. ليس من رأي هذا الجنرال أن يُجبر أبناء قادة التمرد على مشاهدة إعدام آبائهم. لا ينبغي لأي طفل أن يشهد لحظة سلب حياة والديه.»

– تمرد التايريشي، موجز رسمي مُقدم للملك تاوري بقلم الجنرال ليليث سورنجيل



الفصل الخامس

تقول الأستاذة ديفيرا من الطابق المنخفض لقاعة المحاضرات الضخمة في وقت لاحق من الصباح:

– «مرحبًا بكم في أول حصة لكم في الموجز القتالي.»

تتألق رقعة قسم اللهب الأرجوانية الزاهية على كتفها، متناغمة تمامًا مع شعرها القصير. هذه هي الحصة الوحيدة التي تُعقد في هذه الغرفة الدائرية المتدرجة التي تلتف حول نهاية القاعة الأكاديمية بأكملها، وهي واحدة من غرفتين فقط في القلعة تتسع لجميع المتدربين. كل مقعد خشبي يئن تحت وطأة الجالسين عليه ممتلئ عن آخره، ويقف كبار المتدربين من طلاب السنة الثالثة مستندين إلى الجدران خلفنا، لكننا جميعًا نتسع في المكان.

يبدو الأمر مختلفًا تمامًا عن حصة التاريخ في الساعة الماضية، حيث لم يكن هناك سوى ثلاث فرق من طلاب السنة الأولى، ولكن على الأقل يجلس جميع طلاب السنة الأولى في فرقتنا معًا الآن. لو أتمكن فقط من تذكر أسمائهم جميعًا.

ريدوك يسهل تذكره – لقد ظل يلقي تعليقات ساخرة طوال حصة التاريخ. لكن آمل أن يكون أذكى من أن يحاول تكرار ذلك هنا. فالأستاذة ديفيرا ليست من النوع الذي يتقبل المزاح.

تواصل الأستاذة ديفيرا حديثها، ويشتد التوتر حول فمها وهي تمشي بخطوات بطيئة وموزونة أمام خريطة عملاقة للقارة يبلغ ارتفاعها عشرين قدمًا، مثبتة على الجدار الخلفي، ومحددة بتفاصيل دقيقة مواقع نقاطنا الدفاعية الأمامية على طول حدودنا:

– «في الماضي، نادرًا ما كان يُستدعى الراكبون للخدمة قبل التخرج.»

تضيء عشرات الأضواء السحرية المكان، معوضة بأكثر من اللازم عن افتقار القاعة للنوافذ، وتنعكس أشعتها على السيف الطويل الذي تحمله الأستاذة مشدودًا إلى ظهرها.

وتستطرد:

– «وإن حدث ذلك، فلطالما كانوا من طلاب السنة الثالثة الذين أمضوا وقتًا في ملازمة الأجنحة الأمامية، لكننا نتوقع منكم أن تتخرجوا ملمين إلمامًا تامًا بطبيعة التهديدات التي نواجهها. لا يقتصر الأمر على مجرد معرفة مواقع تمركز كل جناح.»

تأخذ وقتها، وتتواصل بصريًا مع كل طالب من السنة الأولى تقع عيناها عليه. تخبرني الرتبة على كتفها أنها نقيب، لكنني موقنة بأنها ستترقى إلى رتبة رائد قبل

أن تنهي فترة تناوبها في التدريس هنا، بالنظر إلى الأوسمة المتلألئة التي تزين صدرها.

وتتابع:

– «يجب أن تفهموا السياسات الداخلية لأعدائنا، والاستراتيجيات المتبعة للدفاع عن نقاطنا الأمامية ضد الهجمات المستمرة، وأن تكونوا على دراية شاملة بالمعارك الحديثة والجارية. إذا كنتم عاجزين عن استيعاب هذه الموضوعات الأساسية، فلا مكان لكم على ظهر تنين.»

ترفع حاجبًا أسود أغمق ببضع درجات من بشرتها البنية العميقة.

تهمس ريانون بجانبي وهي تدون ملاحظاتها بسرعة محمومة:

– «يا له من ضغط.»

أعدها هامسة:

– «سنكون بخير. لم يُرسل طلاب السنة الثالثة إلا إلى النقاط الوسطى كتعزيزات، ولم يُرسلوا يومًا إلى خط المواجهة الأمامي.»

لقد كنت أسترق السمع بما يكفي أثناء وجودي حول أمي لأعرف هذا القدر.

تستأنف الأستاذة ديفيرا:

– «هذه هي الحصة الوحيدة التي ستتلقونها يوميًا، لأنها الحصة الوحيدة التي ستشكل فارقًا إذا ما استُدعيتم للخدمة مبكرًا.»

تمسح نظرات الأستاذة ديفيرا القاعة من اليسار إلى اليمين وتتوقف عندي. تتسع عيناها للحظة، لكنها تمنحني ابتسامة راضية وإيماءة خفيفة قبل أن تمضي قدمًا في حديثها.

– «ونظرًا لأن هذه الحصة تُدرس يوميًا وتعتمد على أحدث المعلومات وتطورات الأحداث، فستكونون أيضًا تحت إشراف الأستاذ ماركهام، الذي لا يستحق منكم سوى أقصى درجات الاحترام.»

تلوح للنساخ ليتقدم، فيتحرك ليقف بجوارها، ليتناقض لون زيه الكريمي مع زيها الأسود الفاحم. ينحني مقتربًا عندما تهمس له بشيء، فيرتفع حاجباه الكثيفان عاليًا وهو يلتفت برأسه نحوي.

لا أجد تلك الابتسامة الراضية عندما تلتقي عينا العقيد المتعبتان بعينيّ، بل مجرد تنهيدة تملأ صدري بحزن عميق عندما أسمعها. كان من المفترض أن أكون تلميذته النجيبة في قطاع النساخين، تتويجًا لمسيرته قبل تقاعده. كم هو مثير للسخرية أن أصبح الآن الأقل حظًا في تحقيق أي نجاح في هذا القطاع.

يقول، وهو يفرك جسر أنفه البصلي بعد أن انتزع أخيرًا نظراته المخيبة للآمال من عينيّ:

– «من واجب النساخين ألا يقتصروا على دراسة الماضي وإتقانه، بل أن ينقلوا الحاضر ويوثقوه. فبدون تصوير دقيق لخطوطنا الأمامية، ومعلومات موثوقة نتخذ بناءً عليها قرارات استراتيجية، والأهم من ذلك – تفاصيل صادقة لتوثيق تاريخنا من أجل الأجيال القادمة، فإننا محكوم علينا بالهلاك، ليس فقط كمملكة بل كمجتمع بأسره.»

وهذا بالضبط هو السبب الذي جعلني أرغب دائمًا في أن أصبح نساخة. ليس وكأن ذلك يهم الآن.

تتحرك الأستاذة ديفيرا نحو الخريطة وتلوح بيدها، لتجلب ضوءًا سحريًا مباشرة فوق الحدود الشرقية مع مقاطعة برايفيك التابعة لمملكة بوروميل وتقول:

– «موضوعنا الأول اليوم. تعرض الجناح الشرقي الليلة الماضية لهجوم بالقرب من قرية شاكير من قِبل سرب من غريفيون وراكبي برايفيك.»

يا للهول. تسري همهمة عبر القاعة، فأغمس ريشتي في محبرة المكتب أمامي لأتمكن من تدوين الملاحظات. لا أطيق الانتظار حتى أتمكن من توجيه السحر لأستخدم ذلك النوعِ من الأقلام المرغوبة التي تحتفظ بها أمي على مكتبها. ترتسم ابتسامة على شفتيّ. بالتأكيد قد تكون هناك امتيازات لكونك راكب تنين. بل وستكون.

تستطرد الأستاذة ديفيرا:

– «بطبيعة الحال، تُحجب بعض المعلومات لدواعٍ أمنية، لكن ما يمكننا إخباركم به هو أن التعاويذ الوقائية قد ضعفت على امتداد قمم جبال إسبن.»

تفتح الأستاذة ديفيرا يديها فيتسع الضوء، لينير الجبال التي تشكل حدودنا مع برايفيك.

– «مما سمح للسرب ليس فقط باختراق الأراضي النافارية، بل ومكن ركابهم من توجيه سحرهم واستخدامه في وقت ما حول منتصف الليل.»

تهوي معدتي بينما تتعالى همهمة أخرى من المتدربين، ولا سيما طلاب السنة الأولى. التنانين ليست الحيوانات الوحيدة القادرة على توجيه القوى السحرية لركابها. فغريفيون من بوروميل يشاركونها هذه القدرة، لكن التنانين هي الكائنات الوحيدة القادرة على تغذية التعاويذ الوقائية التي تجعل أي سحر آخر غير سحرها مستحيلًا داخل حدودنا. وهي السبب في أن حدود نافار دائرية إلى حد ما – فقوتها تنبعث من الوادي ولا يمكن أن تمتد إلا لمسافة معينة، حتى مع تمركز الفصائل في كل نقطة حدودية.

بدون تلك التعاويذ، نحن هالكون لا محالة. ستصبح القرى النافارية مستباحة تمامًا عندما تهبط قوافل الإغارة من بوروميل وهو أمر لا مفر منه. فأولئك الأوغاد الجشعون لا يكتفون أبدًا بالموارد التي يملكونها. بل يطمعون دائمًا في مواردنا أيضًا، وما لم يتعلموا القناعة باتفاقياتنا التجارية، فلا أمل لنا في إنهاء التجنيد الإجباري في نافار. ولا أمل في العيش بسلام.

لكن إن لم نكن في حالة تأهب قصوى، فلا بد أنهم قد تمكنوا من إعادة نسج التعاويذ، أو على الأقل إعادة استقرارها.

تنهي الأستاذة ديفيرا حديثها وتطوي ذراعيها على صدرها:

– «قُتل سبعة وثلاثون مدنيًا في الهجوم خلال الساعة التي سبقت وصول فصيل من الجناح الشرقي، لكن الراكبين والتنانين تمكنوا من صد السرب وتكبيده خسائر فادحة.»

ترفع إصبعها متسائلة:

– «بناءً على هذه المعلومات، ما هي الأسئلة التي ستطرحونها؟ أريد إجابات من طلاب السنة الأولى فقط كبداية.»

سؤالي الأول سيكون لماذا بحق الجحيم ضعفت التعاويذ، لكن ليس وكأنهم سيجيبون على سؤال كهذا في قاعة مليئة بالمتدربين الذين لا يملكون أي تصريح أمني.

أتأمل الخريطة. تعتبر سلسلة جبال إسبن هي الأعلى على طول حدودنا الشرقية مع برايفيك، مما يجعلها المكان الأقل احتمالًا لشن هجوم، خاصة وأن غريفيون لا تتحمل الارتفاعات العالية كما تفعل التنانين، ربما لكونها نصف أسد ونصف نسر ولا يمكنها التكيف مع الهواء الرقيق في المرتفعات.

هناك سبب لنجاحنا في صد كل هجوم كبير على أراضينا طوال الستمائة عام الماضية، ونجحنا في الدفاع عن أراضينا في هذه الحرب التي لا تنتهي والتي طال أمدها لأربعمائة عام. فقدراتنا، سواء البسيطة أو القدرات السحرية الفريدة، تتفوق لأن تنانيننا قادرة على توجيه طاقة سحرية أكبر مما تستطيع غريفيون. فلماذا يهاجمون في تلك السلسلة الجبلية؟ وما الذي أدى إلى ضعف التعاويذ هناك؟

تطالب الأستاذة ديفيرا بصرامة:

– «هيا يا طلاب السنة الأولى، أثبتوا لي أنكم تمتلكون ما هو أكثر من مجرد التوازن الجيد. أثبتوا لي أنكم تتمتعون بمهارات التفكير النقدي التي تؤهلكم لوجودكم هنا. من الأهمية بمكان، أكثر من أي وقت مضى، أن تكونوا مستعدين لما يكمن وراء حدودنا.»

تسأل متدربة من السنة الأولى تجلس في الصفوف الأمامية:

– «هل هذه هي المرة الأولى التي تضعف فيها التعاويذ؟»

يتبادل الأستاذان ديفيرا وماركهام نظرة ذات مغزى قبل أن تلتفت نحو المتدربة لتجيبها بحسم:

– «لا.»

يقفز قلبي إلى حلقي ويخيم على القاعة صمت مطبق.

هذه ليست المرة الأولى.

تتنحنح الفتاة وتتابع:

– «وكم... مرة تضعف فيها؟»

تضيق عينا الأستاذ ماركهام الثاقبتان وهو يحدق فيها ويجيبها بصرامة:

– «هذا أمر يتجاوز مستواكِ الأمني أيتها المتدربة.»

ثم يوجه انتباهه إلى قسمنا ويتساءل:

– «السؤال التالي ذو الصلة بالهجوم الذي نناقشه؟»

يسأل متدرب من السنة الأولى في الصف القريب من يميني:

– «كم عدد الإصابات التي تكبدها الجناح؟»

فتجيبه الأستاذة ديفيرا:

– «تنين واحد مصاب. وراكب واحد قتيل.»

تتعالى همهمة أخرى في القاعة. النجاة حتى التخرج لا تعني أننا سننجو من الخدمة. إحصائيًا، يموت معظم الراكبين قبل بلوغ سن التقاعد، خاصة مع المعدل المتزايد لسقوط الراكبين خلال العامين الماضيين.

تسأل الأستاذة ديفيرا المتدرب:

– «وما الذي دفعك لطرح هذا السؤال بالتحديد؟»

فيجيب:

– «لأعرف حجم التعزيزات التي سيحتاجون إليها.»

تومئ الأستاذة ديفيرا برأسها، وتلتفت نحو برايور، أهدأ طلاب السنة الأولى في فصيلنا، الذي كان يرفع يده، لكنه يخفضها بسرعة، مقطبًا حاجبيه الداكنين:

– «هل كنت ترغب في طرح سؤال؟»

يومئ برأسه، فتتدلى بضع خصلات من شعره الأسود على عينيه:

– «نعم.»

ثم يهز رأسه ويتراجع:

– «لا. لا يهم.»

تسخر لوكا – متدربة في السنة الأولى في فصيلنا، ذات لسان سليط، وسأفعل أي شيء لتجنبها – من مقعدها بجواره، وتميل رأسها بينما يضحك المتدربون من حولهما وتقول:

– «يا لك من حاسم.»

ترتفع زاوية فمها في ابتسامة ماكرة، وتطوح بشعرها البني الطويل من فوق كتفها بحركة أبعد ما تكون عن العفوية. مثلي، هي واحدة من النساء القلائل في القطاع اللواتي لم يقصصن شعرهن. أحسدها على ثقتها في أن ذلك لن يُستخدم ضدها، لكنني لا أحسدها على تعاليها، رغم أنني لم أعرفها سوى لأقل من يوم.

توبخها أوريلي – أظن أن هذا هو اسمها – وهي ترمق لوكا بنظرة حازمة من عينيها السوداوين الجادتين:

– «إنه في فصيلنا. أظهري بعض الولاء.»

تدير لوكا عينيها المكحلتين بملل وترد:

– «أرجوكِ. لن يرتبط أي تنين بشخص لا يستطيع حتى أن يقرر ما إذا كان يريد طرح سؤال أم لا. وهل رأيته في طابور الإفطار هذا الصباح؟ لقد عطل الطابور بأكمله لأنه لم يستطع الاختيار بين اللحم المقدد والنقانق.»

تسأل الأستاذة ديفيرا رافعة حاجبها باستنكار:

– «هل انتهى الجناح الرابع من السخرية من بعضه البعض؟»

أهمس لريانون:

– «اسألي عن ارتفاع القرية.»

تعقد حاجبيها في حيرة:

– «ماذا؟»

أردف قائلة، محاولة إبقاء نصيحة داين نصب عيني:

– «اسألي فقط.»

أقسم أنني أستشعر نظراته تخترق مؤخرة عنقي من على بُعد سبعة صفوف خلفي، لكنني لن ألتفت لأنظر، ليس وأنا أعلم أن زايدن موجود هناك في مكان ما أيضًا.

تسأل ريانون:

– «على أي ارتفاع تقع القرية؟»

ترتفع حاجبا الأستاذة ديفيرا وهي تلتفت إلى ريانون وتسأل:

– «ماركهام؟»

يجيب:

– «أقل بقليل من عشرة آلاف قدم. لماذا؟»

تختلس ريانون نظرة جانبية إليّ وتتنحنح مجيبة:

– «يبدو هذا ارتفاعًا شاهقًا بعض الشيء بالنسبة لهجوم مخطط له باستخدام غريفيون.»

أهمس لها:

– «أحسنتِ صنعًا.»

تقول الأستاذة ديفيرا:

– «إنه بالفعل مرتفع قليلًا بالنسبة لهجوم مخطط له. لماذا لا تخبرينني يا متدربة سورنجيل عن سبب كون هذا الأمر مثيرًا للقلق؟ وربما تودين طرح أسئلتكِ الخاصة من الآن فصاعدًا.»

تسلط عليّ نظرة ثاقبة تجعلني أتململ في مقعدي. تلتفت كل الوجوه في الغرفة باتجاهي. وإذا كان لدى أي شخص أدنى شك حول هويتي، فقد تبدد الآن. رائع.

أجيب:

– «لا تتمتع غريفيون بالقوة ذاتها في مثل هذه الارتفاعات، ولا قدرتها على توجيه السحر أيضًا. إنه موقع غير منطقي لشن هجوم ما لم يكونوا على علم مسبق بأن التعاويذ ستفشل، خاصة وأن القرية تبدو وكأنها تقع على مسافة... رحلة طيران مدتها ساعة تقريبًا من أقرب نقطة أمامية؟»

ألقي نظرة على الخريطة لأتأكد من أنني لا أضع نفسي في موقف محرج.

– «تلك هي شاكير هناك، أليس كذلك؟»

يا لروعة التدريب النساخي.

ترتفع زاوية فم الأستاذة ديفيرا في ابتسامة خفيفة وتقول:

– «بلى. واصلي على هذا المنوال من التفكير.»

انتظري لحظة.

أضيق عيني وأسأل:

– «ألم تقولي إن فصيل الراكبين استغرق ساعة للوصول؟»

تنظر إليّ بترقب وتجيب:

– «بلى.»

أندفع قائلة، مدركة على الفور مدى سخافة ما تفوهت به:

– «إذًا كانوا في طريقهم بالفعل.»

تحترق وجنتاي خجلًا بينما تتردد همهمات ضاحكة من حولي.

يستدير جاك في مقعده في الصف الأمامي ويضحك في وجهي بوقاحة ويقول:

– «أجل، لأن هذا منطقي تمامًا. الجنرال ميلغرين يعلم نتيجة المعركة قبل وقوعها، لكن حتى هو لا يعلم متى ستقع أيتها الحمقاء.»

أشعر بضحكات زملائي تتردد في عظامي. أود لو أزحف تحت هذا المكتب السخيف وأختفي تمامًا.

تزجره ريانون بحدة:

– «اخرس يا بارلو.»

يرد بابتسامة ساخرة:

– «لست أنا من يظن أن استباق الأحداث أمر حقيقي. فلتساعدنا الآلهة إذا تمكنت هذه الحمقاء يومًا من امتطاء تنين.»

تجتاحني موجة أخرى من الضحك، فيلتهب عنقي أيضًا.

يجفل الأستاذ ماركهام وهو يسألني:

– «ولماذا تعتقدين ذلك يا ڤيوليت... يا متدربة سورنجيل؟»

أجيبه وأنا أرمق جاك بنظرة غاضبة:

– «لأنه لا توجد طريقة منطقية تمكنهم من الوصول إلى هناك في غضون ساعة من الهجوم ما لم يكونوا في طريقهم بالفعل.»

تبًا له ولضحكاته. قد أكون أضعف منه جسديًا، لكنني أذكى منه بكثير حد اللعنة.

وأستطرد:

– «سيستغرق الأمر نصف هذا الوقت على الأقل لإشعال منارات الإنذار في السلسلة الجبلية وطلب المساعدة، ولا يوجد فصيل كامل يجلس مكتوف الأيدي بانتظار أن يُستدعى. أكثر من نصف هؤلاء الراكبين كانوا ليكونوا نائمين، مما يعني أنهم كانوا في طريقهم بالفعل.»

تحثني الأستاذة ديفيرا، ويخبرني البريق في عينيها أنني محقة، مما يمنحني الثقة للمضي بخيط أفكاري خطوة أبعد:

– «ولماذا قد يكونون في طريقهم بالفعل؟»

أرفع ذقني، آملة في قرارة نفسي أن أكون محقة، ومبتهلة لـ دون – إلهة الحرب – أن أكون مخطئة:

– «لأنهم أدركوا بطريقة ما أن التعاويذ آخذة في الانهيار.»

يبدأ جاك بالقول:

– «هذا أكثر الـ...»

تقاطعه الأستاذة ديفيرا، فيخيم صمت مطبق على القاعة:

– «إنها محقة. استشعر أحد التنانين في الجناح ضعف التعاويذ، فحلق الجناح بأكمله. ولولا ذلك، لكانت أعداد الضحايا أعلى بكثير وحجم الدمار الذي لحق بالقرية أسوأ بكثير.»

تنتفخ فقاعة صغيرة من الثقة في صدري، لكن نظرة جاك الحاقدة سرعان ما تفجرها، مذكرة إياي بأنه لم ينسَ وعده بقتلي.

تأمر الأستاذة ديفيرا:

– «طلاب السنتين الثانية والثالثة، تولوا زمام الأمور. لنرَ ما إذا كان بإمكانكم إظهار قدر أكبر من الاحترام لزملائكم المتدربين.»

ترفع حاجبًا تجاه جاك بينما تنهمر الأسئلة كزخات الرصاص من الراكبين خلفنا.

كم عدد الراكبين الذين نُشروا في الموقع؟

ما الذي أودى بحياة الراكب الوحيد الذي قُتل؟

كم استغرق من الوقت لتطهير القرية من غريفيون؟

هل بقي أي منهم على قيد الحياة لاستجوابه؟

أدون كل سؤال وإجابة، وعقلي ينظم الحقائق في التقرير الذي كنت سأصيغه لو كنت في قطاع النساخين، محددًا المعلومات التي تستحق التوثيق وتلك التي لا تعدو كونها تفاصيل هامشية.

يسأل صوت عميق من مؤخرة قاعة المحاضرات:

– «ما هي حالة القرية؟»

يقف شعر عنقي وتنتصب له شعرات مؤخرة رأسي، إذ يدرك جسدي التهديد الوشيك الذي يقف خلفي.

يسأل ماركهام، وهو يظلل عينيه من الأضواء السحرية ليرى من في أعلى القاعة:

– «ريورسون؟»

يكرر زايدن:

– «القرية. لقد ذكرتِ أيتها الأستاذة ديفيرا أن الأضرار كانت لتكون أشد وطأة، لكن ما هو وضعها الفعلي الآن؟ هل احترقت؟ هل دُمرت بالكامل؟ لن يقوموا بتسويتها بالأرض إذا كانوا يسعون لتأسيس موطئ قدم لهم هناك، لذا فإن حالة القرية تعتبر مؤشرًا حاسمًا في محاولة تحديد الدوافع الكامنة وراء هذا الهجوم.»

تبتسم الأستاذة ديفيرا باستحسان وتجيب:

– «لقد أُضرمت النيران في المباني التي اقتحموها بالفعل، وكانوا في طور نهب البقية عندما وصل الجناح.»

يقول زايدن بيقين تام:

– «لقد كانوا يبحثون عن شيء ما. ولم تكن ثروات بالطبع. فتلك المنطقة ليست غنية بمناجم الأحجار الكريمة. وهو ما يطرح التساؤل: ما الذي نمتلكه نحن ويرغبون هم في الحصول عليه بشدة؟»

ترد الأستاذة ديفيرا وهي تلقي نظرة على أرجاء القاعة:

– «بالضبط. هذا هو السؤال الجوهري. وهذا تحديدًا هو ما يؤهل ريورسون ليكون قائد جناح. فلتكون راكبًا بارعًا، أنت بحاجة إلى ما هو أكثر بكثير من مجرد القوة والشجاعة.»

يسأل متدرب في السنة الأولى من جهة اليسار:

– «وما هي الإجابة إذًا؟»

تجيب الأستاذة ديفيرا بهزة من كتفيها:

– «نجهل ذلك حتى الآن. إنها مجرد أحجية أخرى تُضاف إلى لغز الرفض المستمر من مملكة بوروميل لمساعينا المتكررة لإحلال السلام. عما كانوا يبحثون؟ ولماذا استهدفوا تلك القرية بالتحديد؟ هل هم من تسبب في انهيار التعاويذ، أم أنها كانت متزعزعة سلفًا؟ غدًا، أو الأسبوع القادم، أو الشهر القادم، سيقع هجوم آخر، وربما نعثر على خيط جديد. إذا كنتم تبحثون عن إجابات، فلتلجأوا إلى حصة التاريخ. فتلك الحروب قد شُرحت ودُرست باستفاضة بالفعل سلفًا. أما الموجز القتالي فهو مخصص للمواقف المتغيرة. ما نريده منكم في هذه الحصة هو أن تتعلموا أي الأسئلة يجب طرحها، لكي تحظوا جميعًا بفرصة العودة إلى دياركم أحياء.»

شيء ما في نبرتها يخبرني أنه ليس فقط طلاب السنة الثالثة من قد يُستدعون للخدمة هذا العام، وتسري قشعريرة باردة في عظامي.

***

تقول ريانون وهي تهز رأسها بينما نقف على أطراف حلبة النزال بعد الغداء، نراقب ريدوك وأوريلي وهما يدوران حول بعضهما في ملابسهما القتالية الجلدية:

– «لقد كنتِ تعرفين كل إجابة في حصة التاريخ، ويبدو أنكِ تعرفين كل سؤال صحيح يجب طرحه في الموجز القتالي. لن تضطري حتى للدراسة من أجل الاختبارات، أليس كذلك؟»

كانا متقاربين في الحجم. ريدوك يميل إلى الحجم الأصغر، بينما تتمتع أوريلي ببنية جسدية تشبه ميرا تمامًا، وهو ما لا يفاجئني لأنها تنحدر من عائلة عسكرية من جهة والدها.

يقف بقية طلاب السنة الأولى على جانبنا، بينما يصطف طلاب السنتين الثانية والثالثة على الجانب الآخر. إنهم بلا شك في موقف أقوى هنا، بالنظر إلى أنهم تلقوا عامًا كاملًا على الأقل من التدريب القتالي.

أرفع كتفيّ، فتلمع السترة التي صنعتها لي ميرا قليلاً مع حركتي وأقول:

– «لقد تدربت لأكون نساخة.»

باستثناء الأوقات التي تعكس فيها الحراشف الضوء تحت الشبكة التمويهية، فإنها تندمج تمامًا مع القمصان التي صُرفت لنا من الإمداد المركزي يوم أمس. جميع النساء يرتدين ملابس مشابهة الآن، وإن كانت قصات ملابسهن الجلدية تختلف حسب الذوق الشخصي. أما الرجال، فمعظمهم عراة الصدور لأنهم يعتقدون أن القمصان تمنح خصمهم شيئًا للتشبث به. شخصيًا، لا أجادل في منطقهم، بل أستمتع بالمشهد... باحترام بالطبع، مما يعني إبقاء عيني مثبتتين على حلبة فرقتي وعدم الالتفات إلى الحلبات العشرين الأخرى المنتشرة في صالة التدريب الضخمة التي تلتهم الطابق الأول بأكمله من الجناح الأكاديمي. يتكون

أحد الجدران بالكامل من نوافذ وأبواب، تُركت جميعها مفتوحة للسماح بدخول النسيم، لكن الجو لا يزال حارًا بشكل خانق. يتصبب العرق أسفل عمودي الفقري تحت سترتي.

توجد ثلاث فرق من كل جناح هنا بعد ظهر اليوم، ومن حسن حظي، أرسل الجناح الأول فرقه الثالثة، والتي تضم جاك بارلو، الذي لم يكف عن رمقي بنظرات غاضبة من على بُعد حلبتين منذ أن دخلت.

تقول ريانون، وترتفع حاجباي نحوي:

– «أظن أن هذا يعني أنكِ لستِ قلقة بشأن الجانب الأكاديمي.»

لقد اختارت هي أيضًا سترة جلدية، لكن سترتها مقصوصة فوق عظمة الترقوة ومثبتة عند عنقها، تاركة كتفيها عاريين لتسهيل الحركة.

يأمر البروفيسور إيميتيريو من الجانب الآخر للحلبة، حيث يراقب داين نزال أوريلي وريدوك مع نائبة قائد فرقتنا، كيانا:

– «توقفا عن الدوران حول بعضكما وكأنكما شريكان في رقصة، وهاجما!»

أشكر الله أن داين يرتدي قميصه، لأنني لا أحتاج إلى تشتيت آخر عندما يحين دوري.

أقول لريانون، وأميل بذقني نحو الحلبة:

– «أنا قلقة بشأن هذا.»

ترمقني بنظرة تشكيك، وقد لُفت ضفائرها في كعكة صغيرة عند مؤخرة عنقها وتسأل:

– «حقًا؟ لقد افترضت أنكِ كسورنجيل، ستكونين خصمًا شرسًا في القتال المباشر.»

أجيبها:

– «ليس تمامًا.»

في مثل عمري، كانت ميرا قد تدربت على القتال المباشر لاثني عشر عامًا. أما أنا، ففي رصيدي ستة أشهر لا غير، وهو ما لم يكن ليحدث فارقًا كبيرًا لو لم أكن قابلة للكسر كفنجان خزفي، لكن ها نحن ذا.

يندفع ريدوك نحو أوريلي، لكنها تنحني، وتطوح بساقها لتسقطه. يترنح لكنه لا يسقط. يستدير بسرعة، مخفيًا خنجرًا في راحة يده.

يصيح البروفيسور إيميتيريو بصوته الجهوري من جانب الحلبة:

– «لا شفرات اليوم!»

إنه الأستاذ الرابع الذي ألتقيه فقط، لكنه بالتأكيد أكثرهم إثارة لرهبتي. أو ربما المادة التي يدرسها هي ما تجعلني أتخيل بنيته المدمجة وكأنها عملاقة.

يتابع البروفيسور إيميتيريو:

– «نحن نُجري تقييمًا فقط!»

يتذمر ريدوك ويعيد خنجره إلى غمده في الوقت المناسب تمامًا لصد خطاف أيمن من أوريلي.

تقول ريانون بابتسامة إعجاب قبل أن تسترق نظرة نحوي:

– «الفتاة السمراء تملك لكمة قوية.»

أسألها، بينما يوجه ريدوك لكمة سريعة إلى أضلاع أوريلي:

– «ماذا عنكِ؟»

يقول ريدوك، ويهز رأسه ويتراجع خطوة للوراء:

– «تبًا! لا أريد إيذاءكِ.»

تمسك أوريلي أضلاعها لكنها ترفع ذقنها بتحد وتقول:

– «ومن قال إنك آلمتني؟»

يقول داين، عاقدًا ذراعيه:

– «تخفيف لكماتك يسيء إليها. سكان سغنيس على الحدود الشمالية الشرقية لن يظهروا لها أي رحمة لأنها امرأة إذا سقطت من تنينها خلف خطوط العدو يا ريدوك. سيقتلونها تمامًا كما قد يقتلونك.»

تصرخ أوريلي، مشيرة إلى ريدوك بثني أصابعها:

– «هيا بنا!»

من الواضح أن معظم المتدربين قد تدربوا طوال حياتهم لدخول القطاع، وخاصة أوريلي، التي تتفادى لكمة من ريدوك وتلتف لتسدد ضربة سريعة إلى كليتيه.

آخ.

تتمتم ريانون، ملقية نظرة أخرى على أوريلي قبل أن تلتفت إليّ مجددًا:

– «أعني... يا إلهي. أنا بارعة جدًا على الحلبة. قريتي تقع على حدود سغنيسن، لذا تعلمنا جميعًا الدفاع عن أنفسنا في سن مبكرة. الفيزياء والرياضيات ليستا مشكلة أيضًا. لكن التاريخ؟» تهز رأسها وتتابع – «هذه الحصة قد تكون سبب هلاكي.»

أقول، بينما يندفع ريدوك نحو أوريلي، ويطرحها أرضًا بقوة جعلتني أجفل:

– «هم لا يقتلونك لرسوبك في التاريخ. لكني سأموت على الأرجح على هذه الحلبات.»

تلف أوريلي ساقيها حوله وبطريقة ما تتمكن من قلبه حتى تصبح هي في الأعلى، وتسدد لكمة تلو الأخرى إلى جانب وجهه. وتتناثر الدماء على الحلبة.

يقول سويار من الجانب الآخر لريانون، وهو يمرر يده على لحية بنية خفيفة نبتت في يوم واحد ولا تكاد تغطي نمشه:

– «ربما يمكنني تقديم بعض النصائح للنجاة في التدريب القتالي. لكن التاريخ ليس أقوى موادي، رغم ذلك.»

يتطاير أحد الأسنان في الهواء وترتفع العصارة الصفراوية في حلقي.

يصيح البروفيسور إيميتيريو:

– «كفى!»

تتدحرج أوريلي عن ريدوك وتقف، وتلمس شفتها المشقوقة بأصابعها وتتفحص الدماء، ثم تمد يدها لمساعدته على النهوض.

يأخذها.

يأمر إيميتيريو:

– «كيانا، خذي أوريلي إلى المعالجين. لا مبرر لفقدان سن أثناء التقييم.»

تقول ريانون، وتثبت عينيها البنيتين بعينيّ:

– «سأعقد معكِ صفقة. دعينا نساعد بعضنا البعض. سنساعدكِ في القتال المباشر إذا ساعدتنا في التاريخ. هل يبدو هذا كصفقة يا سويار؟»

يجيب سويار:

– «بالتأكيد.»

أبتلع ريقي، بينما يقوم أحد طلاب السنة الثالثة بمسح الحلبة بمنشفة وأقول:

– «اتفقنا. لكنني أعتقد أنني حصلت على الجزء الأفضل من الصفقة.»

تمازحني ريانون:

– «أنتِ لم تريني وأنا أحاول حفظ التواريخ.»

تتعالى صرخة من حلبة قريبة، فنلتفت جميعًا لنرى ما يجري. أحكم جاك بارلو قبضته حول عنق متدرب آخر من السنة الأولى. كان الرجل الآخر أصغر حجمًا وأنحف من جاك، لكنه لا يزال يفوقني وزنًا بخمسين رطلًا على الأقل.

يجذب جاك ذراعيه بقوة، ويداه لا تزالان محكمتين حول رأس الرجل الآخر.

تبدأ ريانون بالقول:

– «هذا الرجل وغد حقيقي...»

يدوي صوت تكسر العظام المقزز في أنحاء الصالة، ويرتخي جسد طالب السنة الأولى بين يدي جاك.

أهمس بينما يلقي جاك بالرجل على الأرض:

– «يا مالك الرحيم.»

بدأت أتساءل عما إذا كان إله الموت يقيم هنا لكثرة ما يُستدعى اسمه.

تهدد وجبة غدائي بالخروج مجددًا، لكنني أستنشق من أنفي وأزفر من فمي، فلا يمكنني إخفاء رأسي بين ركبتي هنا.

يصرخ مدربهم وهو يندفع نحو الحلبة:

– «ماذا قلت للتو؟ لقد كسرت عنقه اللعين!»

يجادله جاك:

– «وكيف لي أن أعرف أن عنقه بهذا الضعف؟»

«أنتِ في عداد الموتى يا سورنجيل، وسأكون أنا من يسلبكِ حياتكِ.» يتسلل وعيده من الأمس إلى ذاكرتي.

يأمر إيميتيريو، لكن نبرته ألطف مما كانت عليه، ونحن جميعًا نشيح بنظرنا عن جثة طالب السنة الأولى:

– «أبقوا أعينكم للأمام. لستم مضطرين للاعتياد على هذا المشهد، لكن عليكم الاستمرار في العمل رغم وجوده. أنتِ وأنت.»

يشير إلى ريانون ومتدرب آخر من السنة الأولى في فرقتنا، رجل ممتلئ البنية، بشعر أسود مزرق، وملامح حادة. تبًا، لا أستطيع تذكر اسمه. تريفور؟ أو ربما

توماس؟ هناك عدد هائل من الوجوه الجديدة لدرجة يصعب معها تذكر من هو من في هذه المرحلة.

أسترق نظرة إلى داين، لكنه يراقب الزوجين وهما يتخذان موقعهما على الحلبة.

تتغلب ريانون بسهولة على طالب السنة الأولى، مذهلة إياي في كل مرة تتفادى فيها لكمة وتسدد واحدة من لكماتها. إنها سريعة، وضرباتها قوية، تمتلك ذلك المزيج القاتل الذي سيميزها، تمامًا كميرا.

تسأل زميلها في السنة الأولى عندما تطرحه على ظهره، وتوقف يدها في منتصف الضربة فوق حنجرته مباشرة:

- «هل تستسلم؟»

تانر؟ أنا شبه متأكدة أن اسمه يبدأ بحرف التاء.

يصرخ، ويلف ساقيه حول ساقي ريانون ويطرحها على ظهرها بقوة:

- «لا!»

لكنها تتدحرج وتستعيد توازنها بسرعة قبل أن تضعه في نفس الموقف مرة أخرى، وهذه المرة تضع حذاءها على عنقه.

يقول داين بابتسامة:

- «لا أعرف يا تاينان، ربما يجدر بك الاستسلام. إنها تلقنك درسًا قاسيًا.»

آه، صحيح. تاينان.

يصرخ تاينان:

- «اخرس يا آيتوس!»

لكن ريانون تضغط بحذائها على حنجرته، فتخرج الكلمة الأخيرة مشوهة. ويتحول وجهه إلى لون أحمر مبقع.

أجل، تاينان يمتلك غرورًا يفوق بكثير ما يمتلكه من حكمة.

يعلن إيميتيريو:

– «إنه يستسلم.»

وتتراجع ريانون، مادة يدها لمساعدته. يأخذها تاينان.

يشير إيميتيريو إلى متدربة السنة الثانية ذات الشعر الوردي ووشم التمرد، ثم يتحرك إصبعه نحوي ليقول:

– «أنتِ... وأنتِ.»

إنها أطول مني برأس على الأقل، وإذا كان باقي جسدها مفتول العضلات كذراعيها، فأنا في ورطة حقيقية. لا يمكنني السماح لها بالإمساك بي.

يكاد قلبي يثب من صدري، لكني أومئ برأسي وأخطو إلى الحلبة.

تقول ريانون وهي تربت على كتفي أثناء مرورها بي:

– «أنتِ لها.»

تتفحصني الفتاة ذات الشعر الوردي، وتضيق عينيها الخضراوين الباهتتين وكأنني شيء قذر كشطته من نعل حذائها وتقول:

– «سورنجيل. يجدر بكِ حقًا صبغ شعركِ إذا كنتِ لا تريدين أن يعرف الجميع هوية والدتكِ. أنتِ المهووسة الوحيدة ذات الشعر الفضي في القطاع.»

أرد وأنا أدور حولها على الحلبة:

– «لم أقل قط إنني أهتم إن عرف الجميع من هي أمي. أنا فخورة بخدمتها في حماية مملكتنا – من الأعداء في الداخل والخارج على حد سواء.»

وبينما يشتد فكها غضبًا من تعليقي المبطن، تتصاعد فقاعة من الأمل في صدري. الموشومون، كما سمعت بعض الناس هذا الصباح يطلقون على أولئك الذين يحملون آثار التمرد على أذرعهم، يلومون أمي على إعدام آبائهم. حسنًا.

لتبغضني. لطالما رددت أمي أن اللحظة التي تسمح فيها للعاطفة بالتسلل إلى قتالك، تكون قد خسرت بالفعل. لم أصلِّ يومًا بحرارة أكبر من الآن بأن تكون أمي، ذات الدماء الباردة، محقة في مقولتها.

تزمجر بغضب مكتوم:

– «أيتها العاهرة. لقد قتلت أمكِ عائلتي.»

تندفع للأمام وتسدد لكمة هوجاء، فأتفاداها بسرعة مبتعدة ويداي مرفوعتان. نكرر ذلك لعدة جولات، وأنجح في تسديد بضع لكمات سريعة، وأبدأ في الاعتقاد بأن خطتي قد تنجح بالفعل.

تزمجر بصوت منخفض في حلقها عندما تخطئني مرة أخرى، وتنطلق قدمها نحو رأسي. أنحني بسهولة، لكنها تسقط على الأرض وتركل بقدمها الأخرى، لتستقر ضربتها في منتصف صدري، فتدفعني للخلف.

أرتطم بالحلبة بصوت مكتوم، وتكون فوقي في لمح البصر، كانت سريعة جدًا حد اللعنة.

يصرخ داين:

– «لا يمكنكِ استخدام قواكِ هنا يا إيموجين!»

إيموجين تبذل قصارى جهدها لقتلي.

تلتقي عيناها بعينيّ، وأشعر بانزلاق سريع لشيء صلب ضد أضلاعي وهي تبتسم لي. لكن ابتسامتها تتلاشى عندما ننظر كلتانا إلى الأسفل، ولا يسعني إلا أن ألاحظ خنجرًا يُعاد إلى غمده.

لقد أنقذ الدرع حياتي للتو. شكرًا لكِ يا ميرا.

يشوه الارتباك وجه إيموجين لثانية واحدة فقط، لكنها كانت كافية لأوجه قبضتي إلى وجنتها وأتدحرج من تحتها.

تصرخ يدي ألمًا رغم يقيني من أنني قبضتها بشكل صحيح، لكنني أتجاهل الألم بينما نقف كلتانا على أقدامنا.

تسألني وهي تحدق في أضلاعي بينما ندور حول بعضنا البعض:

– «أي نوع من الدروع هذا؟»

أرد وأنا أنحني وأراوغ هجومها التالي، لكن حركاتها كانت ضبابية من فرط سرعتها:

– «درعي الخاص.»

يصرخ إيميتيريو:

– «إيموجين! افعليها مرة أخرى، وسأقوم بـ...»

أنحرف في الاتجاه الخاطئ هذه المرة فتمسك بي، وتطرحني أرضًا. يرتطم وجهي بالحلبة، وتغرز ركبتها في ظهري بينما تسحب ذراعي اليمنى خلفي.

وتصرخ:

– «استسلمي!»

لا أستطيع. إذا استسلمت في اليوم الأول، فماذا سيحمل لي الثاني؟

أصرخ:

– «لا!»

الآن أنا من يفتقر إلى الحكمة كتاينان، وأنا أكثر قابلية للكسر بكثير.

تسحب ذراعي أكثر، ويبتلع الألم كل فكرة في رأسي، ويسود السواد حواف رؤيتي. أصرخ بأعلى صوتي بينما تتمدد الأربطة، وتتمزق، ثم تطقطق.

يصرخ داين:

– «استسلمي يا ڤيوليت!»

وتطالب إيموجين مجددًا:

– «استسلمي!»

ألهث بحثًا عن الهواء تحت ثقلها الجاثم على ظهري، وأدير وجهي إلى الجانب بينما تمزق كتفي إربًا، والألم يلتهم كل حواسي.

يقول إيميتيريو:

– «لقد استسلمت. هذا يكفي.»

وأسمعه مرة أخرى – ذلك الصوت المروع لانكسار العظام – لكن هذه المرة، كان صوت عظامي.

«من وجهة نظري، من بين جميع القدرات السحرية الفريدة التي يقدمها الراكبون، تُعد قدرة الإصلاح هي الأثمن، لكن لا ينبغي لنا أن نسمح لأنفسنا بالرضا أو التهاون عندما نكون بصحبة مثل هذه القدرة السحرية الفريدة. فالمصلحون نادرون، أما الجرحى فليسوا كذلك.»

– دليل الرائد فريدريك الحديث للمعالجين



الفصل السادس

تلتهم نيران الألم الحارقة الجزء العلوي من ذراعي وصدري بينما يحملني داين عبر الممر السفلي المغطى خارجًا من قطاع راكبي التنانين، فوق الوادي، وصولاً إلى قطاع المعالجين. إنه في الأساس جسر حجري، مغطى ومحاط بالمزيد من الحجر، مما يجعله أشبه بنفق معلق ببضع نوافذ، لكنني لست في حالة صفاء ذهني تسمح لي باستيعاب ذلك بينما نندفع عبره، وخطوات داين الواسعة تلتهم المسافة.

يطمئنني داين، وقبضته محكمة لكنها حذرة على قفصي الصدري وتحت ركبتي بينما تستقر ذراعي العاجزة على صدري:

– «لقد اقتربنا.»

أهمس، وأنا أبذل قصارى جهدي لتجاوز الألم عقليًا كما فعلت مرات لا تحصى من قبل:

- «لقد رآك الجميع وأنت تفقد أعصابك.»

عادة ما يكون الأمر بسيطًا كبناء جدار عقلي حول العذاب النابض في جسدي، ثم إقناع نفسي بأن الألم موجود فقط داخل ذلك الصندوق حتى لا أشعر به، لكن هذه الطريقة لا تُجدي نفعًا هذه المرة.

يركل الباب ثلاث مرات عندما نصله ويقول:

- «لم أفقد أعصابي.»

أركز على الندبة في ذقنه، واللحية الخفيفة على بشرته الحنطية، أي شيء يمنعني من الشعور بالدمار الشامل في كتفي وأقول:

- «لقد صرخت وحملتني خارج هناك وكأنني أهتم لأمرك.»

يركل الباب مجددًا ويقول:

- «أنتِ بالفعل تعنين لي الكثير.»

والآن، أصبح الجميع يعرفون ذلك.

يُفتح الباب على مصراعيه وتقف وينفريد، المعالجة التي لازمتني مرات لا تحصى، لتفسح المجال لداين ليحملني إلى الداخل.

- «إصابة أخرى؟ أنتم الراكبون تحاولون بالتأكيد ملء أسرتنا بـ... أوه لا، ڤيوليت؟»

تتسع عيناها ذهولًا.

أقول بصعوبة وسط الألم:

- «أهلًا، وينفريد.»

تقودنا إلى المستوصف، قاعة طويلة مليئة بالأسرة، نصفها تقريبًا يشغلها أشخاص يرتدون زي الراكبين الأسود قائلة:

- «من هنا.»

المعالجون لا يمتلكون السحر، ويعتمدون على الصبغات التقليدية والتدريب الطبي للشفاء بأفضل ما لديهم من قدرات، لكن المصلحين يمتلكونه. آمل أن يكون نولون متواجدًا الليلة، فهو من تولى إصلاحي طوال السنوات الخمس الماضية.

تعتبر القدرة السحرية للإصلاح نادرة للغاية بين الراكبين. فهم يمتلكون القدرة على الإصلاح، وإعادة التأهيل، وإعادة أي شيء إلى حالته الأصلية – من القماش الممزق إلى الجسور المدمرة، بما في ذلك عظام البشر المكسورة. كان أخي بريينان مصلحًا – وكان ليصبح من أعظمهم لو كُتب له أن يعيش.

يضعني داين برفق على السرير الذي تقودنا إليه وينفريد، ثم تتكئ هي على حافة المرتبة، بالقرب من خصري. كل تجعيدة في وجهها تبعث على الراحة وهي تمرر يدها المتغضنة على جبهتي وتأمر معالجة في الأربعينيات من عمرها تمر بالجوار:

– «هيلين، اذهبي وأحضري نولون.»

يصيح داين، والذعر يغلف نبرته:

– «لا!»

عفوًا؟

تنظر المعالجة في منتصف العمر بين داين ووينفريد، ممزقة بينهما بوضوح.

تقول وينفريد بنبرة هادئة خادعة:

– «هيلين، هذه هي ڤيوليت سورنجيل، وإذا اكتشف نولون أنها كانت هنا ولم تستدعيه، حسنًا... العواقب ستقع على عاتقكِ أنتِ.»

تردد المعالجة، وصوتها يرتفع:

– «سورنجيل؟»

أحاول التركيز على داين عبر الألم النابض في كتفي، لكن الغرفة تبدأ في الدوران. أريد أن أسأله لماذا لا يريد إصلاح كتفي، لكن موجة أخرى من الألم تهدد بسحبي إلى فقدان الوعي، وكل ما يمكنني فعله هو الأنين.

تقول وينفريد رافعة حاجبًا فضيًا، متجاهلة إصرار داين مرة أخرى على عدم استدعاء المصلح:

– «أحضري نولون وإلا سيسمح لتنينه بالتهامكِ حية، بوجهكِ العبوس وكل شيء، يا هيلين.»

تشحب المرأة وتختفي بسرعة.

يسحب داين كرسيًا خشبيًا ليقربه من سريري، فيحدث احتكاكه بالأرض صوتًا مزعجًا، ويقول:

– «ڤيوليت، أعلم أنكِ تتألمين، لكن ربما...»

توبخه وينفريد:

– «ربما ماذا، يا داين آيتوس؟ هل تريد رؤيتها تعاني؟» وتتمتم وهي تنحني فوقي، وعيناها الرماديتان مليئتان بالقلق وهي تقيمني – «أخبرتها أنهم سيكسرونكِ.»

وينفريد هي أفضل معالجة تمتلكها باسجياث، وتقوم بإعداد كل دواء تصفه بنفسها – وقد أسعفتني من خدوش وكدمات أكثر من أن أحصيها على مر السنين.

– «وهل كانت ستستمع إليّ؟ بالطبع لا. والدتكِ عنيدة حد اللعنة.»

تصل إلى ذراعي المصابة، وأجفل ألمًا عندما ترفعها بضع بوصات، وتفحص كتفي.

تزفر وينفريد بحسرة، وترفع حاجبيها عند رؤية ذراعي وتقول:

– «حسنًا، إنه مكسور بالتأكيد. ويبدو أننا بحاجة إلى جراح لهذا الكتف. ما الذي حدث؟»

تسأل داين.

أشرح في كلمة واحدة:

– «نزال.»

تنظر وينفريد إلى داين وتأمرني:

– «اصمتي. وفري طاقتكِ. اجعل من نفسك نافعًا يا فتى، واسحب الستارة حولنا. كلما قل عدد الأشخاص الذين يرونها مصابة، كان ذلك أفضل.»

يقفز داين على قدميه ويمتثل للأمر بسرعة، ساحبًا القماش الأزرق حولنا ليصنع غرفة صغيرة لكنها فعالة، تفصلنا عن الراكبين الآخرين الذين أُحضروا.

تخرج وينفريد قارورة من سائل كهرماني من حزامها وتقول:

– «اشربي هذا. سيسيطر على الألم بينما نتدبر أمركِ.»

يعترض داين بينما تنزع السدادة الزجاجية:

– «لا يمكنكِ أن تطلبي منه إصلاحها.»

توبخه وهي تقرب القارورة مني:

– «كلانا يتولى إصلاحها طوال السنوات الخمس الماضية، فلا تبدأ بإملاء ما يمكنني وما لا يمكنني فعله.»

ينزلق داين بيده تحت ظهري، والأخرى تحت رأسي، ليساعدني على الجلوس قليلاً حتى أتمكن من ابتلاع السائل. كان طعمه مريرًا كعادته وأنا أبتلعه، لكنني أعلم أنه سيفي بالغرض. يعيدني إلى السرير ويلتفت إلى وينفريد ويقول:

– «لا أريدها أن تتألم – ولهذا السبب نحن هنا. لكن إذا كانت إصابتها بهذه الخطورة، فبالتأكيد يمكننا معرفة ما إذا كان النساخون سيقبلونها كتحويل متأخر. لم يمر سوى يوم واحد.»

مع استيعابي لسبب عدم رغبته في تدخل مصلح، يخترق غضبي جدار الألم لفترة كافية لأقول بحدة:

– «لن أذهب إلى النساخين.»

ثم أتنهد، وأغمض عينيّ بينما تسري طنين ممتع في عروقي. وسرعان ما أصبحت هناك مسافة كافية بيني وبين الألم لأفكر بوضوح إلى حد ما وأنا أجبر عينيّ على الانفتاح مرة أخرى.

على الأقل، أعتقد أنه سرعان ما كان هناك مسافة، لكن هناك محادثة جارية لم أكن أنتبه إليها بوضوح، لذا من المؤكد أنه مرت بضع دقائق.

تُسحب الستارة للوراء ويدخل نولون، متكئًا بثقل على عصاه. يبتسم لزوجته، وتتناقض أسنانه البيضاء الناصعة مع بشرته الداكنة.

– «لقد أرسلتِ في طلبي، يا زوج...»

تتلاشى ابتسامته عندما يراني، ويقول:

– «ڤيوليت؟»

أجبر فمي على الابتسام وأقول:

– «أهلًا يا نولون. كنت سألوح لك، لكن إحدى ذراعاي لا تعمل والأخرى تبدو ثقيلة جدًا.»

يا للآلهة، هل أتلعثم في كلماتي؟

تعرض وينفريد على زوجها ابتسامة ملتوية وتقول:

– «مصل ليغاس.»

يلتفت نولون بنظرة اتهام إلى داين، وأشعر وكأنني عدت في الخامسة عشرة من عمري، أُجر إليه لأنني كسرت كاحلي بينما كنا نتسلق في مكان لم يكن ينبغي لنا التواجد فيه:

– «إنها معك يا داين؟»

يجيب داين، مبتعدًا عن طريق نولون ليتمكن المصلح من الاقتراب:

– «أنا قائد فرقتها. وضعها تحت قيادتي كان الشيء الوحيد الذي فكرت فيه للحفاظ على سلامتها.»

تضيق عينا نولون ويقول:

– «لا تبدو وكأنك تقوم بعمل جيد في ذلك، أليس كذلك؟»

يشرح داين:

– «كان يوم تقييم للقتال المباشر. إيموجين – إنها في السنة الثانية – خلعت كتف ڤيوليت وكسرت ذراعها.»

يزمجر نولون، وهو يقطع قماش قميصي ذي الأكمام القصيرة بخنجره. يبلغ هذا الرجل الرابعة والثمانين من عمره، ولا يزال يرتدي زي الراكبين الأسود، مدججًا بكل أسلحته:

– «في يوم التقييم؟»

أشرح ببطء، محاولة نطق الكلمات بوضوح لكنني أفشل:

– «أمها... كانت. من الانفصاليين. التابعين لفين ريورسون. وأنا. من سورنجيل، لذا أنا أفهم الأمر.»

يتذمر نولون:

– «أنا لا أفهم ذلك. لم أتفق أبدًا مع الطريقة التي جندوا بها هؤلاء الأطفال في قطاع راكبي التنانين كعقاب على خطايا آبائهم. لم نجبر يومًا مجندين على

دخول هذا القطاع. أبدًا. ولسبب وجيه جدًا. معظم المتدربين لا ينجون – وهو ما كان على الأرجح الهدف من ذلك، كما أظن. بغض النظر، بالتأكيد لا ينبغي لكِ أن تعاني من أجل شرف والدتكِ. الجنرال سورنجيل أنقذت نافار بالقبض على الخائن الأعظم.»

يسأل داين بصوت خافت حتى لا يُسمع خارج الستارة:

– «لذا لن تصلحها، أليس كذلك؟ أنا أطلب فقط أن يقوم المعالجون بعملهم ويتركوا الطبيعة تأخذ الوقت الذي تحتاجه. لا سحر. إنها لا تملك أي فرصة للنجاة إذا عادت إلى هناك في جبيرة أو اضطرت للدفاع عن نفسها بينما يلتئم كتفها من جراحة ترميمية. الجراحة الأخيرة استغرقت أربعة أشهر لتتعافى منها. هذه فرصتنا لإخراجها من قطاع راكبي التنانين وهي لا تزال تتنفس.»

أقول محاولة عدم التلعثم:

– «لن أذهب إلى النساخين. النساخين. تبًا. أصلحني.»

يعدني نولون:

– «سأصلحكِ دائمًا.»

أركز على كل كلمة:

– «فقط. هذه. المرة. إذا. رأى الآخرون. أنني بحاجة. للإصلاح. طوال الوقت، سيظنون. أنني. ضعيفة.»

يقول داين، والذعر يتصاعد في صوته، فيهوي قلبي:

– «وهذا هو السبب في أننا يجب أن نستخدم هذه الفرصة لإخراجكِ! الخروج من هنا والتوجه مباشرة إلى قطاع النساخين هو أفضل فرصة لكِ للنجاة.»

لا يمكنه حمايتي من كل شيء، ومشاهدتي أنكسر، ومشاهدتي أموت في النهاية ستدمره.

أحدق في داين غاضبة وأختار كلماتي بعناية:

– «لن أغادر. الراكبين. فقط لكي. تعيدني أمي. إلى هنا. أنا. باقية.» أدير رأسي، فتدور الغرفة وأنا أبحث عن نولون. – «أصلحني... ولكن فقط هذه المرة.»

يسأل نولون، وهو يجلس على الكرسي بجوار سريري ويحدق في كتفي:

– «أنتِ تعلمين أن الأمر سيؤلمكِ كالجحيم وسيظل يؤلمكِ لأسبوعين، أليس كذلك؟»

أومئ برأسي. هذا ليس أول إصلاح لي. عندما تولد هشًا كما ولدت، فإن ألم الإصلاح لا يقل سوى عن ألم الإصابة الأصلية. إنه في الأساس مجرد يوم ثلاثاء آخر.

يتوسل داين بهدوء:

– «أرجوكِ يا ڤاي. أرجوكِ بدلي القطاع. إن لم يكن من أجلكِ، فمن أجلي – لأنني لم أتدخل بالسرعة الكافية. كان يجب أن أوقفها. لا يمكنني حمايتكِ.»

أتمنى لو أنني اكتشفت خطته قبل تناول جرعة وينفريد، حتى أتمكن من الشرح بشكل أفضل. لا شيء من هذا خطأه، لكنه سيتحمل اللوم تمامًا كما يفعل دائمًا. بدلًا من ذلك، آخذ نفسًا عميقًا وأقول:

– «لقد اتخذت قراري.»

يأمر نولون دون أن يرفع نظره:

– «عُد إلى القطاع يا داين. لو كانت أي طالبة أخرى في السنة الأولى، لكنت غادرت بالفعل.»

تلتقي نظرة داين المتألمة بنظرتي، وأصر:

– «اذهب. سأجدك في التشكيل. في الصباح.» لا أريده أن يرى هذا على أي حال.

يبتلع الهزيمة ويومئ برأسه مرة واحدة، ثم يستدير ويمشي عبر الفتحة في الستائر دون أن ينبس بكلمة أخرى. آمل بصدق ألا يؤدي قراري اليوم إلى تدمير أعز أصدقائي لاحقًا.

يسأل نولون ويداه تحومان فوق كتفي:

– «مستعدة؟»

تحمل وينفريد شريطًا من الجلد أمام فمي وتقول:

– «عضي على هذا.»

أضعه بين أسناني.

يتمتم نولون، وهو يرفع يديه فوق كتفي:

– «ها نحن ذا.» تتغضن جبهته تركيزًا قبل أن يقوم بحركة التواء.

تنفجر آلام بيضاء حارقة في كتفي. وتغرز أسناني في الجلد بينما أصرخ، وأتحمل نبضة قلب واحدة، ثم اثنتين قبل أن أفقد الوعي.

***

كانت الثكنات ممتلئة تقريبًا بحلول الوقت الذي عدت فيه في وقت متأخر من تلك الليلة، وذراعي اليمنى النابضة بالألم مدعمة بحمالة زرقاء فاتحة تجعلني هدفًا أكبر، إن كان ذلك ممكنًا.

الحمالات تعني الضعف. تعني الهشاشة. تعني العبء على الجناح. إذا كنت أنكسر بهذه السهولة على الحلبة، فماذا سيحدث إذا ركبت على ظهر تنين؟

غابت الشمس منذ فترة طويلة، لكن القاعة مضاءة بالتوهج الناعم للأضواء السحرية بينما تستعد طالبات السنة الأولى الأخريات للنوم. أبتسم لفتاة تمسك

بقطعة قماش ملطخة بالدماء على شفتها المتورمة، فتبادلني الابتسامة مع إجفالة ألم.

أعد ثلاثة أسرة فارغة في صفنا، لكن هذا لا يعني أن هؤلاء المتدربين قد ماتوا، أليس كذلك؟ ربما يكونون في قطاع المعالجين كما كنت أنا، أو ربما في غرف الاستحمام.

تقفز ريانون من سريرها، مرتدية بالفعل سروالها القصير وقميص النوم، والارتياح يملأ عينيها وابتسامتها عندما تراني وتقول:

– «أنتِ هنا!»

أؤكد لها:

– «أنا هنا. لقد خسرت قميصًا، لكنني هنا.»

تنظر وكأنها قد تعانقني لكنها تلمح الحمالة وتتراجع خطوة، وتجلس على حافة سريرها بينما أفعل أنا الشيء نفسه مع سريري، وأواجهها وتقول:

– «يمكنكِ الحصول على قميص آخر من التوزيع المركزي غدًا. ما مدى سوء الإصابة؟»

أجيبها:

– «ستؤلمني في الأيام القليلة القادمة، لكني سأكون بخير طالما أبقيتها ثابتة. سأشفى تمامًا قبل أن نبدأ تحديات الحلبة.»

لدي أسبوعان لأكتشف كيف أمنع حدوث هذا مرة أخرى.

تعدني، وترتفع زاوية فمها في ابتسامة ساخرة:

– «سأساعدكِ على الاستعداد. أنتِ صديقتي الوحيدة هنا، لذا أفضل ألا تموتي عندما يصبح الأمر حقيقيًا.»

أبتسم رغم الألم النابض في كتفي وذراعي وأقول:

- «سأبذل قصارى جهدي ألا أفعل ذلك.»

لقد تلاشى تأثير الدواء منذ فترة طويلة، وبدأ الألم يشتد كالجحيم. أستند بوزني على يدي اليسرى، فتنزلق تحت وسادتي مباشرة وأقول:

- «وسأساعدكِ في التاريخ.»

هناك شيء ما تحت الوسادة.

تعلن ريانون، وتتبع نظراتها تارا، الفتاة ذات الشعر الداكن والمنحنيات من مقاطعة مورين، وهي تمشي متجاوزة أسرتنا:

- «سنكون قوة لا تقهر.»

أسحب كتابًا صغيرًا - لا، إنها مذكرات - تعلوها ملاحظة مطوية تحمل اسم "ڤيوليت" بخط يد ميرا. أفتح الملاحظة بيد واحدة.

عزيزتي ڤيوليت،

بقيت لوقت كافٍ لقراءة سجلات الحضور هذا الصباح، واسمكِ لم يكن فيها، شكرًا للآلهة. لا يمكنني البقاء أكثر. جناحي بحاجة إليّ، وحتى لو استطعت البقاء، فلن يسمحوا لي برؤيتكِ على أي حال. لقد رشوتُ نساخًا لتسريب هذا إلى سريركِ. آمل أن تعرفي مدى فخري بكوني شقيقتكِ. كتب بريينان هذا لي في الصيف الذي سبق دخولي القطاع. لقد أنقذني، ويمكنه أن ينقذكِ أيضًا. أضفتُ بعضًا من حكمتي التي اكتسبتها بشق الأنفس هنا وهناك، لكن معظمه له، وأنا أعلم أنه كان ليرغب في أن تمتلكيه. كان ليرغب في أن تعيشي.

مع حبي،

ميرا.

أبتلع الغصة في حلقي وأضع الملاحظة جانبًا.

تسألني ريانون:

– «ما هذا؟»

بالكاد تخرج الكلمات من شفتيّ وأنا أفتح الغلاف:

– «إنه لأخي.»

لقد أحرقت أمي كل ما يملكه بعد وفاته، كما تقتضي التقاليد. لقد مر وقت طويل منذ أن رأيت ضربات خط يده الجريئة، وها هي هنا. ينقبض صدري وتجتاحني موجة جديدة من الحزن. أقرأ الصفحة الأولى وأقلب للثانية وأقول:

– «كتاب بريننان.»

ميرا،

أنتِ من عائلة سورنجيل، لذا ستنجين. ربما ليس بشكل مذهل مثلي، لكن لا يمكننا جميعًا الارتقاء لمستوياتي، أليس كذلك؟ بعيدًا عن المزاح، هذا كل ما تعلمته. احتفظي به بأمان. أبقيه مخفيًا. يجب أن تعيشي، لأن ڤيوليت تراقبكِ. لا يمكنكِ السماح لها برؤيتكِ تسقطين.

بريننان.

تتجمع الدموع في عينيّ، لكنني أطرفها لتتراجع، وأكذب بينما أقلب الصفحات:

– «إنها مجرد مذكراته.»

أستطيع سماع نبرته الساخرة واللاذعة وأنا أتصفح كلماته، وكأنه يقف هنا، يستخف بكل خطر بغمزة وابتسامة. يا إلهي، كم أفتقده. أقول:

– «لقد مات منذ خمس سنوات.»

تنحني ريانون للأمام، وعيناها مليئتان بالتعاطف وتقول:

– «أوه، هذا... نحن أيضًا لا نحرق كل شيء دائمًا. أحيانًا يكون من الجميل الاحتفاظ بشيء ما، أتعلمين؟»

أهمس:

– «أجل.»

امتلاك هذا يعني لي العالم بأسره، ومع ذلك أعلم أن أمي ستلقيه في النار إذا وجدته.

تجلس ريانون للخلف على سريرها، وتفتح كتاب التاريخ، وأغوص أنا في تاريخ برينان، بدءًا من الصفحة الثالثة.

لقد نجوتِ من المتراس الصخري. جيد. كوني شديدة الملاحظة في الأيام القليلة القادمة، ولا تفعلي أي شيء يلفت الانتباه إليكِ. لقد رسمتُ خريطة لا توضح لكِ مكان الفصول الدراسية فحسب، بل وأيضًا مكان اجتماع الأساتذة. أعلم أنكِ متوترة بشأن التحديات، لكن لا ينبغي لكِ ذلك، ليس مع تلك اللكمة اليمنى التي تملكينها. قد تبدو النزالات عشوائية، لكنها ليست كذلك. ما لا يخبركِ به الأساتذة هو أنهم يقررون التحديات في الأسبوع السابق، يا ميرا. يحق لأي متدرب أن يطلب تحديًا، نعم، لكن الأساتذة سيحددون نزالاتكِ بناءً على استبعاد الأضعف. وهذا يعني أنه بمجرد بدء القتال المباشر الحقيقي، فإن الأساتذة يعرفون بالفعل من ستواجهين في ذلك اليوم. إليكِ السر – إذا كنتِ تعرفين أين تنظرين ويمكنكِ الخروج دون أن يراكِ أحد، فستعرفين من ستقاتلين لتتمكني من الاستعداد.

أسحب نفسًا عميقًا وألتهم بقية المدخل، ويزدهر الأمل في صدري. إذا كنت أعرف من سأقاتل، فيمكنني بدء المعركة قبل أن نخطو حتى على الحلبة. يدور عقلي، وتتشكل خطة في ذهني.

أسبوعان، هذا هو الوقت المتاح لي للحصول على كل ما أحتاجه قبل بدء التحديات، ولا أحد يعرف أراضي باسجيات كما أعرفها أنا. كل شيء هنا.

تنتشر ابتسامة بطيئة عبر وجهي. أنا أعرف كيف أنجو.

حرصًا على صون السلم داخل مملكة نافار، لا يجوز تعيين أكثر من ثلاثة متدربين ممن يحملون آثار التمرد في أي فرقة تابعة لأي قطاع.

– الملحق ٢،٥، دستور كلية باسجيات الحربية

***

إلحاقًا بالتعديلات التي أُقرت العام الماضي، يُعدّ تجمهر الموشومين في مجموعات تتألف من ثلاثة أفراد أو أكثر بمثابة مؤامرة تحريضية، وبموجب هذا يُصنف كجريمة عظمى عقوبتها الإعدام.

– الملحق ٥،٣، دستور كلية باسجيات الحربية



الفصل السابع

«تباً»، أغمغم بها بينما تتعثر قدمي بصخرة، فأترنح وسط العشب الذي يبلغ ارتفاعه مستوى الخصر، والنامي على ضفاف النهر أسفل القلعة. القمر مكتمل وجميل، ينير دربي، لكنه يعني أيضاً أنني أتصبب عرقاً حتى الموت داخل هذه السترة لأبقى متوارية عن الأنظار، تحسباً لوجود من يتجول هنا بعد حظر التجول.

يتدفق نهر إياكوبوس مندفعاً بمياه الذوبان الصيفية المنحدرة من القمم الجبلية العالية، وتغدو تياراته سريعة ومهلكة في هذا الوقت من العام، لا سيما عند خروجها من المنحدر القاسي للوادي. لا عجب إذن في هلاك ذلك المتدرب من السنة الأولى حين سقط فيه البارحة في وقت فراغنا. منذ اجتيازنا المتراس الصخري، كانت فرقتنا هي الوحيدة في القطاع التي لم تفقد أحداً بعد، لكنني أعلم أن هذا الاستثناء لن يدوم طويلاً في هذه الكلية القاسية.

أشد حقيبتي الثقيلة فوق حمّالة ذراعي، وأقترب أكثر من النهر، محاذيةً صف أشجار البلوط العتيقة حيث أعلم أن كرمةً من توت الـ "فونيل" ستطرح ثمارها قريباً. حين تنضج، تكون تلك الحبات الأرجوانية لاذعة وبالكاد صالحة للأكل، أما إن قُطفت قبل أوانها وتُركت لتجف، فستشكل سلاحاً ممتازاً يضاف إلى ترسانتي المتنامية التي جنيتها من تسع ليالٍ من التسلل خلسة. ولهذا السبب تحديداً أتبعتُ معي كتاب السموم. التحديات ستبدأ الأسبوع المقبل، وأنا بحاجة إلى كل أفضلية ممكنة.

ألمح الجلمود الذي اتخذتُه علامة مميزة طيلة السنوات الخمس الماضية، فأبدأ بعدّ الأشجار على ضفة النهر. أهمس: «واحدة، اثنتان، ثلاث»، وتلتقط عيناي شجرة البلوط المنشودة. تمتد أغصانها عريضة وشاهقة، وبعضها يتجرأ على التطاول فوق مياه النهر. ولحسن حظي، فإن أدناها يسهل تسلقه، لا سيما مع انطماس العشب أسفلها بشكل غريب.

يومض ألم حاد في كتفي بينما أُخرج ذراعي اليمنى من الحمّالة وأبدأ التسلق، مهتدية بضوء القمر وذاكرتي. سرعان ما يخفت الألم متحولاً إلى وجع مكتوم، تماماً كما يحدث كل مساء بعد أن تبرحني ريانون ضرباً على حلبة النزال. آمل أن يحررني نولون من هذه الحمّالة المزعجة غداً وإلى الأبد.

تبدو كرمة الفونيل للوهلة الأولى أشبه بنبات اللبلاب وهي تلتف صعوداً حول الجذع، لكنني تسلقت هذه الشجرة بالذات مرات تكفي لأوقن أنها كرمتي المنشودة. إلا أنني لم أُضطر يوماً لتسلق هذه الشجرة اللعينة وأنا أرتدي عباءة. إنها معاناة حقيقية؛ فالقماش يعلق في كل غصن تقريباً بينما أواصل صعودي البطيء والثابت، متجاوزةً الغصن العريض الذي اعتدت قضاء ساعات طوال في القراءة فوقه.

تباً! تنزلق قدمي عن اللحاء، ويتعثر نبض قلبي للحظة ريثما تجد قدماي موطئاً أفضل. كان هذا ليكون أسهل بكثير في وضح النهار، لكنني لا أستطيع المجازفة بافتضاح أمري.

يخدش اللحاء باطن كفيّ كلما ارتفعت. أطراف أوراق الكرمة تبدو بيضاء على هذا الارتفاع، وبالكاد تُرى في ضوء القمر المبقع المتسلل عبر المظلة الشجرية، لكن ابتسامة واسعة ترتسم على وجهي حين أجد ضالتي.

«ها أنتِ ذي». حبات التوت الأرجوانية لا تزال في طور الخزامى الفجة بجمال أخاذ. ممتاز. أغرس أظافري في الغصن الذي يعلوني، وأنجح في الحفاظ على توازني وقتاً يكفي لانتزاع قارورة زجاجية فارغة من حقيبتي وفتح سدادتها بأسناني. ثم أقطف من الكرمة ما يكفي لملء الزجاجة وأحكم إغلاقها من جديد. بين هذه الحبات، والفطر الذي جمعتُه الليلة، وبقية الأغراض التي حصدتها، سأكون قادرة على اجتياز شهر التحديات القادم.

أكاد أنهي نزولي من الشجرة، ولم يتبقَّ سوى حفنة من الأغصان، حين ألمح حركة تحتي فأتسمر مكاني. أتمنى أن يكون مجرد غزال.

لكنه لم يكن كذلك.

شخصان متدثران بعباءتين سوداوين – يبدو أن هذا هو زي التنكر الرائج الليلة – يمشيان تحت حماية الشجرة. يسند الشخص الأصغر ظهره إلى الغصن السفلي، ويزيح قلنسوته ليكشف عن رأس نصف محلوق وشعر وردي أعرفه حق المعرفة.

إيموجين، زميلتي في الفرقة التي كادت أن تخلع ذراعي من مكانها قبل عشرة أيام.

تنقبض معدتي، ثم تعتصر بقوة حين يزيح الراكب الثاني قلنسوته.

زايدن ريورسون.

يا للهول.

لا يفصل بيننا سوى خمسة عشر قدماً تقريباً، ولا شيء – ولا أحد – هنا ليمنعه من قتلي. يُحكم الخوف قبضته على حنجرتي ويخنقني، بينما أتشبث بالأغصان حولي حتى ابيضّت مفاصلي، أفاضل في عقلي بين مزايا كتم أنفاسي كي لا يسمعني، وبين خطر السقوط من الشجرة إن فقدت وعيي لنقص الأكسجين.

يبدآن الحديث، لكن هدير النهر يمنعني من التقاط كلماتهم. يغمر الارتياح رئتيّ. إن كنت عاجزة عن سماعهما، فهما أيضاً لن يسمعاني، طالما بقيت ساكنة. لكن كل ما يتطلبه الأمر هو أن يرفع نظره، وسأكون في خبر كان، حرفياً، إن قرر إطعامي لـ تنينه الأزرق ذي الذيل الخنجري. ضوء القمر الذي كنت ممتنة له قبل دقائق، استحال الآن أكبر نقاط ضعفي.

ببطء، وبحذر، وبهدوء تام، أنسحب من بقعة ضوء القمر إلى الغصن المجاور، وأدثر نفسي بالظلال. ما الذي يفعله هنا مع إيموجين؟ هل هما عشيقان؟ صديقان؟ لا شأن لي بالأمر مطلقاً، ومع ذلك لا يسعني إلا أن أتساءل إن كانت هي نوع النساء الذي يستهويه؛ امرأة لا يتفوق على جمالها سوى وحشيتها. بحق الجحيم، إنهما يستحقان بعضهما.

يلتفت زايدن مبتعداً عن النهر، وكأنه يترقب قدوم أحدهم، وبالفعل، يتوافد المزيد من راكبي التنانين متجمعين تحت الشجرة. جميعهم يرتدون عباءات سوداء ويتصافحون. وجميعهم يحملون آثار التمرد.

تتسع عيناي وأنا أُحصيهم. هناك ما يقرب من دزّينتين منهم، بعضهم من السنة الثالثة واثنان من الثانية، أما البقية فمن السنة الأولى. أنا أعرف القوانين

جيداً. لا يُسمح للموشومين بالتجمع في مجموعات تزيد عن ثلاثة أفراد. إنهم يرتكبون جريمة عظمى بمجرد تواجدهم معاً. من الواضح أنه اجتماع من نوع ما، وأنا أشعر كقطة تتشبث بأطراف أوراق هذه الشجرة، بينما تعوي الذئاب وتدور في الأسفل.

قد يكون تجمعهم هذا بريئاً تماماً، أليس كذلك؟ ربما يشعرون بالحنين للوطن، كما يفعل متدربو مقاطعة مورين حين يمضون يوم السبت عند البحيرة القريبة لمجرد أنها تذكرهم بالمحيط الذي يفتقدونه بشدة.

أو ربما يخطط الموشومون لحرق باسجيات عن بكرة أبيها وإكمال ما بدأه آباؤهم.

يمكنني الجلوس هنا وتجاهلهم، لكن سلبيتي – وخوفي – قد تتسبب في مقتل أبرياء إن كانوا يحيكون مؤامرة في الأسفل. إخبار داين هو التصرف الصائب، لكنني لا أستطيع حتى سماع ما يقولونه.

تباً. تباً. تباً. تقلب الغثيان في معدتي. يجب أن أقترب أكثر.

مبقيةً نفسي على الجانب المعاكس من الجذع ومتشبثة بالظلال التي تلفني، أهبط إلى غصن آخر ببطء يشبه كسل حيوان الكسلان، حابسةً أنفاسي وأنا أختبر قدرة كل غصن على تحمل جزء من وزني قبل أن أُلقي بثقلي عليه. لا تزال أصواتهم مكتومة بهدير النهر، لكني أستطيع تمييز صوت أعلاهم نبرة؛ رجل طويل القامة بشعر داكن وبشرة شاحبة، يمتلك كتفين يشغلان ضعف المساحة التي يشغلها أي متدرب في السنة الأولى. يقف في مواجهة زايدن ويحمل رتبة متدرب في السنة الثالثة.

يقول:

– «لقد خسرنا بالفعل ساذرلاند ولوبركو.»

لكني أعجز عن تبين الرد.

أتجاوز درجتين أخريين من الأغصان لتصبح كلماتهم واضحة. يقرع قلبي وكأنه يحاول تحطيم أضلاعي والهرب. أنا قريبة بما يكفي ليلمحني أي منهم إن حدق جيداً – حسناً، باستثناء زايدن، ظهره مولٍّ نحوي.

تقول إيموجين:

– «شئتم أم أبيتم، علينا أن نبقى متكاتفين إن كنتم ترغبون في النجاة حتى التخرج.»

قفزة صغيرة نحو اليمين، وبإمكاني أن أرد لها صاع تلك الحركة القاسية التي كسرت كتفي بركلة سريعة في رأسها.

لكن يصادف أنني أقدر حياتي أكثر من رغبتي في الانتقام في الوقت الحالي، لذا أُبقي قدميّ في مكانهما.

تسأل فتاة من السنة الأولى ذات بشرة زيتونية، وعيناها تندفعان قلقاً حول الدائرة:

– «وماذا لو اكتشفوا أمر اجتماعنا؟»

يرد زايدن وهو يعقد ذراعيه ويسند ظهره إلى الغصن الواقع أسفل يميني مباشرة:

– «نحن نفعل هذا منذ عامين ولم يُكشف أمرنا قط. ولن يكتشفوه إلا إذا وشى أحدكم. وإن وشيتم، سأعرف.»

كان التهديد جلياً في نبرته. يتابع:

– «كما قال غاريك، لقد خسرنا للتو اثنين من السنة الأولى بسبب إهمالهما الشخصي. لا يوجد سوى واحد وأربعين منا في قطاع راكبي التنانين، ولا نريد أن نخسر أياً منكم، لكننا سنفعل إن لم تساعدوا أنفسكم. الاحتمالات دوماً ضدنا،

وصدقوني، كل نافاريّ آخر في القطاع سيبحث عن ذريعة لنعتكم بالخونة أو إجباركم على الفشل.»

تتعالى تمتمات الموافقة، وتتعثر أنفاسي أمام حدة صوته. تباً، لا أريد أن أجد شيئاً واحداً يثير الإعجاب في زايدن ريورسون، وها هو ذا يتصرف بنبل يثير الحنق. الوغد. عليّ أن أعترف، كان ليكون من الرائع لو أن راكباً رفيع الرتبة من مقاطعتي اكترث بحياة بقيتنا أو موتهم.

يسأل زايدن:

– «كم منكم يُبرَح ضرباً في القتال المتلاحم؟»

ترتفع أربع أيادٍ في الهواء، ليس من بينها يد متدرب السنة الأولى ذي الشعر الأشقر الشائك، الواقف مكتوف الذراعين، والذي يفوق معظم الحاضرين طولاً برأس كامل. ليام مايري. إنه في الفرقة الثانية، قسم الذيل من جناحنا، وهو بالفعل المتدرب الأبرز في سنتنا. لقد ركض عملياً عبر المتراس، وسحق كل خصومه في يوم التقييم.

يسب زايدن:

– «تباً.»

وكنت لأدفع أي شيء لأرى تعابير وجهه وهو يرفع يده ليمسح وجهه.

يتنهد الرجل الضخم – غاريك – قائلاً:

– «سأتولى تدريبهم.»

لقد عرفته الآن. إنه قائد قسم اللهب في الجناح الرابع. رئيسي المباشر الذي يعلو داين رتبة.

يهز زايدن رأسه:

– «أنت أفضل مقاتل لدينا–»

يقاطعه متدرب من السنة الثانية يقف بجواره بابتسامة سريعة:

– «بل أنت أفضل مقاتل لدينا.»

إنه وسيم، ذو بشرة سمراء ذهبية يعلوها تاج من التجاعيد السوداء، وتتوزع على ما يظهر من زيه تحت العباءة سلسلة من الشارات. ملامحه قريبة جداً من زايدن لدرجة توحي بقرابة دموية. أبناء عمومة ربما؟ كان لـ فين ريورسون أخت إن أسعفتني الذاكرة. تباً، ما كان اسم الفتى؟ مرت سنوات منذ أن طالعت السجلات، لكنني أظن أن اسمه كان يبدأ بحرف الباء.

تسخر إيموجين قائلة:

– «ربما الأكثر قذارة في القتال.»

يضحك معظم الحضور، وحتى طلاب السنة الأولى ترتسم على شفاههم ابتسامات خفيفة.

يضيف غاريك:

– «الأكثر وحشية بحق الجحيم، هذا وصف أدق.»

تعم إيماءات الإجماع، بما في ذلك إيماءة من ليام مايري.

يشير زايدن:

– «غاريك هو مقاتلنا الأفضل، لكن إيموجين لا تقل عنه مهارة، وهي أكثر صبراً بكثير.»

وهو أمر يثير الضحك بالنظر إلى أنها لم تكن صبورة البتة وهي تكسر ذراعي.

يتابع زايدن:

– «لذا، فليتوزع الأربعة منكم بينهما للتدريب. مجموعة من ثلاثة أفراد لن تلفت أي انتباه غير مرغوب فيه. ما الذي يواجهكم أيضاً من عقبات؟»

يقول متدرب نحيل من السنة الأولى، وهو يطوي كتفيه للداخل ويرفع أصابعه الرقيقة إلى وجهه:

– «لا أستطيع فعل هذا.»

يسأل زايدن بنبرة أخذت طابعاً حاداً:

– «ما الذي تقصده؟»

يهز الفتى الأصغر رأسه قائلاً والحدة ترتفع في صوته مع كل جملة:

– «لا أستطيع فعل هذا! الموت. القتال. أي شيء من هذا! لقد رأيت أحدهم تُكسر عنقه أمامي مباشرة في يوم التقييم! أريد العودة إلى المنزل! هل يمكنك مساعدتي في ذلك؟»

تستدير كل الرؤوس نحو زايدن.

يهز زايدن كتفيه ويجيب:

– «لا. أنت لن تنجو. من الأفضل أن تتقبل الأمر الآن وألا تضيع المزيد من وقتي.»

بذلت كل ما في وسعي لأكتم شهقتي، بينما لم يكلف بعض الحاضرين أنفسهم عناء المحاولة. يا. له. من. وغد.

بدا الفتى الأصغر مصدوماً، ولم يسعني إلا أن أشعر بالشفقة تجاهه.

يقول المتدرب من السنة الثانية الذي يشبه زايدن، رافعاً حاجبيه:

– «كان هذا قاسياً بعض الشيء يا ابن عمي.»

يميل زايدن رأسه جانباً، مجيباً بصوت هادئ ومستقر:

– «وماذا تتوقع مني أن أقول يا بودهي؟ لا يمكنني إنقاذ الجميع، وتحديداً من لا يملك الإرادة للعمل على إنقاذ نفسه.»

يفرك غاريك جسر أنفه ويقول:

– «تباً يا زايدن. يا لها من طريقة رائعة لإلقاء خطبة تحفيزية.»

يرد زايدن:

– «إن كانوا بحاجة إلى خطبة تحفيزية لعينة، فكلانا يعلم أنهم لن يحلقوا خارج هذا القطاع في يوم التخرج. فلنكن واقعيين. يمكنني أن أمسك بأيديهم وأطلق لهم حفنة من الوعود التافهة الفارغة بنجاة الجميع إن كان هذا سيساعدهم على النوم، لكن من واقع خبرتي، الحقيقة أكثر قيمة بكثير.»

يدير رأسه، ولا يسعني إلا أن أفترض أنه ينظر إلى متدرب السنة الأولى المذعور، ويتابع:

– «في الحرب، يموت الناس. وليس الأمر مجيداً كما يتغنى به الشعراء. إنه أعناق مكسورة، وسقوط من ارتفاع مئتي قدم. لا توجد أي رومانسية في الأرض المحروقة أو رائحة الكبريت. هذا المكان...»

يشير بيده نحو القلعة، ويواصل:

– «ليس حكاية خرافية يخرج منها الجميع أحياء. إنه واقع قاسٍ، بارد، ولا يرحم. لن يعود الجميع هنا إلى منازلهم... أو إلى ما تبقى من منازلنا. ولا تخطئوا الفهم، نحن في حالة حرب في كل مرة تطأ فيها أقدامنا القطاع.»

ينحني للأمام قليلاً:

– «لذا، إن لم تستجمع قواك وتقاتل لتعيش، فلا. لن تنجو.»

وحده صرصر الليل تجرأ على كسر حاجز الصمت.

يأمر زايدن:

– «الآن، فليطرح عليّ أحدكم مشكلة يمكنني حلها حقاً.»

تقول فتاة من السنة الأولى مألوفة الوجه بصوت خافت:

– «الموجز القتالي.»

سريرها يبعد صفاً واحداً عن سريري وسرير ريانون. تباً... ما كان اسمها؟ يوجد عدد كبير جداً من النساء في القاعة لاستيعاب أسماء الجميع، لكنني متأكدة من أنها في الجناح الثالث.

تتابع وهي تهز كتفيها:

– «ليس الأمر أنني عاجزة عن المواكبة، لكن المعلومات...»

تجيبها إيموجين وهي تلتفت نحو زايدن:

– «هذه مشكلة عويصة.»

مظهرها الجانبي في ضوء القمر يجعلها تبدو كشخص آخر تماماً غير تلك التي مزقت كتفي. تلك الإيموجين قاسية، بل وشرسة. لكن الطريقة التي تنظر بها إلى زايدن ترقق عينيها، وفمها، ووضعيتها بالكامل وهي تدس خصلة قصيرة من شعرها الوردي خلف أذنها.

يوجه زايدن حديثه لفتاة السنة الأولى بنبرة صارمة:

– «تعلمي ما يلقنونكِ إياه. احتفظي بما تعرفينه في قرارة نفسك، لكن رددي ما يأمرونكِ بترديده.»

أقطب حاجبيّ. ما الذي يعنيه بحق الجحيم؟ الموجز القتالي هو إحدى الحصص الدراسية التي يُدرّسها النساخون لإبقاء القطاع على اطلاع دائم بكل تحركات القوات غير السرية وخطوط المواجهة. والأمور الوحيدة التي يُطلب منا ترديدها هي الأحداث الأخيرة، والمعرفة العامة بما يجري بالقرب من الجبهات الأمامية.

يسأل زايدن:

– «أي شخص آخر؟ من الأفضل أن تسألوا الآن. لا نملك الليل بطوله.»

أدركتُ الأمر حينها؛ باستثناء تجمعهم في مجموعة تزيد عن ثلاثة، لا يوجد أي خطأ فيما يفعلونه هنا. لا توجد مؤامرة، ولا انقلاب، ولا خطر. إنهم مجرد مجموعة من الركاب الأقدمين يسدون النصح لطلاب السنة الأولى من مقاطعتهم. لكن لو علم داين، فسيكون ملزماً بشرفه أن–

يسأل فتى يقف في الخلف:

– «متى سيُتاح لنا قتل ڤيوليت سورنجيل؟»

يتجمد الدم في عروقي.

ترسل همهمات الموافقة بين أفراد المجموعة صعقة من الرعب في أسفل عمودي الفقري.

تقول إيموجين برقة وهي ترفع عينيها الخضراوين الباهتتين نحوه:

– «أجل يا زايدن، متى سنحظى بانتقامنا أخيراً؟»

يلتفت زايدن بزاوية تكفي لرؤية وجهه الجانبي والندبة التي تعبره، ويضيّق عينيه شزراً نحو إيموجين:

– «لقد أخبرتكِ مسبقاً، صغرى عائلة سورنجيل تخصني، وسأتعامل معها حين يحين الوقت المناسب.»

سـ... يتعامل معي؟ تذوب برودة عضلاتي بفعل حرارة السخط. أنا لست عبئاً مزعجاً ليتم "التعامل" معي. انتهى إعجابي القصير الأمد بزايدن.

يوبخها شبيه زايدن من منتصف الدائرة:

– «ألم تتعلمي هذا الدرس مسبقاً يا إيموجين؟ ما سمعته هو أن آيتوس ألزمكِ بغسل أطباق العشاء طيلة الشهر القادم عقاباً على استخدام قدرتكِ السحرية الفريدة في حلبة النزال.»

تلتفت إيموجين نحوه بحركة مباغتة:

– «والدتها مسؤولة عن إعدام أمي وأختي. كان ينبغي لي أن أفعل أكثر من مجرد كسر كتفها.»

يعارضها غاريك، عاقداً ذراعيه فوق صدره العريض:

– «والدتها مسؤولة عن القبض على آبائنا جميعاً تقريباً. وليست ابنتها. معاقبة الأطفال بذنوب آبائهم هي طريقة النافاريين، وليست طريقة التايرينيين.»

تبدأ إيموجين بالرد:

– «لذا يُزج بنا في يوم التجنيد بسبب ما فعله آباؤنا قبل سنوات، ونُرمى في هذه الكلية التي هي بمثابة حكم بالإعدام–»

يرد غاريك بحزم:

– «في حال لم تلاحظي، هي متواجدة في الكلية ذاتها التي تعتبر حكماً بالإعدام. ويبدو أنها تعاني المصير ذاته بالفعل.»

هل أشاهدهم حقاً يتجادلون حول ما إذا كان يجب معاقبتي لمجرد كوني ابنة ليليث سورنجيل؟

يضيف زايدن:

– «ولا تنسوا أن شقيقها كان بريនان سورنجيل. لديها من الأسباب لتكرهنا بقدر ما نكرهها.»

ينظر بحدة نحو إيموجين وطالب السنة الأولى الذي طرح السؤال:

– «ولن أكرر قولي مرة أخرى. هي تخصني لأتعامل معها. هل يملك أحدكم رغبة في الجدال؟»

يسود الصمت المطبق.

يقول:

– «جيد. إذن عودوا إلى أَسِرَّتِكُمْ وتفرقوا في مجموعات ثلاثية.»

يومئ برأسه، فيتفرقون ببطء مبتعدين في مجموعات من ثلاثة أفراد تماماً كما أمرهم. كان زايدن آخر من غادر.

أسحب نفساً بطيئاً. يا إلهي، قد أنجو بحياتي من هذا الموقف.

لكني أحتاج للتأكد من رحيلهم. لم أحرك ساكناً، حتى حين أصابت التشنجات فخذيّ وتصلبت أصابعي وأنا أعد حتى الخمسمائة في رأسي، محاولة التنفس بانتظام قدر الإمكان لأخفف من حدة نبضات قلبي الجامحة. فقط عندما تيقنت من أنني وحيدة، حين ركضت السناجب مسرعة على الأرض تحتي، أنهيت نزولي من الشجرة، قافزةً الأقدام الأربعة الأخيرة نحو الأرض المعشبة. لابد أن الإله زينال يحمل لي معزة خاصة، لأنني المرأة الأكثر حظاً في هذه القارة–

يندفع ظل خلفي فأفتح فمي لأصرخ، لكن إمداد الهواء ينقطع عني حين يلتف مرفق حول رقبتي وأُجذب بقوة نحو صدر صلب.

يهمس:

– «اصرخي وتموتين.»

تهوي معدتي حين يُستبدل المرفق بلسعة خنجر حادة تُلامس حنجرتي.

أتصلب مكاني. يمكنني تمييز نبرة زايدن الخشنة في أي مكان.

يقول:

– «سورة سورنجيل اللعينة.»

تنتزع يده قلنسوة عباءتي إلى الخلف.

أسأله بنبرة تقطر سخطاً:

– «كيف عرفت؟»

لكن لا يهم. إن كان سيقتلني، فلن أسقط أمامه كمتسولة ضعيفة مستجدية.

أتابع:

– «دعني أحزر، لقد تمكنتَ من شم عطري. أليس هذا ما يفضح البطلة دائماً في الروايات؟»

يسخر قائلاً:

– «أنا أتحكم بالظلال، لكن بكل تأكيد، عطرك هو ما فضح أمرك.»

يخفض الخنجر ويبتعد عني.

أشهق مفزوعة:

– «قدرتك السحرية الفريدة هي التحكم بالظلال؟»

لا عجب إذن في ارتقائه لهذه الرتبة العالية. متحكمو الظلال نادرون للغاية ومطلوبون بشدة في ساحات المعارك، لقدرتهم على إرباك أسراب كاملة من الغريفيون، إن لم يكن إسقاطها بالكامل، اعتماداً على قوة السحر.

يسأل:

– «ماذا؟ ألم يحذركِ آيتوس بعد من البقاء معي بمفردكِ في الظلام؟»

كان صوته أشبه بمخمل خشن يلامس بشرتي، فأرتجف، ثم أستل نصل درعي المخفي في غمد فخذي وأرفعه بينما أستدير نحوه، مستعدة للدفاع عن نفسي حتى الموت:

– «هل هذه هي الطريقة التي تخطط بها للتعامل معي؟»

يقوس حاجبًا أسود ويعيد خنجره إلى غمده، وكأنه يستحيل أن أشكل تهديداً له، مما لا يزيدني إلا غضباً، ويقول:

– «كنا نتنصت، أليس كذلك؟ الآن قد أضطر لقتلكِ بالفعل.»

كانت هناك مسحة من الحقيقة المبطنة في عينيه الساخرتين.

هذا مجرد... هراء.

أقول:

– «إذن تفضل وأنهِ الأمر.»

أستل خنجراً آخر، هذه المرة من تحت عباءتي حيث كان مربوطاً عند أضلاعي، وأتراجع بضع خطوات للوراء لأمنح نفسي مسافة كافية لرميها – إن لم يهاجمني أولاً.

ينظر بتمعن إلى أحد الخنجرين، ثم إلى الآخر، ويتنهد عاقداً ذراعيه فوق صدره:

– «تلك الوقفة هي أفضل دفاع يمكنكِ حشده حقاً؟ لا عجب أن إيموجين كادت أن تخلع ذراعكِ.»

أرد متبجحة بصراحة:

– «أنا أشد خطورة مما تظن.»

يرتفع ركن فمه بابتسامة ساخرة:

– «أرى ذلك. إنني أرتعد خوفاً.»

وغد. لعين.

أقلب الخنجرين في يدي، أمسكهما من الأطراف، ثم أنفض رسغيّ وأطلقهما نحو رأسه، واحداً من كل جانب. يستقران بثبات في جذع الشجرة خلفه.

يقول دون أن يرف له جفن:

– «لقد أخطأتِ.»

أمد يدي نحو نصليّ الأخيرين:

– «هل فعلت؟ لمَ لا تتراجع بضع خطوات لتختبر هذه النظرية؟»

يومض الفضول في عينيه، لكنه يختفي في الثانية التالية، محجوباً بلامبالاة باردة وساخرة.

حواسي جميعها في حالة تأهب قصوى، لكن الظلال من حولي لا تنزلق نحوي عندما يتراجع للخلف، وعيناه مسمرتان على عينيّ. يصطدم ظهره بالشجرة، وتلامس مقابض خناجري أذنيه.

أُهدد ممسكة بالخنجر في يدي اليمنى من طرفه:

– «أخبرني مجدداً أنني أخطأت.»

ترتسم ابتسامة تقدير على شفتيه المثاليتين بينما تتراقص الظلال صعوداً على جذع البلوط، متخذة شكل أصابع. يقول:

– «مذهل. تبدين هشة وسهلة الكسر، لكنكِ حقاً كائن صغير عنيف، أليس كذلك؟»

تنتزع أصابع الظل الخناجر من الشجرة وتجلبها إلى يدي زايدن المنتظرتين.

تخونني أنفاسي في زفير حاد. إنه يملك نوعاً من القوة القادرة على إنهائي دون أن يضطر حتى لتحريك إصبع – سحر الظلال. إن عدم جدوى محاولة الدفاع عن نفسي أمامه أمر مثير للسخرية.

أكره مدى وسامته، ومدى الفتك الذي تمنحه إياه قدراته وهو يخطو نحوي، والظلال تلتف حول خطواته. يبدو كواحدة من تلك الأزهار السامة التي قرأت عنها في غابات سجنيسن شرقاً. جاذبيته هي تحذير بألا تقترب أكثر من اللازم، وأنا بلا شك قريبة أكثر من اللازم.

أغير قبضتي إلى مقابض خناجري، متأهبة للهجوم.

يقول زايدن موجهاً كفيه للأعلى ليقدم لي خناجري:

– «ينبغي لكِ أن تستعرضي هذه الخدعة الصغيرة أمام جاك بارلو.»

أقول:

– «عذراً؟»

هذه خدعة. لابد أنها خدعة.

يقترب أكثر، فأرفع نصلي. يتعثر قلبي، وتصبح دقاته غير منتظمة مع تدفق الخوف في عروقي.

يوضح زايدن بينما يضغط نصلي على عباءته في مستوى بطنه:

– «متدرب السنة الأولى كاسر الأعناق، الذي أقسم علانية على ذبحكِ.»

يمد يده تحت عباءتي وينزلق بأحد الأنصال في غمد فخذي، ثم يسحب جانب عباءتي للوراء ويتوقف. تتسمر نظراته على طول ضفيرتي حيث تتدلى على كتفي، وأكاد أقسم أنه توقف عن التنفس للحظة قبل أن يدس الخنجر المتبقي في أحد الأغماد عند أضلاعي، ويتابع:

– «من المرجح أنه سيفكر مرتين قبل التخطيط لقتلكِ إن أطلقتِ بضعة خناجر نحو رأسه.»

هذا... هذا... غريب الأطوار. لابد أنها نوع من الألعاب تهدف إلى إرباكي، أليس كذلك؟ وإن كان الأمر كذلك، فهو يلعبها ببراعة لعينة.

أتحداه قائلة:

– «لأن شرف قتلي يعود إليك؟ لقد أردتَ موتي قبل وقت طويل من اختيار ناديك الصغير شجرتي للاجتماع تحتها، لذا أتصور أنك قد دفنتني بالفعل في مخيلتك الآن.»

يلقي نظرة سريعة على الخنجر الموجه نحو بطنه ويسأل:

– «هل تضمرين إخبار أي شخص بشأن ناديَّ الصغير؟»

تلتقي عيناه بعينيّ، ولا أجد فيهما سوى موت بارد ومحسوب ينتظرني.

أجبته بصدق، كابتةً قشعريرتي:

– «لا.»

يميل رأسه جانباً، متفحصاً وجهي وكأنني ظاهرة غريبة:

– «ولمَ لا؟ من غير القانوني لأبناء الضباط الانفصاليين التجمع في–»

أقاطعه رافعة ذقني:

– «مجموعات تزيد عن ثلاثة. أنا على دراية تامة. لقد عشت في باسجيات أطول منك.»

تضيق نظراته وهو يحدق بي:

– «ولن تهرعي إلى والدتك، أو إلى داين الصغير العزيز على قلبكِ، لتخبريهما بأننا كنا نجتمع؟»

تلتوي معدتي تماماً كما حدث قبل أن أخطو على المتراس الصخري، وكأن جسدي يدرك أن تصرفي التالي سيحدد المدة المتبقية من عمري.

قلت:

– «لقد كنت تساعدهم. لا أرى سبباً يستوجب معاقبة ذلك.»

لن يكون ذلك منصفاً له أو للآخرين. هل كان اجتماعهم الصغير غير قانوني؟ بكل تأكيد. هل يجب أن يُعدموا بسببه؟ قطعاً لا. وهذا بالضبط ما سيحدث إن وشيت بهم. سيُعدم طلاب السنة الأولى لسبب لا يتعدى طلبهم للدروس الخصوصية، وسيلحق بهم كبار المتدربين لمجرد مساعدتهم.

أضفت:

– «لن أشي بكم.»

ينظر إلي وكأنه يحاول النفاذ عبري، فيوخز الصقيع فروة رأسي.

يدي ثابتة، لكن أعصابي ترتعد مما قد تحمله الثواني الثلاثون القادمة. بإمكانه قتلي هنا والآن، ورمي جثتي في النهر، ولن يلحظ أحد غيابي حتى يجدوني في مجرى النهر السفلي.

لكني لن أدعه ينهي حياتي دون أن أسفك دمه أولاً، هذا أمر مؤكد.

يقول بهدوء:

– «مثير للاهتمام. سنرى إن كنتِ ستفين بعهدكِ، وإن فعلتِ، فمن المؤسف أنه سيبدو وكأنني أدين لكِ بمعروف.»

ثم يبتعد، يستدير، ويمضي عائداً نحو الدرج المحفور في الجرف والذي يقود صعوداً إلى القلعة.

مهلاً. ماذا؟

أهتف في إثره رافعة حاجبيّ في صدمة:

– «ألست بصدد التعامل معي؟»

يلقي بكلماته من فوق كتفه:

– «ليس الليلة!»

أسخر منه قائلة:

– «وما الذي تنتظره؟»

يجيب وهو يخطو داخل العتمة:

– «ينتفي المرح إن كنتِ تتوقعين الأمر. الآن، عودي إلى فراشكِ قبل أن يدرك قائد جناحكِ أنكِ بالخارج بعد حظر التجول.»

أحدق في إثره مذهولة:

– «ماذا؟ أنت هو قائد جناحي!»

لكنه كان قد توارى بالفعل وسط الظلال، تاركاً إياي أتحدث إلى نفسي كالحمقاء.

لم يسألني حتى عما كان بداخل حقيبتي.

ترتسم ابتسامة بطيئة على وجهي وأنا أُعيد ذراعي إلى الحمّالة، متنهدة بارتياح حين زال الثقل عن كتفي. حمقاء تملك توت الفونيل.

ثمة فن مقترن بالسموم قلما يُتداول الحديث عنه، ألا وهو التوقيت. فالخبير وحده قادر على تحديد الجرعة وطريقة إعطائها بدقة لضمان فعالية تأثيرها. إذ يتحتم على المرء مراعاة كتلة جسد الضحية، فضلاً عن وسيلة الإيصال.

– الاستخدامات الفعالة للأعشاب البرية والمزروعة، بقلم الكابتن لورانس ميدينا



الفصل الثامن

يسود السكون قاعة النساء بينما أرتدي ملابسي الصباحية، وتكاد الشمس لا تبين فوق خط الأفق عبر النوافذ البعيدة. أتناول سترة حراشف التنين من حيث تركتها لتجف على الشماعة عند طرف سريري، وأنزلق بداخلها فوق قميصي الأسود ذي الأكمام القصيرة. من حسن حظي أنني أصبحت بارعة تماماً في شد الأربطة خلف ظهري، بما أن ريانون ليست في سريرها.

على الأقل إحدانا تحظى ببعض المتعة التي تمس الحاجة إليها. وأنا شبه واثقة من وجود شخص أو شخصين هنا متواريين مع شركائهم بين الأسرّة الممتلئة أيضاً. يتشدق قادة الفرق كثيراً بفرض حظر التجول، لكن لا أحد يكترث حقاً. حسناً، باستثناء داين. فهو يكترث لكل قاعدة تُسن.

داين. ينقبض صدري، وأبتسم بينما أنهي تجديل شعري على هيئة تاج. رؤيته هي الجزء الأفضل في يومي، حتى في تلك اللحظات التي يكون فيها بعيداً كل

البعد عن اللطف أمام الآخرين. بل وحتى في اللحظات التي يستنزفه فيها سعيه لإنقاذي من هذا المكان.

ألتقط حقيبتي في طريقي للخروج، مارةً بصفوف من الأسرّة الخاوية التي كانت تخص دزينة من النساء اللواتي لم ينجون لرؤية شهر أغسطس، وأدفع الباب لأفتحه.

ها هو ذا.

تشرق عينا داين وهو يبتعد عن جدار الرواق حيث كان ينتظرني بوضوح. قال:

– «صباح الخير.»

لم أستطع كبح الابتسامة التي ارتسمت على شفتيّ. قلت:

– «لست مضطراً لمرافقتي إلى نوبة عملي كل صباح، كما تعلم.»

رد بينما كنا نمشي في الرواق الخاوي، متجاوزين الممرات التي ستقودنا إلى غرفنا الخاصة إن نجونا من يوم التصفية:

– «إنه الوقت الوحيد الذي يتسنى لي فيه رؤيتكِ دون أن أكون قائد فرقتكِ.»

تابع قائلاً:

– «صدقيني، الأمر يستحق الاستيقاظ مبكراً بساعة، رغم أنني لا أزال عاجزاً عن فهم سبب اختياركِ لنوبة الإفطار دوناً عن بقية المهام.»

هززت كتفيّ:

– «لدي أسبابي.»

أسباب وجيهة جداً، جداً، جداً. ورغم ذلك، أفتقد بشدة ساعة النوم الإضافية التي كنت أحظى بها قبل أن نختار مهامنا الأسبوع الماضي.

ينفتح باب على اليمين فجأة، فيندفع داين أمامي، ساحباً إياي خلفه بذراعه لأرتطم بوجهي في ظهره. كانت تفوح منه رائحة الجلد والصابون و –

صاح بحدة:

– «ريانون؟»

اتسعت عينا ريانون:

– «عذراً!»

أفلتُّ نفسي من قبضة داين وانتقلت إلى جانبه لأتمكن من رؤيتها. قلت:

– «كنت أتساءل أين اختفيتِ هذا الصباح.»

اتسعت ابتسامتي حين ظهرت تارا بجوارها. أضفت:

– «مرحباً يا تارا.»

قالت وهي تلوح لي، ثم تمضي في الرواق داسةً قميصها في بنطالها:

– «مرحباً يا ڤيوليت.»

شرع داين في إلقاء محاضرته، بينما جاهدتُ لكبح رغبتي في تقليب عينيّ:

– «لقد فُرض حظر التجول لسبب وجيه أيتها المتدربة، وأنتِ تعلمين أنه لا يُفترض بأحد التواجد في المهاجع الخاصة حتى انقضاء يوم التصفية.»

ردت ريانون:

– «ربما استيقظنا مبكراً وحسب. كما تعلم، تماماً كما تفعلان أنتما الآن.»

نقلت نظراتها بيننا بابتسامة ماكرة.

فرك داين جسر أنفه وقال:

– «فقط... عودي إلى المهاجع وتظاهري بأنكِ نمتِ هناك، حسناً؟»

قالت وهي تعصر يدي أثناء مرورها:

– «بكل تأكيد!»

همستُ لها بسرعة:

– «أحسنتِ صنعاً.»

لقد كانت معجبة بتارا منذ قدومنا إلى هنا.

تراجعت للوراء بابتسامة وقالت:

– «أعلم، أليس كذلك؟»

ثم استدارت لتدفع أبواب الرواق وتغادر.

تمتم داين بينما واصلنا طريقنا نحو المطبخ:

– «لم تكن مراقبة الحياة الجنسية لمتدربي السنة الأولى ما يدور في خلدي حين تقدمت بطلب لأصبح قائد فرقة.»

قلت:

– «أوه، بحقك. وكأنك لم تكن متدرباً في السنة الأولى العام الماضي.»

رفع حاجبيه مفكراً، ثم هز كتفيه في النهاية:

– «نقطة وجيهة. وأنتِ متدربة في السنة الأولى الآن...»

انزلقت عيناه نحوي بينما اقتربنا من المداخل المقوسة المؤدية إلى القاعة المستديرة، وانفرجت شفتاه وكأنه سيتابع حديثه، لكنه أشاح بنظره واستدار ليفتح الباب من أجلي.

مررت أصابعي على الأنياب البارزة لعمود التنين الأخضر، وعضضت على شفتي لأكتم ابتسامة أثناء مرورنا، قائلة:

– «عجباً يا داين آيتوس! هل تسألني عن حياتي الجنسية؟»

هز رأسه وقال:

– «لا!»

ثم توقف مفكراً وتابع:

– «أقصد... هل هناك حياة جنسية لأسأل عنها أصلاً؟»

صعدنا الدرج المؤدي إلى القاعة المشتركة، واستدرت قبيل الباب لمواجهته. كان يقف على درجة أدنى مني بخطوتين، ما جعلنا في مستوى نظر واحد.

ابتسمت ونقرت على ذقني بإصبعي قائلة:

– «منذ أن قدمتُ إلى هنا؟ هذا ليس من شأنك. وقبل أن أقدم إلى هنا؟ لا يزال ليس من شأنك.»

قال:

– «نقطة وجيهة أخرى.»

ارتسمت على فمه ابتسامة واسعة جعلتني أتمنى لو كان الأمر من شأنه حقاً.

استدرتُ قبل أن أرتكب حماقة مطلقة كأن أجعله من شأنه. واصلنا سيرنا داخل القاعة المشتركة، متجاوزين طاولات الدراسة الشاغرة ومدخل المكتبة. لم تكن مهيبة كأرشيف النساخين، لكنها كانت تضم كل مجلد سأحتاجه للدراسة هنا.

سألني داين ونحن نقترب من قاعة التجمع:

– «هل أنتِ مستعدة لليوم؟ لبدء التحديات بعد ظهر اليوم؟»

تلوت معدتي.

طمأنته قائلة:

– «سأكون بخير.»

لكنه تحرك ليقف أمامي، موقفاً خطواتي، وقال والتجاعيد تخط جبينه قلقاً:

– «أعلم أنكِ كنتِ تتدربين مع ريانون، لكن...»

وعدتُه وأنا أنظر في عينيه ليدرك أنني أعني ما أقول:

– «الأمور تحت السيطرة. لست مضطراً للقلق بشأني.»

الليلة الماضية، أُدرج اسم أورين سايفرت بجوار اسمي تماماً حيث قال برينان إنه سيكون. إنه شاب أشقر طويل القامة من الجناح الأول، يتمتع بمهارات مقبولة في استخدام السكاكين، لكنه يمتلك لكمة جبارة بحق.

كُورت يدا داين في قبضتين وقال:

– «أنا أقلق بشأنكِ دائماً.»

هززت رأسي:

– «لا تفعل. يمكنني تدبر أمري بنفسي.»

قال:

– «أنا فقط لا أريد رؤيتكِ تتأذين مجدداً.»

اعتصرت أضلاعي قلبي كملزمة.

أخذت يده الخشنة بين يدي وقلت:

– «إذن لا تشاهد. لا يمكنك إنقاذي من هذا يا داين. سأُستدعى للقتال مرة كل أسبوع كأي متدرب آخر. ولن يتوقف الأمر عند هذا الحد. لا يمكنك حمايتي من يوم التصفية، أو القفاز، أو جاك بارلو –»

تغضن وجه داين قائلاً:

– «عليكِ التواري عن الأنظار فيما يخصه بالذات. تجنبي ذلك الوغد المغرور كلما استطعتِ يا ڤاي. لا تمنحيه ذريعة ليتعقبكِ. إنه مسؤول بالفعل عن عدد كبير جداً من الأسماء في قائمة الموتى.»

قلت:

– «إذن ستحبه التنانين.»

فهم دائماً ما يميلون نحو الأكثر شراسة.

عصر داين يدي بلطف وقال:

– «فقط ابقي بعيدة عنه.»

رمشت بعيني. هذه النصيحة تختلف جذرياً عن نهج زايدن القائم على إطلاق-بضعة-خناجر-نحو-رأسه.

زايدن. عقدة الذنب القابعة في معدتي منذ الأسبوع الماضي تضخمت قليلاً. وفقاً للقانون، يُفترض بي أن أُخبر داين بشأن رؤيتي للموشومين تحت شجرة البلوط، لكني لن أفعل، ليس لأنني أخبرت زايدن بأنني سأكتم الأمر، بل لأن الحفاظ على هذا السر يبدو التصرف الصائب. لم أخبئ سراً عن داين طيلة حياتي.

سأل داين وهو يرفع يده ليحتضن وجهي:

– «ڤيوليت؟ هل سمعتني؟»

نقلت نظراتي إليه بسرعة، وأومأت مرددة:

– «أبقى بعيدة عن بارلو.»

أنزل يده ودسها في جيب بنطاله قائلاً:

– «آمل أن ينسى كل ما يتعلق بثأره الصغير ضدكِ.»

رفعت حاجبي وسألته:

– «وهل ينسى معظم الرجال حين تضع امرأة سكيناً على خصاهم؟»

تنهد وقال:

– «لا. أتعلمين، لم يفت الأوان بعد لتهريبكِ إلى قطاع النساخين. سيرحب بكِ فيتزجيبونز –»

قرعت الأجراس معلنةً الخامسة والربع، لتنقذني من جلسة أخرى يتوسلني فيها داين للهرب إلى قطاع النساخين.

قلت:

- «سأكون بخير. أراك في التشكيل الطابوري.»

عصرت يده مجدداً، ثم ابتعدت تاركة إياه خلفي لأشق طريقي إلى المطبخ. لطالما كنت أول الواصلين إلى هنا، واليوم ليس استثناءً.

أخرجت من حقيبتي قارورة توت الفونيل المجفف والمطحون، ودسستها في جيبي، ثم باشرت عملي بينما توافد بقية العاملين بعيون ناعسة وتذمر واضح. كان المسحوق أبيض اللون تقريباً، ويكاد يكون غير مرئي حين اتخذت مكاني في طابور تقديم الطعام بعد ساعة، ولم يكن بالإمكان ملاحظته مطلقاً وأنا أرشه فوق البيض المخفوق لـ أورين سايفرت عندما اقترب.

***

قال البروفيسور كاوري وعيناه الداكنتان الجادتان تتركزان بحدة وهو يتأمل المجندين الجدد للحظة:

- «أبقوا في أذهانكم الطبائع المميزة لكل سلالة حين تقررون أي التنانين ستقتربون منها وأيها ستهربون منها في يوم التصفية.»

ثم غيّر العرض الوهمي الذي استحضره من تنين أخضر ذي ذيل خنجري إلى تنين أحمر ذي ذيل عقربي. لقد كان صانع أوهام، والبروفيسور الوحيد في القطاع الذي يمتلك القدرة السحرية الفريدة على عرض ما يراه في عقله كتجسيد مادي، مما جعل هذه الحصة من مفضلاتي. وهو أيضاً السبب الذي جعلني أعرف بالضبط كيف يبدو أورين سايفرت.

هل أشعر بالذنب لتضليلي السافر لأحد الأساتذة حول سبب حاجتي لإيجاد متدرب آخر؟ لا. هل أعتبر ذلك غشاً؟ لا أيضاً. لقد كنت أفعل بالضبط ما اقترحته ميرا وأستعمل عقلي.

كان التنين الأحمر ذو الذيل العقربي المنتصب وسط طاولاتنا الدائرية يمثل جزءاً يسيراً من حجمه الحقيقي، فطوله لا يتجاوز ستة أقدام على أقصى تقدير، لكنه كان نسخة طبق الأصل من نافث النيران الحقيقي القابع في الوادي بانتظار يوم التصفية.

واصل البروفيسور كاوري حديثه، وانحنى شاربه المشذب بعناية بينما ابتسم للوهم وكأنه التنين ذاته:

– «التنانين الحمراء ذات الذيل العقربي، كـ غريان هنا، هي الأسرع استشاطة للغضب.»

كنا جميعاً ندوّن الملاحظات. تابع:

– «لذا إن أهنتموه، فستكونون –»

قال ريدوك من يساري:

– «وجبة الغداء.»

انفجر الصف ضاحكاً. حتى جاك بارلو، الذي لم يكف عن التحديق بي شزراً منذ أن احتلت فرقته ربعها المخصص من الغرفة قبل نصف ساعة، أصدر شخيراً ساخراً.

رد البروفيسور كاوري وهو يلقي نظرة حول الغرفة:

– «بالضبط. إذن، ما هي الطريقة المثلى للاقتراب من التنين الأحمر ذي الذيل العقربي؟»

كنت أعرف الإجابة، لكنني أبقيت يدي منخفضة، عملاً بنصيحة داين بالتواري عن الأنظار.

تمتمت ريانون بجواري:

– «لا تقتربون من الأساس.»

أفلتت مني ضحكة خافتة.

أجابت امرأة من إحدى الفرق الأخرى:

– «يفضلون أن تقترب من الجهة اليسرى ومن الأمام، إن أمكن.»

أومأ البروفيسور كاوري برأسه:

– «ممتاز. في يوم التصفية هذا، هناك ثلاثة تنانين حمراء ذات ذيول عقربية مستعدة للارتباط.»

تغيرت الصورة أمامنا لتجسد تنيناً مختلفاً.

سألت ريانون:

– «كم عدد التنانين الإجمالي؟»

أجاب البروفيسور كاوري وهو يغير الصورة مجدداً:

– «مائة لهذا العام. لكن بعضها قد يغير رأيه خلال العرض التقديمي بعد حوالي شهرين، بناءً على ما سيرونه.»

هوت معدتي إلى الحضيض. قلت:

– «هذا أقل بسبعة وثلاثين تنيناً عن العام الماضي.»

وربما أقل من ذلك إن لم يرق لهم مظهرنا بعد أن نضطر للاستعراض أمامهم ليتفحصونا قبل يومين من يوم التصفية. ثم إن عدد المتدربين يكون أقل في العادة بعد ذلك الحدث المعين على أية حال.

ارتفع حاجبا البروفيسور كاوري الداكنين:

– «أجل أيتها المتدربة سورنجيل، هذا صحيح، وهو أقل بستة وعشرين تنيناً عن العام الذي سبقه.»

عدد متناقص من التنانين يختار الارتباط، لكن أعداد الركاب الوافدين إلى القطاع ظلت ثابتة. دارت الأفكار في رأسي؛ الهجمات على الحدود الشرقية

تتزايد وفقاً لكل موجز قتالي، ومع ذلك هناك عدد أقل من التنانين المستعدة للارتباط للدفاع عن نافار.

سأل متدرب آخر من السنة الأولى:

– «هل سيخبرونك بسبب رفضهم للارتباط؟»

سخر جاك وهو يضيق عينيه الجليديتين الزرقاوين نحو المتدرب:

– «لا أيها الأحمق. التنانين لا تتحدث إلا إلى ركابها المرتبطين بها، تماماً كما لا تكشف عن أسمائها الكاملة إلا لركابها. كان ينبغي لك أن تعرف ذلك بحلول هذا الوقت.»

رمق البروفيسور كاوري جاك بنظرة أخرست متدرب السنة الأولى، لكنها لم تمنعه من الاستمرار في السخرية من زميله. قال معلمنا:

– «إنهم لا يشاركون أسبابهم. وأي شخص يقدر حياته لن يطرح سؤالاً لا يرغبون في الإجابة عنه.»

سألت أوريلي من مجلسها خلفي وهي تنقر بريشتها على حافة مكتبها؛ لم تكن تسعد قط بالجلوس ساكنة:

– «هل تؤثر هذه الأعداد على التعاويذ الوقائية؟»

تشنج فك البروفيسور كاوري مرتين قبل أن يجيب:

– «لسنا متأكدين. لم يسبق لعدد التنانين المرتبطة أن أثر على سلامة التعاويذ الوقائية في نافار من قبل، لكنني لن أكذب عليكم وأدعي أننا لا نشهد زيادة في الاختراقات بينما تعلمون جميعاً من الموجز القتالي أننا نشهد ذلك بالفعل.»

التعاويذ الوقائية تتهاوى بمعدل يجعل معدتي تتقلص في كل مرة تبدأ فيها البروفيسورة ديفيرا الموجز القتالي اليومي. إما أننا نضعف أو أن أعداءنا يزدادون

قوة. وكلا الاحتمالين يعني أن المتدربين في هذه الغرفة مطلوبون الآن أكثر من أي وقت مضى.

حتى أنا.

تغيرت الصورة إلى سجايل، التنين الأزرق الداكن المرتبط بزايدن.

تقلبت معدتي حين تذكرت الطريقة التي اخترقتني بها بنظراتها في ذلك اليوم الأول.

قال البروفيسور كاوري:

– «لن تضطروا للقلق بشأن كيفية الاقتراب من التنانين الزرقاء، إذ لا يوجد أي منها مستعد للارتباط في يوم التصفية هذا، لكن ينبغي لكم أن تكونوا قادرين على التعرف على سجايل إن رأيتموها.»

قال ريدوك ببطء وكسل:

– «لتتمكنوا من الهرب بحق الجحيم.»

أومأت بالموافقة بينما ضحك الآخرون.

– «إنها تنين أزرق ذو ذيل خنجري، الأندر بين التنانين الزرقاء، وأجل، إن صادفتموها بدون راكبها المرتبط بها، فيجب عليكم... بالتأكيد أن تجدوا مكاناً آخر لتتواجدوا فيه. كلمة "وحشية" لا تكفي حتى لوصفها، كما أنها لا تلتزم بما نفترض أنه القانون الذي تتبعه التنانين. حتى إنها ارتبطت بقريب لأحد ركابها السابقين، وهو أمر تعلمون جميعاً أنه محظور عادةً، لكن سجايل تفعل ما تشاء، وقتما تشاء. في الواقع، إن رأيتم أياً من التنانين الزرقاء، لا تقتربوا منها. فقط...»

كرر ريدوك وهو يمرر يده في شعره البني المنسدل:

– «اهربوا.»

وافقه البروفيسور كاوري بابتسامة، والشارب فوق شفته العليا يرتجف قليلاً:

– «اهربوا. هناك حفنة من التنانين الزرقاء الأخرى في الخدمة الفعلية، لكنكم ستجدونها جميعاً على طول جبال إسبن في الشرق، حيث يحتدم القتال بأقصى درجاته. كلها مهيبة، لكن سجايل هي الأقوى بينها قاطبة.»

تخونني أنفاسي. لا عجب إذن أن زايدن قادر على التحكم بالظلال – ظلال يمكنها انتزاع الخناجر من الأشجار، ظلال من المرجح أنها قادرة على إلقاء تلك الخناجر ذاتها. ومع ذلك... لقد تركني أعيش.

دفعت بذرة الدفء التي بعثتها تلك الفكرة في نفسي بعيداً، بعيداً جداً.

ربما فقط ليتلاعب بكِ، وحش يعبث بفريسته قبل الانقضاض عليها.

سأل متدرب السنة الأولى الجالس بجوار جاك:

– «وماذا عن التنين الأسود؟ يوجد واحد هنا، أليس كذلك؟»

تهلل وجه جاك وقال:

– «أريد ذلك التنين.»

نفض البروفيسور كاوري رسغه فاختفت سجايل، ليحل محلها تنين أسود هائل الحجم. حتى الوهم كان أضخم، مما دفعني لمد عنقي قليلاً لأتمكن من رؤية رأسه.

قال البروفيسور كاوري:

– «ليس وكأن الأمر سيشكل فارقاً. لكن لإرضاء فضولكم وحسب، وبما أن هذه هي المرة الوحيدة التي سترونه فيها على الإطلاق، ها هو التنين الأسود الوحيد الآخر إلى جانب تنين الجنرال ميلغرين.»

قالت ريانون:

– «إنه ضخم جداً. وهل هذا ذيل هراوي؟»

– «لا. إنه ذيل النجمة الصباحية (صالب الدمار). يمتلك نفس قوة السحق التي يتميز بها الذيل الهراوي، لكن تلك الأشواك ستمزق أحشاء أي شخص بفعالية لا تقل عن الذيل الخنجري.»

صاح جاك:

– «أفضل ما في العالمين. إنه يبدو كآلة قتل.»

أجاب البروفيسور كاوري:

– «وهو كذلك. وبصراحة، لم أره خلال السنوات الخمس الماضية، لذا فهذه الصورة قديمة نوعاً ما. لكن بما أنه معروض أمامنا، ماذا يمكنكم أن تخبروني عن التنانين السوداء؟»

هتفت أوريلي:

– «إنها الأذكى والأكثر تمييزاً.»

أضفتُ أنا:

– «وهي الأندر. لم يولد أي منها في الـ... قرن الماضي.»

قال البروفيسور كاوري وهو يُدوّر الوهم مجدداً لتطالعني زوج من العيون الصفراء المتوهجة:

– «صحيح. وهي أيضاً الأكثر دهاءً. لا يوجد شيء اسمه التغلب بذكاء على تنين أسود. هذا التنين يبلغ من العمر ما يزيد قليلاً عن المائة، ما يجعله في منتصف العمر تقريباً. إنه يُبجل كتنين حرب بين بني جنسه، ولولاه، لربما هُزمنا إبان الثورة التايرينية. أضف إلى ذلك كونه من ذوي ذيل النجمة الصباحية، فهو أحد أكثر التنانين فتكاً في نافار.»

سأل جاك وهو ينحني للأمام في مقعده، والجشع الخالص يشع من عينيه، وينعكس في عيني صديقه بجواره:

– «أراهن أنه يمنح قدرة سحرية فريدة جبارة. كيف تقترب منه؟»

هذا آخر ما تحتاجه هذه المملكة؛ شخص بقسوة جاك يرتبط بتنين أسود. لا شكراً.

أجاب البروفيسور كاوري:

– «أنت لا تقترب منه. لم يوافق على الارتباط منذ مقتل راكبه السابق والوحيد خلال الانتفاضة، والطريقة الوحيدة التي قد تمكنك من الاقتراب منه هي أن تتواجد في الوادي، وهو أمر لن يحدث، لأنك ستتفحم قبل أن تعبر المضيق حتى.»

تململت الفتاة الشاحبة ذات الشعر الأحمر في الجانب المقابل من الدائرة في مقعدها، وشدت كمها للأسفل لتخفي أثر التمرد الذي تحمله.

ألح جاك:

– «ينبغي لأحد أن يسأله مرة أخرى.»

– «الأمر لا يسير على هذا النحو يا بارلو. الآن، لا يوجد سوى تنين أسود واحد آخر في الخدمة –»

قال سوير وكتابه مغلق أمامه؛ لكني لم أستطع لومه، فأنا أيضاً لم أكن لأدوّن الملاحظات إن كانت هذه هي المرة الثانية التي أحضر فيها هذه الحصة:

– «تنين الجنرال ميلغرين. كوداغ، أليس كذلك؟»

أومأ البروفيسور كاوري:

– «أجل. عميد عشيرتهم، وهو ذو ذيل سيفي.»

قال جاك ونظرته الزرقاء الجليدية لا تحيد عن وهم التنين الأسود غير المرتبط الذي لا يزال معروضاً:

– «ولكن من باب الفضول وحسب. ما القدرة السحرية الفريدة التي قد يهبها هذا الوحش لراكبه؟»

أغلق البروفيسور كاوري قبضته، فاختفى الوهم. وقال:

– «لا يمكن الجزم بذلك. القدرات السحرية الفريدة هي نتاج الكيمياء الفريدة بين الراكب والتنين، وعادة ما تفصح عن طبيعة الراكب أكثر مما تفصح عن التنين. كلما اشتدت قوة الرابطة وزادت قوة التنين، كانت القدرة السحرية الفريدة أعظم.»

سأل جاك:

– «حسناً. وماذا كانت قدرة راكبه السابق؟»

تهدلت كتفا البروفيسور كاوري وهو يجيب:

– «كانت قدرة ناولين السحرية الفريدة هي امتصاص الطاقة. كان قادراً على امتصاص الطاقة من مصادر شتى؛ تنانين أخرى، ركاب آخرين، ثم استخدامها أو إعادة توزيعها.»

قال ريدوك بنبرة لا تخلو من تقديس الأبطال:

– «جبار.»

وافقه البروفيسور كاوري:

– «لقد كان كذلك بالفعل.»

سأل جاك عاقداً ذراعيه فوق صدره العريض:

– «وما الذي يمكنه قتل شخص يمتلك هذا النوع من القدرات السحرية الفريدة؟»

اختلس البروفيسور كاوري نظرة إليّ للحظة قبل أن يشيح بوجهه وقال:

– «لقد حاول استخدام تلك القوة لإحياء راكب ساقط – وهو ما لم ينجح، إذ لا توجد قدرة سحرية قادرة على إحياء الموتى – واستنزف طاقته بالكامل في تلك المحاولة. ولاستخدام مصطلح ستعتادون عليه بعد يوم التصفية، لقد "احترق" ومات بجوار ذلك الراكب.»

تحرك شيء في صدري، شعور أعجز عن تفسيره ومع ذلك لا أستطيع التخلص منه.

قرعت الأجراس معلنةً انتهاء الحصة، فبدأنا جميعاً بجمع أغراضنا. تسربت الفرق إلى الرواق مخليةً الغرفة، ونهضت من خلف مكتبي حاملة حقيبتي على كتفي بينما انتظرتني ريانون عند الباب وتعابير الحيرة تعتلي وجهها. سألت البروفيسور كاوري:

– «كان ذلك برينان، أليس كذلك؟»

امتلأت عيناه بالحزن حين التقت عيناه بعينيّ وقال:

– «أجل. مات وهو يحاول إنقاذ شقيقكِ، لكن برينان كان قد أسلم الروح بالفعل.»

نقلت ثقل حقيبتي وسألت:

– «ولمَ قد يفعل ذلك؟ إحياء الموتى أمر مستحيل. لمَ يقتل نفسه فعلياً في حين كان برينان قد رحل بالفعل؟»

داهم قلبي قطيع هائج من الحزن، سالباً إياي أنفاسي. ما كان برينان ليرغب يوماً في أن يموت أحد من أجله. لم يكن ذلك من شيمه قط.

أسند البروفيسور كاوري ظهره إلى مكتبه، وسحب الشعيرات الداكنة القصيرة لشاربه وهو يحدق بي قائلاً:

– «كونكِ من عائلة سورنجيل لا يقدم لكِ أي امتيازات هنا، أليس كذلك؟»

هززت رأسي:

– «هناك عدد لا بأس به من المتدربين الذين يرغبون في النيل مني – ومن اسم عائلتي – لكسر غروري.»

أومأ برأسه وقال:

– «لن يكون الأمر كذلك بمجرد مغادرتكِ. بعد التخرج، ستدركين أن كونكِ ابنة الجنرال سورنجيل يعني أن الآخرين سيفعلون أي شيء تقريباً لإبقائكِ على قيد الحياة، بل وإرضائكِ أيضاً، ليس حباً في والدتكِ، بل لأنهم إما يهابونها أو يطمعون في نيل رضاها.»

سألت:

– «وأي الصنفين كان ناولين؟»

أجاب:

– «مزيج من الاثنين معاً. وأحياناً يصعب على راكب يمتلك قدرة سحرية فريدة بتلك القوة أن يتقبل حدوده. ففي النهاية، الارتباط يجعلك راكباً، لكن إحياء شخص من الموت؟ هذا يجعلك إلهاً. بطريقة ما، لا أعتقد أن مالك يتقبل بصدر رحب تعدي شخص فانٍ على مملكته.»

قلت وأنا أستدير متجهة نحو الباب:

– «شكراً لإجابتك.»

نادى البروفيسور كاوري، فاستدرت لأنظر إليه:

– «ڤيوليت. لقد درست شقيقيكِ كليهما. قدرة سحرية فريدة كقدرتي ذات نفع عظيم هنا في الفصول الدراسية، مما يحول دون إرسالي للانتشار مع أحد الأجنحة لفترة طويلة. لقد كان برينان راكباً مذهلاً ورجلاً صالحاً. وميرا داهية وموهوبة بالفطرة في مقعد الركوب.»

أومأت برأسي.

تابع:

– «لكنكِ أذكى منهما كليهما.»

رمشت بعيني. نادراً ما أُقارن بشقيقي وشقيقتي وأخرج متفوقة بطريقة ما.

أضاف:

– «ومما رأيته من مساعدتكِ لصديقتكِ في الدراسة في القاعة المشتركة كل ليلة، يبدو أنكِ قد تكونين أكثر تعاطفاً أيضاً. لا تنسي ذلك.»

قلت، وأفلتت مني ضحكة تسخر من ذاتي:

– «شكراً لك، لكن الذكاء والتعاطف لن يسعفاني حين يحين يوم التصفية. أنت تعرف عن التنانين أكثر من أي شخص آخر في القطاع، وربما أكثر من أي شخص آخر في القارة بأسرها. إنها تختار القوة والدهاء.»

قال وهو يبتعد عن مكتبه:

– «إنها تختار لأسباب لا ترى من المناسب مشاركتها معنا. وليست كل القوة جسدية يا ڤيوليت.»

أومأت، إذ لم أجد كلمات مناسبة للرد على إطرائه حسن النية، وتوجهت لملاقاة ريانون عند الباب. الشيء الوحيد الذي أوقنه تماماً الآن هو أن التعاطف لن ينجدني على حلبة القتال بعد الغداء.

كنت متوترة لدرجة أنني كدت أتقيأ وأنا أقف على حافة حلبة القتال السوداء العريضة، أشاهد ريانون وهي تبرح خصمها ضرباً مبرحاً لا رحمة فيه. إنه شاب من الجناح الثاني، ولم يستغرقها الأمر وقتاً يذكر لتطبق ذراعها حول عنقه، قاطعة عنه إمداد الهواء. إنها حركة بذلت قصارى جهدها لترسيخها في ذهني خلال الأسبوعين الماضيين.

قلت لداين الذي يقف بجواري ومرفقه يلامس مرفقي:

– «إنها تجعل الأمر يبدو في غاية السهولة.»

قال:

– «سيحاول قتلكِ.»

سألت، رافعةً نظري، ثم تتبعت خط بصره إلى حلبتين أبعد:

– «ماذا؟»

كان داين يرمق زايدن بنظرات حارقة عبر الحلبة، بينما ارتسمت على وجه زايدن نظرة ملل خالص في الوقت الذي ضيقت فيه ريانون قبضتها حول عنق متدرب السنة الأولى من الجناح الثاني.

قال داين بصوت خافت:

– «خصمكِ. استرقت السمع إليه وإلى بعض أصدقائه. إنهم يعتقدون أنكِ عبء على الجناح بفضل ذلك الفتى بارلو.»

انتقلت نظراته إلى أورين، الذي كان يقيّمني كدمية ملعونة يخطط لتحطيمها.

لكن كان هناك شحوب مائل للاخضرار يكسو بشرته، مما جعلني أبتسم.

رددت كلماتي المعتادة، لأنها باتت تعويذتي اللعينة:

– «سأكون بخير.»

كنت مجردة من ملابسي الخارجية باستثناء سترة حراشف التنين التي بدأت أشعر وكأنها طبقة ثانية من بشرتي، وملابسي الجلدية القتالية. خناجري الأربعة جميعها في أغمادها، وإن سارت خطتي على النحو المنشود، فسأضيف واحداً جديداً إلى مجموعتي قريباً.

فقد متدرب السنة الأولى من الجناح الثاني وعيه، ونهضت ريانون منتصرة وسط تصفيقنا. ثم انحنت فوق خصمها وانتزعت الخنجر من جانبه وقالت وهي تربت على رأسه مما جعلني أضحك:

- «يبدو أن هذا أصبح ملكي الآن. استمتع بقيلولتك.»

صاح صوت ساخر من خلفي:

- «لست متأكداً مما يضحككِ يا سورنجيل.»

استدرت لأرى جاك واقفاً مباعداً بين قدميه ومستنداً إلى الجدار المكسو بالألواح الخشبية على بعد عشرة أقدام تقريباً، وتكسو وجهه ابتسامة لا يمكن وصفها إلا بالشريرة.

قلت له رافعة إصبعي الأوسط في وجهه:

- «اغرب عن وجهي يا بارلو.»

قال وعيناه تتراقصان ببهجة سادية أثارت الغثيان في معدتي:

- «آمل بصدق أن تفوزي بتحدي اليوم. سيكون من المؤسف أن يقتلكِ شخص آخر قبل أن تتاح لي الفرصة. لكني لن أتفاجأ. أزهار البنفسج كائنات رقيقة... وهشة جداً، كما تعلمين.»

رقيقة بحق الجحيم.

من المرجح أنه سيفكر مرتين قبل التخطيط لقتلكِ إن أطلقتِ بضعة خناجر نحو رأسه.

استللت كلا الخنجرين من عند أضلاعي وأطلقتهما في اتجاهه بحركة واحدة سلسة. استقرا تماماً حيث أردت؛ أحدهما كاد يخدش أذنه، والآخر أسفل خصيتيه ببوصة واحدة.

اتسعت عيناه ذعراً.

ابتسمت بوقاحة وحركت أصابعي ملوحة له.

همس داين بينما ناور جاك حول نصليّ، مبتعداً عن الجدار:

– «ڤيوليت.»

أشار جاك إليّ بغضب وقال وهو يبتعد بخطوات غاضبة، لكن صعود وهبوط كتفيه كان مضطرباً بعض الشيء:

– «ستدفعين ثمن ذلك.»

راقبت ظهره وهو يبتعد، ثم استعدت خناجري وأعدتها إلى أغمادها عند أضلاعي قبل العودة إلى جانب داين.

قال داين بغضب مكتوم:

– «ماذا كان ذلك بحق الجحيم؟ لقد أخبرتكِ أن تتجنبيه فيما يخصه، وأنتِ...»

هز رأسه نحوي وأكمل:

– «كل ما تفعلينه هو إثارته غضباً أكثر؟»

قلت بهزة من كتفي بينما كان خصم ريانون يُحمل خارج الحلبة:

– «تجنبه والتواري عن الأنظار لم يجدِ نفعاً. يجب أن يدرك أنني لست عبئاً.»

وأن قتلي سيكون أصعب مما يتصور.

لم أستطع تجاهل الوخز في فروة رأسي، فتركت نظراتي تنتقل لتلتقي بنظرات زايدن.

تعثر قلبي بتلك الطريقة اللعينة مجدداً، وكأنه أرسل ظلالاً اخترقت أضلاعي لتعتصر قلبي. رفع حاجبه المجروح، وأكاد أقسم أن طيف ابتسامة لاح على شفتيه وهو يغادر، ماشياً لمراقبة متدربي الجناح الرابع عند الحلبة المجاورة.

قالت ريانون وهي تنتقل إلى جانبي الآخر:

– «حركة جبارة. ظننت أن جاك سيتبول على نفسه رعباً.»

كتمتُ ابتسامة.

وبخها داين:

– «توقفي عن تشجيعها.»

ألقى البروفيسور إيميتيريو نظرة على دفتر ملاحظاته ورفع حاجباً أسود كثيفاً قبل أن ينادي:

– «سورنجيل. سايفرت.»

ابتلعت الذعر الذي هدد بالزحف صعوداً في حنجرتي، وخطوت إلى الحلبة في مواجهة أورين، الذي بدا وجهه مائلاً للاخضرار بوضوح الآن.

في الوقت المناسب تماماً.

لقد استعددت بأفضل ما يمكنني، رابطةً كاحليّ وركبتيّ تحسباً لاستهدافه ساقيّ.

قال بينما بدأنا ندور حول بعضنا رافعين أيدينا:

– «لا تأخذي الأمر على محمل شخصي. لكنكِ لن تكوني سوى خطر يهدد جناحكِ.»

هاجمني، لكن حركة قدميه كانت بطيئة، فاستدرت مبتعدة عنه، مسددة لكمة إلى كليته قبل أن أرتد على كعبيّ وأقبض على خنجري بيدي.

اتهمته قائلة:

– «لست خطراً أكثر منك.»

ارتفع صدره بقوة مرة واحدة وتناثرت حبات العرق على جبينه، لكنه نفض الأمر عنه، رامشاً بسرعة وهو يمد يده نحو سكينه ويقول:

– «أختي معالجة. لقد سمعت أن عظامكِ تنكسر كالأغصان الجافة.»

تصنعت ابتسامة وقلت:

– «لمَ لا تأتي وتكتشف بنفسك؟»

وانتظرته ليهاجم مجدداً، لأن هذا ما يفعله. لقد حظيت بثلاث جلسات لمراقبته من بعد بضع حلبات. إنه كالثور، كتلة من القوة الغاشمة بلا أي رشاقة.

تلوى جسده بالكامل وكأنه سيتقيأ، وغطى فمه بيده الفارغة، متنفساً بعمق قبل أن يقف مستقيماً من جديد. كان ينبغي لي أن أهاجم، لكني انتظرت بدلاً من ذلك. ثم اندفع نحوي حاملاً نصله عالياً في وضع الاستعداد للضرب.

دقت نبضات قلبي بقوة وأنا أنتظر الثواني المعذبة التي استغرقها للوصول إلي، بعدما أقنع عقلي جسدي بطريقة ما بالثبات في مكاني حتى آخر ثانية ممكنة. هوى بسكينه للأسفل، فراوغت نحو اليسار، خادشةً جانبه بنصلي في تلك الأثناء، ثم استدرت ووجهت ركلة إلى ظهره، مرسلةً إياه منبطحاً على الأرض.

الآن.

سقط على الحلبة، فاغتنمت الفرصة فوراً، غارسةً ركبتي في عموده الفقري تماماً كما فعلت إيموجين بي، وواضعةً نصلي على حنجرته.

قلت:

– «أعلن استسلامك.»

من يحتاج للقوة حين يملك السرعة والفولاذ؟

صاح:

– «لا!»

لكن جسده تموج تحتي، وتهوع، مخرجاً كل ما أكله منذ الإفطار ومبعثراً إياه على الحلبة بجوارنا.

مقزز بحق الجحيم.

صاحت ريانون والاشمئزاز يقطر من نبرتها:

– «يا إلهي.»

طالبت مجدداً:

– «استسلم.»

لكنه كان يتهوع بضراوة الآن، واضطررت لسحب سكيني بعيداً كي لا أقطع حنجرته عن طريق الخطأ.

أعلن البروفيسور إيميتيريو، ووجهه متلوٍ من القرف:

– «لقد استسلم.»

أعدت نصلي إلى غمده ونزلت عن ظهره، متفاديةً برك القيء. ثم التقطت الخنجر الذي أسقطه أورين على بعد أقدام قليلة بينما استمر هو في التقيؤ. كان السكين أثقل وأطول من بقية خناجري، لكنه أصبح ملكي الآن، وقد جنيته بجدارة. دسسته في غمد فارغ عند فخذي الأيسر.

قالت ريانون وهي تعانقني بقوة بينما كنت أخرج من الحلبة:

– «لقد فزتِ!»

قلت بهزة من كتفي:

– «إنه مريض.»

ردت ريانون:

– «سأفضل أن أكون محظوظة على أن أكون جيدة في أي يوم من الأيام.»

قال داين وقد شحب وجهه هو الآخر:

– «يجب أن أجد شخصاً لتنظيف هذه الفوضى.»

لقد فزت.

***

التوقيت هو الجزء الأصعب في خطتي.

فزت في الأسبوع التالي حين عجزت فتاة ممتلئة الجسم من الجناح الأول عن التركيز لوقت كافٍ لتسديد لكمة مقبولة بفضل بضع حبات من فطر 'ليغوريل' وخصائصه المهلوسة التي انتهى بها المطاف بطريقة ما في غدائها. لقد سددت ركلة قوية لركبتي، لكنه لم يكن أمراً لن تشفيه بضعة أيام داخل ضمادة ضاغطة.

وفزت في الأسبوع الذي تلاه حين تعثر شاب طويل من الجناح الثالث بعدما فقدت قدماه الكبيرتان الإحساس مؤقتاً، بفضل جذور نبتة 'زيهنا' التي تنمو على نتوء صخري قرب الوادي. إلا أن توقيتي لم يكن دقيقاً تماماً، فتمكن من تسديد بضع لكمات قوية لوجهي، مخلفاً إياي بشفة مشقوقة وكدمة لونت وجنتي للأحد عشر يوماً التالية، لكنه على الأقل لم يكسر فكي.

وفزت مجدداً في الأسبوع التالي حين ضبابية الرؤية فجأة لدى متدربة ممتلئة القوام في منتصف النزال، بسبب أوراق 'تارسيلا' التي شقت طريقها إلى كوب الشاي الخاص بها. كانت سريعة، فطرحتني على الحلبة وسددت بضع ركلات مؤلمة لدرجة ساحقة إلى بطني، تاركة كدمات ملونة وبصمة حذاء واضحة على أضلاعي. كدت أستسلم وأذهب لرؤية نولون بعد ذلك النزال، لكني صررت على أسناني وضمدت أضلاعي، مصممة على ألا أمنح الآخرين ذريعة للتخلص مني كما كان يطمح جاك أو أي من الموشومين.

جنيت خنجري الخامس، والذي زُين مقبضه بياقوتة جميلة، في التحدي الأخير من شهر أغسطس حين أسقطت شاباً شديد التعرق ذي فلجة بين أسنانه الأمامية على الحلبة. لحاء شجرة القرمز الذي تسلل إلى قربة مياهه جعله خاملاً

ومريضاً. كانت آثاره مشابهة بعض الشيء لتوت الفونيل، وكان من المؤسف حقاً أن تعاني الفرقة الثالثة بأكملها، قسم المخلب من الجناح الثالث من نفس اضطراب المعدة. لابد أنه فيروس من نوعٍ ما، على الأقل هذا ما قلته حين استسلم أخيراً لضربة الخنق خاصتي بعد أن خلع إبهامي وكاد يكسر أنفي.

بحلول أوائل سبتمبر، كانت هناك خفة في خطواتي وأنا أخطو نحو الحلبة. لقد أسقطت خمسة خصوم دون أن أقتل أياً منهم، وهو إنجاز لا يمكن لربع دفعتنا التباهي به بعد أن أُضيف ما يقرب من عشرين اسماً جديداً إلى قائمة الموتى الشهر الماضي لمتدربي السنة الأولى وحدهم.

دورت كتفيّ المؤلمين وانتظرت خصمي.

لكن رايما كوري من الجناح الثالث لم تتقدم هذا الأسبوع كما كان مفترضاً.

قال البروفيسور إيميتيريو وهو يحك لحيته السوداء القصيرة:

– «عذراً يا ڤيوليت. كان من المفترض أن تتحدي رايما، لكنها نُقلت إلى قطاع المعالجين لأنها تبدو عاجزة عن المشي في خط مستقيم.»

قشور فاكهة 'والوين' تفعل ذلك حين تُستهلك نيئة... لنقل، حين تُمزج في طبقة تزيين معجناتك الصباحية مثلاً.

قلت متجهمة:

– «هذا...»

تباً.

– «مؤسف حقاً.»

لقد قدمتِها لها في وقت مبكر جداً.

بدأت أقول وأنا أتراجع بالفعل لمغادرة الحلبة:

– «هل يجب عليّ ببساطة أن...»

– «يسعدني التدخل والمشاركة.»

ذلك الصوت. تلك النبرة. وتلك الوخزة الجليدية على امتداد فروة رأسي...

أوه، لا. لا بحق الجحيم. لا. لا. لا.

سأل البروفيسور إيميتيريو ملتفتاً من فوق كتفه:

– «هل أنت متأكد؟»

– «بكل تأكيد.»

هوت معدتي إلى الحضيض.

وخطا زايدن إلى الحلبة.

لن أموت اليوم.

– إضافة شخصية بخط ڤيوليت سورنجيل على كتاب برينان



الفصل التاسع

أنا هالكة لا محالة.

يتقدم زايدن للأمام – بطوله الفارع الذي يتجاوز الستة أقدام – مرتدياً ملابس جلدية قتالية بلون سماء منتصف الليل، وقميصاً ضيقاً بأكمام قصيرة يبدو وكأنه لا يزيد آثار التمرد الداكنة اللامعة على بشرته إلا وضوحاً، لتتجلى كتحذير أشد خطورة، وهو أمر أعلم أنه يبعث على السخرية، لكنه حقيقي بطريقة ما.

تتسارع نبضات قلبي حتى تبلغ أقصى درجات العدو، وكأن جسدي يدرك الحقيقة التي لم يتقبلها عقلي تماماً بعد. أنا على وشك أن أُسحق... أو أسوأ.

يصفق البروفيسور إيميتيريو بيديه ويقول:

– «أنتم على موعد مع عرض ممتع. زايدن هو أحد أفضل المقاتلين لدينا. راقبوا وتعلموا.»

أغمغم بصوت خافت، ومعدتي تتلوى وكأنني أنا من كان يتناول قشور فاكهة 'والوين':

– «بالطبع هو كذلك.»

ترتفع زاوية فم زايدن بابتسامة متكلفة، وتبدو الرقائق الذهبية في عينيه وكأنها تتراقص. هذا الوغد السادي يستمتع بالأمر.

ركبتاي، كاحلاي، ومعصمي جميعها مربوطة بضمادات داعمة، والقماش الأبيض الذي يحمي إبهامي المتماثل للشفاء يشكل تبايناً صارخاً مع ملابسي الجلدية السوداء.

يعترض داين من جانب الحلبة، والتوتر يشع من كل كلمة يتفوه بها:

– «ألا تعتقد أن هذا يفوق قدراتها بكثير؟»

يقول زايدن ناظراً من فوق كتفي، وتتصلب نظراته نحو المكان الذي أعلم أن داين يقف فيه؛ حيث يقف دائماً حين أكون على الحلبة:

– «استرخِ يا آيتوس.»

النظرة التي يرمق بها داين تجعلني أدرك أنه كان يتساهل معي فيما يخص التحديق العدائي. ويضيف:

– «ستكون قطعة واحدة حين أنتهي من تلقينها الدرس.»

يرتفع صوت داين محتجاً:

– «لا أعتقد البتة أن هذا منصف –»

يرد زايدن بحدة بينما يتحرك جانباً، متخلياً عن كل سلاح يحمله على جسده – وما أكثرها – ومناولاً إياها لـ إيموجين:

– «لم يطلب أحد رأيك أيها القائد.»

يغزو فمي طعم مرير وغير منطقي للغيرة، لكن لا وقت لدي للتوقف عند هذه الغرابة بالذات، ليس عندما تفصلني ثوانٍ معدودة عن وقوفه أمامي مجدداً.

أسأله قابضة على نصالي بيدي:

– «ألا تظن أنك ستحتاج إليها؟»

كان صدره عريضاً وضخماً، بكتفين واسعين وذراعين مفتولتي العضلات. هدف بهذا الحجم يجب أن يكون من السهل إصابته.

يجيب بابتسامة ماكرة ترتسم على فمه وهو يمد يده ويثني أصابعه في إشارة لي بالتقدم:

– «كلا. ليس عندما أحضرتِ ما يكفي لكلينا. لنبدأ.»

يخفق قلبي أسرع من جناحي طائر طنان وأنا أتخذ وضعية القتال وأنتظر هجومه. لا يتجاوز عرض هذه الحلبة عشرين قدماً في أي اتجاه، ومع ذلك يتقلص عالمي بأسره لينحصر ضمن حدودها والخطر القابع بداخلها.

إنه ليس في فرقتي. بإمكانه قتلي دون أن يتعرض لأي عقاب.

أطلق خنجراً مباشرة نحو صدره المنحوت بشكل مثير للسخرية.

يلتقطه بحق الجحيم، ويطقطق بلسانه قائلاً:

– «لقد رأيت هذه الحركة من قبل.»

يا للهول، كم هو سريع.

يجب أن أكون أسرع. هذا هو ما يميزني، وهذا هو تفكيري الوحيد وأنا أتقدم نحوه في هجوم مزدوج – ضربة وركلة – كانت ريانون قد دربتني عليه مراراً خلال الأسابيع الستة الماضية. يراوغ ببراعة متفادياً نصلي ثم يمسك بساقي. تدور الأرض بي وأرتطم بظهري بقوة، ليطرد الاصطدام المفاجئ الهواء من رئتيّ.

لكنه لا يوجه الضربة القاضية. بدلاً من ذلك، يُسقط الخنجر الذي التقطه ويركله خارج الحلبة. وبعد ثانية، حين يتسلل الهواء عائداً إلى رئتيّ، أندفع صعوداً بنصلي التالي، مستهدفةً فخذه.

يصد ضربتي بساعده، ثم يقبض على معصمي بيده الأخرى وينتزع السكين من يدي، منحنياً حتى لا يفصل بين وجهه ووجهي سوى بضع بوصات. يهمس:

– «نسعى لسفك الدماء اليوم، أليس كذلك يا "ڤيولينس"؟» *(أي: عُنف "تهكُّم"*

يرتطم المعدن بالحلبة مجدداً ويركله متجاوزاً رأسي وبعيداً عن متناولي.

إنه لا يسلبني خناجري ليستخدمها ضدي؛ إنه يجردني من سلاحي لمجرد إثبات قدرته على ذلك. يغلي الدم في عروقي.

أقول بصوت يقطر غضباً:

– «اسمي ڤيوليت.»

يفلت معصمي ويقف، ممدًا يده لي:

– «أعتقد أن نسختي تناسبكِ أكثر. لم ننتهِ بعد.»

يرتفع صدري ويهبط بقوة، لا يزال يتعافى من الطريقة التي سلبني بها أنفاسي، وأقبل يده الممدودة. يجذبني للوقوف على قدميّ، ثم يلوي ذراعي خلف ظهري ويجذبني بقوة نحو صدره الصلب، مثبتاً يدينا المتشابكتين قبل أن تتاح لي فرصة استعادة توازني.

أصرخ بحدة:

– «تباً!»

أشعر بسحبة عند فخذي، ويُضغط خنجر آخر من خناجري على حنجرتي، بينما يستند صدره إلى مؤخرة رأسي. ساعده مقفل عبر أضلاعي، وبإمكانه أن يكون تمثالاً من شدة صلابته وعدم تزحزحه. لا طائل من إرجاع رأسي للخلف لضربه؛ فهو طويل جداً ولن يؤدي ذلك سوى لإزعاجه.

يحذرني بصوت كالفحيح، وأنفاسه دافئة تلامس صوان أذني، ورغم إحاطة الناس بنا، أدرك أنه يخفض صوته لسبب وجيه؛ هذا الدرس موجه لي وحدي:

– «لا تثقي بأي شخص يواجهكِ على هذه الحلبة.»

أرد بصوت خافت مماثل:

– «حتى بشخص يدين لي بمعروف؟»

تبدأ كتفي بالاحتجاج على هذه الزاوية غير الطبيعية، لكنني لا أتحرك. لن أمنحه متعة رؤية ضعفي.

يُسقط الخنجر الثالث الذي انتزعه مني ويركله للأمام – نحو المكان الذي يقف فيه داين، وقد أصبح الخنجران الآخران في يده بالفعل. كانت نظرات داين تنضح بنية القتل وهو يحدق في زايدن.

يفلت زايدن يدي ويتراجع خطوة للوراء قائلاً:

– «أنا من يقرر متى أرد ذلك المعروف. وليس أنتِ.»

أستدير بسرعة محاولة تسديد لكمة إلى حنجرته، فيدفع يدي جانباً دون عناء.

يقول بابتسامة وهو يصد ضربتي التالية دون أن تتعثر أنفاسه حتى:

– «جيد. استهداف الحنجرة هو خياركِ الأفضل، طالما أنها مكشوفة.»

يدفعني الغضب لتسديد ركلة أخرى بالنمط ذاته، لتتولى الذاكرة العضلية زمام الأمور، فيقبض على ساقي مجدداً، وينتزع هذه المرة الخنجر المغمد هناك ويُسقطه على الحلبة قبل أن يفلتني، رافعاً حاجبه نحوي بنظرة خيبة أمل ويقول:

– «أتوقع منكِ أن تتعلمي من أخطائكِ.»

ثم يركله بعيداً.

لم يتبقَّ لي سوى خمسة خناجر، جميعها في أغمادها عند أضلاعي.

أقبض على أحدها وأرفع يديّ في وضعية دفاعية، وأبدأ بالدوران حوله. وما يثير حنقي حد الجنون، أنه لا يكلف نفسه حتى عناء مواجهتي. بل يكتفي

بالوقوف وسط الحلبة، قدماه ثابتتان كالجذور، وذراعاه مرتخيتان بينما أتحرك أنا حوله.

يسألني:

– «هل ستستمرين في التبختر أم ستوجهين ضربتكِ؟»

تباً له.

أندفع للأمام موجهة لكمة، لكنه يميل للأسفل، فيمر نصلي فوق كتفه، مخطئاً إياه بست بوصات. تهوي معدتي حين يقبض على ذراعي، ساحباً إياي للأمام ويقلبني حول جانب جسده. أبقى معلقة في الهواء للحظة قبل أن أرتطم بقوة على الحلبة، وتتلقى أضلاعي صدمة السقوط.

يلوي ذراعي في حركة إخضاع، فيسري ألم حارق كالنار في طرفي وأنا أصرخ متألمة، مسقطة الخنجر من يدي، لكنه لم ينتهِ بعد. كلا، فركبته تستقر بقوة على أضلاعي، ورغم أنه يقبض على ذراعي بيد واحدة، تمتد الأخرى لتنتزع خنجراً من غمده وتقذفه نحو قدمي داين، قبل أن تلتقط خنجراً آخر وتضغط نصله على المنطقة الحساسة حيث يلتقي فكي بعنقي.

ثم ينحني مقترباً ويهمس، وأنفاسه الدافئة تلامس صوان أذني:

– «تصفية أعدائكِ قبل بدء المعركة فكرة في غاية الذكاء؛ أُقر لكِ بذلك.»

يا إلهي. إنه يعلم ما كنت أفعله. الألم الذي يعتصر ذراعي لا يقارن البتة بالغثيان الذي يقلب معدتي عند التفكير فيما قد يفعله بتلك المعلومة.

يتابع وهو يمرر الخنجر بخفة على طول عنقي، لكن غياب ذلك الدفء المألوف لقطرات الدم يؤكد لي أنه لم يجرحني:

– «المشكلة هي، إن لم تختبري قدراتكِ هنا، فلن تتحسني أبداً.»

أرد بحدة، وجانب وجهي لا يزال مضغوطاً بقوة على الحلبة:

- «لا شك أنك تفضل رؤيتي ميتة.»

هذا ليس مؤلماً فحسب، بل هو مهين للكرامة.

يسخر قائلاً:

- «وأُحرم من متعة رفقتكِ؟»

تندفع الكلمات من شفتيّ قبل أن أتمكن من كبحها:

- «أنا أمقتك بحق الجحيم.»

- «هذا لا يجعلكِ مميزة بأي حال.»

يزول الضغط عن صدري وذراعي حين ينهض واقفاً، ويركل الخنجرين معاً باتجاه داين.

خنجران فقط. لم يتبقَّ لي سوى اثنين، والآن طغى استيائي وغضبي على خوفي بكثير.

أتجاهل يد زايدن الممدودة وأقف على قدميّ بمفردي، فترتسم على شفتيه ابتسامة استحسان وهو يقول:

- «يمكن تعليمها حقاً.»

أرد بحدة:

- «إنها سريعة التعلم.»

يقول وهو يتراجع خطوتين للوراء، صانعاً مسافة طفيفة بيننا قبل أن يثني أصابعه نحوي مجدداً:

- «هذا ما سنراه.»

أصيح بصوت عالٍ كفاية لأسمع شهقة إيموجين المفاجئة:

- «لقد أوصلت رسالتك اللعينة.»

يرد عاقداً ذراعيه ومستنداً للوراء على كعبيه، في انتظار واضح لحركتي التالية:

– «صدقيني، لم أبدأ بعد.»

لا أمنح نفسي فرصة للتفكير. أكتفي بالهجوم، منخفضة بسرعة لأسدد ركلة قوية خلف ركبتيه. يسقط أرضاً كشجرة هوت، ويكون صوت ارتطامه أكثر من مرضٍ. أنقض عليه، محاولة إحكام ذراعي حول عنقه في حركة إخضاع. لا يهم حجم الشخص – فالجميع بحاجة للهواء. أُحكم طية مرفقي حول حنجرته وأضغط بقوة.

لكن بدلاً من الإمساك بذراعيّ، يلتف ببراعة، ويقبض على مؤخرة فخذيّ فجأة، لأفقد توازني وقوة اندفاعي، ونتدحرج معاً في حركة سريعة. ينتهي به المطاف في الأعلى.

بالطبع سيفعل ذلك.

يستقر ساعده على حنجرتي، لا يقطع عني الهواء تماماً، لكنه قادر على ذلك بلا شك، وتثبت وركاه وركيّ، لتغدو ساقاي بلا حيلة على جانبي جسده وهو يجثم بثقله بين فخذيّ. إنه صخرة لا تتزحزح.

يتلاشى كل شيء حولنا، ويضيق عالمي لينحصر في تلك اللمعة المتعجرفة في عينيه. هو كل ما أراه، كل ما أشعر به.

ولا أستطيع أن أدعه ينتصر.

أستل أحد خنجريّ الأخيرين بسرعة وأصوب نحو كتفه.

يُحكم قبضته على معصمي ويثبته فوق رأسي.

تباً. تباً. تباً.

تتدفق الحرارة صعوداً إلى عنقي وتلتهب وجنتاي حين يخفض وجهه لتصبح شفتاه على بعد بوصات قليلة من شفتيّ. أستطيع تمييز كل بقعة ذهبية في عينيه الشديدتي السواد، وكل نتوء وتعرج في ندبته.

وغد. لعوب. فائق الوسامة.

تتعثر أنفاسي ويسري الدفء في جسدي، هذا الجسد الخائن. أنتِ لا تنجذبين للرجال السامين، أذكر نفسي، ومع ذلك، ها أنا ذا، أنجذب إليه بكل جوارحي. لقد كنت كذلك منذ الثانية الأولى التي رأيته فيها، إن أردت أن أكون صادقة مع نفسي.

يغرس أصابعه في قبضتي، مجبراً إياها على التراخي، ثم يرسل النصل منزلقاً عبر الحلبة قبل أن يفلت معصمي.

يأمرني:

– «استلي خنجركِ.»

تتسع عيناي ذهولاً وأسأله:

– «ماذا؟»

لقد جردني من سلاحي ووضعني في موضع القتل بالفعل.

يكرر كلماته وهو يأخذ يدي بيده ويسحب النصل الأخير المتبقي لي، وتلتف أصابعه فوق أصابعي لتطبق على المقبض:

– «استلي. خنجركِ.»

تشتعل النيران تحت بشرتي لملامسة أصابعه المتشابكة مع أصابعي.

سام. خطير. يسعى لقتلكِ. لا يهم البتة. لا يزال نبضي يتسابق كمراهقة ساذجة.

يقول وكأنه يوجه لي إهانة:

– «أنتِ ضئيلة الحجم.»

أضيق عينيّ وأجيب:

– «أعي ذلك جيداً.»

يقول وهو يمرر طرف الخنجر ببطء على طول جانبه:

– «إذن توقفي عن اللجوء للحركات الاستعراضية التي تكشف نقاط ضعفكِ. طعنة في الأضلاع كانت لتفي بالغرض تماماً.»

ثم يوجه أيدينا نحو ظهره، جاعلاً من نفسه هدفاً مكشوفاً، ويضيف:

– «الكليتان أيضاً خيار ممتاز من هذه الزاوية.»

أبتلع ريقي، رافضةً التفكير في أشياء أخرى قد تكون خياراً ممتازاً من هذه الزاوية.

يوجه أيدينا نحو خصره، دون أن يحيد بنظره عني للحظة، ويقول:

– «في الغالب، إن كان خصمكِ يرتدي درعاً، فستكون هذه المنطقة نقطة ضعف. هذه ثلاثة مواضع سهلة كان بإمكانكِ تسديد ضربتكِ إليها قبل أن يتسنى لخصمكِ الوقت الكافي لإيقافكِ.»

وهي أيضاً مواضع قاتلة، وقد تجنبتها بأي ثمن.

يسأل:

– «هل تسمعينني؟»

أومئ برأسي.

يهمس فتتلاشى الدماء من وجهي:

– «جيد. لأنكِ لن تكوني قادرة على تسميم كل عدو يعترض طريقكِ. لن يتسع لكِ الوقت لتقديم الشاي لراكب غريفيون من برايفيك حين يهاجمكِ.»

أسأله أخيراً، وعضلاتي متصلبة، بما فيها فخذاي اللذان لا يزالان يطوقان وركيه:

– «كيف عرفت؟»

تُظلم عيناه ويجيب:

– «أوه يا "ڤيولينس"، أنتِ بارعة، لكني عرفت أساتذة سموم أبرع منكِ. السر يكمن في ألا تجعلي الأمر جلياً ومكشوفاً لهذه الدرجة.»

تنفرج شفتاي، وأعض على لساني لأكتم رداً كنت أود فيه إخباره أنني حرصت أشد الحرص على ألا أكون مكشوفة.

يصيح داين بنبرة حادة، مذكراً إياي بأننا لسنا وحدنا بأي حال من الأحوال. لا، نحن عرض لعوب للفرجة:

– «أعتقد أنها تلقت ما يكفي من الدروس لهذا اليوم.»

يتذمر زايدن وهو يرفع جسده عن الحلبة بضع بوصات:

– «هل هو مفرط في الحماية هكذا دائماً؟»

أرمقه بنظرة حانقة وأقول:

– «إنه يهتم لأمري.»

يقول وهو يرفع حاجبه وكأنه يذكرني بأنني أحتفظ بأحد أسراره أيضاً:

– «إنه يعيق تقدمكِ. لا تقلقي. سر التسميم الصغير خاصتكِ في أمان معي.»

ثم يوجه أيدينا عائدين نحو أضلاعي ويدس النصل ذي المقبض الياقوتي في غمده بسلاسة.

كانت تلك الحركة... مثيرة للأعصاب بطريقة مربكة.

أتحدّاه وهو يرخي قبضته ويرفع جسده أكثر، مزيلاً ثقله عني، فتتسع أضلاعي وأنا أستنشق أول نفس عميق منذ لحظات:

- «ألست بصدد تجريدي من سلاحي؟»

يقول وهو يقف، ثم يبتعد دون أن ينبس بكلمة أخرى، مستعيداً أسلحته من إيموجين بينما ألتف لأنهض على ركبتيّ:

- «كلا. النساء العاجزات عن الدفاع عن أنفسهن لم يستهوينني يوماً. لقد انتهينا لهذا اليوم.»

كان كل شبر في جسدي يؤلمني، لكني تمكنت من الوقوف.

تجلّى الارتياح الخالص في عيني داين حين وصلت إلى جانبه لأستعيد الخناجر التي انتزعها زايدن مني، وسألني:

- «هل أنتِ بخير؟»

أومأت برأسي، وأصابعي ترتجف بينما أعيد تسليح نفسي. لقد حظي بكل فرصة ممكنة، وبكل دافع ممكن لقتلي، وها هو الآن يتركني أرحل للمرة الثانية. أي نوعٍ من الألعاب يلعب هذا الرجل؟

ينادي زايدن من الجانب الآخر للحلبة:

- «آيتوس.»

يرفع داين رأسه بسرعة ويتصلب فكه.

يقول زايدن وهو يحدق في داين بصرامة حتى يجبره على الإيماء موافقاً:

- «يمكنها أن تستفيد من حماية أقل وتوجيه أكثر.»

يستدعي البروفيسور إيميتيريو التحدي التالي.

***

يقول داين في وقت لاحق من تلك الليلة داخل غرفته، وإبهاماه يغوصان في العضلة الممتدة بين رقبتي وكتفي:

– «أنا متفاجئ حقاً لأنه تركك تعيشين.»

كان الألم لذيذاً لدرجة لا توصف، وكان يستحق عناء التسلل إلى هنا والمخاطرة.

كنت مستلقية على سريره، عارية من الخصر فما فوق باستثناء الرباط الضاغط الذي يلف صدري وأضلاعي، والبطانيات الناعمة تلامس بطني. قلت:

– «لا أعتقد أنه سيفرض احترامه إن كسر عنقي على الحلبة. وفضلاً عن ذلك، ليست هذه هي طريقته.»

تتوقف يدا داين عن الحركة ويقول:

– «لأنكِ تعرفين طريقته؟»

يهوي قلبي في صدري لشعوري بالذنب تجاه إخفاء سر زايدن. أجبته بصدق:

– «لقد أخبرني أنه لا يرى مبرراً لقتلي بنفسه طالما أن المتراس سيتكفل بالأمر. ولنكن واقعيين، لقد سنحت له فرص لا تحصى للتخلص مني إن أراد ذلك حقاً.»

يهمهم داين بنبرته المفكرة تلك:

– «هممم.»

يواصل تدليك عضلاتي المتيبسة والمؤلمة وهو ينحني من جانب سريره. لقد أخضعتني ريانون لتدريب شاق لساعتين أخريين بعد العشاء، وبالكاد كنت قادرة على الحركة حين انتهينا.

يبدو أنني لم أكن الوحيدة التي بث فيها زايدن الرعب ظهر اليوم.

أسأله، ووجنتي تستريح على بطانيته:

– «هل تعتقد أنه قد يكون متآمراً ضد نافار ومع ذلك تمكن من الارتباط بـ سجايل؟»

يقول ويداه تنزلقان على طول عمودي الفقري، ضاغطتين على العقد العضلية التي جعلت رفع ذراعي شبه مستحيل في النصف ساعة الأخيرة من التدريب الليلة:

– «لقد اعتقدت ذلك في البداية. لكن بعدما ارتبطت بـ كاث، أدركت أن التنانين مستعدة لفعل أي شيء لحماية الوادي وأراضي فقس البيض المقدسة الخاصة بها. من المستحيل أن يرتبط أي تنين بـ ريورسون أو أي من الانفصاليين إن لم يكونوا صادقين في نيتهم لحماية نافار.»

أدير رأسي لأتمكن من رؤية وجهه وأسأل:

– «لكن هل يدرك التنين إن كنت تكذب؟»

يبتسم ويقول:

– «أجل. كاث سيدرك ذلك لأنه قابع في عقلي. من المستحيل إخفاء أمر كهذا عن تنينك.»

أسأله، وأنا أعلم أنه من المحظور طرح مثل هذا السؤال – فكل ما يتعلق بالروابط يُعتبر خارج نطاق النقاش، نظراً لمدى تكتم التنانين، لكنه داين:

– «هل هو في عقلك دائماً؟»

تتلاشى ابتسامته تدريجياً وهو يجيب:

– «أجل. يمكنني حجبه إن احتجت لذلك، وسيعلمونكِ ذلك بعد يوم التصفية –»

تتغير ملامحه فجأة.

أعتدل في جلستي، وأسحب إحدى وسائده لتغطية صدري، مستندة بظهري إلى اللوح الأمامي للسرير، وأسأل:

- «ما الأمر؟»

يمشي نحو مكتبه، يسحب كرسيه ويجلس، ثم يسند رأسه بين يديه ويقول:

- «لقد تحدثت إلى العقيد ماركهام هذا المساء.»

يسري الخوف في عمودي الفقري. أسأله:

- «هل حدث شيء؟ هل هو جناح ميرا؟»

يرفع داين رأسه فجأة، وعيناه ممتلئتان بالبؤس لدرجة أنني أزحت قدميّ عن السرير، ويقول:

- «لا! ليس الأمر كذلك. لقد أخبرته... أنني أعتقد أن ريورسون يريد قتلكِ.»

أرمش بعيني وأتراجع لأجلس بالكامل على السرير، وأقول:

- «أوه. حسناً، هذا ليس بالأمر الجديد حقاً، أليس كذلك؟ أي شخص قرأ تاريخ التمرد يمكنه استنتاج ذلك بسهولة يا داين.»

يقول وهو يمسح بيده على شعره:

- «أجل، حسناً، ولقد أخبرته بشأن بارلو أيضاً، وسايفرت. لا تظني أنني لم ألاحظ كيف دفعكِ سايفرت نحو الجدار قبل التشكيل الطابوري هذا الصباح.»

رمقني بنظرة معاتبة رافعاً حاجبيه.

أعصر الوسادة بقوة أكبر وأقول:

- «إنه غاضب وحسب لأنني أخذت خنجره في ذلك التحدي الأول.»

يحدق بي بصرامة ويقول:

– «وأخبرتني ريانون أنكِ وجدتِ أزهاراً مسحوقة على سريركِ الأسبوع الماضي؟»

أهز كتفيّ:

– «كانت مجرد أزهار ذابلة.»

يقول وفمه يتقلص:

– «كانت أزهار بنفسج (ڤيوليت) ممزقة.»

أذهب إليه وأضع يديّ على رأسه.

أمازحه وأنا أمسد شعره البني الناعم:

– «ليس الأمر وكأنها جاءت مرفقة برسالة تهديد بالقتل أو ما شابه.»

ينظر إليّ، وضوء السحر يجعل عينيه أكثر لمعاناً بقليل فوق لحيته المهذبة، ويقول:

– «إنها تهديدات صريحة.»

أقول بهزة من كتفيّ:

– «كل متدرب يتلقى تهديدات.»

يرد بحدة:

– «ليس كل متدرب يضطر لربط ركبتيه بالضمادات كل يوم.»

أقطب حاجبيّ، ويتجذر الاستياء في صدري:

– «المصابون يفعلون ذلك. ولماذا تخبر ماركهام بالأمر أصلاً؟ إنه نساخ، ولا يوجد شيء يمكنه فعله حتى لو أراد ذلك.»

يندفع داين بالكلام، وتطير يداه إلى وركيّ، مثبتاً إياي في مكاني حين حاولت الابتعاد:

– «قال إنه لا يزال قادراً على استقبالكِ. سألته إن كان سيسمح لكِ بالانضمام إلى قطاع النساخين حفاظاً على سلامتكِ، فأجاب بالموافقة. سيضعونكِ مع متدربي السنة الأولى. ليس وكأنكِ ستضطرين للانتظار حتى يوم التجنيد القادم أو ما شابه.»

أستدير محررة نفسي من قبضته، وأتراجع مبتعدة عن أعز أصدقائي قائلة:

– «فعلت ماذا؟»

يقف ويقول:

– «رأيت طريقة لإبعادكِ عن الخطر، فاغتنمتها.»

تضيق حقيقة كلماته كملزمة حول صدري، قاطعة عني الهواء بدلاً من إسنادي، تاركة إياي ضعيفة ولاهثة. قلت:

– «لقد تصرفت من وراء ظهري لأنك تظن أنني لا أمتلك ما يكفي للنجاح.»

داين يعرفني أكثر من أي شخص آخر، وإن كان لا يزال يعتقد أنني عاجزة عن تجاوز هذا بعد كل ما قطعته من شوط...

تترقرق الدموع في عينيّ، لكنني أرفض السماح لها بالسقوط. بدلاً من ذلك، أطوي ذقني وألتقط سترة حراشف التنين، أسحبها فوق رأسي، ثم أشد الأربطة بقوة عند أسفل ظهري وأعقدها.

يتنهد داين ويقول:

– «لم أقل قط إنني أظن أنكِ عاجزة عن النجاح يا ڤيوليت.»

أرد بحدة:

– «أنت تردد هذا كل يوم! تردده حين ترافقني من التشكيل الطابوري إلى الحصة، وأنا أعلم أن هذا يجعلك تتأخر عن صف الطيران. تردده حين تصرخ في وجه قائد جناحك حين يستدعيني إلى الحلبة –»

– «لم يكن يحق له أن –»

أقاطعه وأنا أسحب سترتي فوق رأسي:

– «إنه قائد جناحي! يحق له أن يفعل ما يشاء – بما في ذلك إعدامي.»

يشبك داين أصابعه خلف رقبته ويبدأ بالذهاب والإياب قائلاً:

– «ولهذا السبب بالتحديد تحتاجين للخروج من هنا بحق الجحيم! لقد كنت أراقب يا ڤاي. إنه يتلاعب بكِ وحسب، كقط يلهو بفأر قبل أن يفترسه.»

أقول بينما أضع حقيبتي الثقيلة بالكتب على كتفي:

– «لقد صمدت بمفردي حتى الآن. لقد فزت في كل تحدٍ –»

يمسك بكتفيّ ويقول:

– «باستثناء اليوم حين مسح بكِ أرضية الحلبة مراراً وتكراراً. أم أنكِ فوّتتِ الجزء الذي جردكِ فيه من كل سلاح ليدركِ تماماً مدى سهولة هزيمتكِ؟»

أرفع ذقني وأرمقه بنظرة غاضبة:

– «لقد كنت حاضرة، ولقد نجوت طيلة شهرين تقريباً في هذا المكان، وهو أمر يعجز ربع أفراد دفعتي عن قوله!»

يسألني بنبرة منخفضة:

– «هل تعلمين ما الذي يحدث في يوم التصفية؟»

يغلي الغضب في عروقي وأقول:

– «هل تنعتني بالجهل؟»

يتابع:

– «الأمر لا يقتصر على الارتباط. إنهم يزجون بكل متدربي السنة الأولى في ساحات التدريب، تلك التي لم تطأها قدماكِ قط، ومن ثم يُفترض بمتدربي

السنتين الثانية والثالثة أن يراقبوا بينما تقررون أي التنانين ستقتربون منها وأيها ستهربون منها.»

أقول وفكي مشدود:

– «أعلم كيف تسير الأمور.»

– «أجل، حسناً، بينما يراقب الركاب، يقوم متدربو السنة الأولى بتسوية حساباتهم وثأراتهم، ويتخلصون من أي... عبء يثقل كاهل الجناح.»

أقول مجدداً، وينقبض صدري مرة أخرى، لأنني في أعماقي أدرك أنني، على المستوى الجسدي، أمثل عبئاً بالفعل:

– «أنا لست عبئاً ملعوناً.»

يهمس وترتفع يده لتمسد وجنتي:

– «ليس بالنسبة لي. لكنهم لا يعرفونكِ كما أعرفكِ يا ڤاي. وبينما سيطاردكِ أمثال بارلو وسايفرت من متدربي السنة الأولى، سنكون مضطرين للمراقبة. سأكون مضطراً للمراقبة يا ڤيوليت.»

الارتجافة في صوته تمتص كل الغضب من داخلي. يضيف:

– «لا يُسمح لنا بمساعدتكم. أو إنقاذكم.»

– «داين –»

– «وحين يجمعون الجثث لتسجيلها في القائمة، لن يوثق أحد كيف مات ذلك المتدرب. فرصة سقوطكِ تحت نصل بارلو تعادل تماماً فرصة سقوطكِ تحت مخلب تنين.»

أتنفس بعمق لأتجاوز صدمة الخوف التي اعترتني.

يرفع يده الأخرى ليحتوي وجهي بين كفيه، ويميله للأعلى نحو وجهه، ويقول:

– «يقول ماركهام إنه سيدخلكِ السنة الأولى دون إخبار والدتكِ. وبحلول الوقت الذي تكتشف فيه الأمر، ستكونين قد نُصّبتِ كنساخة بالفعل. ولن يكون بوسعها فعل أي شيء حيال ذلك حينها.»

يضيف:

– «أرجوكِ. إن لم تفعلي ذلك من أجل نفسكِ، فافعليه من أجلي.»

يتعثر قلبي وأترنح، فمنطقه يجذبني نحو ما يقترحه تماماً.

لكنكِ صمدتِ وبلغتِ كل هذا المدى، يهمس جزء مني.

يهمس وهو يسند جبهته إلى جبهتي:

– «لا أستطيع خسارتكِ يا ڤيوليت. أنا فقط... لا أستطيع.»

أغمض عينيّ بقوة. هذا هو مخرجي الوحيد، ومع ذلك، لا أريد أن أسلكه.

يتوسلني:

– «فقط عِديني بأنكِ ستفكرين في الأمر. لا يزال أمامنا أربعة أسابيع حتى يوم التصفية. فقط... فكري في الأمر.»

الأمل في نبرته والطريقة الحنونة التي يعانقني بها اخترقت دفاعاتي.

قلت:

– «سأفكر في الأمر.»

لا تستهيني قط بتحدي القفاز يا ميرا. لقد صُمم ليختبر توازنكِ، وقوتكِ، ورشاقتكِ. التوقيت لا يهم بحق الجحيم، ما يهم حقاً هو بلوغكِ القمة. تشبثي بالحبال متى ما اضطررتِ لذلك. أن تصلي أخيرة خير من أن تسقطي ميتة.

– الصفحة السادسة والأربعون، كتاب برينان



الفصل العاشر

أرفع بصري للأعلى، ثم للأعلى، والأعلى، والخوف يتلوى في معدتي كأفعى تتأهب للدغ.

تزدرد ريانون ريقها وتقول، ورأسها مائل للخلف تماماً كرأسي بينما نحدق في مسار العقبات المهيب المحفور في واجهة سلسلة جبلية شديدة الانحدار لدرجة أنها قد تُعد جرفاً صخرياً:

– «حسناً، هذا...»

يرتفع مسار الموت المتعرج فوقنا، متسلقاً في خمسة منعطفات متعرجة بزاويات حادة تبلغ ١٨٠ درجة، وتزداد صعوبة كل منعطف في طريقها نحو قمة الجرف الذي يفصل القلعة عن ساحة الطيران والوادي.

تتنهد أوريلي قائلة:

– «مذهل.»

نلتفت أنا وريانون، ونحدق فيها وكأنها تلقت ضربة على رأسها.

تسأل ريانون:

– «أتظنين أن هذا المشهد الجحيمي يبدو مذهلاً؟»

تبتسم أوريلي ابتسامة عريضة، وتتراقص عيناها السوداوان الجادتان عادة في شمس الصباح وهي تفرك يديها معاً، وتتنقل من ساق ممشوقة إلى أخرى بابتهاج، وتقول:

– «لقد انتظرت هذا لسنوات! كان والدي – الذي خدم كراكب تنانين حتى تقاعده العام الماضي – ينصب لنا مسارات عقبات كهذه طوال الوقت لنتدرب، وقال شقيقي تشيس إن هذا هو الجزء الأفضل في التواجد هنا قبل يوم التصفية. إنه يضخ الأدرينالين في العروق حقاً.»

أسأل وأنا أركز نظري على مسار العقبات الممتد صعوداً على جانب جرف لعين:

– «إنه يخدم في الجناح الجنوبي، أليس كذلك؟»

إنه يبدو كفخ للموت أكثر من كونه ضخاً للأدرينالين، لكن حسناً، يمكننا مجاراة ذلك. التفكير الإيجابي هو مفتاح الفوز، أليس كذلك؟

تهز كتفيها وتشير إلى نقطة تقع في ثلثي المسار تقريباً وتقول:

– «أجل. معظم مهامهم مكتبية مقارنة بما يواجهونه قرب حدود كروفلا. لقد نصحني بالحذر من تلك الأعمدة الخشبية الضخمة البارزة من جانب الجرف. إنها تدور، وقد تُسحقين بينها إن لم تكوني سريعة بما يكفي.»

تغمغم ريانون:

– «أوه، عظيم، كنت أتساءل متى ستبدأ الصعوبة الحقيقية.»

أقول:

– «شكراً يا أوريلي.»

أحدد موقع سلسلة من الأخشاب العريضة التي يبلغ عرضها ثلاثة أقدام وتكاد تتلامس، تبرز من التضاريس الصخرية كدرجات سلم دائرية ترتفع من الأرض نحو المنعطف الذي يعلوها، وأومئ برأسي. كوني سريعة. فهمت. كان بإمكانك تضمين هذه المعلومة الصغيرة يا بريتان.

مسار العقبات هذا هو التجسيد الحي لأسوأ كوابيسي. وللمرة الأولى منذ أن توسلني داين للرحيل الأسبوعِ الماضي، أفكر في عرض ماركهام. لا توجد مسارات للموت في قطاع النساخين، هذا أمر مؤكد.

لكنكِ صمدتِ وبلغتِ كل هذا المدى بالفعل. آه، ها هو ذا، ذلك الصوت الخافت الذي بات يعتلي كتفي مؤخراً، متجرئاً على منحي الأمل في أنني قد أنجو حقاً حتى العرض التقديمي.

يقول ريدوك من يميني وهو ينفخ في يديه المضمومتين ليدرأ عنه برد الصباح:

– «ما زلت غير واثق من سبب تسميتهم له بـ "القفاز".»

لم تمس الشمس هذا الشق الصخري الصغير، لكنها كانت تشرق فوق الربع الأخير من المسار.

يسخر تاينان من الجانب الآخر لريدوك، عاقداً ذراعيه فوق صدره وهو يرمقني بنظرة ذات مغزى:

– «لضمان استمرار التنانين في القدوم إلى يوم التصفية من خلال التخلص من الضعفاء.»

أرمقه بنظرة غاضبة ثم أنفض الأمر عني. لقد كان حانقاً منذ أن لقنته ريانون درساً قاسياً على الحلبة في يوم التقييم.

يصيح ريدوك بحدة جاذباً انتباه الفرقة بأكملها:

– «توقف عن هذا الهراء بحق الجحيم.»

أرفع حاجبيّ دهشة. لم أرَ ريدوك يفقد أعصابه من قبل، أو يستخدم أي وسيلة غير الدعابة لنزع فتيل أي موقف.

يُبعد تاينان خصلة من شعره الداكن الكثيف عن عينيه ويستدير وكأنه سيحدق في ريدوك لترويعه، لكن الأمر لا ينجح حقاً، نظراً لأن ريدوك يعادله مرتين في العرض ويفوقه طولاً بنصف قدم. يسأل:

– «وما مشكلتك أنت؟»

يتحداه ريدوك:

– «مشكلتي؟ أتظن أن صداقتك لـ بارلو وسايفرت تمنحك الحق في التصرف كوغد مع زميلتك في الفرقة؟»

يشير تاينان نحو مسار العقبات ويقول:

– «بالضبط. زميلتي في الفرقة. أوقاتنا لا تُصنف فردياً فحسب يا ريدوك. نحن نُقيّم كفرقة أيضاً، وبناءً على ذلك يُحدد ترتيب العرض التقديمي. هل تعتقد حقاً أن أي تنين سيرغب في الارتباط بمتدرب يدخل الساحة بعد كل فرقة أخرى في الموكب؟»

حسناً، لديه وجهة نظر. وجهة نظر بغيضة، لكنها موجودة.

يتقدم ريدوك خطوة للأمام ويقول:

– «إنهم لا يحسبون أوقاتنا للعرض التقديمي اليوم أيها الأحمق.»

يتدخل سوير بينهما دافعاً صدر تاينان بقوة تكفي لجعله يترنح للخلف ويصطدم بالفتاة التي تقف خلفه، ويقول:

– «توقف. خذها نصيحة من شخص اجتاز العرض التقديمي العام الماضي: توقيتك لا يعني شيئاً. آخر متدرب دخل الساحة العام الماضي ارتبط بتنين دون أي

مشاكل، في حين تم تجاهل بعض المتدربين في الفرقة الأولى التي دخلت الميدان.»

يبتسم تاينان بسخرية ويقول:

– «تشعر ببعض المرارة حيال ذلك، أليس كذلك؟»

يتجاهل سوير اللدغة ويقول:

– «فضلاً عن ذلك، لم يُطلق عليه اسم القفاز لأنه يتخلص من المتدربين الضعفاء.»

يقول البروفيسور إيميتيريو وهو يتقدم نحو فرقتنا من الخلف، ورأسه الحليق يلمع في ضوء الشمس المتزايد:

– «سُمي بالقفاز لأن هذا هو الجرف الذي يحرس الوادي. أضف إلى ذلك أن القفازات الحقيقية – قفازات الدروع المصنوعة من المعدن – زلقة بحق الجحيم، وقد التصق هذا الاسم به منذ حوالي عشرين عاماً.»

يرفع حاجبه نحو تاينان وسوير ويتابع:

– «هل انتهيتما من الشجار؟ لأن أمامكم أنتم التسعة ساعة واحدة بالضبط لبلوغ القمة قبل أن يحين دور فرقة أخرى للتدريب، ومما رأيته من رشاقتكم على الحلبة، ستحتاجون إلى كل ثانية منها.»

تتعالى همهمة موافقة في مجموعتنا الصغيرة.

يقلب البروفيسور إيميتيريو صفحة من دفتر ملاحظاته الصغير ويقول:

– «كما تعلمون، تم تعليق تحديات القتال المتلاحم للأسبوعين والنصف القادمين قبل العرض التقديمي لتتمكنوا من التركيز هنا. سوير، ستُظهر لهم كيف يُنجز الأمر، بما أنك تألف تضاريس المكان بالفعل. ثم برايور، ترينا، تاينان، ريانون، ريدوك، ڤيوليت، أوريلي، ولوكا.»

ترتسم ابتسامة على فمه الصارم حين ينتهي من تلاوة كل اسم في فرقتنا، ونصطف بالترتيب. يضيف:

– «أنتم الفرقة الوحيدة التي بقيت مكتملة العدد منذ المتراس الصخري. هذا مذهل حقاً. لابد أن قائد فرقتكم فخور جداً. انتظروا هنا للحظة.»

يمر بجوارنا، ملوحاً لشخص ما في أعلى الجرف.

لا شك أن ذلك الشخص يحمل ساعة توقيت.

يرمقني تاينان بابتسامة ساخرة بمجرد ابتعاد معلمنا عن مرمى السمع ويقول:

– «آيتوس فخور بشكل خاص بـ سورنجيل.»

يغلي الدم في عروقي وأقول:

– «اسمع، إن كنت تريد التحدث عني بالسوء، فهذا شأنك، لكن أبقِ داين خارج الأمر.»

يهز سوير رأسه محذراً:

– «تاينان.»

يشيح تاينان بيديه ويقول:

– «وكأنه لا يزعج أحداً منكم أن قائد فرقتنا يضاجع إحدانا؟»

أبدأ بالرد والسخط يتغلب عليّ قبل أن أتمكن من أخذ نفس عميق:

– «أنا لست – بصراحة، ليس من شأنك اللعين مع من أنام يا تاينان.»

ورغم ذلك، إن كنت سأُتهم على أي حال، ألا يمكنني الاستمتاع ببعض المزايا؟ إن كنت أعرف داين جيداً، فهو متمسك تماماً بقاعدة "يُمنع تكوين علاقات عاطفية ضمن التسلسل القيادي" تماماً كهذا الأحمق. لكن من المؤكد أن داين كان ليُقدم على خطوة إن أراد ذلك حقاً، أليس كذلك؟

تضيف لوكا:

– «إنه من شأننا إن كان ذلك يعني حصولكِ على معاملة تفضيلية!»

تتمتم ريانون وهي تفرك جسر أنفها:

– «بحق الجحيم. لوكا، تاينان، اخرسا. إنهما لا يتضاجعان. لقد كانا أصدقاء منذ الطفولة، أم أنكما لا تعرفان ما يكفي عن قادتنا لتعرفا أن والده هو المساعد الشخصي لوالدتها؟»

تتسع عينا تاينان وكأنه متفاجئ حقاً:

– «حقاً؟»

أهز رأسي وأدرس المسار قائلة:

– «حقاً.»

يقول تاينان:

– «تباً. أنا... أعتذر. لقد قال بارلو –»

يقاطعه ريدوك:

– «وهذا هو خطأك الأول. الاستماع إلى ذلك الوغد السادي سيودي بحياتك. وأنت محظوظ لأن آيتوس ليس هنا.»

صحيح. كان داين ليعترض بشدة على افتراضات تاينان وربما كلفه بمهام التنظيف لشهر كامل. من حسن حظه أنه في ساحة الطيران في هذا الوقت من اليوم.

أما زايدن، فكان ليبرحه ضرباً وحسب.

أرمش بعيني، طاردة تلك المقارنة وأي فكرة أخرى عن زايدن ريورسون بعيداً عن رأسي.

يقول البروفيسور إيميتيريو وهو يمشي نحو مقدمة صفنا:

– «ها نحن ذا! ستحصلون على توقيتكم عند قمة المسار، إن بلغتموها، لكن تذكروا، لا يزال أمامكم تسع جلسات تدريبية قبل أن نُقيّمكم للعرض التقديمي بعد أسبوعين ونصف، والذي سيحدد ما إذا كانت التنانين ستراكم جديرين في يوم التصفية.»

تسأل ريانون:

– «ألن يكون من المنطقي أكثر السماح لمتدربي السنة الأولى ببدء التدريب على هذا الشيء مباشرة بعد المتراس الصخري؟ كما تعلم، لمنحنا مزيداً من الوقت كي لا نموت؟»

يجيب البروفيسور إيميتيريو:

– «كلا. التوقيت جزء من التحدي. هل لديك أي كلمات حكمة يا سوير؟»

يزفر سوير نفساً بطيئاً، وتتتبع نظراته المسار الغادر. يقول:

– «هناك حبال تتدلى كل ستة أقدام من قمة الجرف العمودي إلى أسفله. لذا إن بدأتم بالسقوط، مدوا أيديكم وتشبثوا بحبل. سيكلفكم ذلك ثلاثين ثانية، لكن الموت سيكلفكم أكثر.»

رائع.

يشير ريدوك إلى الدرج شديد الانحدار المحفور في الجرف بجوار المنعطفات العريضة للقفاز ويقول:

– «أعني، هناك مجموعة من السلالم تبدو جيدة تماماً هناك.»

يقول البروفيسور إيميتيريو، ثم يرفع يديه نحو المسار وينفض رسغه مشيراً إلى العقبات المختلفة:

– «السلالم مخصصة للوصول إلى ساحة الطيران على قمة السلسلة الجبلية بعد العرض التقديمي.»

يبدأ العمود الخشبي البالغ طوله خمسة عشر قدماً عند بداية الصعود بالدوران. تهتز الأعمدة في الصعود الثالث. تبدأ العجلة الضخمة عند المنعطف الأول بدورانها عكس عقارب الساعة، وتلك الأعمدة الصغيرة التي ذكرتها أوريلي؟ جميعها تدور في اتجاهات متعاكسة.

يستدير البروفيسور إيميتيريو لينظر إلينا، ووجهه يتسم بالصرامة ذاتها التي يظهرها خلال تدريبات القتال المتلاحم المعتادة ويقول:

– «كل صعود من الصعودات الخمسة في هذا المسار مصمم لمحاكاة التحديات التي ستواجهونها في المعركة. بدءاً من التوازن الذي يجب أن تحافظوا عليه على ظهر تنينكم، إلى القوة التي ستحتاجونها للثبات في مقعدكم أثناء المناورات، وصولاً إلى –»

يشير للأعلى، نحو العقبة الأخيرة التي تبدو كمنحدر بزاوية تسعين درجة من هذه الزاوية، ويتابع:

– «القدرة على التحمل التي ستحتاجونها للقتال على الأرض، ثم لا تزالون قادرين على امتطاء تنينكم في غضون ثانية.»

تؤدي حركة الأعمدة إلى خلخلة قطعة من الجرانيت، فتتدحرج الصخرة أسفل المسار، مرتطمة بكل عقبة في طريقها حتى تتحطم على بعد عشرين قدماً أمامنا. إن كان هناك استعارة مجازية تلخص حياتي، فحسناً... هذه هي.

تهمس ترينا وعيناها البنيتان متسعتان وهي تحدق في الصخرة المسحوقة:

– «يا إلهي.»

أنا الأصغر حجماً في فرقتنا، لكن ترينا هي الأهدأ، والأكثر تحفظاً. يمكنني عد المرات التي تحدثت فيها إليّ منذ المتراس الصخري على أصابع يديّ. لو لم

يكن لديها أصدقاء في الجناح الأول، لكنت شعرت بالقلق، لكنها ليست مضطرة للانفتاح علينا لتنجو في القطاع.

أسألها بهمس:

– «هل أنتِ بخير؟»

تزدرد ريقها وتومئ برأسها، فتتدلى إحدى خصلات شعرها البني المحمر الكستنائي على جبهتها.

تسأل لوكا من يميني وهي تثبت شعرها الطويل في ضفيرة مرخية، وقد غاب تعاليها المعتاد اليوم:

– «وماذا إن لم نتمكن من الصعود؟ ما هو الطريق البديل؟»

يأمر البروفيسور إيميتيريو، فيتحرك سوير إلى بداية المسار:

– «لا يوجد بديل. إن لم تصعدوا، فلن تتمكنوا من الوصول إلى العرض التقديمي، أليس كذلك؟ اتخذ موقعك يا سوير. بعد أن يتجاوز العقبة الأخيرة، ليتمكن الجميع من التعلم من إكماله للمسار، سيبدأ الباقون منكم بالانطلاق كل ستين ثانية. و... انطلق!»

ينطلق سوير كالرصاصة. يركض بخفة لمسافة خمسة عشر قدماً عبر العمود الخشبي المفرد الذي يدور بالتوازي مع واجهة الجرف، ثم فوق الأعمدة المرتفعة، لكن الأمر يستغرقه ثلاث دورات داخل العجلة قبل أن يقفز عبر الفتحة الوحيدة، لكن باستثناء ذلك، لا ألحظ خطوة واحدة خاطئة في الصعود الأول. ولا. خطوة. واحدة.

يستدير ويندفع نحو سلسلة من الكرات المعلقة الضخمة التي تشكل الصعود الثاني، قافزاً ومعانقاً إياها واحدة تلو الأخرى. وبمجرد عودة قدميه إلى الأرض، يستدير مجدداً ويتجه نحو الصعود الثالث، والذي ينقسم إلى قسمين. الجزء الأول

يتكون من قضبان معدنية ضخمة تتدلى بالتوازي مع جدار الجرف، ويتأرجح بسهولة متجاوزاً إياها يداً بيد، مستخدماً وزن جسده وقوة اندفاعه لأرجحة القضيب للأمام وبلوغ القضيب التالي المعلق أعلى بنصف قدم من سابقه بينما يتسلق جانب الجرف. ومن القضيب الأخير، يقفز على سلسلة من الأعمدة الحديدية المهتزة التي تشكل النصف الثاني من هذا الصعود قبل أن يثب عائداً إلى الممر الحصوي.

وبحلول الوقت الذي يصل فيه إلى الصعود الرابع، والأعمدة الخشبية الدوارة التي حذرنا منها شقيق أوريلي، يكون سوير قد جعل الأمر برمته يبدو كلعب أطفال، وأبدأ بالشعور بفقاعة من الأمل بأن المسار ربما ليس بالصعوبة التي يبدو عليها من الأرض.

لكنه يواجه بعد ذلك تشكيلاً صخرياً ضخماً يشبه المدخنة يرتفع عالياً فوقه بزاوية عشرين درجة، فيتوقف.

تصرخ ريانون من جانبي:

- «أنت لها!»

وكأنه سمعها، يركض نحو المدخنة المائلة ويلقي بنفسه للأعلى، متشبثاً بالجوانب مشكلاً حرف X بجسده، ثم يبدأ بالقفز صعوداً داخل الأنبوب حتى يصل إلى نهايته ويهبط أمام العقبة الأخيرة، منحدر هائل يصل إلى قمة حافة الجرف بصعود شبه عمودي.

تتعثر أنفاسي في حنجرتي حين يركض سوير نحو المنحدر، مستخدماً سرعته وقوة اندفاعه ليحمل نفسه إلى ثلثي المنحدر. وقبل أن يبدأ بالسقوط مباشرة، يمد يده لأعلى ويقبض على حافة المنحدر ويسحب نفسه متجاوزاً الحافة.

نصرخ أنا وريانون ونهتف تشجيعاً له. لقد نجح. بأسلوب يكاد يكون خالياً من العيوب.

ينادي البروفيسور إيميتيريو:

– «أسلوب مثالي! هذا بالضبط ما يجب عليكم جميعاً فعله.»

تسخر لوكا:

– «مثالي، ومع ذلك تم تجاهله في يوم التصفية. يبدو أن التنانين تمتلك ذوقاً خاصاً.»

تقول ريانون:

– «كفي عن ذلك يا لوكا.»

كيف يمكن لشخص بذكاء سوير ولياقته البدنية ألا يرتبط؟ وإن لم يفعل، فأي أمل متبقٍ لبقيتنا بحق الجحيم؟

أهمس لريانون:

– «أنا أقصر من أن أتمكن من بلوغ حافة المنحدر.»

تختلس نظرة إليّ، ثم تعيد نظرها إلى العقبة وتقول:

– «أنتِ سريعة جداً. إن زدتِ من سرعتكِ، أراهن أن قوة الاندفاع ستحملكِ إلى القمة.»

يكافح برايور – المتدرب الخجول من منطقة حدود كروفلا – على القضبان الفولاذية المتأرجحة في الصعود الثالث بسبب تردد متوقع من جانبه، لكنه ينجح في تجاوزها تماماً حين كادت ترينا أن تسقط عند الأعمدة المهتزة، فتمد يدها متشبثة بحبل. لا يمكنني سوى تمييز وميض أحمر من شعرها حين تبدأ في صعود الدرجات الدوارة، لكني أسمع صرختها يتردد صداها حتى أخمص قدميّ حين يتأرجح ذلك الحبل بالذات قرب الأرض.

يصيح سوير من الأعلى:

- «يمكنكِ فعلها!»

تنادي أوريلي:

- «إنها تدور في اتجاهات متعاكسة!»

يأمر البروفيسور إيميتيريو، وعيناه مثبتتان على ساعة جيبه وليس على المسار:

- «تاينان، انطلق.»

يقرع قلبي في أذنيّ حين تنجح ترينا في تجاوز الدرجات، ولا يهدأ ذلك القرع حين يُنادى على ريانون للبدء. تتجاوز الصعود الأول بالرشاقة التي اعتدت رؤيتها منها قبل أن تتوقف تماماً.

يتدلى تاينان من الكرة المعلقة الثانية من أصل خمس في الصعود الثاني، تماماً حيث تنعدم الأرض تحتها. إن سقط، فلديه فرصة ضئيلة للغاية للاصطدام بالعمود الخشبي المفرد الدوار من الصعود الأول، واحتمالات هائلة بالسقوط من ارتفاع ثلاثين قدماً إلى الأرض بالأسفل.

أصرخ، رغم شكي في قدرته على سماعي من هنا:

- «يجب أن تواصل التحرك يا تاينان!»

قد يكون أحمق ساذجاً، لكنه لا يزال زميلي في الفرقة.

يصرخ وذراعاه ملتفتان حول الكرة المتأرجحة. من المستحيل أن يحيط يديه بها بالكامل - هذه هي الفكرة من العقبة - وهو ينزلق.

تقول أوريلي وتطلق تنهيدة ملل:

- «سيفسد توقيتها.»

يقول ريدوك، ثم يصيح موجهاً حديثه لتاينان:

– «من حسن الحظ أن هذا مجرد تدريب إذن. ما الخطب يا تاينان؟ هل تخاف المرتفعات؟ من هو العبء الآن؟»

ألخز ريدوك بمرفقي في جانبه. لم يعد نحيلاً كما كان. الأسابيع السبعة الماضية أضافت بعض العضلات إلى بنيته. أقول له:

– «توقف. لمجرد أنه وغد لا يعني أن عليك أن تكون كذلك.»

يرد ريدوك، وترتفع زاوية فمه بابتسامة متكلفة وهو يتراجع للخلف متجهاً نحو نقطة البداية:

– «لكنه يمنحني مادة خصبة جداً للسخرية.»

تقترح ترينا من قمة المسار:

– «تأرجح نحو الكرة التالية!»

– «لا أستطيع!»

صرخة تاينان كانت كفيلة بتحطيم الزجاج وهي تتردد أصداؤها عبر الجبل، مما جعل صدري ينقبض.

يأمر البروفيسور إيميتيريو:

– «ريدوك، انطلق!»

يندفع ريدوك عبر العمود الخشبي.

أصرخ موجّهة كلامي للأعلى:

– «ري! الحبل بين الكرة الأولى والثانية!»

تومئ لي برأسها، ثم تقفز نحو الكرة المعلقة الأولى، وتقبض عليها من الأعلى، بالقرب من موضع اتصال السلاسل بالسكة الحديدية في الأعلى، وتؤرجح وزنها حول الجانب.

إنه نهج مبدع للغاية، وربما ينجح معي أنا أيضاً.

يُسحق الحصى تحت حذائي وأنا أتحرك نحو نقطة البداية. أوه، انظروا، يبدو أن قلبي قادر على النبض بسرعة أكبر حقاً. يخفق بشدة وأنا أمسح راحتيّ المتعرقتين بسروالي الجلدي.

تنجح ريانون في إيصال الحبل إلى يد تاينان، لكن بدلاً من استخدامه للتأرجح نحو الكرة التالية، يبدأ بالتسلق... للأسفل.

يكاد فكي يسقط أرضاً وهو يهبط. بالتأكيد لم أتوقع هذه الحركة.

يأمر إيميتيريو:

– «ڤيوليت، انطلقي!»

كن معي يا زينال. لم أقضِ وقتاً كافياً في المعبد ليأبه إله الحظ كثيراً بما سيحل بي الآن، لكن المحاولة لا تضر.

أندفع بأقصى سرعتي في الجزء الأول من الصعود، وأصل إلى العمود الخشبي الدوار في غضون ثوانٍ. أشعر وكأن معدتي تُقلّب بواسطة عارضة التوازن الجحيمية هذه. أتمتم وأنا أبدأ بعبورها:

– «إنه مجرد توازن. يمكنكِ الحفاظ على توازنكِ.»

أكرر طوال المسافة:

– «أقدام خفيفة. أقدام خفيفة. أقدام خفيفة.»

أقفز من النهاية لأهبط على أول عمود جرانيتي من أصل أربعة، كل واحد منها أعلى من سابقه.

تفصل بينها مسافة ثلاثة أقدام تقريباً، لكنني أنجح في القفز من عمود إلى آخر دون الانزلاق عن الحواف. وهذا هو الجزء السهل. تشق عقدة من الخوف طريقها صعوداً في حنجرتي.

أقفز إلى العجلة الدوارة وأركض، أثب فوق الفتحة الوحيدة حين تمر مسرعة في المرة الأولى، ثم أراقبها وهي تقترب في المرة الثانية. التوقيت. هذا التحدي يعتمد كلياً على التوقيت.

تسنح الفرصة فأغتنمها، أركض عبر الفتحة وأستدير عائدة إلى الممر الحصوي للصعود الثاني. الكرات المعلقة أمامي مباشرة، لكني سأسقط على مؤخرتي إن لم أهدأ وأوقف تعرق راحتيّ.

تنانين الذيل الريشي هي السلالة التي نجهل عنها الكثير، أردد في ذهني، محتاجة إلى كل أوقية من سعة رئتيّ وأنا أقفز من حافة الممر نحو الكرة الأولى، وأقبض عليها من الأعلى كما فعلت ريانون. الإجهاد المباشر على كتفيّ يجبرني على شد كل عضلة لمنع المفاصل من الانخلاع.

ابقي هادئة. ابقي هادئة.

أُلقي بوزني، وأجبر الكرة على الدوران، لتؤرجحني نحو الكرة التالية. ويرجع ذلك إلى أن تنانين الذيل الريشي تمقت العنف بشدة ولا تصلح للارتباط.

أكرر الحركات، وأقبض على الكرة تلو الأخرى، مبقيةً عينيّ مثبتتين على السلاسل ولا شيء غيرها.

ورغم ذلك، لا يمكن لهذا الباحث الجزم بذلك، إذ لم يغادر أي منها الوادي قط خلال فترة حياتي. أواصل التلاوة من الذاكرة وأنا أصل إلى الكرة الخامسة والأخيرة. وبأرجحة أخيرة، أُلقي بنفسي جانباً، وأفلت الكرة لأهبط على الممر الحصوي الذي يعادل عرض كتفيّ دون أن أتعرض لالتواء في الكاحل.

الصعود التالي يعتمد كلياً على قوة الاندفاع.

أتمتم بصوت خافت:

– «التنانين الخضراء، المعروفة بذكائها الحاد، تنحدر من سلالة 'واينيلويدسيج' الشريفة، وتظل الأكثر عقلانية بين سلالات التنانين، مما يجعلها أسلحة حصار مثالية، وتحديداً تلك ذات الذيل الهراوي.»

أنهي تلاوتي وأنا أحاذي جسدي مع القضيب المعدني الأول وأستعد للانطلاق للأمام.

تنادي أوريلي من الأسفل حيث تقفز على الكرة الأولى:

– «هل أنتِ... تدرسين؟»

أرد عليها بتفسير سريع:

– «هذا يهدئ من روعي.»

لا وقت للشعور بالإحراج هنا – يمكن تأجيل ذلك لوقت لاحق.

هناك ثلاث سكك حديدية أمامي، كل منها مصطفة كمدق الحصار نحو السكة التي تليها. أغمغم بصوت خافت:

– «قطاع النساخين يبدو خياراً جيداً جداً الآن.»

ثم أُطلق نفسي نحو السكة الأولى. على الأقل يمنحني الملمس الخشن شيئاً لأتشبث به وأنا أشق طريقي يداً بيد. يتحول الوجع في كتفيّ إلى ألم نابض حين أصل إلى نهاية السكة الأولى، وأؤرجح قدميّ لأكتسب قوة الاندفاع للوصول إلى السكة التالية.

أول رنين لاصطدام الحديد حين تلتقي السكك يجعل أصابعي تنزلق، وأشهق حين يمزق الرعب معدتي. التنانين البرتقالية، التي تتدرج ألوانها من المشمشي إلى الجزري، هي الأكثر – أُلقي بنفسي نحو السكة التالية – تقلباً بين سلالات التنانين، وبالتالي تشكل خطراً دائماً. أتحرك عبر السكة بنفس حركة اليد تلو الأخرى، متجاهلة الاحتجاجات الصريحة لكتفيّ. تنحدر من سلالة 'فايكورين' –

تفقد يدي اليمنى قبضتها ويتأرجح وزني ليدفعني نحو واجهة الجبل الشديدة الانحدار، فترتطم وجنتي بالصخر. يندلع طنين حاد في أذنيّ وتظلم حواف رؤيتي.

تصرخ ريانون من الأعلى:

– «ڤيوليت!»

تنادي أوريلي:

– «بجوارِكِ! الحبل بجوارِكِ!»

يخدش الحديد أطراف أصابعي حين تنزلق يدي اليسرى، لكني ألمح الحبل وأتشبث به، وأثبت قدميّ على العقدة تحتي وأتشبث بقوة حتى يتلاشى الطنين في رأسي. يجب أن أتأرجح أو أتسلق للأسفل.

لقد نجوت طيلة سبعة أسابيع في هذا القطاع اللعين، وهذا المسار لن يكسرني اليوم.

أدفع نفسي عن الحافة، وأتأرجح نحو السكة وأنجح في الإمساك بها، وأبدأ فوراً بالحركة يداً بيد للوصول إلى السكة التالية ثم التي تليها، حتى أفلت يدي أخيراً، وأهبط على أول عمود حديدي مهتز. يرتج عقلي حين يهتز العمود بعنف، وأقفز نحو العمود التالي، وبالكاد أجد موطئ قدم قبل أن أقفز إلى الممر الحصوي عند نهاية الصعود.

تهبط أوريلي خلفي مباشرة بابتسامة واسعة وتقول:

– «هذا أروع شعور على الإطلاق!»

أقول بينما أتنفس بصعوبة، لكني لم أستطع كبح ابتسامتي أمام بهجتها الواضحة:

– «من الواضح أنكِ بحاجة لزيارة المعالجين. لابد أنكِ تلقيتِ ضربة قوية على رأسكِ إن كنتِ تعتقدين أن هذا ممتع.»

تقول ونحن نصل إلى الأعمدة الخشبية الدوارة البارزة مباشرة من واجهة الجرف:

– «فقط اركضي مباشرة عبر هذه الأعمدة.»

يدور كل عمود خشبي يبلغ عرضه ثلاثة أقدام من قاعدته في أحد أكثر أجزاء المسار انحداراً. أحسب بسرعة أنه إن سقطتِ عن أحد الأعمدة، فستسقطين على الأرجح من ارتفاع ثلاثين أو أربعين قدماً على التضاريس الصخرية بالأسفل. أبتلع الرعب الذي يحاول الزحف صعوداً في حنجرتي وأركز على احتمال أن رشاقتي وخفة وزني ستمنحني أفضلية في هذه العقبة بالذات.

تتابع أوريلي:

– «صدقيني. إن توقفتِ، فسيدحرجكِ للأسفل مباشرة.»

أومئ برأسي وأقفز على قدميّ، مستحضرة كل ما تبقى لدي من شجاعة. ثم أركض. قدماي سريعتان، تلامسان كل عمود لوقت يكفي فقط للاندفاع نحو العمود التالي، وفي غضون نبضات قليلة، أصل إلى الجانب الآخر.

أصرخ وأنا أرفع قبضتي احتفالاً بينما أبتعد عن طريق أوريلي:

– «أجل!»

تصرخ أوريلي، وحركة قدميها أكثر رشاقة من حركتي وهي تقفز من عمود دوار إلى آخر:

– «أحسنتِ يا ڤيوليت! ها أنا قادمة!»

يُسمع زئير من الأعلى، وأرفع بصري فجأة في الوقت المناسب لأرى بطن تنين أخضر ذي ذيل خنجري يحلق فوقنا مباشرة، عائداً إلى الوادي.

لن أعتاد على ذلك أبداً.

تصرخ أوريلي وألتفت نحوها بسرعة في الوقت المناسب لأراها تترنح وتنزلق على العمود الخامس. يتجمد الهواء في رئتيّ وهي تندفع للأمام، ويرتطم بطنها بالعمود الدوار قبل الأخير وكأن المشهد يعرض بالتصوير البطيء.

أصرخ وأنا أندفع نحوها، وتلامس أطراف أصابعي العمود السابع:

– «أوريلي!»

تلتقي أعيننا، ويملأ الصدمة والرعب عينيها السوداوين الواسعتين بينما يدحرجها العمود مبتعدة عني وتسقط. إلى منتصف الجرف.

***

تحرق الشمس عينيّ ونحن نقف في التشكيل الطابوري الصباحي.

يقرأ الكابتن فيتزجيبونز بصوته الوقور كالمعتاد:

– «كالفين أتواتر.»

الفرقة الأولى، قسم المخلب، الجناح الرابع. كان يجلس خلفي بصفين في الموجز القتالي. لقد كان يجلس.

لا شيء مميز في هذا الصباح. محاولتنا الأولى على القفاز جعلت القائمة أطول، لكنها مجرد قائمة أخرى في يوم آخر... باستثناء أنها ليست كذلك. القسوة الاستثنائية لهذا الطقس لم تضربني بهذه القوة من قبل. لم يعد الأمر كاليوم الأول. أنا أعرف أكثر من نصف الأسماء التي تُنادى. تغيم رؤيتي.

يتابع:

– «نيولاند جاهفون.»

الفرقة الثانية، قسم اللهب، الجناح الرابع. لقد كان يشاركني نوبة الإفطار.

لابد أننا بلغنا العشرينيات الآن. كيف يمكن أن يكون هذا هو كل شيء؟ نذكر أسماءهم مرة واحدة ثم نمضي وكأنهم لم يوجدوا قط؟

تغير ريانون وقفتها بجواري، وتشهق فجأة، وترتجف كتفاها مرة واحدة بفعل تلك الحركة.

– «أوريلي دونانس.»

تفلت دمعة يتيمة فأمسحها، وأمزق إحدى القشور المتخثرة على وجنتي. يتبع ذلك قطرة دم مع النداء على الاسم التالي، لكني أدعها تلطخ وجهي.

***

يسألني داين في الليلة التالية، وخطان من القلق يرتسمان بين حاجبيه وهو يمسك بكتفيّ:

– «هل أنتِ متأكدة من هذا؟»

أشرح له وأنا أُدير كتفيّ لأعدل وزن حقيبة أوريلي:

– «إن لم يكن والداها قادمين لدفن جثمانها، فيجب أن أكون أنا من يعتني بأغراضها. أنا آخر شخص رأته.»

يمتلك كل والد في باسجياث الخيار ذاته حين يُقتل متدربهم. يمكنهم استعادة الجثمان والأغراض الشخصية للدفن أو الحرق، أو تتولى الكلية دفن الجثمان تحت حجر شاهد وحرق الأغراض بنفسها. اختار والدا أوريلي الخيار الثاني.

يسأل وهو يمسح بكفه على عنقي:

– «ولا تريدين مني مرافقتكِ؟»

أهز رأسي:

– «أنا أعرف موقع حفرة الحرق.»

يتمتم بشتيمة ويقول:

– «كان يجب أن أكون هناك.»

أقول بصوت خافت، وأغطي يده بيدي لتتشابك أصابعنا بخفة:

– «لم يكن بوسعك فعل أي شيء يا داين. لم يكن بوسع أي منا فعل شيء. لم يتسنَّ لها حتى الوقت لتمتد يدها وتتشبث بالحبل.»

لقد أعدت تشغيل تلك اللحظة مراراً وتكراراً في رأسي، وكنت أصل إلى نفس النتيجة في كل مرة.

يقول:

– «لم تسنح لي الفرصة لأسألكِ عما إذا كنتِ قد بلغتِ القمة.»

أهز رأسي:

– «لقد علقت عند التشكيل الصخري للمدخنة واضطررت لاستخدام حبل للنزول. أنا أقصر من أن أتمكن من بلوغ المسافة، لكني لن أفكر في ذلك الليلة. سأجد حلاً قبل التوقيت الرسمي للقفاز في يوم العرض التقديمي.»

سأكون مضطرة لذلك. لا يسمحون للمتدربين بالنزول في اليوم الأخير. إما أن تكمل القفاز – أو تسقط لتموت.

يقول وهو يترك يدي:

– «حسناً. أخبريني إن احتجتِ إليّ.»

أومئ برأسي وأختلق كل الأعذار الممكنة لمغادرة رواق المهاجع. وزن حقيبة أوريلي مذهل. لقد كانت قوية بما يكفي لحمل كل هذا الوزن عبر المتراس الصخري، ومع ذلك سقطت.

وأنا بطريقة ما لا زلت أقف على قدميّ.

لا أستطيع التخلص من الشعور بأنني أحملها معي وأنا أصعد درج برج المبنى الأكاديمي، متجاوزة غرفة الموجز القتالي وصولاً إلى السقف الحجري، مارة ببضعة متدربين آخرين في طريقهم للنزول. حفرة الحرق ليست سوى برميل حديدي عريض جداً، الغرض الوحيد منه هو الحرق، وتشتعل النيران بوهج مشرق ضد سماء الليل حين أتعثر خارجة إلى السطح، ورئتاي تكافحان للحصول على الأكسجين.

قبل بضعة أشهر، لم أكن لأتمكن من حمل حقيبة بهذا الثقل.

لا يوجد أحد آخر هنا حين أُسقط الحقيبة عن كتفي.

أهمس وأنا أغرس أصابعي في الحزام العريض للحقيبة بينما أرفعها وألقيها فوق الحافة المعدنية للبرميل:

– «أنا آسفة جداً.»

تشتعل النيران وتصدر حفيفاً عالياً حين تصبح الحقيبة وقوداً إضافياً للنار، مجرد قربان آخر لـ مالك، إله الموت.

وبدلاً من العودة أدراجي ونزول الدرج، أشق طريقي إلى حافة البرج. إنها ليلة غائمة، لكنني أستطيع تمييز ظلال ثلاثة تنانين وهي تقترب من الغرب، بل وأستطيع رؤية السلسلة الجبلية حيث يقبع القفاز، متربصاً لابتلاع ضحيته التالية.

لن أكون أنا.

ولكن لماذا؟ ألأنني سأقهره؟ أم لأنني سأرضخ لطلب داين وأختبئ في قطاع النساخين؟ يتمرد كياني بأكمله ضد الخيار الثاني، مما يجعلني أشكك في كل شيء وأنا أقف هنا، تاركة الدقائق تمر قبل أن تقرع أجراس حظر التجول. أنزل الدرج عائداً دون إجابة شافية عن السبب.

أمشي عبر الفناء، الذي بدا خاوياً باستثناء ثنائي لم يقررا بعد ما إذا كانا يفضلان التقبيل أو المشي قرب المنصة المرتفعة، وأشيح بنظري متجهة نحو الكوة حيث جلست أنا وداين لأول مرة بعد المتراس الصخري.

لقد مر ما يقرب من شهرين، ولا أزال هنا. لا أزال أستيقظ كل صباح لأشهد شروق الشمس. ألا يعني هذا شيئاً؟ ألا توجد فرصة، مهما كانت ضئيلة، بأنني قد أكون جديرة باجتياز يوم التصفية؟ بأنني ربما أنتمي إلى هنا حقاً؟

يُفتح الباب المؤدي إلى النفق الذي سلكناه لعبور السلسلة الجبلية نحو القفاز هذا الصباح على طول جدار الفناء، إلى يسار المبنى الأكاديمي مباشرة، فأقطب حاجبيّ. من قد يعود في هذا الوقت المتأخر؟

أسند ظهري إلى الجدار، وأدع الظلام يخفيني حين يمر زايدن، وغاريك، وبودهي – ابن عم زايدن – تحت ضوء سحري، متجهين نحوي.

ثلاثة تنانين. كانوا بالخارج... يفعلون ماذا؟ لم تكن هناك أي عمليات تدريبية أعلم بها الليلة، ليس وكأنني مطلعة على كل ما يفعله طلاب السنة الثالثة.

يجادل بودهي، ناظراً إلى زايدن، وصوته خافت حين يمرون بجانبي، وأحذيتهم تسحق الحصى:

– «لابد أن هناك شيئاً آخر يمكننا فعله.»

يهسس غاريك:

– «نحن نفعل كل ما في وسعنا.»

توخز فروة رأسي، ويتوقف زايدن في منتصف خطوته على بعد عشرة أقدام، وكتفاه متصلبان بصرامة.

تباً.

إنه يعلم أنني هنا.

وبدلاً من الخوف المعتاد الذي يجتاحني في حضوره، لم يرتفع في صدري سوى الغضب. إن كان يريد قتلي، فحسناً. لقد سئمت من انتظار حدوث ذلك. سئمت من المشي في الأروقة بخوف.

يسأل غاريك، وينظر فوراً من فوق كتفه في الاتجاه المعاكس، نحو الثنائي اللذين قررا بالتأكيد أن تبادل القبلات أهم من العودة إلى المهاجع قبل حظر التجول:

– «ما الخطب؟»

يقول زايدن:

– «امضيا قدماً. سألحق بكما في الداخل.»

يتغضن جبين بودهي، وتجول نظراته في الفناء:

– «هل أنت متأكد؟»

يأمر زايدن، ويقف ساكناً تماماً حتى يمشي الآخران إلى الثكنات، منعطفين يساراً نحو الدرج الذي سيأخذهما إلى طوابق السنتين الثانية والثالثة:

– «اذهبا.»

وفقط حين يختفيان، يستدير ويواجه النقطة التي أجلس فيها تماماً.

أجبر نفسي على الوقوف والتقدم نحوه كي لا يظن أنني أختبئ أو الأسوأ – خائفة منه. أقول:

– «أنا أعلم أنك تعلم أنني هنا. وأرجوك لا تثرثر بهراء عن التحكم في الظلام. لست في مزاج يسمح بذلك الليلة.»

يعقد ذراعيه فوق صدره ويتأملني في ضوء القمر:

– «لا أسئلة عن أين كنت؟»

كانت ندبته تبدو أكثر تهديداً في هذا الضوء، لكني لم أتمكن من العثور على الطاقة لأشعر بالخوف.

أهز كتفيّ وأقول:

– «بصراحة، لا أهتم.»

الحركة تجعل الألم النابض في كتفيّ يشتد. رائع، في الوقت المناسب تماماً للتدريب على القفاز غداً.

يميل رأسه جانباً ويقول:

– «أنتِ حقاً لا تهتمين، أليس كذلك؟»

أتنهد تنهيدة ثقيلة وأقول:

– «كلا. ليس وكأنني لست في الخارج بعد حظر التجول أنا أيضاً.»

يسأل:

– «وما الذي تفعلينه في الخارج بعد حظر التجول، يا طالبة السنة الأولى؟»

أرد بسخرية، عالمة أنه لن يجيبني:

– «أفكر في الهرب. وماذا عنك؟ هل تود مشاركتي؟»

– «الشيء ذاته.»

وغد ساخر.

أرفع يدي إلى كتفي وأديرها، ضاغطة على العضلات المؤلمة، لكن ذلك لم يخفف الألم وأقول:

– «اسمع، هل ستقتلني أم لا؟ الترقب بدأ يثير جنوني بحق الجحيم.»

يجيبني وكأنني سألته عن تفضيلاته في العشاء، لكن نظراته تضيق على وجنتي:

– «لم أقرر بعد.»

أتمتم:

– «حسناً، هل يمكنك ذلك؟ سيساعدني ذلك بالتأكيد في وضع خططي للأسبوع.»

ماركهام أم إيميتيريو. نساخة أم راكبة تنانين.

يقول بابتسامة متكلفة واضحة على شفتيه:

– «هل أؤثر على جدولكِ يا "ڤيولينس"؟»

تتكور يداي في قبضتين وأقول:

– «أنا فقط بحاجة لمعرفة ما هي فرصي هنا.»

يملك الوغد الجرأة ليبتسم ويقول:

– «هذه أغرب طريقة تعرضت فيها للغزل على الإطلاق –»

أصيح:

– «ليس فرصي معك، أيها الوغد المغرور!»

تباً لهذا. تباً لكل هذا. أتجاوزه، لكنه يمسك بمعصمي، قبضته خفيفة لكن ثباته محكم.

لمسات أصابعه على نبضي تجعله يتسارع.

يسألني وهو يجذبني قريباً بما يكفي ليلامس كتفي عضلة ذراعه:

– «فرصكِ في ماذا؟»

أقول:

– «لا شيء.»

لن يفهم. إنه قائد جناح لعين، مما يعني أنه تفوق في كل شيء في القطاع، بل وتمكن بطريقة ما من تجاوز اسم عائلته ذاته.

يكرر، ونبرته المنذرة تتناقض مع قبضته اللطيفة:

– «فرصكِ في ماذا؟ لا تجعليني أسأل ثلاث مرات.»

وتباً، هل يجب أن تكون رائحته زكية إلى هذا الحد؟ كالنعناع والجلد وشيء لا أستطيع تحديده تماماً، شيء يتأرجح بين الحمضيات والأزهار.

أجيب، وأحاول التحرر من قبضته بفتور، لكنه لا يفلتني:

– «في النجاة من كل هذا! لا أستطيع الصعود عبر هذا القفاز اللعين.»

يقول بهدوء يثير الحنق، بينما أعجز أنا حتى عن السيطرة على مشاعري:

– «أفهم.»

– «لا، لا تفهم. من المحتمل أنك تحتفل لأنني سأسقط وألقى حتفي، ولن تضطر لتكبد عناء قتلي.»

يقول:

– «قتلكِ لن يكلفني أي عناء يا "ڤيولينس". تركككِ على قيد الحياة هو ما يبدو أنه يسبب لي الجزء الأكبر من المتاعب.»

تندفع نظراتي لتصطدم بنظراته، لكن وجهه لا يقرأ، ملتحف بالظلال، يا لها من مفاجأة.

أقول بسخرية تقطر من صوتي:

– «عذراً لكوني عبئاً.»

أسحب ذراعي مجدداً، لكنه يمسكني بإحكام، وأتابع:

– «أتعلم ما هي المشكلة في هذا المكان؟»

تضيق عيناي نحوه وهو يسأل:

– «غير كونكِ تلمسين أشياء لا تخصكِ؟»

يلامس إبهامه نبضي ثم يفلت معصمي فتتلوى معدتي، ويقول:

– «أنا واثق من أنكِ ستخبرينني.»

أجيب قبل أن أتمكن من التفكير بالأمر:

– «الأمل.»

يميل رأسه مقترباً من رأسي وكأنه غير متأكد من أنه سمعني جيداً ويسأل:

– «الأمل؟»

أومئ برأسي وأقول:

– «الأمل. شخص مثلك لن يفهم ذلك أبداً، لكني كنت أعلم أن القدوم إلى هنا كان حكماً بالإعدام. لم يهم أنني تدربت طوال حياتي لدخول قطاع النساخين؛ حين تصدر الجنرال سورنجيل أمراً، لا يمكنك تجاهله تماماً.»

يا إلهي، لماذا أثرثر لهذا الرجل؟ ما أسوأ ما قد يفعله؟ يقتلكِ؟

يهز كتفيه ويقول:

– «بالطبع يمكنكِ ذلك. أنتِ فقط قد لا تستسيغين العواقب.»

أُقلّب عينيّ، ولخجلي الشديد، بدلاً من الابتعاد الآن بعد أن تحررت، أميل نحوه قليلاً، وكأنني أستطيع امتصاص بعض قوته. إنه يمتلك ما يكفي ويفيض بالتأكيد.

– «كنت أدرك الاحتمالات، وأتيت على أي حال، مركزة على تلك النسبة الضئيلة من فرصة النجاة. ثم أصمد لما يقرب من شهرين وأصبح...»

أهز رأسي، وأطبق على فكي، ثم أكمل:

– «يحدوني الأمل.»

الكلمة تبدو لاذعة في فمي.

يقول:

– «آه. ثم تفقدين زميلة في الفرقة، وتعجزين عن صعود المدخنة، فتستسلمين. بدأت أفهم. إنها ليست صورة تدعو للفخر، لكن إن كنتِ ترغبين في الهرب إلى قطاع النساخين –»

أشهق، ويخترق الخوف معدتي. أسأل:

– «كيف عرفت بذلك؟»

إن كان يعلم... إن وشى، فداين في خطر.

ترتسم ابتسامة ماكرة على شفتي زايدن المثاليتين ويقول:

– «أنا أعرف كل ما يجري هنا.»

تدور الظلال حولنا ويتابع:

– «الظلال، أتذكرين؟ إنها تسمع كل شيء، ترى كل شيء، تخفي كل شيء.»

يتلاشى بقية العالم من حولنا. بإمكانه أن يفعل بي أي شيء هنا ولن يدرك أحد ذلك.

أقول بصوت خافت:

– «والدتي ستكافئك بالتأكيد إن أخبرتها بخطة داين.»

يرد:

– «كانت لتكافئكِ بالتأكيد لو أخبرتها عن... ماذا أسميته؟ النادي الصغير الخاص بي.»

أقول بنبرة دفاعية:

– «لن أخبرها.»

يقول محتفظاً بنظراته مسمرة على عينيّ:

– «أعلم. ولهذا السبب لا تزالين على قيد الحياة. إليكِ حقيقة الأمر يا سورنجيل. الأمل شيء متقلب وخطير. إنه يسرق تركيزكِ ويوجهه نحو الاحتمالات بدلاً من إبقائه حيث يجب أن يكون – على الفرص الواقعية.»

– «إذن ما الذي يفترض بي فعله؟ ألا آمل في النجاة؟ أكتفي بالتخطيط للموت؟»

يهز رأسه ويقول:

– «يُفترض بكِ التركيز على الأشياء التي يمكن أن تقتلكِ لتجدي طرقاً لعدم الموت. بالكاد أستطيع إحصاء عدد الأشخاص في هذا القطاع الذين يريدون موتكِ، إما انتقاماً من والدتكِ أو لأنكِ ببساطة بارعة في إثارة حنق الناس، لكنكِ لا تزالين هنا، تتحدين الصعاب.»

تلتف الظلال حولي، وأكاد أقسم أنني شعرت بلمسة ناعمة على طول وجنتي المجروحة، ويتابع:

– «لقد كان من المفاجئ حقاً مشاهدة ذلك، في الواقع.»

أقول وأستدير على كعبي متجهة نحو مدخل الثكنات:

– «سعيدة لأنني كنت مصدر تسليتك. أنا ذاهبة للنوم.»

لكنه كان خلفي مباشرة، قريباً بما يكفي لكي يُصفق الباب في وجهه لولا سرعته الخارقة في التقاطه.

ينادي في إثري، ويتردد صدى صوته في الرواق:

– «ربما لو كففتِ عن التمادي في رثاء ذاتكِ، لأدركتِ أنكِ تمتلكين كل ما تحتاجينه لتسلق القفاز.»

أستدير وفكي يتدلى وأسأل:

– «رثاء ماذا؟»

يقول ببطء، ويتصلب فكه قبل أن يأخذ نفساً عميقاً:

– «الناس يموتون. سيحدث ذلك مراراً وتكراراً. إنها طبيعة ما يحدث هنا. ما يجعلكِ راكبة تنانين هو ما تفعلينه بعد أن يموت الناس. أتريدين أن تعرفي لماذا لا تزالين على قيد الحياة؟ لأنكِ المعيار الذي أحكم به على نفسي كل ليلة حالياً. كل يوم أتركُكِ تعيشين فيه، أتمكن من إقناع نفسي بأن هناك جزءاً مني لا يزال شخصاً نبيلاً. لذا إن كنتِ تريدين الاستسلام، فأرجوكِ، وفري عليّ الإغراء واستسلمي بحق الجحيم. لكن إن كنتِ تريدين فعل شيء، فافعليه.»

أهسس متجاهلة احتمال أن يسمعنا أحد:

– «أنا أقصر من أن أتمكن من بلوغِ المسافة!»

يقول:

– «الطريقة الصحيحة ليست الطريقة الوحيدة. جدي حلاً.»

ثم يستدير ويمضي مبتعداً.

تباً. له.

يُعد الاحتفاظ بمتعلقات حبيب راحل إهانة بالغة لـ مالك. إنها تنتمي إلى ما وراء هذا العالم، حيث إله الموت والأرواح الراحلة. وفي غياب معبد لائق، فإن أي نار ستفي بالغرض. ومن لا يُشعل النار تقرباً لـ مالك، فسيحترق بنار مالك.

– دليل الرائد روريلي لاسترضاء الآلهة، الطبعة الثانية



الفصل الحادي عشر

لم تكن الجلسات التدريبية التالية للقفاز أكثر نجاحاً من جلستي الأولى، لكننا على الأقل لم نفقد أي زميل آخر في الفرقة. لقد كف تاينان عن الثرثرة، إذ بدا أنه هو الآخر عاجز عن بلوغ القمة.

الكرات المعلقة هي نقطة ضعفه التي تُسقطه في كل مرة.

والمدخنة هي نقطة ضعفي.

بحلول الجلسة التاسعة – وما قبل الأخيرة – كنت مستعدة لإضرام النار في مسار العقبات بأكمله. الجزء من المسار الذي يُسقطني مصمم لمحاكاة القوة والرشاقة اللازمتين لامتطاء تنين، وبات من الواضح أن حجمي الضئيل سيكون سبب هلاكي.

تهز ريانون رأسها بينما ندرس الشق الصخري الذي أصبح عدوي اللدود وتقول:

– «ربما يمكنكِ التسلق والوقوف على كتفيّ ثم...»

أمسح العرق عن جبهتي وأجيبها:

– «سأظل عالقة في منتصف الطريق حينها.»

يطوي سوير ذراعيه بجانبي، وقد أصبح طرف أنفه أحمر قانياً الآن بفعل شمس الظهيرة الحارقة، ويقول:

– «لا يهم. لا يُسمح لكِ بلمس أي متدرب آخر على طول المسار.»

ترد ريانون بحدة:

– «هل أنت هنا لتحطيم الآمال والأحلام، أم أن لديك اقتراحاً؟ لأن العرض التقديمي غداً، لذا إن كانت لديك أي أفكار لامعة، فهذا هو وقتها.»

إن كنت سأهرب إلى قطاع الناسخين، فالليلة هي ليلتي. يعتصر قلبي ألماً عند هذه الفكرة. إنه الخيار المنطقي. الخيار الآمن. لا يمنعني سوى فكرتان.

الأولى، ليس هناك أي ضمان ألا تكتشف والدتي الأمر. صمت ماركهام لا يعني بالضرورة صمت المعلمين هناك.

لكن الأهم من ذلك، إن ذهبت، إن اختبأت... فلن أعرف أبداً إن كنت جيدة بما يكفي للنجاح هنا. ورغم أنني قد لا أنجو إن بقيت، لست واثقة من قدرتي على التعايش مع نفسي إن رحلت.

***

ينادي الكابتن فيتزجيبونز من على المنصة:

– «دوريا ميريل.»

كل تفصيلة في ملامحه كانت واضحة وضوح الشمس، ليس فقط لأن الشمس مختبئة خلف السحب، بل لأنني أقرب. يتكثف تشكيلنا الطابوري ويضيق مع كل متدرب يسقط.

وفقاً لـ برينان والإحصائيات، سيكون اليوم أحد أكثر الأيام فتكاً بمتدربي السنة الأولى.

إنه يوم العرض التقديمي، وللوصول إلى ساحة الطيران، سيتعين علينا تسلق القفاز أولاً. كل شيء في قطاع راكبي التنانين مصمم للتخلص من الضعفاء، واليوم ليس استثناءً.

يواصل الكابتن فيتزجيبونز القراءة من القائمة:

– «كامرين داير.»

أجفل. كان مقعده يقابل مقعدي في حصة "سلالات التنانين".

– «آرفل بيليبا.»

تأخذ كل من إيموجين وكوين – وكلاهما من السنة الثانية – نفساً عميقاً أمامي. متدربو السنة الأولى ليسوا الوحيدين المعرضين للخطر؛ نحن فقط الأكثر عرضة للموت.

يُغلق الكابتن فيتزجيبونز القائمة ويقول:

– «ميشيل إيفرم. نودع أرواحهم لـ مالك.»

وبهذه الكلمة الأخيرة، ينفض التشكيل الطابوري.

يجبر داين نفسه على الابتسام، ويتجاوزني بنظره تماماً حين ينظر إلى فرقتنا ويقول:

– «متدربو السنتين الثانية والثالثة، إن لم تكونوا مكلفين بمهام القفاز، فتوجهوا إلى الفصول الدراسية. متدربو السنة الأولى، حان الوقت لتُظهروا لنا ما لديكم.»

تُدس إيموجين خصلة متمردة من شعرها الوردي خلف أذنها، وتوجه لي ابتسامة مصطنعة تقطر خبثاً وتقول:

- «آمل ألا تسقطي... أو تقصري عن بلوغ هدفكِ.»

أرد رافعةً ذقني:

- «أراكِ لاحقاً.»

تحدق بي بكراهية تامة للحظة، ثم تمضي مبتعدة مع كوين وسيانا، نائبة قائد جناحنا، وتتراقص خصلات شعرها الأشقر التي تصل إلى كتفيها مع خطواتها.

يربت هيتون - أضخم متدرب سنة ثالثة في فرقتنا، بشعر مزين بخصلات حمراء مقصوصة ومصبوغة على شكل ألسنة لهب - على قلبه، فوق اثنتين من شاراته مباشرة، ويمنحنا جميعاً ابتسامة صادقة لكن بشفتين مزمومتين قبل أن يتوجه إلى الفصل، قائلاً:

- «حظاً موفقاً.»

بينما أُحدق في ظهره المبتعد، أتساءل عن معنى الشارة الدائرية على ذراعه اليمنى العلوية، والتي تحمل رسم ماء وكرات طافية. أعلم أن الشارة المثلثة على يسارها، والتي تحمل سيفاً طويلاً، تعني أنه لا يُستهان به على حلبة القتال. منذ أن أخبرني داين عن الشارة التي ترمز إلى قدرته السحرية السرية للغاية، بتّ أولي اهتماماً وثيقاً للشارات التي يخيّطها المتدربون الآخرون على زيهم الرسمي. يرتديها معظمهم كأوسمة شرف، لكنني أدرك حقيقتها - إنها معلومات استخباراتية قد أحتاجها يوماً ما لهزيمتهم.

يقول ريدوك، وقد ارتسم خطان بين حاجبيه:

- «لم أكن أدرك أن هيتون يعرف كيف يتحدث أصلاً.»

تقول ريانون:

- «ربما ظنوا أنه يجب عليهم على الأقل إلقاء التحية قبل أن نُشوى اليوم.»

يأمر داين:

– «عودوا إلى التشكيل الطابوري.»

أسأله:

– «هل سترافقنا؟»

يومئ برأسه، دون أن ينظر إليّ.

نصطف نحن الثمانية في صفين، كل صف يضم أربعة منا، تماماً كبقية الفرق من حولنا.

تهمس ريانون من جانبي:

– «موقف محرج. يبدو غاضباً منكِ بعض الشيء.»

أختلس نظرة من فوق كتفي ترينا النحيلتين بينما يضرب النسيم الضفيرة التي جدلتها كتاج. كان يعبث أيضاً ببعض خصلات ترينا المجعدة ويحررها. أقول:

– «إنه يريد شيئاً لا يمكنني منحه إياه.»

ترتفع حاجباي ريانون دهشة.

أقلب عينيّ وأقول:

– «ليس... على هذا النحو.»

ترد بصوت خافت:

– «لم أكن لأمانع لو كان الأمر على هذا النحو. إنه وسيم جداً. يتمتع بتلك الهالة الجذابة لفتى الجيران اللطيف الذي لا يزال قادراً على تلقينك درساً قاسياً.»

أجاهد لكبح ابتسامتي لأنها محققة. إنه يتمتع بتلك الهالة حقاً.

يلاحظ ريدوك من خلفنا بينما تبدأ الفرق في أقصى اليسار – من الجناح الأول – بالخروج عبر البوابة الغربية في الفناء:

– «نحن الفرقة الأكبر حجماً.»

يسأل تاينان:

– «كم بلغ عددنا الإجمالي الآن؟ مائة وثمانين؟»

يجيب داين:

– «مائة وواحد وسبعون.»

تبدأ فرق الجناح الثاني بالتحرك، يقودها قائد جناحها، مما يعني أن زايدن متواجد في مكان ما أمامنا.

توتر أعصابي محجوز بأكمله لمسار العقبات، لكني لا يسعني إلا أن أتساءل إلى أي كفة سترجح موازينه اليوم.

تسأل ترينا، والتوتر يقطع كلماتها:

– «لمائة تنين؟ لكن ماذا سنفعل...»

تقاطعها لوكا بحدة من خلف ريانون:

– «توقفي عن السماح للخوف بالتسرب إلى صوتكِ. إن ظنت التنانين أنكِ جبانة، فلن تكوني سوى اسم في قائمة الموتى غداً.»

يعلق ريدوك ساخراً:

– «قالت لوكا، مثيرةً المزيد من الخوف.»

ترد لوكا بحدة:

– «اخرس. أنت تعلم أن هذا صحيح.»

أنحني للأمام حتى لا يتمكن زملاؤنا في الخلف من سماعي بينما يبدأ الجناح الثالث بالتقدم نحو البوابة وأقول:

– «فقط أظهري الثقة، وأنا واثقة من أنكِ ستكونين بخير.»

تهمس ترينا مجيبة:

– «شكراً.»

تلتقي نظرات داين المضيقة بنظراتي أخيراً، لكنه على الأقل لم ينعتني بالكاذبة. رغم أن في عينيه من الاتهام ما يكفي لإدانتي وإصدار حكم عليّ.

أسأل ريانون، مدركة أن دورنا في المناداة قد اقترب:

– «هل أنتِ متوترة يا ري؟»

ترد:

– «بشأنكِ؟ مطلقاً. يمكننا اجتياز هذا.»

أمازحها:

– «أوه، كنت أقصد اختبار التاريخ غداً. لا يوجد ما يدعو للذعر اليوم.»

تبتسم وتقول:

– «الآن وقد ذكرتِ الأمر، معاهدة أريف برمتها قد تكون سبب هلاكي.»

أومئ برأسي متذكرة:

– «آه، الاتفاقية بين نافار وكروفلا بشأن المجال الجوي المشترك المتبادل لكل من التنانين والغريفيون فوق شريط ضيق من جبال إسبن، بين سوميرتون ودرايثوس.»

ترمقني بابتسامة وتقول:

– «ذاكرتكِ مرعبة.»

لكن ذاكرتي لن تصعد بي إلى قمة القفاز.

ينادي زايدن من مكان ما في المسافة:

– «الجناح الرابع! تقدموا!»

لا أحتاج حتى للرؤية لأدرك أنه هو من أصدر الأمر وليس نائبه.

نصطف متقدمين، قسم اللهب أولاً، ثم المخلب، وأخيراً الذيل.

يحدث بعض الازدحام عند البوابة، ثم نعبرها، سائرين في العتمة التي يضيئها السحر في النفق الذي نسلكه كل صباح للوصول إلى القفاز. تكسو الظلال حواف الأرضية الصخرية على طول مسارنا.

ما هي حدود قوة زايدن على أي حال؟ هل يمكنه استخدام الظلال لخنق كل فرقة هنا؟ هل سيحتاج للراحة أو استعادة طاقته بعد ذلك؟ هل تأتي مثل هذه القوة الهائلة مع أي نوعٍ من القيود أو الضوابط؟

يتراجع داين ليمشي بيني وبين ريانون، ويهمس بصوت بالكاد يُسمع:

– «غيري رأيكِ.»

أجيب بصوت بدا أكثر ثقة بكثير مما أشعر به:

– «كلا.»

يبحث عن يدي ويجدها، مستتراً بتشكيلنا الضيق ونحن ننحدر عبر الممر:

– «غيري. رأيكِ. أرجوكِ.»

أهز رأسي وأقول:

– «لا أستطيع. تماماً كما أنك لن تترك كاث وتهرب إلى النساخين.»

يعصر يدي، وأستطيع الشعور بالتوتر يسري في أصابعه وذراعه:

– «هذا مختلف. أنا راكب تنانين.»

أهمس حين يلوح الضوء أمامنا:

– «حسناً، ربما أكون أنا أيضاً كذلك.»

لم أصدق ذلك من قبل، ليس حين كنت عاجزة عن المغادرة لأن والدتي لم تكن لتسمح لي، لكنني الآن أملك الخيار. وأنا أختار البقاء.

يقول:

– «لا تكوني –»

ثم يقاطع نفسه ويفلت يدي، ويضيف:

– «لا أريد أن أدفنكِ يا ڤاي.»

– «من الحتمي أن يدفن أحدنا الآخر يوماً ما.»

الأمر ليس تشاؤماً سوداوياً، إنها مجرد حقيقة.

– «أنتِ تعلمين ما أقصده.»

يتسع الضوء ليُشكل ممراً مقوساً يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام، يقودنا إلى قاعدة القفاز.

يتوسل داين، دون أن يكلف نفسه عناء خفض صوته هذه المرة ونحن نبرز إلى ضوء الشمس المبقع:

– «أرجوكِ لا تفعلي هذا.»

المشهد خلاب كالمعتاد. لا نزال في نقطة مرتفعة على الجبل، على ارتفاع آلاف الأقدام فوق الوادي، وتبدو المساحات الخضراء وكأنها تمتد بلا نهاية نحو الجنوب، مع مجموعات عشوائية من الأشجار القصيرة المكتنزة المتناثرة بين المنحدرات الملونة بالزهور البرية. تتجه نظراتي إلى القفاز المحفور في واجهة الجرف، ولا يسعني إلا أن أتتبع كل عقبة صعوداً تلو الأخرى حتى أجد نفسي أحدق في قمة السلسلة الجبلية التي تُظهر الخرائط التي درستها أنها تؤدي إلى وادٍ مغلق – ساحة الطيران. أعض على شفتي وأنا أُحدق في الانقطاع في خط الأشجار.

في العادة، لا يُسمح إلا لركاب التنانين بالتواجد في ساحة الطيران – باستثناء يوم العرض التقديمي.

يقول داين، جاذباً انتباهي عائداً إلى وجهه القوي الملامح:

– «لا أعرف إن كنت قادراً على المشاهدة.»

كانت لحيته المهذبة بعناية تحيط بشفتيه الممتلئتين والمزمومتين في عبوس.

أقول:

– «إذن أغمض عينيك.»

لدي خطة – خطة مريعة، لكنها تستحق المحاولة.

يسأل داين مجدداً، وفي عينيه ثروة من المشاعر التي أعجز عن البدء في تفسيرها. حسناً، باستثناء الخوف. هذا لا يحتاج إلى أي تفسير:

– «ما الذي تغير بين المتراس الصخري والآن؟»

– «أنا.»

***

بعد ساعة، تحلق قدماي فوق الأعمدة الدوارة للدرج، وأقفز نحو أمان الممر الحصوي. اكتمل الصعود الثالث. لم يتبقَّ سوى اثنان. ولم ألمس حبلاً واحداً حتى الآن.

أكاد أقسم أنني أستطيع الشعور بنظرات داين مثبتة عليّ من أسفل المسار، حيث لم يبدأ تاينان ولوكا تسلقهما بعد، لكنني لا أنظر للأسفل.

لا وقت لمنحه ما يعتقد أنها ستكون النظرة الأخيرة، ولا أستطيع تحمل تأخير مواساته بينما لا تزال أمامي عقبتان.

مما يعني أن هناك عقبة لم يتسنَّ لي حتى فرصة التدرب عليها – المنحدر شبه العمودي في النهاية.

تصرخ ريانون من الأعلى حين أصل إلى التشكيل الصخري للمدخنة:

– «يمكنكِ فعلها!»

يصرخ صوت آخر، جاك بلا شك:

– «أو يمكنكِ إسداء معروف لنا جميعاً والسقوط!»

على الأقل كانت فرقتنا وحدها في الجلسات التدريبية، أما الآن فبإمكان كل متدرب سنة أولى أن يشاهد، إما من قاعدة المسار أو من حواف الجرف في الأعلى.

أرفع نظري إلى العمود المجوف الذي يُفترض بي تسلقه، ثم أتراجع بضعة أقدام على طول الممر.

تصرخ ريانون:

– «ما الذي تفعلينه؟»

بينما أمسك بأحد الحبال وأسحبه أفقياً عبر سطح الجرف، مرسلة الحصى في سقوط حر.

إنه ثقيل بحق الجحيم ويقاوم السحب، لكنني أتمكن من إيصال الجزء السفلي منه إلى هيكل المدخنة. أشد الحبل بأقصى ما أستطيع، وأثبت إحدى قدميّ على جانب العمود المجوف وأعطي الحبل سحبة قوية، ثم أرسل دعاءً إلى زينال بأن تنجح هذه الخطة.

يصيح أحدهم بحدة:

– «هل يُسمح لها بفعل ذلك؟»

أنا أفعله الآن على أي حال.

ثم أرفع قدمي الأخرى وأبدأ بتسلق المدخنة، مستخدمة الجانب الأيمن فقط، ماشية صعوداً على الحجر ومستخدمة الحبل كرافعة لوزني، يداً بيد. ينزلق الحبل في منتصف الطريق تقريباً حين يحتك بصخرة ضخمة، لكنني أتدارك التراخي بسرعة وأواصل التسلق. يقرع قلبي في أذنيّ، لكن يديّ هما ما يقتلني. أشعر وكأن ألسنة لهب تلتهم راحتيّ، فأصر على أسناني كي لا أصرخ.

ها هي ذي. القمة.

بالكاد يلامس الحبل زاوية الهيكل الآن، فأستخدم ما تبقى من قوة الجزء العلوي من جسدي لرفع نفسي، متخبطة للوصول إلى الممر على يديّ وركبتيّ.

يصرخ ريدوك مهللاً من الأعلى:

– «أجل بحق الجحيم! هذه هي فتاتنا!»

تصرخ ريانون:

– «انهضي! لم يتبقَّ سوى واحدة!»

يرتفع صدري ويهبط بقوة، وتؤلمني رئتاي، لكني أنهض على قدميّ. أنا في الصعود الأخير، المسار النهائي نحو ساحة الطيران، وما يقف أمامي هو منحدر مصنوع من الخشب يبرز عشرة أقدام من جدار الجرف، ثم ينحني للأعلى كباطن وعاء، وأعلى نقطة فيه توازي قمة الجرف التي ترتفع عشرة أقدام.

العقبة مصممة لاختبار قدرة المتدرب على تسلق الساق الأمامية لتنين والوصول إلى سرجه. وأنا أقصر من أن أتمكن من ذلك.

لكن كلمات زايدن بأن الطريقة الصحيحة ليست الطريقة الوحيدة ترددت في رأسي مراراً وتكراراً طوال الليل. وبحلول الوقت الذي أشرقت فيه الشمس وطردت الظلام، كانت لدي خطة.

آمل فقط أن أتمكن من تنفيذها حقاً.

أستل أكبر خنجر أحضرته من المنزل، وأمسح العرق عن جبهتي بظهر كفي المتسخ. ثم أتناسى العذاب في يديّ، والألم النابض في كتفيّ، والوخز في ركبتي الناتج عن هبوط خاطئ بعد الأعمدة. أحجب كل الألم، وأحبسه خلف جدار كما فعلت طوال حياتي، وأركز على المنحدر وكأن حياتي تعتمد على اجتيازه.

لا يوجد حبل هنا. هناك طريقة واحدة فقط لتجاوز هذا.

الإرادة اللعينة الخالصة.

وهكذا أندفع، مستغلة سرعتي لصالحي.

يُسمع صوت كقرع الطبول حين تضرب قدماي المنحدر ويزداد الانحدار حدة. لمجرد أنني لم أقهر هذه العقبة بنفسي لا يعني أنني لم أراقب زملائي في الفرقة وهم يتجاوزونها مراراً وتكراراً. أُلقي بجسدي للأمام، وتحملني قوة الاندفاع للأعلى، راكضة صعوداً على جانب المنحدر.

أنتظر حتى أشعر بذلك التحول الثمين، اللحظة التي تستعيد فيها الجاذبية سيطرتها على جسدي على بُعد قدمين تقريباً من القمة، فأرجح ذراعي للأعلى وأغرس خنجري بقوة في الخشب الأملس والناعم للمنحدر – وأستخدمه لأقذف بنفسي القدم الأخير صعوداً.

تتمزق صرخة بدائية من حنجرتي بينما تصرخ كتفي احتجاجاً في اللحظة ذاتها التي تلامس فيها أصابعي حافة القمة. ألقي بمرفقي فوق الحافة لاكتساب مزيد من قوة الرفع، وأسحب نفسي للأعلى متجاوزة إياها، مستخدمة مقبض خنجري كدرجة أخيرة قبل أن أترنح على قمة الجرف.

لم أنتهِ بعد.

أستدير على بطني لمواجهة المنحدر، ثم أمد يدي من فوق الحافة وأنتزع خنجري بقوة، وأعيده إلى غمده عند أضلاعي قبل أن أترنح واقفة على قدميّ. لقد نجحت. يمتص الارتياح الأدرينالين من جسدي دفعة واحدة.

تلتف ذراعا ريانون حولي، حاملةً وزني بينما ألهث بحثاً عن الهواء. يعانقني ريدوك من الخلف، معتصراً إياي وكأنني حشوة شطيرة وهو يصرخ بسعادة. كنت لأحتج، لكنهما في هذه اللحظة هما كل ما يبقيني منتصبة.

يصيح أحدهم:

– «لا يُسمح لها بفعل ذلك!»

يرد ريدوك من فوق كتفه، مرخياً قبضته عني:

– «أجل، حسناً، لقد فعلتها للتو!»

ترتجف ركبتاي، لكنهما تصمدان بينما أستنشق نفساً تلو الآخر.

تأخذ ريانون وجهي بين يديها، والدموع تملأ عينيها البنيتين، وتقول:

– «لقد نجحتِ! لقد نجحتِ!»

أستنشق نفساً آخر وأتوسل لقلبي الراكض أن يهدأ، وأقول:

– «حظ. و.. أدرينالين.»

– «هذا غش!»

ألتفت نحو مصدر الصوت. إنها آمبر مافيس، قائدة الجناح الثالث ذات الشعر الأشقر المائل للفراولة، والتي كانت صديقة مقربة لداين العام الماضي. ولم يكن هناك سوى الغضب يعتلي وجهها وهي تندفع نحو زايدن، الذي كان يقف على بُعد قدمين فقط حاملاً القائمة، يسجل الأوقات بساعة توقيت ويبدو شاعراً بملل شديد من الأمر برمته.

يهدد غاريك، وينعكس ضوء الشمس على السيفين اللذين يبقيهما قائد القسم ذو الشعر المجعد مربوطين بظهره، بينما يضع جسده بين آمبر وزايدن:

– «تراجعي للوراء بحق الجحيم يا مافيس.»

تصرخ آمبر:

– «لقد استخدمت الغشاشة بوضوح مواد أجنبية ليس مرة واحدة بل مرتين! لا يمكن التسامح مع هذا! نحن نعيش بالقواعد أو نموت بها!»

لا عجب أنها وداين مقربان جداً – كلاهما متيمان بـ "الدستور".

يحذر غاريك، ويحجبها كتفاه الضخمان عن الرؤية حين يستدير:

– «لا أتقبل برحابة صدر نعت أي شخص في قسمي بالغشاش. وقائد جناحي سيتولى أمر أي خرق للقواعد في جناحه الخاص.»

يتحرك جانباً، فألتقي بعيني آمبر الزرقاوين الغاضبتين.

يسأل زايدن، رافعاً حاجبه في تحدٍ واضح، وقلمه معلق فوق الدفتر:

– «سورنجيل؟»

ألاحظ، وليس للمرة الأولى، أنه باستثناء شعاري الجناح الرابع وقائد الجناح، فإنه لا يرتدي الشارات التي يغرم الآخرون بعرضها.

أجيب، وتنتظم أنفاسي تدريجياً:

– «أتوقع عقوبة الثلاثين ثانية لاستخدامي الحبل.»

تضيق نظرات آمبر وتسأل:

– «والسكين؟ إنها مستبعدة.»

وحين لا يجيب زايدن، توجه تلك النظرة الغاضبة إليه:

– «بالتأكيد هي خارج المنافسة! لا يمكنك التسامح مع الخروج عن القانون داخل جناحك يا ريورسون!»

لكن نظرات زايدن لا تفارقني قط بينما ينتظر بصمت أن أرد.

أبدأ بالقول:

– «لا يجوز للراكب أن يحضر إلى القطاع سوى الأشياء التي يمكنه حملها

–»

تصرخ آمبر:

– «هل تقتبسين لي من الدستور؟»

أتابع:

– «– ولا يجوز فصله عن تلك الأشياء مهما كانت. فبمجرد حملها عبر المتراس الصخري، تُعتبر جزءاً من شخصه. المادة الثالثة، القسم السادس، الملحق ب.»

تتسع عيناها الزرقاوان بذهول حين ألقي نظرة عليها وأضيف:

– «كُتب ذلك الملحق لجعل السرقة جريمة يُعاقب عليها بالإعدام.»

أومئ برأسي، وأتنقل بنظري بينها وبين العينين الشديدتي السواد اللتين تريان عبري، وأقول:

– «صحيح. لكن بفعله ذلك، منح أي غرض يُحمل عبر المتراس الصخري مكانة كونه جزءاً من الراكب.»

أستل النصل المتشقق والمتهالك مصحوباً بلسعة ألم حادة في راحتيّ وأقول:

– «هذا ليس نصل تحدٍ. إنه نصل حملته عبر المتراس، وبالتالي يُعتبر جزءاً مني.»

تومض عيناه، ولا تفوتني لمحة الابتسامة المتكلفة على فمه المثير للحنق بطريقة مغرية. يجب أن يُدرج في الدستور قانون يمنع أن يكون المرء بهذه الوسامة وهذه القسوة في آن واحد.

استخدمت كلماته ضده:

– «الطريقة الصحيحة ليست الطريقة الوحيدة.»

يبقي زايدن نظراته مسمرة عليّ ويقول:

– «لقد أوقعت بكِ يا آمبر.»

– «بفضل ثغرة قانونية!»

يلتفت قليلاً ويوجه لها نظرة لا أتمنى أن تُوجه إليّ أبداً، ويقول:

– «لا يزال الأمر أنها أوقعت بكِ.»

تصرخ في وجهي:

– «أنتِ تفكرين كنساخة.»

لقد قصدتها كإهانة، لكني أكتفي بالإيماء قائلة:

– «أعلم ذلك.»

تمضي مبتعدة بغضب، فأعيد الخنجر إلى غمده مجدداً، وأترك يديّ تسقطان بجانبي، وأغمض عينيّ بينما يزيل الارتياح الثقل عن كتفيّ. لقد فعلتها. اجتزت اختباراً آخر.

يقول زايدن، فتُفتح عيناي بسرعة:

– «سورنجيل. أنتِ تنزفين.»

وتتجه نظراته بتعمد نحو يديّ.

حيث تتقاطر الدماء من أطراف أصابعي.

ينفجر الألم، مخترقاً سدي العقلي كنهر هائج عند رؤية الفوضى التي أحدثتها براحتيّ. لقد مزقتهما تماماً.

يأمرني:

– «افعلي شيئاً حيال ذلك.»

أومئ برأسي وأتراجع للوراء، منضمة إلى فرقتي. تساعدني ريانون في قطع أكمام قميصي لتضميد يديّ، وأهتف مشجعة لآخر زميلين لنا في الفرقة وهما يتسلقان الجرف.

لقد نجحنا جميعاً.

يوم العرض التقديمي لا يضاهيه يوم آخر. الأجواء تعبق بالاحتمالات، وربما برائحة الكبريت المنبعثة من تنين أُهينت كرامته. لا تنظر قط في عيني تنين أحمر. ولا تتراجع أبداً أمام تنين أخضر. وإن أظهرت أي تردد أمام تنين بني... حسناً، ببساطة لا تفعل.

– الدليل الميداني للعقيد كاوري حول سلالات التنانين



الفصل الثاني عشر

بلغ عددنا ١٦٩ متدرباً بحلول نهاية الصباح، ورغم العقوبة التي نلتها لاستخدامي الحبل، احتلت فرقتنا المرتبة الحادية عشرة من أصل ست وثلاثين فرقة في العرض التقديمي – ذلك الاستعراض المرعب للمتدربين أمام التنانين المستعدة للارتباط هذا العام.

يتملك الرعب ساقيّ لفكرة المشي على مقربة شديدة من تنانين عازمة على اجتثاث الضعفاء قبل يوم التصفية، وأتمنى فجأة لو كنا قد تذيلنا الترتيب.

كان الأسرع في تسلق القفاز هو ليام مايري، بالطبع، مما أكسبه شارة القفاز. أنا شبه واثقة أن ذلك الفتى لا يعرف معنى احتلال المركز الثاني، لكنني لم أكن الأبطأ، وهذا يكفيني تماماً.

يبدو الوادي المغلق الذي يشكل ساحة التدريب خلاباً في شمس الظهيرة، حيث تمتد أميال من المروج المكسوة بألوان الخريف، وترتفع القمم من ثلاث جهات حولنا بينما ننتظر عند أضيق جزء، عند مدخل الوادي. في النهاية، أستطيع تمييز خط الشلال الذي قد لا يعدو كونه جدولاً صغيراً الآن، لكنه سيتدفق بقوة في موسم ذوبان الثلوج.

أوراق الأشجار تتحول جميعها إلى اللون الذهبي، وكأن أحدهم أحضر فرشاة رسم بلون واحد ومررها على امتداد المناظر الطبيعية.

ثم هناك التنانين.

يبلغ متوسط ارتفاعها خمسة وعشرين قدماً، مصطفة في تشكيل خاص بها، وتتراجع بضعة أقدام عن المسار – قريبة بما يكفي لإصدار حكمها علينا أثناء مرورنا.

يقول غاريك وهو يلوح لنا بحركة جعلت أثر التمرد على ساعده العاري يلمع:

– «هيا بنا، الفرقة الثانية، أنتم التالون.»

بقي داين وقادة الفرق الآخرون في الخلف. لست متأكدة ما إذا كان سيشعر بسعادة غامرة لأنني تمكنت من صعود القفاز، أم سيشعر بخيبة أمل لأنني تحايلت على القواعد. لكنني لم أشعر بسعادة أكبر من قبل.

يأمر غاريك بنبرة عملية بحتة:

– «عودوا إلى التشكيل الطابوري.»

الأمر لا يفاجئني، فأسلوبه في القيادة يعتمد على "المهمة أولاً، والمجاملات أخيراً". لا عجب أنه يبدو مقرباً جداً من زايدن. إلا أنه، وعلى عكس زايدن، يزين الجانب الأيمن من زيه بخط مرتب من الشارات التي تعلن أنه قائد

قسم اللهب، إلى جانب أكثر من خمس شارات أخرى تتباهى بمهارته في استخدام مجموعة متنوعة من الأسلحة.

نمتثل للأمر، وينتهي المطاف بي وبريانون بالقرب من المؤخرة هذه المرة.

يُسمع صوت يشبه هبوب ريح عاتية في المسافة، ويتوقف بالسرعة ذاتها التي بدأ بها، فأدرك أن أحدهم قد وُجد غير جدير.

تمرر عينا غاريك العسليتان نظرة سريعة علينا ويقول:

– «آمل أن آيتوس قد أدى عمله، لتدركوا أن هذا مسار مستقيم عبر المرج. أوصيكم بالحفاظ على مسافة سبعة أقدام على الأقل بينكم –»

يغمغم ريدوك من الأمام:

– «تحسباً لأن يُشوى أحدنا.»

يحذرنا غاريك وعيناه تتنقلان بيننا للحظة:

– «بالضبط يا ريدوك. تجمعوا إن شئتم، لكن اعلموا أنه إن لم يرق لأحد التنانين أحدكم، فمن المرجح أن يحرق المجموعة بأكملها ليتخلص من شخص واحد.»

ويتابع:

– «تذكروا أيضاً أنكم لستم هنا للاقتراب منها، وإن فعلتم، فلن تعودوا إلى المهاجع الليلة.»

تسأل لوكا من الصف الأمامي:

– «هل يمكنني طرح سؤال؟»

يومئ غاريك، لكن تشنج فكه يفضح انزعاجه. لا أستطيع لومه. لوكا تثير حنقي أنا أيضاً. حاجتها الدائمة للتقليل من شأن الجميع تجعل معظمنا يفضل البقاء بعيداً عنها.

– «الفرقة الثالثة، قسم الذيل من الجناح الرابع قد مرت بالفعل، ولقد تحدثت إلى بعض المتدربين...»

يرفع غاريك حاجبيه ويقول:

– «هذا ليس سؤالاً.»

أجل، إنه منزعج.

تكمل لوكا وصوتها يرتفع قليلاً:

– «صحيح. الأمر فقط أنهم قالوا إن هناك تنين ذيل ريشي؟»

يهتف تاينان من أمامي مباشرة:

– «ت-تنين ذيل ريشي؟ من بحق الجحيم قد يرغب في الارتباط بتنين ذيل ريشي؟»

أُقلّب عينيّ، وتهز ريانون رأسها.

يقول سوير:

– «البروفيسور كاوري لم يخبرنا قط بوجود تنين ذيل ريشي. وأنا متأكد لأنني حفظت كل تنين عرضه علينا. المائة جميعاً.»

يجيب غاريك وهو ينظر إلينا وكأننا أطفال يود التخلص منهم قبل أن يختلس نظرة من فوق كتفه نحو مدخل الوادي:

– «حسناً، يبدو أن هناك مائة وواحد الآن. استرخوا. تنانين الذيل الريشي لا ترتبط. لا أستطيع حتى تذكر متى كانت آخر مرة شوهد فيها أحدها خارج الوادي. على الأرجح أنه يشعر بالفضول وحسب. حان دوركم. ابقوا على المسار. تمشون صعوداً، تنتظرون الفرقة بأكملها، ثم تمشون نزولاً. الأمر لا يزداد سهولة من الآن فصاعداً يا أطفال، لذا إن كنتم عاجزين عن اتباع هذه التعليمات البسيطة، فأنتم تستحقون كل ما سيحل بكم هناك.»

يستدير ويتجه نحو مسار أمام جدار الوادي حيث تجثم التنانين.

نتبعه، مبتعدين عن حشد متدربي السنة الأولى. تلسع النسمات الباردة كتفيّ العاريين من حيث مزقنا أكمامي لاستخدامها كضمادات، لكننا تمكنا من وقف النزيف في يديّ.

يقول غاريك موجهاً حديثه لقائدة الجناح العليا للقطاع، وهي امرأة رأيتها بضع مرات في الموجز القتالي تهمس لزايدن:

– «إنهم لكِ الآن.»

لا يزال زيها الرسمي يحمل أشواكها المميزة على الكتفين، لكنها ذهبية هذه المرة وتبدو حادة كالجحيم – وكأنها أرادت إضافة لمسة إضافية من الهيبة والرهبة اليوم.

تومئ وتأذن له بالانصراف، ثم تقول:

– «صف واحد.»

نتحرك جميعاً في صف واحد. ريانون خلفي وتاينان أمامي مباشرة، مما يعني أنني سأحظى بشرف الاستماع إلى تعليقاته طوال الوقت بلا شك. رائع.

تأمر القائدة العليا للجناح، عاقدةً ذراعيها فوق صدرها:

– «تحدثوا.»

يمازحها ريدوك:

– «يوم جميل للعرض التقديمي.»

– «ليس بالنسبة لي.»

تُضيّق القائدة العليا للجناح نظرتها نحو ريدوك، ثم تشير إلى طابور المتدربين أمامها وتتابع:

– «تحدثوا مع زملائكم القريبين منكم أثناء المشي على المسار، فهذا سيساعد التنانين على تكوين فكرة عن شخصياتكم ومدى انسجامكم مع الآخرين. هناك ارتباط وثيق بين المتدربين المرتبطين ومستوى ثرثرتهم.»

والآن، بتّ أتمنى لو أستطيع تبديل مكاني.

تضيف:

– «لا تترددوا في النظر إلى التنانين، خاصة إذا كانت تستعرض ذيولها، لكني أنصحكم بتجنب التواصل البصري إن كنتم تقدرون حيواتكم. وإن صادفتم بقعة أرض محترقة، فتأكدوا فقط أن النيران قد خمدت قبل مواصلة طريقكم.»

تتوقف للحظة لتسمح لهذه النصيحة بالاستقرار في أذهاننا، ثم تضيف:

– «أراكم بعد نزهتكم.»

بحركة من يدها، تتنحى القائدة العليا للجناح جانباً، كاشفة عن الممر الترابي الذي يشق طريقه عبر منتصف الوادي. وفي الأمام، تجلس التنانين المائة وواحد التي قررت الارتباط هذا العام، ساكنة تماماً كتماثيل الغرغول.

يبدأ الصف بالتحرك، ونترك المسافة المقترحة البالغة سبعة أقدام بيننا قبل أن نتبعهم.

أنا شديدة الوعي بكل خطوة أخطوها على المسار. الممر صلب تحت حذائي، ورائحة الكبريت تعبق في الأجواء بوضوح.

نمر أولاً بثلاثة تنانين حمراء. مخالبها تعادل نصف حجمي تقريباً.

يصيح تاينان من أمامي:

– «لا أستطيع حتى رؤية ذيولها! كيف يُفترض بنا معرفة سلالتها؟»

أُبقي نظري مركزاً على مستوى أكتافها الضخمة المفتولة العضلات أثناء مرورنا وأرد:

– «ليس من المفترض أن نعرف سلالتها.»

يقول من فوق كتفه:

– «تباً لذلك. يجب أن أعرف أياً منها سأقترب منه خلال يوم التصفية.»

أرد بحدة:

– «أنا شبه واثقة أن هذه النزهة الصغيرة هي ليتسنى لها هي أن تقرر.»

تقول ريانون بصوت خافت بالكاد يصلني:

– «آمل أن يقرر أحدها ألا يُسمح لك ببلوغ يوم التصفية.»

أضحك بينما نقترب من مجموعة من التنانين البنية، كلاهما أصغر قليلاً من 'إيمسير'، تنين والدتي، لكن ليس بفارق كبير.

تقول ريانون، وصوتها يرتفع:

– «إنها أضخم قليلاً مما توقعت. ليس وكأنني لم أرَ التنانين عند المتراس الصخري، لكن...»

أختلس نظرة من فوق كتفي لأرى عينيها المتسعتين تتنقلان بين المسار والتنانين. إنها متوترة.

أسألها بينما نواصل سيرنا متجاوزين حفنة من التنانين البرتقالية:

– «إذن، هل تعرفين إن كنتِ سترزقين بابنة أخ أم ابن أخ؟»

تجيب:

– «ماذا؟»

– «لقد سمعت أن بعض المعالجين يمكنهم التنبؤ بدقة جيدة حين تتقدم المرأة في حملها.»

تقول:

– «أوه. كلا. ليس لدي أدنى فكرة. رغم أنني آمل نوعاً ما أن تنجب فتاة. أظن أنني سأعرف ذلك بمجرد إنهاء العام والسماح لنا بمراسلة عائلاتنا.»

أقول من فوق كتفي، وأخفض نظري فوراً حين تتقاطع نظراتي عرضاً مع أحد التنانين البرتقالية:

– «هذه قاعدة حمقاء.»

تنفسي بشكل طبيعي. ابتلعي الخوف. الخوف والضعف سيودي بحياتي، وبما أنني أنزف بالفعل، فالاحتمالات ليست في صالحي هنا.

تسأل ريانون:

– «ألا تعتقدين أنها تعزز الولاء للجناح؟»

أرد:

– «أعتقد أنني سأكون وفية لشقيقتي سواء تلقيت رسالة منها أم لا. هناك روابط لا يمكن كسرها.»

يقول تاينان وهو يستدير ويبتسم ماشياً للخلف:

– «كنت لأكون وفياً لشقيقتكِ أنا أيضاً. إنها راكبة تنانين مذهلة، ومؤخرتها... رأيتها مباشرة قبل المتراس الصخري، وتباً يا ڤيوليت. إنها مثيرة.»

نمر بجوار مجموعة أخرى من التنانين الحمراء، ثم تنين بني مفرد وزوج من التنانين الخضراء.

أقوم بحركة دائرية بإصبعي وأقول:

– «استدر. ميرا كانت لتأكلك على الإفطار يا تاينان.»

تنساب نظراته على طول جسدي وهو يقول:

– «أنا فقط أتساءل كيف حصلت إحداكما على كل الصفات الجيدة وتبدو الأخرى وكأنها حصلت على الفضلات.»

قشعريرة مقززة تسري في جسدي بأكمله.

أقول رافعة إصبعي الأوسط في وجهه:

– «أنت وغد.»

يستدير ويواصل المشي قائلاً:

– «أقول فقط، ربما أكتب رسالتي الخاصة بمجرد حصولنا على الامتيازات.»

تقول ريانون وكأن المحادثة لم تُقاطع قط:

– «ابن أخ سيكون جيداً أيضاً. الأولاد ليسوا سيئين للغاية.»

نمر بالمزيد من التنانين، وتبدأ أنفاسي بالانتظام. رائحة الكبريت تتلاشى، أو ربما اعتدت عليها وحسب. إنها قريبة بما يكفي لتحرقنا، وعلامات الحرق النصف دزينة تشهد على ذلك، لكنني لا أستطيع سماع أنفاسها أو حتى الشعور بها.

أقول:

– «كان شقيقي رائعاً، لكن هو وداين هما تجربتي الوحيدة مع النمو وسط الصبية الصغار. رغم أنني أعتقد أن داين كان ربما أكثر التزاماً بالقواعد من معظم الأطفال. إنه يحب النظام ويمقت تقريباً أي شيء لا يتناسب تماماً مع خطته. على الأرجح سيبدأ بإلقاء المواعظ عليّ حول كيفية صعودي للقفاز، تماماً كما فعلت آمبر مافيس.»

نتجاوز علامة المنتصف ونواصل السير.

هل الطريقة التي تحدق بها التنانين فينا مرعبة بحق الجحيم؟ بكل تأكيد، لكنها ترغب في التواجد هنا بقدر ما نرغب نحن، لذا آمل على الأقل أن تكون حكيمة في استخدام نيرانها.

تسأل ريانون، والألم يخالط نبرتها:

– «لماذا لم تخبريني عن خطة الحبل؟ أو الخنجر؟ يمكنكِ الوثوق بي، كما تعلمين.»

أجيبها، آخذة الوقت للنظر من فوق كتفي لأتمكن من رؤيتها:

– «لم أفكر في الأمر حتى البارحة. وإن لم تنجح، لم أرد أن تكوني شريكتي في الجريمة. لديكِ مستقبل حقيقي هنا، وأرفض أن أسحبكِ معي إلى الهاوية إن لم أنجح.»

– «لست بحاجة لأن تحميني.»

أهز كتفي وأنا أمشي بجوار ثلاثة تنانين بنية، والصوت الوحيد لبضع دقائق هو صرير أحذيتنا الخافت على الممر الحصوي الداكن:

– «أعلم. لكن هذا ما يفعله الأصدقاء يا ري.»

تسأل ريانون في النهاية:

– «هل تخفين أي أسرار أخرى في جعبتكِ؟»

يستقر الشعور بالذنب في معدتي حين أفكر في زايدن واجتماعه مع بقية الموشومين.

أقول، أشعر بالسوء لكنني أتجنب الكذب على الأقل:

– «أعتقد أنه من المستحيل معرفة كل شيء يمكن معرفته عن شخص ما.»

تطلق ضحكة ساخرة وتقول:

– «إن لم يكن هذا تهرباً من السؤال. ما رأيكِ في هذا؟ عِديني أنكِ إن احتجتِ للمساعدة، فستسمحين لي بتقديمها.»

ترتسم ابتسامة على وجهي رغم التنانين الخضراء المرعبة التي نمر بها. أقول من فوق كتفي:

– «ما رأيكِ في هذا: أعدكِ أنني إن احتجتُ لمساعدة أنتِ قادرة على تقديمها، فسأطلبها، ولكن فقط –»

أرفع سبابتي وأتابع:

– «إن وعدتِني بالمثل.»

تبتسم بابتسامة عريضة وتقول:

– «اتفقنا.»

يسخر تاينان:

– «هل انتهيتما من توطيد علاقتكما هناك؟ لأننا أوشكنا على بلوغ نهاية المسار، إن لم تلاحظا.»

يتوقف في منتصف الممر، وتدور نظراته نحو اليمين ويضيف:

– «وما زلت غير قادر على تحديد أياً منها سأختار.»

أرد عليه:

– «بهذا الغرور، أنا واثقة أن أي تنين سيشعر بأنه محظوظ بمشاركتك عقلك لبقية حياتك.»

أشفق على أي تنين – إن وُجد – قد يختاره.

تجمعت بقية الفرقة أمامنا، مواجهين لاتجاهنا عند نهاية المسار، لكن انتباههم جميعاً كان مركزاً نحو اليمين.

نمر بآخر تنين بني، وأشهق بقوة.

يُحدق تاينان مذهولاً:

– «ما هذا بحق الجحيم؟»

آمره:

– «واصل المشي.»

لكن نظراتي كانت مسمرة.

كان يقف في نهاية الصف تنين ذهبي صغير. ينعكس ضوء الشمس على حراشفه وقرونه وهو ينتصب بكامل طوله، محركاً ذيلاً مكسواً بالريش حول جانب جسده. تنين الذيل الريشي.

يسقط فكي وأنا أستوعب أسنانه الحادة وحركات رأسه السريعة والمندفعة وهو يدرسنا. في أقصى ارتفاع له، ربما يفوقني طولاً ببضعة أقدام فقط، كنسخة مصغرة ومثالية من التنين البني المجاور له.

أمشي مباشرة وأصطدم بظهر تاينان فأجفل. لقد وصلنا إلى نهاية المسار، حيث كانت بقية الفرقة تنتظر.

يهسس تاينان ويدفعني للخلف:

– «ابتعدي عني يا سورنجيل. من بحق الجحيم قد يرتبط بهذا الشيء؟»

ينقبض صدري وأذكره:

– «يمكنهم سماعك.»

تشير لوكا مباشرة إلى التنين، والاشمئزاز يقلص شفتها:

– «إنه أصفر بحق الجحيم. ليس فقط من الواضح أنه أصغر من أن يحمل راكباً في المعركة، بل إنه ليس قوياً بما يكفي ليكون له لون حقيقي حتى.»

يقول سوير بهدوء:

– «ربما هو خطأ. ربما هو تنين برتقالي صغير.»

تُجادله ريانون:

– «إنه مكتمل النمو. من المستحيل أن تسمح التنانين الأخرى لفرخ صغير بالارتباط. لم يسبق لأي إنسان حي أن رأى فرخ تنين.»

ينظر تاينان إلى التنين الذهبي ويسخر:

– «إنه خطأ بكل تأكيد. يجب أن ترتبطي به أنتِ يا سورنجيل. كلاكما ضعيفان بشكل مريب. إنكما ثنائي خُلق لبعضكما في السماء.»

أرد عليه، والحرارة تتورد في وجنتيّ:

– «إنه يبدو قوياً بما يكفي ليحرقك حتى الموت.»

لقد نعتني بالضعيفة، وليس فقط أمام فرقتنا بل أمامهم.

يندفع سوير بيننا، ويمسك بياقة تاينان ويقول:

– «إياك أن تقول ذلك عن زميلك في الفرقة، وخاصة أمام تنانين غير مرتبطة.»

تتمتم لوكا:

– «دعه وشأنه – إنه يقول فقط ما نفكر فيه جميعاً.»

أستدير ببطء لأحدق فيها، وفمي مفتوح قليلاً. هل هذا ما يحدث لنا في اللحظة التي نخرج فيها عن مرمى سمع أي متدرب أعلى رتبة؟ ننقلب على بعضنا البعض.

تقول لوكا مشيرة إلى شعري:

– «ماذا؟ نصف شعركِ فضي وأنتِ... ضئيلة الحجم.»

تنهي كلامها بابتسامة مصطنعة:

– «ذهبي و... صغير. أنتما متطابقان.»

تضع ترينا يدها على ذراع سوير وتهمس:

– «لا ترتكب حماقة أمامهم. نحن لا نعرف ما قد يفعلونه.»

والآن، أصبحنا متجمعين في مجموعة واحدة.

أتراجع للخلف قليلاً بينما يفلت سوير ياقة تاينان.

يهتف تاينان بانفعال:

– «يجب أن يقتله أحد قبل أن يرتبط.»

وللمرة الأولى في حياتي، أرغب حقاً في ركل شخص وهو على الأرض... ومواصلة ركله حتى لا ينهض مجدداً.

يتابع:

– «سيودي بحياة راكبه وحسب، وليس الأمر وكأن لدينا خياراً إن أراد الارتباط بنا.»

يهز ريدوك رأسه ويقول:

– «أنت تدرك ذلك للتو، أليس كذلك؟»

يقترح برايور، وتتنقل نظراته بقلق بين أفراد المجموعة:

– «يجب أن نعود. أعني... إن كنتم تعتقدون أننا يجب أن نفعل. لسنا مجبرين على ذلك بالطبع.»

يقول تاينان وهو يدفع برايور متجاوزاً إياه ليبدأ بالسير على المسار:

– «لمرة واحدة في حياتك، اتخذ قراراً لعيناً يا برايور.»

ننطلق واحداً تلو الآخر، تاركين المسافة المقترحة بيننا.

تتقدمني ريانون هذه المرة ويتبعني ريدوك، بينما تتذيل لوكا المؤخرة.

يقول ريدوك، والذهول في صوته يجعلني أبتسم:

– «إنها مذهلة حقاً، أليس كذلك؟»

أوافقه الرأي:

– «إنها كذلك بالفعل.»

يصل صوت لوكا طوال المسافة إلى ريانون التي تستدير بنظرة مرتابة:

– «بصراحة، إنها مخيبة للآمال قليلاً بعد رؤية ذلك التنين الأزرق عند المتراس الصخري.»

تسأل ريانون:

– «وكأن هذا ليس مرهقاً بما فيه الكفاية دون إهانتكِ لها؟»

يجب أن أنزع فتيل هذا الموقف بسرعة.

أقول:

– «أعني، كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ. كان من الممكن أن نمشي متجاوزين صفاً من تنانين الويفرن، أليس كذلك؟»

ترد لوكا بسخرية:

– «أوه أرجوكِ يا ڤيوليت، تفضلي وامطرينا بواحدة من قصصكِ المليئة بالثرثرة المتوترة. دعيني أحزر. تنانين الويفرن هي فرقة نخبة من راكبي الغريفيون أُنشئت بسبب شيء فعلناه في معركة لا يستطيع تذكره سوى شخص يمتلك عقل نساخ مثلكِ.»

تسأل ريانون، ثم تستأنف المشي:

– «ألا تعرفين ما هو الويفرن؟ ألم يقص عليكِ والداكِ قصص ما قبل النوم يا لوكا؟»

تُردف لوكا بكسل:

– «نوريني إذن.»

أُقلّب عينيّ، وأواصل المشي على المسار قائلة من فوق كتفي:

– «إنها من الفولكلور الشعبي. تشبه التنانين نوعاً ما لكنها أضخم، بقدمين بدلاً من أربع، ولها عُرف من الريش الحاد كالشفرات يمتد على طول أعناقها، وتتغذى على البشر. على عكس التنانين، التي تعتقد أن طعمنا لاذع قليلاً.»

تبتسم لي ريانون وتقول، ولا يسعني إلا أن ألاحظ أن خطواتها أصبحت أخف:

– «كانت أمي تحب إخبار أختي رايجان وأنا أن أحدهم سينتزعنا من على الشرفة الأمامية إن أجبناها بوقاحة، وأن ركاب الفينين ذوي العيون المخيفة سيأخذوننا كأسرى إن أخذنا حلوى لم يُسمح لنا بتناولها.»

خطواتي أصبحت أخف أنا أيضاً. ألاحظ كل تنين نمر به، لكن نبضات قلبي تستقر.

أخبرها:

– «كان والدي يقرأ لي تلك الخرافات كل ليلة. وسألته مرة بجدية إن كانت أمي ستتحول إلى فينين لأنها تستطيع توجيه السحر.»

تضحك ريانون بينما نمر بجوار مجموعة من التنانين الحمراء الغاضبة:

– «هل أخبركِ أنه من المفترض ألا يتحول الناس إلى فينين إلا إذا وجهوا السحر مباشرة من المصدر؟»

– «أجل، لكن ذلك كان بعد أن حظيت والدتي بليلة طويلة جداً حين كنا متمركزين قرب الحدود الشرقية، وكانت عيناها محمرتين كالدم، فذعرت وبدأت بالصراخ.»

لا يسعني إلا أن أبتسم للذكرى وأنا أتابع:

– «لقد صادرت كتابي للخرافات لشهر كامل لأن حراس المخفر الخارجي جاؤوا جميعاً يركضون، وكنت أختبئ خلف أخي، الذي لم يستطع التوقف عن الضحك، و.. حسناً.. كانت فوضى عارمة.»

أبقي عينيّ موجهتين للأمام مباشرة حين يشم تنين برتقالي ضخم الهواء عند مروري.

تهتز كتفا ريانون ضحكاً وتقول:

– «أتمنى لو كان لدينا كتاب كهذا. أعتقد بصدق أن أمي كانت تغير القصص فقط لتخيفنا كلما خرجنا عن الخط.»

تسخر لوكا:

– «هذا يبدو كهراء القرى الحدودية. فينين؟ ويفرن؟ أي شخص يمتلك قدراً ضئيلاً من التعليم يعلم أن تعاويذنا الوقائية توقف كل سحر لا يُوجه مباشرة من التنانين.»

تقول ريانون من فوق كتفها، ولا يسعني إلا أن ألاحظ المسافة الطويلة التي قطعناها:

– «إنها مجرد قصص يا لوكا. برايور، يمكنك المشي أسرع قليلاً إن أردت هناك في الأمام.»

يقترح برايور من أمام ريانون وهو يفرك راحتيه بجانبي زيه:

– «ربما يجب أن نبطئ ونأخذ وقتنا؟ أو أظن أنه يمكننا الإسراع إن أردنا الخروج من هنا.»

يخطو تنين أحمر خارج الصف، ممدًا أحد مخالبه نحونا، وتهوي معدتي إلى الأرض من وطأة الفزع الذي يملأ جسدي بأكمله.

أهمس متجمدة في مكاني، لكن الأوان كان قد فات:

– «لا، لا، لا.»

يفتح التنين الأحمر فمه، كاشفاً عن أنياب حادة ولامعة، وتندلع النيران على جانبي لسانه، متدفقة عبر الهواء وإلى المسار أمام ريانون.

تصرخ ريانون مصدومة.

تلفح حرارة النيران وجهي.

ثم ينتهي الأمر.

تمتلئ رئتاي برائحة الكبريت والعشب المحترق... وشيء آخر محترق، وأرى بقعة أرض متفحمة أمام ريانون لم تكن موجودة من قبل.

أنادي للأمام:

– «هل أنتِ بخير يا ري؟»

تومئ برأسها، لكن حركتها متسرعة ومضطربة.

– «برايور... إنه...»

برايور مات. يسيل لعابي وكأنني سأتقيأ، لكنني أتنفس من أنفي وأزفر من فمي حتى يمر الشعور.

يصرخ سوير من مسافة أبعد على المسار:

– «واصلوا المشي!»

– «لا بأس يا ري. عليكِ فقط أن...»

عليها فقط أن ماذا؟ تمشي فوق جثته؟ هل هناك جثة أصلاً؟

تقول ريانون من فوق كتفها:

– «لقد خمدت النيران.»

أومئ برأسي، لأنه لا يوجد ما يمكنني قوله لطمأنتها.

يا إلهي، كم نحن عديمو الأهمية.

تمشي للأمام وأتبعها، مناورة حول كومة الرماد التي كانت برايور.

تتذمر لوكا:

– «يا إلهي، الرائحة!»

أستدير لأرمقها بنظرة غاضبة وأقول بحدة:

– «هل يمكنكِ التحلي ببعض من الحشمة من فضلك؟»

لكن وجه ريدوك يجعلني أتوقف.

كانت عيناه متسعتين كالصحون، وفمه مفتوحاً:

– «ڤيوليت.»

كانت مجرد همسة، وتساءلت للحظة إن كنت قد سمعته بقدر ما رأيت الكلمة تتشكل على شفتيه.

– « ڤيـ –»

تلفحني نفحة بخار دافئة على مؤخرة عنقي. يقرع قلبي، وتزداد نبضاته باضطراب وأنا آخذ ما قد يكون أنفاسي الأخيرة وأستدير نحو صف التنانين.

تلتقي عيناي الذهبيتان لتنينين أخضرين وليس واحداً، لتستهلك مجال رؤيتي بالكامل.

أوه. تباً.

للاقتراب من تنين أخضر، اخفضي عينيكِ تضرعاً وانتظري موافقته. هذا ما قرأته، أليس كذلك؟

أخفض بصري حين يزفر أحدهما نفساً آخر نحوي. إنه حار ومبلل بشكل مروِع، لكنني لست ميتة بعد، فهذه نقطة إيجابية.

يصدر التنين على اليمين ضحكة مكتومة في أعماق حنجرته. مهلاً، هل هذا هو صوت الموافقة الذي أبحث عنه؟ تباً، أتمنى لو سألت ميرا.

ميرا. ستصاب بانهيار حين تقرأ القوائم.

أرفع رأسي وأشهق شهقة حادة. لقد اقتربا أكثر. يكز التنين على اليسار يديّ بأنفه الضخم، لكنني أتمكن بطريقة ما من الحفاظ على ثباتي، متأرجحة للخلف على كعبيّ لأمنع نفسي من السقوط.

التنانين الخضراء هي الأكثر عقلانية.

أرفع راحتيّ وكأنهما تستطيعان الرؤية عبر القماش الأسود الذي يضمّد جروحي، وأقول:

– «لقد جرحت يديّ أثناء تسلق مسار العقبات.»

يضع التنين على اليمين أنفه مباشرة عند صدري ويزفر مجدداً.

ما. هذا. بحق الجحيم.

يستنشق، مصدراً ذلك الصوت في حنجرته، ويدفع الآخر أنفه نحو أضلاعي، مما يجعلني أرفع ذراعيّ تحسباً لكونهما يشعران بالرغبة في أخذ قضمة صغيرة.

تصرخ ريانون بهمس:

– «ڤيوليت!»

أرد عليها:

– «أنا بخير!»

ثم أتجهم، آملة ألا أكون قد ختمت مصيري بالصراخ في آذانهما.

زفرة أخرى. ضحكة أخرى، وكأنهما يتحدثان مع بعضهما البعض بينما يشمانني.

ينقل التنين الذي تحت ذراعي فتحتي أنفه إلى ظهري ويستنشق مجدداً. أدرك الأمر فأختنق بضحكة متوترة وسريالية.

أسألهما بهدوء:

– «أنتما تشمان رائحة تايرِن، أليس كذلك؟»

يتراجعان كلاهما، بمسافة تكفي فقط لأتمكن من النظر في أعينهما الذهبية، لكنهما يبقيان فكيهما مغلقين، مما يمنحني الشجاعة لمواصلة الحديث.

أقول بينما أخفض ذراعيّ ببطء وأمرر يديّ على سترتي المغطاة بالمخاط والدرع المخيط بعناية بداخلها:

– «أنا شقيقة ميرا، ڤيوليت. لقد جمعت حراشف تايرِن بعد أن طرحها العام الماضي، وقامت بتصغيرها لتتمكن من خياطتها داخل السترة لتساعد في الحفاظ على سلامتي.»

يرمش التنين الذي على اليمين.

يُدخل التنين الذي على اليسار أنفه مجدداً، ويستنشق بصوت عالٍ.

أهمس:

– «لقد أنقذتني الحراشف بضع مرات. لكن لا أحد غيرنا يعلم بوجودها هنا. فقط أنا وميرا وتايرِن.»

يرمشان كلاهما نحوي، فأخفض بصري وأحني رأسي لأن هذا يبدو التصرف الصائب. علمنا البروفيسور كاوري كل الطرق للاقتراب من تنين، لكنه علمنا الصفر من الطرق للابتعاد عنه.

يتراجعان خطوة بخطوة حتى أراهما يتخذان مكانهما في الصف عبر رؤيتي المحيطية، فأرفع رأسي أخيراً.

آخذ عدة أنفاس عميقة، محاولة شد عضلاتي لمنع نفسي من الارتجاف.

كانت ريانون على بعد أقدام قليلة فقط، ونظرة الرعب تعتلي عينيها. لابد أنها كانت خلف رأسيهما مباشرة.

– «ڤيوليت.»

أجبر نفسي على الابتسام وأومئ برأسي قائلة:

– «أنا بخير.»

أهمس لها:

– «لدي درِع من حراشف التنين تحت السترة. لقد شما رائحة تنين شقيقتي.» إن كانت تريد الثقة، فها هي ذي.

أضيف:

– «أرجوكِ لا تخبري أحداً.»

تهمس:

– «لن أفعل. هل أنتِ بخير؟»

أضحك:

– «باستثناء أن بضع سنوات قد اقتُطعت من عمري.»

كان الصوت مرتجفاً، يقترب من الهستيريا.

تزدرد ريقها وتندفع نظراتها نحو صف التنانين:

– «دعينا نخرج من هنا.»

– «فكرة جيدة.»

تستدير وتعود إلى مكانها، وبمجرد أن تصبح المسافة بيننا خمسة عشر قدماً، أتبعها.

يقول ريدوك، ويرتفع صوت ضحكتي أكثر بينما نتحرك عبر الميدان:

– «أعتقد أنني قد تبرزت في سروالي للتو.»

تعلق لوكا:

– «بصراحة، ظننت أنهما سيأكلانكِ.»

أعترف:

– «أنا أيضاً.»

وتتابع:

– «ولم أكن لألومهما.»

يرد ريدوك:

– «أنتِ لا تُطاقين.»

أركز على المسار وأواصل المشي.

تُجادل لوكا:

– «ماذا؟ من الواضح أنها حلقتنا الأضعف بعد برايور، ولا ألومهما على سحقه. لم يكن قادراً قط على اتخاذ قرار، ولا أحد يريد شخصاً كهذا كراكب له –»

تلفحني حرارة لاذعة على ظهري فأتوقف.

أرجوك ألا يكون ريدوك. أرجوك –

يغمغم ريدوك:

– «أعتقد أن التنانين ترى أنها لا تُطاق أيضاً.»

لقد تقلصت فرقتنا إلى ستة متدربين من السنة الأولى.

لا شيء يبعث على التواضع، أو يثير الرهبة، كأن تشهد يوم التصفية... على الأقل بالنسبة لمن ينجون منه.

– الدليل الميداني للعقيد كاوري حول سلالات التنانين



الفصل الثالث عشر

الأول من أكتوبر هو دائماً يوم التصفية.

سواء صادف يوم اثنين، أو أربعاء، أو أحد، لا يهم في أي يوم من أيام الأسبوع يقع في أي عام. في الأول من أكتوبر، يدخل متدربو السنة الأولى من قطاع راكبي التنانين إلى الوادي الحرجي ذي الشكل الوعائي الواقع جنوب غرب القلعة، ويصلون أن يخرجوا منه أحياء.

لن أموت اليوم.

لم أكلف نفسي عناء تناول الإفطار هذا الصباح، وأشفق على ريدوك، الذي يفرغ محتويات معدته الآن بجوار شجرة على يميني.

ثُبت سيف على ظهر ريانون، ومقبضه يرتطم بعمودها الفقري بينما تقفز في مكانها، وتمدد ذراعيها عبر صدرها واحدة تلو الأخرى.

يقول البروفيسور كاوري وهو يقف أمام الـ ١٤٧ متدرباً المتبقين منا، ويربت على صدره:

– «تذكروا أن تنصتوا هنا. إن كان هناك تنين قد اختاركم بالفعل، فسيكون يناديكم.»

يقرع صدره مجدداً ويتابع:

– «لذا، لا تكتفوا بالانتباه لمحيطكم، بل انتبهوا لمشاعركم أيضاً، وانساقوا خلفها.»

يتجهم وجهه ويضيف:

– «وإن كانت مشاعركم تخبركم بالتوجه في الاتجاه المعاكس... فأنصتوا لذلك أيضاً.»

تسأل ريانون بصوت خافت:

– «أياً منها تسعين إليه؟»

أهز رأسي وأقول، عاجزة عن التخلص من شعور الفشل المطلق الذي يثقل صدري:

– «لا أعرف.»

في مثل هذا الوقت، كانت ميرا تعلم يقيناً أنها تريد البحث عن تايرِن.

ترفع حاجبيها وتسأل:

– «لقد حفظتِ البطاقات، أليس كذلك؟ لذا أنتِ تعرفين ما ينتظرنا هناك؟»

– «أجل. لكنني لا أشعر بأي رابط تجاه أي منها.»

وهو أمر أفضل بكثير من الشعور برابط تجاه تنين وضع راكب آخر عينه عليه. لا رغبة لدي في القتال حتى الموت اليوم.

أتابع:

– «حاول داين إقناعي باختيار تنين بني.»

ترد ريانون:

– «لقد فقد داين حقه في إبداء الرأي حين حاول إقناعكِ بالرحيل.»

هناك الكثير من الحقيقة في ذلك. لم أتحدث إليه سوى مرة واحدة خلال اليومين الماضيين منذ العرض التقديمي، وقد حاول إقناعي بالهرب خلال الدقائق الخمس الأولى من حديثنا.

أقول:

– «لم نرَ سوى الأساتذة هذا الصباح، لكني أعلم أن ركاب السنتين الثانية والثالثة متناثرون في أرجاء هذا الوادي للمراقبة. ماذا عنكِ؟»

تبتسم ابتسامة عريضة وتقول:

– «أفكر في ذلك التنين الأخضر. الذي كان الأقرب إليّ حين اقتربا منكِ بشدة.»

أبتسم رغم الخوف الذي يتسابق في عروقي وأقول:

– «حسناً، لم يأكلكِ، لذا فهذه بداية مبشرة.»

– «وأنا أعتقد ذلك أيضاً.»

تشبك ذراعها بذراعي، وأعود للتركيز على ما يقوله البروفيسور كاوري.

يجادل البروفيسور كاوري أحدهم بالقرب من وسط الوادي:

– «إن ذهبتم في مجموعات، فاحتمال أن تُحرقوا حتى الموت أكبر بكثير من احتمال ارتباطكم. لقد أجرى النساخون الإحصائيات. من الأفضل لكم أن تكونوا بمفردكم.»

يسأل رجل ذو لحية قصيرة من يساري:

– «وماذا إن لم نُختر بحلول موعد العشاء؟»

أختلس نظرة من فوق كتفه، فألمح جاك بارلو يمرر إصبعه على عنقه بحركة ذبح موجهة لي. يا له من مبتكر. ثم يحيط به أورين وتاينان من الجانبين.

تباً للولاء للفرقة. اليوم، كل شخص يهتم بنفسه فقط.

يجيب البروفيسور كاوري، وشاربه الكثيف متدلٍ من الطرفين:

– «إن لم تُختاروا بحلول حلول الظلام، فهناك مشكلة. سيُخرجكم أحد الأساتذة أو كبار القادة، لذا لا تستسلموا وتظنوا أننا نسيناكم.»

يتفحص ساعة جيبه ويتابع:

– «تذكروا أن تتفرقوا وتستفيدوا من كل شبر في هذا الوادي لصالحكم. إنها التاسعة، مما يعني أنه يُفترض أن يحلقوا للداخل في أي دقيقة الآن. الكلمات الوحيدة المتبقية لدي لكم هي "حظاً موفقاً".»

يومئ برأسه، ممرراً نظره على حشدنا بكثافة تجعلني أوقن أنه سيكون قادراً على إعادة تجسيد هذه اللحظة في أحد عروضه الوهمية.

ثم يغادر، ماشياً صعوداً على التل إلى يميننا ويختفي بين الأشجار.

يدور عقلي بسرعة. لقد حان الوقت. إما أن أغادر هذه الغابة كراكبة تنانين... أو على الأرجح لن أغادرها أبداً.

تعانقني ريانون وتقول، وضفائرها تتأرجح فوق كتفي بينما تشد ذراعيها حولي:

– «كوني حذرة.»

أعصرها بالمقابل وأقول:

– «وأنتِ كذلك.»

وسرعان ما أُسحب إلى عناق آخر.

يأمرني ريدوك:

– «لا تموتي.»

كان هذا هو هدفنا الوحيد بينما يتفرق ما تبقى من فرقتنا، كل منا يتجه في طريقه وكأننا قُذفنا بقوة الطرد المركزي، تحت رحمة عجلة دوارة.

***

أخمن من موقع الشمس أنه قد مر بضع ساعات على الأقل منذ أن حلقت التنانين فوقنا، وهبطت في الوادي بتتابع بدا كالرعد وجعل الأرض تهتز.

لقد صادفت تنينين أخضرين، وواحداً بنياً، وأربعة برتقالية، و–

يتعثر قلبي وتتسمر قدماي في أرضية الغابة حين يخطو تنين أحمر إلى مجال رؤيتي، ورأسه يلامس بالكاد مظلة الأشجار الضخمة.

هذا ليس تنيني. لست متأكدة كيف عرفت ذلك، لكني أعرف وحسب.

أحبس أنفاسي، محاولة ألا أصدر أي صوت بينما يمسح التنين برأسه يميناً، ثم يساراً، وأهوي بنظري إلى الأرض وأحني رأسي.

خلال الساعة الماضية أو نحو ذلك، رأيت تنانين تنطلق في الهواء تحمل متدرباً – أصبح الآن راكباً – على ظهرها، لكني رأيت أيضاً أكثر من مجرد بضعة أعمدة من الدخان، ولا رغبة لدي البتة في أن أكون أحدها.

يزفر التنين أنفاسه بقوة، ثم يواصل سيره على مساره، فيرتفع ذيله الهراوي للأعلى ويعلق بأحد الأغصان المتدلية المنخفضة. يسقط الغصن على الأرض بصوت تحطم هائل، وفقط بعد أن تبتعد وقع أقدامه أرفع رأسي أخيراً.

لقد صادفت الآن كل لون من ألوان التنانين، ولم يتحدث إلي أي منها أو يمنحني شعور الارتباط الذي يُفترض أن نشعر به.

تهوي معدتي. ماذا لو كنت واحدة من أولئك المتدربين المقدر لهم ألا يصبحوا ركاباً أبداً؟ أولئك الذين يُعادون مراراً وتكراراً لبدء سنتهم الأولى من جديد حتى يُكتب لهم الهلاك يوماً ما في قائمة الموتى؟ هل كان كل هذا هباءً؟

الفكرة أثقل من أن أحتملها.

ربما لو تمكنت من رؤية الوادي بأكمله، فستراودني تلك المشاعر التي تحدث عنها البروفيسور كاوري.

ألمح أقرب شجرة يمكن تسلقها وأبدأ العمل، متسلقة غصناً تلو الآخر. يشع الألم من يديّ، لكني لا أدعه يشتتني. لحاء الشجرة يعلق في الضمادات التي لا تزال تغطي راحتيّ... هذا إزعاج يجعلني أتوقف كل بضعة أقدام لأحرر القماش من اللحاء.

وأنا شبه واثقة من أن الأغصان العليا لن تتحمل وزني، لذا أتوقف عند ثلاثة أرباع الطريق تقريباً إلى القمة وأقوم بمسح للمنطقة المجاورة.

هناك بضعة تنانين خضراء على مرأى البصر إلى يساري، تبرز بوضوح ضد أوراق الخريف. ومن المفارقات العجيبة أن هذا هو الوقت الوحيد من العام الذي تحظى فيه التنانين البرتقالية والبنية والحمراء بأكبر فرصة للتمويه والاندماج مع الطبيعة. أراقب الأشجار بحثاً عن أي حركة وألمح تنينين آخرين مباشرة نحو الجنوب، لكن ليس هناك أي جذب، أو حاجة ملحة للتوجه في ذلك الاتجاه، مما يعني على الأرجح أنهما ليسا لي أيضاً.

يغمرني ارتياح مخجل حين أُحصي ما لا يقل عن نصف دزينة من متدربي السنة الأولى يهيمون بلا هدف. لا ينبغي لي أن أكون سعيدة جداً لأنهم لم يجدوا تنانينهم أيضاً، لكن على الأقل لست الوحيدة، مما يمنحني بصيصاً من الأمل.

هناك مساحة خالية من الأشجار نحو الشمال، وتضيق عيناي حين يلتقط وميض، كمرآة، ضوء الشمس.

أو كتنين ذهبي.

يبدو أن التنين ذي الذيل الريشي الصغير لا يزال هنا في الخارج لإرضاء فضوله. لكنني على ما يبدو لن أجد تنيني فوق شجرة، لذا أهبط بحذر وبهدوء قدر الإمكان. تلامس قدماي الأرض قبل لحظات من اقتراب أصوات، فأدس نفسي خلف الجذع لأختبئ من أن أُرى.

من المفترض ألا نكون في مجموعات.

– «أقول لك، أعتقد أنني رأيته يتجه من هنا.»

إنه صوت متعجرف أتعرف عليه فوراً كصوت تاينان.

– «من الأفضل أن تكون محقاً، لأننا إن سرنا طوال هذه المسافة اللعينة إلى هنا لنجد لا شيء، فسأطعنك وأنهي حياتك.»

تتلوى معدتي. إنه جاك. لا يوجد صوت آخر يملك هذا التأثير الجسدي عليّ، ولا حتى صوت زايدن.

– «هل أنت متأكد من أنه لا ينبغي لنا قضاء وقتنا في البحث عن تنانيننا الخاصة بدلاً من مطاردة ذلك المسخ؟»

يدغدغ التميز حواف عقلي، لكنني أميل من مخبئي للتأكد وحسب. أجل، إنه أورين.

أعود بسرعة للاختباء خلف الشجرة حين يمر الثلاثي، كل منهم يحمل سيفاً فتاكاً. هناك تسعة خناجر مدسوسة في جسدي في أماكن مختلفة، لذا لست منزوعة السلاح تماماً، لكنني أشعر بعجز مأساوي بسبب عدم قدرتي على استخدام سيف بفعالية. إنها ببساطة ثقيلة جداً.

مهلاً... ماذا قالوا إنهم يفعلون؟ يطاردون؟

يقول جاك بحدة:

– «ليس وكأن تنانيننا سترتبط بركاب آخرين. ستنتظرنا. هذا يجب أن يُنجز. ذلك التنين النحيل سيتسبب في مقتل أحدهم. يجب أن نقضي عليه.»

يتلوى الغثيان في معدتي، وتنغرس أظافري في راحتيّ. إنهم سيحاولون قتل التنين الذهبي الصغير.

يعلق أورين:

– «إن أُمسك بنا، فنحن هالكون.»

هذا أقل ما يمكن قوله. لا أستطيع أن أتخيل أن التنانين ستتقبل برحابة صدر فكرة قتل أحد بني جنسها، لكن يبدو أنها تركز على التخلص من الضعفاء في قطيع جنسنا نحن، لذا ليس من المستبعد تخيل أنها تفعل الشيء ذاته مع بني جنسها.

يرد تاينان، ويرتفع صوته بتلك النبرة الساخرة التي تثير رغبتي في لكمه على وجهه:

– «إذن من الأفضل أن تغلق فمك حتى لا يسمعنا أحد.»

يُجادل جاك، وينخفض صوته:

– «إنه لمصلحة الجميع. إنه غير صالح للركوب، مسخ بكل معنى الكلمة، وأنتم تعلمون أن تنانين الذيل الريشي عديمة النفع في القتال. إنها ترفض القتال.»

يتلاشى صوته بينما يبتعدون أكثر، متجهين شمالاً.

نحو المساحة الخالية من الأشجار.

أتمتم بصوت خافت رغم أن الأوغاد قد ابتعدوا عن مرمى السمع الآن:

– «تباً.»

لا أحد يعلم شيئاً عن تنانين الذيل الريشي، لذا لا أعرف من أين يستقي جاك معلوماته، لكن لا وقت لدي للتركيز على افتراضاته الآن.

ليس لدي أي وسيلة للتواصل مع البروفيسور كاوري، ولم يكن هناك حتى تلميح بأن الركاب الأقدمين يراقبوننا، لذا لا يمكنني التعويل عليهم لإيقاف هذا الجنون أيضاً. من المفترض أن يكون التنين الذهبي قادراً على نفث النار، لكن ماذا لو لم يكن كذلك؟

هناك احتمال ألا يجدوه، لكن... تباً، لا أستطيع حتى إقناع نفسي بذلك. إنهم يتجهون في الطريق الصحيح، وذلك التنين أشبه بمنارة لامعة. سيجدونه لا محالة.

تتهدل كتفاي، وأتنهد ناظرة إلى السماء، زافرةً نفساً محبطاً.

لا أستطيع الوقوف هنا مكتوفة الأيدي دون فعل شيء.

يمكنكِ الوصول إلى هناك أولاً وتحذيره.

خطة محكمة، وأفضل بكثير من الخيار الثاني، حيث سأضطر لمواجهة ثلاثة رجال مسلحين يفوقونني وزناً بمائتي رطل على الأقل مجتمعين.

أُبقي خطواتي صامتة وأركض عبر أرضية الغابة بزاوية مختلفة قليلاً عن زمرة جاك الصغيرة، ممتنة لأنني نشأت وأنا ألعب الغميضة مع داين في الغابة. هذا مجال خبرة واحد يمكنني ادعاء البراعة فيه بكل ثقة.

لقد سبقوني، والمساحة الخالية أقرب مما أدركت، لذا أزيد من سرعتي، وتتنقل نظراتي بين المسار المغطى بالأوراق الذي اخترته وبين المكان الذي أعتقد – لا، بل المكان الذي أعلم أنهم فيه نحو اليسار. أستطيع تمييز أشكالهم المتثاقلة في المسافة.

أسمع صوت طقطقة، وتنهار الأرض من تحتي، ثم تندفع نحو وجهي. تمتد يداي للأمام لأحمي نفسي قبل ثانية من الارتطام بأرضية الغابة. أعض على شفتي السفلى لأكتم صرختي بينما يشتعل الألم في كاحلي. الطقطقة ليست علامة جيدة. إنها ليست جيدة أبداً.

أختلس نظرة للوراء، وألعن الغصن الساقط، الذي أخفته أوراق الخريف، والذي حطم كاحلي للتو. تباً.

أحجبي الألم. أحجبيه. لكن لا توجد حيلة عقلية تمنع الألم الحاد من قلب معدتي بينما أسحب نفسي لأجثو على ركبتيّ، وأنهض بحذر، مبقيةً وزني على كاحلي الأيسر.

لا خيار أمامي سوى العرج لقطع الأقدام الاثني عشر الأخيرة نحو المساحة الخالية، ضاغطة على أسناني طوال الطريق. مسحة الرضا بأنني سبقت جاك إلى هنا تكاد تكفي لجعلني أبتسم.

كان المرج كبيراً بما يكفي لعشرة تنانين، ومحاطاً بعدة أشجار ضخمة، لكن التنين الذهبي كان يقف وحيداً في المنتصف، وكأنه يحاول أخذ حمام شمس. إنه جميل تماماً كما أتذكره، لكن ما لم يكن قادراً على نفث النار، فهو فريسة سهلة.

أهمس من خلف حماية الأشجار، مدركة أنه من المفترض أن يكون قادراً على سماعي:

– «يجب أن تخرج من هنا! سيقتلونك إن لم ترحل!»

يلتفت رأسه نحوي، ثم يميل بزاوية تجعل رقبتي أنا تؤلمني.

أهمس بصوت مرتفع:

– «أجل! أنت! يا ذهبي!»

يرمش بعينيه الذهبيتين ويحرك ذيله.

لابد أنك تمزح معي بحق الجحيم.

أهش بيدي نحوه قائلة:

– «اذهب! اركض! طر!»

ثم أتذكر أنه تنين لعين، قادر على تمزيقي بمخالبه وحدها، فأسقط يديّ.

هذا لا يسير على ما يرام. إنه يسير على نحو سيء تماماً.

تحفف الأشجار من الجنوب، ويخطو جاك إلى المساحة الخالية، وسيفه يتأرجح في يده اليمنى. وبعد خطوة، يظهر أورين وتاينان إلى جانبيه، وكلاهما قد استل سلاحه.

أتمتم، وصدري ينقبض:

– «تباً.»

هذا يسير الآن بشكل مروع رسمياً.

يلتفت رأس التنين الذهبي نحوهما بحدة، وتزمجر حنجرته بزمجرة منخفضة.

يعد جاك، وكأن ذلك يجعل القتل مقبولاً:

– «سنجعله موتاً بلا ألم.»

أهمس بصراخ، وقلبي يقرِع بينما يقتربون أكثر:

– «احرقهم.»

لكن التنين لا يفعل، وبطريقة ما، أوقن في قرارة نفسي أنه عاجز عن ذلك. باستثناء أسنانه، هو أعزل أمام ثلاثة محاربين مدربين.

إنه سيموت لمجرد أنه أصغر، وأضعف من التنانين الأخرى... تماماً مثلي. تنغلق حنجرتي.

يتراجع التنين للخلف، ويزداد زمجاره علواً بينما يكشر عن أنيابه.

بينما تضطرب معدتي، يعاودني ذلك الشعور الذي راودني على المتراس الصخري – مهما كان ما سأفعله تالياً، فاحتمالات إنهائه لحياتي هائلة.

ومع ذلك، سأفعله على أي حال، لأن ما يحدث هنا خطأ.

أخطو خطوتي الأولى نحو العشب الذي يبلغ ارتفاعه مستوى قصبة الساق وأقول:

– «لا يمكنكم فعل هذا!»

فيلتفت انتباه جاك نحوي. لكاحلي نبض خاص به، ويسري الألم في عمودي الفقري، جاعلاً أسناني تصطك بينما أُجبر نفسي على تحميل وزني على مفصلي المحطم كي لا يروني أعرج. يجب ألا يعلموا أنني مصابة، وإلا فسيهاجمون بسرعة أكبر.

إن واجهتهم واحداً تلو الآخر، فستكون لدي فرصة لإعاقتهم لوقت كافٍ ليتمكن التنين من الهرب، لكن معاً...

لا تفكري في الأمر.

يبتسم جاك ابتسامة عريضة مشيراً بسيفه نحوي ويقول:

– «أوه، انظروا! يمكننا التخلص من أضعف حلقتين في الوقت ذاته!»

ينظر إلى صديقيه ويضحك، متوقفاً عن التقدم.

كل خطوة تؤلم أكثر من سابقتها، لكنني أصل إلى منتصف المساحة الخالية، واضعةً نفسي بين مجموعة جاك والتنين الذهبي.

يقول وهو يتقدم ببطء:

– «لقد انتظرت هذا طويلاً يا سورنجيل.»

أصيح من فوق كتفي موجهة كلامي للتنين الصغير، وأنا أستل خنجرين من أغمادهما عند أضلاعي:

– «إن كنت تستطيع الطيران، فالآن هو وقت مناسب جداً لذلك.»

يصدر التنين زفرة. مفيد جداً.

أحاول إقناع الثلاثي، وأنا أهز رأسي، والخوف يضخ الأدرينالين في عروقي:

– «لا يمكنكم قتل تنين.»

يهز جاك كتفيه ويقول:

– «بالتأكيد يمكننا ذلك.»

لكن أورين بدا غير واثق بعض الشيء، لذا أثبت نظري عليه بينما يتفرقون قليلاً على بُعد اثني عشر قدماً تقريباً، متخذين التشكيل المثالي للهجوم.

أوجه كلامي مباشرة لـ أورين:

– «لا يمكنك ذلك. هذا يتعارض مع كل ما نؤمن به!»

يجفل أورين. لكن جاك لا يفعل.

يصرخ جاك، وأنا أعلم أنه لا يتحدث عن التنين فحسب:

– «السماح لشيء ضعيف جداً، وعاجز عن القتال بالعيش يتعارض مع معتقداتنا!»

– «إذن سيتعين عليكم المرور عبري أولاً.»

يقرع قلبي ضد أضلاعي بينما أرفع خنجريّ، وأقلب أحدهما لأمسكه من طرفه فأصبح مستعدة لرميه، وأقدر المسافة التي تفصلني عن مهاجمي بنحو عشرين قدماً.

يُزمجر جاك:

– «لا أعتبر ذلك مشكلة حقاً.»

يرفعون جميعاً سيوفهم، فآخذ نفساً عميقاً، وأتأهب للقتال. هذه ليست حلبة القتال. لا يوجد مدربون هنا. لا مجال للاستسلام. لا شيء ليمنعهم من ذبحي... من ذبحنا.

يأمر صوت – صوته هو – من الجهة المقابلة للميدان على يميني:

– «أنصحكم بشدة بإعادة التفكير في أفعالكم.»

توخز فروة رأسي حين تلتفت رؤوسنا جميعاً في اتجاهه.

كان زايدن يستند إلى شجرة، عاقداً ذراعيه فوق صدره، وخلفه، تراقبهما بعينين ذهبيتين مضيقتين وأنياب مكشوفة، تقف سجايل، تنينه الأزرق المرعب ذو الذيل الخنجري.

على مر القرون الستة من التاريخ المدون للتنانين وركابها، سُجلت مئات الحالات المعروفة حيث عجز التنين بكل بساطة عن التعافي العاطفي من فقدان راكبه المرتبط به. يحدث هذا حين تكون الرابطة قوية بشكل استثنائي، بل وفي ثلاث حالات موثقة، أدى الأمر إلى موت التنين قبل الأوان.

– نافار، تاريخ غير منقح، بقلم العقيد لويس ماركهام



الفصل الرابع عشر

زايدن. للمرة الأولى، يملأني مشهده بالأمل. لن يسمح بحدوث هذا. قد يمقتني، لكنه قائد جناح. لا يمكنه الوقوف مكتوف الأيدي ومراقبتهم يقتلون تنيناً.

لكني أعرف القوانين ربما أفضل من أي شخص آخر في هذا القطاع. إنه مضطر لذلك. ترتفع العصارة الصفراوية في حنجرتي، فأرفع ذقني لأكبح حرقتها. ما يريده زايدن، وهو أمر قابل للنقاش دائماً، لا يهم هنا. لا يسعه سوى المراقبة، لا التدخل.

سأحظى بجمهور يشهد موتي. رائع.

تباً للأمل.

يصرخ جاك:

– «وماذا إن لم نرغب في إعادة التفكير في أفعالنا؟»

ينظر زايدن نحوي، وأكاد أقسم أنني أرى فكه يتصلب، حتى من هذه المسافة.

الأمل شيء متقلب وخطير. إنه يسرق تركيزكِ ويوجهه نحو الاحتمالات بدلاً من إبقائه حيث يجب أن يكون – على الفرص الواقعية. تعود كلمات زايدن إليّ بوضوح ينذر بالخطر، فأنتزع نظري عنه وأركز على الفرص الواقعية الثلاث أمامي.

يصيح جاك:

– «لا يوجد ما يمكنك فعله، أليس كذلك؟ أيها القائد؟»

يبدو أنه يعرف القوانين أيضاً.

يرد زايدن، وتميل سجايل برأسها، ولا شيء سوى التهديد في عينيها حين أختلس نظرة إليها:

– «لست أنا من يجب أن تقلقوا بشأنه اليوم.»

أسأل تاينان:

– «هل ستفعل هذا حقاً؟ تهاجم زميلاً في فرقتك؟»

يهسس، والتهديد يلوي شفتيه في ابتسامة خبيثة:

– «الفرق لا تعني شيئاً اليوم.»

– «إذن أفترض أن الطيران غير وارد؟»

ألقي بكلماتي من فوق كتفي مجدداً، فيصدر التنين الذهبي زمجرة منخفضة في حنجرته رداً عليّ.

– «رائع. حسناً، إن كان بإمكانك دعمي بتلك المخالب، سأكون ممتنة حقاً.»

يصمأ مرتين، فألقي نظرة سريعة على مخالبه.

أو بالأحرى... كفوفه.

أقول:

– «أوه، تباً لجحيم. ألا تملك أي مخالب؟»

أستدير عائدة نحو الرجال الثلاثة تماماً حين يطلق جاك صرخة معركة ويندفع نحوي. لا أتردد. أطلق نصلي عبر المسافة التي تتقلص بسرعة بيننا، ويجد الخنجر هدفه في كتف ذراعه التي تحمل السيف. يسقط سيفه حين يهوي على ركبتيه، صارخاً هذه المرة من الألم.

جيد.

لكن أورين وتاينان هجما في الوقت ذاته، وهما يكادان يصلان إلي. أطلق خنجري الثاني نحو تاينان وأصيبه في فخذه، مبطئة إياه لكن دون إيقافه.

يأرجح أورين سيفه نحو رقبتي فأنخفض، مستلة نصلاً آخر وقاطعة إياه على طول أضلاعه تماماً كما فعلت أثناء تحدينا. لن يسمح لي كاحلي بالركل، أو حتى بتسديد لكمة محكمة، لذا فالأمر يعتمد على نصالي.

يتعافى بسرعة ويدور ملوحاً بسيفه، مصيباً إياي في بطني بقطع نظيف كان ليبقر أحشائي لولا درع ميرا. بدلاً من ذلك، ينزلق النصل فوق الحراشف منسلاً عني.

تتسع عينا أورين:

– «ما هذا بحق الجحيم؟»

يصرخ جاك، مترنحاً للوقوف على قدميه ومشتتاً انتباه الآخرين:

– «لقد حطمت كتفي! لا أستطيع تحريكه!»

يمسك بمفصله، فأبتسم.

أقول وأنا أقبض على نصل آخر:

– «هذا هو المزعج في امتلاك مفاصل ضعيفة. أنك تعرف بالضبط أين تسدد ضربتك.»

يأمر جاك، ولا يزال ممسكاً بكتفه بينما يتراجع بضع خطوات، ثم يستدير ويركض في الاتجاه المعاكس، مختفياً بين خط الأشجار في لمح البصر:

– «اقتلوها!»

جبان لعين.

يطعن تاينان بسيفه فأستدير مبتعدة، ويسلب ألم حارق بصري للحظة قبل أن أضرب للخلف، غارسة خنجري في جانبه، ثم ألتف، دافعة مرفقي لأعلى نحو ذقن أورين حين يهاجم، مسببة ارتجاجاً في رأسه.

يصرخ تاينان ضاغطاً بكفه على جانبه النازف:

– «أيتها العاهرة اللعينة!»

أرد مستغلة تعبير أورين المذهول لأقطع وركه:

– «يا لها من إهانة... مبتكرة!»

لكن حركتي تلك كلفتني غالياً، وتتمزق صرخة من حنجرتي حين يقطع سيف تاينان أعلى ذراعي اليمنى، على امتداد العظم.

يمنعه الدرع من اختراق أضلاعي، لكنني أعلم أنني سأُصاب بكدمة مروعة غداً بينما أنتزِع نفسي مبتعدة، والدم يتدفق بحرية وأنا أُبعد نفسي عن السيف.

يصرخ زايدن:

– «خلفكِ!»

أستدير لأرى سيف أورين مرفوعاً عالياً، مستعداً لفصل رأسي عن كتفيّ، لكن التنين الذهبي يطبق بفكيه فيترنح أورين جانباً وعيناه ممتلئتان بالرعب، وكأنه أدرك للتو أنه يمتلك أسناناً.

أتفادى ضربته وأضرب بمقبض نصلي قاعدة جمجمته. ينهار فاقداً الوعي، ولا أنتظر لأراه يسقط قبل أن أستدير عائدة نحو تاينان، الذي كان سيفه الملطخ بالدماء جاهزاً.

يصرخ تاينان موجهاً حديثه لزايدن:

– «لا يُسمح لك بالتدخل!»

لكني لا أجرؤ على إبعاد نظري عن خصمي لوقت كافٍ لأرى كيف سيتفاعل قائد الجناح.

يرد زايدن بحدة:

– «كلا، لكني أستطيع التعليق.»

من الواضح أنه في صفي هنا، وهو ما يربكني بحق الجحيم، إذ كنت على يقين تام بأنه يرغب في موتي أكثر من أي شيء آخر. لكن ربما ليست حياتي هي ما يحميها بل حياة التنين الذهبي.

أختلس نظرة سريعة. أجل، سجايل تبدو غاضبة. يتموج رأسها بحركة أفعوانية – في علامة واضحة على الانزعاج – وعيناها الذهبيتان المضيقتان مصوبتان نحو تاينان، الذي يحاول الآن الدوران حولي وكأننا على حلبة القتال، لكني لن أسمح له بالوقوف بيني وبين التنين الذهبي الصغير.

يهسس تاينان، ووجهه شاحب ومتعرق:

– «ذراعكِ مدمرة يا سورنجيل.»

– «أنا معتادة على العمل تحت وطأة الألم أيها الوغد. فهل أنت كذلك؟»

أرفع الخنجر في يدي اليمنى لأثبت قدرتي على ذلك رغم الدماء التي تسيل على ذراعي وتتقاطر من طرف نصلي، مشبعة الضمادة التي تلف راحتي. أُخفض نظري بشكل ذي مغزى نحو جانبه.

– «أنا أعرف تماماً أين طعنتك. إن لم تصل إلى معالج قريباً، فستنزف حتى الموت داخلياً.»

يُشوه الغضب ملامحه، ويتحرك ليسدد ضربته.

أحاول رمي سكيني نحوه، لكنه ينزلق من يدي الملطخة بالدماء ويسقط بضربة مكتومة في العشب على بُعد أقدام قليلة.

وأوقن أن تظاهري بالشجاعة لن يكون كافياً لإنقاذي الآن.

ذراعي مدمرة. ساقي مدمرة. لكن على الأقل أجبرت جاك بارلو على الهرب قبل أن أموت.

كفكرة أخيرة، هذا ليس سيئاً للغاية.

وبينما يرفع تاينان سيفه بكلتا يديه، متأهباً لتسديد الضربة القاضية، ألمح حركة على يميني. إنه زايدن. وتجاهلاً لكل القوانين، يتقدم للأمام وكأنه يعتزم منع تاينان من قتلي.

بالكاد يتسنى لي لحظة لاستيعاب صدمتي من أن زايدن قد ينقذني يوماً، لأي سبب كان، حين تضربني عاصفة من الرياح في ظهري، فأترنح للأمام محملة وزني على كاحلي المحطم، ملقية ذراعيّ للحفاظ على توازني ومكشرة من الألم الحاد.

يتدلى فك تاينان ويترنح للخلف، ويميل رأسه للوراء لدرجة أنه يكاد يكون عمودياً على جذعه. يغلفنا الظل كلانا بينما يواصل التراجع.

وبينما يعلو صدري ويهبط، وتتوسل رئتاي للحصول على الهواء، أختلس نظرة من فوق كتفي لأرى سبب تراجع تاينان.

ويهوي قلبي في صدري.

حيث يقف التنين الذهبي محتمياً تحت جناح أسود ضخم تملؤه الندوب، ينتصب أضخم تنين رأيته في حياتي – التنين الأسود غير المرتبط الذي عرضه علينا البروفيسور كاوري في الفصل. أنا لا أكاد أصل إلى كاحله حتى.

تتردد زمجرة في صدره، وتهز الأرض حولي بينما يخفض رأسه العملاق، كاشفاً عن أسنان تقطر لعاباً.

يسري الخوف في كل خلية من خلايا جسدي حين تلفحني أنفاسه الحارة.

يأمر صوت عميق، أجش، وذكوري بوضوح:

– «تنحي جانباً، أيتها الفضية.»

أرمش بعيني. مهلاً. ماذا؟ هل تحدث إليّ للتو؟

– «أجل. أنتِ. تحركي.»

لا مجال للجدال في نبرته البتة، فأعرج مبتعدة إلى الجانب، متعثرة بجثة أورين الفاقد للوعي بينما يطلق تاينان صرخة ويركض، هارباً نحو الأشجار.

تضيق عينا التنين الأسود ليحدق بغضب نحو تاينان ويفتح فمه واسعاً لثانية قبل أن تنطلق النيران عبر الميدان، لافحة حرارتها جانب وجهي ومحولة كل ما في طريقها إلى رماد... بما في ذلك تاينان.

تطقطق ألسنة اللهب عند حواف المسار المتفحم، وأستدير ببطء لمواجهة التنين، متسائلة إن كنت سأكون التالية.

تتأملني عيناه الذهبيتان العملاقتان، لكنني أثبت في مكاني، رافعة ذقني للأعلى.

– «كان يجب أن تنهي حياة العدو عند قدميكِ.»

ترتفع حاجباي بحدة. فمه لم يتحرك. لقد تحدث إليّ، لكن... فمه لم يتحرك. أوه تباً. لأنه في عقلي. أهز رأسي، رغم أنني لست واثقة ما إذا كان ذلك احتجاجاً على اقتراحه أم نتيجة لذهولي وأرد:

– «لا أستطيع قتل رجل فاقد للوعي.»

– «كان ليقتلكِ إن سنحت له الفرصة ذاتها.»

أختلس نظرة للأسفل نحو أورين، الذي لا يزال فاقداً للوعي في العشب بجوار قدميّ. ليس وكأنني أستطيع مجادلة هذا التقييم الدقيق. أرد:

– «حسناً، هذا يعبر عن شخصيته هو. وليس شخصيتي.»

يكتفي التنين بالرمش رداً عليّ، ولا أستطيع الجزم تماماً إن كان ذلك أمراً مبشراً أم لا.

تومض ومضة زرقاء في زاوية عيني، يليها اندفاع هواء حين ينطلق زايدن وسجايل محلقين، تاركيني هنا مع التنين الأسود العملاق والتنين الذهبي الصغير. يبدو أن قلق زايدن اللحظي على حياتي قد انتهى.

تتسع فتحتا أنف التنين العملاقتان:

– «أنتِ تنزفين. أوقفي ذلك.»

ذراعي.

أهز رأسي مجدداً وأقول:

– «الأمر ليس بهذه البساطة حين يُطعن المرء بـ...»

هل أجادل تنيناً حقاً؟ هذا سريالي بحق الجحيم.

– «أتعلم؟ إنها فكرة رائعة.»

أنجح في قطع ما تبقى من كم قميصي الأيمن وألفه حول الجرح، ممسكة بأحد طرفي القماش بأسناني بينما أربطه بقوة للضغط على الجرح وإبطاء النزيف.

– «ها قد فعلت. هل هذا أفضل؟»

يميل رأسه نحوي ويقول:

– «سيفي بالغرض. يداكِ مضمدتان أيضاً. هل تنزفين كثيراً؟»

– «أحاول ألا أفعل.»

يسخر:

– «هيا بنا، ڤيوليت سورنجيل.»

يرفع رأسه، ويطل التنين الذهبي من تحت جناحه.

أحدق فيه بذهول وأسأل:

– «كيف تعرف اسمي؟»

يتنهد، وعصفة أنفاسه تهز الأشجار ويقول:

– «ولكم ظننت أنني كدت أنسى مدى ثرثرة البشر. امتطي ظهري.»

أوه. تباً. إنه يختار...ني.

أكرر كالببغاء اللعين:

– «أمتطي ظهرك؟ هل رأيت نفسك؟ هل لديك أدنى فكرة عن مدى ضخامتك؟»

سأحتاج إلى سلم لعين لأصعد إلى هناك.

النظرة التي يرمقني بها لا يمكن وصفها إلا بالانزعاج:

– «لا يعيش المرء قرناً من الزمان دون أن يدرك تماماً الحيز الذي يشغله. الآن اصعدي.»

يتحرك التنين الذهبي من تحت حماية جناح التنين الكبير. إنه ضئيل مقارنة بالوحش الماثل أمامي، ويبدو أعزلاً تماماً باستثناء تلك الأسنان، كجرو لعوب.

أقول:

– «لا يمكنني تركه هكذا وحسب. ماذا لو أفاق أورين أو عاد جاك؟»

يزفر التنين الأسود زفرة خفيفة.

ينحني التنين الذهبي، ويثني ساقيه، ثم ينطلق نحو السماء، وأجنحته الذهبية تلتقط ضوء الشمس وهو يحلق مبتعداً، ملامساً قمم الأشجار.

إذن بإمكانه الطيران. كان ليكون من الجيد معرفة ذلك قبل عشرين دقيقة.

يُزمجر التنين الأسود، مهتزاً بالأرض والأشجار عند حافة الميدان:

– «اصعدي. فوراً.»

أجادله:

– «أنت لا تريدني. أنا –»

– «لن أكرر كلامي مرة أخرى.»

الرسالة وصلت.

يُحكم الخوف قبضته على حنجرتي وأنا أعرج نحو ساقه. هذا ليس كتسلق شجرة. لا توجد مقابض لليدين، لا مسار سهل، مجرد سلسلة من الحراشف الصلبة كالحجر التي لا توفر لي موطئ قدم تماماً. كاحلي وذراعي لا يساعدانني أيضاً. كيف بحق الجحيم سأصعد إلى هناك؟ أرفع ذراعي اليسرى وأستنشق نفساً عميقاً قبل أن أضع يدي على ساقه الأمامية.

الحراشف أكبر وأسمك من يدي ودافئة بشكل مدهش عند لمسها. تتراكب فوق بعضها البعض بنمط معقد لا يترك مجالاً للتشبث.

– «أنتِ راكبة تنانين، أليس كذلك؟»

– «هذا يبدو قابلاً للنقاش في الوقت الحالي.»

يقرِع قلبي. هل سيشويني حية لأنني أبطأ من اللازم؟

تتردد زمجرة منخفضة ومحبطة في صدره، ثم يصدمني حتى النخاع حين يمتد للأمام، لتتحول ساقه الأمامية إلى منحدر. التنانين لا تخضع لأحد أبداً، ومع ذلك، ها هو ينحني ليُسهل عليّ التسلق. المنحدر شديد الانحدار لكنه قابل للتسلق.

لا أتردد، وأزحف صعوداً على ساقه الأمامية مستندة إلى يديّ وركبتيّ لأوازن وزني وأجنب كاحلي الضغط، لكن الإجهاد على ذراعي يجعلني ألهث بحلول الوقت الذي أتسلق فيه كتفه وأصل إلى ظهره، متفادية الأشواك المدببة التي تتموج على طول معظم رقبته كعُرف.

يا إلهي. أنا على ظهر تنين.

– «اجلسي.»

أرى المقعد – التجويف الأملس والمكسو بالحراشف، أمام أجنحته مباشرة – وأجلس، ثانيةً ركبتيّ كما علمنا البروفيسور كاوري. ثم أقبض على التلال السميكة من الحراشف التي نطلق عليها اسم 'القربوس'، حيث تلتقي رقبته بكتفيه. كل شيء فيه أضخم من أي نموذج تدربنا عليه. جسدي غير مهيأ للبقاء على ظهر أي تنين، ناهيك عن واحد بهذا الحجم. من المستحيل أن أتمكن من البقاء جالسة. هذه ستكون أول وآخر رحلة في حياتي.

– «اسمي تايرِنانيش، ابن مورتكويديام وفياكلانفويل، المنحدر من سلالة دوبهادين الماكرة.»

ينتصب بكامل طوله، جاعلاً إياي في مستوى نظر مظلة الأشجار المحيطة بالميدان، وأضغط بفخذيّ بقوة أكبر قليلاً.

– «لكني لن أفترض أنكِ ستتمكنين من تذكر ذلك بمجرد وصولنا إلى الميدان، لذا 'تايرِن' سيفي بالغرض حتى أضطر حتماً لتذكيركِ به.»

أستنشق نفساً سريعاً، لكن لا وقت لدي لاستيعاب اسمه – وتاريخه – قبل أن ينحني قليلاً ويطلقنا نحو السماء.

أشعر وكأنني حجر قُذف من منجنيق، باستثناء أن الأمر يتطلب كل أوقية من قوتي للبقاء على هذا الحجر بالذات.

– «تباً بحق الجحيم!»

تتلاشى الأرض من تحتنا بينما نحلق، وأجنحة تايرِن الهائلة تضرب الهواء وتخضعه، مندفعة للأعلى.

يرتفع جسدي عن ظهره، فأغرس يديّ، محاولة البقاء متشبثة، لكن الرياح، الزاوية، كل ذلك كان أكثر من اللازم، وقبضتي تتعثر.

تنزلق يداي.

– «تباً!»

أتخبط بحثاً عن أي موطئ، وتخدش يداي ظهر تايرِن بينما أنزلق متجاوزة أجنحته، مقتربة بسرعة من الحراشف الحادة لذيل النجمة الصباحية (صالب الدمار) الخاص به.

– «لا، لا، لا!»

ينحرف نحو اليسار وكل أمل كان لدي في العثور على مقبض للتشبث يسقط معي.

أنا في سقوط حر.

لا شيء يبعث على التواضع، أو يثير الرهبة، كأن تشهد يوم التصفية... على الأقل بالنسبة لمن ينجون منه.

– الدليل الميداني للعقيد كاوري حول سلالات التنانين



الفصل الخامس عشر

يُسد الرعب حنجرتي ويجعل نبضات قلبي تتعثر. يندفع الهواء متجاوزاً إياي بينما أهوي نحو التضاريس الجبلية بالأسفل، وتلتقط الشمس حراشف التنين الذهبي بعيداً تحتي.

سأموت. هذه هي النتيجة الوحيدة الممكنة.

تُطبق ملازم حول أضلاعي وفوق كتفيّ، لتوقف سقوطي، وينتفض جسدي بقوة الارتداد العنيف حين أُجذب للأعلى مجدداً.

– «أنتِ تجعلين مظهرنا يبدو سيئاً. توقفي عن ذلك.»

أنا محتجزة بين مخالب تايرِن. لقد... أمسك بي حقاً بدلاً من اعتباري غير جديرة وتركي لأسقط وألقى حتفي.

أصرخ للأعلى:

– «ليس الأمر وكأنه من السهل البقاء على ظهرك وأنت تؤدي حركات بهلوانية!»

يختلس نظرة إليّ للأسفل، وأكاد أقسم أن الحافة فوق عينه قد تقوست.

– «الطيران البسيط بالكاد يُعد حركات بهلوانية.»

– «لا يوجد شيء بسيط فيك على الإطلاق!»

ألف ذراعيّ حول مفاصل مخالبه، ملاحظة أن براثنه الحادة تلتف بأمان حول جانبي جسدي. إنه هائل الحجم، لكنه حذر أيضاً وهو يطير بنا محاذياً الجبل.

إنه أحد أكثر التنانين فتكاً في نافار. درس البروفيسور كاوري. ماذا قال أيضاً؟ التنين الأسود الوحيد غير المرتبط لم يوافق على الارتباط هذا العام. لم يُرَ حتى في السنوات الخمس الماضية. مات راكبه في الثورة التايرينية.

يؤرجحني تايرِن للأعلى ثم يفلتني، مرسلاً إياي أطير عالياً فوقه، فأتخبط في الهواء. تهوي معدتي عند بلوغ أقصى ارتفاع لقذفته، ثم أسقط لنبضتي قلب قبل أن يندفع تايرِن للأعلى، ملتقطاً إياي على ظهره بين جناحيه.

يُزمجر:

– «الآن اجلسي في المقعد وتشبثي بحق هذه المرة، وإلا فلن يصدق أحد أنني اخترتكِ حقاً.»

– «أنا نفسي لا أزال غير مصدقة أنك اخترتني!»

كاد عقلي يغريني بإخباره أن العودة إلى المقعد ليست بالسهولة التي يلمح إليها، لكنه يستوي في طيرانه وتلتقط أجنحته الهواء في انزلاق لطيف، شاقاً طريقه عبر مقاومة الرياح. أزحف على ظهره إنشاً بإنش حتى أصل إلى المقعد وأستقر فيه مجدداً. أتشبث بنتوءات ظهره بقوة لدرجة أن التشنج يصيب يديّ.

– «سيتعين عليكِ تقوية ساقيكِ. ألم تتدربي؟»

يسري السخط في عمودي الفقري.

– «بالطبع تدربت!»

– «لا داعي للصراخ. أستطيع سماعكِ بوضوح تام. الجبل بأكمله يستطيع سماعكِ على الأرجح.»

هل كان تنين كل شخص عبارة عن عجوز متذمر؟ أم أن هذا حظي أنا وحدي؟

تتسع عيناي ذهولاً. أنا أمتلك... تنيناً. وليس مجرد أي تنين. أنا أمتلك تايرِنانيش.

– «تشبثي بقوة أكبر بركبتيكِ. بالكاد أستطيع الشعور بكِ هناك في الخلف.»

أضغط بركبتيّ للداخل وترتجف عضلات فخذيّ حين ينعطف يساراً:

– «أنا أحاول.»

كان انعطافه ألطف هذه المرة من سابقتها، ولم تكن زاويته شديدة الانحدار وهو يغير مساره في قوس واسع، عائداً بنا نحو باسجيات.

– «أنا فقط... لست بقوة الركاب الآخرين.»

– «أنا أعرف بالضبط من أنتِ وما أنتِ عليه، يا ڤيوليت سورنجيل.»

ترتجف ساقاي حتى تنقفلان، وتتجمد العضلات في مكانها وكأن أربطة قد لُفت حولها، لكن دون أي ألم. أختلس نظرة من فوق كتفي وأرى ذيل النجمة الصباحية خاصته، على بُعد ما يبدو كأميال خلفنا. إنه هو من يفعل هذا. إنه يثبتني في مكاني.

يستقر الشعور بالذنب في معدتي. كان ينبغي لي أن أركز أكثر على تمارين تقوية ساقيّ. كان ينبغي لي أن أمضي وقتاً أطول في إعداد نفسي لهذا. لا ينبغي له أن يضطر لتبديد طاقته في إبقاء راكبته في مقعدها.

– «أنا آسفة. أنا فقط لم أعتقد أنني سأبلغ هذا المدى.»

تتردد زفرة عالية عبر عقلي:

– «وأنا أيضاً لم أعتقد أنني سأبلغ هذا المدى، لذا نحن نتشارك في هذا الأمر.»

أعتدل في جلستي وأنظر عبر المناظر الطبيعية، بينما تنتزع الرياح الدموع من زوايا عينيّ. لا عجب أن معظم الركاب يختارون ارتداء نظارات واقية. هناك ما لا يقل عن دزينة من التنانين في الهواء، كل منها يُخضع راكبه لاختبار من الانخفاضات والانعطافات. تنانين حمراء، برتقالية، خضراء، وبنية، السماء مرقطة بالألوان.

يضطرب قلبي حين أرى راكباً يسقط من على ظهر تنين أحمر ذي ذيل سيفي، وعلى عكس تايرِن، لا ينخفض التنين لالتقاط متدرب السنة الأولى. أشيح بنظري بعيداً قبل أن يرتطم الجسد بالأرض.

إنه ليس شخصاً تعرفينه. هذا ما أُخبر به نفسي. ريانون، ريدوك، ترينا، سوير... جميعهم على الأرجح قد ارتبطوا بأمان وينتظرون بالفعل في الميدان.

– «سيتعين علينا تقديم عرض مبهر.»

– «رائع.» الفكرة أبعد ما تكون عن الروعة.

– «لن تسقطي. لن أسمح بذلك.»

تمتد الأربطة حول ساقيّ لتصل إلى يديّ، وأشعر بنبض طاقة خفية.

– «ستثقين بي.»

هذا ليس سؤالاً. إنه أمر.

– «دعنا نُنهي الأمر إذن.»

لا أستطيع تحريك ساقيّ، أو أصابعي، أو يديّ، لذا لا يسعني سوى الجلوس والاسترخاء وأمل أن أستمتع بأي جحيم هو بصدد إخضاعي له.

تضرب أجنحته الهواء بقوة هائلة، فنندفع صعوداً في ما يبدو كتسلق بزاوية تسعين درجة، تاركين معدتي في الأسفل عند الارتفاع الأدنى. يبلغ قمة الجبال المكسوة بالثلوج، ونظل معلقين هناك لجزء من الثانية قبل أن يلتف، غائصاً عائداً للأسفل بنفس الزاوية المرعبة.

إنها اللحظة الأكثر رعباً وإثارة في حياتي في آن واحد.

حتى يلتف مجدداً، مرسلاً إيانا في مسار حلزوني.

يُنتزع جسدي في كل اتجاه بينما يكمل انعطافاً تلو الآخر، منتشلاً إيانا من الغوص فقط ليميل بشدة لدرجة أنني أكاد أقسم أن الأرض استحالت سماءً، ثم يكرر الأمر برمته حتى ترتسم ابتسامة عريضة على وجهي.

لا يوجد شعور يضاهي هذا مطلقاً.

– «أعتقد أننا أوصلنا رسالتنا.»

يستوي في طيرانه، ثم ينعطف يميناً، بادئاً في صعود الوادي الذي يقود إلى الوادي المغلق لساحات التدريب. توشك الشمس على الغروب خلف القمم، لكن هناك ما يكفي من الضوء لرؤية التنين الذهبي في الأمام، محلقاً في مكانه وكأنه ينتظر. ربما لم يختر راكباً، لكنه سيعيش ليقرر مجدداً في العام القادم، وهذا هو كل ما يهم.

أو ربما سيدرك أننا نحن البشر لسنا بتلك الروعة في النهاية.

– «لماذا اخترتني؟»

يجب أن أعرف، لأنه بمجرد هبوطنا، ستنهال الأسئلة.

– «لأنكِ أنقذتيها.»

يميل رأس تايرِن نحو التنين الذهبي بينما نقترب، فتتبعنا. تتباطأ سرعتنا.

– «لكن...»

أهز رأسي.

– «التنانين تقدر القوة والدهاء و... الشراسة في ركابها.» ولا شيء من هذا ينطبق عليّ.

– «أرجوكِ، أخبريني المزيد عما ينبغي لي أن أقدره.»

السخرية تقطر من نبرته ونحن نمر فوق القفاز ونبلغ القمة الضيقة للمدخول إلى ساحات التدريب.

أشهق بقوة لرؤية هذا العدد الهائل من التنانين. هناك المئات منها متجمعة على طول الحواف الصخرية لمنحدرات الجبال خلف المدرجات التي نُصبت بين عشية وضحاها. متفرجون. وفي قاع الوادي، في الميدان ذاته الذي سلكته قبل يومين فقط، يقف صفان من التنانين في مواجهة بعضهما البعض.

يخبرني تايرِن:

– «إنهم مقسمون بين أولئك الذين ما زالوا في القطاع ممن اختاروا في السنوات الماضية وأولئك الذين اختاروا اليوم. نحن الرابطة الحادية والسبعون التي تدخل الميدان.»

ستكون أمي هنا، على المنصة أمام المدرجات، وربما أحظى بأكثر من مجرد نظرة عابرة، لكن انتباهها سيتركز في الغالب على السبعين زوجاً أو نحو ذلك من المرتبطين حديثاً.

يرتفع زئير احتفالي شرس بين التنانين ونحن نحلق للداخل، وتلتفت كل الرؤوس نحونا، وأدرك أن هذا إجلال لتايرِن. وكذلك انقسام التنانين في وسط الميدان تماماً، مفسحين المجال لتايرِن للهبوط. يحررني من الأربطة التي تثبتني في مقعدي، ثم يحلق فوق العشب لعدة ضربات أجنحة، وأرى التنين الذهبي يطير بجنون للحاق بنا.

يا للمفارقة العجيبة. تايرِن هو التنين الأكثر تبجيلاً في الوادي، وأنا الراكبة الأقل توقعاً في القطاع.

– «أنتِ الأذكى في دفعتكِ. والأكثر دهاءً.»

أزدرد ريقي أمام الإطراء، متجاهلة إياه. لقد دُربت لأكون نساخة، لا راكبة تنانين.

– «لقد دافعتِ عن الأصغر حجماً بشراسة. وقوة الشجاعة أهم بكثير من القوة الجسدية. بما أنكِ على ما يبدو بحاجة لمعرفة ذلك قبل أن نهبط.»

تنغلق حنجرتي بسبب كلماته، وتتشكل المشاعر في عقدة أُجبر نفسي على ابتلاعها.

أوه. تباً. لم أتفوه بتلك الكلمات. لقد فكرت بها وحسب.

بإمكانه قراءة أفكاري.

– «أرأيتِ؟ الأذكى في دفعتكِ.»

تباً للخصوصية.

– «لن تكوني وحيدة أبداً بعد اليوم.»

فكرت:

– «هذا يبدو كتهديد أكثر من كونه مواساة.»

بالطبع كنت أعلم أن التنانين تحافظ على رابطة عقلية مع ركابها، لكن مدى عمق هذه الرابطة مروع أكثر من اللازم.

يسخر تايرِن رداً على ذلك.

يصل التنين الذهبي إلينا، وأجنحته تضرب بسرعة تفوق سرعة تايرِن مرتين، ونهبط في وسط الميدان تماماً. يرجني الاصطدام قليلاً، لكنني أعتدل في مقعدي بل وأفلت نتوءات القربوس.

– «أرأيت، يمكنني التشبث جيداً حين لا تكون متحركاً.»

يطوي تايرِن أجنحته وينظر إليّ من فوق كتفه بتعبير هو أقرب شيء رأيته لتنين يقلب عينيه.

– «تحتاجين للنزول قبل أن أعيد التفكير في اختياري، ثم أخبري مُسجل القوائم –»

أقاطعه، ساحبةً نفساً مرتجفاً:

– «أنا أعرف ما يجب فعله. أنا فقط لم أعتقد أنني سأكون حية لأفعله.»

أتفحص كلا الخيارين للنزول، فأتحرك يميناً لأحمي كاحلي لأطول فترة ممكنة. لا يُسمح للمعالجين بالتواجد في ساحة الطيران، فقط الركاب، لكنني آمل أن يكون أحدهم قد فكر في إحضار حقيبة إسعافات أولية، لأنني سأحتاج إلى غرز طبية وجبيرة.

أنزلق فوق حراشف كتف تايرِن، وقبل أن أتمكن من التحسر على المسافة التي سأضطر لقفزها مستندة إلى حطام كاحلي، يتحرك تايرِن قليلاً، مما يغير زاوية ساقه الأمامية.

يصدر صوت من المنحدرات يذكرني بالتمتمة... إن كانت التنانين تتمتم.

– «إنها تفعل ذلك وهي تفعل ذلك الآن. تجاهلي الأمر.»

مجدداً، لا مجال للجدال في نبرته.

أهمس:

– «شكراً لك.»

ثم أنزلق للأسفل على مؤخرتي وكأنه قطعة وعرة من معدات ملعب قاتلة، متلقية وطأة الاصطدام بساقي اليسرى حين ألامس الأرض.

– «هذه طريقة واحدة للقيام بذلك.»

لا أستطيع كبح الابتسامة على وجهي أو الفرحة التي تلسع عينيّ لرؤية متدربي السنة الأولى الآخرين واقفين أمام تنانينهم. أنا حية، ولم أعد متدربة. أنا راكبة تنانين.

الخطوة الأولى تؤلمني كالجحيم، لكني أستدير نحو التنين الذهبي، الذي يقف ملاصقاً لتايرِن، يتأملني بعينين لامعتين ويحرك ذيله الريشي.

– «أنا سعيدة لأنكِ نجوتِ.»

"سعيدة" لا تفي بالغرض. مبتهجة، مرتاحة، ممتنة.

– «لكن ربما يجدر بكِ التحليق بعيداً في المرة القادمة التي يقترح فيها أحدهم أن تنقذي نفسكِ، هاه؟»

ترمش بعينيها.

– «ربما كنت أنا من ينقذكِ.»

صوتها أعلى طبقة، وأكثر عذوبة في عقلي.

تنفرج شفتاي، وترتخي عضلات وجهي من الصدمة.

أهمس:

– «ألم يخبركِ أحد أنه من المفترض ألا تتحدثي إلى بشر ليسوا ركابكِ؟ إياكِ أن تورطي نفسكِ في المتاعب يا ذهبية. مما سمعته، التنانين صارمة جداً بشأن خرق تلك القاعدة.»

تكتفي بالجلوس، طاوية أجنحتها، وتميل رأسها نحوي بتلك الزاوية التي يفترض أن تكون مستحيلة والتي تكاد تدفعني للضحك.

يهتف راكب التنين الأحمر على يميني:

– «الجحيم المقدس!»

فألتفت نحوه. إنه متدرب سنة أولى من قسم المخلب، الجناح الرابع، لكنني لا أذكر اسمه.

يتابع، محدقاً بذهول وعيناه متسعتان رعباً نحو تايرِن:

– «هل هذا...»

أجيب بابتسامة أوسع:

– «أجل. إنه هو.»

يخفق كاحلي، ويؤلمني، وأشعر عموماً وكأنه سينهار في أية ثانية وأنا أعرج عبر الميدان الواسع، متجهة نحو التشكيل الصغير أمامي مباشرة. خلفي، تهب الرياح بشكل متقطع مع هبوط المزيد من التنانين ونزول ركابها لتسجيل أسمائهم، لكن الصوت يصبح أخفت فأخفت مع امتداد الصف أبعد في الميدان.

يحل الغسق، وتُضيء سلسلة من الأضواء السحرية الحشد في المدرجات وعلى المنصة. في المنتصف تماماً، فوق مسجلة القوائم ذات الشعر الأحمر من المتراس الصخري مباشرة، تجلس والدتي، مرتدية كامل زينتها العسكرية، والأوسمة وكل شيء، لئلا ينسى أحد هويتها بالضبط.

رغم وجود تشكيلة من الجنرالات على المنصة، كل منهم يمثل جناحه، إلا أن هناك شخصاً واحداً فقط يحمل أوسمة أكثر من ليليث سورنجيل. وميلغرين، القائد العام لكل القوات النافارية، يثبت عينيه الصغيرتين الثاقبتين على تايرِن في تقييم علني. يندفع تركيزه نحوي، فأكبت قشعريرة. لا يوجد سوى حسابات باردة في تلك العينين.

تنهض أمي بينما أقترب من مسجلة القوائم عند قاعدة المنصة، التي تسجل الأزواج المرتبطة قبل أن تومئ للراكب التالي بالتقدم للحفاظ على سرية الاسم الكامل للتنين.

يقفز البروفيسور كاوري من المنصة التي يبلغ ارتفاعها ستة أقدام على يساري ويحدق فاغراً فاه نحو تايرِن، ونظراته تمسح التنين الأسود الهائل، محتفظاً في ذاكرته بكل تفصيلة صغيرة.

يبدأ القائد بانشيك:

– «هل هذا حقاً –»

يحوم عند حافة المنصة مع أكثر من دزينة من الضباط رفيعي المستوى بزيّهم الرسمي، جميعهم يحدقون بذهول.

تهسس أمي، وعيناها مثبتتان على تايرِن وليس عليّ:

– «لا تقلها. ليس حتى تفعل هي.»

لأنه لا أحد سوى الراكب ومسجل القوائم يعرف الاسم الكامل للتنين، وهي ليست متأكدة من أنني حقاً راكبته. هذا بالضبط ما تلمح إليه. وكأنني قادرة على اختطاف تايرِن. يغلي الغضب في عروقي، متجاوزاً الألم الذي يسري في جسدي بينما أتقدم في الصف حتى لا يتبقى أمامي سوى راكب واحد.

أجبرتني أمي على دخول قطاع راكبي التنانين. لم تكترث إن عشت أو مت وأنا أعبر المتراس الصخري. الشيء الوحيد الذي تكترث له الآن هو كيف قد تشوه عيوبي سمعتها الناصعة أو كيف قد يخدم ارتباطي أجندتها الخاصة.

وها هي الآن تحدق في تنيني دون أن تكلف نفسها عناء النظر للأسفل لترى إن كنت بخير.

تباً. لها.

إنه كل ما توقعته، ومع ذلك لا يزال مخيباً للآمال بشدة.

ينهي الراكب أمامي تسجيله، ويبتعد عن الطريق، فترفع مسجلة القوائم رأسها، مختلسة نظرة بعينين متسعتين نحو تايرِن قبل أن تخفض نظرتها المصدومة لتلتقي بنظراتي وتشير لي بالتقدم.

تقول وهي تدون في كتاب الركاب:

– «ڤيوليت سورنجيل. من الجيد رؤيتكِ وقد نجوتِ.»

تمنحني ابتسامة سريعة ومرتجفة:

– «للسجل، أرجوكِ أخبريني باسم التنين الذي اختاركِ.»

أرفع ذقني وأقول:

– «تايرِنانيش.»

يتردد صوت تايرِن في عقلي:

– «النطق يحتاج لبعض التحسين.»

أفكر رداً عليه في اتجاهه العام، متسائلة إن كان سيسمعني عبر الميدان:

– «مرحى، على الأقل تذكرته.»

– «على الأقل لم أدعكِ تسقطين لتلقي حتفكِ.»

بدا صوته متضجراً للغاية، لكنه بالتأكيد سمعني.

تبتسم المرأة، وتهز رأسها وهي تدون اسمه وتقول:

– «لا أصدق أنه ارتبط. ڤيوليت، إنه أسطورة.»

أفتح فمي لأوافقها الرأي –

يملأ الصوت العذب العالي للتنين الذهبي عقلي:

– «أندارنورام. أندارنا باختصار.»

أشعر بالدماء تنسحب من وجهي، وتترنح حواف رؤيتي وأنا أستدير على كاحلي السليم، محدقة عبر الميدان حيث تقف التنين الذهبي – أندارنا – الآن بين ساقي تايرِن الأماميتين.

– «عذراً؟»

تسأل المسجلة ذات الشعر الأحمر، ويميل كل من حولي، ومن فوقي، ليسمع:

– «ڤيوليت، هل أنتِ بخير؟»

تُصر الذهبية:

– «أخبريها.»

أفكر موجّهة كلامي إليه:

– «تايرِن. ماذا يُفترض بي أن –»

يردد تايرِن:

– «أخبري مسجلة القوائم باسمها.»

تكرر مسجلة القوائم:

– «ڤيوليت؟ هل تحتاجين لمعالج؟»

أستدير عائدة نحو المرأة وأتنحنح. أهمس:

– «و أندارنورام.»

تتسع عيناها ذهولاً، وتصيح بصوت مختنق:

– «كلا التنينين؟»

أومئ برأسي.

وينفجر الجحيم من حولي.

رغم أن هذا الضابط يعتبر نفسه خبيراً في كل ما يتعلق بسلالات التنانين، إلا أن هناك الكثير مما نجهله عن الطريقة التي تحكم بها التنانين نفسها. هناك تسلسل هرمي واضح بين الأقوى، ويُكن الاحترام لكبار السن، لكني لم أتمكن من استنتاج كيف يسنون القوانين لأنفسهم، أو في أي مرحلة قرر التنين الارتباط براكب واحد فقط، بدلاً من تعزيز احتمالات نجاحه باثنين.

– الدليل الميداني للعقيد كاوري حول سلالات التنانين



الفصل السادس عشر

تصرخ إحدى الجنرالات بصوت عالٍ يكفي لأسمعها طوال الطريق من المحطة الطبية الصغيرة التي أُقيمت في نهاية المدرجات لركاب التنانين:

– «كلا، مطلقاً!»

لم تكن المحطة سوى صف من دزينة طاولات وبعض الإمدادات الطبية التي جُلبت جواً لتسعفنا ريثما نتمكن من الوصول إلى قطاع المعالجين، لكن مسكنات الألم كانت تؤتي مفعولها على الأقل.

تنينان. أنا لدي... تنينان.

كان الجنرالات يتبادلون الصراخ طوال النصف ساعة الماضية، وقت كافٍ لتتسلل برودة الليل إلى الأجواء، وليتمكن مدرب لم ألقه من قبل من خياطة كلا جانبي ذراعي.

من حسن حظي أن تاينان قطع العضلة في الغالب لكنه لم يبترها. ومن سوء حظي، أن جاك يُفحص كتفه على بُعد دزينة أقدام تقريباً. لقد تبختر قادماً من على ظهر تنين برتقالي ذي ذيل عقربي ليسجل ارتباطه مع مسجلة القوائم، التي واصلت أداء عملها غير مكترثة بشجار الجنرالات على المنصة خلفها.

لم يكف جاك عن التحديق في تايرِن عبر الميدان.

يسأل البروفيسور كاوري بهدوء وهو يشد أحزمة الجبيرة حول كاحلي:

– «كيف تشعرين؟»

كانت هناك نحو مليون سؤال آخر تلوح في عينيه الداكنتين الثاقبتين، لكنه احتفظ بها لنفسه.

أجيب:

– «يؤلم كالجحيم.»

التورم جعل إعادة ارتداء حذائي شبه مستحيلة دون إرخاء كل رباط إلى أقصى حد، لكنني على الأقل لم أضطر للزحف عبر الميدان كالفتاة من الجناح الثاني التي كُسرت ساقها أثناء النزول. إنها على بُعد سبع طاولات، تبكي بصمت بينما يحاول المسعفون الميدانيون لركاب التنانين تجبير ساقها.

يميل البروفيسور رأسه وهو يعقد أحزمة الجبيرة ويقول:

– «ستركزين على تقوية روابطكِ والطيران خلال الشهرين القادمين، لذا طالما أنكِ لا تواجهين صعوبة في الركوب أو النزول –»

يتابع، وتعمق خطان بين حاجبيه:

– «وهو أمر، ومما رأيته، لا أظن أنكِ ستواجهينه – هذا الالتواء يُفترض أن يُشفى قبل جولتكِ القادمة من التحديات. أو يمكنني استدعاء نولون –»

أهز رأسي وأقول:

– «لا. سأُشفى.»

يسألني، ومن الواضح أنه ليس مقتنعاً:

– «هل أنتِ متأكدة؟»

أصحح نفسي قائلة:

– «كل عين في هذا الوادي مسلطة عليّ وعلى تنيني – تنينيّ. لا يمكنني تحمل الظهور بمظهر الضعيفة.»

يعبس لكنه يومئ بالموافقة.

أسأل، والخوف يعقد حنجرتي:

– «هل تعرف من نجا من فرقتي؟» أرجوك فلتكن ريانون حية. وترينا. وريدوك. وسوير. جميعهم.

يجيب البروفيسور كاوري ببطء، وكأنه يحاول تخفيف وطأة الصدمة:

– «لم أرَ ترينا أو تاينان.»

لكنه لم ينجح في تخفيفها.

أهمس، والذنب ينهش معدتي:

– «تاينان لن يعود.»

يُزمجر تايرِن في عقلي:

– «هذا ليس قتلكِ لتنسبي الفضل فيه لنفسكِ.»

يتمتم البروفيسور كاوري:

– «أفهم.»

يصيح جاك من يساري:

– «ما الذي تعنيه بحق الجحيم بأنك تعتقد أنه يحتاج لعملية جراحية؟»

يجيب المدرب الآخر، ونبرته تفيض بالصبر بينما يثبت حمالة كتف جاك:

– «أعني، يبدو أن السلاح قطع بضعة أربطة، لكن سيتعين علينا نقلك إلى المعالجين للتأكد.»

أنظر مباشرة في عيني جاك الشريرتين وأبتسم. لقد انتهيت من الخوف منه. لقد ولى هارباً في ذلك المرج.

يلطخ الغضب وجنتيه في الضوء السحري، فيؤرجح قدميه من فوق حافة طاولته ويندفع نحوي:

– «أنتِ!»

– «أنا ماذا؟»

أنزلق من حافة طاولتي وأترك يديّ مرتخيتين بجوار غمدي خنجريّ عند فخذيّ.

يرفع البروفيسور كاوري حاجبيه دهشة وهو ينظر بيننا ويتمتم:

– «أنتِ؟»

أجيب، مبقيةً تركيزي على جاك:

– «أنا.»

لكن البروفيسور كاوري يتحرك بيننا، ويرفع كفه بوجه جاك ويقول:

– «لا أنصحك بالاقتراب منها أكثر.»

تتكور قبضة جاك السليمة ويقول:

– «تختبئين خلف مدربينا الآن يا سورنجيل؟»

أرفع ذقني وأرد:

– «لم أختبئ هناك، ولن أختبئ هنا. لست أنا من هرب.»

يحذر البروفيسور كاوري جاك، الذي تضيق عيناه نحوي:

– «ليست بحاجة للاختباء خلفي وهي مرتبطة بأقوى تنين في دفعتك. تنينك البرتقالي اختيار جيد يا بارلو. 'بايد'، أليس كذلك؟ لقد حظي بأربعة ركاب قبلك.»

يومئ جاك برأسه.

ينظر البروفيسور كاوري من فوق كتفه نحو صف التنانين ويقول:

– «ومهما بلغت عدوانية 'بايد'، فمن الطريقة التي ينظر بها تايرِن إليك، لن يتردد البتة في حرق عظامك حتى تحيل رماداً إن خطوت خطوة أخرى نحو راكبته.»

يُحدق بي جاك بذهول:

– «أنتِ؟»

أرد، وقد تراجع الخفقان في كاحلي إلى وجع مكتوم محتمل، حتى مع وقوفي عليه:

– «أنا.»

يهز رأسه، وتتحول النظرة في عينيه من الصدمة، إلى الحسد، إلى الخوف وهو يلتفت نحو البروفيسور:

– «لا أعرف ماذا أخبرتكِ عما حدث هناك –»

يعقد المدرب ذراعيه فوق صدره ويقاطعه:

– «لا شيء. هل هناك ما يجب أن أعرفه؟»

يشحب لون جاك، ويصبح كالأموات في الضوء السحري بينما يعرج متدرب سنة أولى آخر مصاب نحونا، والدماء تسيل من فخذه وجذعه.

ألتقي بعيني جاك وأقول:

– «كل من يحتاج للمعرفة يعرف بالفعل.»

يقول كاوري بينما يحلّق صف من التنانين للداخل، ولا تُرى سوى ظلالهم في الظلام:

– «أعتقد أننا انتهينا لهذه الليلة. لقد عاد الركاب الأقدمون. يجب أن تعودا كلاكما إلى تنينيكما.»

يزفر جاك بغضب ويمشي بخطوات ثقيلة عبر الميدان.

أختلس نظرة إلى الجنرالات الذين لا يزالون مجتمعين في نقاش محتدم على المنصة وأسأل:

– «بروفيسور كاوري، هل سبق لأحد أن ارتبط بتنينين؟» إن كان هناك من يعرف، فهو بروفيسور سلالات التنانين.

يستدير معي لمواجهة القيادة المتشاجرة ويقول:

– «ستكونين الأولى. رغم أنني لست متأكداً من سبب شجارهم حول الأمر. القرار لن يكون بأيديهم.»

– «لن يكون؟»

تهب الرياح بقوة حين تهبط العشرات من التنانين على الجانب المقابل لمتدربي السنة الأولى، وتتدلى صفوف من الأضواء السحرية بينهم.

يؤكد لي كاوري:

– «لا شيء يتعلق باختيار التنانين متروك للبشر. نحن فقط نحب الحفاظ على وهم أننا نملك السيطرة. هناك شيء يخبرني أنهم كانوا فقط ينتظرون عودة البقية قبل أن يجتمعوا.»

أقطب حاجبيّ وأسأل:

– «القيادة؟»

يهز كاوري رأسه ويقول:

– «التنانين.»

التنانين ستجتمع؟

أبتسم له ابتسامة مترددة وأقول:

– «شكراً لاهتمامك بكاحلي. من الأفضل أن أعود إلى هناك.»

وأشق طريقي عبر الميدان الخافت الإضاءة نحو تايرِن وأندارنا، وأنا أشعر بثقل كل نظرة في الوادي بينما أتوقف وأقف بين التنينين.

أقول، ناظرة إلى أندارنا، ثم إلى تايرِن قبل أن أستدير لمواجهة الميدان كبقية متدربي السنة الأولى:

– «أنتما تسببان ضجة كبيرة، كما تعلمان. لن يسمحوا لنا بفعل هذا.»

أوه تباً، ماذا لو أجبروني على الاختيار؟

تهوي معدتي.

يقول تايرِن، لكن هناك مسحة من التوتر في نبرته:

– «الأمر متروك لد إمبيريان ليقرر. لا تغادري الميدان. قد يستغرق هذا بعض الوقت.»

أسأل، وتموت الكلمات على شفتيّ:

– «ما الذي قد يستغرق –»

حين يمشي أضخم تنين رأيته في حياتي، أضخم حتى من تايرِن، نحونا من مدخل الوادي. كل تنين يمر به يدخل إلى وسط الميدان ويتبعه، جامِعاً العشرات وهو يمشي.

أسأل:

– «هل هذا...»

يجيب تايرِن:

– «كوداغ.»

تنين الجنرال ميلغرين.

أستطيع تمييز الثقوب الرقعية في أجنحته المليئة بندوب المعارك حين يقترب، ونظرته الذهبية مركزة على تايرِن بطريقة تصيبني بالغثيان. يزمجر بزمجرة منخفضة في حنجرته، ويوجه تلك العينين الشريرتين نحوي.

يُطلق تايرِن زمجرته الخاصة، متقدماً للأمام ليجعلني بين مخالبه الهائلة.

لا شك البتة في أنني موضوع كلا الزمجرتين المستاءتين.

تقول أندارنا بينما يمر الصف، وتنضم إليهم:

– «أجل! نحن نتحدث عنكِ!»

يأمر تايرِن:

– «ابقي قريبة من قائد الجناح حتى نعود.»

بالتأكيد كان يقصد أن يقول قائد الفرقة.

– «لقد سمعتِ ما قلت.»

أو ربما لا.

أجول بنظري وألمح زايدن واقفاً على الجانب الآخر من الميدان، عاقداً ذراعيه ومباعداً بين ساقيه وهو يحدق في تايرِن.

يسود صمت مريب بين الركاب بينما تُخلي التنانين المرج، محلقة في تيار مستمر بالقرب من النهاية وتهبط في منتصف الطريق صعوداً على القمة الجنوبية في تجمع مظلل بالكاد أستطيع تمييزه في ضوء القمر.

في الثانية التي يحلق فيها آخر التنانين، تندلع الفوضى. يتجمهر متدربو السنة الأولى في وسط الميدان، حيث صادف أنني أقف، يهتفون بحماس ويبحثون عن أصدقائهم. تمسح عيناي الحشد، آملة في لمح –

أصيح، لامحةً ريانون في وسط الجمهرة وأعرج نحوها:

– «ري!»

تعانقني بقوة، وتبتعد حين أجفل من الألم الجديد في ذراعي وتسأل:

– «ماذا حدث؟»

– «سيف تاينان.»

بالكاد تخرج الإجابة من فمي قبل أن أُنتزع من على قدميّ بواسطة ريدوك، الذي يُديرني في الهواء، وتتأرجح قدماي أمامي.

يقول:

– «انظروا من امتطت أشرس وغد هنا!»

توبخه ريانون:

– «أنزلها! إنها تنزف!»

يقول ريدوك، وتجد قدماي الأرض:

– «أوه تباً، المعذرة.»

أقول:

– «لا بأس.»

هناك دماء جديدة على الضمادة، لكني لا أظن أنني مزقت غرزي. ومسكنات الألم رائعة حقاً.

أسأل:

– «هل أنتم بخير؟ بمن ارتبطتم يا رفاق؟»

تبتسم ريانون ابتسامة عريضة وتقول:

– «التنين الأخضر ذي الذيل الخنجري! فيرجي. ولقد كان الأمر ببساطة... سهلاً.» تتنهد وتتابع: «رأيتها وعرفت ذلك وحسب.»

يقول ريدوك بفخر:

– «أوتروم. بني ذو ذيل سيفي.»

يقول سوير وهو يلقي بذراعيه حول كتفي ريانون وريدوك:

– «سليسياج! أحمر ذو ذيل سيفي!»

نهتف جميعاً، ويغمرني عناقه تالياً. من بيننا جميعاً، أنا الأسعد لأجله، بعد كل ما اضطر لتحمله للوصول إلى هنا.

أسأله حين يفلتني:

– «ترينا؟»

واحد تلو الآخر، يهزون رؤوسهم، ناظرين إلى بعضهم البعض بحثاً عن إجابات. يستقر ثقل لا يُحتمل في قلبي، وأبحث عن أي سبب آخر.

– «أعني... هناك احتمال أنها لم ترتبط وحسب، أليس كذلك؟»

يهز سوير رأسه، والحزن يرخي كتفيه:

– «لقد رأيتها تسقط من على ظهر تنين برتقالي ذي ذيل هراوي.»

يغرق قلبي.

يسأل ريدوك، وتتنقل نظراته بيننا:

– «تاينان؟»

أقول بهدوء:

– «قتله تايرِن. ودفاعاً عنه، كان تاينان قد طعنني بالفعل مرة واحدة.»

أشير إلى الجرح في ذراعي وأتابع:

– «وكان يحاول أن –»

– «كان يحاول ماذا؟»

يُديرني أحدهم من كتفيّ ويُسحب بقوة ضد صدر ما. داين. تلتف ذراعاي حول ظهره وأتشبث به بينما أتنفس بعمق.

يعصرني بقوة، ثم يدفعني لتبتعد بمسافة ذراع ويقول:

– «تباً. ڤيوليت. فقط... تباً. أنتِ مصابة.»

أطمئنه قائلة:

– «أنا بخير.»

لكن ذلك لا يهدئ القلق في عينيه. ولست متأكدة إن كان أي شيء سيفعل ذلك يوماً.

أتابع:

– «لكننا نحن كل من تبقى من متدربي السنة الأولى في فرقتنا.»

ترتفع نظرات داين لينظر إلى الآخرين، ويومئ برأسه قائلاً:

– «أربعة من أصل تسعة. هذا... متوقع.»

يتشنج فكه مرة واحدة ويضيف:

– «التنانين تعقد حالياً اجتماعاً لد إمبيريان – قيادتها. ابقوا هنا حتى يعودوا.»

يقول هذا للآخرين قبل أن ينظر إليّ ويقول:

– «أنتِ تأتين معي.»

على الأرجح أمي هي من تستدعيني من خلاله. بالتأكيد سترغب في رؤيتي مع كل ما يجري. أختلس نظرة عبر الميدان، لكن ليس أمي من أجدها تراقبني بل زايدن، بتعبير لا يمكن قراءته.

حين يأخذ داين يدي ويجذبني، أستدير مبتعدة عن زايدن، تابعة داين إلى الحافة المقابلة للميدان، حيث نتوارى في الظل.

يبدو أن الأمر لا يتعلق بأمي.

تتشابك أصابعه مع أصابعي، والذعر يدور في عينيه البنيتين ويسألني:

– «ما الذي حدث هناك بحق الجحيم؟ لأن كاث يخبرني أنه لم يقتصر الأمر على اختيار تايرِن لكِ بل والتنين الصغير أيضاً – أدارن؟»

أصححه، وابتسامة تتلاعب على شفتيّ عند التفكير في التنين الذهبي الصغير:

– «أندارنا.»

تتصلب ملامحه، واليقين فيها يجعلني أجفل، ويقول:

– «سيجبرونكِ على الاختيار.»

أهز رأسي، وأفصل يدينا وأقول:

– «لن أختار. لم يسبق لأي إنسان أن اختار، ولن أكون أنا الأولى.»

ومن بحق الجحيم هو داين ليخبرني بذلك؟

يُمرر يده على شعره بقوة، وينهار رباطة جأشه ويقول:

– «بل ستفعلين. يجب أن تثقي بي. أنتِ تثقين بي، أليس كذلك؟»

– «بالطبع أثق بك –»

يومئ برأسه وكأن قراره يعادل قراراً قد اتُخذ ويقول:

– «إذن يجب أن تختاري أندارنا. التنين الذهبي هو الخيار الأكثر أماناً بين الاثنين.»

لماذا، لأن تايرِن هو... تايرِن؟ هل يعتقد داين أنني أضعف من أن أرتبط بتنين بقوة تايرِن؟

ينفتح فمي، ثم يُغلق كسمكة خارج الماء وأنا أبحث عن أي رد ليس "تباً لك". من المستحيل بحق الجحيم أن أرفض تايرِن. لكن قلبي لن يسمح لي برفض أندارنا أيضاً.

أفكر في اتجاههما:

– «هل سيجبرونني على الاختيار؟»

لا يوجد رد، وحيث كنت أشعر بـ... امتداد في عقلي، لما أنا عليه، يوسع حدودي العقلية منذ أن تحدث إليّ تايرِن لأول مرة في ذلك الميدان، لا يوجد شيء الآن.

لقد قُطعت عني الصلة. لا تذعري.

أكرر، بصوت أخفت هذه المرة:

– «لن أختار.»

ماذا لو لم أتمكن من الاحتفاظ بأي منهما؟ ماذا لو خرقا قاعدة مقدسة وسنعاقب جميعاً الآن؟

يقبض على كتفيّ وينحني نحوي، بنبرة تتسم بالإلحاح:

– «بل ستفعلين. ويجب أن تكون أندارنا. أعلم أنها أصغر من أن تحمل راكباً –»

أرد بدفاعية رغم معرفتي بأن هذا صحيح. قوانين الفيزياء لا تتوافق ببساطة:

– «لم يُختبر هذا بعد.»

يتابع:

– «ولا يهم. هذا سيعني أنكِ لن تتمكني من الطيران مع أي جناح، لكنهم سيجعلونكِ على الأرجح مدربة دائمة هنا كـ كاوري.»

أجادله:

– «ذلك لأن قدرته السحرية الفريدة تجعله لا غنى عنه كمعلم، وليس لأن تنينه لا يستطيع الطيران. وحتى هو قضى السنوات الأربع المطلوبة مع جناح قتالي قبل أن يُوضع خلف مكتب.»

يشيح داين بنظره، وأكاد أرى التروس تدور في عقله وهو يحسب... ماذا؟ مخاطرتي؟ خياري؟ حريتي؟

يقول:

– «حتى لو أخذتِ أندارنا إلى القتال، هناك احتمال فقط أن تُقتلي. لكن إن أخذتِ تايرن، فسيودي زايدن بحياتكِ حتماً. أتظنين ميلغرين مرعباً؟ لقد تواجدت هنا لعام أكثر منكِ يا ڤاي. على الأقل تعرفين ما ينتظركِ حين يتعلق الأمر بميلغرين. زايدن ليس فقط أشد قسوة بمرتين، بل إنه متقلب بشكل خطير.»

أرمش بعيني وأسأل:

– «مهلاً. ماذا تقول؟»

– «إنهما زوجان متزاوجان، تايرن وسجايل. أقوى زوجين مرتبطين منذ قرون.»

يدور عقلي بسرعة. الأزواج المتزاوجة لا يمكن فصلها لفترة طويلة وإلا تدهورت صحتها، لذا فهي تتمركز معاً دائماً. دائماً. مما يعني – يا إلهي.

صوته يرق، لابد أنه رآني أتخبط:

– «فقط... أخبريني كيف حدث ذلك.»

وهكذا أفعل. أخبره عن جاك وعصابته القاتلة من الأصدقاء الذين طاردوا أندارنا. أخبره عن سقوطي، والميدان، ومراقبة زايدن، وزايدن... الذي حماني بشكل صادم بتحذيره حين كان أورين خلفي. لقد حظي بالفرصة المثالية لإنهائي دون أن يُلام على ذلك، واختار أن يساعدني. ما الذي يُفترض بي فعله حيال ذلك بحق الجحيم؟

يقول داين بهدوء، لكن اللطف يتلاشى من صوته:

– «زايدن كان هناك.»

أومئ برأسي وأقول:

– «أجل. لكنه غادر بعد ظهور تايرِن.»

يسأل ببطء:

– «زايدن كان هناك حين دافعتِ عن أندارنا، ثم ظهر تايرِن... هكذا وحسب؟»

– «أجل. هذا ما قلته للتو.» هل كان التسلسل الزمني يربكه؟ «إلى ماذا تلمح؟»

تشتد قبضته ويقول:

– «ألا ترين ما حدث؟ ما فعله زايدن؟»

أشكر الآلهة على درع حراشف التنين، وإلا لكنت قد أصبت بكدمات غداً.

ينبثق شكل من الظلال، وتتسارع نبضات قلبي حين يخطو زايدن إلى ضوء القمر، ويتساقط الظلام عنه كحجاب منبوذ ويقول:

– «أرجوك، أخبرني ما الذي تعتقد أنني فعلته.»

تندفع الحرارة عبر كل وريد، وتوقظ كل نهاية عصبية. أكره رد فعل جسدي عند رؤيته، لكنني لا أستطيع إنكاره. جاذبيته مزعجة بحق الجحيم.

تسقط يدا داين من على كتفيّ، ويستدير ليواجه قائد جناحنا، وكتفاه متصلبان بصرامة وهو يضع نفسه بيننا ويقول:

– «لقد تلاعبت بيوم التصفية.»

أوه تباً، هذا اتهام هائل ليلقيه.

أقول، متجاوزة ظهر داين:

– «داين، هذا...» جنون العظمة. لو كان زايدن يريد قتلي، لما انتظر كل هذا الوقت ليفعل ذلك. لقد سنحت له كل فرصة ممكنة، ومع ذلك لا أزال أقف هنا. مرتبطة. بـ رفيق تنينه.

زايدن لن يقتلني. إدراك ذلك يجعل صدري ينقبض، ويجعلني أعيد فحص كل ما حدث في ذلك الميدان، ويجعل إحساسي بالجاذبية يترنح تحت قدميّ.

ينظر زايدن إلى داين وكأنه عقبة، أو إزعاج، ويسأله:

– «هل هذا اتهام رسمي؟»

يطالب داين بإجابة:

– «هل تدخلت؟»

يقوس زايدن حاجباً داكناً ويوجه لـ داين نظرة من شأنها أن تجعل شخصاً أقل صلابة يذبل ويقول:

– «هل فعلت ماذا؟ هل رأيتها تفوقهم عدداً ومصابة بالفعل؟ هل ظننت أن شجاعتها كانت مثيرة للإعجاب بقدر ما كانت متهورة بحق الجحيم؟»

يوجه تلك النظرة إليّ، وأشعر بوقعها حتى أخمص قدميّ.

أرفع ذقني وأقول:

– «وكنت لأفعلها مجدداً.»

يزأر زايدن، فاقداً أعصابه للمرة الأولى منذ أن التقيته على المتراس الصخري:

– «أنا أدرك ذلك بحق الجحيم.»

أستنشق نفساً سريعاً، ويفعل زايدن الشيء ذاته، وكأنه مصدوم بانفجاره العاطفي بقدر صدمتي.

تلتفت نظرته الغاضبة إلى داين ويتابع:

– «هل رأيتها تقاتل ثلاثة متدربين أضخم منها؟ لأن الإجابة على كل ذلك هي نعم. لكنك تسأل السؤال الخاطئ يا آيتوس. ما يجب أن تسأله هو ما إذا كانت سجايل قد رأت ذلك أيضاً.»

يزدرد داين ريقه ويشيح بنظره، ومن الواضح أنه يعيد التفكير في موقفه.

أهمس:

– «لقد أخبرته رفيقته.» لقد نادت سجايل تايرِن.

يقول زايدن موجهاً حديثه لي:

– «لم تكن يوماً من محبي المتنمرين. لكن لا تسيئي فهم ذلك كعمل من أعمال اللطف تجاهكِ. إنها مغرمة بالتنين الصغير. لسوء الحظ، تايرِن هو من اختاركِ بمحض إرادته.»

يتمتم داين:

– «تباً.»

يهز زايدن رأسه نحو داين ويقول:

– «هذا ما فكرت فيه بالضبط. سورنجيل هي آخر شخص في القارة أود أن أكون مقيداً به يوماً. أنا لم أفعل هذا.»

آه. تطلب الأمر كل قوة إرادتي في جسدي لكيلا أمد يدي إلى صدري لأتأكد من أنه لم ينتزِع قلبي من خلف أضلاعي للتو، وهو أمر غير منطقي على الإطلاق، لأنني أكن له نفس المشاعر. إنه ابن الخائن الأعظم. والده كان المسؤول المباشر عن موت بريينان.

يتحرك زايدن نحو داين، متفوقاً عليه طولاً ويقول:

– «وحتى لو كنت فعلت. هل كنت ستوجه ذلك الاتهام حقاً وأنت تعلم أنه كان لينقذ المرأة التي تصفها بأعز أصدقائك؟»

تندفع نظراتي إلى داين، وتمر لحظة صامتة ومُدينة. إنه سؤال بسيط، ومع ذلك أجد نفسي أحبس أنفاسي بانتظار إجابته. ماذا أعني له حقاً؟

يميل داين ذقنه لينظر في عيني زايدن ويقول:

– «هناك... قوانين.»

يُثلج صوته وهو يدرس تعبير داين بفتتان شديد:

– «ومن باب الفضول، هل كنت، لنقل، ستتجاوز تلك القوانين لإنقاذ ڤيوليت الصغيرة العزيزة في ذلك الميدان؟»

لقد اتخذ زايدن خطوة. قبل هبوط تايرِن مباشرة، لقد تحرك... نحوي.

ينقبض فك داين، وأرى الصراع في عينيه.

أتحرك إلى جانب داين بينما يقاطع صوت أجنحة تضرب الهواء صمت الليل. التنانين تعود أدراجها. لقد اتخذت قرارها. أقول:

– «من غير المنصف أن تسأله ذلك.»

لا يكلف زايدن نفسه عناء إلقاء نظرة عليّ ويقول:

– «أنا آمرك بالإجابة أيها القائد.»

يزدرد داين ريقه، وتُغلق عيناه بقوة ويقول:

– «كلا. لم أكن لأفعل.»

يهوي قلبي إلى الأرض. لطالما أدركت في قرارة نفسي أن داين يقدر القوانين والنظام أكثر من العلاقات، أكثر مني، لكن أن يُعرض ذلك بقسوة هكذا، يطعن أعمق من سيف تاينان.

يسخر زايدن.

يلتفت رأس داين فوراً نحوي ويقول:

– «كان سيقتلني أن أقف متفرجاً وأرى مكروهاً يصيبكِ يا ڤاي، لكن القوانين –»

أجبر نفسي على القول، وأنا ألمس كتفه:

– «لا بأس.» لكن الأمر لم يكن كذلك.

يقول زايدن بينما يهبط أول تنين على الميدان المضاء:

– «التنانين تعود. عد إلى تشكيلك الطابوري أيها القائد.»

ينتزِع داين نظراته من نظراتي ويمشي مبتعداً، مندمجاً في حشد الركاب المسرعين وتنانينهم.

أهتف في وجه زايدن، ثم أهز رأسي:

– «لماذا تفعل هذا به؟» لا أهتم لماذا. أتمتم: «انسَ الأمر.» ثم أبتعد، متجهة عائدة نحو النقطة التي أمرني تايرِن بالانتظار فيها.

يجيب زايدن على أي حال، لاحقاً بي دون أن يكلف نفسه عناء زيادة طول خطوته:

– «لأنكِ تضعين الكثير من الإيمان فيه. ومعرفة بمن تثقين هو الشيء الوحيد الذي سيبقيكِ حية – وسيبقينا أحياء – ليس فقط في القطاع بل بعد التخرج أيضاً.»

أقول، متفاديةً راكبة وهي تركض مسرعة بجواري:

– «لا يوجد نحن.» تهبط التنانين يميناً ويساراً، وترتجف الأرض بقوة حركة الحشد. لم أرَ يوماً هذا العدد الهائل من التنانين تحلق في اللحظة ذاتها.

يهمس زايدن بجواري، ممسكاً بمرفقي وجاذباً إياي خارج مسار راكب آخر يركض من الاتجاه المعاكس:

– «أوه، أعتقد أنكِ ستجدين أن هذا لم يعد الحال بعد الآن.»

بالأمس، كان ليتركني أصطدم به مباشرة.

تباً، ربما كان ليدفعني حتى.

– «روابط تايرِن قوية للغاية، سواء برفيقته أو براكبه، لأنه قوي جداً. فقدانه لراكبه الأخير كاد يقتله، وهو ما كاد بدوره يقتل سجايل. حيوات الأزواج المتزاوجة –»

نقترب أكثر حتى نصبح في المنتصف تماماً في خط الركاب. لولا انزعاجي الشديد من موقف زايدن القاسي تجاه داين، لكنت أخذت الوقت الكافي لأتأمل مدى روعة مشهد مئات التنانين تهبط من حولنا. أو ربما كنت لأتساءل كيف يتمكن الرجل بجانبي من استهلاك كل الهواء في الميدان الضخم. أقاطعه:

– «مترابطة بشكل وثيق، أنا أعرف ذلك.»

تتصلب ملامحه كلوح رخام، لكن الغضب في عينيه يتركني لاهثة. إنه... غضب نقي. يتابع:

– «في كل مرة يختار فيها التنين راكباً، تكون تلك الرابطة أقوى من سابقتها، مما يعني أنكِ إن متِ، يا 'ڤيولينس'، فسيطلق ذلك سلسلة من الأحداث التي قد تنتهي بموتي أنا أيضاً. لذا، أجل، ولسوء حظ جميع المعنيين، هناك "نحن" الآن إن سمح الـ إمبيريان باختيار تايرِن.»

يا إلهي.

أنا مقيدة بـ زايدن ريورسون.

يتنهد، وتتموج علامات الانزعاج على ملامحه، ويتحرك فكه القوي بينما يشيح بنظره ويتابع:

– «والآن وقد دخل تايرِن اللعبة، وعرف المتدربون الآخرون أنه مستعد للارتباط...»

أهمس، بينما تستقر عواقب أحداث اليوم في معدتي المضطربة:

– «لهذا السبب أمرني تايرِن بالبقاء معك. بسبب غير المرتبطين.» هناك ما لا يقل عن ثلاث دزينات منهم يقفون على الجانب المقابل من الميدان، يراقبوننا بجشع في أعينهم – ومن بينهم أورين سايفرت.

يهز زايدن رأسه لـ غاريك حين يقترب، فيختلس قائد القسم نظرة بيننا، ويطبق فمه في خط حازم قبل أن يتراجع عبر الميدان. يتابع زايدن:

– «سيحاول غير المرتبطين قتلكِ أملاً في أن يرتبط تايرِن بهم. تايرِن هو أحد أقوى التنانين في القارة، والقوة الهائلة التي يوجهها على وشك أن تصبح ملككِ. خلال الأشهر القليلة القادمة، سيحاول غير المرتبطين قتل راكب ارتبط حديثاً بينما الرابطة لا تزال ضعيفة، وبينما لا تزال لديهم فرصة لتغيير ذلك التنين لرأيه واختيارهم كي لا يتأخروا عاماً كاملاً. ومن أجل تايرِن؟ سيفعلون أي شيء تقريباً.»

يتنهد مجدداً وكأنها وظيفته الجديدة بدوام كامل:

– «هناك واحد وأربعون راكباً غير مرتبط أصبحتِ الآن الهدف رقم واحد بالنسبة لهم.»

يرفع إصبعاً واحداً.

أسخر قائلة:

– «ويظن تايرِن أنك ستلعب دور الحارس الشخصي. لا يعلم مدى كراهيتك لي حقاً.»

يرد زايدن، ونظراته تنزلق على جسدي:

– «إنه يعلم بالضبط مدى تقديري لحياتي الخاصة. أنتِ هادئة بشكل مريب بالنسبة لشخص أُخبر للتو بأنه سيُطارد.»

أهز كتفي، متجاهلة الطريقة التي تلهب بها نظراته بشرتي، وأقول:

– «إنه مجرد أربعاء اعتيادي بالنسبة لي. وبصراحة، أن يُطاردني واحد وأربعون شخصاً أقل ترويعاً بكثير من مراقبة الزوايا المظلمة باستمرار تحسباً لظهورك.»

تلفحني نسمة هواء على ظهري حين تهبط أندارنا خلفي، تليها هبة رياح واهتزاز للأرض حين يكون تايرِن.

ودون أن ينبس بكلمة أخرى، ينتزِع زايدن نظراته من نظراتي ويمشي مبتعداً، قاطعاً مساراً قطرياً قليلاً عبر الميدان نحو حيث تلقي سجايل بظلالها على تنانين قادة الأجنحة الآخرين.

أهمس نحو أندارنا وتايرِن:

– «أخبراني أن كل شيء سيكون على ما يرام.»

يجيب تايرِن، وصوته أجش ومتضجر في الوقت ذاته:

– «الأمور كما يجب أن تكون.»

أقول، حسناً، بنبرة تبدو اتهامية بعض الشيء:

– «لم تجيبي من قبل.»

تجيب أندارنا:

– «لا يمكن للبشر معرفة ما يدور داخل الـ إمبيريان. إنها قاعدة.»

إذن، حُجب الاتصال عن كل الركاب، وليس أنا فقط. الفكرة مريحة بطريقة غريبة.

علاوة على ذلك، مصطلح الإمبيريان بأكمله جديد عليّ اليوم. لابد أن كاوري في قمة سعادته الليلة مع كل هذه السياسات التنينية التي بدأت تظهر للعلن. ما الذي قرروه؟

أختلس نظرة إلى والدتي، لكنها تنظر في كل اتجاه باستثناء اتجاهي.

يتقدم الجنرال ميلغرين نحو مقدمة المنصة، وزيه يفيض بالأوسمة. داين محق في شيء واحد – الجنرال الأعلى في مملكتنا مرعب حقاً. لم يجد يوماً غضاضة في استخدام المشاة كوقود للمدافع، وقسوته حين يتعلق الأمر بالإشراف على استجواب – وإعدام – الأسرى معروفة للجميع، على الأقل على مائدة طعام عائلتي.

يحتل تنينه الهائل المرعب المساحة بأكملها بجوار المنصة، ويسود صمت مطبق على الحشد حين يوجه ميلغرين يديه أمام وجهه.

يعلن بصوت أُضخم سحرياً بفضل السحر البسيط ليتردد صداه عبر الميدان ليسمعه الجميع:

– «لقد نقل كوداغ أن التنانين قد أبدت كلمتها فيما يخص الفتاة سورنجيل.»

أصححه في عقلي، ومعدتي تتقلص: امرأة.

يُعلن:

– «في حين أن التقاليد أرتنا أن هناك راكباً واحداً لكل تنين، لم يسبق قط أن اختار تنينان الراكب ذاته، وبالتالي لا يوجد قانون تنيني يمنع ذلك.»

تُلمح نبرته إلى أنه يعتبر نفسه واحداً منهم:

– «رغم أننا نحن الركاب قد لا نشعر بأن هذا... منصف، إلا أن التنانين تسن قوانينها الخاصة. كل من تايرِن و...»

ينظر من فوق كتفه فيندفع مساعده للأمام ويهمس في أذنه:

– «وأندارنا قد اختارا ڤيوليت سورنجيل، وبالتالي يُعتمد اختيارهما.»

يتعالى همهمة الحشد، لكن كتفيّ تسترخيان بارتياح بالغ. لن أضطر لاتخاذ خيار مستحيل.

يُزمجر تايرِن:

– «كما يجب أن يكون. لا دخل للبشر في قوانين التنانين.»

تتقدم أمي وتقوم بالإيماءة ذاتها بيديها لتضخيم صوتها، لكنني لا أستطيع التركيز على ما تقوله وهي تُنهي الجزء الرسمي من حفل التصفية، واعدةً الركاب غير المرتبطين بفرصة أخرى في العام المقبل. إن لم يتمكنوا من قتل أحدنا بينما روابطنا ضعيفة في الأشهر القليلة القادمة ويحاولوا الارتباط بتنانيننا بأنفسهم.

أنا أنتمي إلى تايرِن وأندارنا... وبطريقة ملعونة حقاً... إلى زايدن.

توخز فروة رأسي، فأختلس نظرة عبر الميدان إليه.

وكأنه أحس بنظرتي، يرفع إصبعه الواحد وهو ينظر إليّ. الهدف رقم واحد.

تنهي والدتي كلمتها، ويتعالى هتاف صاخب حول الميدان:

– «مرحباً بكم في عائلة لا تعرف حدوداً، ولا قيوداً، ولا نهاية. أيها الركاب، تقدموا خطوة للأمام.»

أنظر يساراً ويميناً في حيرة، وكذلك يفعل كل راكب آخر.

يقول تايرِن:

– «خمس خطوات أو نحو ذلك.»

فأخطوها.

تنادي أمي:

– «أيتها التنانين، إنه لشرف لنا كما هو الحال دائماً. والآن نحتفل!»

تلفح حرارة لاهبة ظهري، فأهسس ألماً بينما يصرخ الركاب على كلا جانبيّ. أشعر وكأن ظهري يحترق بحق الجحيم، ومع ذلك يهتف الجميع في أنحاء الميدان بصخب، وبعضهم يركض نحونا.

ركاب آخرون ينغمسون في العناق.

يعدني تايرِن:

– «سيعجبكِ. إنه فريد من نوعه.»

يتلاشى الألم ليتحول إلى وجع خفيف، فأختلس نظرة من فوق كتفي. هناك شيء أسود صلب... يطل من السترة.

– «ما الذي سيعجبني؟»

يصل داين إليّ، وابتسامته عريضة وهو يطوق وجهي بيديه:

– «ڤيوليت! لقد احتفظتِ بكليهما!»

ترتسم ابتسامة على شفتيّ:

– «أظنني فعلت ذلك حقاً.» الأمر كله... سريالي، أكثر من أن يُستوعب في يوم واحد.

– «أين...» يتركني ويدور حولي. «هل يمكنني فك هذا؟ الجزء العلوي فقط؟» يسأل وهو يشد الرقبة المرتفعة للجزء الخلفي من سترتي.

أومئ برأسي. بعد بضع دفعات وسحبات، يلسع هواء أكتوبر المنعش قاعدة عنقي.

– «الجحيم المقدس. يجب أن تري هذا.»

يأمر تايرِن:

– «أخبري الفتى أن يبتعد.»

أقول:

– «يقول تايرِن أنه يجدر بك الابتعاد.»

يبتعد داين عن الطريق.

فجأة، رؤيتي لم تعد رؤيتي الخاصة. أنا أنظر إلى ظهري من خلال... عيني أندارنا. ظهر يحمل أثر تمرد أسود لامع لتنين في منتصف رحلة طيران يمتد من كتف إلى كتف، وفي المنتصف، صورة ظلية لتنين ذهبي متلألئ.

أهمس:

– «إنه جميل.» لقد وُسمت بسحرهما كراكبة الآن، كراكبتهما الخاصة.

تجيب أندارنا:

– «نحن نعلم ذلك.»

أرمش بعيني، وتعود رؤيتي لي مجدداً، وتربط يدا داين مشدي بسرعة، ثم تستقران على وجهي، وتميلانه للأعلى نحو وجهه.

يندفع بالكلام، والذعر في عينيه:

– «يجب أن تعلمي أنني كنت لأفعل أي شيء لإنقاذكِ يا ڤيوليت، للحفاظ على سلامتكِ. ما قاله ريورسون...» ثم يهز رأسه.

أقول مطمئنة إياه، وأومئ برأسي حتى بينما ينكسر شيء ما في قلبي:

– «أنا أعلم. أنت تريدينني آمنة دائماً.» كان ليفعل أي شيء. باستثناء خرق القوانين.

يمسد إبهامه على وجنتي، وتبحث عيناه عن شيء ما، ثم يضع فمه على فمي:

– «يجب أن تعلمي ما أشعر به تجاهكِ.»

كانت شفتاه ناعمتين، لكن القبلة كانت حازمة، وتسري البهجة في عمودي الفقري. بعد سنوات، داين يقبلني أخيراً.

لكن الإثارة تتلاشى في أقل من نبضة قلب. لا توجد حرارة. لا طاقة. لا وخزة رغبة حادة. يُفسد خيبة الأمل اللحظة، لكن ليس بالنسبة لداين. كان يبتسم بسعادة غامرة حين يبتعد.

لقد انتهى الأمر في لحظة.

كان هذا كل ما أردته يوماً... باستثناء...

تباً. لم أعد أريده بعد الآن.

من الطبيعي إذن أنه كلما كان التنين أكثر قوة، كانت القدرة السحرية الفريدة التي يظهرها راكبه أكثر قوة. يجب على المرء أن يحذر من الراكب القوي الذي يرتبط بتنين صغير، لكن يجب أن يكون أشد حذرًا من المتدرب غير المرتبط، الذي لن يتوقف عند أي شيء لاغتنام فرصة الارتباط.

– دليل الرائد أفيندرا لقطاع الركاب (النسخة غير المصرح بها)



الفصل السابع عشر

بعد النوم في الثكنات المكتظة طوال الشهرين الماضيين، يبدو الأمر غريبًا، ومترفًا بشكل عجيب، أن أحظى بغرفتي الخاصة. لن أستخف بنعمة الخصوصية هذه مرة أخرى أبدًا.

أغلقتُ باب غرفتي خلفي، وأنا أجرّ قدمي بخطىً عرجاء نحو الردهة.

انفتح باب غرفة ريانون، المواجه لغرفتي عبر الردهة الصغيرة، ورأيتُ قوام سوير الطويل والنحيل يخرج منها. مرر أصابعه عبر خصلات شعره، وحين لمحني، ارتفع حاجباه وتسمر في مكانه – وقد توردت وجنتاه بحمرة تكاد تضاهي لون نمشه –.

ابتسمتُ باتساع قائلة:

– «صباح الخير.»

قال متبسمًا بتكلف مرتبك:

– «ڤيوليت.»

ثم مضى مسرعًا متجهًا نحو الممر الرئيسي لمسكن طلاب السنة الأولى.

خرج ثنائي من الجناح الثاني ممسكين بأيدي بعضهما من الغرفة المجاورة لغرفة ريانون، فبادلتهما ابتسامة عابرة وأنا أسند ظهري إلى باب غرفتي في انتظارها، مختبرةً كاحلي بتحريكه في حركات دائرية. كان يؤلمني، تمامًا كما يحدث في كل مرة أتعرض فيها لالتواء، لكن الدعامة وحذائي العسكري يثبتانه في مكانه بقوة تكفي لتحمل وزني عليه. لو كنتُ في أي مكان آخر، لطلبتُ عكازين، لكن فعل ذلك هنا لن يؤدي إلا إلى رسم هدف آخر على ظهري، وبحسب كلام زايدن، فإن الهدف المرسوم عليّ كبير بما فيه الكفاية بالفعل.

خرجت ريانون من غرفتها، وابتسمت بمجرد أن رأتني، وسألت:

– «ألم تعودي مكلّفة بنوبة الإفطار؟»

أجبتهَا:

– «أُخبرتُ الليلة الماضية أن كل المهام غير المرغوب فيها قد أُحيلت إلى المتدربين غير المرتبطين، كي نوجه طاقتنا نحو دروس الطيران.»

مما يعني أنني سأضطر لإيجاد طريقة أخرى لإضعاف خصومي قبل التحديات. زايدن محق. لا يمكنني الاعتماد دائمًا على إسقاط كل عدو بالسم، لكنني في الوقت نفسه لن أتجاهل الميزة الوحيدة التي أمتلكها هنا.

غمغمت ريانون:

– «سبب آخر ليحقد علينا غير المرتبطين.»

قلتُ ممازحة:

– «إذن، سوير، هاه يا ريانون؟»

بدأنا السير في الردهة، متجاوزتين بضع غرف أخرى قبل أن نصل إلى الممر الرئيسي المؤدي إلى القاعة الدائرية. يجب أن أعترف، غرف السنة الأولى ليست بفسحة غرف السنة الثانية، لكن على الأقل حصلت كلتانا على غرف بنوافذ.

ارتسمت ابتسامة ماكرة على شفتيها، وقالت:

– «شعرتُ برغبة في الاحتفال.»

ثم رمقتني بنظرة جانبية سريعة مضيفة:

– «ولماذا لم أسمع أنكِ كنتِ تحتفلين بدوركِ؟»

انخرطنا وسط الحشود المتجهة نحو قاعة التجمع، فأجبتها:

– «لم أجد بعد الشخص الذي أرغب في الاحتفال معه.»

قالت باستنكار مازح:

– «حقًا؟ لأنني سمعتُ أنكِ وقائد فرقة معين حظيتما بلحظة خاصة الليلة الماضية.»

التفتُّ إليها بحدة، وكدتُ أتعثر في خطواتي.

أردفت قائلة:

– «هيا يا ڤيوليت. كان قطاع الركاب بأكمله هناك، ألم تفكري أن أحدهم قد رآكما؟»

قلبت عينيها لتضيف:

– «لن تستمعي إلى محاضرة أخلاقية مني. من يكترث حقًا إن كان الارتباط بضابط أعلى رتبة أمرًا منبوذًا؟ لا توجد لائحة تمنع ذلك، كما أنه ليس هناك ضمان لأي منا بأن يبقى على قيد الحياة حتى نهاية اليوم.»

اعترفتُ قائلة:

– «حجج قوية. لكن الأمر...»

هززتُ رأسي باحثة عن الكلمات المناسبة.

– «الأمر ليس هكذا بيننا. لطالما تمنيتُ أن يكون كذلك، لكن حين قبلني... لم يكن هناك أي شعور. لا شيء على الإطلاق.»

كان من المستحيل إخفاء نبرة خيبة الأمل من صوتي.

شبكت ذراعها بذراعي وقالت بتعاطف:

– «حسنًا، هذا أمر مؤسف. أنا آسفة حقًا.»

تنهدتُ قائلة:

– «وأنا كذلك.»

انفتح باب آخر في نهاية الممر، وخرج منه ليام مايري واضعًا ذراعه حول خصر متدربة أخرى من السنة الأولى، والتي ارتبطت بتنين بني ذي ذيل هراوي. يبدو أن الجميع كان يحتفل الليلة الماضية باستثنائي.

شق ريدوك طريقه وسط الزحام وألقى بذراعيه حول كتفيّ وكتف ريانون بمجرد دخولنا القاعة الدائرية، قائلًا:

– «صباح الخير أيتها السيدات. أو بالأحرى، أيها الركاب؟»

ردت ريانون مبتسمة في وجهه:

– «يعجبني وقع كلمة ركاب.»

وافقها ريدوك قائلًا:

– «لها رنين خاص فعلًا.»

قلتُ بينما كنا نعبر بين الأعمدة المنحوتة على شكل تنانين ونهبط الدرج نحو القاعة المشتركة:

– «إنها أفضل من كلمة (أموات) بالتأكيد. أين أثرك السحري؟»

رفع ذراعه عن كتفي، وشمّر كم سترته ليكشف عن علامة بنية تمثل صورة ظلية لتنين على الجزء العلوي من ذراعه، وقال:

– «ها هو هنا. وماذا عنكِ؟»

أجبته:

– «لا أستطيع رؤيته. إنه على ظهري.»

لمعت عيناه بمرحٍ وهو يقول:

– «هذا سيبقيكِ أكثر أمانًا إذا انفصلتِ يومًا عن تنينكِ الهائل ذاك. أقسم أنني كدتُ أتبول على نفسي من الرعب حين رأيته في الميدان. وماذا عن أثركِ أنتِ يا ريانون؟»

ردت ببرود ساخر:

– «في مكان لن تراه أبدًا.»

وضع يده على قلبه متصنعًا الألم وقال:

– «لقد جرحتِ مشاعري.»

ردت والابتسامة تعلو وجهها:

– «أشك في ذلك كثيرًا.»

عبرنا القاعة المشتركة وصولًا إلى قاعة التجمع، ثم شققنا طريقنا للوقوف في طابور الإفطار.

كان من الغريب أن أقف في هذا الجانب من الطابور، وفزعت حين وقع بصري على الشاب الواقف خلف طاولة التقديم.

إنه أورين.

رمقني بنظرة كراهية جعلت قشعريرة جليدية تسري في عمودي الفقري.

تجاوزتُ محطته، مفضلةً الفاكهة الطازجة التي أعلم أنه لا يمكن العبث بها، تحسبًا لأن يقرر تبني أسلوبي في حل النزاعات ويدس لي السم.

تمتم ريدوك من خلفي:

– «وغد حقير. لا زلت لا أصدق أنهم حاولوا قتلكِ.»

هززتُ كتفي بلامبالاة وأنا أغامر بأخذ كوب من عصير التفاح:

– «أنا أصدق ذلك. أنا الحلقة الأضعف، أليس كذلك؟ لسوء حظي، هذا يعني أن البعض سيسعى للتخلص مني من أجل مصلحة الجناح.»

توجهنا نحو منطقة الجناح الرابع ووجدنا طاولة بها ثلاثة مقاعد شاغرة.

بدأ ريدوك متسائلًا:

– «هل تمانعون إذا...»

قاطعه شابان من قسم الذيل وهما ينهضان مسرعين عن المقعد:

– «بالتأكيد! إنها لكم!»

التفت الآخر من فوق كتفه قائلًا بينما يبحثان عن طاولة أخرى، تاركين هذه فارغة لنا:

– «عذرًا، سورنجيل!»

بحق الجحيم، ما الذي يحدث؟

التفت ريانون حول الطاولة وهي تقول:

– «حسنًا، كان هذا غريبًا بشكل مزعج.»

تبعتها، مسندتين ظهرينا إلى الجدار ونحن نتخطى المقعد لنجلس، ثم وضعنا صوانينا أمامنا.

راودتني رغبة مجنونة في شمّ إبطي لأتأكد مما إذا كانت تنبعث مني رائحة كريهة.

أشار ريدوك عبر القاعة نحو الجناح الأول وعلق:

– «أتريدان رؤية ما هو أغرب؟»

تتبعتُ نظراته، فارتفع حاجباي دهشة. كان جاك بارلو يُدفع بقوة بعيدًا عن طاولته. لقد أُجبر على الوقوف بينما احتل آخرون مقعده.

قرمشت ريانون حبة كمثرى ومضغتها متسائلة:

– «ما الذي يجري هنا بحق الجحيم؟»

انتقل جاك إلى طاولة أخرى – رفض الجالسون عليها إفساح المجال له – ثم وجد أخيرًا مكانًا على بعد طاولتين.

لاحظ ريدوك وهو يراقب المشهد ذاته:

– «يا لسقوط العظماء.»

لكنني لم أشعر بأي نشوة وأنا أراقب جاك يعاني. فالكلاب الشرسة تعض بقسوة أكبر حين تُحشر في الزاوية.

مرت الفتاة الممتلئة من الجناح الأول – التي تغلبتُ عليها في تحديي الثاني – بجوار طاولتنا، وقالت بابتسامة متوترة:

– «مرحبًا سورنجيل.»

لوحتُ لها بارتباك قائلة:

– «أهلًا.»

وما إن ابتعدت، التفتُ لأهمس لريدوك وريانون:

– «لم تتحدث إليّ منذ أن سلبتها أحد خناجرها في ذلك التحدي.»

نفخت إيموجين خصلات شعرها الوردي عن وجهها، وألقت بساقها فوق المقعد المقابل لنا لتجلس، مشمرةً عن أكمام سترتها لتكشف عن أثر التمرد الخاص بها، وقالت:

– «السبب هو ارتباطكِ بـ تايرِن.»

ثم أردفت:

– «صباح ما بعد يوم التصفية يكون دائمًا فوضى عارمة. موازين القوى تتبدل، وأنتِ يا سورنجيل الصغيرة، على وشك أن تصبحي أقوى راكب في القطاع. أي شخص يملك ذرة من عقل سيخشاكِ.»

رمشتُ وعيناي تتسعان، بينما تسارعت دقات قلبي. هل هذا ما يحدث فعلًا؟ ألقيتُ نظرة فاحصة حول القاعة ولاحظتُ التغيرات. تفككت المجموعات المألوفة، وبعض المتدربين الذين كنتُ أعتبرهم تهديدًا لم يعودوا يجلسون في أماكنهم المعتادة.

رفعت ريانون حاجبها موجهة حديثها لطالبة السنة الثانية:

– «وهل هذا هو السبب الذي يجعلكِ تجلسين معنا الآن؟ لأنني أستطيع أن أعد على أصابع يد واحدة الكلمات اللطيفة التي تفوهتِ بها لأي منا.»

رفعت قبضتها مضمومة دون أن تبسط إصبعًا واحدًا لتؤكد فكرتها.

اتخذت كوين – طالبة السنة الثانية الطويلة في فرقتنا والتي لم تكلف نفسها عناء النظر إلينا منذ عبور المتراس الصخري – مقعدًا بجوار إيموجين، ووصل سوير ليجلس على الجانب الآخر من ريانون. أرجعت كوين خصلات شعرها الأشقر المجعد خلف أذنيها وأبعدت غرتها عن عينيها، وارتفعت وجنتاها المستديرتان بابتسامة إثر تعليق قالته إيموجين. يجب أن أعترف، الأقراط الحلقية التي تزين حواف أذنيها تبدو مذهلة، ومن بين الرقع العسكرية الست التي تزين زيها، كانت

الرقعة الخضراء الداكنة – التي تطابق لون عينيها – وتحمل ظلين بشريين، هي الأكثر إثارة للاهتمام. كان يجدر بي دراسة معاني جميع الرقع، لكن بناءً على ما سمعته، فإنها تتغير كل عام.

أنا شخصيًا معجبة بالرقع الأولى التي مُنحناها. لقد اضطررتُ لحياكة الرقعة التي تتخذ شكل لهب وتحمل شعار الجناح الرابع يتوسطها الرقم اثنان بلون مائل للأحمر، بعناية فائقة، محذرة من غرز الإبرة إلا في قماش درعي المُقوَّى، إذ لا توجد إبرة قادرة على اختراق حراشف التنانين.

غير أن رقعتي المفضلة كانت تلك المثبتة بجوار رقعة قسم اللهب. فنحن الفرقة التي تضم أكبر عدد من الأعضاء الناجين منذ عبور المتراس الصخري؛ الفرقة الحديدية لهذا العام.

ردت إيموجين قبل أن تقضم كعكتها:

– «لم تكونوا مثيرين للاهتمام بما يكفي لنجلس معكم من قبل.»

أضافت كوين وهي تبعد خصلاتها المجعدة مجددًا، لتعود وتتدلى على وجهها:

– «عادة ما أجلس مع حبيبتي في قسم المخلب. فضلًا عن أنه لا فائدة من التعرف عليكم عندما ينتهي المطاف بمعظمكم موتى. بلا إهانة.»

قلتُ وأنا أبدأ بقضم تفاحتي:

– «لم نعتبرها كذلك؟»

كدتُ أبصق ما في فمي حين أتى هيتون وإيمري – طالبا السنة الثالثة الوحيدان في فرقتنا – وجلسا على جانبي إيموجين وكوين في المقعد المقابل لنا.

الوحيدان الغائبان عنا هما داين وسيانا، اللذان يتناولان طعامهما مع القيادة كالمعتاد.

قال هيتون لإيمري عبر الطاولة، وكأننا التقطنا أطراف حديث كانا مندمجين فيه سلفًا، وكانت خصلات شعره الحمراء كاللهب عادةً تبدو خضراء اليوم:

– «ظننتُ أن سايفرت سيرتبط بتنين. باستثناء خسارته أمام سورنجيل، فقد اجتاز كل التحديات ببراعة.»

اندفعتُ قائلة:

– «لقد حاول قتل أندارنا.»

اللعنة. ربما كان يجدر بي الاحتفاظ بذلك لنفسي.

استدارت كل الرؤوس حول الطاولة نحوي بذهول.

هززت كتفي مضيفة:

– «أخمّن أن تايرِن قد أخبر بقية التنانين بما حدث.»

تساءل ريدوك:

– «لكن بارلو ارتبط بتنين؟ على الرغم من أنني سمعتُ أن تنينه البرتقالي ذا الذيل العقربي صغير الحجم إلى حد ما.»

أكدت كوين كلامه:

– «أجل، هي كذلك. ولهذا السبب يعاني هذا الصباح.»

غمغمت ريانون، وضيقت عينيها وهي تتأمل صينيتي:

– «لا تقلقوا – أنا متأكدة أنه سيعوض نقصه في المكانة الاجتماعية بطرق أخرى.»

ثم أردفت:

– «عليكِ تناول بعض البروتين يا ڤيوليت. لا يمكنكِ النجاة بتناول الفاكهة فقط.»

انشغلتُ بتقشير برتقالة وأنا أرد:

– «إنه الطعام الوحيد الذي أثق أنه لم يُعبث به، خاصة بوجود أورين خلف طاولة التقديم.»

زفرت إيموجين بضجر وسحبت ثلاث قطع من السجق إلى طبقي قائلة:

– «بحق الجحيم! إنها محقة. ستحتاجين إلى كامل قوتكِ لركوب التنين، وخاصة مع تنين ضخم مثل تايرِن.»

حدقتُ في قطع السجق. إيموجين تكرهني بقدر ما يكرهني أورين. بحق السماء، هي من كسرت ذراعي وخلعت كتفي في يوم التقييم.

رن صوت تايرِن في ذهني:

– 'يمكنكِ الوثوق بها.'

فزعتُ وسقطت البرتقالة من يدي.

أجبته ذهنيًا:

– 'إنها تكرهني.'

زمجر بصرامة لا تقبل الجدال:

– 'توقفي عن مجادلتي وكلي شيئًا.'

رفعتُ نظري لألتقي بعيني إيموجين، فأمالت رأسها وبادلتني نظرة تتحدى شكوكي.

استخدمتُ شوكتي لقطع السجق، ثم وضعتها في فمي ومضغتها، محولةً تركيزي مجددًا إلى المحادثة الدائرة على الطاولة.

سألت ريانون إيمري:

– «ما هي القدرة السحرية الفريدة خاصتك؟»

اندفع تيار هوائي عبر الطاولة، ليجعل الأكواب ترتجف بصلصلة خفيفة.

التلاعب بالهواء. فهمت.

اتسعت عينا ريدوك انبهارًا وقال:

– «هذا مذهل. ما مقدار الهواء الذي يمكنكِ التحكم به؟»

رمقه بنظرة مقتضبة وأجاب ببرود:

– «هذا لا يخصك.»

قالت إيموجين بنبرة حاسمة:

– «سورنجيل، بعد انتهاء الدروس اليوم، أنتِ ملكي.»

ابتلعتُ لقمتي وسألت بذهول:

– «عفوًا؟»

ثبتت عينيها الخضراوين الشاحبتين على عينيّ وأمرت:

– «قابليني في حلبة النزال.»

بادرت ريانون مدافعة:

– «أنا أتدرب معها بالفعل على النزالات...»

قاطعتها إيموجين بحزم:

– «جيد. لا يمكننا تحمل خسارتها لأي من التحديات.»

ثم وجهت حديثها إليّ:

– «لكنني سأساعدكِ في رفع الأثقال. نحتاج إلى تقوية العضلات المحيطة بمفاصلكِ قبل استئناف النزالات. هذه هي الطريقة الوحيدة لضمان نجاتكِ.»

وقفت شعيرات مؤخرة عنقي وتوجست، فسألتها:

– «ومنذ متى تهتمين بنجاتي؟»

هذا لا يتعلق بروح الفرقة. مستحيل. خاصة وأنها لم تكن تكترث لأمري إطلاقًا من قبل.

ردت وهي تحكم قبضتها على شوكتها:

– «منذ الآن.»

لكن تلك النظرة الخاطفة، السريعة كالبرق، نحو المنصة في نهاية القاعة هي ما فضح أمرها. قلقها لم ينبع من طيبة قلبها. ثمة ما يخبرني أن هذا مجرد أمر عسكري تتلقاه.

تابعت قائلة:

– «سيتم دمج الفرق في طابور الصباح. سيتقلص العدد إلى فرقتين في كل قسم. لقد حافظ آيتوس على حياة أكبر عدد من طلاب السنة الأولى – ومن هنا جاءت الرقعة – لذا سيُسمح له بالاحتفاظ بفرقته، لكننا على الأرجح سنكسب بضعة أفراد عندما يسحبون الفرق من القادة الذين لم يحققوا نفس مستوى النجاح.»

استرقتُ النظر بحذر نحو يميني، متجاوزة طاولات الجناح الرابع الأخرى، وصولًا إلى المنصة حيث يجلس زايدن مع نائبته وقادة الأقسام، بمن فيهم غاريك، الذي يبدو عرض كتفيه كفيلًا باحتلال مقعدين على الأقل. كان غاريك هو أول من التفت نحوي، وقد تجعدت جبهته بـ... ما هذا؟ قلق؟ ثم أشاح بنظره سريعًا.

السبب الوحيد الذي قد يجعله يشعر بأي قدر من القلق هو أنه يعرف الحقيقة. هو يعلم أن مصيري مربوط بمصير زايدن.

انتقل بصري بسرعة نحو زايدن، فانقبض صدري. وسيم. بشكل. مهلك. يبدو أن جسدي لا يكترث لكونه أخطر رجل في القطاع بأسره، إذ اندفعت الحرارة في عروقي، لتصبغ بشرتي بحمرة لاهبة.

كان يستخدم خنجرًا لتقشير تفاحة، مزيلًا القشرة في لولب واحد طويل متصل، وواصلت الشفرة طريقها بينما رفع عينيه، لتلتحم بنظراتي.

شعرت بوخز يسري في رأسي بأكمله.

يا إلهي، هل توجد أي خلية في جسدي لا تستجيب حضوريًا بمجرد رؤيته؟

نقل بصره نحو إيموجين ثم أعاده إليّ، وكان ذلك كافيًا لأتأكد يقينًا؛ لقد أمرها بمساعدتي في التدريب. زايدن ريورسون يكرس جهده الآن لإبقاء عدوته اللدودة على قيد الحياة.

***

بعد بضع ساعات، وعقب إعادة تشكيل الفرق وتلاوة قائمة الموتى، وقف جميع متدربي السنة الأولى من الجناح الرابع في الميدان الجوي، مرتدين سترات الطيران الجلدية المصروفة لنا حديثًا، بانتظار التنانين. كان الزي أكثر سماكة من المعتاد، ومزودًا بسترة كاملة أزررتها فوق درعي المصنوع من حراشف التنانين.

وعلى عكس أزيائنا العسكرية اليومية – مهما كان شكلها – لم تكن سترات الطيران الجلدية تحمل أي شارات سوى الرتبة على الكتف وتصنيف القيادة. لا أسماء. لا رقع. لا شيء قد يكشف هوياتنا إذا انفصلنا عن تنانينا خلف خطوط العدو. فقط الكثير من الأغماد المخصصة لحمل الأسلحة.

حاولتُ ألا أفكر في احتمالية المشاركة في المجهود الحربي يومًا ما، وركزتُ بدلاً من ذلك على الفوضى المنظمة التي تتجلى في ساحة الطيران هذا الصباح. لم أستطع تجاهل النظرات التي يرمق بها المتدربون تايرِن، أو المساحة الشاسعة التي تتركها له التنانين الأخرى. بصراحة، لو كُشِّر عن تلك الأنياب المرعبة في وجهي، لتراجعتُ أنا أيضًا.

دوى صوته ليملأ جمجمتي:

– 'لا، لن تفعلي، لأنكِ لم تفعليها. لقد صمدتِ ودافعتِ عن أندارنا.'

أدركتُ من نبرته أن هناك أماكن أخرى كان يفضل التواجد فيها.

أجبته في عقلي:

– 'فقط لأن الكثير من الأحداث كانت تتوالى في تلك اللحظة. ألن تأتي أندارنا هذا الصباح؟'

رد:

– 'لا حاجة لها بدروس الطيران ما دامت غير قادرة على حملكِ.'

أجبته:

– 'وجهة نظر.'

رغم أنه كان من الجميل رؤيتها. إنها أكثر هدوءًا في عقلي أيضًا، وليست متطفلة كـ تايرِن.

زمجر بحدة:

– 'لقد سمعتُ هذا. الآن انتبهي.'

قلبتُ عينيّ بضجر لكنني وجهتُ تركيزي نحو ما يقوله كاوري من وسط الميدان. كان يرفع يده، مستخدمًا سحرًا بسيطًا مألوفًا لتضخيم صوته حتى نتمكن جميعًا من سماعه.

ليرحمنا الإله حين يكتشف ريدوك كيفية القيام بذلك. كبحتُ ابتسامة، لعلمي التام أنه سيجد طريقة لإزعاج كل راكب في القطاع، وليس فقط أفراد فرقته.

كان صوته يتردد عبر الميدان:

– «...وببلوغكم اثنين وتسعين راكبًا فقط، أنتم الدفعة الأصغر لدينا حتى الآن.»

ارتخت كتفاي وتساءلتُ ذهنيًا:

– 'ظننتُ أن مئة وواحدًا كانوا مستعدين للارتباط، بالإضافة إليك؟'

أجاب تايرِن:

– 'الاستعداد لا يعني أنهم وجدوا ركابًا مستحقين.'

سألته باستنكار خفي:

– 'ومع ذلك، اختارني اثنان منكم؟ في وجود واحد وأربعين متدربًا بلا ارتباط؟ هذه إهانة بالغة لهم.'

رد بنبرة جافة:

– 'أنتِ مستحقة. أو هكذا أظن، لكن يبدو أنكِ لا تعيرين أي انتباه للدروس.'

أطلق زفرة قوية، فلفحتني دفعة حارة من البخار على مؤخرة عنقي.

تابع كاوري حديثه:

– «هناك واحد وأربعون راكبًا غير مرتبط مستعدون للقتل من أجل الوقوف مكانكم الآن. وتنانينكم تدرك تمامًا أن الرابط بينكم في أضعف حالاته حاليًا، لذا إن سقطتم، وإن فشلتم، فهناك احتمال كبير أن يتخلى عنكم التنين إذا رأى أن غير المرتبط سيكون خيارًا أفضل.»

تمتمتُ بخفوت:

– «مشجع للغاية.»

أصدر تايرِن صوتًا أشبه بالاستهزاء.

أنهى كاوري توجيهاته قائلًا:

– «الآن، سنقوم بامتطاء التنانين، ثم ننفذ سلسلة من المناورات المحددة التي تعرفها تنانينكم سلفًا. أوامركم بسيطة اليوم: ابقوا في مقاعدكم.»

ثم استدار وانطلق راكضًا، قاطعًا الأقدام العشرة التي تفصله عن الساق الأمامية لتنينه، ليتسلقها صعودًا في خط عمودي رشيق.

تمامًا كالعقبة الأخيرة في مسار القفاز.

ابتلعتُ ريقي، متمنية لو أنني لم أسرف في تناول الإفطار، واستدرتُ لأواجه تايرِن. وعن يميني ويساري، كان الركاب الآخرون ينفذون المناورة العمودية ذاتها للركوب. من المستحيل أن أنفذ ذلك في الظروف العادية، فما بالك وكاحلي لا يزال في مرحلة التعافي.

خفض تايرِن كتفه، وجعل من ساقه منحدرًا ممهدًا لأتمكن من الصعود.

ابتلعتني مرارة الهزيمة. لقد ارتبطتُ بأضخم التنانين – وأكثرها تذمرًا على الإطلاق – في القطاع بأكمله، ومع ذلك عليه أن يذلل العقبات لأجلي.

دَوَى صوته مجددًا:

– 'إنها تسهيلات لأجلي أنا. لقد اطلعتُ على ذكرياتكِ. ولن أسمح لكِ بغرز خناجركِ في ساقي كي تتسلقي. الآن، هيا بنا.'

أطلقتُ شخرة مكتومة لكنني بدأت الصعود، أهز رأسي بينما أتجاوز أشواكه المدببة للوصول إلى المقعد. كانت فخذاي تؤلمانني من أحداث الأمس، فتأوهتُ ألمًا وأنا أتخذ وضعيتي، محكمةً قبضتي على مقدمة المقعد المصنوعة من الحراشف.

انطلق تنين كاوري محلقًا نحو السماء.

أمرني تايرِن:

– 'تمسكي جيدًا.'

شعرتُ بحلقات الطاقة السحرية ذاتها تطوق ساقيّ بإحكام، وانخفض تايرِن لجزء من الثانية قبل أن يقذف بنا إلى السماء بقوة هائلة.

ضربت الرياح عينيّ بقسوة، وتقلصت معدتي وكأنها تسقط في الفراغ، فخاطرتُ بالتمسك بيد واحدة لإنزال نظارات الطيران على عينيّ. يا له من ارتياح فوري.

سألتُ تايرِن ذهنيًا بينما كنا نحلق خارج الوادي، صاعدين أعلى فأعلى نحو سلسلة الجبال:

– 'هل كان علينا الانطلاق في المرتبة الثانية؟'

فهمت الآن سبب عدم رؤيتي للتنانين تتدرب كثيرًا رغم أنني نشأتُ تقريبًا في كلية باسجيات. الأشخاص الوحيدون حولنا هم الركاب الآخرون.

وأكملتُ بتذمر:

– 'سيشاهد الجميع حين أنزلق لأسقط.'

أجاب بصرامة متعالية:

– 'لم أوافق على اتباع سماخد إلا لأن راكبه هو مدربكِ.'

رددتُ بتهكم:

– 'إذن أنت من النوعِ الذي يفضل الصدارة دائمًا. من الجيد معرفة ذلك. ذكرني بقضاء بعض الوقت في المعبد لأتوسل مرارًا لـ دون.'

حافظتُ على تركيزي مصوبًا نحو كاوري، مترقبةً اللحظة التي ستبدأ فيها المناورات.

سخر تايرِن بوضوح هذه المرة:

– 'آلهة القوة والحرب؟'

سألته متحدية:

– 'ماذا؟ ألا تعتقد التنانين أننا بحاجة إلى الآلهة في صفنا؟'

اللعنة، الجو قارص البرودة هنا. أحكمتُ قبضتي المكسوة بالقفاز على مقدمة المقعد.

أجاب بازدراء:

– 'التنانين لا تكترث لآلهتكم الضعيفة.'

انحرف كاوري نحو اليمين، فحذا تايرِن حذوه، ليقودنا في هبوط حاد بمحاذاة إحدى القمم الجبلية. شددتُ عضلات ساقيّ بقوة، لكنني كنت أدرك تمامًا أن طاقة تايرِن هي ما يثبتني في مقعدي.

أبقاني متشبثة عبر صعود آخر، وحتى خلال انعطاف شبه حلزوني، ولم يسعني إلا أن ألاحظ أنه كان يتبنى كل حركة ينفذها كاوري ويزيدها صعوبة وتحديًا.

قلتُ له بحدة:

– 'لا يمكنك إبقائي مثبتة هكذا طوال الوقت، كما تعلم.'

رد ببرود:

– 'راقبيني إذن. ما لم تفضلي أن يتم كشط بقاياكِ عن الجليد بالأسفل، كما حدث لراكب جلين هناك؟'

أدرتُ رأسي بحدة لأرى، لكن كل ما وقع عليه بصري كان ذيل تايرِن يتأرجح، بأشواكه الضخمة التي حجبت الرؤية.

أمرني بصرامة:

– 'لا تنظري.'

انعقد حلقي وسألته برعب:

– 'هل فقدنا راكبًا بالفعل؟'

أجاب بقسوة التنانين المعتادة:

– 'لقد أساء جلين الاختيار. هو لا يكوّن روابط قوية في كل الأحوال.'

يا. إلهي.

جادلته قائلة:

– 'إذا واصلتَ تثبيتي هكذا، فستُستنزف طاقتك في إبقائي على ظهرك، بدلاً من توجيهها حين نحتاج إلى القوة في المعارك.'

قلل من شأن الأمر قائلًا:

– 'إنه مقدار ضئيل للغاية من طاقتي.'

كيف بحق الجحيم يُفترض بي أن أكون راكبة إذا لم أستطع البقاء على ظهر تنيني اللعين بجهدي الشخصي؟

قال فجأة:

– 'فليكن لكِ ما أردتِ.'

تلاشت حلقات الطاقة تمامًا.

بدأتُ قائلة:

– 'شكرًا لـ... تباً!'

انحرف بحدة نحو اليسار فانزلقت فخذاي. انزلقت يداي أيضًا. وهويتُ مباشرة عن جانبه، بينما كانت أصابعي تتخبط باحثة عن أي نتوء للتشبث به دون جدوى.

ملأ أزيز الهواء أذنيّ وأنا أهوي نحو النهر الجليدي، وقبض الرعب الخالص على قلبي ليعتصره كالكماشة. وبدا شكل الجثة الملقاة بالأسفل يكبر أكثر فأكثر في مرمى بصري.

انتزُعتُ إلى الأعلى فجأة حين أمسكت بي مخالب تايرِن، محتوية إياي تمامًا كما فعل في يوم التصفية. حلق عاليًا، ثم ألقى بي من جديد، لكنني على الأقل كنتُ مستعدة للارتطام هذه المرة حين ارتفع ظهره ليتلقى جسدي الهاوي.

دوى في رأسي زئير مشمئز بلغة لم أفهمها.

سألته بينما أتخبط لأستعيد مقعدي وأتخذ وضعيتي مع استقرار مسار طيرانه:

– 'ماذا يعني هذا بحق الجحيم؟'

أجاب ببرود:

– 'الترجمة الأقرب للبشر هي على الأرجح: بحق الجحيم. الآن، هل ستبقين في مقعدكِ هذه المرة؟'

انخفض ليعود إلى التشكيل، ونجحتُ بالكاد في التشبث.

جادلته بإصرار:

– 'يجب أن أكون قادرة على فعل ذلك بنفسي. كلانا بحاجة لأن أتقن ذلك.'

غمغم تايرِن بانزعاج وهو يتبع كاوري في هبوط حاد:

– 'بشرية فضية عنيدة.'

سقطتُ مجددًا.

ومرة أخرى.

وثالثة.

***

في وقت لاحق من ذلك المساء، وبعد تناول العشاء، شققتُ طريقي نحو حلبة النزال. كان كل شيء في جسدي يئن ألمًا بسبب عدد المرات التي انزلقت

فيها عن ظهر تايرِن، وكنتُ شبه متأكدة من تشكل كدمات تحت ذراعيّ من جراء إمساكه العنيف بي في كل مرة.

اجتزتُ القاعة الدائرية وكنتُ أعبر نحو الجناح الأكاديمي، حين سمعتُ صوت داين ينادي باسمي، مهرولًا ليلحق بي.

انتظرتُ أن تجتاحني موجة السعادة المألوفة النابعة من فكرة أننا قد نحظى بدقيقة على انفراد، لكنها لم تأتِ. بدلًا من ذلك، غمرني بحر من الإحراج لم أعرف كيف أشق طريقي عبره.

ما خطبي بحق الجحيم؟ داين وسيم ولطيف ورجل صالح جدًا. إنه نبيل وأعز أصدقائي على الإطلاق. فلماذا لا يوجد بيننا أي انسجام عاطفي؟

قال بمجرد وصوله إلى جانبي، وقد عقد القلق حاجبيه:

– «أخبرتني ريانون أنكِ متجهة إلى هنا.»

رسمتُ ابتسامة متكلفة على شفتيّ وأنا أجيبه، بينما ننعطف عند الزاوية لتبدو صالة التدريب أمامنا، وأبوابها المقوسة الضخمة مشرعة:

– «أنا ذاهبة لأتدرب.»

لمس كتفي وتوقف قائلًا:

– «ألم تنالي كفايتكِ خلال الطيران اليوم؟»

توقفتُ بدورِي واستدرتُ لأواجهه في الممر الخالي.

تفقدتُ الضمادة على ذراعي وقلت:

– «بالتأكيد سقطتُ بما يكفي اليوم.»

على الأقل لم تتمزق الغرز التي تخيط جرحي.

تحرك فكه بحدة وقال:

– «بصراحة، ظننتُ أنكِ ستكونين بخير بمجرد أن يختاركِ تايرِن.»

أكدتُ له ونبرتي ترتفع قليلًا:

– «وسأكون كذلك. أحتاج فقط لتقوية عضلاتي لأتمكن من الثبات في مقعدي خلال المناورات، وتايرِن يصر على جعل كل شيء أصعب مما يفعله كاوري.»

دوى صوت تايرِن فجأة في رأسي:

– 'لمصلحتكِ.'

رددتُ بحدة في عقلي:

– 'هل أنت متواجد دائمًا هكذا؟'

أجاب ببساطة:

– 'أجل. اعتادي على ذلك.'

قاومتُ رغبة عارمة في التذمر من هذا التطفل الصارخ والتسلط الـ...

قاطع أفكاري:

– 'لا زلتُ هنا.'

سألني داين بقلق:

– «ڤيوليت؟»

اعتذرتُ بسرعة:

– «آسفة، لم أعتد بعد على اقتحام تايرِن لأفكاري.»

ابتسم داين وقال:

– «إنها علامة جيدة. تعني أن الرابط بينكما يزداد قوة. وبصراحة، لست متأكدًا من سبب تضييقه الخناق عليكِ في المناورات. لا يوجد أي تهديد جوي هناك سوى الـ غريفيون، وكلنا نعلم أن نفثة نار واحدة تعني نهاية تلك الطيور. أخبريه أن يخفف عنكِ قليلًا.»

زمجر تايرِن في عقلي:

– 'أخبريه أن يهتم بشؤونه الخاصة.'

قلتُ لداين كابحة ضحكتي بصعوبة:

– «سأفعل... إحم... سأخبره.»

ثم خاطبت تايرِن في عقلي:

– 'ترفق به قليلًا. إنه أعز أصدقائي.'

أطلق تايرِن شخرة ساخرة.

أفلتت تنهيدة من شفتي داين، وأحاط وجهي بكفه برفق، منزلاً بصره نحو شفتيّ للحظة خاطفة قبل أن يتراجع خطوة إلى الوراء، وقال:

– «اسمعي. بخصوص الليلة الماضية...»

قاطعته عاقدة ذراعيّ فوق صدري، متوخية الحذر مع ذراعي اليمنى:

– «تقصد الجزء الذي أخبرتني فيه أن زايدن سيتسبب في قتلي إن ارتبطتُ بـ تايرِن؟ أم الجزء الذي قبلتني فيه؟»

اعترف ونبرة صوته تنخفض:

– «القبلة. لم يكن... لم يكن ينبغي لذلك أن يحدث أبدًا.»

سرت موجة من الارتياح في أوصالي، فرسمتُ ابتسامة واسعة وقلت:

– «أليس كذلك؟»

الحمد للآلهة أنه يشعر بالأمر ذاته. ثم أردفت:

– «وهذا لا يعني أننا لسنا أصدقاء.»

وافقني الرأي، لكن عينيه كانتا مثقلتين بحزن لم أفهمه:

– «أعز الأصدقاء. والأمر ليس أنني لا أريدكِ...»

قاطعته وحاجباي يرتفعان دهشة:

– «ماذا؟ ماذا تقول؟»

هل اختلطت علينا الأمور بطريقة ما؟

ظهر خطان عميقان بين حاجبيه وهو يوضح:

– «أنا أقول نفس ما تقولينه أنتِ. من المنبوذ بشدة إقامة علاقة جسدية مع أي شخص ضمن تسلسلنا القيادي.»

قلت مبهوتة:

– «أوه.»

أجل، لم يكن هذا ما أقصده على الإطلاق.

استطرد قائلًا:

– «وأنتِ تعلمين كم كافحتُ لأصبح قائد فرقة. أنا مصمم على أن أصبح قائد جناح في العام المقبل، وبقدر ما تعنين لي...»

هز رأسه بأسف.

أوه. إذن الأمر كله يتعلق بالمناصب والمكانة بالنسبة له. أومأت برأسي ببطء وقلت:

– «صحيح. أنا أتفهم ذلك.»

لا ينبغي أن يهمني أن السبب الوحيد لعدم سعيه خلفي هو الرتبة العسكرية، وهو لا يهمني حقًا. لكنه بالتأكيد يجعلني أفقد جزءًا من احترامي له، وهو أمر لم أتوقعه قط.

بدأ يقترح، وقد أضاء الأمل عينيه:

– «وربما في العام القادم، إذا كنتِ في جناح مختلف، أو حتى بعد التخرج...»

نادت إيموجين من عند المدخل، عاقدة ذراعيها فوق صدرها:

– «سورنجيل، دعينا نذهب. لن أجلس هنا طوال الليل. هذا إن كان قائد فرقتنا قد انتهى من الحديث معكِ، بالطبع.»

تراجع داين مصدومًا، ونقل بصره بيني وبين إيموجين وسأل:

– «إنها تدربكِ؟»

هززت كتفي ببساطة:

– «لقد عرضت المساعدة.»

ارتسمت على شفتي إيموجين ابتسامة باردة لم تبلغ عينيها، وقالت:

– «ولاء الفرقة وما إلى ذلك من الهراء. لا تقلق. سأعتني بها جيدًا. وداعًا يا آيتوس.»

رميتُ داين بابتسامة سريعة ومضيتُ مبتعدة، رافضةً الالتفات من فوق كتفي لأرى ما إذا كان لا يزال واقفًا هناك. تبعتني إيموجين بخطى حثيثة، ثم قادتني نحو الزاوية اليسرى حيث يلتقي الزجاج بالحجر، ودفعت بابًا لم أكلف نفسي عناء ملاحظته من قبل.

كانت الغرفة مضاءة بأنوار سحرية وتزخر بمجموعة متنوعة من الآلات الخشبية المزودة برفوف وحبال وبكرات، ومقاعد ذات رافعات، وقضبان مثبتة على الجدران.

وعلى الجانب الآخر، كانت إحدى متدربات السنة الأولى من أبناء تايريندور – التي رأيتها في الغابة تلك الليلة – تؤدي تمارين الضغط على حصيرة، بينما كان غاريك جاثمًا بجوارها يشجعها بحماس.

تحدثت إيموجين بنبرة مفرطة الحلاوة تقطر سخرية:

– «لا تقلقي يا سورنجيل. نحن ثلاثة فقط هنا. أنتِ في أمان تام.»

التفت غاريك، والتقى بصره ببصري رغم استمراره في عدّ التكرارات لطالبة السنة الأولى. أومأ برأسه مرة واحدة، ثم عاد إلى مهمته.

قلت لها بينما تقودني نحو آلة ذات مقعد خشبي مصقول ومربعين مبطنين يلتقيان أمامه على مستوى الركبة:

– «أنتِ الشخص الوحيد الذي يقلقني.»

ضحكت إيموجين، وأظن أن ذلك كان أول صوت صادق أسمعها تصدره، وقالت:

– «ملاحظة في محلها. بما أننا لا نستطيع تمرين كاحلكِ أو ذراعيكِ حتى تتعافى، سنبدأ بأهم العضلات التي تحتاجينها للبقاء على ظهر التنين.»

رمقت جسدي بنظرة سريعة وتنهدت باشمئزاز واضح:

– «تلك الفخذان الداخليتان الضعيفتان بائستا الحال.»

سألتها وأنا أجلس في مقعد الآلة واضعةً الخشب المبطن بين ركبتيّ بينما كانت هي تقوم بتعديلها:

– «أنتِ تفعلين هذا فقط لأن زايدن يجبركِ، أليس كذلك؟»

التقت عيناها بعيني وضاقتا بحدة وهي تصدر أوامرها:

– «القاعدة الأولى: إنه ريورسون بالنسبة لكِ أيتها المتدربة المستجدة، ولا يحق لكِ أبداً سؤالي عنه. إطلاقاً.»

أشرت محتجة:

– «هاتان قاعدتان.»

بدأتُ أعتقد أن تخميني الأول بشأنهما كان صحيحاً. مع هذا النوع من الولاء الشرس، لا بد وأنهما عشيقان.

أنا لستُ غيورة. كلا. تلك الهوة البشعة التي تتسع داخل صدري ليست غيرة. مستحيل أن تكون كذلك.

سخرت وسحبت رافعة أحدثت ضغطاً فورياً على الخشب، ليندفع المربعان نحو الخارج، مباعدين بين فخذي، وأمرتني بصرامة:

– «الآن ابدئي العمل. ادفعيهما معاً من جديد. ثلاثين تكراراً.»

«ليس ثمة ما هو أقدس من الأرشيف. حتى المعابد يمكن إعادة بنائها، لكن الكتب متى أُتلفت لا تُكتب من جديد.»

– دليل العقيد داكستون للتفوق في قطاع النساخين



الفصل الثامن عشر

صرّت عجلات عربة الكتب الخشبية وأنا أدفعها عبر الجسر الذي يربط بين قطاع الركاب وقطاع المعالجين، متجاوزةً أبواب العيادة نحو قلب باسجيات.

أضاءت الأضواء السحرية طريقي عبر الأنفاق، في ممرٍ آلفه لدرجة أنني أستطيع عبوره وعيناي مغلقتان. ملأت رائحة التراب والحجر رئتيّ كلما توغلت نزولًا، وطعنة الحنين التي كانت تباغتني كل يوم تقريبًا – طوال الشهر الماضي منذ تعييني في نوبة الأرشيف – لم تعد بحِدّتها التي كانت عليها بالأمس، والتي بدورها كانت أخف من اليوم الذي سبقه.

أومأتُ برأسي لطالب السنة الأولى من النساخين الواقف عند مدخل الأرشيف، فقفز من مقعده مسرعًا ليفتح الباب الذي يشبه باب قبو حصين.

قال وهو يمسك الباب لأعبر:

– «صباح الخير أيتها المتدربة سورنجيل. لقد افتقدتكِ البارحة.»

أجبته بابتسامة وأنا أدفع العربة للداخل:

– «صباح الخير أيها المتدرب بيرسون.»

من بين جميع المهام في القطاع، حظيتُ بمهمتي المفضلة.

تابعتُ قائلة:

– «لم أكن أشعر بخير.»

لقد عانيتُ من نوبات دوار طوال اليوم، ولا شك أن السبب هو قلة شرب الماء، لكنني على الأقل تمكنتُ من أخذ قسط من الراحة.

كانت تفوح من الأرشيف رائحة ورق الرق القديم، وصمغ تجليد الكتب، والحبر. كانت تفوح منه رائحة الوطن.

امتدت صفوف من الأرفف – التي يبلغ ارتفاعها عشرين قدمًا – على طول المبنى الكهفي الشاسع. تشربتُ المشهد بملء عينيّ وأنا أنتظر بجوار الطاولة الأقرب للمدخل؛ ذلك المكان الذي أمضيت فيه جلّ وقتي خلال السنوات الخمس الماضية. لا يُسمح بتجاوز هذه النقطة إلا للنساخين، وأنا الآن راكبة.

رسمت هذه الفكرة ابتسامة على شفتيّ بينما اقتربت امرأة ترتدي سترة وقلنسوة بلون القشدة، وعلى كتفها خُيِّط مستطيل ذهبي واحد. طالبة سنة أولى. وحين أزاحت القماش عن رأسها لتكشف عن شعرها البني الطويل، والتقت عيناها بعينيّ، اتسعت ابتسامتي حتى لامست أذنيّ.

أشرتُ لها بلغة الإشارة:

– «جيسينيا!»

ردت بالإشارة:

– «المتدربة سورنجيل.»

التمعت عيناها المشرقتان، لكنها كبحت ابتسامتها بصعوبة.

في هذه اللحظة بالذات، مقتُّ طقوس النساخين وأعرافهم الصارمة. لم يكن هناك ما يعيب أن أعانق صديقتي بشدة، لكنها ستتعرض للتوبيخ بتهمة فقدان

الرزانة. ففي النهاية، كيف يمكننا التأكد من مدى جدية النساخين وتفانيهم في عملهم، إن هم سمحوا لابتسامة أن تفلت من شفاههم؟

أشرتُ لها، وعيناي تفيضان بالسرور:

– «رؤيتكِ تسعدني حقًا. كنتُ أعلم أنكِ ستجتازين الاختبار.»

ردت بالإشارة وهي تطبق شفتيها بقوة كي لا تبتسم:

– «هذا فقط لأنني درستُ معكِ طوال العام الماضي.»

ثم اكفهر وجهها وأكملت:

– «رُعبتُ حين سمعتُ بإجباركِ على الانضمام إلى قطاع الركاب. هل أنتِ بخير؟»

أشرتُ لها لأطمئنها:

– «أنا بخير.»

ثم توقفتُ باحثة في ذاكرتي عن الإشارة الصحيحة للارتباط بتنين.

– «لقد ارتبطتُ، وأنا...»

مشاعري معقدة، لكنني أفكر في إحساس التحليق على ظهر تايرِن، والوخزات اللطيفة من أندارنا التي حثتني على الاستمرار حين ظننتُ أن عضلاتي ستنهار خلال جلسات تدريب إيموجين القاسية، وأفكر في علاقتي بأصدقائي، ولا يسعني إنكار الحقيقة.

أكملتُ إشارتي:

– «أنا سعيدة.»

اتسعت عيناها التماسةً للدهشة وأشارت:

– «ألا يقلقكِ طوال الوقت أنكِ قد...»

تلفتت يمنة ويسرة، لكن لم يكن هناك أحد قريب بما يكفي لرؤيتنا.

– «تعلمين... قد تموتين؟»

أومأتُ برأسي وأشرت:

– «بالطبع. لكن من الغريب أنكِ تعتادين على هذا الشعور نوعًا ما.»

رمقتني بنظرة مرتابة وأشارت:

– «إن كنتِ تقولين ذلك. دعينا ننجز عملكِ. هل كل هذه الكتب مسترجعة؟»

أومأتُ متفقة، ومددتُ يدي في جيب بنطالي لأخرج لفافة رق صغيرة وأعطيتها إياها، ثم أشرت:

– «وهناك بضعة طلبات من الأستاذة ديفيرا.»

ترسل الراكبة المسؤولة عن مكتبتنا الصغيرة قائمة بالطلبات والكتب المسترجعة كل ليلة، وأنا أحضرها قبل الإفطار، ولعل هذا هو سبب قرقرة معدتي الآن.

حرق كل تلك السعرات الحرارية الإضافية بسبب مزيج من الطيران، ودروس النزالات مع ريانون، وجلسات التعذيب مع إيموجين، يعني أن قدرتي على التهام الطعام قد تضاعفت بشكل غير مسبوق.

أشارت بعد أن دَسّت اللفافة في جيب خفي داخل ردائها:

– «هل من شيء آخر؟»

ربما يكون السبب هو تواجدي في الأرشيف، لكن طعنة من الحنين إلى الوطن كادت تصرعني.

أشرتُ لها:

– «هل هناك أي احتمال بوجود نسخة من كتاب (خرافات الأرض اليباب) لديكم؟»

لقد كانت ميرا محقة، لم يكن يجدر بي إحضار كتاب الخرافات معي، لكن سيكون من الرائع قضاء أمسية متكورة حول نفسي أقرأ قصة مألوفة.

تجعدت جبهة جيسينيا وهي تشير:

– «لستُ مطلعة على هذا النص.»

رمشتُ بعينيّ وأشرتُ بيدي:

– «إنه ليس كتابًا أكاديميًا أو ما شابه، بل مجرد مجموعة من الفلكلور الشعبي الذي كان أبي يقرأه لي. هو يميل إلى الجانب المظلم قليلًا بصراحة، لكنني أعشقه.»

فكرتُ للحظة. لا توجد إشارة مخصصة لـ تنانين الويفرن أو الفينين، لذا اضطررتُ لتهجئتها حرفًا بحرف.

تابعتُ إشارتي:

– «تنانين الويفرن، طفيليات الفينين، السحر، معارك الخير والشر – تعلمين، الأشياء الممتعة.»

ابتسمتُ باتساع. إن كان هناك من يتفهم عشقي للكتب، فهي جيسينيا.

أشارت:

– «لم أسمع به قط، لكنني سأبحث عنه ريثما أجمع هذه الطلبات.»

رددتُ عليها:

– «شكرًا لكِ. سأكون ممتنة حقًا.»

بما أنني سأصبح الآن الشخص الذي يوجه السحر، فقد أحتاج إلى بعض الحكايات الشعبية الجيدة التي تروي ما يحدث حين يدنس البشر القوة الموجهة إليهم. لا شك أنها كُتبت كأمثولة لتحذيرنا من مخاطر الارتباط بالتنانين، لكن في

تاريخ مملكة نافار الممتد لستمائة عام منذ توحيدها، لم أقرأ قط عن راكب واحد فقد روحه لصالح قواه. فالتنانين تحمينا من هذا المصير.

أومأت جيسينيا ودفعت العربة، متوارية بين صفوف الأرفف.

يستغرق جمع الطلبات الواردة من أساتذة ومتدربي قطاعي حوالي خمس عشرة دقيقة عادةً، لكنني كنتُ في غاية الرضا بالانتظار. كان النساخون يروحون ويجيئون، بعضهم في مجموعات يتدربون ليصبحوا مؤرخي مملكتنا، ووجدتُ نفسي أطيل النظر في كل وجه تعلوه قلنسوة، باحثة عن وجه أعلم يقينًا أنني لن أجده – باحثة عن أبي.

قاطع شرودي صوت مألوف:

– «ڤيوليت؟»

التفتُّ يسارًا فرأيتُ الأستاذ ماركهام يقود فرقة من نساخي السنة الأولى.

قلتُ بهدوء:

– «مرحبًا أيها الأستاذ.»

كان الحفاظ على ملامحي خالية من المشاعر في حضوره أمرًا يسيرًا، لأنني أعلم أن هذا بالضبط ما يتوقعه.

قال وهو يختلس النظر نحو المكان الذي اختفت فيه جيسينيا بين الأرفف:

– «لم أكن أدرك أنكِ مكلفة بمهمة المكتبة. هل تتلقين المساعدة؟»

أجبته بتلعثم:

– «جيسينيا...»

تداركتُ زلتي بانزعاج وأضفت:

– «أقصد، المتدربة نيلوارت تقدم لي كل المساعدة اللازمة.»

وجه حديثه لفرقته المكونة من خمسة أفراد، والذين اصطفوا في نصف دائرة حولي:

– «أتدرون، المتدربة سورنجيل هنا كانت تلميذتي النجيبة حتى اختطفها قطاع الركاب.»

التقت نظراته بنظراتي من تحت قلنسوته وأكمل:

– «كان لدي أمل في عودتها، لكن للأسف، لقد ارتبطت ليس بتنين واحد، بل باثنين.»

شهقت فتاة تقف إلى يمينه، ثم وضعت يدها على فمها وتمتمت باعتذار.

طمأنتها قائلة:

– «لا تقلقي، لقد شعرتُ بالصدمة ذاتها.»

حوّل الأستاذ ماركهام تركيزه نحو فتى يقف إلى يساره وقال:

– «ربما يمكنكِ أن تشرحي شيئًا للمتدرب ناسيا هنا، الذي كان يتذمر للتو من ندرة الهواء النقي في هذا المكان. هذه المجموعة بدأت لتوها مناوبتها في الأرشيف.»

تورد وجه ناسيا بحمرة قاتمة تحت قلنسوته القشدية.

وجهتُ حديثي إليه قائلة:

– «إنه جزء من نظام الوقاية من الحرائق. هواء أقل، يعني خطرًا أقل في احتراق تاريخنا وتحوله إلى رماد.»

رفع ناسيا حاجبًا متسائلًا:

– «وماذا عن هذه القلنسوات الخانقة؟»

أوضحتُ له:

– «لتجعل من الصعب عليك البروز وسط هذه المجلدات العتيقة. إنها رمز يذكرنا بأنه لا أحد، ولا شيء، يتفوق في أهميته على الوثائق والكتب المحفوظة في هذه الغرفة.»

جال بصري في أرجاء القاعة الواسعة، فداهمتني غصة جديدة من الحنين.

رمق الأستاذ ماركهام ناسيا بنظرة حادة وقال:

– «بالضبط. الآن، عن إذنكِ أيتها المتدربة سورنجيل، فلدينا عمل ننجزه. أراكِ غدًا في حصة الموجز القتالي.»

تراجعتُ خطوة للوراء لأفسح لهم المجال للمرور قائلة:

– «حاضر يا سيدي.»

تردد صوت أندارنا في عقلي، ناعمًا كهمس:

– 'أنتِ حزينة؟'

أجبتها في عقلي:

– 'مجرد زيارة للأرشيف. لا داعي للقلق.'

قالت أندارنا:

– 'من الصعب أن تحبي وطنًا ثانيًا بقدر حبكِ للأول.'

ابتلعتُ ريقي وأجبتها:

– 'يصبح الأمر سهلًا حين يكون الوطن الثاني هو المكان الصحيح.'

وهذا بالضبط ما أصبح عليه قطاع الركاب بالنسبة لي – المكان الصحيح. إن الحنين إلى ذلك النوعِ من السلام والعزلة الذي لم أجده سوى هنا، لا يمكن أن يضاهي بأي حال من الأحوال جرعة الأدرينالين المتفجرة التي يمنحني إياها التحليق في السماء.

عاودت جيسينيا الظهور دافعة العربة، وقد أُثقلت بالكتب المطلوبة وبعض الرسائل الخاصة بأساتذة قطاعي.

أشارت معتذرة:

– «أنا آسفة جدًا، لكنني لم أتمكن من العثور على ذلك الكتاب. لقد بحثتُ حتى في الفهرس عن كلمة تنانين الويفرن – أظن أن هذا ما قلتِه – لكن لم أجد شيئًا البتة.»

حدقتُ فيها للحظة بذهول. يحتوي أرشيفنا إما على نسخة أو على الأصل من كل كتاب تقريبًا في نافار. لا يُستثنى من ذلك سوى المجلدات النادرة جدًا أو المحرمة. متى أصبح الفلكلور الشعبي يندرج تحت أي منهما؟ ومع ذلك، بالعودة إلى الماضي، لم أصادف قط أي شيء يشبه (خرافات الأرض اليباب) على الأرفف خلال فترة دراستي لأصبح نساخة. الكايميرا؟ نعم. الكراكن؟ بالتأكيد. لكن تنانين الويفرن أو الفينين الذين يخلقونها؟ لا أثر لها. غريب حقًا.

رددتُ عليها بالإشارة:

– «لا بأس. شكرًا لبحثكِ.»

أشارت وهي تسلمني العربة:

– «تبدين مختلفة.»

اتسعت عيناي اندهاشًا.

أوضحت سريعًا:

– «ليس اختلافًا سيئًا، بل... مختلفة وحسب. وجهكِ أصبح أكثر نحولًا وحدة، وحتى وقفتكِ...»

هزت رأسها وكأنها تعجز عن الوصف.

أشرتُ لها:

– «لقد كنتُ أتدرب.»

توقفتُ للحظة، ويداي معلقتان بجانبي بينما أفكر في إجابتي.

– «الأمر شاق، لكنه رائع أيضًا. لقد أصبحتُ أسرع على حلبة النزال.»

تجعدت جبهتها حيرة وأشارت:

– «حلبة النزال؟»

أجبتها:

– «من أجل القتال المتلاحم.»

أشارت والشفقة تملأ عينيها:

– «صحيح. أنسى دائمًا أنكم تقاتلون بعضكم البعض أيضًا.»

أكدتُ لها:

– «أنا بخير حقًا.»

متعمدة إغفال المرات التي لمحتُ فيها أورين يقبض على خنجره في حضوري، أو الطريقة التي يغلي بها جاك بارلو حقدًا كلما نظر باتجاهي.

سألتها:

– «وماذا عنكِ؟ هل هذا المكان هو كل ما تمنيتِه؟»

أجابت بحماس:

– «إنه كل ما تمنيته وأكثر. أكثر بكثير. إن المسؤولية الملقاة على عاتقنا، ليس فقط لتدوين التاريخ، بل لنقل المعلومات بسرعة من خطوط المواجهة، تفوق كل ما تخيلته يومًا، وهذا يغمرني بالرضا.»

طبقت شفتيها معًا مرة أخرى.

أشرتُ لها بصدق تام:

– «عظيم. أنا سعيدة من أجلكِ.»

أخذت نفسًا عميقًا وأشارت:

- «لكنني أشعر بالقلق عليكِ. إن تزايد الهجمات على طول الحدود...»

حفر القلق خطوطًا واضحة على جبهتها.

رددتُ عليها:

- «أعلم. نسمع عنها في حصة الموجز القتالي.»

النمط هو ذاته دائمًا؛ ضرب التعاويذ الوقائية المتداعية، ونهب القرى المعلقة في أعالي الجبال، والمزيد من الركاب الموتى. ينفطر قلبي مع كل تقرير نتلقاه، وينطفئ جزء مني مع كل هجوم أُجبر على تحليله.

سألت وهي تسير معي نحو الباب:

- «وماذا عن داين؟ هل رأيته؟»

تلاشت ابتسامتي وأنا أشير:

- «هذه قصة ليوم آخر.»

تنهدت وأشارت:

- «سأحاول التواجد هنا في هذا الوقت تقريبًا لأتمكن من رؤيتكِ.»

أومأت لها:

- «سيكون هذا رائعًا.»

كبحْتُ رغبتي في جرها لعناق طويل، وعبرتُ الباب الذي فتحته لي.

بحلول الوقت الذي أعدتُ فيه العربة إلى المكتبة وتمكنتُ من تجاوز طابور الغداء، كان وقتنا قد قارب على الانتهاء، مما يعني أنني انشغلتُ بتكديس الطعام في فمي بأسرعِ ما يمكن، بينما كان أعضاء فرقتنا الأصلية يتبادلون أطراف الحديث من حولي. الوافدون الجدد - طالبان في السنة الأولى وطالبان في السنة

الثانية انضموا إلينا إثر حل الفرقة الثالثة – كانوا يجلسون على طاولة مجاورة. لقد رفضوا الجلوس مع أي شخص يحمل أثر التمرد.

لذا، فليذهبوا إلى الجحيم.

استرسل ريدوك بحماس:

– «كان أروع شيء على الإطلاق. في ثانية واحدة كان يخوض نزالًا ضد طالب السنة الثالثة ذي المهارات المرعبة في استخدام السيف العريض، وفي اللحظة التالية قام سوير...»

قاطعته ريانون مؤنبة وهي تقلب عينيها:

– «بإمكانك أن تدعه يروي القصة بنفسه.»

رد سوير سريعًا وهو يهز رأسه، محملقًا في شوكته بجرعة لا يستهان بها من الرعب:

– «لا، شكرًا.»

ابتسم ريدوك بزهو، مستمتعًا بمجده كراوٍ للقصة:

– «ثم التوى السيف فجأة في يد سوير، وانحنى متوجهًا نحو طالب السنة الثالثة، رغم أن سوير كان بعيدًا كل البعد عن هدفه.»

شحب وجهه وهو ينظر تجاه سوير وأكمل:

– «آسف يا رجل، لكنك كنت بعيدًا حقًا. لولا أن سيفك قرر أن يلتوي ويتجه مباشرة نحو ذراع ذلك الشاب...»

ارتفع حاجبا كوين مندهشة:

– «أنت تتحكم في المعادن؟ حقًا؟»

بحق السماء، سوير يستطيع التلاعب بالمعادن. بلعتُ مزيدًا من لحم الديك الرومي بصعوبة وحدقتُ فيه بصراحة. على حد علمي، هو أول من أظهر أي شكل من أشكال القوة بيننا، ناهيك عن قدرة سحرية فريدة كاملة.

أومأ سوير برأسه وقال:

– «هذا ما قاله كار. سحبني آيتوس مباشرة إلى الأستاذ بمجرد أن رأى ما حدث.»

قبض ريدوك على صدره دراماتيكيًا وقال:

– «أنا أشتعل غيرة! أريد لقدرتي السحرية الفريدة أن تظهر!»

دفع سوير صينيته بعيدًا وقال بمرارة:

– «لن تكون متحمسًا هكذا لو كان هذا يعني أنك لست متأكدًا مما إذا كانت شوكتك ستنغرز في سقف حلقك لأنك لا تستطيع السيطرة عليها بعد.»

تمتم ريدوك وهو ينظر إلى صينيته:

– «وجهة نظر معقولة.»

قالت كوين، ثم أنهت شرب مائها:

– «ستظهر قدراتكم حين تصبح تنانينكم مستعدة لتأتمنكم على كل تلك القوة. فقط تمنوا أن تثق بكم تنانينكم قبل مرور حوالي ستة أشهر، وإلا...»

أصدرت صوتًا يشبه الانفجار، وقلدته بحركة من يديها.

زجرتها إيموجين:

– «توقفي عن إخافة الأطفال. هذا لم يحدث منذ...»

توقفت لتفكر لبرهة.

– «عقود.»

وحين حدقنا جميعًا فيها، قلبت عينيها بضجر وأضافت:

– «اسمعوا، الأثر السحري الذي طبعته تنانينكم عليكم في يوم التصفية هو القناة التي تسمح لكل هذا السحر بالتدفق إلى أجسادكم. إذا لم تُظهروا قدرة سحرية فريدة لتفريغ هذا السحر، فبعد بضعة أشهر، ستحل الكارثة.»

تسمرنا جميعًا مشدوهين.

أضافت كوين وهي تصدر صوت الانفجار مجددًا:

– «سيأكلكم السحر من الداخل.»

هزت إيموجين كتفيها وقالت:

– «استرخوا، ليس الأمر وكأنه موعد نهائي صارم أو ما شابه. هو مجرد تقدير متوسط.»

تمتم ريدوك بحنق:

– «تباً، هناك دائمًا مصيبة تتربص بنا في هذا المكان.»

علّق سوير وهو لا يزال يحدق في شوكته:

– «أشعر أنني محظوظ قليلًا الآن.»

قلتُ لسوير مطمئنة:

– «سندبر لك أدوات مائدة خشبية. وربما ينبغي عليك تجنب مستودع الأسلحة أو النزال ضد... أي شيء معدني.»

سخر سوير قائلًا:

– «هذه هي الحقيقة. على الأقل سأكون آمنًا خلال درس الطيران ظهر هذا اليوم.»

باتت إضافة دروس الطيران إلى جدولنا أمرًا جوهريًا منذ يوم التصفية. تتناوب الأجنحة على استخدام حقل الطيران، واليوم هو أحد أيامنا المحظوظة في الأسبوع.

شعرت بوخز خفي في فروة رأسي، وعرفتُ أنني إن التفتُّ، فسأجد زايدن يراقبنا. يراقبني أنا. لكنني لن أمنحه متعة تلبية نظراته. لم ينطق معي بكلمة واحدة منذ يوم التصفية. هذا لا يعني أنني وحيدة – أوه، أنا لستُ وحيدة أبدًا. فهناك دائمًا أحد طلاب السنوات العليا على مقربة مني حين أمشي في الأروقة أو حين أتوجه إلى صالة التدريب ليلًا.

وجميعهم بلا استثناء، يحملون أثر التمرد.

قالت ريانون بملامح ممتعضة:

– «أفضل أن نحظى بدرس الطيران في الصباح. الأمر أسوأ بكثير بعد أن تتخم معدتك بوجبتي الإفطار والغداء.»

تمتمتُ بصعوبة وفمي مليء بالطعام:

– «أتفق معكِ.»

أمرتني إيموجين بصرامة:

– «أنهي لحم الديك الرومي. سأراكِ الليلة.»

أخلت هي وكوين صينيتيهما، وحملتاهما نحو نافذة غسل الأطباق.

سألتني ريانون:

– «هل تكون ألطف حين تدربكِ؟»

أجبتها وأنا أنهي قطعتي بينما بدأت القاعة تفرغ، لنتجه جميعًا نحو نافذة غسل الأطباق:

– «لا. لكنها فعالة.»

وضعتُ صينيتي فوق الكومة وسألت سوير:

– «كيف يبدو الأستاذ كار؟»

أستاذ التوجيه السحري هو من الأساتذة القلائل الذين لم ألتقِ بهم بعد، بما أنني لم أُظهر قدرة سحرية فريدة حتى الآن.

أجاب سوير بامتعاض:

– «مرعب بحق الجحيم. لا أطيق الانتظار حتى تبدأ دفعتنا بأكملها دروس التوجيه السحري، ليحظى الجميع بفرصة الاستمتاع بأسلوبه الفريد في التدريس.»

خرجنا عبر القاعة المشتركة والقاعة الدائرية وصولًا إلى الساحة، وكلنا نزرر معاطفنا بإحكام. ضرب شهر نوفمبر بقسوة، برياح عاتية وعشب مكسو بالصقيع في الصباح، والثلوج الأولى لم تعد ببعيدة.

صدح صوت جاك بارلو أمامنا وهو يسحب فتاة تحت ذراعه ويربت على رأسها بحرارة:

– «كنت أعلم أن الخطة ستنجح!»

تدلى فك ريانون بذهول وهي تتساءل بينما تتوجه كارولين نحو الجناح الأكاديمي برفقة جاك:

– «أليست هذه كارولين آشتون؟»

تيبس جسد ريدوك وهو يجيب:

– «أجل. لقد ارتبطت بـ جلين هذا الصباح.»

تابعتهم ريانون بنظراتها حتى اختفوا داخل الجناح متسائلة:

– «ألم يكن مرتبطًا بالفعل؟»

ركزتُ نظري على البوابة الأمامية المؤدية إلى حقل الطيران وأجبت:

– «مات راكبه في أول درس طيران لنا.»

تمتمت ريانون بصوت خفيض:

– «إذن أفترض أن المتدربين غير المرتبطين لا تزال أمامهم تلك الفرصة التي يسعون خلفها.»

أومأ سوير، وقد تجهمت ملامحه:

– «أجل. الفرصة لا تزال قائمة.»

***

علق تايرِن في ذهني بينما نهبط في حقل الطيران:

– 'لم تسقطي سوى دزينة من المرات في هذه الجولة.'

أخذتُ أنفاسًا عميقة محاولةً تهدئة قلبي المتسارِع وأجبته:

– 'لا أستطيع تحديد ما إذا كان هذا إطراءً أم لا.'

رد بجفاء:

– 'خذيه كما يحلو لكِ.'

قلبتُ عينيّ ذهنيًا وانزلقتُ من المقعد حين خفض كتفه لأتمكن من الانزلاق على طول ساقه الأمامية. أصبحت هذه الحركة معتادة لدرجة أنني بالكاد ألاحظ أن الركاب الآخرين قادرون على القفز إلى الأرض أو النزول بالطريقة الصحيحة.

قلت له:

– 'على أية حال، يمكنك جعل الأمر أسهل، كما تعلم.'

أجاب:

– 'أوه، أنا أعلم ذلك.'

لامست قدماي أرض الحقل، فرفعت حاجبي متسائلة:

– 'لستُ أنا من يدفعنا في مسارات حلزونية وانعطافات حادة بينما يكتفي كاوري بتعليمنا الغوص البسيط.'

رمش بعينه الذهبية نحوي ثم أشاح بنظره قائلًا:

– 'أنا أدربكِ من أجل المعركة. أما هو فيعلمكِ حيلًا ترفيهية.'

سألته بينما أجري كل الفحوصات التي علمنا إياها كاوري، باحثة عن أي حطام قد يكون عالقًا بين أصابع مخالب تايرِن الطويلة، أو بين الحراشف الصلبة كالصخر تحت بطنه:

– 'هل تعتقد أن بإمكاننا دعوة أندارنا للانضمام إلينا الأسبوعِ القادم؟ حتى لو لمجرد التحليق معنا؟'

تذمر تايرِن:

– 'لستُ أبلهًا لدرجة ألا أشعر بوجود شيء عالق في لحمي. ولن أطلب من أندارنا الانضمام إلينا ما لم تطلب هي ذلك. إنها لا تستطيع مجاراة سرعتنا، ولن يجلب ذلك سوى اهتمام لا نرغب فيه.'

تذمرتُ بوقاحة:

– 'أنا لا أحظى برؤيتها أبدًا. أنا عالقة دائمًا مع مزاجك النكد.'

تردد صوت أندارنا اللطيف:

– 'أنا دائمًا هنا.'

لكن لم يظهر أي وميض ذهبي في الأفق. إنها على الأرجح في الوادي كعادتها، لكنها على الأقل محمية هناك.

رد تايرِن بحدة:

– 'هذا النكد التقطكِ للتو دزينة من المرات أيتها الفضية.'

واصلتُ أخذ وقتي في فحص كل صف من حراشفه وأنا أقول:

– 'يمكنك أن تدعوني ڤيوليت في النهاية، كما تعلم.'

إن أحد أكبر المخاطر التي تهدد التنانين هي تلك الأشياء الدقيقة التي لا يمكنهم إزالتها بأنفسهم، والتي تخترق ما بين الحراشف مسببة الالتهابات.

كرر ببرود:

– 'أعلم. وبإمكاني أيضًا أن أدعوكِ «ڤيولينس» كما يفعل قائد الجناح.'

ضيقتُ عينيّ وأنا أتقدم لفحص بداية ارتفاع صدره:

– 'لن تجرؤ. وأنت تعلم كم يزعجني ذلك الوغد.'

ضحك تايرِن من فوقي، وبدا صوته كشخرة نمر ضخم:

– 'يزعجكِ؟ هل هذا ما تطلقينه على الأمر حين يتسارع نبضكِ...'

قاطعته بحدة:

– 'إياك أن تبدأ معي.'

جلجلت زمجرة عميقة في صدر تايرِن من فوقي، لترجف لها عظامي.

استدرتُ بحدة، ويداي تحومان فوق خناجري المغمدة بينما كان داين يقترب.

همست لـ تايرِن وأنا أخرج من بين ساقيه الأماميتين حين توقف داين على بعد دزينة من الأقدام:

– 'إنه داين وحسب.'

زمجر مجددًا، ولفحت نفخة من البخار مؤخرة عنقي:

– 'الغضب لا يلق به.'

قلت بصوت مسموع وأنا أسترق النظر إليه من فوق كتفي:

– «استرخِ.»

لكن حاجباي ارتفعا ذهولًا.

كانت عينا تايرِن الذهبيتان مضيقتين في تحديق شرس نحو داين، وقد كشّر عن أنيابه التي يتقاطر منها اللعاب بينما دوت زمجرة أخرى.

قلتُ له بحدة:

– «أنت تشكل تهديدًا. توقف عن هذا.»

هدر صوته في رأسي:

– 'أخبريه أنه إن مسكِ بسوء، فسأحرق الأرض التي يقف عليها.'

قلبتُ عينيّ بضجر وسرتُ نحو داين، الذي كان فكه متصلبًا، لكن عينيه كانتا متسعتين بالتوجس:

– «بحق الجحيم يا تايرِن.»

هدد تايرِن:

– 'أخبريه، وإلا فسأسوي الأمر مع كاث.'

التفتُّ إلى داين وقلت بينما كانت التنانين عن يميني ويساري تنطلق نحو السماء دون ركابها، عائدة إلى الوادي. لكن ليس تايرِن. كلا، فهو لا يزال منتصبًا خلفي كأب مفرط في الحماية:

– «يقول تايرِن إنه إن ألحقتَ بي أي أذى، فسيحرقك.»

انفجر داين محتدًا:

– «أنا لن أؤذيكِ!»

أمرني تايرِن بصرامة:

– 'انقلي كلماتي حرفيًا أيتها الفضية.'

زفرتُ ببطء وقلت لداين:

– «آسفة، لقد قال تحديدًا: إن مسستني بسوء، فسيحرق الأرض التي تقف عليها.»

ثم استدرتُ ونظرت من فوق كتفي مخاطبة تايرِن:

– «هل ارتحت الآن؟»

اكتفى تايرِن بالرمش بعينيه الكبيترين.

أبقى داين عينيه مصوبتين نحوي، لكني رأيته هناك؛ ذلك الغضب الدوامي الذي حذرني منه تايرِن.

قال داين بحرقة:

– «أفضل الموت على أن ألحق بكِ أذى، وأنتِ تعلمين ذلك.»

سألت تايرِن ذهنيًا:

– 'هل أنت سعيد الآن؟'

أجاب وهو ينطلق بضربات هائلة من جناحيه:

– 'أنا جائع. أظن أنني سألتهم قطيعًا من الأغنام.'

انخفض صوت داين وضيّق عينيه:

– «أحتاج للتحدث معكِ.»

وافقتُ قائلة:

– «حسنًا. رافقني في طريق العودة.»

أشرتُ لريانون لتمضي بدوني، فتقدمت مع الآخرين، تاركة إياي مع داين في المؤخرة. تراجعنا معًا عند حافة الحقل.

صرخ في وجهي وهو يمسك بمرفقي بحدة:

– «لماذا لم تخبريني أنكِ عاجزة عن الثبات في مقعدكِ اللعين؟»

انتزعتُ ذراعي من قبضته بقوة:

– «عفوًا؟»

زمجر تايرِن في عقلي محذرًا.

صرختُ في وجه داين:

– «يمكنني التعامل مع هذا!»

مرر داين يده عبر شعره بانفعال شديد:

– «طوال هذا الوقت، كنتُ أترك كاوري يتولى تعليمكِ، ظانًا أنه يسيطر على كل شيء. ففي النهاية، إن كانت راكبة أقوى تنين في القطاع لا تستطيع الثبات في مقعدها، فمن المؤكد أننا جميعًا سنعلم بذلك.»

هز رأسه بيأس وأضاف:

– «من المؤكد أنني كنتُ سأعلم لو أن أعز أصدقائي تسقط كل يوم لعين تحلق فيه!»

غلى الغضب في عروقي وأنا أرد:

– «إنه ليس سرًا! الجميع في جناحنا يعلمون! أنا آسفة إن لم تكن تتابع أخبار فرقتك عن كثب، لكن صدقني يا داين، الجميع يعلم. ولن أقف هنا بينما تلقي عليّ المواعظ وكأنني طفلة صغيرة.»

استدرتُ ومضيتُ مبتعدة، أطوي الأرض بخطواتي الغاضبة لألحق بجناحي.

لحق بي مسرعًا ليجاري وتيرتي، وقد تراجع الغضب في صوته ليحل محله الألم:

– «أنتِ لم تخبريني.»

هززتُ رأسي نافية:

– «لا توجد مشكلة أصلًا. يمكن لـ تايرِن أن يثبتني سحريًا إن لزم الأمر. أنا من يطلب منه إرخاء القيود. وصدقني، من الأفضل أن تفكر مرتين قبل أن تشكك في قدراته. فهو من نوعية التنانين التي تحرق أولًا ثم تطرح الأسئلة لاحقًا.»

أصر داين:

– «بل هي مشكلة ضخمة، لأنه لا يستطيع توجيه...»

قاطعته وأنا أخرج من الحقل متجهة نحو الدرج المنحدر بجوار مسار القفاز:

– «كامل قواه؟ أعلم ذلك. لماذا تظن أنني أطلب منه التخفيف من قيدي وأنا محلقة هناك؟»

كان الإحباط كائنًا حيًا يتنفس بداخلي، يلتهم كل فكرة عقلانية.

لاحقني صوته وأنا أهبط الدرج:

– «أنتِ تحلقين منذ شهر، ولا زلتِ تسقطين.»

صرختُ في وجهه:

– «وكذلك نصف الجناح يا داين!»

رد بحدة وهو يلاحقني كظلي بينما أسرعتُ خطاي نحو الممر المؤدي للقلعة، والحصى ينسحق تحت حذائي:

– «ولكن ليس دزينة من المرات في الطلعة الواحدة. أريد مساعدتكِ وحسب يا ڤيوليت. كيف يمكنني المساعدة؟»

تنهدتُ أمام النبرة الحزينة في صوته. دائمًا ما أنسى أن هذا هو أعز أصدقائي، وأنه يُضطر لمشاهدتي أخاطر بحياتي كل يوم. لا أدري كيف سيكون شعوري لو تبادلتُ الأدوار معه. على الأرجح سأكون قلقة بالقدر نفسه.

حاولتُ تلطيف الأجواء فقلت مازحة:

– «كان يجب أن تراني قبل شهر حين كان معدل سقوطي يصل إلى ثلاث دزينات.»

ارتفع صوته مصدومًا عند الكلمة الأخيرة:

– «ثلاث دزينات؟»

توقفتُ عند مدخل النفق وابتسمتُ مطمئنة:

– «الأمر يبدو أسوأ مما هو عليه حقًا يا داين. أعدك.»

توسلني:

– «هل ستخبرينني على الأقل بأي جزء من الطيران تواجهين صعوبة فيه؟ اسمحي لي بمساعدتكِ.»

قلبتُ عينيّ وأجبته:

– «هل تريد قائمة بنقاط ضعفي؟ فخذاي ضعيفتان للغاية، لكني أعمل على بناء عضلاتي. يداي لا تقويان على التشبث بمقدمة المقعد، لكنهما تزدادان قوة. استغرق تعافي عضلة ذراعي ذات الرأسين أسابيع، لذا أتدرب على تقويتها أيضًا. لكن لا داعي للقلق عليّ يا داين – إيموجين تتولى تدريبي.»

خمن وهو يعقد ذراعيه فوق صدره:

– «لأن ريورسون طلب منها ذلك.»

أجبته ببساطة:

– «على الأرجح. ولماذا يشكل هذا فارقًا؟»

هز رأسه وقد بدا كغريب لم أعرفه من قبل:

– «لأنه لا يكترث لمصلحتكِ أبدًا. في البداية، كان ليّ القواعد لتتمكني من تسلق مسار القفاز، وأجل، لقد عنفتني آمبر لمدة ساعة كاملة حول كيف أن تصرفك كان مجردًا من الشرف.»

مجرداً من الشرف؟ تباً لهذا.

صرختُ غاضبة:

– «وأنت ببساطة صدقت كلامها؟ دون حتى أن تسألني عما حدث؟»

دافع عن موقفه:

– «إنها قائدة جناح يا ڤيوليت. لستُ في وارد التشكيك في نزاهتها!»

رددتُ بحدة:

– «لقد أثبتُّ صحة موقفي استنادًا إلى الدستور العسكري، وقَبِله ريورسون. وهو قائد جناح أيضًا.»

استسلم جزئيًا:

– «حسنًا. لقد اجتزتِ الأمر. لا تفهميني خطأ، لم أكن لأحتمل نفسي إن أصابكِ مكروه، سواء تعاملتِ مع الاختبار بالطريقة الصحيحة أم الخاطئة. ثم ظننتُ أنكِ ستكونين بخير إن نجوتِ من يوم التصفية، لكن حتى مع ارتباطكِ بأقوى التنانين...»

هز رأسه متشككًا.

تحديته، وقد تحولت يداي إلى قبضتين مغلقتين انغرزت فيهما أظافري:

– «هيا. قلها.»

تهدلت كتفاه واعترف:

– «أنا مرعوب من أنكِ لن تنجي حتى التخرج يا ڤيوليت. أنتِ تعلمين تمامًا ما أشعر به تجاهكِ، سواء أمكنني فعل شيء حيال ذلك أم لا، وأنا مرعوب.»

كانت تلك الجملة الأخيرة هي القشة التي قصمت ظهر البعير. تفجرت ضحكة ساخرة من حلقي وأفلتت رغمًا عني.

اتسعت عيناه ذهولًا.

رددتُ كلماته التي قالها لي هذا الصيف:

– «هذا المكان يقشر عنك كل الهراء والمجاملات الزائفة، ليكشف عن جوهرك الحقيقي. أليس هذا ما قلته لي؟ هل هذا هو جوهرك الحقيقي؟ شخص مفتون بالقواعد لدرجة أنه لا يعرف متى يطوعها أو يكسرها من أجل من يكترث لأمرهم؟ شخص شديد التركيز على الحد الأدنى من قدراتي، لدرجة تعميه عن رؤية أنني قادرة على تحقيق ما هو أبعد بكثير؟»

تلاشى الدفء تمامًا من عينيه البنيتين.

اقتربتُ منه خطوة، لكن المسافة بيننا بدت وكأنها تتسع:

– «فلنوضح أمرًا واحدًا يا داين. السبب الذي يحول دون كوننا أكثر من أصدقاء ليس قواعدك الصارمة. السبب هو أنك لا تؤمن بي على الإطلاق. حتى الآن، وبعد أن نجوتُ رغم كل الصعاب وارتبطتُ ليس بتنين واحد بل باثنين، لا زلت تعتقد أنني لن أنجو. لذا سامحني، لكنك على وشك أن تصبح جزءًا من ذلك الهراء الذي سيقشره هذا المكان عني.»

انتحيتُ جانبًا وتجاوزته عبر النفق، مجبرةً الهواء على الدخول إلى رئتيّ.

باستثناء العام الماضي، حين التحق بقطاع الركاب، لا يمكنني تذكر أي فترة من حياتي لم يكن داين جزءًا منها.

لكنني لم أعد قادرة على تحمل تشاؤمه الدائم حول مستقبلي.

بهرني ضوء الشمس للحظة وأنا أخطو نحو الساحة. انتهت الدروس لهذا اليوم، ولمحتُ زايدن وغاريك مستندين إلى جدار المبنى الأكاديمي، كإلهين يتفقدان مملكتهما.

رفع زايدن حاجبًا داكنًا وهو يراقب مروري.

رفعتُ له إصبعي الأوسط بإيماءة بذيئة.

لستُ في مزاج يسمح لي بتقبل حماقاته اليوم أيضًا.

سألتني ريانون حين لحقتُ بها وبالرفاق:

– «هل كل شيء على ما يرام؟»

بدأتُ قائلة:

– «داين وغد...»

قاطعني صراخ مجنون:

- «أوقفوا هذا!»

كان طالبًا من السنة الأولى في الجناح الثالث، وهو يندفع هبوطًا عبر درجات القاعة الدائرية ممسكًا برأسه. إنه الفتى الذي يجلس صفيّن تحتي في حصة الموجز القتالي، ودائمًا ما يُسقط ريشته. ترنح في الساحة وهو يصرخ:

- «بحق الآلهة، أوقفوا هذا!»

حامت يداي فورًا فوق خناجري.

تحرك ظل إلى يساري، وبنظرة خاطفة أدركتُ أن زايدن قد تحرك، واضعًا نفسه أمامي مباشرة في حركة بدت عفوية.

تراجعت الحشود، مشكلةً حلقة فارغة حول طالب السنة الأولى الذي استمر في الصراخ ممسكًا برأسه.

صرخ أحدهم متقدمًا:

- «جيريميا!»

استدار جيريميا بحدة، مشيرًا بإصبعه إلى طالب السنة الثالثة:

- «أنت! أنت تظن أنني فقدتُ عقلي!»

مال رأسه، واتسعت عيناه بجنون وأضاف:

- «كيف عرف؟ لا ينبغي له أن يعرف!»

تغيرت نبرة صوته تمامًا، وكأن الكلمات التي يتفوه بها لا تخصه.

سرت قشعريرة مرعبة في عمودي الفقري، وهوى قلبي بين قدميّ.

استدار جيريميا مجددًا، مشيرًا إلى طالب سنة ثانية في الجناح الأول مرددًا:

- «وأنت! ما خطبه بحق الجحيم؟ لماذا يصرخ؟»

ثم التفت مرة أخرى، مسلطًا نظره على داين:

– «هل ستكرهني ڤيوليت للأبد؟ لماذا لا تدرك أنني أريد فقط إبقاءها على قيد الحياة؟ كيف يستطيع...؟ إنه يقرأ أفكاري!»

كان تجسيده لأفكارهم دقيقًا بشكل مخيف، ومحرجًا، ومرعبًا في آن واحد.

همستُ برعب وقلبي يقرع بقوة صمتّ أذنيّ:

– «يا إلهي.»

فليذهب الإحراج إلى الجحيم. من يكترث إن عرف الناس أن داين يفكر بي؟ إن القدرة السحرية الفريدة لـ جيريميا تتجسد الآن. إنه يستطيع قراءة الأفكار – هو متوغل ذهني (Inntinnsic). وقدرته هذه ما هي إلا حكم بالإعدام.

تعثر ريدوك إلى يساري وتراجع للخلف – إثر دفعة قوية – ولم أكن بحاجة للنظر لأعرف لمن تعود تلك الذراع المفتولة التي لامست كتفي. رائحة النعناع المألوفة هدّأت من تسارع نبضاتي بطريقة ما.

سحب جيريميا سيفه القصير وصرخ:

– «أوقفوا هذا! ألا ترون؟ الأفكار لا تتوقف!»

كان ذعره ملموسًا، يخنق أنفاسي في حلقي.

رمقتُ زايدن بنظرة متوسلة وهمست:

– «افعل شيئًا.»

كان تركيزه المميت والثابت منصبًا على جيريميا، لكن جسده توتر استجابة لتوسلي، متأهبًا ومستعدًا لتوجيه ضربة قاضية.

أمرني بصوت خفيض:

– «ابدئي في ترديد أي هراء أكاديمي تعلمتِه في عقلك.»

فحييتُ مستنكرة:

– «عفوًا؟»

أمر زايدن بحزم:

– «إن كنتِ تقدرين أسراركِ، فصفّي أفكاركِ. فورًا.»

أوه. تباً.

لم يخطر ببالي شيء، ومن الواضح أننا في خطر محدق. ممم...

توجد العديد من المواقع الدفاعية النافارية خارج نطاق الأمان الذي توفره تعاويذنا الوقائية. تُعتبر هذه المواقع مناطق خطر داهم، ويجب ألا يُكلف بحراستها سوى الأفراد العسكريين، ولا ينبغي أبدًا أن يرافقهم المدنيون المعتادون.

التفت جيريميا مسلطًا بصره على غاريك وصرخ:

– «وأنت! اللعنة على كل شيء. سيعرف بشأن...»

في لمح البصر، زحفت الظلال من تحت قدمي جيريميا والتفت حول ساقيه، متسلقة نحو صدره حتى أطبقت على فمه بأشرطة سوداء خانقة.

ابتلعتُ الصخرة القابعة في حلقي.

شق أحد الأساتذة طريقه عبر الحشد، وشعره الأبيض الكثيف يتراقص مع كل خطوة يخطوها بجسده الضخم.

صرخ أحدهم:

– «إنه متوغل ذهني!»

وبدا أن تلك الكلمة كانت كل ما يلزم.

أمسك الأستاذ برأس جيريميا بكلتا يديه، وتردد صدى طقطقة عظمية مروعة في أرجاء الساحة الصامتة. ذابت ظلال زايدن وتلاشت، وسقط جيريميا على الأرض، ورأسه ملتوي بزاوية غير طبيعية وبشعة. لقد كُسر عنقه.

انحنى الأستاذ وحمل جثة جيريميا بقوة مذهلة، ومضى به نحو القاعة الدائرية.

أخذ زايدن نفسًا حادًا بجواري، ثم مضى مبتعدًا برفقة غاريك باتجاه الجناح الأكاديمي. سررتُ بلقائك أيضًا.

تمتم ريدوك بصوت مرتجف:

– «ربما لم أعد أرغب في قدرة سحرية فريدة بعد الآن.»

علق داين بجمود:

– «ذلك الموت رحيم مقارنة بما سيحدث لك إن لم تُظهر قدرة سحرية.»

وأقسم أنني بدأت أشعر بأثر التمرد يحترق على ظهري رغم أن تنانيني لم تبدأ بتوجيه سحرها بعد.

قال سوير وهو يقف بجانب ريانون:

– «وهذا الرجل، كان البروفيسور كار.»

***

– «يجب عليكِ دائمًا التحقق من مصادركِ.»

قال أبي وهو يبعثر شعري بمودة أثناء وقوفه بجانبي عند الطاولة في الأرشيف.

– «تذكري أن الروايات المباشرة هي الأكثر دقة دائمًا، لكن يجب أن تنظري بشكل أعمق يا ڤيوليت. يجب أن تنظري إلى من يروي القصة.»

سألته بصوت يعود لنسخة أصغر مني بكثير:

– «لكن ماذا لو أردتُ أن أصبح راكبة؟ مثل بريبان وأمي؟»

دَوَى صوت مألوف ومسيطر في أرجاء الأرشيف:

– 'استيقظي.'

صوت لا ينتمي إلى هذا المكان.

– «أنتِ لستِ مثلهم يا ڤيوليت. هذا ليس طريقكِ.»

رسم أبي ابتسامة معتذرة على شفتيه، تلك الابتسامة المعتادة التي تعني أنه يتعاطف معي لكن لا حيلة بيده، الابتسامة ذاتها التي يرمقني بها حين تتخذ أمي قرارًا لا يوافق عليه.

– «وهذا هو الأفضل. لم تستوعب والدتكِ قط أنه على الرغم من أن الركاب قد يكونون أسلحة مملكتنا، فإن النساخين هم من يمتلكون القوة الحقيقية في هذا العالم.»

– 'استيقظي قبل أن تُمقَتي وتُقتلي!'

ارتجفت أرفف الكتب في الأرشيف، وانتفض قلبي.

– 'الآن!'

فتحتُ عينيّ بحدة، وشهقتُ بقوة بينما تبدد الحلم. أنا لستُ في الأرشيف. أنا في غرفتي بقطاع الركاب...

زأر تايرِن في عقلي:

– 'تحركي!'

صرخ أحدهم:

– «تباً! لقد استيقظت!»

انعكس ضوء القمر على نصل سيف يشق الهواء فوقي مباشرة.

أوه. تباً. تدحرجتُ نحو الجانب الآخر من سريري، لكن لم أكن بالسرعة الكافية، وهوى النصل على جانب ظهري بقوة عجزت حتى بطانياتي الشتوية السميكة عن امتصاصها.

طمس الأدرينالين إحساسي بالألم حين ارتد السيف عاجزًا عن اختراق الدرع المصنوع من حراشف التنين.

اصطدمت ركبتاي بالأرضية الخشبية الصلبة، فدسستُ يديّ أسفل وسادتي، وسحبتُ خنجرين متحررة من الأغطية لأقف على قدمي. كيف بحق الجحيم تمكنوا من فتح باب غرفتي المقفل؟

نفختُ خصلات شعري المنسدلة عن وجهي، لتلتقي عيناي بعينين متسعتين بصدمة لمتدرب من السنة الأولى غير مرتبط. ولم يكن وحده. كان هناك سبعة متدربين داخل غرفتي. أربعة رجال غير مرتبطين، وثلاث نساء غير مرتبطات – شهقتُ حين تعرفتُ على إحداهن – فليصبحن اثنتين، إذ ركضت إحداهن نحو الباب وأغلقته خلفها بقوة وهي تفر هاربة.

هي من فتحت الباب. لا يوجد تفسير آخر.

أما الباقون فكلهم مسلحون. كلهم مصممون على قتلي. وكلهم يقفون كجدار منيع بيني وبين الباب المفتوح. التفت أصابعي حول مقابض خناجري، وبلغت نبضات قلبي عنان السماء.

قلتُ بصوت لاهث:

– «أخمّن أنه لن يجدي نفعًا أن أطلب منكم المغادرة بلطف؟»

سيتعين عليّ أن أشق طريقي للنجاة بالقتال.

حذرني تايرِن في عقلي:

– 'ابتعدي عن الجدار! لا تدعيهم يحاصروكِ!'

نصيحة سديدة. لكن ليس هناك الكثير من المساحات للهرب في هذه الغرفة الضيقة.

فحيح أورين انطلق من الجانب الآخر للغرفة، سادًا طريق هربي:

– «تبًا! ألم أقل لكم إن درعها لا يُخترق!»

وغد حقير.

واجهته مقرةً:

– «كان يجدر بي قتلك في يوم التصفية.»

بابي مغلق، لكن من المؤكد أن أحدهم سيسمعني إن صر...

اندفعت امرأة نحوي متخطية سريري، فتفاديتها منزلقة بمحاذاة الزجاج الجليدي للنافذة. النافذة!

صاح تايرِن:

– 'إنها مرتفعة جدًا. ستسقطين في الوادي، ولن أتمكن من الوصول إليكِ بالسرعة الكافية!'

لا نافذة إذن. فُهم. رمت امرأة أخرى خنجرها ليمزق قماش كم ثوب نومي ويستقر في الخزانة الخشبية، لكنه أخطأ لحمي. استدرتُ بحدة مضحيةً بالكم الذي تمزق، وصوبتُ خنجري بينما كنت ألتف حول حافة سريري. استقر الخنجر في كتفها، هدفي المفضل، فسقطت تصرخ ممسكة بجرحها.

بقية أسلحتي مخزنة بالقرب من الباب. تباً. تباً. تباً.

أمر تايرِن:

– 'لا تقذفي المزيد من الأسلحة. احتفظي بهذا السلاح في يدكِ!'

بالنسبة لشخص لا يستطيع تقديم مساعدة فعلية، يبرع تايرِن في إطلاق التوجيهات.

صرخ أورين:

– «يجب أن تستهدفوا حنجرتها! سأفعلها بنفسي!»

نقلتُ نصلي إلى يدي اليمنى وصددتُ هجومًا من اليسار، محدثة قطعًا طوليًا في ساعد المهاجمة، ثم صددتُ هجومًا آخر من اليمين بطعنة في فخذ أحد الرجال. ركلتُ بكعبي مستهدفة أحشاء مهاجم آخر ليسقط متهاويًا على سريري، وسيفه يتبعه مرتطمًا بالأرض.

لكنني الآن محاصرة تمامًا بين مكتبي والخزانة.

عددهم أكبر بكثير من قدرتي على الاحتمال.

وقد اندفعوا جميعًا في نفس اللحظة اللعينة.

رُكل خنجري من يدي بسهولة مروعة، وانقبض قلبي حين أطبق أورين أصابعه على حلقي، جاذبًا إياي نحوه. حاولتُ ركل ركبتيه، لكن قدميّ العاريتين لم تحدثا أي تأثير يذكر بينما يرفعني عن الأرض، قاطعًا عني مجرى الهواء وأنا أرفس محاولةً إيجاد أي موطئ قدم.

كلا. كلا. كلا.

غرزتُ يديّ في ذراعه، واخترقت أظافري جلده كالوحش، لأسيل دماءه. قد يحمل ندوبي بعد هذا، لكن قبضته لم ترتخِ قيد أنملة وهو يعتصر حلقي.

الهواء. لم يعد هناك هواء.

وعدني تايرِن، والهلع يشوب نبرته:

– 'إنه يكاد يصل!'

من هو؟ لا أستطيع التنفس. لا أستطيع التفكير.

صرخ أحد الرجال:

– «أقضِ عليها! لن يحترمنا إلا إذا أجهزنا عليها!»

إنهم يسعون خلف تايرِن.

دوى زئير تايرِن الغاضب في رأسي حين خفض أورين جسدي، وأدارني ليلف ذراعه حولي بحيث التصق ظهري بصدره. على الأقل لامست قدماي الأرض، لكن حواف رؤيتي بدأت تظلم، ورئتاي تكافحان لاقتناص أكسجين معدوم.

حدقت في عينيّ طالبة السنة الأولى التي تنزف، وقد التمع الجشع في عينيها. صرخت:

– «افعلها!»

فحيح أورين تسلل إلى أذني:

– «تنينكِ أصبح ملكي.»

سقطت يده القابضة ليحل محلها نصل بارد.

اندفع الهواء أخيرًا إلى رئتيّ حين لامس المعدن البارد عنقي، وتدفق الأكسجين في دمي ليصفي ذهني بما يكفي لأدرك أن هذه هي النهاية. سأموت. بين خفقة قلب وأخرى يُرجح أن تكون الأخيرة، اعتصر صدري حزن طاغٍ، ولم أملك سوى التساؤل عما إذا كنتُ سأنجح. هل كنتُ لأصبح قوية بما يكفي لأتخرج؟ هل كنتُ سأغدو جديرة بـ تايرِن وأندارنا؟ هل كنتُ سأجعل أمي فخورة أخيرًا؟

لامس طرف السكين بشرتي.

انفتح باب غرفتي بقوة محطمة، وتناثرت شظايا الخشب إثر ارتطامه بالجدار الحجري، لكن لم تسنح لي الفرصة للالتفات لرؤية من يقف هناك قبل أن تخترق صرخة مدوية مجال إدراكي.

صرخت أندارنا في ذهني:

– 'هي ملكي!'

سرت طاقة لاذعة في عمودي الفقري لتوقظ قشعريرة جلدي، ثم اندفعت نحو أطراف أصابع يديّ وقدميّ، والأنفاس التالية التي التقطتُها كانت في صمت مطبق ومطلق.

أمرتني أندارنا:

– 'انطلقي!'

رمشتُ بعينيّ لأدرك أن طالبة السنة الأولى أمامي لا تفعل. إنها لا تتنفس. لا تتحرك.

لا أحد يتحرك.

كان كل من في الغرفة متجمدًا في مكانه كالتماثيل... باستثنائي أنا.

«ردًا على الحرب العظمى، استحوذت التنانين على الأراضي الغربية واستولت الـ غريفيون على الأراضي الوسطى، تاركين (الأرض اليباب) وذكرى الجنرال دارامور – الذي كاد أن يدمر القارة بأكملها بجيشه – وراء ظهورهم. أبحر حلفاؤنا عائدين إلى ديارهم، وبدأنا عهدًا من السلام والرخاء حيث توحدت مقاطعات نافار لأول مرة خلف أمان تعاويذنا الوقائية، وتحت حماية أوائل الركاب المرتبطين.»

– نافار، تاريخ غير محرر، بقلم العقيد لويس ماركهام



الفصل التاسع عشر

ما. هذا. بحق الجحيم.

يبدو وكأن كل من في غرفتي قد تحول إلى حجر، لكنني أعلم يقيناً أن هذا مستحيل. فجسد أورين لا يزال دافئاً خلفي، وبشرته لينة تحت أصابعي وأنا أغير قبضتي وأدفع ساعده الملطخ بالدماء، مبعدةً النصل عن عنقي.

سقطت قطرة دم وحيدة من طرف السكين الحاد، لتلطخ الأرضية الخشبية، وشعرتُ بمسار رطب دافئ ينحدر على طول حنجرتي.

حثتني أندارنا، وصوتها يبدو واهناً ومتقطعاً في ذهني:

– 'بسرعة! لا أستطيع الصمود طويلاً!'

أهي من تفعل هذا؟ ابتلعتُ ريقي بصعوبة، ساحبةً أنفاساً لاهثة عبر قصبتي الهوائية المكدومة، وانحنيتُ أتهرب من تحت ساعد أورين لأحرر نفسي، ثم تراجعتُ بخطوات جانبية سريعة وسط الصمت المطبق.

صمت مطبق، كامل، لا ينتمي إلى هذا العالم.

حتى الساعة على مكتبي توقفت عن التكتكة وأنا أحشر نفسي بين مرفق أورين ورجل ضخم الجثة كان ينتمي سابقاً لـ الجناح الثاني. لا أحد يتنفس. نظراتهم جميعاً متجمدة. إلى اليسار، انحنت المرأة التي شققتُ ذراعها ممسكة بساعدها، وإلى اليمين، استند الرجل الذي طعنته إلى الجدار، محدقاً في فخذه برعب متجمد.

حسبتُ الوقت بنبضات قلبي الصاخبة وأنا أتعثر وصولاً إلى المساحة الفارغة الوحيدة في غرفتي، لكن طريقي نحو الباب المفتوح الآن لم يكن سالكاً.

كان زايدن يسد إطار الباب كأنه ملاك انتقام مظلم، أو مبعوث من ملكة الآلهة. بكامل عتاده، ووجهه قناع من الغضب العارم المحض، بينما تتلوى الظلال من الجدران على جانبيه، معلقة في الهواء الطلق.

لأول مرة منذ عبور المتراس الصخري، شعرتُ براحة غامرة لرؤيته لدرجة أنني كدتُ أبكي.

شهقت أندارنا في عقلي – وعادت الفوضى لتنفجر.

اعترى معدتي غثيان مفاجئ.

هدر صوت تايرِن في ذهني:

– *'لقد حان الوقت بحق الجحيم.'*

التقت عينا زايدن بعينيّ بحدة، واتسعت عيناه العقيقيتان بصدمة لم تدم لأكثر من جزء من الثانية قبل أن يخطو للأمام، وظلاله تتدفق أمامه كتيار داكن

حتى وقف بجانبي. طقطق بإصبعيه فأضيئت الغرفة، وحلقت الأضواء السحرية فوق رؤوسنا.

قال بصوت هادئ بشكل مخيف، مما جعله أكثر رعباً:

– «أنتم جميعاً موتى بحق الجحيم.»

التفتت كل الرؤوس في الغرفة نحوه.

سقط خنجر أورين على الأرض بصلصلة معدنية وهو يهتف:

– «ريورسون!»

قال زايدن بنبرة هادئة ومميتة أثارت القشعريرة في ذراعيّ:

– «أتظن أن الاستسلام سينقذك؟ الهجوم على راكب آخر أثناء نومه خرق صريح لقانوننا.»

رفع أورين يديه وراحتاه تواجهاننا محتجاَ:

– «لكنك تعلم أنه لم يكن ينبغي له أبداً الارتباط بها! أنت من بين الجميع تملك أسباباً كافية لتمني موت هذه الضعيفة. نحن نصلح خطأً وحسب.»

قال زايدن ببرود:

– «التنانين لا ترتكب أخطاء.»

انقضت ظلال زايدن لتقبض على حناجر جميع المهاجمين باستثناء أورين، ثم بدأت تضيق عليهم. كافحوا، لكن دون جدوى. تحولت وجوههم إلى اللون البنفسجي، والظلال محكمة قبضتها عليهم بينما تهاووا على ركبهم، متساقطين في قوس أمامي كدمى بلا حياة.

لم أجد في قلبي ذرة شفقة عليهم.

تقدم زايدن بخطوات متمهلة كوحش مفترس يمتلك كل الوقت في العالم، وبسط كفه ليرتفع خنجري المُلقى من الأرض محمولاً بخصلة ظلام أخرى ليصيبه.

حدق أورين في الخنجر ويداه ترتجفان وهو يقول:

– «دعني أشرح لك.»

أحكم زايدن قبضته على المقبض وقال:

– «لقد سمعتُ كل ما أحتاج لسماعه. كان ينبغي عليها قتلك في الميدان، لكنها رحيمة. وهذا ليس عيباً أمتلكه.»

انقض زايدن إلى الأمام بسرعة خاطفة بالكاد أدركتها عيناي، وانشق حلق أورين في خط أفقي، لتتدفق الدماء على رقبته وصدره كالشلال.

حاول الإمساك بحنجرته، لكن فات الأوان. نزف حتى الموت في ثوانٍ، متهاوياً على الأرض، بينما اتسعت بركة قرمزية حوله.

دخل غاريك مغمداً سيفه وعيناه تمسحان الغرفة قائلاً:

– «سحقاً يا زايدن. ألا يوجد وقت للاستجواب؟»

انتقل بصره إليّ كأنه يحصي إصاباتي، واستقرت نظراته على حنجرتي.

أجاب زايدن:

– «لا حاجة لذلك.»

تزامن ذلك مع دخول بودهي، الذي أجرى نفس التقييم السريع الذي قام به غاريك. التشابه بين ابني العمومة لا يزال يثير استغرابي؛ فبودهي يمتلك نفس البشرة البرونزية وخط الحاجب القوي، لكن ملامحه ليست حادة كملامح زايدن، وعيناه بلون بني أفتح. يبدو كنسخة ألطف وأكثر ودية من ابن عمه الأكبر، لكن جسدي لا يشتعل حرارة عند رؤيته كما يحدث مع زايدن. أو ربما يكون أورين قد خنق ما تبقى من حسّي السليم.

أفلتت مني ضحكة غير منطقية، فنظر إليّ الرجال الثلاثة وكأنني ضربتُ على رأسي.

قال بودهي وهو يفرك مؤخرة عنقه:

– «دعني أخمن، نحن مسؤولون عن التنظيف؟»

أومأ زايدن مجيباً:

– «اطلبوا المساعدة إن احتجتم إليها.»

الجثث.

أنا حية. أنا حية. أنا حية.

كررتُ هذه التعويذة في رأسي بينما كان زايدن يمسح الدم عن خنجري بظهر سترة أورين.

قال زايدن وهو يتخطى جثة أورين وجثتين أخريين، ليسحب خنجري من كتف المرأة الساقطة قبل أن يصل إلى خزانتي:

– «أجل. أنتِ حية.»

لا أستطيع حتى تذكر ملامح هذه المرأة، ومع ذلك حاولت قتلي.

بدأ غاريك وبودهي في سحب الجثث الأولى للخارج.

– «لم أدرك أنني قلت ذلك بصوت مسموع.»

بدأت ركبتاي ترتجفان، ثم غمرني الغثيان بقوة. تباً، ظننتُ أنني تجاوزتُ هذا النوع من ردود الفعل تجاه الأدرينالين، لكن ها أنا أرتجف كورقة شجر بينما يعبث زايدن في خزانتي وكأنه لم يقتل للتو نصف دزينة من البشر.

وكأن هذه المجزرة أمر معتاد.

قال وهو يسحب عباءتي من خطافها ويلتقط زوجاً من الأحذية العسكرية:

– «إنها صدمة ما بعد الحدث. هل أنتِ مصابة؟»

كانت كلماته مقتضبة، ومزقت أي حاجز مؤقت وضعته لتجاهل الألم. عاد الألم يتدفق في موجة نابضة تركزت في ظهري. وداعاً إذن لاندفاع الأدرينالين.

كل نَفَس أصبح يبدو وكأنني أدفع رئتيّ ضد زجاج مكسور، لذا أبقيتُ أنفاسي قصيرة وضحلة. لكني تمكنتُ من البقاء على قدميّ، متراجعة حتى شعرتُ ببرودة الجدار الحجري على جانبي السليم، فأسندتُ وزني إليه.

كانت نبرة صوته الحازمة تتناقض مع كلماته المشجعة وهو يطوي عباءتي فوق ذراعه ويحمل حذائي العسكري متخطياً ما تبقى من جثث على أرضيتي:

– «هيا يا ڤيولينس. تماسكي وأخبريني أين تتألمين.»

لقد قتل ستة أشخاص دون أن تتلطخ ملابسه الجلدية السوداء كمنتصف الليل بقطرة دم واحدة. وضع الحذاء بجوار قدميّ وألقى العباءة على الكرسي الصغير في الزاوية.

بالكاد أستطيع التنفس، فهل يمكنني المخاطرة بالاعتراف له بضعفي الحالي؟

كانت أصابعه دافئة تحت ذقني وهو يرفع رأسي لتلتحم نظراتنا. مهلاً... هل ألمح مسحة من الذعر تدوّم في عينيه؟

– «تنفسكِ مريع، لذا أخمّن أن الأمر يتعلق بـ...»

قاطعته قبل أن يكمل تخمينه:

– «أضلاعي.»

محاولة إخفاء الألم لن تجدي نفعاً معه.

– «الشخص الذي كان بجوار السرير ضرب جانب أضلاعي بالسيف، لكن أظن أنها مجرد كدمات.»

لم أسمع تلك الطقطقة المميزة التي ترافق كسر العظام.

رفع حاجباً داكناً وقال:

– «لا بد أنه كان سيفاً كليلاً. أو ربما لهذا علاقة بسبب نومكِ بسترة جلدية.»

أمرني تايرِن ذهنيًا:

– 'ثقي به.'

أجبته:

– 'الأمر ليس بتلك السهولة.'

رد تايرِن:

– 'يجب أن يكون كذلك الآن.'

رفعتُ ذراعي اليمنى واستدرتُ قليلاً ليتمكن من رؤية الثقب الواسع في ثوب نومي وقلت:

– «إنها مصنوعة من حراشف التنانين. ميرا صنعتها لي. وهذا هو سبب بقائي على قيد الحياة حتى الآن.»

تنقل بصره بين جسدينا، وتقلصت زوايا فمه قبل أن يومئ إيماءة واحدة:

– «فكرة عبقرية، رغم أنني أجزم بوجود أسباب متعددة لنجاتكِ حتى هذه اللحظة.»

وقبل أن أتمكن من مجادلته، انتقل بصره إلى حنجرتي وضاقتا وهو يتأمل ما أفترض أنه طبعة يدوية بنفسجية اللون.

– «كان يجب أن أقتله ببطء أكبر.»

قلتُ كاذبة:

– «أنا بخير.»

لستُ كذلك.

عاد بتركيزه الحاد إلى عينيّ، وقال بشراسة وهو يجزّ على أسنانه:

– «إياكِ أن تكذبي عليّ أبداً.»

قالها بقوة جعلتني أومئ بوعد رغمًا عني.

اعترفتُ:

– «إنها تؤلمني.»

– «دعيني أرى.»

فتحتُ فمي وأغلقته مرتين قبل أن أسأل:

– «هل هذا طلب أم أمر؟»

أحكم قبضتيه وقال:

– «لكِ الخيار طالما أنني سأتمكن من رؤية ما إذا كان ذلك الوغد قد كسر أضلاعكِ.»

دخل رجلان آخران عبر الباب المفتوح، يتبعهما غاريك وبودهي عن كثب. جميعهم... بكامل ملابسهم. بكامل عتادهم في... لمحتُ الساعة: الثانية فجراً.

أمر غاريك:

– «احملا هذين الاثنين، وسنتولى نحن أمر الباقين.»

بدأ الآخرون العمل، حاملين آخر الجثث عبر الباب. لم يسعني إلا ملاحظة أثر التمرد يتلألأ على أذرعهم جميعاً، لكنني احتفظتُ بالملاحظة لنفسي.

قال زايدن:

– «شكراً لكم.»

ثم لوح بيده فأغلق باب غرفتي بنقرة خافتة.

– «الآن، دعيني أرى أضلاعكِ. نحن نضيع الوقت.»

ابتلعتُ ريقي ثم أومأتُ. من الأفضل أن أعرف الآن إن كانت مكسورة على أي حال. أدرتُ ظهري له، لكنني تمكنتُ من رؤية وجهه في المرآة الطويلة بينما

كنت أخلع الأكمام الفضفاضة لثوب نومي، ممسكة بالقماش فوق صدري بينما ينسدل من الخلف حتى خصري.

قلتُ:

- «سيتعين عليك أن...»

قال وهو يطوي خصلات شعري فوق كتفي برقة مذهلة:

- «أعرف كيف أتعامل مع المشد.»

تقلص فكه مرة واحدة، ومرت على ملامحه تعبيرة ذكرتني بجوعٍ كاسح، قبل أن يقمعها سريعاً.

لامست أصابعه بشرتي العارية، فكبتُّ قشعريرة، مقلصة عضلاتي كي لا أتقوس متجاوبة مع لمسته.

ما خطبي بحق الجحيم؟ الدماء لا تزال تلطخ أرضيتي، ومع ذلك تضيق أنفاسي لسبب خاطئ تماماً وهو يفك الأربطة بسرعة ومهارة، بدءاً من الأسفل. لم يكن يكذب. إنه يعرف تماماً كيف يتعامل مع المشد.

سألني وهو يتنحنح بينما يكشف عن ظهري إنشاً تلو الآخر:

- «كيف بحق الجحيم تحشرين نفسكِ في هذا الشيء كل صباح؟»

أجبته من فوق كتفي:

- «أنا مرنة بشكل غريب. إنه جزء من متلازمة (كسر العظام وتمزق المفاصل) خاصتي.»

التقت عيوننا في المرآة، ورفرفت فراشات دافئة في معدتي. لكن اللحظة تلاشت بالسرعة التي جاءت بها، فباعد بين طرفي درعي، متفحصاً جانبي الأيمن. مررت أصابعه اللطيفة فوق الأضلاع المكدومة، ثم ضغطت بحذر.

- «لديكِ كدمة مروعة، لكن لا أظن أن هناك كسراً.»

– «هذا ما ظننته. شكراً لتفقدك.»

كان ينبغي أن يكون الموقف محرجاً، لكنه لم يكن كذلك لسبب ما، حتى وهو يعيد ربط المشد وتثبيت أطرافه.

قال وهو يتراجع خطوة:

– «ستعيشين. استديري.»

استدرتُ، ساحبة ثوب نومي فوق كتفيّ مجدداً، فجثا على ركبتيه أمامي على الأرض.

اتسعت عيناي بذهول. زايدن ريورسون راكع أمامي، وشعره الأسود في مستوى مثالي يسمح لي بتمرير أصابعي عبر كثافته. ربما يكون هذا هو الشيء الوحيد الناعم فيه. كم عدد النساء اللواتي شعرن بتلك الخصلات بين أصابعهن؟

ولماذا أهتم بحق الجحيم؟

قال وهو يلتقط حذاءً، ثم يربت على قدمي:

– «ستضطرين لتحمل الألم والمشي، وعلينا الإسراع. هل يمكنكِ رفعها؟»

أومأتُ رافعة قدمي. ثم سلبني كل فكرة منطقية حين ألبسني حذائي وأحكم ربطه واحدة تلو الأخرى.

هذا هو الرجل نفسه الذي لم يمانع موتي قبل بضعة أشهر فقط، ويبدو أن عقلي عاجز عن استيعاب جوانبه المتناقضة.

قال وهو ينهض:

– «هيا بنا.»

لف عباءتي حول كتفيّ وزررها عند ياقتي وكأنني شيء ثمين. الآن أدركتُ أنني في حالة صدمة فعلية، لأنني أبعد ما أكون عن كوني ثمينة بالنسبة لزايدن ريورسون. تنقل بصره فوق شعري، ورمش مرة واحدة قبل أن يسحب قلنسوتي فوق

كتلة الشعر المتدرجة من الداكن للفاتح. ثم أمسك بيدي وسحبني نحو الردهة. كانت أصابعه قوية وهي تلتف حول أصابعي، قبضته حازمة لكنها غير مؤلمة.

كانت جميع الأبواب الأخرى مغلقة. لم يكن الهجوم صاخباً بما يكفي لإيقاظ جيراني. كنتُ لأصبح في عداد الموتى الآن لولا ظهور زايدن، حتى لو تمكنتُ من التحرر من قبضة أورين. لكن كيف حدث كل ذلك؟

سألته بينما كانت الأروقة مضاءة بشكل خافت بأضواء سحرية زرقاء، وهو النوع الذي يشير إلى أن الليل لا يزال مخيماً بالنسبة للغرف الخالية من النوافذ:

– «إلى أين نحن ذاهبان؟»

رد وهو يواصل سيري:

– «استمري في التحدث بصوت عالٍ بما يكفي ليسمعكِ الآخرون، وسيوقفنا أحدهم قبل أن نصل إلى أي مكان.»

سألته بامتعاض:

– «ألا يمكنك إخفاؤنا في الظلال أو شيء من هذا القبيل؟»

رد بسخرية وهو يرمقني بنظرة أسكتتني:

– «بالتأكيد، لأن سحابة سوداء عملاقة تتحرك عبر الردهة لن تبدو مثيرة للريبة أكثر من ثنائي يتسلل في الخفاء.»

نقطة تسجل لصالحه.

ليس لأننا ثنائي.

وليس لأنني لا أمانع تسلقه كشجرة لو أتيحت لي الظروف المناسبة. تقلصت ملامحي وأنا أتخيل ذلك ونحن نصل إلى الردهة الرئيسية للمسكن. لن تكون هناك أبداً ظروف مناسبة حين يتعلق الأمر به، ناهيك عن أن ذلك يأتي مباشرة بعد إعدامه لنصف دزينة من البشر.

لكن دفاعاً عن نفسي، وبطريقة مريضة وملتوية، كان إنقاذه لي مثيراً للغاية، حتى لو كان يجرني عبر الردهة بسرعة لا أحتملها. حتى لو فعل ذلك فقط لأن حياتي مرتبطة بحياته. كان صدري يصرخ طالباً الراحة، لكن لم يكن هناك مجال لذلك وهو يقودني متجاوزاً الدرج الحلزوني المؤدي إلى مساكن طلاب السنتين الثانية والثالثة، نحو القاعة الدائرية.

سيستغرق شفاء أضلاعي أسابيع كاملة.

كان وقع أقدامنا على الأرضية الرخامية هو الصوت الوحيد حين دخلنا الجناح الأكاديمي. وبدلاً من الانعطاف يساراً نحو حلبة النزال، قادني يميناً، نزولاً عبر درج أعلم أنه يؤدي إلى المخزن.

في منتصف الدرج، توقف فجأة، وكدتُ أصطدم بالسيف المشدود إلى ظهره. ثم أشار بيده اليمنى، محتفظاً بيدي في يسراه.

طقطقة. دفع زايدن بعض الحجارة فانفتح باب خفي.

همستُ بذهول أمام النفق الواسع الذي انكشف أمامنا:

– «يا إلهي.»

قال وهو يسحبني للداخل، ليغلفنا ظلام خانق بمجرد انغلاق الباب:

– «آمل ألا تكوني تخافين الظلام.»

هذا جيد. هذا جيد تماماً.

قال بصوت مسموع وطقطق بأصابعه:

– «لكن في حال كنتِ كذلك...»

حلق ضوء سحري فوق رؤوسنا، منيراً محيطنا.

– «شكراً.»

كان النفق مدعماً بأقواس حجرية، وأرضيته ملساء، وكأنه يشهد حركة مرور تفوق ما يوحي به مدخله المخفي. كانت رائحته تشبه رائحة التراب لكنه لم يكن رطباً عفناً، وامتد مساره إلى ما بدا وكأنه الأبدية.

أفلت يدي وبدأ يمشي قائلاً:

– «جاري خطواتي.»

تأوهتُ ألمًا وقلت متذمرة وأنا أجرّ قدميّ خلفه وأسقط قلنسوتي:

– «تباً، صدري يؤلمني. يمكنك أن... تكون أكثر مراعاة بعض الشيء.»

قال دون أن يستدير:

– «لن أعاملكِ كطفلة مديدة كما يفعل آيتوس. هذا لن يجلب لكِ سوى الموت بمجرد خروجنا من باسجيات.»

تذمرتُ:

– «هو لا يعاملني كطفلة.»

انخفضت وتيرته ليمشي بجانبي وقال:

– «بل يفعل، وأنتِ تعلمين ذلك. وتكرهين ذلك أيضاً، إن كان حدسي لا يخيب. أم أنني أسأتُ قراءة الموقف؟»

– «هو يعتقد أن هذا المكان خطير للغاية بالنسبة لشخص... مثلي، وبعد ما حدث للتو، لستُ متأكدة من أنني أستطيع مجادلته حقاً.»

كنتُ نائمة. هذا هو الوقت الوحيد الذي يفترض أن نكون فيه في مأمن هنا.

رمقته بنظرة جانبية متأملة ملامحه الفاتنة بشكل مستفز وأكملت:

– «لا أظنني سأكلف نفسي عناء النوم مجدداً. وإن فكرتَ حتى في اقتراح أن تنام معي لحمايتي من الآن فصاعداً...»

شخر ساخراً:

– «بالكاد. أنا لا أضاجع طلاب السنة الأولى – حتى عندما كنتُ واحداً منهم – ناهيكِ عن... مضاجعتكِ أنتِ.»

هاجمته رداً، شاتمة نفسي لأن ألم أضلاعي قد تفاقم:

– «ومن تحدث عن المضاجعة؟ يجب أن أكون مازوخية لأنام معك، وأؤكد لك، أنا لستُ كذلك.»

تخيل الأمر لا يُحسب.

ارتفعت زاوية فمه بابتسامة متكلفة وقال:

– «مازوخية، هاه؟»

رسمتُ ابتسامة مماثلة على شفتيّ ورددت:

– «أنت بالكاد توحي بأجواء حميمة وعناق لصباح اليوم التالي. إلا إذا كنت قلقاً من أن أقتلك أثناء نومنا.»

انعطفنا عند زاوية، واستمر النفق.

رمقني بنظرة استنكار وقال:

– «لا أشعر بأي قلق من هذا القبيل. رغم كل (العُنف) الذي تحيطين به نفسك، ومهارتك في استخدام تلك الخناجر، لستُ متأكداً حتى من قدرتكِ على قتل ذبابة. لا تظني أنني لم ألاحظ أنكِ نجحتِ في إصابة ثلاثة منهم، ولم تسددي ضربة قاتلة واحدة.»

همستُ وكأني أبوح بسر خطير:

– «لم أقتل أحداً في حياتي.»

قال ببرود:

– «عليكِ تجاوز هذا الأمر. نحن لسنا سوى أسلحة بعد التخرج، ومن الأفضل أن نكون مشحوذين جيداً قبل مغادرة هذه البوابات.»

سألته، وقد فقدتُ كل إحساس بالاتجاه في هذا المكان:

– «هل هذا هو المكان الذي نقصده؟ هل سنغادر البوابات؟»

تقلص فك زايدن وهو يقول:

– «نحن ذاهبان لنسأل تايرِن عما حدث للتو بحق الجحيم. وأنا لا أقصد الهجوم. كيف بحق الجحيم تمكنوا من تجاوز أقفالكِ؟»

هززتُ كتفي ولم أكلف نفسي عناء الشرح. من المستحيل أن يصدقني. أنا بالكاد أصدق ذلك بنفسي.

أضاف بصرامة:

– «من الأفضل أن نكتشف الأمر كي لا يتكرر. أرفض النوم على أرضيتكِ اللعينة وكأنني كلب حراسة.»

تجاهلتُ تعليقه وسألت محاولة عزل الألم في حنجرتي وأضلاعي عقلياً:

– «مهلاً. هل هذا طريق آخر يؤدي إلى حقل الطيران؟»

خاطبتُ تايرِن ذهنيًا:

– 'إنه يحضرني إليك.'

أجاب تايرِن ببساطة:

– 'أعلم.'

سألته مجدداً:

– 'هل ستخبرني بما حدث هناك؟'

رد ببرود:

– 'كنتُ لأفعل لو كنتُ أعلم.'

أجابني زايدن بينما التوى المسار مرة أخرى:

– «أجل. وهو ليس أمراً معروفاً للعامة. وسأطلب منكِ أن تضعي هذا النفق الصغير في ملف الأسرار التي تحتفظين بها بالنيابة عني.»

– «دعني أخمن، وستعرف إن أخبرتُ أحداً؟»

– «بالضبط.»

ظهرت ابتسامة متكلفة أخرى، فأشحتُ بنظري قبل أن يضبطني وأنا أحدق فيه.

بدأ المسار في الصعود، ولم يكن الصعود يسيراً بأي حال من الأحوال. كل نفس يذكرني بما حدث قبل أقل من ساعة.

– «هل ستطلب مني وعداً بخدمة أخرى؟»

أجاب بتهكم:

– «الاحتفاظ بواحدة من خدماتكِ يكفي تماماً، وقد وصلنا بالفعل إلى حالة التدمير المتبادل المؤكد يا سورنجيل. الآن، هل يمكنكِ تحمل الألم والمواصلة، أم تحتاجين مني أن أحملكِ؟»

قلت لاهثة:

– «هذا يبدو كإهانة، لا كعرض للمساعدة.»

– «بدأتِ تفهمين.»

لكن وتيرته تباطأت لتجاري وتيرتي.

شعرت بالأرض تميد تحت قدميّ وكأنها تتأرجح، لكنني أعلم الحقيقة. إنه رأسي، نتيجة الألم والإرهاق. ترنحت خطواتي.

التفت ذراع زايدن حول خصري، تثبتني. أكره كيف ترفع لمسته معدل نبضات قلبي ونحن نواصل الصعود، لكنني لم أحتج. لا أريد أن أكون ممتنة لأي شيء حين يتعلق الأمر به، ولكن يا إلهي، رائحة النعناع المنبعثة منه شهية حقاً.

سألته:

– «ماذا كنت تفعل الليلة على أية حال؟»

نبرة صوته أوحت بوضوح أنه لا ينبغي لي السؤال:

– «وما الذي يجعلكِ تسألين؟»

للأسف.

– «لقد وصلتَ إلى غرفتي في غضون دقائق، وأنت لست مرتدياً ملابس نوم بالتأكيد.»

لقد كان يرتدي سيفاً بحق السماء.

– «ربما أنام بدرعي أيضاً.»

– «إذن يجدر بك اختيار شركاء فراش أكثر ثقة.»

شخر ضاحكاً، وومضت ابتسامة حقيقية للحظة. ابتسامة صادقة. ليست تلك الابتسامة الساخرة المتكلفة التي اعتدتُ رؤيتها، أو تلك الماكرة. ابتسامة حقيقية تخطف الأنفاس لستُ محصنة ضدها إطلاقاً. لكنها تلاشت بالسرعة التي ظهرت بها.

سألته محبطة، ولو لم أكن أتألم بشدة لكنتُ غضبت:

– «إذن لن تخبرني؟»

ولن أتطرق حتى إلى سبب حاجته لجرّنا طوال هذا الطريق للوصول إلى تايرِن، بينما يمكنني التحدث معه متى شئت.

إلا إذا كان هو من يريد التحدث إلى تايرِن، وهو أمر... يتطلب جرأة هائلة.

قال وهو يفلت خصري عندما وصلنا إلى نهاية النفق ذات الجدار الحجري:

– «كلا. شؤون تخص طلاب السنة الثالثة.»

قام ببعض الإيماءات بيده، وصدرت طقطقة أخرى قبل أن يدفع الباب ليفتحه.

خطونا خارجاً إلى هواء شهر نوفمبر البارد والمنعش.

همست بذهول:

– «ما هذا بحق الجحيم.»

كان الباب مبنياً داخل كومة من الصخور على الجانب الشرقي من الميدان.

لوح زايدن بيده فانغلق الباب، مندمجاً مع الصخر وكأنه جزء أصيل منه:

– «إنه مموه.»

تردد صوت أصبحتُ أميزه الآن كخفقان أجنحة منتظم، فرفعتُ رأسي لأرى ثلاث تنانين تحجب النجوم وهي تهبط. ارتجفت الأرض تحت وطأة هبوطها أمامنا.

تقدم تايرِن وقال:

– 'أخمّن أن قائد الجناح يرغب في التحدث؟'

تبعته سجايل، وقد طوت جناحيها بإحكام، وضيقت عينيها الذهبيتين نحوي.

اندفعت أندارنا من بين مخالب سجايل، راكضة نحونا. انزلقت في الأقدام العشرة الأخيرة، غارزة مخالبها في الأرض لتتوقف أمامي مباشرة، مقربة أنفها من أضلاعي بينما غمر ذهني شعور ملح بالقلق، يغرقني في مشاعر أعلم أنها لا تخصني.

طمأنتها وأنا أمرر يدي على النتوءات البارزة في رأسها:

– «لا توجد عظام مكسورة. إنها مجرد كدمات.»

سألتني والقلق يوسع عينيها:

– 'أنتِ متأكدة؟'

رسمتُ ابتسامة متكلفة وأجبتها:

– «بقدر ما أستطيع التأكد.»

الخروج إلى هنا في منتصف الليل يستحق العناء لتخفيف قلقها.

قال زايدن محدقاً صعوداً في تايرِن وكأنه ليس... تايرِن:

– «أجل، أريد التحدث. ما نوعِ القوى اللعينة التي توجهها إليها؟»

أجل. جرأة هائلة. تيبست كل عضلة في جسدي، متأكدة من أن تايرِن على وشك حرق زايدن عقاباً على وقاحته.

أجاب تايرِن بزمجرة:

– 'ليس من شأنك ما أختار أو لا أختار توجيهه لراكبتي.'

تجري الأمور على ما يرام حقاً.

بدأت أقول:

– «إنه يقول...»

قاطعني زايدن دون أن يمنحني حتى نظرة:

– «لقد سمعته.»

تراجعت أندارنا لتقف مع الآخرين، بينما طار حاجباي نحو خط شعري من الصدمة.

– «أنت ماذا؟»

التنانين تتحدث فقط لركابها. هذا ما تعلمته طوال حياتي.

رد زايدن وقد ارتفع صوته:

– «إنه من صميم شأني حين تتوقع مني حمايتها.»

التوى رأس تايرِن في تلك الحركة الثعبانية التي تضعني في حالة تأهب قصوى، وكان أكثر من مجرد منفعل:

– 'لقد أوصلتُ الرسالة إليك بوضوح أيها البشري.'

خرجت كلمات زايدن مقتضبة وهو يجزّ على أسنانه:

– «وبالكاد تمكنتُ من الوصول. كانت ستكون في عداد الموتى لو تأخرتُ ثلاثين ثانية.»

هدر صدر تايرِن بزمجرة:

– 'يبدو أنك مُنحت ثلاثين ثانية كهدية.'

صرخ زايدن:

– «وأريد أن أعرف ما الذي حدث هناك بحق الجحيم!»

سحبتُ نفساً حاداً.

توسلت تايرِن:

– 'لا تؤذه. لقد أنقذني.'

لم أرَ أحداً يجرؤ حتى على التحدث إلى تنين راكب آخر، ناهيك عن الصراخ في وجهه، وخاصة تنين قوي كـ تايرِن.

تذمر تايرِن رداً على ذلك.

قال زايدن، وقطعته نظرته الداكنة كسكين لجزء من الثانية قبل أن يعود ليحدق بـ تايرِن:

– «نحن بحاجة لمعرفة ما حدث في تلك الغرفة.»

انفتح فم تايرِن، والتوى لسانه في حركة أعرفها جيداً جداً:

– 'لا تجرؤ على محاولة قراءتي أيها البشري، وإلا ستندم.'

تحركتُ بينهما ورفعت ذقني نحو تايرِن:

– «إنه مصدوم قليلاً وحسب. لا تحرقه.»

تردد صوت أنثوي في رأسي:

- 'على الأقل نحن متفقون على شيء واحد.'

سجايل.

رمشتُ بذهول محدقة في تنين الذيل الخنجري ذات اللون الأزرق الداكن بينما تحرك زايدن ليقف بجانبي.

- «لقد تحدثت إليّ.»

عقد ذراعيه فوق صدره وقال:

- «أعلم. لقد سمعت. هذا لأنهما رفيقان. وهو نفس السبب الذي يجعلني مقيداً بكِ.»

- «أنت تجعل الأمر يبدو ممتعاً للغاية.»

استدار ليواجهني وقال:

- «إنه ليس كذلك. لكننا كذلك تماماً يا ڤيولينس. نحن مقيدان. مربوطان معاً. تموتين فأموت، لذا يحق لي تماماً أن أعرف كيف كنتِ تحت سكين سايفرت في ثانية، وفي الجانب الآخر من الغرفة في الثانية التالية. هل هذه هي القدرة السحرية الفريدة التي حصلتِ عليها مع تايرِن؟ اعترفي. الآن.»

ثقبتني عيناه بنظراتهما.

أجبتُ بصدق:

- «لا أعرف ما حدث.»

قالت أندارنا وكأنها تسرد حقائق، تماماً كما أفعل حين أكون متوترة:

- 'الطبيعة تحب أن يكون كل شيء متوازناً. هذا أول شيء نتعلمه.'

استدرت لأواجه التنين الذهبي، مكررة ما قالته لزايدن.

سألني، ولم يسألها:

- «وماذا يفترض أن يعني ذلك؟»

أخمّن أن هذا يعني أنه يستطيع سماع تايرِن، ولكن ليس أندارنا.

جلست أندارنا وهي تنفض ذيلها الريشي فوق العشب المغطى بالصقيع وأردفت:

– 'حسناً، ليس الشيء الأول. الشيء الأول هو أنه لا ينبغي لنا الارتباط حتى نكتمل النمو.'

أمالت رأسها جانباً وأضافت:

– 'أو ربما الشيء الأول هو أين توجد الأغنام؟ رغم أنني أفضل الماعز.'

تنهد تايرِن بجرعة ثقيلة من السخط:

– 'لهذا السبب لا ترتبط التنانين ذات الذيول الريشية.'

نبهت سجايل، وهي تطقطق بمخالبها كالمسامير على الأرض:

– 'دعها تشرح.'

تابعت أندارنا:

– 'التنانين ذات الذيول الريشية لا ينبغي لها الارتباط لأنها قد تمنح قواها عن طريق الخطأ للبشر. التنانين لا تستطيع توجيه السحر – ليس حقاً – حتى نكبر، لكننا جميعاً نولد بشيء مميز.'

نقلتُ الرسالة، ثم سألتُ بصوت مسموعٍ ليسمعني زايدن:

– «مثل القدرة السحرية الفريدة؟»

أجابت سجايل:

– 'لا. القدرة السحرية الفريدة هي مزيج من قوتنا مع قدرتكِ الخاصة على توجيه السحر. إنها تعكس جوهركِ في أعمق أعماقه.'

جلست أندارنا منتصبة وأمالت رأسها بفخر:

– 'لكنني منحتُ هديتي لكِ مباشرة. لأنني لا أزال تنيناً ذا ذيل ريشي.'

كررتُ كلامها مجدداً، وأنا أحدق في التنين الصغير. لا يُعرف الكثير تقريباً عن التنانين ذات الذيول الريشية لأنه لا يتم رؤيتها أبداً خارج الوادي. إنها تخضع لحراسة مشددة. إنها...

ابتلعتُ ريقي. مهلاً. ماذا قالت؟

– «لا تزالين تنيناً ذا ذيل ريشي؟»

رمشت ببطء ثم تثاءبت بتثاؤب واسع، والتوى ذيلها المتشعب:

– 'أجل! لبضع سنوات أخرى على الأرجح.'

أوه. يا إلهي.

همستُ مذهولة:

– «أنتِ... أنتِ مجرد فرخ.»

نفثت أندارنا البخار في الهواء باحتجاج:

– 'أنا لست كذلك! عمري عامان! الفراخ لا تستطيع حتى الطيران!'

نقل زايدن بصره بيني وبين أندارنا متسائلاً:

– «إنها ماذا؟»

رمقتُ تايرِن بنظرة غاضبة:

– «لقد سمحتَ لصغيرة بالارتباط؟ وسمحت لها بالتدرب من أجل الحرب؟»

جادلني، وقد امتلك الجرأة ليبدو مهاناً:

– 'نحن ننضج بمعدل أسرع بكثير من البشر. ولستُ متأكداً من أن أحداً «يسمح» لأندارنا بفعل أي شيء.'

شهقتُ مصدومة:

– «أسرع بكم؟ عمرها عامان فقط!»

أجابت سجايل:

– 'سيكتمل نموها في غضون عام أو عامين، لكن بعضها أبطأ من البعض الآخر. ولو ظننتُ أنها سترتبط حقاً، لكنتُ اعترضتُ بشدة أكبر على حقها في منح العطايا.'

أطلقت شخرة نحو أندارنا في استنكار واضح.

خطا زايدن خطوة نحو سجايل، وكانت نبرة صوته مختلفة عن أي شيء سمعته من قبل. كان... مجروحاً:

– «لحظة. هل أندارنا ابنتكِ؟ هل أخفيتِ عني فرخاً طوال العامين الماضيين؟»

أطلقت سجايل دفعة من الهواء بعثرت شعر زايدن:

– 'لا تكن سخيفاً. أتظن أنني كنتُ سأسمح لنسلي بالارتباط وهو لا يزال بريش؟'

أجاب تايرِن:

– 'لقد توفي والداها قبل أن تفقس.'

هوى قلبي حزناً:

– «أوه، أنا آسفة يا أندارنا.»

ردت وكأن ذلك يعوضها:

– 'لدي الكثير من الكبار ليرعوني.'

لكن بعد فقداني لأبي... أعلم أن ذلك لا يعوض شيئاً.

تذمر تايرِن:

– 'لكنهم لم يكونوا كافين لإبقائكِ بعيدة عن ميدان يوم التصفية. التنانين ذات الذيول الريشية لا ترتبط لأن قوتها غير متوقعة للغاية. وغير مستقرة.'

سأل زايدن:

– «غير متوقعة؟»

همهم تايرِن حين أسندت أندارنا جسدها المتعب إلى ساقه الأمامية:

– 'تماماً كما لن تسلم طفلاً صغيراً قدرتك السحرية الفريدة، أليس كذلك أيها القائد؟'

هز زايدن رأسه مجيباً:

– «بحق الآلهة، لا. بالكاد كنتُ أستطيع السيطرة عليها حين كنتُ في السنة الأولى.»

من الغريب أن أتخيل زايدن فاقداً للسيطرة على الإطلاق. تباً، سأدفع مالاً طائلاً لأراه يفقد السيطرة. لأكون أنا من يفقد السيطرة معها. كلا. أغلقتُ تلك الفكرة فوراً.

أجاب تايرِن:

– 'بالضبط. الارتباط في سن مبكرة جداً يسمح لها بمنح هديتها مباشرة، ويمكن للراكب بسهولة أن يستنزفها بالكامل وتحترق.'

هززتُ رأسي بقوة:

– «لن أفعل ذلك أبداً!»

تهدل رأس أندارنا على ساق تايرِن:

– 'لهذا السبب اخترتكِ.'

كيف لم ألاحظ ذلك من قبل؟ عيناها المستديرتان، كفوف أقدامها...

قال تايرِن وهو يسترق النظر جانبياً إلى رفيقته:

– 'بالطبع، لم تكوني لتعرفي. التنانين ذات الذيول الريشية لا يُفترض أن تُرى.'

لم تكلف نفسها حتى عناء قلب عينيها.

حدق زايدن في أندارنا وهي ترمش ببطء شديد وقال:

– «إذا علمت القيادة أن بإمكان الركاب الاستحواذ على هداياها لأنفسهم، بدلاً من الاعتماد على قدراتهم السحرية الفريدة...»

أكملتُ الجملة بهدوء:

– «فسيطاردونها.»

قالت سجايل:

– 'وهذا هو سبب عدم إمكانية إخبار أي شخص بحقيقتها. نأمل أن تنضج بمجرد تخرجكِ من القطاع، والشيوخ يضعون بالفعل حمايات... أكثر صرامة على التنانين ذات الذيول الريشية.'

وعدتُها:

– «لن أفعل. أندارنا، شكراً لكِ. أياً كان ما فعلتِه، فقد أنقذ حياتي.»

تدلى فمها في تثاؤب آخر كاد يخلع فكها:

– 'لقد أوقفتُ الزمن. لكن لفترة قصيرة فقط.'

مهلاً. ماذا؟ هوى قلبي في صدري وأنا أحدق في عيني أندارنا الذهبيتين، ونسيتُ الألم، والأرض الصلبة تحت قدميّ، وحتى حاجتي للتنفس بينما تدحرجت موجة من الصدمة عبر جسدي، سالبة إياي أي منطق.

لا أحد يستطيع إيقاف الزمن. لا شيء يمكنه إيقاف الزمن. هذا... شيء لم يُسمع به من قبل.

أمسك زايدن بكتفيّ ليثبتني وسأل:

– «ماذا قالت؟»

زمجر تايرِن ولفحتنا دفعة من البخار نحن الاثنين.

حذرت سجايل:

– 'أفضّل أن تبعد يديك عن الراكبة.'

أرخى زايدن قبضته لكنه استمر في إحاطة كتفيّ:

– «أخبريني بما قالته. أرجوكِ.»

زمّ شفتيه وأعلم أن تلك الكلمة الأخيرة كلفته الكثير.

قلتُ بصعوبة وأنا أتعثر في كلماتي:

– «إنها تستطيع إيقاف الزمن. لفترة وجيزة.»

ارتخت ملامح زايدن، ولأول مرة، لم يبدُ كقائد الجناح الصلب والمميت الذي قابلته على المتراس الصخري. كان مصدوماً تماماً حين التفت إلى أندارنا.

– «تستطيعين إيقاف الزمن؟»

رمشت ببطء، واستطعتُ الشعور بالإرهاق ينبعث منها:

– 'والآن يمكننا إيقافه.'

لقد كلفها توجيه تلك الهدية لي الليلة الكثير. بالكاد تستطيع إبقاء عينيها مفتوحتين.

همستُ:

– «بزيادات صغيرة.»

كرر زايدن ببطء وكأنه يستوعب المعلومة:

– «بزيادات صغيرة.»

قلتُ لأندارنا بصوت خافت:

– «وإذا استخدمتُ هذه القدرة أكثر من اللازم، يمكنني قتلكِ.»

وقفت على كفوفها الأربعة:

– 'قتلنا معاً. لكني أعلم أنكِ لن تفعلي.'

– «سأبذل قصارى جهدي لأكون جديرة بذلك.»

ضربتني عواقب هذه الهدية، هذه القوة الاستثنائية، كضربة قاضية، وهوت معدتي.

– «هل سيقتلني الأستاذ كار أنا أيضاً؟»

التفتت كل الأنظار نحوي، واشتدت قبضة زايدن على كتفيّ، بينما كانت إبهاماه تمسحان عليهما في حركة مهدئة.

– «ما الذي يجعلكِ تظنين ذلك؟»

دفعتُ الذعر بعيداً وركزتُ على البقع الذهبية الدقيقة في عيني زايدن العقيقيتين:

– «لقد قتل جيريميا. لقد رأيتَه يكسر عنقه كغصن يابس أمام القطاع بأكمله.»

انخفض صوت زايدن وهو يوضح:

– «كان جيريميا متوغلاً ذهنياً. قراءة الأفكار جريمة عقوبتها الإعدام. أنتِ تعلمين ذلك.»

تجمد الدم في عروقي من الرعب:

– «وماذا سيفعلون إن اكتشفوا أنني أستطيع إيقاف الزمن؟»

وعدني زايدن:

– «لن يكتشفوا ذلك. لن يخبرهم أحد. لا أنتِ. ولا أنا. ولا هم.»

أشار بيده نحو ثلاثي التنانين وأكمل:

– «هل فهمتِ؟»

أكد تايرِن كلماته:

– 'إنه محق. لا يمكنهم اكتشاف الأمر. ولا يمكن الجزم بالمدة التي ستحتفظين فيها بهذه القدرة. معظم هدايا التنانين ذات الذيول الريشية تختفي مع النضج حين يبدأون في توجيه السحر.'

تثاءبت أندارنا مرة أخرى، وبدت وكأنها تكاد تسقط ميتة من التعب.

قلتُ لها:

– «احصلي على بعض النوم. شكراً لمساعدتكِ لي الليلة.»

قال تايرِن:

– 'هيا بنا أيتها الذهبية.'

انحنت التنانين الثلاثة قليلاً، ثم انطلقت، لتعصف الرياح بوجهي. كافحت أندارنا، وهي ترفرف بجناحيها بضعف القوة، فطار تايرِن أسفلها مباشرة، متحملاً وزنها وهو يواصل التحليق نحو الوادي.

طلب زايدن بينما كنا نتوجه عائدين إلى النفق، لكن نبرته بدت كأمر صارم:

– «عديني ألا تخبري أحداً عن إيقاف الزمن. الأمر لا يتعلق بسلامتكِ وحسب. القدرات النادرة، حين تبقى طي الكتمان، هي أثمن أشكال العملات التي نمتلكها.»

تجعدت جبهتي وأنا أتأمل الخطوط الصارخة لأثر التمرد الذي يلتف حول رقبته، واصماً إياه كابن خائن، ومحذراً الجميع بأنه لا يؤتمن. ربما يخبرني بالتزام الصمت لمصلحته الشخصية، ليتمكن من استغلالي لاحقاً في المستقبل.

على الأقل هذا يعني أنه ينوي إبقائي على قيد الحياة حتى ذلك الحين.

قال زايدن:

– «علينا اكتشاف كيف تمكن المتدربون غير المرتبطين من دخول غرفتكِ.»

أجبته:

– «كان هناك راكبة معهم. شخص هرب قبل وصولك. لا بد أنها من فتحت الباب من الخارج.»

توقف فجأة، وأمسك بمرفقي برفق ليديرني نحوه:

– «من هي؟»

هززتُ رأسي. من المستحيل أن يصدقني. أنا بالكاد أصدق ذلك بنفسي.

التمعت عينا زايدن بغضب عارم:

– «في مرحلة ما، سيتعين علينا أنا وأنتِ أن نبدأ في الوثوق ببعضنا البعض يا سورنجيل. بقية حياتنا تعتمد على ذلك. الآن أخبريني من هي.»

«إن اتهام قائد جناح بارتكاب مخالفة هو أخطر الاتهامات على الإطلاق. فإن كنت محقاً، فهذا يعني أننا فشلنا كقطاع في اختيار أفضل القادة. وإن كنت مخطئاً، فأنت ميت.»

– مذكرات متدرب: بقلم الجنرال أوغسطين ميلغرين



الفصل العشرون

تلا النقيب فيتزجيبونز قائمة الموتى قائلاً:

– «أورين سايفرت.»

ثم أغلق اللفافة ونحن نقف في تشكيل الطابور صباح اليوم التالي، وأنفاسنا تتكثف كغيوم صغيرة في الهواء القارس، وأردف:

– «نستودع أرواحهم لـ ماليك.»

لم أجد في قلبي متسعاً لأي ذرة من الحزن على ستة من الأسماء الثمانية، ليس وأنا أنقل وزني من قدم لأخرى لأخفف من ألم الكدمات السوداء والزرقاء التي تغطي أضلاعي، وأتجاهل نظرات الركاب الآخرين إلى طوق الكدمات الذي يطوق حنجرتي.

الاسمان الآخران في قائمة اليوم يعودان لطالبي سنة ثالثة من الجناح الثاني، قُتلا في عملية تدريبية بالقرب من حدود برايفيك، وفقاً لشائعات الإفطار، ولم

يسعني سوى التساؤل عما إذا كان هذا هو المكان الذي تواجد فيه زايدن قبل أن يهب لإنقاذي الليلة الماضية.

– «لا أصدق أنهم حاولوا قتلكِ وأنتِ نائمة.»

كانت ريانون لا تزال تغلي غضباً أثناء الإفطار بعد أن أخبرتُ طاولتنا بما حدث.

ربما يكافح زايدن لإبقاء أحداث الليلة الماضية سراً، ليخفي مدى كوني عبئاً حقيقياً عليه، إذ لا أحد آخر في القيادة يعلم بالأمر. لم ينطق بكلمة واحدة بعد أن أخبرته بهوية من فتحت الباب، لذا لا أملك أدنى فكرة عما إذا كان يصدقني أم لا.

– «والأسوأ من ذلك، أعتقد أنني بدأت أعتاد على الأمر.»

إما أنني أمتلك مهارات استثنائية في عزل مشاعري، أو أنني حقاً أتكيف مع فكرة كوني هدفاً دائماً.

أصدر النقيب فيتزجيبونز بعض الإعلانات الثانوية، فتجاهلته تماماً بينما كان أحدهم يخطو بثقة نحونا، شاقاً طريقه عبر المساحة الفاصلة بين قسمي اللهب والذيل في جناحنا.

وكما هو الحال دائماً، تعثر نبض قلبي الغبي الذي تحركه الهرمونات عند أول نظرة ألقيتها على زايدن. حتى أكثر السموم فتكاً تأتي في عبوات جذابة، وزايدن هو التجسيد الحي لذلك – فهو فاتن بقدر ما هو مميت. بدا هادئاً بشكل خادع وهو يقترب، لكنني استطعتُ الشعور بتوتره وكأنه يسري في عروقي، كفهد أسود يتسلل نحو فريسته. عبثت الرياح بشعره، فتنهدتُ مستسلمة أمام الميزة غير العادلة إطلاقاً التي يمتلكها على كل رجل في هذه الساحة. إنه حتى لا يحتاج لمحاولة أن يبدو مثيراً... هو كذلك ببساطة.

أوه، تباً. هذا الشعور بالذات – الطريقة التي تنقطع بها أنفاسي ويشتد بها جسدي بأكمله حين يكون قريباً – هو السبب الذي منعني من اصطحاب أي شخص إلى فراشي أو الاحتفال كبقية أصدقائي الطبيعيين تماماً. هذا الشعور هو السبب الذي جعلني لا أرغب في أي شخص... آخر.

لأنني أريده هو.

لا توجد كلمات شتائم كافية في العالم لوصف هذا المأزق.

التحمت نظراته بنظراتي لفترة كافية لتسريع نبضي قبل أن يوجه حديثه لـ داين، متجاهلاً إعلانات فيتزجيبونز من خلفه:

– «هناك تغيير في سجل فرقتك.»

تساءل داين، وقد استقام عموده الفقري:

– «قائد الجناح؟ لقد استوعبنا للتو أربعة أفراد بعد حل الفرقة الثالثة.»

أجاب زايدن وهو ينظر يميناً، حيث تقف الفرقة الثانية من قسم الذيل في وضع الانتباه:

– «أجل. بيلدن، سنجري تغييراً في السجل.»

أومأ قائد الفرقة إيماءة واحدة مجيباً:

– «حاضر سيدي.»

تابع زايدن:

– «آيتوس، سيغادر فون بينلي قيادتك، وستضم ليام مايري من قسم الذيل.»

أطبق داين فمه بقوة، وأومأ برأسه.

راقبنا جميعاً طالبَي السنة الأولى وهما يتبادلان أماكنهما. لم يمضِ بينلي معنا سوى فترة قصيرة منذ يوم التصفية، لذا لم يكن هناك وداع حار من فرقتنا الأصلية، لكن الثلاثة الآخرين تذمروا.

أومأ ليام برأسه لزايدن، فتقلصت معدتي. أعلم تماماً لماذا وُضع تحت قيادة داين. الشاب ضخم الجثة، في طول سوير وبنية داين العضلية، بشعر أشقر فاتح، وأنف بارز، وعينين زرقاوين، وأثر التمرد الممتد الذي يبدأ من معصمه ويختفي تحت كم سترته يفضح مهمته بوضوح.

فحييتُ بحدة في وجه زايدن:

– «أنا لا أحتاج إلى حارس شخصي.»

هل تجاوزتُ حدودي بالتحدث إلى قائد جناح بهذه الطريقة؟ بالتأكيد. هل أكترث؟ ولا حتى قليلاً.

تجاهلني زايدن، ووجه حديثه لداين:

– «ليام هو أقوى طلاب السنة الأولى في القطاع من الناحية الإحصائية. لقد سجل أسرع وقت في تسلق المتراس العمودي، ولم يخسر تحدياً واحداً، وهو مرتبط بتنين أحمر ذي ذيل خنجري قوي بشكل استثنائي. أي فرقة ستكون محظوظة بضمه، وهو لك بالكامل يا آيتوس. يمكنك شُكري حين تفوز بمعركة الفرق في الربيع القادم.»

تقدم ليام ليقف في التشكيل خلفي، محتلاً مكان بينلي.

كررتُ كلماتي، بصوت أعلى قليلاً هذه المرة، وبفواصل حادة بين كل كلمة وأخرى:

– «أنا. لا. أحتاج. إلى. حارس. شخصي.»

ولا يهمني بحق الجحيم من يسمعني.

شهق أحد طلاب السنة الأولى خلفي، ولا شك أنه صُدم من وقاحتي.

شخرت إيموجين ساخرة:

– «حظاً موفقاً مع هذا الأسلوب.»

تجاوز زايدن داين ووقف أمامي مباشرة، مائلاً بجسده ليقتحم مساحتي الشخصية، وقال:

- «بلى، أنتِ بحاجة إليه، كما أدركنا كلانا الليلة الماضية. ولا يمكنني التواجد في كل مكان تتواجدين فيه. لكن ليام هنا...»

أشار بإصبعه نحو طالب السنة الأولى الأشقر من أبناء تايريندور وأردف:

- «إنه في السنة الأولى، لذا يمكنه التواجد في كل حصة، وفي كل تحدٍ، بل وتأكدتُ من تعيينه في نوبة المكتبة أيضاً، لذا آمل أن تعتادي على وجوده يا سورنجيل.»

انغرزت أظافري في راحتيّ وأنا أرد:

- «أنت تتجاوز حدودك.»

حذرني، وقد انخفض صوته ليرسل قشعريرة باردة أسفل عمودي الفقري:

- «أنتِ لم تري شيئاً بعد من تجاوز الحدود. أي تهديد ضدكِ هو تهديد ضدي، وكما أوضحنا مسبقاً، لدي أمور أكثر أهمية لأقوم بها من النوم على أرضيتكِ.»

تدفقت الحرارة صعوداً نحو عنقي ولطخت وجنتيّ بحمرة غاضبة وأنا أرد:

- «هو لن ينام في غرفتي.»

ابتسم ابتسامة متكلفة جعلت معدتي الخائنة تضطرب وهو يجيب:

- «بالطبع لا. لقد رتبتُ نقله إلى الغرفة المجاورة لغرفتكِ. لا أريد أن أتجاوز حدودي.»

استدار على عقبيه ومضى عائداً إلى مكانه في مقدمة تشكيلنا.

فحّ داين بغضب مكتوم وعيناه مصوبتان للأمام:

- «سحقاً للروابط بين التنانين المتزاوجة.»

أنهى فيتزجيبونز إعلاناته وتراجع إلى خلف المنصة، وهو ما يؤشر عادةً إلى انتهاء الطابور، لكن القائد بانشيك اعتلى المنصة بدلاً منه. من عادته أن يتجنب طابور الصباح، مما يعني أن هناك أمراً جللاً.

سألتني ريانون التي تقف بجانبي:

– «ما الذي يخطط له بانشيك؟»

أخذتُ نفساً عميقاً وأنا أتأوه من الألم في أضلاعي وأجبت:

– «لستُ متأكدة.»

عقبت ريانون:

– «لا بد أنه أمر بالغ الأهمية إن كان يتخبط في تقليب الدستور العسكري أمامه هكذا.»

أمر داين وهو يسترق النظر إلينا من فوق كتفه لأول مرة هذا الصباح:

– «هدوء.»

أخذ نظرة ثانية، واتسعت عيناه بصدمة حين وقع بصره على عنقي وأردف:

– «ڤيوليت؟»

لم يتحدث إليّ منذ شجارنا البارحة. يا إلهي، كيف مر أقل من أربع وعشرين ساعة وأنا أشعر وكأنني شخص مختلف تماماً؟

طمأنته قائلة:

– «أنا بخير.»

لكنه استمر في التحديق في حنجرتي، مسمراً في مكانه من الصدمة.

نبهته:

– «قائد الفرقة آيتوس، الجميع يحدقون بنا.»

كنا نستحوذ على قدر من الاهتمام يفوق نصيبنا العادل بينما بدأ القائد بانشيك يتحدث من المنصة، مخبراً إيانا أن هناك مسألة أخرى يجب معالجتها هذا الصباح، لكن داين رفض إشاحة نظره.

همستُ بحزم:

– «داين!»

رمش بعينيه، ساحباً نظراته لتلتقي بعينيّ، والاعتذار الواضح في تلك العينين البنيتين اللطيفتين سد حلقي بغصة. سأل:

– «هل هذا ما كان يعنيه ريورسون بحديثه عن الليلة الماضية؟»

أومأتُ إيجاباً.

– «لم أكن أعلم. لماذا لم تخبريني؟»

لأنك لم تكن لتصدقني، حتى لو فعلتُ.

كررتُ مطمئنة وأنا أومئ برأسي نحو المنصة:

– «أنا بخير. سنتحدث لاحقاً.»

استدار بصعوبة وكأنه يُجبر نفسه على ذلك.

صاح بانشيك ليتردد صوته في أرجاء الساحة:

– «لقد نما إلى علمي بصفتي قائدكم أن هناك خرقاً صريحاً للدستور العسكري قد وقع.»

تابع بانشيك بصرامة:

– «كما تعلمون، لا تهاون مع أي خرق لقوانيننا المقدسة. سيتم التعامل مع هذه المسألة هنا والآن. فليتقدم المتهم.»

همست ريانون:

- «أحدهم في ورطة كبيرة. هل تظنين أن ريدوك قد ضُبط أخيراً في فراش تيفون فارين؟»

تمتم ريدوك من خلفنا:

- «هذا بالكاد يُعتبر خرقاً للدستور.»

رمقته بنظرة ذات مغزى من فوق كتفي وذكرته:

- «إنه نائب القائد للجناح الثاني.»

هز ريدوك كتفيه بلامبالاة وابتسم دون ذرة ندم قائلاً:

- «وماذا في ذلك؟ إقامة علاقات مع القيادة أمر منبوذ، ولكنه ليس مخالفاً للقانون.»

تنهدتُ وأنا أستدير للأمام وقلت:

- «أنا أفتقد ممارسة الجنس.»

أنا أفتقد ذلك حقاً، وليس فقط من أجل الإشباع الجسدي. هناك شعور بالتواصل في تلك اللحظات أتوق إليه، إبعاد مؤقت لشبح الوحدة.

الأول هو شيء أنا متأكدة أن زايدن قادر تماماً على توفيره، إن فكر فيّ يوماً بتلك الطريقة، لكن الثاني؟ إنه آخر شخص يجب أن أتوق إليه، لكن يبدو أن الشهوة والمنطق لا يجتمعان أبداً.

بدأ ريدوك قائلاً وهو يبعد خصلات شعره البني المنسدلة عن جبهته بغمزة ماكرة:

- «إذا كنتِ تبحثين عن قليل من المرح، يسعدني أن ألبي نداء...»

قاطعته محاولة كتم ابتسامتي بينما كان أحدهم يمشي من مقدمة التشكيل نحو المنصة، ولم أتمكن من تمييز هويته عبر صفوف الفرق التي تسبقنا:

– «لقد قلت إنني أفتقد الجنس الممتع. وعلاوة على ذلك، يبدو أنك مأخوذ بالفعل.»

يجب أن أعترف، كان من المريح أن أغيظ صديقاً بشأن أمر تافه كهذا. إنها شريحة ضئيلة من الحياة الطبيعية في بيئة محاطة بالموت.

رد ريدوك مدافعاً:

– «نحن لسنا في علاقة حصرية. الأمر يشبه ريانون وتلك الفتاة... ما اسمها...»

أسعفته ريانون:

– «تارا.»

نبح داين بصوته العسكري كضابط أعلى:

– «هل ستخرسون جميعاً بحق الجحيم؟»

أُطبقت أفواهنا فوراً.

لكن فمي عاد لينفتح مجدداً حين أدركتُ أن زايدن هو من يصعد درجات المنصة. تقلصت معدتي وأنا أسحب نفساً عميقاً متوتراً. همستُ:

– «هذا الأمر يخصني.»

استرق داين نظرة إليّ، وقد جعدت الحيرة حاجبيه قبل أن يوجه انتباهه نحو المنصة، حيث يقف زايدن الآن، متمكناً بطريقة ما من ملء المسرح بأكمله بحضوره الطاغي.

من بين ما أذكر أنني قرأته، كان والده يمتلك نفس تلك الجاذبية المغناطيسية، القدرة على أسر انتباه الحشود والسيطرة عليها بكلماته فقط... الكلمات التي أدت في النهاية إلى موت أخي بريانان.

بدأ زايدن حديثه، ليتردد صوته العميق فوق التشكيل بأسره:

– «في وقت مبكر من صباح هذا اليوم، تعرضت راكبة في جناحي لهجوم وحشي وغير قانوني أثناء نومها بنية القتل، من قِبل مجموعة تتكون في الغالب من متدربين غير مرتبطين.»

سرت همهمات وشهقات متفرقة في الهواء، وتصلب كتفا داين.

تابع زايدن:

– «وكما نعلم جميعاً، هذا انتهاك صارخ للمادة الثالثة، الفقرة الثانية من دستور ركاب التنانين، وإلى جانب كونه مجرداً من الشرف، فهو جريمة عقوبتها الإعدام.»

شعرت بوطأة العشرات من النظرات المصوبة نحوي، لكن نظرات زايدن كانت الأكثر ثقلاً على الإطلاق.

أحكم قبضته على حواف منصة التحدث وأردف:

– «بعد أن نبهني تنيني، تدخلتُ لإيقاف الهجوم برفقة راكبين آخرين من الجناح الرابع.»

أمال ذقنه نحو جناحنا، فخرج راكبان – غاريك وبودهي – من التشكيل وصعدا الدرج ليقفا خلف زايدن، ويداهما مسترخيتان إلى جانبيهما.

– «ولأن المسألة كانت مسألة حياة أو موت، قمتُ شخصياً بإعدام ستة من القتلة المحتملين، بشهادة قائد قسم اللهب غاريك تافيس، ونائب قائد قسم الذيل بودهي دوران.»

قالت نادين، إحدى المنضمات حديثاً إلى فرقتنا، من الصف الذي خلف ريدوك وليام:

– «كلاهما من مقاطعة تايريندور. يا لها من صدفة مريحة.»

نظرتُ منوق كتفي ورمقتها بنظرة حادة غاضبة.

أبقى ليام عينيه مصوبتين للأمام.

ارتفع صوت زايدن وهو يواصل:

– «لكن الهجوم كان من تدبير راكبة فرت قبل وصولي. راكبة تملك صلاحية الوصول إلى الخريطة التي توضح أماكن نوم جميع طلاب السنة الأولى، ويجب تقديمها للعدالة العاجلة.»

تباً. الأمور على وشك أن تتخذ منعطفاً بالغ القبح.

حول زايدن تركيزه نحو وسط التشكيل وأعلن بصوت هادر:

– «أستدعيكِ للرد على جريمتكِ ضد المتدربة سورنجيل... قائدة الجناح آمبر مافيس.»

حبس القطاع أنفاسه في صدمة جماعية قبل أن تندلع ضجة هائلة اجتاحت الحشود.

فحّ داين بغضب:

– «ما هذا بحق الجحيم؟»

انقبض صدري. يا إلهي، كم أكره حين يثبت داين صحة ظنوني.

أمسكت ريانون بيدي، تعتصرها بقوة دعماً لي بينما تنقل انتباه كل راكب في الساحة بين زايدن، وآمبر... وبيني.

قال ريدوك من فوق كتفه:

– «إنها من تايريندور أيضاً يا نادين. أم أن تحيزكِ مقتصر فقط على الموشومين؟»

عائلة آمبر ظلت موالية لمملكة نافار، لذا لم تُجبر على مشاهدة إعدام والديها ولم تُوسم بأثر التمرد.

هز داين رأسه غير مصدق:

– «آمبر لن تفعل ذلك أبداً. أي قائد جناح لن يفعل ذلك أبداً.»

استدار بالكامل ليواجهني وقال بانفعال:

– «اصعدي إلى هناك وأخبري الجميع أنه يكذب يا ڤيوليت.»

أجبته بأكبر قدر ممكن من اللطف:

– «لكنه لا يكذب.»

احتقنت وجنتاه بحمرة مبقعة وهو يصر:

– «هذا مستحيل.»

– «لقد كنتُ هناك يا داين.»

كانت حقيقة عدم تصديقه لي مؤلمة أكثر بكثير مما توقعت، كضربة قاسية على أضلاعي المكدومة بالفعل.

– «قادة الأجنحة فوق مستوى الشبهات...»

قاطعته رافعة حاجبيّ في تحدٍ، أستفزه ليقول ما يحرص بشدة على إبقائه سراً:

– «إذن لماذا سارعتَ باتهام قائد جناحنا بالكذب؟»

من خلفه، تقدمت آمبر خطوة، مفصلة نفسها عن التشكيل وصرخت:

– «لم أرتكب أي جريمة كهذه!»

لوح داين بذراعه مشيراً نحو ذات الشعر الأحمر وقال:

– «أرأيتِ؟ ضعي حداً لهذا الآن يا ڤيوليت.»

قلتُ ببساطة، فالصراخ لن يقنعه، ولا أي شيء آخر سيفعل:

– «كانت معهم في غرفتي.»

رفع يديه وكأنه يستعد للإمساك بوجهي وهو يقول:

– «هذا مستحيل. دعيني أرى.»

تراجعتُ خطوة للوراء مصدومة مما ينوي فعله. كيف نسيتُ أن قدرته السحرية الفريدة تسمح له برؤية ذكريات الآخرين؟

لكن إن سمحتُ له برؤية ذكرياتي عن مشاركة آمبر، فسيرى أيضاً أنني أوقفتُ الزمن، ولا يمكنني السماح بحدوث ذلك. هززتُ رأسي وتراجعتُ خطوة أخرى.

أمرني بحزم:

– «اعطني الذكرى.»

رفعتُ ذقني باعتزاز غاضب وتوعدته:

– «المسني دون إذن، وستقضي بقية حياتك نادماً على ذلك.»

تموجت المفاجأة على ملامحه.

صدح صوت زايدن فوق الفوضى العارمة:

– «قادة الأجنحة. نحتاج إلى اكتمال النصاب القانوني.»

صعدت نايرا وسيبتون إيزار – قائدا الجناحين الأول والثاني – درجات المنصة، متجاوزين آمبر التي وقفت مكشوفة تماماً وسط الساحة.

ملأت فوضى مألوفة الهواء، ونظرنا جميعاً نحو خط التلال حيث كانت ست تنانين تحلق بمحاذاة الجبل، متجهة نحونا مباشرة. وكان أضخمها تايرِن.

في غضون ثوانٍ، وصلوا إلى القلعة وحلقوا فوق أسوار الساحة. عصفت الرياح الناتجة عن الضربات القوية لأجنحتهم عبر الساحة. ثم، واحداً تلو الآخر، هبطوا على مجاثمهم، وتوسط تايرِن التجمع.

كان كل خط في بنيته الهائلة ينضح بالتهديد بينما سحقت مخالبه الحجارة تحت قبضته، وتركزت عيناه المضيقتان الغاضبتان على آمبر.

تمركزت سجايل إلى اليمين، متخذة موقعها خلف زايدن. كانت مرعبة تماماً كما بدت في ذلك اليوم الأول، لكنني حينها لم أتخيل قط أنني سأرتبط بتنين أكثر إرعاباً... بالنسبة للجميع باستثنائي أنا. وخلف نايرا، برز تنينها الأحمر ذو الذيل العقربي، وبادله تنين سيبتون البني ذو الذيل الخنجري الوقفة ذاتها إلى اليسار. وعلى الطرفين، كانت التنانين تنفث البخار؛ التنين الأخضر ذو الذيل الهراوي الخاص بالقائد بانشيك، والتنين البرتقالي ذو الذيل الخنجري الخاص بآمبر.

انكسر التشكيل حين وقف سوير بجانبي قائلاً:

- «الأمور على وشك أن تصبح جدية للغاية.»

وشعرتُ بريدوك يقف خلفي تماماً.

توسلني داين:

- «يمكنكِ إيقاف كل هذا الآن يا ڤيوليت. يجب عليكِ ذلك. لا أعرف ما الذي رأيتِه الليلة الماضية، لكنها لم تكن آمبر. إنها تحترم القواعد أكثر من أن تكسرها.»

وهي تعتقد أنني كسرتُ القواعد باستخدام خنجري في التسلق الأخير على مسار القفاز.

صرخت آمبر في وجه زايدن:

- «أنت تستخدم هذا لتنتقم من عائلتي! لأننا لم ندعم تمرد والدك!»

يا لها من ضربة وضيعة بحق الجحيم.

لم يعرها زايدن أي اهتمام وهو يلتفت إلى قادة الأجنحة الآخرين. لم يطلب دليلاً كداين. لقد صدقني، وكان مستعداً لإعدام قائدة جناح بناءً على كلمتي

فقط. وبيقين تام كما لو كانت بنية مادية، شعرتُ بدفاعاتي تتشقق وتنهار لصالحه.

سألتُ تايرِن ذهنيًا:

– 'هل يمكنك رؤية ذكرياتي؟ ومشاركتها؟'

أجابني بينما كان رأسه يميل يميناً ويساراً بخفة متناهية:

– 'أجل. لكن لم يسبق أن شُوركت ذكرى خارج نطاق رابط التزاوج. يُعتبر ذلك انتهاكاً.'

توسلته:

– 'زايدن يقف هناك يقاتل لأنني أخبرته أنها كانت هي. ساعده.'

ويا إلهي، كم أعجب به لفعله ذلك. أخذتُ نفساً عميقاً وأكملت:

– 'شارك فقط ما يحتاجون لرؤيته.'

رغبة وإعجاب؟ أنا حقاً في ورطة.

أطلق تايرِن شخرة قوية، فتصلبت كل التنانين على السور باستثناء سجايل، حتى تنين آمبر. وسرعان ما حذا الركاب حذوها، ليعم الصمت أرجاء الساحة، وعرفتُ حينها أنهم قد أدركوا الحقيقة.

فحت ريانون بغضب، واعتصرت يدي بقوة أكبر:

– «تلك الحشرة الجبانة.»

شحب وجه داين تماماً.

سألته، راميةً الكلمات كاتهام مباشر:

– «هل تصدقني الآن؟ من المفترض أنك أقدم أصدقائي يا داين. أعز أصدقائي. وهناك سبب وجيه جعلني ألا أخبرك.»

ترنح عائداً للوراء من هول كلماتي.

أعلن زايدن، وقد أحاطت به نايرا وسيبتون بينما بقي القائد بانشيك في الخلف:

– «لقد شكل قادة الأجنحة نصاباً قانونياً، وتوصلوا إلى إجماع بالإجماع. لقد ثبتت إدانتكِ يا آمبر مافيس.»

صرخت آمبر في ذعر، وهي تمشي ذهاباً وإياباً باحثة عن المساعدة في عيون أي شخص:

– «لا! ليس جريمة أن أخلص القطاع من أضعف راكب! لقد فعلتُ ذلك لحماية نزاهة الأجنحة!»

تراجع التشكيل بأكمله خطوة للوراء ككيان واحد.

صرحت نايرا بجمود:

– «ووفقاً لقانوننا، سيُنفذ حكم الإعدام بحقكِ حرقاً بالنار.»

صرخت آمبر وهي تنظر إلى تنينها:

– «لا! كليد!»

كشر تنينها البرتقالي ذو الذيل الخنجري عن أنيابه في وجه التنانين الأخرى ورفع أحد مخالبه.

استدار تايرِن برأسه الضخم نحو كليد، وأطلق زئيراً زلزل الأرض تحت قدميّ. ثم أطبق فكيه مهدداً التنين البرتقالي الأصغر، فتراجعت كليد، متدلية الرأس وهي تتشبث بالسور مجدداً.

انفطر قلبي للمشهد، ليس من أجل آمبر، بل من أجل كليد.

سألتُ تايرِن:

– 'هل عليك فعل ذلك؟'

أجاب بصرامة:

– 'هذا هو قانوننا.'

توسلته بصوت مسموع، ناسية أن أكتفي بالتفكير في الكلمات:

– «أرجوك لا تفعل.»

معاقبة آمبر شيء، لكن كليد ستعاني أيضاً.

ربما يمكنني التحدث إلى آمبر. ربما يمكننا تسوية خلافاتنا. ربما نجد أرضية مشتركة، ونحول غضبنا إلى صداقة، أو على الأقل لامبالاة عابرة. هززتُ رأسي وقلبي ينبض بعنف في حلقي. أنا من فعل هذا. كنتُ شديدة التركيز على ما إذا كان أي شخص سيصدقني، لدرجة أنني لم أتوقف لأفكر فيما سيحدث إن فعلوا.

التفتُّ إلى زايدن وتوسلته مجدداً، وقد انكسر صوتي في النهاية:

– «أرجوك، امنحها فرصة أخرى.»

بادلني النظرات لكنه لم يظهر حتى وميضة من المشاعر.

أجاب تايرِن بصوت هادر، وكأن هذا هو كل ما يهم في النهاية:

– 'لقد تركتُ شخصاً يعيش ذات مرة، وكاد أن يقتلكِ الليلة الماضية أيتها الفضية. العدالة لا تتقاطع دائماً مع الرحمة.'

انتحبت آمبر، وكان الصمت في الساحة مطبقاً لدرجة أن صوتها تردد بوضوح:

– «كليد.»

انشق التشكيل من المنتصف.

انحنى تايرِن، ومَدّ رأسه وعنقه متجاوزاً المنصة نحو المكان الذي تقف فيه آمبر. ثم افترقت أسنانه، ولفّ لسانه، وحرقها حتى تحولت إلى رماد بنفخة من نار، بلغت حرارتها حداً جعلني أشعر بلفحتها من مكاني. انتهى الأمر في خفقة قلب.

مزقت صرخة مروعة الهواء، محطمة إحدى نوافذ الجناح الأكاديمي، فغطى كل الركاب آذانهم بأيديهم بينما كانت كليد تنتحب في حداد يمزق القلوب.

«لا تجزعي يا ميرا إن عجزتِ عن توجيه قوى تنينكِ على الفور. أجل، أعلم أنكِ تتوقين لتكوني الأفضل في كل شيء، لكن هذا ليس أمراً خاضعاً لسيطرتكِ. التنانين ستوجه السحر حين تشعر أنكِ مستعدة حقاً. وبمجرد أن تفعل، فمن الأفضل أن تكوني مستعدة لإظهار قدرتكِ السحرية الفريدة. وحتى ذلك الحين، أنتِ لستِ مستعدة بعد. لا تتعجلي الأمر.»

– الصفحة الحادية والستون، كتاب برينان



الفصل الحادي والعشرون

قلتُ وأنا أسترق النظر إلى ليام بجانبي بينما نشق طريقنا نحو باب الأرشيف:

– «هذا ليس ضرورياً حقاً.»

لم تعد عربة الكتب تصدر أي صرير؛ فقد أصلحها في أول يوم رافقني فيه.

ابتسم ليام لتظهر غمازته وهو يجيب:

– «هذا ما ما فتئتِ تخبرينني به طوال الأسبوعِ الماضي.»

– «ومع ذلك لا زلت هنا. كل يوم. طوال اليوم.»

ليس الأمر أنني لا أستلطفه. بل على العكس – ومما يثير غيظي التام – أنه شخص... لطيف حقاً. مهذب، يتمتع بحس دعابة، ومفيد لدرجة لا تُصدق. إنه يجعل من الصعب عليّ أن أمقت حضوره الدائم، على الرغم من أنه يترك أكواماً صغيرة من نشارة الخشب في كل مكان يذهب إليه – وهو كل مكان أذهب إليه

الآن –. هذا الشاب لا يكف عن النحت بخنجره الصغير. بالأمس فقط أنهى نحت تمثال صغير لدب.

قال وهو يواصل السير بجانبي:

– «حتى أتلقى أمراً بخلاف ذلك.»

هززتُ رأسي بيأس بينما انتفض بيرسون معتدلاً عند أبواب الأرشيف، منسقاً سترته القشدية، فبادرته:

– «صباح الخير أيها المتدرب بيرسون.»

رسم ابتسامة مهذبة وهو يجيبني:

– «ولكِ أيضاً أيتها المتدربة سورنجيل.»

لكن ابتسامته تلاشت تماماً حين رمق ليام بنظرة باردة وأضاف:

– «المتدرب مايري.»

رد ليام وكأن نبرة النساخ لم تتغير بالكامل:

– «المتدرب بيرسون.»

تصلب كتفاي بينما أسرع بيرسون لفتح الباب. ربما لأنني لم أحتك بال موشومين قبل دخولي إلى باسجيات، لكن العداء السافر تجاههم بدأ يصبح واضحاً ومزعجاً بشكل صارخ بالنسبة لي.

دخلنا الأرشيف وانتظرنا بجوار الطاولة ككل صباح.

سألتُ ليام بهمس خفيض:

– «كيف تفعل ذلك؟ كيف تتعامل مع وقاحة الناس بهذا البرود دون إبداء أي رد فعل؟»

أجاب ممازحاً وهو ينقر بأصابعه على مقبض العربة:

– «أنتِ وقحة معي طوال الوقت.»

– «ذلك لأنك جليسي المفروض عليّ، وليس لأنك...»

عجزتُ حتى عن نطقها.

سألني، وقد تقلص فكه وتجعدت جبهته للحظة قبل أن يشيح بنظره:

– «لأنني ابن العقيد المخلوع مايري؟»

أومأتُ برأسي، وهوت معدتي وأنا أسترجع الأشهر القليلة الماضية:

– «أخمّن أنني لستُ أفضل حالاً في الواقع. لقد كرهتُ زايدن بمجرد رؤيته، ولم أكن أعرف شيئاً واحداً عنه.»

ليس وكأنني أعرف الكثير الآن. إنه بارِع بشكل مستفز في إبقاء نفسه عصياً على الاختراق.

شخر ليام ساخراً، مما جلب لنا نظرة غاضبة من نساخ يجلس في الزاوية الخلفية:

– «إنه يترك هذا الانطباع لدى الناس، وخاصة النساء. إما أن يحتقرنه بسبب ما فعله والده، أو يرغبن في مضاجعته لنفس السبب، الأمر يعتمد فقط على المكان الذي نتواجد فيه.»

مددتُ عنقي لأنظر إليه متسائلة:

– «أنت تعرفه حقاً، أليس كذلك؟ لم يخترك لترافقني كظلي لمجرد أنك الأفضل في دفعتنا.»

التمعت ابتسامة عريضة على وجهه:

– «بدأتِ تدركين الأمر الآن، هاه؟ كنتُ سأخبركِ بذلك في اليوم الأول لولا أنكِ كنتِ مشغولة بالتذمر والنفخ استياءً من متعة مرافقتي.»

قلبتُ عينيّ بضجر بينما اقتربت جيسينيا، وقلنسوتها مرفوعة لتغطي شعرها، فأشرتُ لها:

- «مرحباً جيسينيا.»

ردت بالإشارة وهي ترسم ابتسامة خجولة، بينما ارتفعت نظراتها بسرعة نحو ليام:

- «صباح الخير.»

أشار لها ليام بغمزة، متغزلاً بوضوح:

- «صباح الخير.»

لقد صُدمتُ من أخمص قدمي حتى قمة رأسي في ذلك اليوم الأول حين اكتشفتُ أنه يتقن لغة الإشارة، لكن بصراحة، كنتُ متسرعة في إطلاق الأحكام لمجرد أنني لم أكن أرغب في ظل يلازمني.

سألت جيسينيا وهي تتفحص العربة:

- «هل هذه فقط اليوم؟»

سحبتُ قائمة الطلبات متجاهلةً نظراتهما المتبادلة الواضحة وسلمتها إياها قائلة:

- «وهذه أيضاً.»

- «ممتاز.»

توردت وجنتا جيسينيا وهي تتأمل القائمة قبل أن تدسها في جيبها.

- «أوه، لقد غادر الأستاذ ماركهام قبل وصول تقريره اليومي لإلقاء الموجز القتالي الخاص بكم. هل تمانعين في أخذه إليه؟»

- «بكل سرور.»

انتظرتُ حتى بدأت تدفع العربة مبتعدة عنا، ثم ضربتُ صدر ليام بخفة وهمستُ بصوت مسموع:

- «توقف عن هذا.»

ظل يراقبها حتى انعطفت عند أول صف من الأرفف متسائلاً:

– «أتوقف عن ماذا؟»

– «عن التغزل بجيسينيا. إنها من النوع الذي يبحث عن العلاقات طويلة الأمد، لذا ما لم يكن هذا ما تبحث عنه... فتوقف وحسب.»

ارتفع حاجباه دهشة:

– «كيف لأي شخص أن يفكر في علاقات طويلة الأمد في هذا المكان؟»

– «ليس الجميع في قطاع يُعتبر فيه الموت نتيجة حتمية وليس مجرد احتمال.»

تنفستُ رائحة الأرشيف العميقة وحاولتُ تشرب القليل من السلام الذي تمنحه.

– «إذن أنتِ تقولين إن بعض الناس لا يزالون يحاولون القيام بأشياء لطيفة كوضع الخطط.»

– «بالضبط، وهؤلاء الناس هم جيسينيا. صدقني، أنا أعرفها منذ سنوات.»

مسح الأرشيف بنظرة ثاقبة كادت تدفعني للضحك، وكأن هناك أي احتمال بأن يندفع أحدهم من بين الأرفف ليهاجمني، وقال:

– «صحيح. لأنكِ كنتِ ترغبين في أن تصبحي نساخة عندما تكبرين.»

سألته بصوت خفيض بينما مرت مجموعة من طلاب السنة الثانية وهم يتناقشون بجدية حول مزايا مؤرخين مختلفين:

– «كيف عرفتَ ذلك؟»

هز رأسه مجيباً:

- «لقد بحثتُ في خلفيتكِ بعد أن تم... كما تعلمين... تكليفي بحمايتكِ. لقد رأيتكِ تتدربين هذا الأسبوع بتلك الخناجر يا سورنجيل. كان ريورسون محقاً. موهبتكِ كانت ستُهدر لو أصبحتِ نساخة.»

انتفخ صدري بقدر لا بأس به من الفخر.

- «هذا ما ستثبته الأيام.»

على الأقل لم تُستأنف التحديات بعد. أخمّن أن عدداً كافياً منا يموتون خلال دروس الطيران، مما يبرر تأجيل المزيد من القتلى في النزالات المباشرة.

سألته فقط لأبقي المحادثة مستمرة:

- «وماذا كنت ترغب في أن تصبح عندما تكبر؟»

هز كتفيه ببساطة:

- «على قيد الحياة.»

حسناً، هذا... أبلغ من أي إجابة.

سألته محاولة استيضاح المزيد:

- «كيف تعرف زايدن على أية حال؟»

لستُ من السذاجة بحيث أظن أن الجميع في مقاطعة تايريندور يعرفون بعضهم البعض.

أجاب مستخدماً المصطلح التايرِندي للتمرد، وهو مصطلح لم أسمعه منذ زمن طويل:

- «لقد نشأنا أنا وريورسون معاً في نفس العزبة كأبناء بالتبني بعد التمرد.»

تدلى فكي بذهول:

- «أبناء بالتبني الرعائي؟»

كان تبني ورعاية أبناء النبلاء تقليداً اندثر بعد توحيد مملكة نافار منذ أكثر من ستمائة عام.

هز كتفيه مجدداً:

– «أجل بالطبع. أين ظننتِ أن أبناء الخونة...»

جفل عند نطق الكلمة وأكمل:

– «... قد ذهبوا بعد إعدام آبائنا؟»

تأملتُ الأرفف الممتدة المثقلة بالمجلدات، متسائلة عما إذا كان أحدها يحمل الإجابة، وقلت:

– «لم أفكر في الأمر.»

غص حلقي عند الكلمة الأخيرة.

– «لقد مُنحت معظم قصورنا الكبرى للنبلاء الذين ظلوا موالين.»

تنحنح وقال:

– «كما يجب أن يكون.»

لم أكلف نفسي عناء الموافقة على ما بدا وكأنه رد مبرمج. كان انتقام الملك تاوري بعد التمرد سريعاً، بل وقاسياً، لكني كنتُ حينها فتاة في الخامسة عشرة، غارقة في حزنها لدرجة منعتني من التفكير برحمة تجاه الأشخاص الذين تسببوا في مقتل أخي. ومع ذلك، فإن حرق أريتيا – التي كانت عاصمة تايريندور – حتى سُويت بالأرض لم يرق لي يوماً. كان ليام في عمري حينها. لم يكن ذنبه أن والدته قد حنثت بعهدها مع نافار.

سألته:

– «لكنك لم تذهب مع والدك إلى منزله الجديد؟»

التفت نحوي بعينيه وتجعدت جبهته:

– «من الصعب العيش مع رجل أُعدم في نفس اليوم الذي أُعدمت فيه والدتي.»

هوت معدتي في قاع جسدي:

– «لا. لا، هذا غير صحيح. والدك كان إسحاق مايري، أليس كذلك؟ لقد درستُ جميع العائلات النبيلة في كل مقاطعة، بما في ذلك تايريندور.»

هل أخطأتُ في شيء؟

أمال رأسه ناظراً نحو المكان الذي اختفت فيه جيسينيا، وانتابني شعور قوي بأنه سئم من هذه المحادثة:

– «أجل. إسحاق كان والدي.»

هززتُ رأسي محاولة فهم الأمر:

– «لكنه لم يكن جزءاً من التمرد. اسمه لم يدرج في قائمة الموتى الخاصة بإعدامات كالدير.»

اتسعت عيناه فجأة وسأل:

– «هل قرأتِ قائمة الموتى الخاصة بإعدامات كالدير؟»

استجمعتُ كل شجاعتي وبادلته النظرة:

– «كنتُ بحاجة للتأكد من وجود شخص معين فيها.»

تراجع قليلاً وتنهد:

– «فين ريورسون.»

أومأتُ برأسي:

– «لقد قتل أخي في معركة أريتيا.»

كان عقلي يتخبط محاولاً التوفيق بين ما قرأته وما يقوله.

– «لكن والدك لم يكن في تلك القائمة.»

لكن ليام كان حاضراً – كشاهد. غمرني الخجل العميق. ما الذي أفعله بحق الجحيم؟

اعتذرتُ بسرعة:

– «أنا آسفة جداً. لم يكن ينبغي لي أن أسأل.»

تقلصت ملامحه وأجاب بمرارة:

– «لقد أُعدم في منزل عائلتنا. قبل أن يُمنح لنبيل آخر بالطبع. وأجل، لقد وقفتُ وشاهدتهم يفعلون ذلك في تلك المرة أيضاً. كنتُ أحمل أثر التمرد بالفعل حينها، لكن الألم كان هو ذاته.»

أشاح بنظره، وتحرك تفاحة آدم في حلقه بصعوبة.

– «ثم أُرسلتُ إلى تيرفين لأوضع تحت رعاية الدوق ليندل، تماماً كـ ريورسون. أما شقيقتي الصغرى فأُرسلت إلى مكان آخر.»

كاد فكي يسقط أرضاً:

– «لقد فصلوا بينكم؟»

لم يُذكر أي شيء عن نظام التبني الرعائي أو فصل الأشقاء في أي نص قرأته عن التمرد، ولقد قرأتُ الكثير.

أومأ برأسه موضحاً:

– «لكنها تصغرني بعام واحد فقط، لذا سأتمكن من رؤيتها حين تدخل القطاع في العام القادم. إنها قوية، وسريعة، وتتمتع بتوازن ممتاز. ستنجح بالتأكيد.»

ذكرتني مسحة الذعر في نبرته بـ ميرا.

قلتُ بهدوء آملة أن أواسيه:

– «يمكنها دائماً اختيار قطاع آخر.»

رمش بعينيه بدهشة وسألني:

– «نحن جميعاً ركاب.»

– «ماذا؟»

حدق فيّ بحيرة تامة:

– «نحن جميعاً ركاب. كان هذا جزءاً من الصفقة. سُمح لنا بالعيش، ومُنحنا فرصة لإثبات ولائنا، ولكن بشرط واحد؛ اجتياز قطاع الركاب فقط. ألم تكوني تعلمين؟»

هززتُ رأسي نافية:

– «أقصد... أعلم أن أبناء القادة والضباط أُجبروا جميعاً على التجنيد، لكن هذا كل شيء. الكثير من ملاحق تلك المعاهدة تُعتبر سرية.»

امتعض وجهه وقال:

– «أعتقد شخصياً أن القطاع قد اختير لمنحنا أفضل فرصة للترقي في الرتب، لكن آخرين... يعتقدون أن السبب هو ارتفاع معدل الوفيات الهائل للركاب، لذا كانوا يأملون في التخلص منا جميعاً دون الاضطرار لقتلنا بأنفسهم. لقد سمعتُ إيموجين تقول إنهم ظنوا في البداية أن التنانين تتمتع بشرف لا يُمس، لذا لن ترتبط أبداً بموشوم في المقام الأول، والآن لا يدركون تماماً ما يجب فعله بنا.»

فكرتُ في أمي، ولم يسعني سوى التساؤل عن مدى معرفتها بكل هذا، وما الذي وافقت عليه بالضبط حين أصبحت القائدة العامة لكلية باسجيات بعد وفاة برينان.

سألته:

– «كم عددكم الإجمالي؟»

توقف لبرهة يفكر قبل أن يجيب:

– «لم يخبركِ زايدن قط؟ ثمانية وستون ضابطاً كان لديهم أبناء دون سن العشرين. نحن في المجمل مئة وسبعة أشخاص، وجميعنا نحمل أثر التمرد.»

همستُ:

– «أكبركم هو زايدن.»

أومأ برأسه وأضاف:

– «وأصغرنا تبلغ من العمر ست سنوات تقريباً الآن. اسمها جوليان.»

شعرتُ بغثيان يجتاح معدتي.

سألته برعب:

– «هل هي موشومة؟»

– «لقد وُلدت به.»

أتفهم أن التنانين هي من فعلت ذلك، ولكن ما هذا بحق الجحيم؟

أخذ نفساً عميقاً، ارتفع معه كتفاه وانخفضا ببطء، وقال:

– «ولا بأس بأن تسألي. يجب أن يعرف أحدهم. يجب أن يتذكر أحدهم. على أية حال، هل تواجدكِ هنا يثير شجونك؟ أم أنه يبعث على الراحة؟»

لاحظتُ محاولته الواضحة لتغيير الموضوع.

تأملتُ صفوف الطاولات التي بدأت تمتلئ ببطء بالنساخين المستعدين لبدء عملهم، وتخيلتُ والدي بينهم.

أجبته:

– «إنه كطعم العودة إلى الوطن، ولكنه ليس كذلك تماماً. وليس الأمر أن المكان قد تغير – فهذا المكان لا يتغير أبداً. بل أظن أن التغيير هو العدو اللدود لأي نساخ. لكنني بدأتُ أدرك أنني أنا من تغيرت. لم أعد أنتمي إلى هنا تماماً. ليس بعد الآن.»

قال بنبرة أكدت لي أنه يفهم شعوري تماماً:

– «أجل. أنا أتفهم ذلك.»

كان السؤال عما كانت عليه السنوات الخمس الماضية بالنسبة له على طرف لساني، لكن جيسينيا عاودت الظهور، بعربة مثقلة بالمجلدات المطلوبة.

أشارت لي:

– «لقد جهزتُ كل شيء من أجلكِ.»

ثم أشارت نحو اللفافة الموضوعة في الأعلى.

– «وهذه للأستاذ ماركهام.»

انحنيتُ للأمام لأستلم العربة واعدة إياها:

– «سنتأكد من إيصالها إليه.»

انزاحت ياقة قميصي العالية قليلاً، فشهقت جيسينيا فجأة، ورفعت يدها لتغطي فمها.

كانت حركات يديها حادة وهي تشير:

– «يا آلهي يا ڤيوليت. عنقكِ!»

جعلتني نظرة الشفقة في عينيها أشعر بضيق في صدري. (الشفقة) ليست كلمة موجودة في قاموس قطاعنا. هناك غضب، وسخط، وازدراء... لكن لا توجد شفقة.

أعدتُ ياقة قميصي إلى مكانها، مخفية طوق الكدمات المائلة للاصفرار وقلت:

– «إنه لا شيء.»

مد ليام يده متجاوزاً إياي وأمسك بالعربة.

قلتُ مودعة:

– «سنراكِ غداً.»

أومأت برأسها وظلت تفرك يديها بتوتر ونحن نستدير نحو الباب. أغلق بيرسون الباب خلفنا بمجرد خروجنا إلى الردهة.

تحدث ليام، وكان تغييره للموضوع محل تقدير ومقصوداً بلا شك مرة أخرى:

– «لقد علمني ريورسون القتال خلال السنوات التي قضاها في تيرفين. لم أرَ أحداً يتحرك ببراعته. لولاه لما اجتزتُ الجولة الأولى من التحديات. قد لا يظهر ذلك، لكنه يعتني بمن يعتبرهم من خاصته.»

سألته وأنا ألاحظ برضا أن ساقيّ تشعران بالقوة اليوم:

– «هل تحاول الترويج لمحاسنه أمامي؟»

أعشق الأيام التي يتعاون فيها جسدي معي.

صنع تعبيراً ممتعضاً بوجهه وقال:

– «أنتِ عالقة معه نوعاً ما إلى... حسناً، إلى الأبد.»

مازحته قائلة، لكن المزحة بدت جوفاء ونحن ننعطف في الممر ونأخذ الطريق المتجاوز لـ قطاع المعالجين:

– «أو حتى يموت أحدنا. كيف يمكنك فعل هذا على أية حال؟ حراسة شخص أشرفت والدته على الجناح الذي أسر والدتك؟»

لقد أردتُ سؤاله هذا طوال الأسبوع.

رسم ابتسامة مريحة أخرى وسأل:

– «تتساءلين عما إذا كان بإمكانكِ الوثوق بي؟»

– «أجل.»

الإجابة كانت بسيطة.

ضحك ليتردد صدى ضحكته على جدران النفق والنوافذ الزجاجية للعيادة وقال:

– «إجابة جيدة. كل ما يمكنني قوله هو أن نجاتكِ أساسية لنجاة ريورسون، وأنا مدين له بكل شيء. بكل شيء.»

نظر مباشرة في عينيّ عند نطق الكلمة الأخيرة، حتى حين اصطدمت العربة بحجر بارز في الممر المرصوف.

سقطت اللفافة الموضوعة بالأعلى على الأرض، فتأوهتُ من الألم الخفيف في أضلاعي وأنا أسرِع لالتقاطها وهي تتدحرج على المنحدر الخفيف للممر.

قلت وأنا أحاول طيها:

– «أمسكتُ بها.»

لكن الرق السميك كان متمرداً وأبى الانطواء بسهولة، فالتقطت عيناي جملة جعلتني أتوقف.

«تثير الأوضاع في سوميرتون قلقاً خاصاً. لقد تم نهب قرية والسطو على قافلة إمدادات الليلة الماضية...»

سأل ليام:

– «ماذا تقول؟»

قلبتُ اللفافة لأرى ما إذا كانت تحمل ختم السرية، لكنها لم تكن كذلك:

– «لقد تعرضت سوميرتون لهجوم.»

سأل، وبدا عليه الارتباك بقدر ما أشعر به:

– «على الحدود الجنوبية؟»

أومأتُ برأسي:

– «أجل. وهو هجوم آخر على ارتفاعات عالية أيضاً، إن لم تخني ذاكرتي الجغرافية. يقول التقرير إنه تم السطو على قافلة إمدادات.»

قرأتُ أبعد قليلاً:

– «وتم نهب مخزن المجتمع في الكهوف القريبة. لكن هذا لا يبدو منطقياً. لدينا اتفاقية تجارية مع مقاطعة بوروميل.»

خمن ليام:

– «مجموعة إغارة إذن.»

هززتُ كتفي:

– «لا فكرة لدي. أخمّن أننا سنسمع عن الأمر في الموجز القتالي اليوم.»

الهجمات على طول حدودنا الجنوبية في تزايد، وجميعها تحمل نفس الوصف. القرى الجبلية تُدمر أينما ضعفت التعاويذ الوقائية.

فجأة، ضربني جوع هائل، لا يصدق، معدتي تلتهم فراغاً يطالب بإلحاح بالدماء واللحم...

سأل ليام، والقلق يرتسم بين حاجبيه:

– «سورنجيل؟»

تمكنتُ من القول، وأنا أمسك بمعدتي وكأنني أنا من يشتهي التهام قطيع من الأغنام. أو الماعز. أو أياً كان ما سيقرره كوجبة صباحية:

– «تايرِن مستيقظ. بحق الآلهة، أرجوك اذهب وتناول شيئاً.»

زمجر تايرِن في عقلي:

– 'يمكنني أن أقترح عليكِ الشيء ذاته.'

رددتُ عليه:

– 'أنت شخص صباحي بامتياز، أليس كذلك؟'

تبدد الجوع فوراً، وأعلم أن السبب هو إخماده للرابط في تلك اللحظة لأنني لا أستطيع ذلك. مشاعره لا تتدفق إليّ إلا حين تتغلب على سيطرته.

– 'شكراً لك. وأندارنا؟'

أجاب:

– 'لا تزال نائمة. ستغيب لبضعة أيام أخرى بعد استخدامها كل تلك القوة.'

سألت ليام بينما نواصل السير:

– «هل يصبح الأمر أسهل مع الوقت؟ أن تُسحق بما يشعرون به؟»

امتعض وجهه وقال:

– «سؤال جيد. ديغ يحافظ على سيطرة جيدة على نفسه، لكن حين يغضب؟»

هز ليام رأسه بأسى:

– «يُفترض أن يتحسن الوضع بمجرد أن يبدأوا في توجيه السحر ونمتلك القوة لحجب مشاعرهم، لكنكِ تعلمين أن الأستاذ كار لن يلقي لنا بالاً حتى يحدث ذلك.»

كنتُ قد افترضتُ بالفعل أن ليام لم يكتسب قدراته بعد، نظراً لأنه يحضر معي كل حصة، لكن من المطمئن معرفة أنه لا يزال ضمن الفئة المتناقصة من الركاب بلا قوى معي. ورغم أن أندارنا منحتني هديتها لإيقاف الزمن، فأنا شبه متأكدة من أن استخدامها لن يكون حدثاً متكرراً، خاصة إذا كان يتطلب منها أياماً للتعافي.

سألني ليام، ونظرة من عدم اليقين والضعف تلوح على وجهه:

– «إذن، تايرِن لم يوجه لكِ السحر أيضاً، أليس كذلك؟»

هززتُ رأسي وهمستُ:

– «أعتقد أنه يعاني من مشكلة في الالتزام.»

هدر صوت تايرِن:

– 'لقد سمعتُ هذا.'

– 'إذن ابق خارج رأسي.'

هاجمتني موجة أخرى من الجوعِ الكاسح، وكدتُ أسحق لفافة ماركهام في يدي.

– 'لا تكن وغداً.'

أقسم أنني سمعته يطلق شخرة ضاحكة رداً على ذلك.

نبهني ليام:

– «من الأفضل أن نسرِع وإلا سنفوت وجبة الإفطار.»

– «صحيح.»

أنهيتُ طي اللفافة وأعدتها إلى العربة.

***

تذمرت ريانون بينما كان متدربو السنة الأولى من الجناحين الثاني والثالث يتدفقون من درج البرج المؤدي إلى فصل الأستاذ كار في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم، مما زاد من اكتظاظ الردهة ونحن في طريقنا لحصة الموجز القتالي:

– «أريد أن أكون جزءاً من المجموعة الرائعة.»

وعدتُها وأنا أشبك ذراعي بذراعها:

– «سنكون كذلك قريباً.»

يجب أن أعترف، شعرتُ بوخزة غيرة لا يُستهان بها في صدري.

دفع ريدوك ليام ووضع ذراعه فوق كتفي قائلاً:

– «قد تكونان رائعتين، لكنكما لن تصلا أبداً إلى مستوى روعتي!»

أوضحتُ وأنا أحاول موازنة كتبي كي لا تسقط:

– «إنها تتحدث عن كل من بدأوا في توجيه السحر. رغم أنه على الأقل، طالما أننا لا نوجه السحر، فنحن لسنا مضغوطين لإظهار قدرات سحرية فريدة قبل أن يقتلنا السحر.»

وخزني الأثر في منتصف ظهري، ولم يسعني سوى التساؤل عما إذا كانت هدية أندارنا قد أطلقت تلك الساعة الموقوتة بالنسبة لي.

ابتسم ريدوك بزهو:

– «أوه، ظننتُ أننا نتحدث عن كيف اكتسحتُ اختبار الفيزياء للتو. أنا صاحب أعلى درجة في الفصل بلا شك.»

قلبت ريانون عينيها بضجر وقالت:

– «أرجوك. لقد أحرزتُ خمس نقاط أعلى منك.»

مال ريدوك للأمام قليلاً مجيباً:

– «لقد توقفنا عن إحصاء درجاتكِ منذ أشهر. درجاتكِ في تلك المادة تجعل المنافسة غير عادلة لبقيتنا.»

نظر بين كتفينا وسأل:

– «مهلاً. كم أحرزتَ يا مايري؟»

أجاب ليام بحذر:

– «لن أُقحم نفسي في وسط هذا النقاش.»

ضحكتُ بينما تفرقنا، لندخل في عنق الزجاجة من المتدربين المتدافعين لدخول غرفة الموجز القتالي.

تراجع أحدهم عن الطريق وسحب صديقه معه وهو يعتذر بينما دخلنا الفصل المدرج:

– «عذراً سورنجيل.»

ناديته لكنه كان قد صعد بضعة صفوف بالفعل:

– «لا داعي للاعتذار!»

وقلتُ لريانون:

– «لن أعتاد على ذلك أبداً.»

مازحتني ريانون بينما كنا ننزل الدرجات التي تنحني على طول البرج الضخم:

– «إنه يجعل التنقل أسهل بكثير بالتأكيد.»

تذمر تايرِن:

– 'إنهم يظهرون المستوى اللائق من الاحترام.'

رددتُ عليه ذهنيًا:

– 'الاحترام ما يعتقدون أنني سأكون عليه، وليس لمن أنا عليه حقاً.'

وجدنا صفنا وسرنا نحو مقاعدنا، لنجلس كفرقة وسط طلاب السنة الأولى.

– 'وهذا يظهر بعد نظر ممتاز من جانبهم.'

كانت الغرفة تضج بالطاقة والنشاط بينما يتوافد الركاب، ولم يسعني سوى ملاحظة أنه لم يعد أحد يضطر للوقوف بعد الآن. لقد تضاءلت أعدادنا بشكل مخيف في الأشهر الأربعة الماضية. كان عدد المقاعد الفارغة يبعث على الكآبة. لقد فقدنا طالب سنة أولى آخر بالأمس حين اقترب أكثر مما ينبغي من التنين الأحمر ذي الذيل العقربي التابع لراكب آخر في حقل الطيران. في ثانية كان واقفاً

هناك، وفي اللحظة التالية تحول إلى بقعة أرض محترقة. لقد بقيتُ قريبة قدر الإمكان من تايرِن طوال ما تبقى من الجلسة.

وخزتني فروة رأسي مجدداً، لكني قاومتُ الرغبة في الالتفات.

قال ليام من المقعد الذي على يميني، متوقفاً عن نحت تمثال التنين الصغير لينظر نحو الصفوف العليا حيث يجلس طلاب السنة الثالثة:

– «ريورسون وصل للتو.»

أجبته وأنا أبقي عيني مصوبتين للأمام وأرفع إصبعي الأوسط:

– «تخيلتُ ذلك.»

ليس لأنني لا أحب ليام، بل لأنني لا أزال غاضبة من زايدن لتعيينه حارساً لي.

أطلق ليام شخرة ضاحكة وابتسم لتظهر غمازته وقال:

– «والآن هو يرمقنا بنظرة غاضبة. أخبريني، هل من الممتع إثارة غضب أقوى راكب في القطاع؟»

اقترحتُ وأنا أفتح دفتر ملاحظاتي على الصفحة الفارغة التالية:

– «بإمكانك تجربة ذلك بنفسك لتكتشف. لن ألتفت. لن أفعل. الرغبة في زايدن أمر مقبول. يجب أن يكون كذلك. لكن الاستسلام للاندفاعات التي تولدها تلك الرغبة؟ تلك حماقة مطلقة.»

– «سأكتفي بالرفض في هذه الحالة.»

خسرتُ المعركة مع ضبط النفس واستدرتُ منوق كتفي. وبالفعل، كان زايدن جالساً في الصف العلوي بجوار غاريك، متقناً فن الظهور بمظهر الملل التام. أومأ لـ ليام، فرد ليام الإيماءة.

قلبتُ عينيّ وعدتُ للنظر أمامي.

ركز ليام على نحته، الذي بدا مشابهاً جداً لتنينه الأحمر ذي الذيل الخنجري، ديغ.

هززتُ رأسي وقلت له:

– «أقسم، يظن المرء أنني أتعرض لمحاولات اغتيال في كل حصة من الطريقة التي يجعلك تلازمني بها.»

رتبت ريانون أدواتها وقالت:

– «دفاعاً عنه، يبدو أن الناس مغرمون بمحاولة قتلكِ.»

عدلتُ وضعيتي لتخفيف وزني عن أضلاعي المكدومة، فالاستناد إلى ظهر المقعد لم يكن خياراً مطروحاً:

– «مرة واحدة! حدث ذلك مرة واحدة فقط يا ريانون!»

رفعت حاجبها متسائلة:

– «حقاً؟ وماذا تسمين ما حدث مع تاينان؟»

هززتُ كتفي مبررة:

– «يوم التصفية.»

أصرت:

– «وتهديدات بارلو المستمرة؟»

تدخل سوير من المقعد المجاور لريانون مائلاً للأمام:

– «لديها نقطة في هذا الشأن.»

رددتُ:

– «إنها مجرد تهديدات. المرة الوحيدة التي استُهدفتُ فيها فعلياً كانت ليلاً، وليس وكأن ليام ينام في غرفة نومي.»

بدأ ليام، وسكينه تحوم فوق قطعة الخشب:

– «أقصد، أنا لا أمانع...»

التفتُّ إليه بحدة ولم أستطع منع نفسي من الضحك:

– «لا تبدأ حتى. أنت تتغزل بلا خجل.»

ابتسم وعاد للنحت:

– «شكراً لكِ.»

– «لم يكن إطراءً.»

أضافت ريانون وهي تكتب التاريخ على صفحتها الفارغة:

– «لا تعرها اهتماماً، إنها فقط محبطة جنسياً. هذا يجعل الفتاة غاضبة.»

حذوتُ حذوها، غامسة ريشتي في محبرتي المحمولة. تلك الأقلام السحرية السهلة والنظيفة التي يمكن للبعض استخدامها هي سبب آخر يجعلني أتوق للبدء بتوجيه السحر. لا مزيد من الريش. لا مزيد من المحابر.

همستُ بانزعاج:

– «هذا لا علاقة له بالأمر. يا إلهي، هل كان بإمكانكِ قول ذلك بصوت أعلى قليلاً؟»

ابتسمت لي بلطف وقالت:

– «ومع ذلك لم أسمعكِ تنفين الأمر.»

مازحني ليام:

– «أنا آسف لأنني لم أرتقِ للمستوى المطلوب. لكنني متأكد أن ريورسون لن يمانع لو توليتُ مراجعة بعض المرشحين نيابة عنه، خاصة إن كان ذلك يعني توقفكِ عن توجيه إشارات بذيئة له أمام جناحه بأكمله.»

سألت ريانون، وقد رفعت حاجباً فوق ابتسامتها العريضة:

– «وكيف ستقوم بمراجعة المرشحين بالضبط؟ ما هي معايير التقييم؟ هذا أمر يجب أن أسمعه.»

تمكنتُ من الحفاظ على وجه جاد لثانيتين كاملتين قبل أن أنفجر ضاحكة على تعبير الرعب الذي ارتسم فجأة على وجهه.

قلتُ له:

– «شكراً على العرض على أية حال. سأتأكد من تمرير أي علاقة محتملة عبرك.»

تابعت ريانون وهي ترمش ببراءة نحوه:

– «أقصد، بإمكانك أن تراقبهم. فقط لتتأكد من أنها محمية بالكامل. كما تعلم، كي لا... يغدر بها أحد.»

سأل ريدوك من جانب ليام:

– «أوه، هل بدأنا في إلقاء نكات بذيئة الآن؟ لأن حياتي كلها كانت تمهيداً لهذه اللحظة بالذات.»

حتى سوير ضحك.

تمتم ليام تحت أنفاسه، بينما ضحكنا بصوت أعلى:

– «تباً لي. كنتُ أقول فقط إنه بما أنكِ محمية ليلاً الآن...»

ثم زفر بضيق مصطنع.

توقفتُ عن الضحك فجأة وسألت:

– «مهلاً. ماذا تقصد بأنني محمية ليلاً الآن؟ لأنك في الغرفة المجاورة؟»

تلاشت ابتسامتي.

– «أرجوك أخبرني أنه لا يجعلك تنام في الردهة أو أي شيء مزعج من هذا القبيل.»

بدا من تعبير وجهه أنني كان يُفترض أن أعرف هذا:

– «لا. بالطبع لا. لقد وضع تعويذة وقائية على باب غرفتكِ في الصباح التالي للهجوم. أخمّن أنه لم يخبركِ؟»

– «فعل ماذا؟»

خفض صوته هذه المرة وقال:

– «لقد وضع تعويذة على بابكِ. بحيث لا يمكن لأحد سواكِ فتحه.»

تباً. لا أعرف كيف أشعر حيال هذا. إنه تصرف يميل للسيطرة بشكل كبير، ويتجاوز كل الحدود، ولكنه أيضاً... لطيف.

– «لكن إن كان هو من وضع التعويذة، فهذا يعني أنه يستطيع الدخول أيضاً، أليس كذلك؟»

هز ليام كتفيه بينما كان الأستاذان ماركهام وديفيرا يهبطان الدرج متجهين نحو مقدمة الغرفة:

– «حسناً، أجل. لكن ليس وكأن ريورسون سيقتلكِ.»

– «صحيح. أترى، لا زلتُ أتكيف مع هذا التغيير الصغير في المشاعر.»

تعثرت ريشتي وسقطت على الأرض، لكن قبل أن أتمكن من الانحناء، رفعت الظلال المتكونة أسفل ذراع مكتبي الريشة وكأنها تقدم قرباناً. التقطتها من بين الظلال ونظرتُ للخلف نحو زايدن.

كان مندمجاً في محادثة مع غاريك، ولم يعرني ذرة اهتمام.

باستثناء أنه، على ما يبدو، يفعل.

نادى ماركهام على الغرفة:

– «إذا كان بإمكاننا البدء؟»

صمتنا جميعاً وهو يضع اللفافة التي أوصلناها أنا وليام له قبل الإفطار على المنصة.

– «ممتاز.»

كتبتُ «سوميرتون» في أعلى الصفحة، واستبدل ليام سكينه بريشة.

تقدمت ديفيرا للأمام وقالت:

– «الإعلان الأول. لقد قررنا أن الفائزين في معركة الفرق لهذا العام لن يحصلوا فقط على حقوق التباهي...»

ابتسمت وكأنها تقدم لنا جائزة كبرى وأكملت:

– «بل سيُمنحون رحلة إلى خطوط المواجهة لمرافقة جناح نشط.»

انفجرت الهتافات من حولنا.

همست ريانون:

– «إذن إن فزنا، سنحظى بفرصة للموت في وقت أبكر؟»

نظرتُ إلى الآخرين حولنا الذين بدوا في غاية السعادة، وشعرتُ بالقلق على قواهم العقلية:

– «ربما يحاولون تطبيق علم النفس العكسي.»

لكن مرة أخرى، معظم المتواجدين في هذه الغرفة يستطيعون البقاء على ظهور تنانينهم.

– 'وأنتِ كذلك.'

– 'أليس لديك أشياء أفضل تفعلها في يومك بدلاً من التنصت على كراهيتي الذاتية؟'

– 'ليس بالضرورة. الآن انتبهي.'

رددتُ عليه:

– 'توقف عن التدخل وربما سأفعل.'

أطلق تايرِن شخرة. ربما في يوم من الأيام سأتمكن من ترجمة ذلك الصوت، لكن ليس اليوم.

تابعت ديفيرا:

– «أعلم أن معركة الفرق لن تبدأ حتى الربيع، لكنني أظن أن هذا الخبر سيمنحكم الدافع المناسب لبذل أقصى جهد في كل مجال تحضيراً للتحديات.»

دوى هتاف آخر.

رفع ماركهام يده لتهدئة الغرفة وقال:

– «والآن بعد أن حظينا بانتباهكم. خطوط المواجهة هادئة نسبياً اليوم، لذا سنغتنم هذه الفرصة لتحليل معركة جيانفار.»

توقفت ريشتي محومة فوق دفتري. من المستحيل أنه قال ذلك للتو.

ارتفعت الأضواء السحرية لتضيء منحدرات درالور التي تفصل تايريندور، رافعة المقاطعة بأكملها لآلاف الأقدام فوق بقية القارة، قبل أن تسطع بقوة على الحصن القديم الممتد على طول الحدود الجنوبية.

– «كانت هذه المعركة محورية في توحيد نافار، ورغم أنها حدثت منذ أكثر من ستة قرون، إلا أن هناك دروساً مهمة لا تزال تؤثر على تشكيلات طيراننا حتى يومنا هذا.»

همستُ لـ ليام:

– «هل هو جاد؟»

أجابني، وقد أدت قوة قبضته لثني ريشته:

– «أجل. أظنه جاداً.»

سألت ديفيرا رافعة حاجبيها:

– «ما الذي جعل هذه المعركة فريدة؟ براينت؟»

أجاب طالب السنة الثانية من مقعده المرتفع فوقنا:

– «لم يكن الحصن مهيئاً لتحمل حصار طويل فحسب، بل كان مجهزاً بأول قوس ونشاب ضخم، والذي أثبت فاعلية مميتة ضد التنانين.»

حثته ديفيرا على المتابعة:

– «أجل. وماذا أيضاً؟»

تابع طالب السنة الثانية:

– «كانت واحدة من المعارك الأخيرة التي قاتلت فيها الـ غريفيون والتنانين جنباً إلى جنب لإبادة جيش الأرض اليباب.»

تلفتتُ يميناً ويساراً، أراقب الركاب الآخرين وهم يشرعون في تدوين الملاحظات. أمر سريالي. هذا ببساطة... سريالي. حتى ريانون كانت تكتب بتركيز شديد.

لا أحد منهم يعلم ما نعلمه نحن؛ أن قرية نافارية بأكملها قد نُهبت الليلة الماضية على الحدود وسُلبت إمداداتها. ومع ذلك، نحن نناقش معركة وقعت قبل اختراع رفاهية السباكة الداخلية.

حذر ماركهام بنبرة أستاذية:

– «الآن، انتبهوا جيداً. لأنكم ستقدمون تقريراً مفصلاً خلال ثلاثة أيام وتعقدون مقارنات مع معارك من العشرين عاماً الماضية.»

سألني ليام بصوت خفيض:

– «هل كانت تلك اللفافة تحمل ختم السرية؟»

أجبته بنفس الصوت الخافت:

– «لا. لكن ربما فاتني رؤيته؟»

خريطة المعركة أمامه لا تُظهر حتى أي نشاط بالقرب من تلك السلسلة الجبلية.

أومأ برأسه، وشرع في تدوين الملاحظات وريشته تخدش الرق:

– «أجل. لا بد أن يكون هذا هو التفسير. لقد فاتكِ رؤيته.»

رمشتُ بعينيّ، مجبرة يدي على كتابة ملاحظات حول معركة حللتها عشرات المرات مع والدي. ليام محق. هذا هو التفسير الوحيد الممكن. تصريحنا الأمني ليس عالياً بما يكفي، أو ربما لم ينتهوا بعد من جمع كل المعلومات اللازمة لصياغة تقرير دقيق.

أو لا بد أنها كانت تحمل ختم السرية. وأنا ببساطة لم ألاحظه.

«الاندفاعة الأولى للقوة لا يمكن أن تخطئها الحواس. في المرة الأولى التي تتشكل فيها حولك، وتغمرك بإمداد لا ينضب من الطاقة، ستدمن تلك النشوة، ستدمن احتمالات كل ما يمكنك فعله بها، وستدمن السيطرة التي تقبض عليها في راحة يدك. ولكن هنا تكمن المعضلة؛ يمكن لتلك القوة أن تنقلب عليك بسرعة وتسيطر هي عليك.»

– الصفحة الرابعة والستون، كتاب برينان



الفصل الثاني والعشرون

انقضى ما تبقى من شهر نوفمبر دون أي ذكر لما حدث في قرية سوميرتون، وبحلول الوقت الذي حملت فيه الرياح العاتية ثلوج ديسمبر، كنتُ قد فقدتُ الأمل في أن تفرج القيادة عن أي معلومات. لم يكن بوسعي أنا أو ليام توجيه أسئلة مباشرة للأساتذة دون إدانة أنفسنا بقراءة ما كان بوضوح تقريراً يحمل ختم السرية – حتى وإن لم يكن الختم ظاهراً –.

جعلني هذا أتساءل عما يُخفى عنا أيضاً ولا يصل إلى حصة الموجز القتالي، لكني احتفظتُ بهذه الشكوك لنفسي. وبين هذا الإحباط المتزايد، وإحباطي الآخر من عجزي عن توجيه السحر – عكس ثلاثة أرباع دفعتي – بتُّ أحتفظ بالكثير لنفسي هذه الأيام.

زمجر تايرِن في عقلي:

– 'ليس بالكامل.'

رددتُ عليه:

– 'لا أسمح لك بالتعليق، ليس بعد أن كدتَ تتركني أصطدم بجانب الجبل اليوم.'

تتقلص معدتي بمجرد التفكير في المسافة التي تركتني أهوي خلالها.

طالبة السنة الأولى من الجناح الثالث لم يحالفها نفس الحظ. فقدت توازنها في مقعدها أثناء مناورة جديدة، وانتهى بها المطاف على قائمة الموتى هذا الصباح.

لوحت ريانون بعصاها الطويلة، فألقيتُ بوزني في انحناءة خلفية، متفادية الضربة بشق الأنفس. ولدهشتي البالغة، تمكنتُ من الحفاظ على توازني على بساط التدريب.

علق تايرِن:

– 'إذن ابقِ على ظهري في المرة القادمة.'

أجبته بتحدٍ:

– 'ابدأ بتوجيه السحر لي وربما سأتمكن من ذلك.'

قالت ريانون وهي تتراجع خطوة للخلف ريثما أستعيد توازني، مانحة إياي رحمة لن أجدها من أي خصم في أي تحدٍ حقيقي:

– «أنتِ مشتتة الليلة.»

انتقلت نظراتها عبر البساط نحو مقعد حيث يجلس ليام، ينحت تمثالاً جديداً لتنين، ثم عادت لتلتقي بعينيّ، بنظرة تخبرني بوضوح أنها ستستجوبني لاحقاً بمجرد أن أتحرر من ظلي الملازم لي هذا المساء. ثم أردفت:

– «لكنكِ أصبحتِ أسرع من قبل. أياً كان ما تجبركِ إيموجين على فعله، فهو يؤتي ثماره.»

قال تايرِن ببرود:

– 'أنتِ لستِ مستعدة لتوجيه السحر بعد أيتها الفضية.'

صاحت إيموجين من البساط المجاور، حيث كانت تطوق رأس ريدوك بذراعها بلامبالاة، منتظرة منه أن يستسلم بالضرب على الأرض:

– «وكأن هناك أي شك في ذلك.»

إلى يساري، كان سوير وكوين يدوران حول بعضهما، متأهبين لجولة أخرى، وخلف ريانون، كان إيمري وهيتون يبذلان قصارى جهدهما لتدريب طلاب السنة الأولى الجدد الذين انضموا إلينا بعد يوم التصفية، بينما كان داين يراقب المشهد، متجنباً النظر في اتجاهي بعناية شديدة.

بناءً على أوامره الأخيرة، أُبرمت ليالي الثلاثاء كليالي تدريب فرقة للقتال المتلاحم، لأن العبء الأكاديمي الثقيل الذي نحمله، مقترناً بدروس الطيران والآن دروس التوجيه السحري للبعض منا، لم يعد يترك وقتاً كافياً للتدريب على البساط. بعض الأبسطة البعيدة احتلها ركاب آخرون بنفس الفكرة، وكان من بينهم جاك بارلو.

ولهذا السبب رفض ليام دعوة ريدوك للنزال معه.

قلتُ لريانون وأنا ألهث:

– «أنتِ تتساهلين معي.»

كان العرق ينحدر على ظهري، مبللاً السترة الضيقة التي اخترتُ ارتداءها بينما كانت سترتي المصنوعة من حراشف التنانين تجف على المقعد بجوار ليام.

لم يكن ليام بحاجة لتدريب إضافي. لقد طرح الجميع أرضاً باستثناء داين، وجزء مني يعتقد أن ذلك فقط لأن داين يرفض أن يُهزم على يد راكب يصغره سناً.

لوحت ريانون بعصاها في الهواء وقالت:

– «نحن نتدرب منذ ساعة. أنتِ متعبة، وآخر ما أريده هو أن أؤذيكِ.»

ذكرتها:

– «التحديات ستُستأنف بعد الانقلاب الشتوي. أنتِ لا تسدين لي أي معروف بتساهلكِ.»

قال صوت عميق من خلفي:

– «إنها ليست مخطئة.»

لمحتُ في مجال رؤيتي الجانبي ليام وهو ينهض، فتمتمتُ بلعنة تحت أنفاسي.

قلتُ منوق كتفي بينما مر زايدن بجوار بساطنا، يرافقه غاريك كالعادة:

– «أنا أعي ذلك تماماً.»

لكن كان من المستحيل أن أشيح بنظري عنه حتى مر من أمامي. يا إلهي، لقد وقعتُ في شباكه حقاً.

– «اذهب بعيداً ما لم يكن لديك شيء مفيد لتقوله.»

صاح منادياً إياي بينما اتخذ موقعاً على بساط أقرب إلى وسط حلبة النزال:

– «تحركي بشكل أسرع. وستقل احتمالات موتكِ. ما رأيكِ في هذه الفائدة؟»

اتسعت عينا ريانون بصدمة، وهز ليام رأسه بأسى.

سألتها:

– «ماذا؟»

تمتمت ريانون:

– «الطريقة التي تتحدثين بها معه.»

اندفعتُ للأمام، ملوحة بعصاي نحو ساقيها وقلت:

– «ما الذي سيفعله؟ هل سيقتلني؟»

قفزت فوق هجومي واستدارت، مضربة عصاها بعصاي بفرقعة قوية.

تدخل ليام وهو يعود للجلوس في مقعده:

– «احتمال أن تقتلا بعضكما البعض وارد. لا أطيق الانتظار لأرى كيف ستعملان معاً بعد التخرج.»

بعد التخرج.

– «لم أسمح لنفسي بالتفكير حتى فيما بعد هذا الأسبوع، ناهيك عن التفكير حتى التخرج.»

ليس وهناك بعض الأسئلة الصعبة للغاية التي لستُ مستعدة لطرحها بعد.

قالت ريانون وهي تدور حولي على البساط مجدداً:

– «اسمعي، أعلم أنكِ... مستاءة من طول الوقت الذي يستغرقه تايرِن ليبدأ بتوجيه السحر لكِ. كل ما أقوله هو أن هذا البساط معي هو مكان أكثر أماناً لتفريغ غضبكِ من قائد الجناح الضخم الذي يتحكم بالظلال.»

– «أنا لا أريد تفريغ أي من غضبي عليكِ. أنتِ صديقتي.»

أشرتُ بإيماءة واسعة نحو زايدن.

– «إنه هو من ألزمني بظل لا أستطيع التخلص منه لأنه يظن أنني نقطة ضعفه. لكن هل يساعدني؟»

هاجمتُ بالعصا، فصدت هجومي.

– «لا. هل يدربني؟»

اندفاع آخر، واشتباك آخر لعصبيينا.

– «لا. إنه بارع بشكل ملحوظ في الظهور حين أوشك على الموت وإقصاء التهديدات، لكن هذا كل شيء.»

وهو بالتأكيد لا يجد أدنى صعوبة في إشاحة نظره عني بالطريقة التي أعجز أنا عنها تجاهه.

قالت ريانون بسخرية وهي تلتف مبتعدة بسهولة:

– «إذن، بالتأكيد هناك بعض الغضب هنا.»

راوغتُ إحدى هجماتها وأجبتها:

– «أنتِ أيضاً ستغضبين لو سلب أحدهم حريتكِ. لو كان لديكِ ليام يقف على بابكِ كل صباح حتى كل ليلة، رغم كونه رائعاً كما يبدو.»

تدخل ليام مقاطعاً ليثبت نقطتي:

– «أنا أقدر لكِ هذا الإطراء.»

وافقت ريانون:

– «أجل. لكنتُ غضبت. وأنا غاضبة نيابة عنكِ. والآن، دعينا نستثمر ذلك الغضب.»

أمطرتني ريانون بسلسلة أخرى من الحركات وتمكنتُ من مجاراتها، لكن فقط لأنها كانت تفعل بالضبط ما اتهمتها به وتتساهل معي.

ثم ارتكبتُ خطأ اختلاس النظر من فوق كتفها، نحو وسط الحلبة.

يا. إلهي. مذهل.

خلع زايدن وغاريك قميصيهما وكانا يتنازلان وكأن حياتهما تعتمد على ذلك، في ضبابية من الركلات، واللكمات، والعضلات المتموجة. لم أرَ شخصين

يتحركان بتلك السرعة من قبل. كانت رقصة ساحرة ومنومة بتصميم مميت جعلتني أحبس أنفاسي كلما انقض غاريك لتسديد ضربة قاضية وتفاداها زايدن.

لقد رأيتُ عدداً لا يحصى من الركاب يتنازلون بلا قمصان خلال الأشهر الماضية. هذا ليس بالأمر الجديد. كان يجب أن أكون محصنة تماماً ضد أجساد الذكور، لكنني لم أرَه هو بلا قميص من قبل.

كان كل جزء في جسد زايدن مشحوذاً كسلاح، بخطوط حادة وقوة بالكاد مكبوتة. التوى أثر التمرد حول الجزء العلوي من جسده وبرز بشكل صارخ ضد بشرته البرونزية العميقة، مبرزاً كل لكمة يسددها، ومعدته... أعني، كم عدد العضلات الموجودة في البطن؟ عضلاته كانت محددة بصلابة لدرجة أنني ربما أستطيع عدّها واحدة تلو الأخرى لو لم يكن باقي جسده مشتتاً للانتباه بهذا الشكل الملعون. وهو يمتلك أضخم أثر تنين رأيته في حياتي. أثري أنا يغطي مساحة الجلد بين لوحي كتفيّ، لكن علامة سجايل تحتل ظهره بأكمله.

وأنا أعلم تماماً كيف يبدو شعور ذلك الجسد حين يضغط فوق جسدي، ومقدار القوة التي...

لسعتني ضربة على وركي، فأيقظتني من غفلتي وانتفضت.

وبخني تايرِن في عقلي:

– 'تستحقين ذلك.'

صرخت ريانون وهي تسحب عصاها للخلف:

– «انتبهي! كان بإمكاني أن... أوه.»

من الواضح أنها رأت ما أراه، وما تشاهده بسعادة غامرة كل امرأة تقريباً – والعديد من الرجال – في الحلبة.

كيف لا نفعل وهما يأسران الألباب هكذا؟

كان غاريك أعرض كتفين، وأكثر اكتنازاً بالعضلات من زايدن، واقتصر امتداد أثر التمرد الخاص به على كتفه، وهو ثاني أضخم أثر رأيته. فقط أثر زايدن هو الذي يصل إلى خط فكه المنحوت.

همهمت ريانون بجانبي:

– «هذا...»

وافقتها الرأي:

– «إنه كذلك بالتأكيد.»

مازحنا ليام:

– «توقفا عن تشييء قائد جناحنا.»

سألت ريانون دون أن تكلف نفسها عناء إشاحة نظرها:

– «هل هذا ما نفعله؟»

سال لعابي على اتساع ظهره العضلي وتلك المؤخرة المنحوتة.

– «أجل، أظن أن هذا ما نفعله.»

شخر ليام ضاحكاً.

أضفتُ:

– «يمكن أن نكون فقط نراقب التقنية.»

– «أجل. بالتأكيد يمكن أن نكون نفعل ذلك.»

لكنني لستُ كذلك. أنا أتساءل بلا خجل كيف سيكون ملمس بشرته تحت أطراف أصابعي، وكيف سيتفاعل جسدي إذا حظيتُ بكل أوقية من هذا التركيز المكثف. تسابقت الحرارة في عروقي ولسعت وجنتيّ.

لفت انتباهي صوت صفع متكرر إلى اليمين، حيث كان ريدوك يضرب بقوة مستسلماً. أفلتته إيموجين، تاركة إياه يلهث طلباً للهواء على البساط، واجتاحتني

فجأة موجة قبيحة وملتوية وغير منطقية تماماً من الغيرة، طعنتني مباشرة في صدري حين رأيتُ الشوق الصافي الذي عجزت إيموجين عن إخفائه في ملامحها وهي تراقب زايدن وغاريك.

نبح داين بصوت عالٍ:

– «إذا كان انتباهكم يتشتت بهذه السهولة، فنحن هالكون في معركة الفرق. يمكنكم توديع أي فكرة لزيارة خطوط المواجهة.»

انتفضنا جميعاً من شرودنا، وهززتُ رأسي وكأن ذلك قد يبدد هذه الحاجة المدوخة التي تطالبني بفعل أكثر من مجرد النظر إلى زايدن، وهو أمر... سخيف تماماً. إنه لا يتسامح مع وجودي إلا لأن تنانينا متزاوجة، وها أنا ذا يسيل لعابي على جسده نصف العاري.

لكنه جسد نصف عارٍ رائع حقاً.

أمر داين، وشعرتُ وكأنه يتحدث إليّ مباشرة، ليكون هذا أول ما يوجهه إليّ منذ أن تسببت ذاكرتي في مقتل آمبر:

– «عودوا للعمل. لدينا نصف ساعة أخرى.»

زمجر تايرِن في عقلي:

– 'لقد تسببت هي بقتل نفسها لخرقها الدستور.'

وبالفعل، حين استرقتُ النظر إليه، كانت عينا داين مضيقتين نحوي، لكنني بالتأكيد أسيء قراءة تعابير وجهه. من المستحيل أن يكون الخذلان هو ما يزم شفتيه هكذا.

سألت ريانون وهي ترفع عصاها:

– «هل نتابع؟»

أجبتها:

– «أجل، يجب أن نفعل ذلك بالتأكيد.»

أرخيتُ كتفيّ، وبدأنا من جديد. جاريتها حركة بحركة، مستخدمة الأنماط التي علمتني إياها، لكنها غيرت مسار الهجوم التالي.

أمرني تايرِن، وغضبه يتدفق في عروقي ليفسد حركة قدميّ:

– 'توقفي عن الدفاع وانتقلي للهجوم!'

اكتسحت ريانون بساقها منخفضة وقلبتني على ظهري، لتصطدم رئتاي بالبساط وأفقد أنفاسي.

كافحتُ بحثاً عن هواء معدوم.

جثت ريانون على ركبة واحدة بجانبي وقالت بقلق:

– «تباً، أنا آسفة يا ڤيوليت. فقط استرخي وامنحي نفسكِ ثانية.»

سخر جاك بارلو وهو يتحدث إلى أحد أفراد فرقته، مبتسماً بخبث عند حافة البساط:

– «ومع ذلك، هذه هي الراكبة التي اختارها تايرِن. بدأتُ أعتقد أنه أساء الاختيار، لكن بالنظر إلى أنني لم أركِ توجهين أي قوى، أراهن أنكِ تفكرين في الشيء ذاته، أليس كذلك يا سورنجيل؟ ألا يفترض أن تكون قدرتكِ على توجيه السحر مضاعفة مع تنينين؟»

الأمر لا يسير هكذا مع أندارنا، لكن أياً منهم لا يعلم ذلك.

وقف ليام، جاعلاً من نفسه درعاً بيني وبين جاك بينما بدأت أول قطرة من الهواء تتسلل إلى رئتيّ.

عقد جاك ذراعيه فوق صدره وراقب كفاحي بمتعة خالصة وهو يقول:

– «اهدأ يا مايري. لن أهاجم محميتك الصغيرة. ليس حين يمكنني تحديها ببساطة بعد أسبوعين وأكسر عنقها النحيل بالخطأ أمام الجمهور.»

ثم أضاف بنبرة خبيثة:

– «لكن أخبرني، ألستَ متعباً من لعب دور الممرضة؟»

عرض عليه صديقه من الجناح الأول شيئاً – شريحة من البرتقال الذي يأكله – فدفع جاك يده بعيداً بقوة.

– «أبعد هذا القرف السام عني. هل تريدني أن أنتهي في المستوصف؟»

حذره ليام، والخنجر في يده:

– «ابتعد من هنا يا بارلو بحق الجحيم.»

تمكنتُ من التقاط نفس واحد، ثم ثانٍ بينما ارتفعت نظرات جاك مني إلى شخص يقف خلفي. تلك النظرة على وجهه، نصفها حسد ونصفها رعب خالص، تعني أنه لا بد أن يكون زايدن.

بصق جاك كلماته، لكن الدماء هربت من وجهه:

– «إنها حية فقط بسببك.»

– «صحيح، لأنني أنا من غرزتُ خنجراً في كتفك يوم التصفية.»

بعد أن استعدتُ تنفسي الطبيعي تقريباً، نهضتُ متعثرة، وأحكمت قبضتي على العصا بكلتا يديّ.

تجاوز جاك ليام لينظر في عينيّ مباشرة وقال:

– «يمكننا تسوية هذا الآن. إذا كنتِ قد انتهيتِ من الاختباء خلف الرجال الكبار الأقوياء.»

أجوف الخوف معدتي لأنه كان محقاً. السبب الوحيد الذي يمنعني من قبول تحديه هو عدم يقيني من الفوز، والسبب الوحيد الذي يمنعه من مهاجمتي هو ليام وزايدن. لو هاجمتُ جاك الآن، فسيقتلونه. ظهر إطار غاريك الضخم إلى اليسار،

فأضفته مكرهة إلى قائمة حماتي. بحق السماء، حتى إيموجين اقتربت، لكن ليس من أجلي.

بل من أجله فقط.

أرسل لي جاك قبلة في الهواء وقال:

– «هذا ما ظننته.»

كشرتُ عن أنيابي، متمنية لو أتمكن من الاندفاع للأمام وضربه حتى الموت، لكني أجبرت قدميّ على البقاء في مكانهما وقلت:

– «لقد هربت. في ذلك اليوم في الميدان، لقد هربت بحق الجحيم حين كانت المواجهة ثلاثة ضد واحد، وكلانا يعلم أنك حين يشتد الخناق، ستهرب مجدداً. هذا ما يفعله الجبناء.»

احتقن وجه جاك، وكادت عيناه تخرجان من جحورهما غضباً.

تمتم داين بانزعاج:

– «بحق الجحيم يا ڤيوليت.»

علق زايدن ببرود:

– «إنها ليست مخطئة.»

ضحك غاريك، ودفع ليام جاك بقوة خارج البساط حين اندفع نحوي. صرت أحذية جاك العسكرية على الأرضية الخشبية وهو يكافح بلا جدوى للثبات، فأجبره ليام على التراجع حتى أخرجه من الحلبة.

وبحركة خفيفة من يده، أغلق زايدن الأبواب الضخمة بقوته، حابساً جاك بالخارج.

تقدم داين نحوي بخطوات غاضبة، وحاجباه مرتفعان في عدم تصديق:

– «بماذا كنتِ تفكرين بحق الجحيم، باستفزازه هكذا؟»

رفعتُ ذقني بتحدٍ وأجبته:

– «أوه، هل شعرتَ الآن بالرغبة في التحدث إليّ؟»

لكن زايدن هو من ملأ مجال رؤيتي حين خطى بيننا. كان الغضب في عينيه ملموساً، لكنني لم أتراجع.

قال زايدن، ونظراته مقفلة مع نظراتي، لكن كلانا يعلم أنه لا يتحدث إليّ:

– «امنحنا ثانية.»

تسارع نبضي.

تراجعت ريانون للخلف.

سألني زايدن، ونبرته هادئة لكنها مميتة وهو يشير نحو المقعد حيث يكمن درعي:

– «هل تودين إخباري لماذا لا ترتدين ذلك الشيء بحق الجحيم؟»

أجبته بتحدٍ:

– «لا بد لي من غسله في مرحلة ما.»

ارتفع صدره وانخفض، وكأنه يصارع للحفاظ على سيطرته:

– «وظننتِ أن هذه فكرة جيدة أثناء النزال؟»

كنتُ أحاول فقط ألا ألاحظ صدره أو الحرارة التي يبعثها كأتون مشتعل.

– «لقد غسلته قبل النزال، لعلمي أنه سيجف بينما يقوم كلب حراستك بمراقبته، بدلاً من النوم بدونه لأن كلانا يعلم ما يحدث خلف الأبواب المغلقة هنا.»

قال وقد تقلص فكه:

– «ليس خلف بابكِ بعد الآن. لقد تأكدتُ من ذلك.»

– «لأنني يُفترض أن أثق بك؟»

برز عرق في رقبته وهو يجيب بحدة:

– «أجل.»

رددتُ عليه بسخرية تقطر من صوتي:

– «وأنت تجعل ذلك سهلاً للغاية.»

اقتحم مساحتي الشخصية، كاسفاً بقية الغرفة عن رؤيتي وقال من بين أسنانه:

– «أنتِ تعلمين أنني لا أستطيع قتلكِ. تباً يا سورنجيل، القطاع بأكمله يعلم أنني لا أستطيع قتلكِ.»

رددتُ عليه بحدة:

– «هذا لا يعني أنك لا تستطيع إيذائي.»

رمش بعينيه وتراجع للخلف، مستعيداً رباطة جأشه في أقل من خفقة قلب، بينما لا يزال قلبي يتسابق. أمرني:

– «توقفي عن التدرب بالعصا. من السهل جداً إسقاطها من يديكِ. التزمي بالخناجر.»

ولدهشتي، لم ينتزعها من يدي لمجرد إثبات قدرته على ذلك.

جادلته، ودفاعاتي ترتفع كشعر كلب مستفز:

– «كنتُ أبلي بلاءً حسناً حتى اقتحم تايرِن رأسي بكل غضبه وشتتني.»

قال وكأن الأمر بهذه البساطة:

– «إذن تعلمي كيف تمنعينه من الدخول.»

رفعتُ حاجبيّ ساخرة:

– «ماذا؟ بكل هذه القوة التي أوجهها؟ أم أنك لم تكن تدرك أنني لم أبدأ بتوجيه السحر بعد؟»

أردتُ أن أخنقه، أن أرجّ ذلك الرأس الفاتن حتى يعود إليه بعض المنطق.

مال نحوي حتى كادت أنوفنا تتلامس وقال بهدوء مخيف:

– «أنا مدرك تماماً لكل ما تفعلينه، وبشكل مزعج للغاية.»

بفضل ليام.

اهتز كل إنش في جسدي غضباً، انزعاجاً، وبـ... أياً كان هذا التوتر الكهربائي بيننا ونحن نقف هناك، وعيوننا تخوض معركة صامتة.

تدخل داين قائلاً:

– «قائد الجناح ريورسون. إنها لم تعتد على الرابط بعد. ستتعلم كيف تحجبه.»

لسعتني كلمات داين كصفعة. سحبتُ نفساً حاداً وتراجعتُ عن زايدن. يا إلهي، لقد كنا نقدم عرضاً درامياً بحق الجحيم. ما الذي يملكه زايدن ويجعلني أنفصل عن بقية العالم؟

قال زايدن وهو يرمق داين بنظرة شبه مستخفة، كاد أن يقلب معها عينيه:

– «أنت تختار أغرب الأوقات للدفاع عنها يا آيتوس. وأكثر الأوقات ملاءمة لعدم فعل ذلك.»

أحكم داين قبضتيه على جانبيه، وتصلب فكه.

إنه يتحدث عن آمبر. أنا أعلم ذلك. وداين يعلم ذلك. وكل من في هذه الغرفة المليئة بالتوتر المربك يعلم ذلك. لقد كانت فرقتنا بأكملها حاضرة حين طالبني داين باتهام زايدن بالكذب.

أعاد زايدن توجيه تلك العينين الغامضتين نحوي وأنهى حديثه:

– «أسدي كلينا معروفاً وارتدي الدرع اللعين مجدداً.»

وقبل أن أتمكن من الرد، استدار وغادر البساط، ليلتقي بغاريك عند الحافة.

ظهره.

لم أستطع كتم شهقتي الصامتة، فتصلب زايدن لثانية قبل أن يأخذ قميصه من يد غاريك الممدودة ويسحبه فوق رأسه، مغطياً أثر التنين الأزرق الداكن الذي يمتد من خصره ليعبر كلا كتفيه – أثر مُزين بتفاصيل معقدة من الخطوط الفضية البارزة التي لم أتمكن من رؤيتها من الجانب الآخر للحلبة.

خطوط فضية أدركتُ فوراً أنها ندوب.

قال تايرِن، وغمر صدري شعور هائل بالفخر:

– 'لقد صمدتِ وسيطرتِ على غضبكِ.'

أضافت أندارنا بومضة من الفرح الغامر جعلتني أشعر بدوار خفيف فوراً:

– 'إنها مستعدة.'

وافقها تايرِن الرأي:

– 'إنها مستعدة.'

***

بعد بضع ساعات، كنتُ أمرر فرشاتي بعنف عبر شعري في عزلة غرفتي، ولا أزال بكامل ملابسي حتى حذائي العسكري ودرعي. لا أصدق حتى الآن أنني جعلتُ من نفسي أضحوكة أمام فرقتي بأكملها لمجرد أن زايدن قرر التدرب بلا قميص.

أنا بحاجة ماسة لممارسة الجنس حقاً.

توقفتُ في منتصف تمريرة الفرشاة حين سرت اندفاعة من الطاقة عبر عمودي الفقري، ثم تلاشت في خفقة قلب.

حسناً، هذا... غريب.

ربما يكون... لا. مستحيل. كان الشعور مختلفاً تماماً حين أوقفت أندارنا الزمن من خلالي. كان ذلك فيضاناً اجتاح جسدي بالكامل وتمدد عبر أصابع يدي وقدمي، ثم... انسحب بعد ذلك.

تموجت موجة أخرى عبر جسدي، أقوى هذه المرة، فأسقطتُ الفرشاة وتشبثتُ بحافة الخزانة كي لا أسقط حين هددت ركبتاي بالانهيار. لم تتلاشَ الطاقة هذه المرة؛ بل بقيت، تطن تحت بشرتي، وتدوي في أذنيّ، وتغمر كل حواسي.

توسع شيء ما بداخلي، شيء بدا أكبر من جسدي بكثير، أوسع من أن يُحتوى، واشتعلت النيران في كل عصب بينما تشققتُ بانفتاح مذهل، وتردد الصدى عبر جمجمتي كعظام تتحطم. كان الأمر وكأنني قد شُطرتُ عند درزات نسيج كياني ذاتها.

سقطتُ على ركبتيّ، ووضعتُ يديّ فوق صدغيّ، محاولةً إعادة حشر كل ما أنا عليه داخل جمجمتي، مجبرةً نفسي على الانكماش.

تدفقت الطاقة – طوفان من القوة الخام، اللامتناهية – تآكلت كل ما كنتُ عليه وصاغت شيئاً جديداً تماماً وهي تملأ كل مسام، كل عضو، كل عظمة. صرخ رأسي، وبدا الأمر وكأن تايرِن قد حلق عالياً وبسرعة فائقة لدرجة عجزت معها أذناي عن معادلة الضغط. كل ما كان بوسعي فعله هو الاستلقاء هناك على الأرض والصلاة من أجل أن يتساوى الضغط.

حدقتُ في فرشاتي، والأرضية الخشبية تضغط بقسوة على خدي، وتنفست.

شهيق، ثم زفير.

شهيق... ثم زفير... مستسلمة للهجوم العارم.

أخيراً، تراجع الألم، لكن الطاقة – القوة – لم تتراجع. كانت ببساطة... هناك، تجوب عروقي كوحش مفترس، وتشبع كل خلية في جسدي. إنها كل ما أنا عليه وكل ما أستطيع أن أكونه في آن واحد.

جلستُ ببطء وقلبتُ يديّ لأتفحص راحتيّ اللتين كانتا تنبضان بالوخز. بدا وكأنه ينبغي أن تبدوا مختلفتين، متغيرتين، لكنهما لم تكونا كذلك. كانتا لا تزالان أصابعي، ومعصميّ النحيلين، ومع ذلك أصبحتا الآن أكثر من ذلك بكثير. كانتا قويتين بما يكفي لتشكيل السيل العارم بداخلي، لصياغته في أي شكل أرغبه.

سألتُ تايرِن:

– 'هذه قوتك، أليس كذلك؟'

لكنه لم يجب.

– 'أندارنا؟'

لم يكن هناك سوى الصمت.

يا للسخرية، إنهما متواجدان دائماً، يقتحمان رأسي حين أحتاج لبعض المساحة، ثم يختفيان تماماً حين تنقلب الآية.

كنتُ قد سمعتهما يقولان إنني مستعدة في وقت سابق، لكنني افترضتُ أن الأمر سيستغرق يوماً أو يومين ليفتح عقلي ذلك المسار بالكامل بمجرد أن يبدأ تايرِن بتوجيه السحر. يبدو أنني كنتُ مخطئة.

ريانون. يجب أن أخبر ريانون. ستطير فرحاً لأنني أستطيع أخيراً مرافقتها إلى حصة الأستاذ كار. وليام؟ سيتمكن من التوقف عن التظاهر بأنه غير قادر على توجيه السحر فقط كي لا يُجبر على تركي لمدة ساعة يومياً.

غسلتني موجة من الحرارة، توخز بشرتي وتتركز في أسفل معدتي.

غريب، لكن أياً يكن. ربما هو مجرد تأثير جانبي للقوة. فتحتُ قفل بابي وفتحته بقوة.

تشوشت رؤيتي، وضربتني حاجة جامحة، سالبةً إياي كل فكرة عقلانية باستثناء إشباع هذا الشعور الغامر بـ...

– «ڤيوليت؟»

تجسد شكل ضبابي لرجل في الردهة، ورمشتُ حتى وضحت معالم ليام.

– «هل أنتِ بخير؟»

تشبثتُ بإطار الباب بينما ملأت صورة سقوط ذهني، وشعرتُ بلسعة رقاقات الثلج وهي تلامس بشرتي المحمومة. اختفت الصورة بالسرعة التي ظهرت بها، لكن تلك الرغبة المدوية، الجامحة بقيت:

– «هل تنام في الردهة؟»

أوه، تباً. هذه... شهوة.

هز ليام رأسه وقال:

– «لا. كنتُ أقضي بعض الوقت هنا قبل الخلود للنوم.»

نظرتُ إليه حينها. نظرتُ إليه بتمعن وصدق. كان أكثر من مجرد وسيم، بملامح قوية وعينين بلون سماء صافية، كانتا جميلتين بشكل مذهل.

سألني وهو يضع سكينه والتنين نصف المنحوت جانباً:

– «لماذا تنظرين إليّ هكذا؟»

غرزتُ أسناني في شفتي السفلى وأنا أقاوم رغبة التمسح به كقطة في موسم التزاوج ومطالبته بإشباع هذا الألم الذي يفوق الوصف:

– «أنظر كيف؟»

لكنه ليس من تريدينه حقاً.

إنه ليس زايدن.

أمال رأسه جانباً وقال:

– «وكأن... شيئاً ما يحدث. لا تبدين وكأنكِ... كما تعلمين... على طبيعتكِ.»

أوه، تباً.

السبب هو أنني لستُ على طبيعتي. كل هذا، هذه الحاجة، هذه الشهوة، هذا التوق الغامر للشخص الوحيد الذي قُدر لي أن أكون معه... إنه تايرِن.

مشاعر تايرِن لا تغمرني فحسب؛ بل تسيطر عليّ.

قلتُ وأنا أتراجع إلى غرفتي وأغلق الباب بقوة بينما لا أزال أمتلك القدرة العقلية لفعل ذلك:

– «أنا بخير! اذهب للنوم!»

ثم بدأتُ في المشي ذهاباً وإياباً، لكن ذلك لم يوقف موجة الحرارة التالية أو ذلك الدافع الملح لـ...

يجب أن أخرج من هنا قبل أن أرتكب خطأً فادحاً وأفرغ مشاعر تايرِن على ليام.

أمسكتُ بعباءتي المبطنة بالفرو بيد، ورفعتُ شعري باليد الأخرى، ولففتُ القماش حول كتفيّ قبل أن أغلق المشبك تحت حنجرتي. وبعد ثانية، استرقتُ النظر من الباب، وحين تأكدتُ من خلو الممر، هربتُ بحق الجحيم.

تمكنتُ من الوصول إلى مدخل الدرج الحلزوني – الذي يؤدي إلى النهر – قبل أن أضطر للاستناد بظهري إلى الجدار الحجري والتنفس عبر ضباب مشاعر تايرِن.

بمجرد أن مرت الموجة، ركضتُ نزولاً على الدرج، محتفظة بيد واحدة على الجدار تحسباً لابتلاعي مجدداً.

توهجت الأضواء السحرية مع اقترابي وانطفأت مع تجاوزي لها، وكأن هذه القوة المكتشفة حديثاً قد بدأت بالفعل في العمل، ممتدة إلى العالم من حولي.

يجب أن أبتعد. يجب أن أبتعد عن الجميع حتى ينهي تايرِن... أياً كان ما يفعله هو وسجايل.

تعثرتُ خارجة من بئر السلم وظهرتُ عند جدران أساس القلعة. كانت الثلوج تملأ السماء، فأرجعتُ رأسي للخلف، متلذذة بالقبلة العابرة لرقاقات الثلج على بشرتي التي التهبت لكل الأسباب الخاطئة.

كان الهواء نقياً وبارداً، و...

فتحتُ عينيّ بحدة بسبب الرائحة في الهواء واستدرتُ، لترتفع عباءتي خلفي حين وجدتُ مصدر الدخان الحلو والمميز بسهولة.

كان زايدن يستند بظهره إلى الجدار، واضعاً قدماً واحدة على الحجر، يدخن ويراقبني وكأنه لا يعبأ بشيء في العالم.

سألته:

– «هل هذا... نبات التشورام؟»

نفث سحابة من الدخان وأجاب:

– «أتريدين بعضاً منه؟ إلا إذا كنتِ هنا لمواصلة شجارنا السابق، وفي هذه الحالة، لن تحصلي على شيء.»

تدلى فكي من الصدمة:

– «لا! لا يُسمح لنا بتدخينه!»

ارتفعت زاوية فمه بابتسامة متكلفة:

– «أجل، حسناً، من وضع هذه القاعدة لم يكن مرتبطاً بـ سجايل وتايرِن بوضوح، أليس كذلك؟»

يا إلهي، يمكنني التحديق في شفتيه إلى الأبد. إنهما مثاليتان في شكلهما، ومع ذلك تبدوان مفرطتي الانحلال مقارنة بخط فكه القاطع.

عرض عليّ التشورام الملفوف ورفع حاجباً – ذلك الذي يحمل الندبة – وقال:

– «إنه يساعد في... إبعادكِ عن المشاعر. بما يفوق ما تفعله الدروع الذهنية بالطبع.»

هززتُ رأسي وشققتُ طريقي عبر الثلج المتساقط حديثاً لأستند بوزني على الجدار بجانبه، تاركة رأسي يتدلى للخلف على الحجر البارد.

أخذ نفساً عميقاً من التشورام ثم أطفأه على الجدار:

– «كما تشائين.»

قلتُ، وكان هذا وصفاً مخففاً للغاية:

– «أشعر وكأنني أحترق بحق الجحيم.»

كانت ضحكته تحمل مسحة خبيثة، فارتكبتُ ذلك الخطأ الذي لا يُغتفر بالتأكيد: التفتُّ لأرى ابتسامته.

– «أجل. يحدث ذلك.»

زايدن، رغم كونه غامضاً ومتسلطاً، خطيراً ومميتاً، هو مشهد يخطف الأنفاس ويسرع نبضاتي. لكن زايدن وهو يضحك، ورأسه مائل للخلف بابتسامة تزين فمه، هو مشهد فاتن لدرجة الهلاك. شعرتُ وكأن هناك قبضة تعتصر قلبي الغبي الساذج بقوة.

لا يوجد شيء لن أضحي به، لا شيء لن أقدمه لأحظى بلحظة واحدة خالية من الحواجز مع هذا الرجل الذي سأكون مقيدة به لبقية حياتنا.

لا بد أن هذا هو تأثير تايرِن. لا بد أن... يكون كذلك.

ومع ذلك، أعلم يقيناً أنه ليس كذلك. فرغم إعجابي بـ ليام في الأعلى، إلا أنني مهووسة تماماً وبشكل مطلق بـ زايدن.

التقت عيناه بعينيّ في ضوء القمر:

– «أوه، يا ڤيولينس، سيتعين عليكِ تعلم كيفية رفع درع ذهني ضد تايرِن، وإلا فإن مغامراته مع سجايل ستدفعكِ للجنون – أو إلى فراش أحدهم.»

أغمضتُ عينيّ بقوة لمجرد الهروب من وجهه الفاتن بينما سرت اندفاعة من الحرارة في جسدي، جاعلة كل إنش من بشرتي يوخزني ويحترق. مددتُ يدي لأستند إلى الجدار مرة أخرى.

– «أوه، أنا أعلم. أنا مرعوبة من رؤية ليام مرة أخرى.»

استدار ليواجهني، مستنداً على كتفه وسأل وصوته يشبه قصف الرعد:

– «ليام؟ لماذا؟ أين حارسك الشخصي بحق الجحيم؟»

أجبته وأنا أريح خدي على الحجر الجليدي:

– «أنا حارسة نفسي. وهو نائم في فراشه.»

– «فراشكِ أنتِ؟»

فتحتُ عينيّ بصعوبة لألتقي بنظراته. جعل الثلج كل شيء أكثر سطوعاً، مبرزاً خط حاجبيه المجعدين، والزمَّة الحازمة لفمه.

– «لا. ليس وكأن الأمر يجب أن يهمك.»

هل هو غيور؟ هذا... مطمئن بشكل غريب.

زفر نفساً طويلاً، وانخفض كتفاه وهو يقول:

– «لا يهمني طالما أنكما متوافقان، وصدقيني، أنتِ في حالة لا تسمح لكِ بالموافقة على أي شيء.»

كادت الحاجة التي لا تُنكر ولا تُطفأ أن تسقطني على ركبتيّ وأنا أرد:

– «ليس لديك أدنى فكرة عما أنا قادرة على الموافقة عليه...»

التفت ذراع زايدن حول خصري ليثبتني وسألني بحدة:

– «لماذا لا ترفعين درعكِ الذهني بحق الجحيم؟»

أجبته بانفعال:

– «ليس كلنا تلقى دروساً! لقد بدأ للتو في توجيه السحر لي قبل... كل هذا، وفي حال نسيت، لا يُسمح لك بحضور حصة الأستاذ كار إلا إن كنت تستطيع توجيه السحر.»

تنهد وقال:

– «لطالما اعتقدتُ أن هذه قاعدة سخيفة. حسناً. دورة مكثفة إذن. فقط لأنني كنتُ في مكانكِ ذات يوم واستيقظتُ بأكثر من مجرد بضع ندامات.»

سألته بعدم تصديق:

– «هل ستساعدني حقاً؟»

تقلصت يده على خصري، وأقسم أنني تمكنتُ من الشعور بدفء لمسته عبر عباءتي وملابسي الجلدية وهو يجيب:

– «أنا أساعدكِ منذ أشهر.»

تجعدت جبهتي وأنا أصحح له:

– «لا، لقد أرسلت ليام ليساعدني. هو من كان يساعدني منذ أشهر. أقصد أسابيع. تقريباً أشهر. أياً كان.»

امتلك الجرأة ليبدو مهاناً وقال:

– «أنا من اقتحم بابكِ وقتل كل من هاجمكِ، ثم أزلتُ التهديد الآخر لحياتكِ بعرض انتقام علني للغاية ومثير للانقسام. ليام لم يفعل ذلك. أنا من فعلت.»

– «الحشد لم يكن منقسماً. كانوا جميعاً مؤيدين لذلك. لقد كنتُ هناك.»

– «أنتِ كنتِ ممزقة. في الواقع، لقد توسلتِ لـ تايرِن ألا يقتلها، وأنتِ تعلمين تماماً أنها كانت ستطاردكِ مجدداً.»

هذه النقطة لا تزال قابلة للنقاش.

هززتُ كتفي، مستفزة إياه بوضوح ليساعدني في تجاهل مد الشهوة المتصاعد الذي يضربني بقوة:

– «حسناً. لكن دعنا لا ندعي أنك لم تفعل معظم ذلك من أجل نفسك. سيكون من المزعج لك أن أموت.»

حدق فيّ بعدم تصديق وقال:

– «أتعلمين ماذا؟ لن نتشاجر الليلة. ليس إن كنتِ تريدين تعلم كيفية الدرع.»

رفعتُ ذقني وقلت:

– «حسناً. لن نتشاجر. علمني.»

يا إلهي، أنا بالكاد أصل إلى عظمة ترقوته.

مال نحوي وسأل:

– «اطلبي مني بلطف.»

اندفعت أول فكرة تبادرت إلى ذهني:

– «هل كنت دائماً بهذا الطول؟»

– «لا. لقد كنتُ طفلاً في مرحلة ما.»

قلبتُ عينيّ بضجر.

همس زايدن:

– «اطلبي مني بلطف يا ڤيولينس. أو سأغادر.»

استطعتُ الشعور بـ تايرِن على حافة عقلي، ومشاعره تنحسر وتتدفق، وكنتُ أعلم أن الموجة التالية ستضربني بقوة. كم من الوقت بحق الجحيم سيستغرق هذان الاثنان؟

سألته:

– «كم مرة يحدث هذا معهما؟»

أجاب:

– «غالباً بما يكفي لدرجة أنكِ ستحتاجين إلى دروع مناسبة. لن تتمكني أبداً من منعهما تماماً، وأحياناً ينسيان حجبنا، كما حدث الليلة. لهذا السبب يساعد التشورام، لكنه على الأقل كالمشي بجوار بيت دعارة بدلاً من المشاركة الفعالة فيه.»

حسناً... *تباً*.

– «حسناً إذن. حسناً. هل ستعلمني كيف أدرع عقلي؟»

ارتسمت ابتسامة على فمه، فانخفضت نظراتي إلى شفتيه وهو يطلب:

– «قولي أرجوكِ.»

– «هل أنت دائماً بهذا العناد؟»

نفض الثلج عن شعري وقال:

– «فقط حين أعلم أنني أمتلك شيئاً تحتاجينه. ماذا عساي أن أقول، أحب أن أجعلكِ تتلوين. إنها كشريحة حلوة صغيرة من الانتقام لما جعلتني أمر به خلال الشهرين الماضيين.»

– «ما جعلتك تمر به؟»

لا يُصدق.

– «لقد أخفتني حتى الموت تقريباً مرة أو مرتين، لذا أظن أن قول (أرجوك) هو طلب عادل.»

وكأنه لعب بنزاهة يوماً في حياته. أخذتُ نفساً عميقاً وأبعدتُ رقاقة ثلج هبطت على أنفي، ثم ابتسمتُ له برقة واقتربتُ قليلاً:

– «كما تفضل. زايدن؟ هل تتفضل وتعلمني كيف أدرِع عقلي من فضلك، قبل أن أتسلقك كشجرة بالخطأ ونستيقظ كلانا بنادمات؟»

ابتسم مجدداً، وشعرتُ بابتسامته كمداعبة وهو يجيب:

– «أوه، أنا مسيطر تماماً على قواي العقلية.»

خطير. هذا خطير جداً بحق الجحيم. تدفقت الحرارة في بشرتي، حارة لدرجة أنني فكرتُ في إلقاء عباءتي على الأرض لأحظى بقليل من الراحة. ومن الجدير بالذكر أن زايدن لم يكن يرتدي واحدة.

عدل وقفته ورفع كلتا يديه إلى وجنتيّ، محتضناً وجهي قبل أن يمررهما للوراء ليمسك برأسي وقال:

– «وبما أنكِ طلبتِ بلطف هكذا. أغمضي عينيكِ.»

رفرفت عيناي لتنغلقا عند إحساس بشرته تلامس بشرتي وسألت:

– «هل يتطلب الأمر لمسي؟»

– «ليس على الإطلاق. إنها مجرد إحدى ميزات عدم التفكير بوضوح. لديكِ بشرة قابلة للمس بشكل لا يُصدق.»

جعلني الإطراء أسحب نفساً حاداً. وداعاً إذن للسيطرة على قواه العقلية.

أمرني:

– «تحتاجين لتخيل مكان ما. أي مكان. أنا أفضل قمة تلي المفضل بالقرب مما تبقى من أريتيا. أياً كان المكان، يجب أن يمنحكِ شعوراً بالوطن.»

المكان الوحيد الذي أستطيع التفكير فيه هو الأرشيف.

– «استشعري قدماكِ تلامسان الأرض وتغرزان فيها قليلاً.»

تخيلتُ حذائي على الأرضية الرخامية المصقولة للأرشيف وحركتهما قليلاً.

– «فعلت.»

– «هذا يُسمى التجذير، إبقاء ذاتكِ العقلية في مكان ما حتى لا تجرفكِ القوة. الآن استدعي قوتكِ. افتحي حواسكِ.»

بدأت راحتاي بالوخز، وغمرني فيضان من الطاقة، مشبعاً تماماً كما كان في غرفة نومي ولكن بدون الألم. كان في كل مكان، يملأ الأرشيف ويضغط على الجدران، جاعلاً إياها تنحني وتتقوس، مهدداً بتحطيمها.

– «هذا كثير جداً.»

– «ركزي على قدميكِ. ابقِ مجذرة. هل يمكنكِ رؤية من أين تتدفق القوة؟ إن لم يكن كذلك، فاختاري مكاناً وحسب.»

استدرتُ في عقلي. كان سيل القوة المنصهرة يتدفق عبر الباب.

– «أراه.»

– «ممتاز. لديكِ موهبة فطرية. يستغرق الأمر أسبوعاً من معظم الناس لمجرد تعلم كيفية التجذير. الآن، افعلي كل ما تحتاجين لفعله عقلياً لعزل نفسكِ عن ذلك التيار. تايرن هو المصدر. اعترضي تلك القوة، وستستعيدين بعض السيطرة.»

الباب. أحتاج فقط لإغلاق الباب وإدارة المقبض الدائري الضخم الذي يعزل الأرشيف للسيطرة على الحرائق.

جعلت الرغبة قلبي ينبض بعنف، فتشبثتُ بذراعي زايدن، مرسخةً نفسي في الواقع.

بدا صوته متوتراً وهو يقول:

– «أنتِ قادرة على هذا. كل ما تخلقينه في عقلكِ هو حقيقة بالنسبة لكِ. أغلقي الصمام. ابني جداراً. أياً كان ما يبدو منطقياً.»

انغرزت أصابعي في القماش الناعم لسترته، وألقيتُ بثقلي عقلياً ضد الباب، مجبرةً إياه على الانغلاق إنشاً تلو الآخر:

– «إنه باب.»

– «هكذا إذاً. واصلي.»

ارتجف جسدي المادي من الجهد الذي تطلبه دفع الباب عقلياً لإغلاقه، لكنني نجحتُ في ذلك.

– «لقد أغلقتُ الباب.»

– «عظيم. أقفلي القفل.»

تخيلتُ تدوير المقبض العملاق وسماع الأقفال تنغلق في مكانها. كان الارتياح فورياً، كعصفة ثلج باردة على بشرتي المحمومة. نبضت القوة، فجعلت الباب شفافاً.

– «لقد تغير. أستطيع الرؤية عبر الباب.»

– «أجل. لن تتمكني أبداً من منعه بالكامل. هل أقفلتهِ؟»

أومأتُ إيجاباً.

– «افتحي عينيكِ، لكن ابذلي قصارى جهدكِ لإبقاء ذلك الباب مقفلاً. هذا يعني إبقاء قدم واحدة مجذرة. لا تتفاجئي إن انزلق. سنبدأ من جديد وحسب.»

فتحتُ عينيّ، محتفظة بتلك الصورة الذهنية لباب الأرشيف المغلق، ورغم أن جسدي كان لا يزال محموماً ومحتقناً بالدفء، إلا أن تلك الحاجة المندفعة التي لا مفر منها أصبحت... خافتة بعض الشيء لحسن الحظ.

قلت عاجزة عن إيجاد الكلمات المناسبة:

– «إنه...»

تأملني زايدن بحدة جعلتني أميل نحوه وقال وهو يهز رأسه:

– «أنتِ مذهلة. لم أتمكن من فعل ذلك لأسابيع.»

كانت المشاعر التي تجتاحني أكثر من مجرد فرح. كانت نشوة غامرة جعلتني أبتسم كالحمقاء. أنا أخيراً لستُ فقط جيدة في شيء ما، بل مذهلة.

– «أخمّن أن لدي معلماً متفوقاً.»

مسح إبهاماه على البشرة الناعمة تحت أذنيّ، وانخفضت نظراته إلى فمي واشتعلت. تقلصت يداه، فسحبني للأمام بضع إنشات قبل أن يفلتني فجأة ويتراجع خطوة كاملة للوراء.

– «تباً. كان لمسكِ فكرة سيئة.»

وافقتُه، لكن لساني مر على شفتي السفلى:

– «الأسوأ.»

أطلق أنة خافتة، فذاب قلبي عند سماعها:

– «تقبيلكِ سيكون خطأ كارثياً.»

ما الذي يتطلبه الأمر لسماع تلك الأنة مجدداً؟

– «مدمر.»

بدت الإنشات الفاصلة بيننا كالحطب، جاهزة للاشتعال عند أول إيحاء بالحرارة، وأنا شعلة حية تتنفس. هذا هو كل ما يجب أن أهرب منه، ومع ذلك فإن إنكار الانجذاب الفطري الذي أشعر به هو أمر مستحيل تماماً ومطلقاً.

هز رأسه، لكن كان هناك أكثر من مجرد جوع في عينيه وهو يحدق في شفتيّ:

– «سنندم كلانا على ذلك.»

همستُ:

– «بالطبع.»

لكن معرفتي بأنني سأندم لا تمنعني من الرغبة فيه – الرغبة فيه هو. الندم هو مشكلة ڤيوليت في المستقبل.

– «فليذهب كل شيء إلى الجحيم.»

في ثانية كان خارج متناولي، وفي اللحظة التالية كان فمه على فمي، ساخناً وملحاً.

يا إلهي، أجل. هذا بالضبط ما أحتاجه.

كنتُ محاصرة بين الحجر الثابت للجدار والخطوط الصلبة لجسد زايدن، ولم يكن هناك أي مكان آخر أفضل التواجد فيه. كان يجب أن تعيدني هذه الفكرة إلى رشدي، لكن كل ما فعلتُه هو الميل نحوه طلباً للمزيد.

دس يده عبر شعري، محتضناً مؤخرة رأسي، ومميلاً إياي لقبلة أعمق، فافترقت شفتاي بلهفة. قَبِل الدعوة، ممرراً لسانه على لساني بضربات خبيرة ومثيرة جعلتني أتشبث بصدره، قابضة على قماش قميصه لأسحبه أقرب بينما رقصت الرغبة صعوداً وهبوطاً على عمودي الفقري.

كان طعمه مزيجاً من التشورام والنعناع، ككل ما يُفترض ألا أرغب فيه ومع ذلك لا يسعني سوى الاحتياج إليه، وبادلته القبلة بكل ما أملك، ماصة شفته السفلى وممررة أسناني عليها.

أنّ زايدن، وجعلني وقع هذا اللقب على شفتيه أتضور جوعاً:

– «يا ڤيولينس.»

أقرب. أحتاجه أقرب.

وكأنه استطاع سماع أفكاري، قبلني بقوة أكبر، مستحوذاً على كل خط ومنحنى في فمي بلمسة متهورة جعلت جسدي يغني. كان محتاجاً مثلي تماماً، وحين غير قبضته إلى مؤخرتي ورفعني، لففتُ ساقيّ حول خصره وتشبثتُ به وكأن حياتي تعتمد على ألا تنتهي هذه القبلة أبداً.

انغرز الجدار في ظهري، لكني لم أكترث. كانت يداي أخيراً في شعره، وكان ناعماً تماماً كما تخيلت. قبلني حتى شعرتُ بأنه قد التهمني واستكشفني بالكامل، ثم سحب لساني إلى فمه لأتمكن من فعل الشيء ذاته.

كان هذا جنوناً مطلقاً وكاملاً، ومع ذلك لم أستطع التوقف. لم أستطع الاكتفاء. كان بإمكاني العيش للأبد في هذه الشريحة الصغيرة من الجنون إن كان ذلك يعني إبقاء فمه على فمي، تاركة عالمي يقتصر على حرارة جسده واللمسات الخبيرة للسانه.

احتكت وركاه بوركيّ، فشهقتُ من الاحتكاك اللذيذ. قطع القبلة، ممرراً فمه عبر فكي، وعنقي، وعرفتُ أنني سأفعل أي شيء لإبقائه هنا معي. أردتُ أن أشعر بفمه في كل مكان.

كنا تشابكاً من الألسنة والأسنان، من الشفاه والأيدي الباحثة بينما تتساقط الثلوج من حولنا، واستهلكتني القبلة بنفس الطريقة التي استهلكتني بها القوة من

قبل، بعمق لدرجة أنني استطعتُ الشعور بها في كل خلية من جسدي. نبضت الحاجة بين فخذيّ، وانتفضتُ لمجرد إدراكي البسيط بأنه لا يوجد شيء يمكنه فعله ولن أرحب به. أريده.

هو فقط. هنا. الآن. في أي مكان. في أي وقت.

لم يسبق لي أن فقدتُ السيطرة هكذا بسبب قبلة واحدة. لم أرغب بشخص قط كما أرغبه هو. كان الأمر مثيراً ومرعباً في آن واحد لأنني أعلم أنه، في هذه اللحظة، يملك القوة لتحطيمي.

وكنتُ لأسمح له بذلك.

استسلمتُ بالكامل، ذائبة فيه، جسدي يصبح ليناً ضد جسده وأفقدتُ ذلك الموطئ العقلي الذي يسميه التجذير. ومض ضوء ساطع خلف جفوني المغلقة، تبعه دوي رعد. الرعد الثلجي ليس أمراً نادراً هنا، لكن تباً كم لخص هذا الشعور، جامحاً وخارجاً عن السيطرة.

لكنه بعد ذلك قطع القبلة بشهقة حادة، وتجعدت جبهته بشيء يشبه الذعر قبل أن يغلق عينيه بقوة.

كنتُ لا أزال أكافح لالتقاط نفس كامل حين ابتعد فجأة عن الجدار ووضع كفيه على مؤخرة فخذيّ، واضعاً إياي على قدميّ مجدداً. تأكد من ثباتي ثم تراجع بضعة أقدام، وكأن المسافة ستنقذ حياته.

قال وكلماته مقتضبة تتناقض مع الحرارة في عينيه وأنفاسه اللاهثة:

– «عليكِ الذهاب.»

سألته والبرد يصدم نظامي بدون حرارة جسده:

– «لماذا؟»

مرر كلتا يديه عبر شعره وتركهما فوق رأسه مجيباً:

– «لأنني لا أستطيع. وأرفض التصرف بناءً على رغبة ليست لكِ. لذا عليكِ العودة صعوداً عبر تلك الدرجات. الآن.»

هززتُ رأسي وقلت:

– «لكنني أريد...»

كل شيء.

رفع رأسه نحو السماء وقال:

– «هذه ليست رغبتكِ. هذه هي المشكلة اللعينة. ولا يمكنني تركِكِ هنا في الخارج وحدكِ، لذا ارحميني قليلاً واذهبي.»

تجمّد الصمت بيننا بينما استعدتُ السيطرة على نفسي. إنه يرفض. والجزء الأسوأ في الأمر ليس برودة الرفض النبيل. بل هو أنه محق. لقد بدأ هذا لأنني لم أستطع التمييز بين مشاعر تايرِن ومشاعري. لكن تلك المشاعر قد اختفت، أليس كذلك؟ بابي مفتوح على مصراعيه، ولا أشعر بأي شيء قادم من اتجاه تايرِن.

تمكنتُ من الإيماء، ثم هربتُ للمرة الثانية الليلة، متسلقة الدرجات بأسرع ما يمكن للعودة إلى القلعة. كانت دروعي مفتوحة، لكني لم أكلف نفسي عناء التوقف لإغلاق ذلك الباب العقلي، بما أن تايرِن لا يقتحمه.

تغلب المنطق بحلول الوقت الذي وصلتُ فيه إلى القمة، وفخذاي تحترقان من المجهود. لقد منعنا زايدن من ارتكاب خطأ فادح.

لكنني لم أفعل.

ما خطبي بحق الجحيم؟ وكيف كنتُ على بُعد خفقة قلب من تمزيق ملابسي للاقتراب من شخص لا أستلطفه، والأسوأ من ذلك – لا أستطيع الوثوق به تماماً؟

كان الاستمرار في التحرك باتجاه غرفتي أصعب مما ينبغي حين كان كل ما أريده هو العودة أسفل تلك الدرجات اللعينة الغبية.

الغد سيكون يوماً مريعاً.

«المشهد الأكثر إثارة لقلق أي مدرب هو بلا شك حين تنقلب القوى السحرية على أصحابها. لقد فقدنا تسعة متدربين في عامي الأول بسبب قدرات سحرية فريدة عجزوا عن السيطرة عليها منذ ظهورها الأول. أمر مؤسف.»

– دليل الرائد أفيندرا لقطاع الركاب (النسخة غير المصرح بها)



الفصل الثالث والعشرون

قلتُ لـ ريانون وأنا أجلس متربعة على سريرها، أراقبها وهي تحزم حقيبتها بالكتب تحضيراً لدروس فترة ما بعد الظهيرة:

– «لا أعرف حتى بِمَ كنتُ أفكر.»

الأثر السحري على ظهري يحترق اليوم، وكأنه يحتاج لتذكيري بأنني أصبحت قادرة على توجيه السحر الآن. دورتُ كتفيّ محاولة تخفيف هذا الشعور المزعج، لكن دون جدوى. لقد بدأ العد التنازلي بالنسبة لي.

رفعت ريانون حزام الحقيبة القماشي فوق رأسها واستدارت لتستند بظهرها إلى مكتبها قائلة:

– «لا أصدق أنكِ تمكنتِ من الانتظار كل هذا الوقت لتخبريني.»

ثم أضافت:

– «وهذا ليس حكماً عليكِ. أبعد ما يكون عن ذلك. أنا أؤيد تماماً استكشافكِ لـ... أياً كان ما ترغبين في استكشافه.»

مررتُ يدي على مؤخرة عنقي محاولة التخلص من التشنج العضلي بين كتفيّ وأجبتها:

– «لقد كان ليام معي منذ اللحظة التي خرجتُ فيها من الباب هذا الصباح، والليلة الماضية كنتُ مشوشة جداً لدرجة عجزتُ معها عن صياغة ما حدث في كلمات.»

بين دروس الطيران وتدريبات إيموجين لرفع الأثقال لتقوية العضلات المحيطة بمفاصلي – أملاً في تقليل نوبات خلعها، وهو أمر متأرجح النجاح حالياً – أصبحتُ كتلة من الألم والشد العضلي.

وأردفتُ:

– «بين بدء تايرِن بتوجيه السحر أخيراً وكل شيء آخر، كانت ليلة حافلة بكل معنى الكلمة.»

ارتسمت ابتسامة ماكرة على فمها والتمعت عيناها البنيتان وهي تقول:

– «نقطة وجيهة. هل كان الأمر جيداً؟ أخبريني أنه كان جيداً. ذلك الرجل يبدو وكأنه يعرف تماماً ما يفعله.»

توردت وجنتاي حرارة من الكذبة الفاضحة وأنا أجيب:

– «لقد كانت مجرد قبلة. لكن أجل. إنه يعرف تماماً ما يفعله.»

تجعدت جبهتي بينما كان خيالي يركض عبر ألف عاقبة مختلفة لما فعلته الليلة الماضية، تماماً كما كان يفعل طوال الصباح.

أمالت رأسها تتأملني وسألت:

– «هل تراجعين حساباتكِ؟ تبدين وكأنكِ تفكرين في التراجع للمرة الثالثة حتى.»

هززتُ رأسي نافية:

– «لا. حسناً، ربما؟ ولكن فقط إن كان ذلك سيجعل الأمور غريبة بيننا.»

ارتفع حاجبها وهي تقول:

– «صحيح. لأنكما عالقان معاً لبقية مسيرتيكما المهنية. وحياتيكما أيضاً. هل تحدثتما عما سيحدث بعد تخرجه؟ أراهن أنه سيحصل على حرية اختيار موقع خدمته. قادة الأجنحة يحصلون دائماً على حق الاختيار.»

تذمرتُ وأنا أعبث بخيط شارد في حقيبتي:

– «هو من سيختار. وأنا سأضطر للتبعية. لم يفترق تايرِن وسجايل منذ سنوات. مات راكبها الأخير قبل خمسين عاماً تقريباً، وعلى حد علمي، كانت تطير أينما ومتى شاءت لتكون بالقرب من تايرِن قبل وفاة ناولين – راكبه الأخير – في تايريندور. يستغرق الطيران إلى ذلك الجزء من حدودنا يومين، اعتماداً على مكان تمركزه، فما الذي سنفعله في العام القادم والذي يليه؟»

زمّت شفتيها مفكرة:

– «لست متأكدة. قالت فيرجي إننا لن نتمكن من الافتراق لأكثر من يومين، فهل هذا يعني أن على أحدكما أن يتبع الآخر دائماً؟»

تقلصت ملامحي وأنا أجيب:

– «لا فكرة لدي. أظن أن هذا هو السبب الذي يجعل معظم أزواج التنانين يرتبطون بركاب من نفس السنة، لتجنب هذه المشاكل. كيف يُفترض بي أن أظل قادرة على المنافسة في العام القادم إن كنت أطير باستمرار إلى خطوط المواجهة مع تايرِن؟ وكيف يُفترض أن يكون زايدن فعالاً إن كان عليه الطيران عائداً إلى هنا طوال الوقت؟ إنه أقوى راكب في جيلنا. ستكون هناك حاجة ماسة إليه على الجبهة، وليس هنا.»

حدقت ريانون فيّ بقصد ورفعت حاجبيها قائلة:

– «في الوقت الحالي. إنه أقوى راكب في جيلنا في الوقت الحالي.»

سألتُ مستغربة:

– «ماذا تع...»

قاطعتنا ثلاث طرقات على بابها، فالتفتنا معاً نحوه.

سأل ليام، والذعر جلي في صوته:

– «ريانون؟ هل سورنجيل هناك معكِ؟ لأنني...»

فتحت ريانون الباب، فتعثر ليام للداخل، مستعيداً توازنه قبل أن تمسح نظراته الغرفة وتستقر عليّ.

تنهد بارتياح:

– «ها أنتِ ذا! ذهبتُ إلى الحمام، فاختفيتِ فجأة!»

قلبت ريانون عينيها بضجر وقالت:

– «لا أحد يحاول اغتيالها في غرفتي يا مايري. ليس عليك أن تكون معها في كل ثانية من كل يوم لعين. الآن امنحنا خمس دقائق ثم سنبدأ المشي إلى الحصة.»

دفعته من صدره فتراجع، يفتح فمه ويغلقه وكأنه يحاول التفكير في حجة لكنه عجز عن ذلك، بينما أجبرته على الخروج وأغلقت الباب في وجهه.

تنهدتُ قائلة:

– «إنه... مكرس لعمله.»

تمتمت ريانون:

– «هذه كلمة لطيفة لوصف الأمر. يُخيل للمرء أن هذا الشاب مدين لـ ريورسون بحياته أو شيء من هذا القبيل، من الطريقة التي يلتصق بها بكِ كالغراء.»

لقد أخبرني تقريباً أنه كذلك بالفعل، لكني احتفظتُ بهذا السر لنفسي. بين اجتماعات زايدن، وإيقاف الزمن، وعمر أندارنا، بدأتُ أحتفظ بالكثير من الأسرار.

أضاءت عيناها فجأة وجلست على حافة السرير بجانبي:

– «أوه! حدث شيء معي الليلة الماضية أيضاً.»

التفتُّ لأواجهها باهتمام:

– «حقاً؟ أكملي.»

أخذت نفساً عميقاً وقالت:

– «حسناً. لقد فعلتُ ذلك ثلاث مرات فقط. مرتين الليلة الماضية ومرة هذا الصباح، لذا تحلي بالصبر لثانية.»

أومأتُ برأسي:

– «بالطبع.»

– «راقبي الكتاب على مكتبي.»

– «حسناً.»

ثبتُّ نظري على كتاب التاريخ المدرسي الموجود على الجانب الأيسر من المكتب. مرت دقيقة، لكني لم أشح بنظري.

ثم اختفى الشيء.

قفزتُ على قدميّ والتفتُّ إليها بحدة:

– «ما هذا بحق الجحيم يا ريانون؟ ماذا حدث للتو...»

سقط فكي بذهول.

كانت تحمل الكتاب، وتنظر إليّ بابتسامة عريضة.

ملتُ للأمام لأتأكد وسألت:

– «هل هذا هو نفس الكتاب؟»

أجل، إنه هو.

اتسعت ابتسامتها أكثر وهي تقول:

– «أعتقد أنني أستطيع الاستدعاء.»

أمسكتُ بكتفيها بحماس وصرخت:

– «يا إلهي! هذا مذهل! هذا... لا يُصدق! لا أجد حتى كلمات لوصف ذلك!»

تحريك الأشياء وقفل الأبواب هي من السحر البسيط، الأساس الذي يوفره التوجيه السحري النابع من اتصالنا الدائم بتنانينا عبر آثارنا بمجرد أن تبدأ في توجيه السحر. لكن جعل شيء يختفي وإحضاره إليك؟ لم أقرأ عن قدرة سحرية فريدة كهذه منذ قرن. إنها قدرة خارقة بحق.

ضمت الكتاب إلى صدرها وقالت:

– «أليس كذلك؟ لا أستطيع فعل ذلك إلا من مسافة بضعة أقدام، ولا أستطيع اختراق الجدران أو أي شيء من هذا القبيل.»

صححتُ لها، والفرح يغلي بداخلي:

– «ليس بعد. لا يمكنكِ اختراق الجدران بعد. يا ريانون. هذا هو النوع النادر من القدرات السحرية الفريدة الذي سيصنع مسيرتكِ بأكملها!»

وقفت وأعادت الكتاب إلى مكتبها قائلة:

– «آمل ذلك. أحتاج فقط لتطويرها.»

قلتُ بنفس اليقين الذي أشعر به:

– «ستفعلين.»

مشينا نحن الثلاثة نحو الجناح الأكاديمي بعد دقائق، وانضم إلينا سوير وريدوك وهما يخرجان من القاعة المشتركة، قادمين لتوهم من المكتبة.

قال ليام وهو يسلمني تمثالاً صغيراً بينما نتسلق الدرج الحلزوني العريض نحو الطابق الثالث:

– «لقد أنهيتُ هذا من أجلكِ.»

إنه تايرِن. لقد أتقن حتى تجسيد كشرته المميزة.

– «هذا... لا يُصدق. شكراً لك.»

ابتسم ليام ليظهر غمازته وقال:

– «العفو. أردتُ نحت أندارنا أولاً، لكنني لستُ حولها كثيراً كما تعلمين؟»

انفصلنا عن الحشد المتجه إلى الطابق الرابع، وخبأت التنين في حقيبتي، ثم مددتُ يدي وعانقته:

– «إنها تميل للخصوصية. لكن حقاً، أنا أحبه. شكراً لك.»

كانت الردهة مزدحمة لكنها أخذت تفرغ كلما توغلنا فيها، مقتربين من غرفة الأستاذ كار.

رد ليام، ثم التفت إلى ريانون:

– «على الرحب والسعة. سأبدأ بنحت فيرجي تالياً.»

مازحت ريانون ليام آملة أن يتمكن من تجسيد كامل روعتها، لكني فقدتُ بقية المحادثة حين اختلستُ النظر نحو النافذة الممتدة من الأرض إلى السقف قبل مدخل برج الموجز القتالي، وانقطعت أنفاسي.

كان زايدن يقف مع قادة الأجنحة الآخرين، مندمجاً فيما بدا وكأنه نقاش متوتر، وقد عقد ذراعيه فوق صدره. لم يستغرق الأمر من القائد بانشيك سوى

خمس دقائق لتعيين لاماني زوهار كقائدة للجناح الثالث بعد إعدام آمبر، وبما أنها كانت بالفعل نائبة القائد، فقد كان هذا القرار هو الأكثر منطقية.

لن أعتاد أبداً على السرعة التي يتجاوز بها الناس الأمور هنا، كيف يُكنس الموت بقسوة تحت السجادة ويُداس عليه بعد دقائق.

يا إلهي، زايدن يبدو فاتناً اليوم، وجبهته مجعدة قليلاً وهو يصغي باهتمام لشيء تقوله لاماني، ثم يومئ برأسه. من الصعب تصديق أنني تذوقتُ هذا الفم الليلة الماضية، وأن تلك الذراعين كانتا ملتفتين حولي. وداعاً إذن لأي تفكير في التراجع. أنا فقط أريد المزيد.

وكأنه استشعر نظراتي، رفع زايدن رأسه، لتلتحم نظراته بنظراتي عبر المسافة بتأثير يضاهي اللمس. تسارع نبضي وافترقت شفتاي.

نبهتني ريانون وهي تسترق النظر منوق كتفها:

– «سنتأخر.»

نظر زايدن إلى ما خلفي، وتقلص فمه.

سأل داين، وهو يلهث قليلاً وكأنه كان يركض ليلحق بي:

– «ڤيوليت، هل يمكننا التحدث؟»

انتزعتُ نظراتي من زايدن واستدرت لأواجه الشخص الذي ظننتُ أنه أعز أصدقائي:

– «الآن؟»

امتعض وجه داين، وفرك يده خلف عنقه وأومأ:

– «حاولتُ اللحاق بكِ بعد الطابور، لكنكِ اختفيتِ بسرعة، وبعد ما حدث الليلة الماضية، أظن أن الآن أفضل من لاحقاً.»

أمسكتُ بحزام حقيبتي بإحكام وقلت:

– «قد يكون من المناسب لك أن ترغب في التحدث بعد أسابيع من تجاهلي، لكن لدي حصة الآن.»

كان التوسل في عينيه ثقيلاً لدرجة أنني شعرتُ بوطأته على صدري وهو يرجوني:

– «لدينا بضع دقائق. أرجوكِ.»

نظرتُ إلى ريانون، التي كانت ترمق داين بنظرة تعكس مشاعرها الحقيقية لأول مرة، متخلية عن الاحترام الواجب له كقائد فرقتنا.

قلتُ لها:

– «سألحق بكِ فوراً.»

أومأت لي وتوجهت نحو غرفة كار مع بقية فرقتنا.

تبعتُ داين خارج المدخل، إلى مكان بمحاذاة الجدار حيث لن نعيق حركة المرور.

اندفع قائلاً ويداه تسقطان إلى جانبيه:

– «لقد سمحتِ لـ تايرِن بمشاركة ذكرياتكِ مع الجميع بدلاً من أن تريها لي بنفسكِ.»

عما يتحدث بحق الجحيم؟

– «عفواً؟»

نقل وزنه من قدم لأخرى، وهي إحدى حركاته العصبية المعتادة، فبدد ذلك جزءاً من غضبي. عندما تتأزم الأمور، هو يظل أقدم أصدقائي، حتى وإن كان يتصرف كالأحمق:

– «حين حدث كل ذلك الهراء مع آمبر، طلبتُ منكِ أن تريني ما حدث، وأنتِ رفضتِ.»

رفع يده فوق قلبه وأضاف بنبرة يكسوها الألم:

– «لم أصدقكِ، وأنا أتحمل مسؤولية ذلك الجزء. كان يجب أن أصدقكِ، لكنني لم أستطع التوفيق بين المرأة التي أعرفها وبين ما كنتِ تقولينه، وأنتِ لم تأتِ للبحث عني بعد الهجوم أيضاً. اضطررتُ لسماع الأمر في الطابور يا ڤيوليت. بغض النظر عن الشجار الذي خضناه في حقل الطيران، أنتِ تظلين... أنتِ بالنسبة لي. وأعز أصدقائي تعرضت لهجوم شرس، وكادت تُقتل، وأنتِ لم تنطقي بكلمة واحدة عن الأمر.»

أجبته بهدوء، باذلة قصارى جهدي للحفاظ على ثبات صوتي:

– «أنت لم تسأل. لقد مددتَ يدك إلى رأسي وكأن لك الحق في ذكرياتي بعد أن أخبرتني بوقاحة أنك لا تصدقني، وطالبتني بأن أريك.»

ظهر خطان بين حاجبيه وهو يتساءل:

– «أنا لم أسأل؟»

هززتُ رأسي وأكدتُ:

– «أنت لم تسأل. وبعد أن قيل لي مرات لا تحصى إنني لستُ قاسية بما يكفي لهذا المكان، لستُ قوية بما يكفي... حسناً، ما حدث في حقل الطيران كان نتيجة لتراكمات طويلة بيننا. الجزء الأسوأ هو أنني كنتُ أعلم أنك لن تصدقني. ولهذا السبب كدتُ ألا أخبر زايدن بهويتها، لأنني كنتُ متأكدة أنه لن يصدقني هو الآخر.»

انخفض صوت داين، وتقلص فكه:

– «لكنه صدقكِ. وهو من قتلهم في غرفة نومكِ.»

عقدتُ ذراعيّ فوق صدري وقلت:

– «لأن تايرِن أخبر سجايل. ليس لأنه كان هناك بالفعل أو ما شابه. وأنا أعلم أنك تكرهه...»

ذكرني، ومَدّ يده نحوي قبل أن يتراجع ويسحبها:

– «لديكِ كل الأسباب لتكرهيه أيضاً.»

رددتُ عليه:

– «أعلم ذلك. والده غرز سهماً في صدر بريانان، وفقاً لتقارير المعركة. أعيش مع هذه الحقيقة كل يوم. لكن ألا تعتقد أنه يراني ويتذكر أن أمي هي من أعدمت والده؟ الأمر...»

كان من الصعب العثور على الكلمات المناسبة.

– «الأمر معقد بيننا.»

تدفقت صور الليلة الماضية إلى ذهني، من أول ابتسامة لزايدن إلى آخر لمسة من شفتيه، فدفعتها بعيداً.

جفل داين وقال، ولم تكن كلماته اتهاماً، لكنها لسعتني بالقدر ذاته:

– «أنتِ تثقين به أكثر مما تثقين بي.»

اعترضتُ، لكن معدتي التوت. مهلاً. هل هذا صحيح؟

– «الأمر ليس هكذا. أنا فقط... يجب أن أثق به يا داين. ليس في كل شيء بالطبع.»

تباً، أنا أعقد الأمور على نفسي هنا.

– «لا يمكن لأي منا فعل أي شيء حيال تزاوج سجايل وتايرِن، وصدقني، لا أحد منا يعجبه هذا الوضع، لكن علينا إيجاد طريقة للتعامل معه. ليس لدينا خيار آخر.»

تمتم داين بلعنة، لكنه لم يعارضني.

همستُ:

– «أعلم أنك تريد إبقائي آمنة فقط يا داين. لكن إبقائي آمنة يمنعني من التطور أيضاً.»

رمش بعينيه، وتغير شيء ما بيننا. وكأنه، لربما فقط، مستعد أخيراً للاستماع إليّ.

– «حين أخبرتني أن هذا المكان يجردك من كل شيء ليكشف عما بداخلك، كنتُ خائفة. ماذا لو كان ما يكمن تحت العظام الهشة والأربطة الضعيفة هو مجرد المزيد من الضعف؟ فقط في هذه المرة، لن أتمكن من إلقاء اللوم على جسدي.»

بدأ داين مطمئناً:

– «أنتِ لم تكوني يوماً ضعيفة في نظري يا ڤيوليت...»

قاطعته وأنا أهز رأسي:

– «ألا تفهم؟ لا يهم ما تعتقده أنت – بل يهم ما أعتقده أنا. ولقد كنتَ محقاً. لكن قطاع الركاب جردني من الخوف وحتى الغضب من الإلقاء بي في هذا القطاع، وكشف عن هويتي الحقيقية. في جوهري يا داين، أنا راكبة تنانين. تايرِن كان يعلم ذلك. أندارنا كانت تعلم ذلك. لهذا السبب اختاراني. وما لم تتوقف عن البحث عن طرق لإبقائي في قفص زجاجي، فلن نتمكن من تجاوز هذا، بغض النظر عن سنوات الصداقة التي تجمعنا.»

نظر منوق كتفي وسأل بمرارة:

– «وماذا بعد؟ يحصل ريورسون على تصريح مجاني لمشاكل السيطرة لديه؟ لأن آخر مرة تحققتُ فيها، تم نقل ليام إلى فرقتنا خصيصاً ليرافقكِ كظلكِ.»

نقطة ممتازة حقاً.

أجبته:

– «ليام متواجد لأن حتى أقوى الركاب لا يستطيع حماية ظهره من أكثر من ثلاثين متدرباً غير مرتبط يتربصون به. وإن متُّ أنا، يموت زايدن. فما هو عذرك أنت؟»

تصلب داين كتمثال، ولم يتحرك سوى العصب في فكه قبل أن يميل للأمام ويهمس:

– «اسمعي، أنتِ لا تعرفين كل شيء عن زايدن يا ڤيوليت. لدي تصريح أمني أعلى بسبب قدرتي السحرية الفريدة، وتحتاجين إلى توخي الحذر. زايدن يملك أسراراً، وأسباباً تمنعه من مسامحة والدتكِ أبداً، ولا أريده أن يستخدمكِ لتحقيق انتقامه.»

ارتفعت دفاعاتي. هناك وميض من الحقيقة فيما يقوله، لكنني لا أملك الوقت للتركيز على الارتباك الذي يمثله زايدن الآن. سأعالج كل علاقة معقدة على حدة.

ضيقتُ عينيّ بينما بدل داين وقفته مجدداً، ونمت بذرة شك في صدري:

– «مهلاً، هل كنت تتوسلني باستمرار لمغادرة باسجياث لأنك لم تعتقد أنني أستطيع النجاة هنا – أم لأنك كنت تحاول إبعادي عن زايدن؟»

هززتُ رأسي قبل أن يتمكن من الإجابة:

– «أتعلم ماذا؟ هذا غير ذي صلة.»

وكنتُ أعني ذلك حقاً.

– «أنت تريد إبقائي آمنة فقط. أنا أقدر ذلك. لكن الأمر يتوقف الآن يا داين. زايدن مقيد بي بسبب سجايل. لا أكثر. أنا لا أحتاج إلى حماية، وإن احتجتُ – فلدي تنينان جباران يحميان ظهري. هل يمكنك احترام ذلك؟»

مَدّ يده ليحتضن خدي، فبادلته النظرة، مصممة على أن يفهم أنه إما أن يبدأ بتقدير خياراتي، أو أننا لن نصلح صداقتنا أبداً.

– «حسناً يا ڤيوليت.»

تجعدت زاويتا عينيه وهو يبتسم نصف ابتسامة.

– «كيف لي أن أجادل شخصاً يملك تنينين جبارين؟»

انزاح ثقل عن صدري، وفجأة استطعتُ التنفس مجدداً. رمقته بابتسامة وقحة:

– «بالضبط.»

أنزل يده ليربت على كتفي وقال:

– «أنا آسف لأنني لم أطلب الإذن لرؤية الذكرى. من الأفضل أن تذهبي إلى الحصة.»

ثم عصر كتفي بلطف قبل أن يمشي مبتعداً.

أطلقتُ نفساً مرتجفاً واستدرتُ عائدة إلى باب غرفة كار. كانت الردهة خالية.

دخلتُ غرفة كار، وهي قاعة طويلة وواسعة بجدران مبطنة وبلا نوافذ. كان طولها بالكامل مضاءً بثريات من الأضواء السحرية ساطعة بما يكفي لمحاكاة ضوء النهار فوق أكثر من ثلاثة دزينات من الطلاب من الجناحين الثالث والرابع، الذين جلسوا في صفوف على الأرض، بمسافات متساوية ليمنحوا بعضهم البعض أكبر مساحة ممكنة.

التقيتُ بـ ريانون وليام عند الباب، ورفع الأستاذ كار حاجبيه الأبيضين الكثيفين حين اقتربنا من مكانه في مقدمة الغرفة، حيث كان يهيمن على المكان بمجرد وقوفه هناك. هذا الرجل ليس مهيباً فحسب، بل هو مرعب بحق الجحيم.

ابتلعتُ ريقي، متذكرة كيف كسر عنق جيريميا.

سأل، ولم يكن في عينيه سوى مراقبة سريرية دقيقة خالية من أي لطف:

– «هل أنتِ مستعدة أخيراً للانضمام إلينا أيتها المتدربة سورنجيل؟»

أومأتُ برأسي:

– «نعم يا سيدي.»

تأملني وكأنني حشرة مثبتة على حائط في غرفة أحياء وسأل:

– «قدرة سحرية فريدة؟»

هززتُ رأسي نافية، محتفظة بأمر إيقاف الزمن لنفسي كما اقترح زايدن:

– «ليس بعد.»

أنتِ تثقين به أكثر مما تثقين بي. في هذا الصدد، داين محق، وهوى قلبي من الشعور بالذنب.

طقطق بلسانه، ورمقني بنظرة سريعة وقال:

– «أرى ذلك. تعلمين أن شقيقيكِ قد حُبيا بقدرات سحرية فريدة استثنائية. قدرة ميرا على إظهار تعويذة وقائية حولها وحول فرقتها كانت رصيداً مطلقاً لجناحها، وقد قُلدت أوسمة رفيعة لشجاعتها خلف خطوط العدو.»

رسمتُ ابتسامة متكلفة، مدركة تماماً لبراعة أختي في ساحة المعركة:

– «أجل. ميرا تمثل مصدر إلهام.»

أشاح بنظره وأكمل:

– «وبرينان... المعالجون نادرون للغاية، وفقدان أحدهم في هذه السن المبكرة كان مأساة.»

رفعتُ حقيبتي أعلى على كتفي وقلت:

– «أعتقد أن فقدان برينان بحد ذاته هو المأساة. لكن فقدان قدرته السحرية كان ضربة قاضية للأجنحة بلا شك.»

رمش مرتين وأعاد نظراته الباردة إليّ:

– «همم. حسناً، يبدو أن سلالة سورنجيل مباركة، حتى في راكبة... حسناً، هشة مثلكِ. وبما أن تايرِن قد اختاركِ، فلن نتوقع منكِ سوى قدرة سحرية فريدة تزلزل الأرض. تفضلي بالجلوس. يمكنكِ على الأقل البدء بالسحر البسيط عبر أثركِ.»

أشار لي بيده بلامبالاة.

تمتمتُ وأنا أمشي نحو أماكن شاغرة بوضوح في الصف مع بقية فرقتنا:

– «لا ضغوط إطلاقاً.»

قالت ريانون بينما جلسنا على الأرضية المبطنة:

– «لا تضغطي على نفسكِ. هذا ما كنتُ أحاول تذكيركِ به سابقاً. أنتِ راكبة تايرِن.»

وضعتُ حقيبتي بجانبي وسألت:

– «ماذا تقصدين؟»

أجابتني وهي تبادلني نظرة أطول من المعتاد لتؤكد لي أنها تعني كل كلمة:

– «أنتِ قلقة للغاية بشأن نزاهة الجناح لأن ريورسون قد يُضطر لزيارته لإبقاء تنينه سعيداً، لكن يا ڤيوليت، هو ليس أقوى راكب في جيلنا. أنتِ كذلك.»

قفز قلبي إلى حلقي.

صاح كار:

– «والآن لنبدأ!»

طوى ديسمبر أوراقه ليحل يناير.

تَجَذّري. ارفعي درعكِ. تخيلي إغلاق بابكِ. ابني جداركِ. استشعري من وما يملك صلاحية الوصول إلى محيطكِ. تتبعي الرابط نحو تنينكِ. تنانيني في حالتي. ابني مدخلاً ثانياً – نافذة – إلى أرشيف قوتي من أجل طاقة أندارنا الذهبية. احجبي تلك الروابط قدر الإمكان. تصوري.

تخيلي عقدة من القوة – ليست معقدة جداً؛ لا أحد مستعد لذلك بعد – أمامكِ، ثم فكيها. افتحي الباب. تصوري.

ابقِ قدماً واحدة مجذرة بقوة في جميع الأوقات. أنتِ عديمة النفع ما لم تكوني متصلة بقوتكِ، وأنتِ خطرة إن لم تتمكني من احتوائها. المنطقة الوسطى فقط هي ما يصنع منكِ راكبة عظيمة.

تصوري قوتكِ كيد، تقبض على قلم الرصاص وتجلبه نحوكِ. التقطيه. لا. ليس هكذا. حاولي مجدداً. لا، مرة أخرى.

تصوري.

أدرس من أجل الاختبارات. أستعد لطلعات الطيران. أرفع الأثقال مع إيموجين. أتساءل إلى متى سيجبرني زايدن على قضاء ساعات على البساط مع ريانون. فزتُ بأول تحدٍ لي، وكسبت خنجراً من فتاة في الجناح الثاني. لكن المهمة الأكثر إرهاقاً هي قضاء ساعات لا تنتهي في أرشيف عقلي، لأتعلم أي الأبواب يخص تايرِن وأيها يعود لأندارنا، ثم أعمل بدأب لفصل الاثنين.

تبين أنه رغم أن قوتي قد تتدفق من تنانيني، إلا أن القدرة على السيطرة عليها تنبع من مجهودي الشخصي، وهناك ليالٍ أسقط فيها على سريري، غارقة في النوم قبل أن أتمكن حتى من خلع حذائي العسكري.

بحلول نهاية الأسبوع الثاني من يناير، لم أكن غاضبة فقط لأن زايدن لم يكلف نفسه عناء التحدث معي عن تلك القبلة، بل كنتُ مرهقة تماماً، وهذا حتى قبل أن تظهر قدرة سحرية فريدة تستنزف طاقتي للسيطرة عليها.

ريدوك يستطيع توجيه الجليد، وهي قدرة قد تبدو شائعة، لكن رؤيتها مبهرة.

قوى سوير في التحكم بالمعادن تتطور يوماً بعد يوم.

ليام يستطيع رؤية شجرة منفردة على بعد أميال.

وأنا أخمّن أنني أستطيع إيقاف الزمن، لكنني لست مستعدة لاستنزاف أندارنا لمجرد المحاولة مجدداً، ليس بعد أن استغرقها الأمر أكثر من أسبوع من النوم المتواصل للتعافي. وبدون قدرة سحرية فريدة، كل ما يمكنني توجيهه هو السحر البسيط. أتمكن أخيراً من استخدام قلم حبر سحري، قفل باب، وفتحه. أنا مجرد خدعة سحرية لحفلة.

بحلول الأسبوع الثالث من يناير، كسبت خنجراً آخر في تحدٍ ضد شاب في الجناح الثالث، وهو فوزي الثاني دون إضعاف خصمي بالسموم. تركني ذلك بمعصم مؤلم، لكن مفاصلي ظلت سليمة.

وفي الأسبوع الرابع، خلال أقسى طقس بارد شهدته في باسجيات، تسللتُ في منتصف الليل لأتفقد لوحة التحديات.

لقد مُنح جاك أخيراً الفرصة للقضاء عليّ على البساط غداً.

«سيقتلني.» هذا هو كل ما استطعت التفكير فيه وأنا أرتدي ملابسي في الصباح، غامدة كل خناجري في الأماكن الأكثر استراتيجية.

علق تايرِن، وكان مستيقظاً في وقت مبكر:

– 'سيحاول.'

سألته وأنا أعلم أن ليام ينتظرنا للقيام بمهمة المكتبة قبل الإفطار:

– 'أي نصائح؟'

أجابني:

– 'لا تدعيه يفعل ذلك.'

سخرتُ في نفسي. إنه يجعل الأمر يبدو في غاية البساطة.

كنا في طريق عودتنا من المكتبة حين استجمعتُ أخيراً الشجاعة للتحدث إلى ليام عن الأمر.

– «إذا أخبرتك بشيء، هل ستبلغ زايدن به؟»

التفت نحوي بحدة وهو يدفع العربة فوق الجسر الفاصل بين القطاعات وسأل:

– «ما الذي يجعلكِ تظنين...»

قلبتُ عينيّ بضجر وقلت:

– «أوه، بحقك. كلانا يعلم أنك تبلغ عن كل ما أفعله تقريباً. أنا لستُ حمقاء.»

كانت الثلوج تضرب النوافذ، محدثة صوتاً مكتوماً يشبه الرنين.

نظر إليّ مجدداً قبل أن يوجه بصره للأمام وقال:

– «إنه يقلق. وأنا أخفف من قلقه. أعلم أن هذا ليس عدلاً. أعلم أنه انتهاك لخصوصيتكِ. لكنه لا يُقارن بما أدين له به.»

أسرعتُ خطاي لأفتح الباب السميك الثقيل المؤدي إلى القلعة ليتمكن من العبور وقلت:

– «أجل. لقد فهمتُ هذا الجزء. ربما يجب أن أصيغ سؤالي بطريقة أخرى. لو أخبرتك بشيء وطلبتُ منك تحديداً إبقاء هذا الأمر بيننا فقط، هل ستوافق؟ هل نحن أصدقاء، أم أنني مجرد مهمة بالنسبة لك؟»

توقف بينما أغلقتُ الباب، وأدركتُ أنه يفكر من خلال الطريقة التي نقر بها بأصابعه على مقبض العربة.

سألني:

– «هل إبقائي الأمر سراً سيؤثر على سلامتكِ بأي شكل من الأشكال؟»

لحقتُ به وبدأنا السير على المنحدر الذي سيتفرع لاحقاً إلى نفقين – أحدهما نحو المهاجع والآخر نحو القاعة المشتركة – وأجبته:

– «لا. لا يوجد شيء يمكنك فعله، وهذا هو بيت القصيد.»

امتعض وجهه وقال:

– «نحن أصدقاء. أخبريني. سأحتفظ بالأمر لنفسي.»

– «جاك بارلو سيُسمح له بتحديي اليوم.»

توقف عن المشي، فتوقفتُ أنا أيضاً.

– «كيف عرفتِ ذلك؟»

انكمشتُ خجلاً وأجبته:

– «ولهذا السبب أطلب منك الاحتفاظ بالأمر لنفسك. فقط... حاول أن تثق بأنني أعرف.»

هز رأسه، وزحف الذعر إلى عينيه:

– «لن يسمح المدربون بحدوث ذلك.»

هززتُ كتفي، ورسمتُ ابتسامة متوترة:

– «بل سيسمحون. لقد كان يطلب ذلك منذ اليوم الأول، لذا ليس وكأننا لم نتوقع هذا. المهم هو أن جاك سيتحداني اليوم، وحين يفعل، لا يمكنك التدخل، مهما حدث.»

اتسعت عيناه الزرقاوان:

- «يا ڤيوليت، لو أخبرنا ريورسون، يمكنه إيقاف الأمر.»

أمسكتُ بيده ووضعتُ يدي فوقها:

- «لا. لا يمكنه.»

التوت معدتي، لكني على الأقل لم أتقيأ كما فعلت حين اكتشفت الأمر.

- «هناك حدود لما يمكن لـ زايدن فعله لحمايتي هنا وحين نكون على خطوط المواجهة. وأنت وأنا نعلم أنه إن أوقف هذا التحدي، فستندلع ضجة هائلة في القطاع بعد ما حدث لـ آمبر.»

سألني بذهول غير مصدق:

- «وأنتِ تتوقعين مني أن أقف هناك وأشاهد أياً كان ما سيحدث... يحدث؟»

رسمتُ ابتسامة أخرى مجبرة وقلت:

- «تماماً كما فعلت في التحديين الأخيرين. لا تقلق. سأستخدم كل ما أملك لصالحي.»

وكل ما أملك يقبع حالياً في قارورة صغيرة مدسوسة في الجيب الصغير عند خصري.

هز رأسه رافضاً:

- «هذا لا يعجبني.»

- «أجل، حسناً، نحن اثنان إذن.»

لا يوجد تدريب في حقل الطيران اليوم - فقد قررت التنانين أن الجو أبرد من أن يسمح بالطيران طوال الأسبوع الماضي، مما يعني أننا جميعاً سنتوجه إلى حلبة النزال بعد الطابور. لم أكلف نفسي عناء تناول الإفطار، لكني راقبتُ كل عنصر

على صينية جاك بانتباه شديد وأنا أمر بجانبه، مسجلة ما هو موجود... وما ليس كذلك.

كان قلبي يقرع بإيقاع فوضوي ومثير للغثيان بحلول الوقت الذي اجتمع فيه جميع طلاب السنة الأولى الواحد والثمانين الناجين في الحلبة.

نادى البروفيسور إيميتيريو على التحديات واحداً تلو الآخر، معيناً لكل منها بساطاً. على الأقل سنقاتل جميعاً في نفس الوقت، مما يعني أن الركاب لن يكونوا جميعهم يراقبونني.

وعلى الأقل، زايدن ليس هنا، مما يعني أن ليام قد أوفى بوعده.

نادى إيميتيريو، وارتفع حاجباه وهو يأخذ نفساً عميقاً:

– «البساط رقم سبعة عشر، جاك بارلو من الجناح الأول ضد... ڤيوليت سورنجيل.»

الحمد للآلهة أن ريانون كانت بالفعل في الجانب الآخر من الحلبة، مستعدة لتحدي فتاة من الجناح الثالث، لذا لم تضطر لرؤية كيف هربت الدماء من وجه ليام. لم يكن ينبغي لها أن ترى أياً من هذا. وسوير أيضاً كان بعيداً، عند البساط رقم تسعة.

تمتم ريدوك وهو يهز رأسه:

– «هذا مستحيل بحق الجحيم.»

رفع جاك يديه في الهواء وكأنه انتصر بالفعل وصرخ:

– «أخيراً!»

دورتُ كتفيّ وتوجهتُ نحو البساط قائلة:

– «لنفعلها.»

لم يُستدعَ ليام أو ريدوك إلى البساط اليوم، لذا مشيا بجانبي.

توسلني ليام، وكانت النظرة الراجية في عينيه تخبرني بمدى سوء الموقف الذي وضعته فيه:

– «أخبريني أنه يمكنني نكث الوعد.»

أجبته حين لامست أصابع قدمي البساط:

– «طلاب السنة الثالثة مشغولون بأمور تخصهم. لا يمكنك إحضاره إلى هنا في الوقت المناسب، لكني أعرف ماذا يعني لك أن تفي بوعدك. خاصة معه. امضِ قدماً.»

تنقل بنظره بيني وبين ريدوك وقال:

– «احرسها وكأنك أنا.»

أعطاه ريدوك إشارة الإبهام لأعلى مجيباً:

– «تقصد وكأنني أطول بست إنشات ومبني كالثور؟ بالتأكيد. سأبذل قصارى جهدي. في غضون ذلك، من الأفضل أن تركض.»

التقت نظرات ليام بنظراتي وأمرني:

– «ابقِ على قيد الحياة.»

ابتسمتُ له وطمأنته:

– «أعمل على ذلك، وليس فقط من أجلي. شكراً لكونك ظلاً رائعاً.»

اتسعت عيناه لجزء من الثانية قبل أن ينطلق راكضاً خارج الحلبة.

نادى إيميتيريو من الجانب الآخر للبساط:

– «بارلو وسورنجيل. أسلحة؟»

قفز جاك كطفل تلقى للتو هدية وأجاب:

– «أي شيء يمكنها الإمساك به بتلك اليدين الضعيفتين.»

أرسلت النظرة في عينيه قشعريرة توجس أسفل عمودي الفقري.

صعدتُ إلى البساط، وفعل جاك الشيء ذاته، متقدمين حتى وقفنا في المنتصف، نواجه بعضنا البعض.

ذكرنا إيميتيريو:

– «يُمنع توجيه السحر. الاستسلام أو الضربة القاضية يمنحان الفوز.»

أنا شبه متأكدة أن كل من تجمع حول هذا البساط يعلم أن جاك لا يسعى لأي من هذين الخيارين. لو تمكن من إحكام يديه حول عنقي، فأنا في عداد الموتى.

سألتُ تايرِن وأنا أسحب الخناجر الأصعب في الوصول إليها أثناء القتال، تلك المخبأة في حذائي:

– 'مسألة أموت فيموت زايدن هذه مجرد فرضية حقاً، أليس كذلك؟'

زمجر تايرِن:

– 'فرضية أفضل ألا نضعها قيد الاختبار.'

نهضتُ، ممسكة بمقابض خناجري، بينما واجهني جاك بسكين واحد وسألته:

– «أنت تمزح، أليس كذلك؟ واحد فقط؟»

ابتسم بإثارة مقززة وأجاب:

– «أحتاج لواحد فقط.»

اقترح تايرِن:

– 'استهدفي حنجرته.'

رددتُ عليه:

– 'ليس لدي الطاقة لعزلك الآن، لذا سأحتاج منك أن تبقى هادئاً لبضع دقائق هنا.'

لم أتلقَّ سوى زمجرة كإجابة.

حذرنا إيميتيريو:

– «ليكن قتالاً نظيفاً. انطلقا.»

كان قلبي يقرع بصوت عالٍ لدرجة أنني استطعتُ سماعه في أذنيّ بينما بدأنا ندور حول بعضنا البعض.

نبح تايرِن في عقلي:

– 'هجوم. الآن. اضربي أولاً.'

– 'أنت لا تساعدني!'

اندفع جاك للأمام، مسدداً ضربة بسكينه، فمررتُ خنجري عبر ظهر يده، لأسفك دمه أولاً.

قفز للخلف، واصطبغت وجنتاه ببقع حمراء غاضبة وهو يسب:

– «تباً!»

هذا ما أريده، ما أحتاجه للفوز بهذا النزال، أن يغضب لدرجة يتصرف فيها دون تفكير ويرتكب خطأً.

رقص للأمام ثم ركل مستهدفاً منتصف جسدي، فتعثرتُ للخلف، متفادية الضربة بصعوبة.

سخر مني، لعلمه أنني لن أكسر قاعدة قد تؤذي أحداً في النزالات الدائرة حولنا:

– «أراهن أنكِ تتمنين لو كان بإمكانكِ رمي ذلك النصل، أليس كذلك؟»

رددتُ عليه:

– «أراهن أنك تتمنى لو لم تكن تعرف شعور اقتلاع أحد سكاكيني من لحمك، أليس كذلك؟»

انضغطت شفتاه في خط رفيع قبل أن ينقض عليّ بسلسلة من اللكمات والضربات بسكينه. لم أستطع صدها – فهو أقوى مني بكثير، كما ثبت حين ركل الخنجر من يدي بسهولة – لذا استخدمتُ سرعتي، منخفضة ومراوغة بينما تمكنتُ من تسديد جرح آخر، هذه المرة على طول ساعده.

صرخ بغضب، ملتفاً ليتابعني وأنا ألتف حول ظهره:

– «اللعنة!»

باغتني، مقفلاً قبضته على ذراعي وقلبني من فوق ظهره لأصطدم بالبساط.

تلقيتُ الضربة على كتفي وتأوهتُ، لكن لم يصدر أي صوت تمزق أو طقطقة. شكر إيموجين سيكون أولويتي الأولى إن نجوتُ من هذا.

أبقى ذراعي مقفلة، وطعن بسكينه مباشرة نحو صدري، لكن سترتي صدته، لينزلق على طول أضلاعي ويستقر في البساط.

صرخ ريدوك:

– «إنه يستخدم ضربات قاتلة! هذا غير مسموح!»

زأر إيميتيريو:

– «تراجع يا بارلو!»

همس جاك في أذني، مثبتاً إياي وذراعي خلف ظهري:

– «ما رأيك يا سورنجيل؟ اعترفي. أنتِ وأنا كنا نعلم أن الأمور ستنتهي هكذا بيننا. بسرعة. وبسهولة محرجة. وبشكل قاتل. قائد جناحكِ الثمين ليس هنا لإنقاذكِ.»

لا، لكن زايدن سيعاني... إن لم يكن أسوأ، إن حقق جاك هدفه. هذا التفكير دفعني للعمل. متجاهلة الألم، ألقيتُ بوزني في تدحرجة، مما أدى إلى خلع كتفي جزئياً لكنني حررتُ نفسي من قبضته حين تشابكت ساقاه مع ساقيّ.

ثم ركلته مباشرة في خصيتيه.

سقط على ركبتيه بينما نهضتُ على قدميّ، واضعاً يديه على بين فخذيه بينما فتح فمه في صرخة صامتة.

أمرته وأنا ألتقط الخنجر الذي أسقطتُه:

– «استسلم. يمكنني تمزيقك في أي ثانية. أنت وأنا نعلم أنه لو كان هذا قتالاً حقيقياً، لكنت في عداد الأموات الآن.»

فحّ من بين أسنانه المطبقة:

– «لو كان هذا قتالاً حقيقياً، لكنتُ قتلتكِ في الثانية التي خطوتِ فيها على البساط.»

– «استسلم.»

صرخ وهو يرمي سكينه:

– «اذهبي للجحيم!»

رفعتُ يديّ لأصد السكين، لكنه انغرز في ساعدي الأيسر اللعين.

تدفقت الدماء واحترقت الأعصاب على طول ذراعي بألم مبرح، انفجر بحدة مقلقة، لكني كنتُ أعلم أنه من الأفضل ألا أزيله. في الوقت الحالي، السكين يغلق الجرح قدر الإمكان.

صرخ إيميتيريو من الخطوط الجانبية:

– «يُمنع رمي الأسلحة!»

لكن جاك كان يتحرك بالفعل، منقضاً نحوي بسلسلة من الركلات واللكمات التي لم أكن مستعدة لها. اصطدمت قبضته بخدي، وشعرتُ بالجلد يتمزق.

أجبرت ركبته الهواء على الخروج من جسدي حين صدم بها معدتي. لكني بقيتُ على قدميّ حتى أطبقت يداه على وجهي.

ملأ العذاب كل خلية في جسدي بينما مزقتني طاقة عنيفة ومهتزة بكثافة جعلتني أشعر وكأنه يفصل الأربطة عن العظام، والعضلات عن الأوتار.

صرختُ وأنا أُهز بقوة داخلية لم أفهمها، وكأنه يجبر قوته الخاصة على الدخول إلى جسدي، صاعقاً إياي بألف لسعة من الطاقة المهتزة.

الآن. إن لم أفعلها الآن، سيقتلني. كانت الرؤية بدأت بالفعل تظلم عند حواف عينيّ.

أدخلتُ يداً مرتجفة في جيب سترتي الجلدية وفتحتُ سدادة القارورة بإبهامي.

لم أتمكن من رؤية سوى ابتسامته السادية وحافة حمراء حول عينيه وهو يدفع المزيد والمزيد من القوة إلى جسدي، لكن يديه كانتا مشغولتين وكان مهووساً جداً بانتصاره لدرجة أنه لم يلاحظ أنني توقفتُ عن الصراخ، ولم يرَ أنني أتحرك.

زأر ريدوك، ومن زاوية رؤيتي المتضائلة، رأيتُ حركة على كلا الجانبين:

– «إنه يستخدم قواه السحرية!»

دفعتُ القارورة ضد ابتسامة جاك بقوة لدرجة أنني شعرتُ بأحد أسنانه ينكسر.

امتدت أيدٍ نحونا كلانا، وسمعتُ ريدوك وإيميتيريو يصرخان، ويسحبان أيديهما بعيداً بعد ملامستنا. أياً كان ما يفعله جاك، فهو ينتقل مني إليهما عبر اللمس.

اصطكت أسناني مع بعضها بينما استهلكني الألم، وكان جسدي يقاتل ليفقد الوعي، للهروب من التعذيب الذي لا يُحتمل، لكنني رفضتُ الاستسلام للظلام حتى أطلق جاك حشرجة.

اتسعت عيناه بشكل مستحيل، وأسقط يديه ليقبض على عنقه بينما انغلق مجرى تنفسه.

خانتني ركبتاي، ولا يزال جسدي يرتجف حين سقطتُ على البساط، وكذلك فعل جاك، يلهث ويخدش عنقه بينما تحول وجهه إلى اللون البنفسجي.

كان وجه ريدوك أمام وجهي في غضون ثوانٍ.

- «تتنفسي يا سورنجيل. فقط تنفسي.»

سأل أحدهم بينما كان جاك يتلوى:

- «ما خطبه بحق الجحيم؟»

همستُ لريدوك بينما استسلم جسدي أخيراً للظلام:

- «برتقال. لديه حساسية من البرتقال.»

وسقطتُ في العدم.

حين استيقظتُ، لم أكن على البساط، وأدركتُ من نوافذ مستوصف قطاع المعالجين أن الليل قد هبط. لقد كنتُ فاقدة للوعي لساعات.

ولم يكن ريدوك هو من يسترخي في الكرسي بجوار سريري، يرمقني بنظرة غاضبة وكأنه يود قتلي بنفسه.

كان زايدن. كان شعره أشعث، وكأنه كان يعبث به، وكان يقلب خنجراً في الهواء، ليلتقطه من نصله دون أن ينظر إليه حتى، قبل أن يغمده في جانبه.

سألني:

- «برتقال؟»

«أعلم أنكِ لا ترغبين في سماع هذا يا ميرا، لكن أحياناً يجب أن تدركي متى تتلقين الضربة القاضية بنفسكِ. لهذا السبب يجب أن تتأكدي من التحاق ڤيوليت بقطاع النساخين. إنها لن تكون قادرة أبداً على سلب روح أحد.»

– الصفحة السبعون، كتاب برينان



الفصل الرابع والعشرون

حاولتُ الانزلاق لأعلى السرير لأتمكن من الجلوس، لكن الألم في ذراعي ذكرني بأن خنجراً كان مغروزاً فيها قبل بضع ساعات. وهي الآن مضمدة بعناية. سألته:

– «كم غرزة؟»

رفع حاجباً داكناً ومال للأمام، مسنداً مرفقيه على ركبتيه وهو يجيب:

– «إحدى عشرة على جانب، وتسع عشرة على الجانب الآخر. هل حولتِ البرتقال إلى سلاح يا ڤيولينس؟»

تلويتُ حتى استقريتُ في وضعية الجلوس وهززتُ كتفي:

– «لقد استخدمتُ ما كان متاحاً أمامي.»

قال، والغيظ يشتعل في نظراته رغم مسحة الارتياح الواضحة:

– «بما أن ذلك أبقاكِ على قيد الحياة – وأبقانا معاً على قيد الحياة – فلا يسعني حقاً أن أجادلكِ، ولن أسألكِ كيف تعرفين دائماً من ستواجهين في

التحديات. إخبارِكِ لـ ريدوك سمح لـ إيميتيريو بإحضاره إلى هنا في الوقت المناسب. لسوء الحظ، إنه يرقد على بعد خمسة أسرة منكِ، وسيعيش، على عكس طالب السنة الثانية في الصف المجاور. كان بإمكانكِ قتله وتوفير الكثير من الدراما علينا جميعاً.»

دورتُ كتفي لأختبر حركته، كان مؤلماً لكنه لم يكن مخلوعاً. وجهي كان يؤلمني أيضاً.

أجبته:

– «لم أكن أريد قتله. أردتُ فقط أن يتوقف عن محاولة قتلي.»

زمجر، والاتهام يمزق شفتيه:

– «كان يجب أن تخبريني.»

ضيقتُ عينيّ نحوه وقلت:

– «وما الذي كان بإمكانك فعله حيال ذلك سوى جعلي أبدو ضعيفة؟ وأنت لم تكن متواجداً طوال أسابيع للتحدث عن أي شيء أصلاً. لولا أنني أعرفك، لظننتُ أن تلك القبلة قد أخافتك.»

تباً. لم أقصد قول ذلك.

قال، وومض شيء ما في عينيه قبل أن يستبدله سريعاً بقناع بارد من اللامبالاة:

– «هذا الموضوع غير قابل للنقاش.»

بجدية؟

– «بجدية؟»

كان يجب أن أدرك ذلك، نظراً لأنه تجنب الأمر طوال هذا الوقت.

– «لقد كان خطأً. أنتِ وأنا سنُعين في نفس الموقع لبقية حياتنا، ولن يتمكن أحدنا من الهروب من الآخر. التورط في أي علاقة – حتى على المستوى الجسدي – هو حماقة هائلة. لا طائل من التحدث في الأمر.»

بالكاد منعتُ نفسي من الإمساك بصدري لأتأكد من أن كل أعضائي في مكانها الصحيح، فقد شعرتُ وكأنه انتزع أحشائي بأربع جمل فقط. لكنه كان مندمجاً في القبلة بقدر ما كنتُ أنا. لقد كنتُ هناك، ومن المستحيل أن أخطئ في تفسير ذلك النوع من... الحماس. لكن ربما كان ذلك بسبب التشورام.

سألته:

– «وماذا لو كنتُ أرغب في التحدث عن الأمر؟»

قال، والحسم في نبرته جعل معدتي تتقلص:

– «إذن خذي راحتكِ، لكن هذا لا يعني أنني يجب أن أكون جزءاً من المحادثة. لكل منا الحق في وضع حدوده، وهذا أحد حدودي. سأعترف أن إبقاء مسافتي لم ينجح بشكل جيد، وإن كانت حركتكِ المتهورة اليوم تهدف لجذب انتباهي، فتهانينا. لقد حصلتِ عليه.»

أرجحتُ قدميّ إلى جانب السرير وقلت:

– «لا أعرف عما تتحدث.»

أحتاج إلى حذائي العسكري وللخروج من هنا بحق الجحيم قبل أن أجعل من نفسي أضحوكة أكبر.

تابع:

– «يبدو أنني لا أستطيع الوثوق بـ ليام للإبلاغ عن المواقف المميتة، أو بـ ريانون لتدريبكِ على البساط، نظراً للسهولة التي ثبتكِ بها بارلو، لذا اعتباراً من هذه اللحظة، سأتولى أنا الأمر.»

ضيقتُ عينيّ متسائلة:

– «تتولى ماذا؟»

– «كل شيء يتعلق بكِ.»

***

في اليوم التالي، وخلال ما كان يُفترض أن يكون ساعات الطيران لولا الرياح العاتية التي تعوي بدرجات حرارة تحت الصفر في الخارج، أجبرني زايدن على النزول إلى البساط. لحسن الحظ، كان يرتدي قميصه، لذا لم يتشتت انتباهي بما أعلم أنه تحته. كلا، لم يكتفِ بارتداء ملابس القتال الجلدية وحذائه العسكري، بل كان مدججاً حتى أسنانه بما يبدو وكأنه دزينة من الخناجر المختلفة في دزينة من الأغماد المختلفة.

هل هو أمر سام تماماً أن أكون منجذبة لهذه الإطلالة عليه؟ ربما. لكن نظرة واحدة، وارتفعت حرارة جسدي.

أمرني:

– «اتركي أسلحتكِ خارج البساط.»

استرق حوالي دزينة من الركاب النظر نحونا من الأبسطة الأخرى.

على الأقل مُنح ليام الوقت ليذهب ويتدرب في بساط مجاور ضد داين – وهي سابقة من نوعها. كانت معظم الفرق هنا، تستغل وقت الفراغ غير المتوقع، لذا ولحسن الحظ كان الجميع مشغولين بالتدريب بدلاً من مراقبتنا.

رمقتُ أغماده بنظرة ذات مغزى وقلت:

– «لكنك مسلح.»

أمال رأسه جانباً قليلاً، كاشفاً المزيد من أثر التمرد الذي يلتف حول عنقه، وهو نفس الأثر الذي لامسته بيدي حين حاصرني ضد جدار الأساس قبل أكثر من شهر، وقال:

– «إما أن تثقي بي أو لا تثقي.»

كلا. لن أفكر في ذلك.

لكن جسدي لم يجد أي مشكلة في التذكر.

أطلقتُ زفرة طويلة بخيبة أمل وخطوتُ إلى حافة البساط، مجردةً كل خنجر أملكه وتلك التي فزتُ بها، ثم وضعتها على الأرض.

استدرتُ لأواجهه، باسطةً ذراعيّ وقلت:

– «أنا بلا أسلحة. هل أنت سعيد الآن؟»

كان كمي الطويل يغطي الضمادة على ذراعي، لكن النبض المؤلم كان ملحاً.

– «رغم أننا كان يمكننا الانتظار بضعة أيام حتى تشفى ذراعي قبل القيام بذلك.»

كانت الغرز تشد جلدي، لكنني مررتُ بما هو أسوأ.

هز رأسه نافياً، وسحب أحد خناجره ومشى للأمام:

– «لا. العدو لا يكترث إن كنتِ مصابة. بل سيستغلون ذلك لصالحهم. إن لم تعرفي كيف تقاتلين وأنتِ تتألمين، فستتسببين في مقتلنا معاً.»

غيرتُ وزن جسدي بانزعاج وقلت:

– «حسناً. بالمناسبة، هو لا يعلم أنني أتألم دائماً تقريباً. إنها منطقة راحتي المعتادة. لكنها نقطة جيدة حقاً، لذا سأسلم لك بها.»

ابتسم بسخرية وقال:

– «شكراً لكِ على نُبلكِ.»

تجاهلتُ اندفاع الحرارة المفاجئ في أسفل معدتي.

قلب كفه للأعلى، ليريني الخنجر ذو النصل القصير بشكل غريب.

– «المشكلة ليست بالضرورة في أسلوب قتالكِ. أنتِ سريعة، وأصبحتِ خصماً لا يُستهان به حقاً منذ أغسطس. المشكلة هي أنكِ تستخدمين خناجر يسهل انتزاعها من يديكِ. تحتاجين إلى أسلحة مصممة لتناسب بنية جسدكِ.»

على الأقل لم يقل «ضعفكِ».

تأملتُ النصل في يده. كان جميلاً، بمقبض أسود صلب منقوش بعقد تايرِندية؛ رموز قديمة وأسطورية بتموجات وروابط معقدة. النصل نفسه كان مشحوذاً بوضوح لدرجة الكمال المميت.

– «إنه مذهل.»

– «إنه لكِ.»

رفعتُ رأسي بحدة، لكن لم يكن هناك أي كذب في عينيه العقيقيتين.

انحنت شفتاه قليلاً وهو يضيف:

– «لقد أمرتُ بصنعه خصيصاً لكِ.»

انفتح فمي وانقبض صدري:

– «ماذا؟»

لقد اقتطع من وقته ليأمر بصنعه؟ تباً. هذا يثير بداخلي مشاعر لا أريد أن أحظى بها حقاً. مشاعر رقيقة ومربكة.

– «لقد سمعتني. خذيه.»

ابتلعتُ الغصة غير المنطقية في حلقي وأخذتُ النصل منه. بدا صلباً في راحة يدي لكنه أخف بكثير من خناجري الأخرى. لم يشكل أي ضغط على

معصمي، والتفت أصابعي براحة حول المقبض، مما يجعله أكثر أماناً بكثير من السكاكين التي تركتها على الأرض.

سألته:

- «من صنعه؟»

- «أعرف شخصاً ما.»

ارتفع حاجباي دهشة:

- «في القطاع؟»

ارتعشت زاوية فمه بابتسامة متكلفة وهو يقول:

- «ستتفاجئين بمدى حيلتكِ بعد ثلاث سنوات هنا.»

حدقتُ فيه بصراحة قبل أن أتذكر أين نحن.

هززتُ رأسي وأعدته إليه قائلة:

- «إنه لا يُصدق. لكنك تعلم أنني لا أستطيع أخذه. الأسلحة الوحيدة المسموح لنا بامتلاكها هي تلك التي نكسبها بجدارة.»

التحديات أو مؤهلات الأسلحة هي فقط المقبولة. وهناك قوس ونشاب وضعتُ عيني عليه لكنني لم أصل لمرحلة الخبراء فيه بعد.

ابتسم لجزء من الثانية قبل أن يتحرك بسرعة لم أحلم بها يوماً. كان أسرع حتى من إيموجين حين اكتسح قدميّ بضربة واحدة، مسقطاً إياي على البساط في حركة واحدة.

السهولة التي طرحني بها على ظهري كانت مروعة ومثيرة... بشكل سخيف في آن واحد، خاصة مع ثقل وركيه المستقرين بين فخذيّ. تطلب الأمر كل إرادتي لألا أرفع يدي وأبعد خصلة الشعر الشاردة عن جبهته.

(لقد كان خطأً.)

حسناً، إن لم تبردني تلك الذكرى فوراً.

سألته، مدركة تماماً أنه فعل كل ذلك دون أن يفقدني أنفاسي:

– «وما هي النقطة التي تحاول إثباتها بهذه الحركة الصغيرة؟»

رفع حاجباً ساخراً وأجاب:

– «هناك دزينة من هذه الخناجر مربوطة بجسدي، لذا ابدئي بتجريدي من أسلحتي. إلا إذا كنتِ لا تعرفين كيف تتعاملين مع خصم يعتليكِ، وإن كان الأمر كذلك، فهذه مشكلة أخرى تماماً.»

تحديته بصوت خافت:

– «أنا أعرف كيف أتعامل معك حين تعتليني.»

خفض فمه ليهمس في أذني:

– «لن يعجبكِ ما سيحدث إن تماديتِ في تحديي.»

استدرتُ قليلاً لدرجة أن شفتيّ لامستا حافة أذنه وقلت:

– «أو ربما سيعجبني.»

انتفض مبتعداً، والحرارة في نظراته جعلتني أدرك تماماً كل نقطة تلامس بين جسدينا.

– «جرديني من أسلحتي قبل أن أختبر تلك النظرية أمام الجميع في هذه الحلبة.»

– «مثير للاهتمام. لم أحسبك من محبي الاستعراض.»

انخفضت نظراته إلى فمي وهو يتوعد:

– «واصلي التحدي، وأخمّن أنكِ ستكتشفين ذلك بنفسكِ.»

– «ظننتك قلت إن تقبيلي كان خطأً.»

لا أهتم إن كان القطاع بأكمله يراقب طالما أن ذلك يعني أنه سيقبلني مجدداً.

ابتسم بخبث وأجاب:

– «لقد كان كذلك. أنا أعلمكِ فقط أن الشفرات ليست الطريقة الوحيدة لتجريد الخصم من سلاحه. أخبريني يا ڤيولينس، هل جُردتِ من أسلحتكِ؟»

أحمق مغرور.

شخرتُ ساخرة وبدأتُ أنتزِع السكاكين من أغمادها، وأرميها عبر البساط بينما كان يراقب بتسلية نافدة الصبر. ثم أقفلتُ ساقيّ حول وركيه وأجبرته على التدحرج لليسار، ليصبح زايدن على ظهره.

طواعية، بالطبع – فمن المستحيل أن أتمكن من الجثو فوقه إن لم يرغب هو بذلك – لكنني ألقيتُ بساعدي ضد عظمة ترقوته بحجة تثبيته على أي حال، وشرعتُ في سرقة بقية الخناجر المربوطة على جانبه.

قلتُ بابتسامة وأنا أميل للأمام، وجسدانا المحمومان يكادان يتلامسان بالكامل، وأنتزِع الخنجر من يده مباشرة:

– «وأخيراً، شكراً لك.»

بمجرد أن أمّنتُ الشفرة الأخيرة، رمى زايدن بكفيه على البساط ودفع بقوة خارقة للطبيعة، مقوساً جسدينا للخلف حتى قَبّل عمودي الفقري البساط مجدداً.

سحبتُ نفساً عميقاً، فالحركة صدمتني من أخمص قدميّ وثبّتته بقوة بين فخذيّ. تطلب الأمر كل ما أملك لألا أتقوس ضده وأرى إن كان يعتقد حقاً أن تلك القبلة كانت خطأً.

– «هذا. ليس من العدل استخدام قواك على البساط.»

سواء كانت قوى سحرية أو جنسية. أياً كان. كلها غير عادلة.

قفز على قدميه ومد يده لي:

– «وهذا هو الشيء الآخر. إيميتيريو يمنع استخدام القوى لتسوية ساحة اللعب في التحديات. لكن في الخارج؟ الساحة أبعد ما تكون عن التسوية، ويجب أن تتعلمي استخدام كل ما تملكين.»

أخذتُ يده، واندفع الدم لرأسي حين وقفت. ليس الآن. لا تفقدي توازنكِ الآن.

أجبتُ وأنا أغمد الخنجر الجديد، ثم جمعتُ الباقي وفعلتُ الشيء ذاته:

– «لا أستطيع فعل الكثير سوى التجذير، والدرع، وتحريك قطعة من الرق.»

إنها جميلة حقاً، كلها منقوشة برموز مختلفة. من المؤسف أن الكثير من جوانب الثقافة التايرِندية قد فُقدت منذ قرون خلال التوحيد، بما في ذلك معظم الرموز. لا أعرف حتى ماذا تعني كلها.

تنهد واتخذ وضعية قتالية:

– «حسناً، يبدو أننا سنضطر للعمل على ذلك أيضاً. الآن، استحقي لقبكِ وابذلي قصارى جهدكِ لقتلي.»

***

مر فبراير في ضبابية من الإرهاق المطلق. استولى زايدن على كل لحظة فراغ في يومي، واصطكت أسنان داين أكثر من مرة حين سحبني قائد الجناح من تدريب الفرقة لأنه يملك شيئاً (أكثر أهمية بلا حدود) لأقوم به.

والذي ينتهي عادة بتلقيني درساً قاسياً متكرراً على البساط.

لكن يجب أن أعترف، إنه لا يعاملني كطفلة كداين، ولا يتساهل معي كـ ريانون. إنه يدفعني إلى أقصى حدودي البدنية في كل جلسة، لكنه لا يتجاوزها

أبداً، ويتركني عادة كومة متعرقو ومنهارة القوى على أرضية الحلبة، ألهث طلباً للهواء.

وهو الوقت الذي تذكرني فيه إيموجين عادة بأنهم بحاجة إليّ في غرفة رفع الأثقال.

أنا أكرههما معاً.

نوعاً ما.

من الصعب الجدال مع النتائج حين أتعلم إسقاط أقوى مقاتل في القطاع. لم أهزمه بعد، لكني متصالحة مع ذلك. هذا يعني أنه لا يتركني أفوز.

وهو أيضاً لا يقبلني مجدداً، حتى حين أتحداه.

حل مارس حاملاً معه أقداماً لا تُحصى من الثلوج التي تعين علينا جرفها قبل طابور الصباح كل يوم. واللحظات التي كان يحترق فيها الأثر على ظهري، وأشعر وكأنني قد أسلخ جلدي إن لم أحرر القوة المتراكمة بداخلي، كانت تذكرني بأنني لا أزال بلا قدرة سحرية فريدة. لقد مر ما يقرب من ثلاثة أشهر بالفعل.

كل صباح أستيقظ متسائلة عما إذا كان هذا هو اليوم الذي سأحترق فيه ذاتياً.

قرأ النقيب فيتزجيبونز من قائمة الموتى، ويداه المكسوتان بالقفازات تنزلقان على الرق المتجمد:

- «شارلا جونتر.»

الجو أدفأ هذا الأسبوع، لكن ليس بكثير.

- «وموشين فيدي. نستودع أرواحهم لماليك.»

سألتُ ريانون حين انتهى الطابور، وقد ارتفع حاجباي دهشة:

- «فيدي؟»

لم أكن أعرفه جيداً، لأنه كان في الجناح الثاني، لكن الاسم لا يزال يمثل صدمة، بالنظر إلى أنه كان يُشاع أنه من أفضل الركاب بيننا.

سحبت عباءتها المبطنة بالفرو لتلتف حول عنقها وأجابتني:

– «ألم تسمعي؟ لقد ظهرت قدرته السحرية الفريدة في منتصف حصة كار بالأمس، وانفجر محترقاً.»

– «لقد... أحرق نفسه حتى الموت؟»

أومأت برأسها:

– «قالت تارا إن كار يعتقد أنه كان يُفترض أن يوجه النار، لكنها طغت عليه في تلك الاندفاعة الأولى و...»

أضاف ريدوك:

– «لقد اشتعل كالشعلة. يجعلكِ ذلك تشعرين بالسعادة لأن قدرتكِ السحرية الفريدة لا تزال مختبئة، هاه؟»

«مختبئة» هي طريقة مهذبة لوصف الأمر. باستثناء القدرة التي لا يُسمح لي حتى بالهمس عنها، أنا أثبتُ أنني ذلك الشيء الوحيد الذي تكرهه أمي – شخص عادي. وليس وكأن بإمكاني اللجوء إلى تايرِن أو أندارنا طلباً للمساعدة. القدرة السحرية الفريدة تعتمد بالكامل عليّ، ويبدو أنني أخفق في تحقيقها، كما يذكرني الأثر اللاسع على ظهري باستمرار. هناك جزء صغير وخفي بداخلي يأمل أن تكون قدرتي السحرية لم تظهر بعد لأنها مختلفة عن الآخرين، ليست مفيدة فحسب، بل... ذات معنى، كما كانت قدرة بريينان.

تمتمت ريانون وهي تنفخ على يديها لتدفئتهما:

– «هذا بالتأكيد يجعلني أرغب في التغيب عن الحصة اليوم.»

وبخنا داين، مثبتاً إيانا بنظرة حادة:

– «لا تغيب عن الحصص. تفصلنا أسابيع قليلة عن معركة الفرق، ونحتاج كل واحد منكم في أفضل حالاته للفوز.»

شخرت إيموجين ساخرة:

– «بحقك يا آيتوس، أعتقد أننا جميعاً نعلم أن الجناح الثاني يملك تلك الفرقة في قسم الذيل التي ستسحقنا جميعاً. هل رأيتهم يركضون متسلقين مسار القفاز؟ أنا شبه متأكدة أنهم يتدربون هناك رغم أنه لا يزال مغطى بالجليد.»

أعلنت سيانا، نائبة قائدنا، بإيماءة حاسمة:

– «نحن سنفوز.»

وجعدت أنفها المعقوف وهي تضيف:

– «سورنجيل هنا قد تبطئنا في مسار القفاز، وربما في قسم التوجيه السحري أيضاً، بالنظر إلى معدل تقدمها...»

قاطعتها وأنا أعقد ذراعيّ فوق صدري:

– «يا إلهي، شكراً.»

أراهن أنني أستطيع الدرع أفضل منكم جميعاً مجتمعين.

تابعت سيانا:

– «لكن مهارات ريانون تعوض عن ذلك وأكثر. وكلنا نعلم أن ليام وهيتون سيكتسحان المنافسين على البساط في مسابقة التحديات. هذا يترك فقط مناورات الطيران وأياً كانت المهمة التي سيبتكرها قادة الأجنحة للتقييم هذا العام.»

علق ريدوك بسخرية كانت ثقيلة لدرجة أنها كسبت له نظرة غاضبة من داين:

– «أوه، هل هذا كل شيء؟ يا رجل، ظننتُ أن الأمر سيكون صعباً.»

قال داين، ممرراً نظره على مجموعتنا:

- «لقد تقلص عددكم إلى عشرة. نحن اثنا عشر في المجمل، مما يضعنا في عيب طفيف أمام بضع فرق أخرى، لكنني أظن أننا سنتدبر أمرنا.»

لقد فقدنا اثنين من الإضافات الجديدة الأسبوع الماضي حين ظهرت القدرة السحرية الفريدة للأصغر حجماً بينهما في الموجز القتالي وتجمدا معاً حتى الموت في ثوانٍ، وكادا يقضيان على ريدوك من شدة البرد أيضاً. عولج من قضمة الصقيع لكنه لم يعانِ من أي ضرر دائم. الآن، نادين وليام هما الوحيدان المتبقيان من المجموعة التي اكتسبناها بعد يوم التصفية.

رفع داين حاجبيه نحوي وأضاف:

- «ولكن لكي نتدبر أمرنا، أحتاج منكم أن تحضروا الحصص. وخاصة أنتِ. سيكون من الرائع أن تظهر قدرتكِ السحرية الفريدة، كما تعلمين. إن كان بإمكانكِ ربما تحقيق ذلك.»

وكأنه يعجز عن اتخاذ قرار بشأن كيفية معاملتي مؤخراً، كمتدربة في السنة الأولى تكافح لكنها لا تزال صامدة، أم كالفتاة التي نشأ معها.

أكره كيف يبدو كل شيء مضطرباً بيننا، لزجاً بطريقة خاطئة، كارتداء الملابس قبل أن تجف تماماً بعد الاستحمام، لكنه يظل داين. على الأقل أصبح داعماً أخيراً.

قاطعنا زايدن، مظهراً من خلف سوير الذي أسرع بإفساح الطريق له:

- «هي ستتغيب عن حصة كار اليوم.»

هززتُ رأسي وتجاهلتُ قفزة النبض السريعة في عروقي عند رؤيته:

- «لا، لن أتغيب.»

جادل داين، ثم صرّ على أسنانه:

– «يجب أن تحضر. أقصد، ما لم يكن لدى الجناح أمور أكثر إلحاحاً للمتدربة سورنجيل، فإن وقتها يُستثمر بأفضل شكل في تطوير مهاراتها في التوجيه السحري.»

لا أتمنى النظرة التي وجهها زايدن لداين لألد أعدائي. لم تكن نظرة غضب أو حتى سخط. كلا، بدا... منزعجاً، وكأن شكاوى داين أدنى منه تماماً، وهي كذلك فعلاً وفقاً لتسلسل قيادتنا.

أجابه زايدن:

– «أعتقد أن كلانا يعلم أنها لن تظهر قدرة سحرية فريدة في تلك الغرفة. كانت لتفعل ذلك بالفعل لو كان هذا هو المفتاح. وأجل، الجناح لديه أمور أكثر إلحاحاً تخصها.»

– «سيدي، أنا فقط لستُ مرتاحاً لفكرة مرور يوم دون أن تتدرب على الأقل على التوجيه السحري، وبصفتي قائد فرقتها...»

هو لا يعلم أن زايدن كان يعطيني جلسات تدريب إضافية على التوجيه السحري أثناء قتالنا.

تنهد زايدن، مستدعياً إلهة الحرب:

– «بحق دون.»

مد يده إلى جيب عباءته وأخرج ساعة جيب، ممسكاً بها في كفه المبسوط.

– «التقطيها يا سورنجيل.»

نظرتُ إلى الرجلين وتمنيتُ لو يحلان خلافاتهما بينهما، لكن احتمال حدوث ذلك يقارب الصفر بالمئة. من أجل السرعة، ألقيتُ بقدماي العقليتين على أرضية الأرشيف. تدفقت القوة البيضاء الساطعة حولي، مثيرة قشعريرة في ذراعيّ ورافعة الشعر في مؤخرة عنقي.

رفعتُ يدي اليمنى، وتخيلتُ تلك القوة تلتف بين أصابعي، وتفتحت صدمات صغيرة على طول بشرتي بينما منحتُ الطاقة شكلاً، جاعلة منها يداً بحد ذاتها وأنا أطلب منها أن تمتد للأقدام القليلة التي تفصلني عن زايدن.

حدث توقف مفاجئ، وكأن خيوط سحري الخام اصطدمت بجدار، لكنه استسلم بعد ذلك، فدفعتُ للأمام، محتفظة بسيطرة محكمة على اليد المتوهجة. تردد طقطقة في رأسي، كالجمر المحتضر للنار، حين لامست قوتي يد زايدن، لكني أغلقتُ قبضتي العقلية حول ساعة الجيب ثم سحبت.

إنها ثقيلة بحق الجحيم.

شجعتني ريانون:

– «أنتِ قادرة على فعلها.»

وبخها سوير:

– «دعيها تركز.»

هوت الساعة نحو الأرض، لكني خطفتُ يدي للخلف، ساحبة قوتي وكأنها حبل، وطارت الساعة نحوي. التقطتُها بيدي اليسرى قبل أن تصطدم بوجهي.

صفق ريانون وريدوك.

تقدم زايدن وانتزع الساعة من أصابعي، وأسقطها في جيبه قائلاً:

– «أرأيت؟ إنها تتدرب. والآن، لدينا أشياء لننجزها.»

وضع يده على أسفل ظهري وقادني بعيداً عن الحشد.

سألته، وأنا أمقت الطريقة التي يطالب بها جسدي بالاستناد إلى لمسته، لكني أفتقدها في اللحظة التي تختفي فيها:

– «إلى أين نحن ذاهبان؟»

أجابني وهو يفتح باب المهاجع لي وأدخل:

– «أفترض أنكِ لا ترتدين ملابس الطيران الجلدية تحت تلك العباءة.»

كانت الحركة سهلة للغاية لدرجة أنني أدركتُ أنها ليست مجرد ممارسة بل طبيعة ثانية، وهو ما يتناقض تماماً مع، حسناً... كل شيء عرفته عنه.

توقفتُ، ناظرة إليه وكأننا نلتقي للمرة الأولى.

سألني وهو يغلق الباب خلفنا، حامياً إيانا من البرد القارس:

– «ماذا؟»

– «لقد فتحتَ الباب لي.»

هز كتفيه مجيباً:

– «العادات القديمة تموت بصعوبة. لقد علمني والدي أن...»

تلاشى صوته فجأة، وهربت نظراته بعيداً، وتصلبت كل عضلة في جسده وكأنه يتهيأ لهجوم.

اعتصر الألم قلبي عند رؤية التعبير الذي ارتسم على وجهه، فقد عرفته جيداً. الحزن.

سألته مغيّرة الموضوع في محاولة لمساعدته:

– «ألا تظن أن الجو بارد بعض الشيء للطيران؟»

الألم في عينيه هو من النوع الذي لا يموت أبداً، من النوع الذي يرتفع كمد غير متوقع ويغمر الشاطئ بلا رحمة.

رمش بعينيه، فاختفى الألم:

– «سأنتظر هنا.»

أومأتُ برأسي وأسرعتُ لأغير ملابسي إلى السترة الجلدية المبطنة بالفرو المصروفة لنا لطيران الشتاء. كان يرتدي ذلك القناع العصي على القراءة حين عدتُ، وأيقنتُ أنه لن يفتح أي أبواب أخرى من أجلي اليوم.

مشينا عبر الساحة التي كانت تفرغ بينما يهرع المتدربون إلى حصصهم.

– «أنت لم تجبني.»

أبقى عينيه مثبتتين على بوابة المسار المؤدي إلى حقل الطيران، واضطررتُ للركض تقريباً لمجاراة خطواته الواسعة:

– «عن ماذا؟»

– «عن كون الجو بارداً للطيران.»

دفع البوابة لتنفتح، وأسرعتُ خلفه وهو يجيبني:

– «طلاب السنة الثالثة لديهم حصة في حقل الطيران بعد ظهر اليوم. كاوري والأساتذة الآخرون يتساهلون معكم فقط، لأن معركة الفرق تقترب ويعلمون أنكم بحاجة للتدرب على التوجيه السحري.»

تردد صدى صوتي في النفق وأنا أسأل:

– «لكنني لا أحتاج إلى التدريب؟»

قال، ولعبت الأضواء السحرية على الزوايا الحادة لوجهه، ملقية ظلالاً شريرة بينما نمر بكل واحدة منها:

– «الفوز بمعركة الفرق لا يساوي شيئاً في مخطط إبقائكِ على قيد الحياة. ستكونين على خطوط المواجهة قبل أن يصل البقية في العام القادم.»

سألته ونحن نخرج من الجانب الآخر، حيث حجب الثلج رؤيتي للحظات. كان متراكماً على جانبي المسار، نتيجة لهذا الشتاء القاسي:

– «هل هذا ما سيحدث في العام القادم؟ سأذهب إلى خطوط المواجهة؟»

أجاب بضيق:

– «حتماً. لا يمكن التنبؤ بالمدة التي ستتحمل فيها سجايل وتايرِن الافتراق. أفضل تخميناتي هو أن كلانا سيُضطر للتضحية لإبقائهما سعيدين.»

كان من الواضح أنه ليس سعيداً بالأمر أيضاً، لكني لا ألومه. بعد ثلاث سنوات في القطاع، كنتُ سأرغب في الخروج بحق الجحيم أيضاً. هوت معدتي حين أدركتُ أنني سأكون في موقفه حين أتخرج أيضاً، بلا سيطرة حقيقية على كيفية تحديد رابط تنانينا لمناصبنا المستقبلية.

أومأتُ برأسي، عاجزة عن إيجاد ما أقوله، وسرنا نحو مسار القفاز في صمت ودي.

لاحظتُ وأنا أراقب الفرقة من قسم الذيل وهم ينزلقون ويتعثرون عبر المسار:

– «الجناح الثاني. هل أنت متأكد أنك لا تريد لفرقك أن تتدرب هنا؟»

ارتفعت زاوية فمه، وتشققت تلك الواجهة غير البشرية:

– «حين كنتُ في السنة الأولى، ظننتُ أن الفوز هو القمة أيضاً. لكن بمجرد أن تصلي إلى سنتكِ الثالثة، وتري الأشياء التي نقوم بها...»

تقلص فكه وهو يضيف:

– «دعينا نكتفي بالقول إن الألعاب تصبح أكثر دموية بكثير.»

توجهنا نحو الدرج المؤدي إلى حقل الطيران، لكن كانت هناك مجموعة تنزل بالفعل، فتراجعتُ للوراء لأسمح لهم بالنزول أولاً.

قفز قلبي إلى حلقي حين اقتربوا، فانتصبتُ في وقفة انتباه، وتصلب عمودي الفقري. إنهما القائد بانشيك والعقيد آيتوس.

ابتسم لي والد داين حين وصل إلى الأرض أولاً وقال:

– «استريحي. تبدين بصحة جيدة يا ڤيوليت. خطوط طيران رائعة.»

وأشار إلى الخطوط على وجنتيه التي تتركها نظارات الطيران وأكمل:

– «لا بد أنكِ تقضين وقتاً طويلاً في الجو.»

أرخيتُ وقفتي ولم يسعني سوى مبادلته الابتسامة، لكن شفتيّ كانتا مشدودتين وأنا أجيبه:

– «شكراً لك سيدي، أنا أفعل ذلك حقاً. وداين يبلي بلاءً حسناً أيضاً. إنه قائد فرقتي هذا العام.»

ابتسم، وعيناه البنيتان دافئتان كعيني داين:

– «لقد أخبرني بذلك. لقد سألت عنكِ ميرا حين كنا نقوم بجولة في الجناح الجنوبي الشهر الماضي. لا تقلقي، ستحصلين على امتيازات المراسلة في السنة الثانية، وحينها يمكنكِ البقاء على تواصل معها بشكل متكرر. أنا متأكد أنكِ تفتقدينها.»

أومأتُ برأسي، متجاهلة موجة المشاعر التي جلبها اعترافي:

– «كل يوم.»

من الأسهل بكثير التظاهر بأنه لا يوجد شيء خارج هذه الجدران بدلاً من الغرق في مدى اشتياقي لأختي.

تصلب زايدن بجانبي حين خرجت أمي من بئر السلم. أوه، تباً.

اندفعتُ قائلة:

– «أمي.»

والتفتت برأسها، لتلتقي عيناها بعينيّ. لقد مر أكثر من خمسة أشهر منذ رأيتها، ورغم أنني أردتُ أن أكون متماسكة ومسيطرة على مشاعري كما هي، إلا أنني ببساطة لم أستطع. أنا لستُ مبنية مثلها، ولا مثل ميرا. أنا ابنة أبي.

مسحتني نظرتها التقييمية بكل الألفة المعهودة بين قائدة عامة ومتدربة في باسجيات، ولم يكن هناك أي دفء في تعبيرها حين أنهت تفحصها وقالت:

– «سمعتُ أنكِ تواجهين صعوبة في التوجيه السحري.»

رمشتُ بعينيّ وتراجعتُ خطوة للوراء، وكأن المسافة الجسدية ستحميني من التوبيخ الجليدي وأجبتها:

– «أنا أمتلك أفضل الدروعِ الذهنية في دفعتي.»

لأول مرة، كنتُ سعيدة حقاً لأنني لم أُظهر قدرة سحرية فريدة، ولم أمنحها شيئاً لتتباهى به.

رفعت حاجباً وقالت:

– «مع تنين كـ تايرِن، آمل ذلك بالتأكيد. إن لم يكن الأمر كذلك، فإن كل تلك القوة المذهلة التي يُحسد عليها ستكون قد...»

كانت تنهيدتها كسحابة بخار في الهواء وهي تضيف:

– «... أُهدرت.»

بذلتُ قصارى جهدي لابتلاع الغصة المتضخمة في حلقي وأجبت:

– «حاضر، أيتها القائدة العامة.»

تخطت نظرتها قمة رأسي، وعرفتُ أنها تنظر إلى الضفيرة ذات الأطراف الفضية التي تعتقد أنها تسمسني باللعنة، الشعر الذي أخبرتني أنه من الأفضل لي قصه وقالت:

– «لقد كنتِ موضوعاً لبعض الأحاديث رغم ذلك.»

أوه؟ هل هي تتحدث عني حقاً؟

– «أوه؟»

رسمت على شفتيها ابتسامة أنا متأكدة أنها تظنها رقيقة، لكنني أعرفها جيداً لدرجة تمنعني من الانخداع بها وسألت:

– «نحن جميعاً نتساءل ما هي القوى – إن وُجدت – التي توجهينها من التنين الذهبي؟»

دمدمت الكلمة الوحيدة من تايرِن عبر جسدي بأكمله:

– 'لا. إياكِ أن تتحدثي عن الأمر.'

مررتُ لساني على شفتي السفلى المتشققة وأنا أقول:

– «لا شيء بعد.»

الشتاء قاسٍ على البشرة أثناء الطيران.

– «لقد أخبرتني أندارنا أن التنانين ذات الذيول الريشية معروفة بعدم قدرتها على توجيه السحر لركابها.»

(فقط هداياها المباشرة، لكنني لستُ في صدد قول ذلك).

– «لهذا السبب لا ترتبط كثيراً.»

تدخل والد داين:

– «أو على الإطلاق. لقد كنا نأمل في الواقع أن تطلبي من تنينكِ السماح لنا بدراستها. لأغراض أكاديمية بحتة بالطبع.»

اشمأزت معدتي. ستقوم هذه المجموعة بوخز وفحص أندارنا ليعلم الآلهة كم من الوقت لإرضاء فضولهم الأكاديمي، وربما يتعثرون في القوة غير المستغلة للتنانين الصغيرة. لا، شكراً.

– «للأسف، لا أرى أنها سترتاح لذلك. إنها تميل للخصوصية الشديدة، حتى معي.»

قال العقيد آيتوس وهو يخدش جبهته:

– «أمر مؤسف. لقد كلفنا النساخين بالبحث في الأمر منذ يوم التصفية، والمرجع الوحيد الذي تمكنوا من إيجاده في الأرشيف عن قوى التنانين ذات الذيول الريشية يعود لمئات السنين، وهو أمر مضحك لأنني أتذكر أن والدكِ قام

ببعض الأبحاث حول الانتفاضة الكروفلية الثانية، وذكر شيئاً عن التنانين ذات الذيول الريشية، لكننا لم نتمكن من العثور على ذلك المجلد.»

نظرت أمي إليّ بترقب، وكأنها تسألني دون أن تسأل فعلياً.

قلت، وكانت الكلمات صادقة بقدر ما أمكنني صياغتها:

– «لا أعتقد أنه أنهى أبحاثه حول ذلك الحدث التاريخي المعين قبل وفاته، أيها العقيد آيتوس. لا أستطيع حتى أن أخبرك أين توجد ملاحظاته.»

أنا أعرف بالضبط أين توجد ملاحظاته – في الموقع الوحيد الذي قضى فيه معظم وقته بعد ساعات العمل. لكن هناك شيء في تحذير تايرِن يجعلني غير قادرة ببساطة على إخبارهم.

رسمت أمي ابتسامة أخرى مجبرة وقالت:

– «أمر مؤسف. يسعدني أن أرى أنكِ على قيد الحياة أيتها المتدربة سورنجيل.»

انحرفت نظرتها جانباً وتصلبت فوراً كالفولاذ وهي تضيف:

– «حتى وإن كانت الصحبة التي تُجبرين على مرافقتها أكثر من مشكوك فيها.»

تباً. تباً. تباً.

لا يمكنني الوقوف أمام زايدن وجعله يبدو ضعيفاً. لا أستطيع حتى اختلاس النظر إليه دون أن أخبر أمي أين يكمن ولائي... دون أن أخبر نفسي.

قال زايدن، وصوته خفيض، لكنه كان مشدوداً كوتر قوس بجانبي:

– «لطالما شعرتُ أننا سوينا أي من تلك الشكوك منذ سنوات.»

همهمت أمي واستدارت نحو القلعة في إشارة واضحة للصرف:

- «انظري إن كان بإمكانكِ إتقان أي نوعٍ من القدرات السحرية الفريدة أيتها المتدربة سورنجيل. لديكِ إرث يجب أن ترتقي إليه.»

أجبتها، وكلفتني الكلمات غير الرسمية أكثر مما أنا مستعدة للاعتراف به، ممزقة الثقة التي استغرقتني ثمانية أشهر لبنائها بدقة حادة كالمخالب:

- «حاضر أيتها القائدة العامة.»

ابتسم لي والد داين بتعاطف وقال:

- «سعدتُ برؤيتكِ يا ڤيوليت.»

أما بانشيك فتجاهلنا تماماً، وركض ليلحق بأمي.

لم أنطق بكلمة لزايدن قبل أن أصعد الدرج، وكل خطوة تزيدني غضباً حتى أصبحتُ كرة من الحنق بحلول الوقت الذي وصلتُ فيه إلى قمة الجرف.

قال لي وكأنه يقرر حقيقة وليس يسأل:

- «أنتِ لم تخبريها عن كيفية نجاتكِ من الهجوم في غرفة نومكِ. وأنا لا أتحدث عن ظهوري لإنقاذكِ.»

أعرف تماماً عما يتحدث.

- «أنا لا أراها أبداً. وأنت من أخبرني ألا أخبر أحداً.»

قال زايدن، ونبرته هادئة بشكل مفاجئ ونحن ننزل نحو الوادي الصندوقي باتجاه حقل الطيران:

- «لم أكن أدرك أن الأمر هكذا بينكما.»

قلتُ، متصنعة اللامبالاة قدر الإمكان:

- «أوه، هذا لا شيء. لقد قضت عاماً كاملاً تتجاهلني تماماً حين توفي والدي.»

أفلتت مني ضحكة تسخر من ذاتي وأنا أكمل:

– «والذي كان أمراً صحياً تقريباً كالسنوات التي قضتها تتحمل وجودي بالكاد لأنني لم أكن مثالية كـ بريNان أو محاربة كـ ميرا.»

لم يكن ينبغي لي قول هذه الأشياء. هذه هي الأفكار التي تبقيها العائلات خلف أبوابها المغلقة ليتمكنوا من ارتداء سمعتهم المصقولة والمثالية كدرع حين يظهرون في العلن.

علق زايدن، مجارياً خطواتي الغاضبة:

– «إذن هي لا تعرفكِ جيداً.»

شخرتُ ساخرة:

– «أو أنها تراني على حقيقتي بوضوح تام. المشكلة هي أنني لستُ متأكدة أبداً أيهما هو الصحيح. أنا مشغولة جداً بمحاولة الارتقاء لأي معيار مستحيل تضعه، لدرجة تمنعني من سؤال نفسي ما إذا كانت هذه المعايير تهمني حقاً.»

ضّيقتُ نظرتي نحوه وسألته:

– «وعن ماذا كان ذلك الحديث على أية حال؟ قولك أنك سويت الشكوك منذ سنوات؟»

أجابني بينما تجعدت جبهته، لكنه ظل ينظر أمامنا:

– «كنتُ أذكرها فقط بأنني دفعتُ ثمن ولائي.»

سألتُ قبل أن أتمكن من إيقاف لساني الأحمق:

– «دفعت أي ثمن؟»

لم يسعني سوى تذكر ما قاله داين؛ أن لزايدن أسباباً تمنعه من مسامحة أمي أبداً.

خفض رأسه للحظة، وحين رفعه، كان يرتدي ذلك القناع المصقول من اللامبالاة الذي يبرع في ارتدائه وأجاب:

– «الحدود يا ڤيولينس.»

لحسن حظنا، انكسر توتر اللحظة حين هبط تايرِن وسجايل في الجانب الآخر من الحقل أمامنا، يرافقهما تنين أصغر لامع جعلني أبتسم فوراً.

سألته وأنا أتبعه نحو الثلاثي:

– «كلنا سنطير اليوم؟»

أجاب:

– «كلنا سنتعلم اليوم. أنتِ بحاجة لتعلم كيفية البقاء على ظهر تنينكِ، وأنا بحاجة لأتعلم لماذا بحق الجحيم تجدين صعوبة في ذلك. أندارنا بحاجة لتعلم كيفية المجاراة. وتايرِن بحاجة لتعلم كيفية مشاركة مساحته في تشكيل طيران أضيق، وكل تنين آخر باستثناء سجايل خائف جداً من الاقتراب منه.»

أصدر تايرِن صوتاً مؤيداً حين اقتربنا.

سألته وأنا أتأمل التنين الأزرق العملاق:

– «وما الذي ستتعلمه سجايل؟»

ابتسم زايدن وقال:

– «لقد كانت تقود لأكثر من ثلاث سنوات الآن. سيتعين عليها أن تتعلم كيف تتبع. أو على الأقل تتدرب على ذلك.»

أصدر تايرِن صوتاً بدا بشكل مريب كضحكة، فكشرت سجايل عن أنيابها وهاجمته، مقتربة إنشات قليلة من عنقه.

تمتمتُ:

– «علاقات التنانين غير مفهومة على الإطلاق.»

رد وهو يمتطي سجايل بسهولة أحسده عليها:

– «حقاً؟ يجب أن تجربي علاقة بشرية يوماً ما. شرسة بنفس القدر، لكن بنار أقل. والآن هيا بنا.»

«معركة الفرق أكثر أهمية مما يظهره قادة الأجنحة. يروق لهم المزاح بأنها مجرد لعبة، أو فرصة للتباهي بين قادة الفرق والفرقة الفائزة، لكنها أبعد ما تكون عن ذلك. إنهم يراقبون الجميع. القائد، الأساتذة، الضباط القادة – كلهم يراقبون ليروا من سيصعد إلى القمة. ويسيل لعابهم ترقباً لرؤية من سيسقط.»

– الصفحة السابعة والسبعون، كتاب برينان



الفصل الخامس والعشرون

صرخت ريانون:

– «استسلم!»

بينما كان راكب من الجناح الثاني يقاتل لجر نفسه للأمام على البساط، ويداه مبسوطتان وأظافره تنغرز في الأرضية، في حين يثبته ليام بقفل ساقين، مجبراً ظهره على الانحناء في قوس يبدو مستحيلاً.

كان قلبي يقرع بقوة بينما بلغت إثارة نزالات اليوم ذروتها.

إنه التحدي الأخير في هذا الجزء من معركة الفرق، والحشود تتدافع من خلفنا، مجبرة إياي على الكفاح المستمر كي لا أسقط على البساط. بعد جولتين، نحتل المركز السابع من أصل أربع وعشرين فرقة على لوحة المتصدرين، لكن إن فاز ليام، فسنقفز إلى المركز الثالث.

كان وقت طيراني في سباق السماء عبر القفاز هو الأبطأ في الفرقة، لكن ذلك كان لأنني كنت أُجبر تايرِن باستمرار على فك قبضته السحرية عني – ثم كنا نفقد ثواني ثمينة حين يضطر للانخفاض ليلتقطني ويلقيني مجدداً في السرج. مراراً وتكراراً. أقسم أن الكدمات على مؤخرتي من جراء الارتطام بتجويف ظهره الصلب تؤلمني أقل من سخرية تايرِن واستهزائه بأنني أهنتُ سلالة عائلته بأكملها حين عبرنا خط النهاية في المركز الأخير.

صرخ ميكائيل من الألم، صرخة حادة كادت تصم الآذان، أعادت انتباهي إلى المعركة الدائرة أمامي. تشبث ليام بقوة وضغط مستغلاً أفضليته.

تمتمتُ من فوق هتافات طلاب السنة الأولى:

– «سحقاً، هذا يبدو مؤلماً حقاً.»

وافقني ريدوك، ووجهه يتقلص اشمئزازاً بينما بدا قوس ظهر ميكائيل وكأنه عمود فقري مكسور ينتظر الحدوث:

– «أجل، لن يتمكن من المشي لفترة.»

بصرخة أخرى، ضرب ميكائيل بكفه على البساط ثلاث مرات، فزأر الحشد.

صرخ سوير من خلفي:

– «أجل! هيا يا ليام!»

أفلت ليام ميكائيل على البساط، حيث تهاوى منهكاً وممدداً.

هتف ليام وهو يندفع نحونا:

– «لقد فزنا!»

وانجرفتُ في عناق جماعي متشابك الأذرع وسط صراخ وهتافات زملائي في الفرقة المبتهجين.

أنا شبه متأكدة أنني لمحتُ حتى إيموجين في هذه الفوضى الصغيرة.

لكنني لم أرَ داين. أين داين بحق الجحيم؟ لم يكن ليفوت هذا أبداً.

صاح البروفيسور إيميتيريو، وصوته يتردد عبر الحلبة مهدئاً الطاقة الحماسية بينما يخرج ليام من عناقنا الخانق:

– «الفائز! ليام مايري من الفرقة الثانية، قسم اللهب، الجناح الرابع!»

رفع ليام كلتا يديه منتصراً ودار في دائرة صغيرة، وصوت الهتافات جعل أذنيّ تطنان بأجمل طريقة ممكنة.

خطا القائد بانشيك إلى البساط، وانضم ليام إلى بقية فرقتنا، والعرق يتصبب من بشرته. أعلن بانشيك:

– «أعلم أنكم جميعاً كنتم تتوقعون أن يُقام الجزء الأخير من معركة الفرق غداً، لكن الكادر وأنا لدينا مفاجأة.»

لقد استحوذ الآن على انتباه كل راكب بلا استثناء.

أكمل بابتسامة عريضة، فاتحاً ذراعيه ودايراً في مكانه تماماً كما فعل ليام:

– «بدلاً من إخباركم بما ستكون عليه المهمة النهائية المجهولة ومنحكم الليلة للتخطيط لها، ستبدأ مهمتكم النهائية في هذه الساعة!»

همس ريدوك بذهول:

– «الليلة؟»

هوت معدتي.

– «داين ليس هنا. ولا سيانا أيضاً.»

همست إيموجين، وهي تمسح الحشود بنظراتها:

– «أوه، تباً.»

تابع بانشيك وهو يواصل الدوران في دائرة صغيرة، موجهاً حديثه لكل جانب من البساط:

– «كما لاحظتم ربما، قادة فرقكم ونوابهم قد... لنقل، عُزلوا مع قادة أقسامكم وقادة أجنحتكم، ولا، قبل أن يسأل أحدهم، مهمتكم ليست العثور عليهم. عليكم الانقسام إلى فرقكم وإنجاز مهمة فريدة هذا المساء دون قيادة وتوجيه قادة فرقكم.»

سأل أحدهم من الجانب الآخر للبساط:

– «ألا يهزم هذا الغرض من وجود قادة للفرق أصلاً؟»

أجاب بانشيك بهزة كتف وابتسامة مبتهجة:

– «الغرض من قائد الفرقة هو تشكيل وحدة متماسكة قادرة على مواصلة مهمة بعد مقتله. اعتبروا قادتكم... في عداد الموتى. أنتم بمفردكم أيها الركاب. مهمتكم بسيطة: العثور والحصول، بأي وسيلة كانت، على الشيء الواحد الذي سيكون أكثر إفادة لأعدائنا فيما يتعلق بالمجهود الحربي. ستعمل القيادة كحكام محايدين، وستُمنح الفرقة الفائزة ستين نقطة.»

همست ريانون وهي تشبك ذراعها بذراعي:

– «هذا يكفي لوضعنا في المركز الأول! يمكننا الفوز بمجد الذهاب إلى خطوط المواجهة!»

سأل أحدهم إلى اليمين:

– «ما هي الحدود؟»

أجاب بانشيك:

– «أي شيء داخل جدران باسجيات. وإياكم أن أرى أحداً يحاول جر تنين إلى هنا. سيحرقونكم من شدة الانزعاج وحسب.»

تذمرت الفرقة التي على يسارنا بخيبة أمل.

أخرج بانشيك ساعة جيبه وأكمل:

– «أمامكم ثلاث ساعات، وعندها نتوقع منكم تقديم كنوزكم المسروقة في غرفة الموجز القتالي.»

حدقنا جميعاً فيه بصمت. من بين كل ما تخيلتُ أن تكون عليه المهمة الثالثة والأخيرة... حسناً، لم يكن هذا الخيار قريباً حتى من تلك القائمة.

لوح بانشيك بيديه نحونا قائلاً:

– «ماذا تنتظرون؟ انطلقوا!»

واندلعت الفوضى العارمة.

هذا ما يحدث حين تنزع قيادتنا. نصبح... فوضى لعينة وعارمة.

صرخت إيموجين رافعة يديها:

– «الفرقة الثانية! اتبعوني!»

تأكد سوير وهيتون من أننا جميعاً كفراخ البط، نتبع إيموجين وهي تقودنا عبر الحلبة نحو غرفة رفع الأثقال.

قلت لليام وهو يمشي بجانبي، ولا يزال يكافح لالتقاط أنفاسه:

– «لقد أبليتَ بلاءً حسناً.»

رد ريدوك وهو يسلم ليام قربة ماء، أفرغها ليام فوراً:

– «لقد كان نزالاً ملحمياً.»

حثتنا إيموجين وهي تدخلنا عبر الباب المفتوح:

– «هيا، هيا.»

أجرت إحصاءً سريعاً للرؤوس ثم أغلقت الباب، مستخدمة التوجيه السحري لقفله.

وجدتُ مقعداً على أحد الدكك، وجلستُ محاطة بريانون وليام.

سألت إيموجين وهي تنظر إلينا نحن العشرة:

– «أولاً وقبل كل شيء. من يريد تولي القيادة؟»

رفع ريدوك يده عالياً في الهواء.

استدارت ريانون وأجبرت يده على النزول وهزت رأسها قائلة:

– «لا. ستحول هذا إلى نوع من المقالب.»

هز كتفيه مجيباً:

– «نقطة وجيهة.»

سألت كوين وهي ترفع حاجبيها:

– «ليام؟»

هز رأسه نافياً:

– «لا.»

لكن نظراته اندفعت باتجاهي، كاشفة عن مبرره.

جادلته:

– «لا أحد سيحاول قتلي ونحن بالخارج الليلة.»

التفت عائداً نحو إيموجين وهز رأسه مرة أخرى.

بالطبع أومأت إيموجين موافقة. كلاهما في فريق زايدن.

اقترحت ريانون وهي تنظر إلى إيموجين:

– «احتفظي أنتِ بالقيادة. لقد أوصلتنا إلى هنا.»

سرت همهمة موافقة في الغرفة.

سألت إيموجين:

– «إيمري؟ هيتون؟ بصفتكما طالبي سنة ثالثة، هذا حقكما.»

استند هيتون بظهره إلى الجدار وقال:

– «لا، شكراً.»

أضاف إيمري، وهو يجلس بجوار نادين:

– «أبداً. هناك سبب جعل كلينا يرفض الانضمام للقيادة. هل لديكِ أي سبب يمنعكِ من اتباع أوامر إيموجين لبضع ساعات يا نادين؟»

التفتنا جميعاً لمواجهة طالبة السنة الأولى التي لم تكن تخفي كراهيتها للموشومين على الإطلاق. وبمعرفتي الآن أنها تنحدر من قرية شمالية على حدود مقاطعتي ديكونشاير وتايريندور، يمكنني تفهم مبررها. أنا فقط لا أتفق معه، ولهذا السبب لستُ ودودة تماماً معها.

ابتلعت ريقها بصعوبة واضحة، وتجولت نظراتها المتوترة فوقنا جميعاً قبل أن تجيب:

– «لا مانع لدي.»

قالت إيموجين، عاقدة ذراعيها فوق صدرها، ليبرز المعصم الذي يحمل أثر التمرد من تحت سترتها:

– «جيد. لدينا أقل من ثلاث ساعات بقليل. ما هي أفكاركم؟»

اقترح ريدوك:

– «ماذا عن قطعة سلاح؟ قوس ونشاب ضخم سيكون مميتاً لأي من تنانينا في أيدي أعدائنا.»

ردت كوين بحسم:

– «كبير جداً. لا يوجد سوى واحد في المتحف، وبصراحة، ليس السهم هو المميت، بل نظام الإطلاق.»

نظرت إيموجين إلى كل منا متسائلة:

– «التالي؟»

بدأ ريدوك:

– «يمكننا سرقة ملابس بانشيك الداخـ...»

وقبل أن يكمل، كممت ريانون فمه بيدها.

رفعت ريانون حاجباً نحوه وقالت:

– «ولهذا السبب لا ندعك تقودنا.»

تجعدت جبهة إيموجين فوق عينيها الخضراوين الشاحبتين وهي تحثنا:

– «هيا يا رفاق! فكروا! ما هو أكثر شيء مفيد لعدونا؟»

أجاب ليام، ثم حول نظره نحوي:

– «المعلومات. ڤيوليت، ماذا عن سرقة الرسائل الإخبارية من الأرشيف؟ تلك التي ترد من خطوط المواجهة؟»

هززتُ رأسي نافية:

– «لقد تجاوزت الساعة السابعة. الأرشيف مغلق، وهو من نوع الأقبية التي لا يؤثر فيها حتى التوجيه السحري. الغرفة بأكملها معزولة تماماً ضد الهواء في حالة نشوب حريق.»

تنهدت إيموجين بضيق:

– «سحقاً. كانت فكرة جيدة.»

انفجرت الغرفة بأكملها في نقاش، كل صوت يعلو على الآخر بينما تُطرح الاقتراحات في الهواء.

المعلومات. التوت معدتي حين تبلورت فكرة في ذهني. ستكون ضربة قاضية، شيء لا يمكن لأي فريق آخر مقارعته. لكن... هززتُ رأسي. إنها محفوفة بالمخاطر.

سألت إيموجين، وعم الصمت في الغرفة:

– «بم تفكرين يا سورنجيل؟ يمكنني رؤية التروس الصغيرة تدور في عقلكِ.»

نظرتُ إلى أعضاء فرقتنا وأجبت:

– «ربما لا شيء مهم.»

لكن هل هو حقاً لا شيء؟

أمرت إيموجين:

– «تعالي إلى هنا واشرحي ما يدور في رأسكِ.»

– «بجدية، إنها فكرة مجنونة. شبه مستحيلة. سنُلقى في السجن العسكري إن قُبض علينا.»

أطبقتُ فمي قبل أن أتفوه بكلمة أخرى.

لكن الأوان كان قد فات – كانت عينا إيموجين تلمعان بالاهتمام.

أمرتني، متأكدة من أنني أدرك أنه ليس مجرد اقتراح:

– «تعالي. إلى. هنا. واشرحيها. لنا.»

وقفتُ، ومسحتُ يديّ على جانبيّ وفوق مقابض الخناجر الستة المغمدة هناك وسألت:

– «يمكننا توجيه السحر، أليس كذلك؟»

أومأ هيتون مردداً:

– «بأي وسيلة كانت.»

تأرجحتُ على كعبيّ، تاركة عقلي ينسج خيوط الخطة:

– «حسناً. أعلم أن ريدوك يمكنه توجيه الجليد، وريانون يمكنها الاستدعاء، وسوير يمكنه التلاعب بالمعادن، وإيموجين يمكنها مسح الذكريات الحديثة...»

أضافت إيموجين:

– «وأنا سريعة.»

شيء تشترك فيه مع زايدن.

سألتُ:

– «هيتون، ماذا عنك؟»

أجاب هيتون:

– «يمكنني التنفس تحت الماء.»

رمشتُ بعينيّ قائلة:

– «رائع، لكني لا أظن أن ذلك سيفيدنا إن نفذنا هذه الخطة. إيمري؟»

ابتسم إيمري وقال:

– «يمكنني التحكم بالرياح. الكثير من الرياح.»

حسناً، يمكن أن يكون هذا مفيداً دفاعياً، لكنه ليس بالضبط ما أبحث عنه.

صرّ حذائي على الأرضية حين استدرتُ لأواجهها:

– «كوين؟»

أجابت:

– «يمكنني الإسقاط النجمي. إبقاء جسدي في مكان، والتجول في مكان آخر.»

سقط فكي دهشة، مجارياً تعابير نصف الفرقة تقريباً.

غمزت وهي ترفع خصلاتها المجعدة في كعكة:

– «أعلم، إنها قدرة مذهلة حقاً.»

هززتُ رأسي وأنا أخطط لأسهل طريقة لتنفيذ ذلك:

– «أجل. هذا يمكننا استخدامه.»

حثتني إيموجين، وهي تدس الشعر القصير على الجانب المحلوق من رأسها خلف أذنها:

– «بم تفكرين يا سورنجيل؟»

– «ستقولون إنني فقدتُ عقلي، لكن إن نجحنا، فسنفوز بالتأكيد.»

قد لا أكون شبيهة بوالدتي بما يكفي لنيل استحسانها، لكنني أعرف أين تحتفظ بالمعلومات الأكثر قيمة.

– «وما هي؟»

– «سنقتحم مكتب والدتي.»

***

تململ ريدوك بعد ساعتين، مبتعداً عن كوين، أو بالأحرى، عن الشكل النجمي لـ كوين، وقال:

– «أنتِ مرعبة بحق الجحيم.»

جسدها المادي موجود حالياً مع هيتون، يخضع للحراسة في غرفة رفع الأثقال.

كنا نحن الباقون نتسلل عبر الأروقة متجاوزين قطاع المعالجين. كنا قد التقينا بالفعل بفرقة من الجناح الثاني وأخرى من الثالث، لكن لم يكن لدى أي منا الوقت لسؤال الآخرين أو إعاقتهم.

سننهض أو نسقط بناءً على جدارتنا الخاصة وفقاً لهذا الجدول الزمني، وقد أهدرنا الساعتين الماضيتين في انتظار حلول الليل ليكون الأمر ممكناً أصلاً.

قال إيمري ونحن نتجاوز آخر باب للعيادة:

– «لم يسبق لي أن توغلتُ إلى هذا الحد.»

سألته إيموجين:

– «لم تذهب حتى إلى الأرشيف من قبل؟»

أجاب إيمري:

– «أتجنب تلك النوبة كطاعون مميت. النساخون يخيفونني. أدعياء معرفة هادئون، يتصرفون وكأنهم يملكون مصائر الناس بمجرد تدوين شيء ما.»

ابتسمتُ. هناك حقيقة في هذا التصريح أكثر مما يدركه معظم الناس.

أشارت ريانون من النوافذ إلى عشرات النيران التي تضيء الحقل بالأسفل وقالت:

– «قطاع المشاة لا يزال يخيم في الخارج.»

علقت نادين، لكن دون النبرة المتعجرفة التي اعتدتُ سماعها منها، بل بنفس الإرهاق الذي أظن أننا جميعاً نشعر به:

– «لا بد أنه من الرائع الحصول على استراحة. النساخون سيعودون جميعاً إلى منازلهم في الصيف. المعالجون يقضون عطلات نهاية الأسبوع في منتجعات الصحة النفسية والجسدية، والمشاة قد يضطرون للتدرب على نصب وتفكيك المخيمات في الثلج طوال الشتاء، لكنهم على الأقل يقضون تلك الأشهر حول نار المخيم.»

جادلت إيموجين:

– «ونحن سنعود إلى منازلنا أيضاً.»

ردت ريانون:

– «بعد التخرج. ومن أجل ماذا؟ بضعة أيام؟»

وصلنا إلى مفترق طرق، حيث يمكننا إما اتباع النفق نزولاً إلى الأرشيف أو التسلق نحو حصن الكلية الحربية.

قلتُ للمجموعة وأنا أنظر إلى الدرج الحلزوني الذي تسلقته مرات لا تحصى لدرجة أنني أحفظ كل درجة فيه عن ظهر قلب:

– «لا مجال للتراجع من هنا.»

أمرت كوين:

– «قودي الطريق!»

فقفزنا جميعاً حوالي قدم في الهواء رعباً.

فحت إيموجين بصوت خافت:

– «اصمتي! بعضنا يمكن أن يُقبض عليه، كما تعلمين.»

انكمشت كوين خجلاً:

– «صحيح. آسفة.»

همستُ:

– «فليتذكر الجميع الخطة. لا أحد يحيد عنها. لا أحد.»

أومأوا جميعاً برؤوسهم، وبدأنا تسلقنا الصامت للدرج المظلم، ثم تسللنا متخفين في الظلال بينما نعبر الساحة الحجرية لباسجيات.

– 'بالتأكيد كان بإمكاني الاستعانة بـ زايدن الآن.'

طمأنتني أندارنا بنبرة تغمرها السعادة:

– 'أنتِ تبشين بلاءً حسناً.'

أقسم أن لا شيء يزعجها. إنها أشجع طفلة قابلتها في حياتي، وأنا نشأتُ مع ميرا.

همستُ حين وصلنا إلى مجموعة الدرجات التالية:

– «بقي ستة طوابق مستقيمة للأعلى.»

وواصلنا التسلق بأسرعِ ما يمكننا دون إصدار أي ضجيج. ارتفع مستوى القلق لدي، ونهضت قوتي استجابة لذلك، ليسخن الأثر في ظهري ويحترق بشكل مزعج. إنه دائماً هناك مؤخراً، يغلي تحت بشرتي، يذكرني بأن أداء السحر البسيط لن يكون كافياً لتنفيسه إن لم أُظهر قدرة سحرية فريدة قريباً.

أخيراً، وصلنا إلى قمة الدرج، وانحنى ليام ليطل بما يكفي لرؤية امتداد ما بدا دائماً وكأنه أطول ممر في العالم.

همس وهو يتراجع إلى أمان بئر السلم:

– «هناك أضواء سحرية في الشمعدانات الجدارية. ولقد كنتِ محقة. هناك حارس واحد فقط متمركز عند الباب.»

سألتُ بهدوء:

– «هل كان هناك أي ضوء يتسرب من تحت الباب؟»

بدا نبض قلبي صاخباً لدرجة تكفي ليسمعه كل من في الكلية، حتى متدربي المشاة النائمين على بعد مئات الأقدام تحتنا.

أجاب وهو يلتفت إلى كوين:

– «لا. الحارس يبدو بطول ستة أقدام تقريباً، لكنه يبدو رياضياً جداً. بئر السلم الآخر يقع أسفل الممر إلى اليسار، مما يعني أنه سيتعين عليكِ لفت انتباهه ثم الركض كالمجنونة.»

أومأت كوين:

– «لا مشكلة.»

سألتُ:

– «هل يعرف الجميع ما يجب عليهم فعله؟»

تلقيتُ ثماني إيماءات.

– «إذن فلننفذ هذا. كوين، دوركِ. أما البقية، فتراجعوا للأسفل حتى لا يتمكن من رؤيتنا إن نظر في هذا الاتجاه.»

لا أصدق أننا على وشك القيام بذلك حقاً. إن قبضت علينا أمي، فلن تكون هناك أي رحمة. هذا ليس من طبيعتها.

تراجعنا، واندفعت كوين صاعدة الدرج. كان صوتها مكتوماً بسبب الجدران الحجرية، لكننا سمعنا وقع أقدام الحارس الثقيل بوضوح تام وهو يركض متجاوزاً الدرج.

– «توقفي! لا يُسمح لكِ بالتواجد هنا!»

أمرت إيموجين:

– «الآن!»

انطلقنا كالسهم، تاركين ريانون وإيمري في بئر السلم بينما اندفعنا إلى الردهة. ركض سوير نحو الدرج المقابل، دافعاً الباب ليغلقه ولاوياً المفصلات المعدنية بقواه بينما اندفعنا نحن أسفل الممر.

لم أركض بهذه السرعة في حياتي قط، وكانت نادين عند الباب بالفعل، تحاول فك أياً كانت التعاويذ الوقائية التي وضعتها أمي.

اتخذ ليام موقع الحارس، ورفع ذقنه في الهواء متخذاً نفس الوضعية المتأهبة.

سألني:

– «هل أنتِ بخير؟»

أجبته وأنا ألهث بينما تدخلت إيموجين لمساعدة نادين:

– «أجل.»

قدرة نادين السحرية الفريدة هي تفكيك التعاويذ الوقائية، وهو أمر لم أتخيل أبداً أنه سيكون مفيداً بهذا الشكل. فالركاب دائماً ما يكونون في الخارج لبناء التعاويذ والحفاظ على الدروع حول نافار. ولكن مرة أخرى، لا يحاول الكثير من الركاب اقتحام مكتب القائدة العامة.

طمأنته وابتسامة تتسلل إلى شفتيّ:

– «وسأكون بخير في الداخل. وهو أمر مضحك، لأنني لم أفكر بنفس الطريقة في آخر مرة وقفتُ فيها هنا.»

همست نادين وهي تدفع الباب ليفتح:

– «لقد فككتها!»

بدأ ليام، والقلق يرتسم على جبهته:

– «إذا سمعتموني أصفر...»

قاطعته وأنا أطمئنه بينما اندفع ريدوك وسوير للداخل:

– «سنخرج من النافذة أو نتصرف. استرخِ.»

تركتُ ليام ليقف كحارس، وانضممتُ إلى الآخرين في مكتب أمي.

حذرتهم:

– «لا تلمسوا الأضواء السحرية وإلا ستعلم بالأمر. يجب أن تصنعوا أضواءكم الخاصة.»

لوحتُ بمعصمي، محولة قوتي إلى شعلة زرقاء ساطعة وتركتها تطفو فوقي. إنه أحد الأشياء التي أُجيدها فعلاً.

سأل ريدوك وهو يرتمي على الأريكة الحمراء:

– «كم يبدو هذا المكان فخماً؟»

وبخه سوير متجهاً نحو خزانة الكتب:

– «لا نملك وقتاً لتكون... أنت. ساعدني في البحث عن شيء مفيد.»

قالت إيموجين ونادين وهما تبدآن في فرز الأوراق على طاولة الاجتماعات السداسية:

– «سنتولى نحن أمر الطاولة.»

تمتمتُ وأنا أمشي حول قطعة الأثاث المهيبة، مصلية ألا أُفعل أي تعاويذ فخية قد تكون وضعتها:

- «مما يترك لي هذا المكتب.»

كانت هناك ثلاث رسائل مطوية في المنتصف، فالتقطتُ الأولى، كاشفة عن خنجر حاد بمقبض مدمج بخليط معدني وما بدا وكأنه رمز تايرِندي في مقبضه، والذي لا بد أنها تستخدمه كفتاحة رسائل أو ما شابه. فتحتُ الرسالة بأكبر قدر ممكن من الحذر.

القائدة العامة سورنجيل،

لقد أرهقت الغارات حول نقطة آثبين الجناح إلى أقصى حد. التمركز خارج حماية التعاويذ الوقائية يحمل مخاطر جسيمة، ورغم أنني أمقت طلب التعزيزات، إلا أنني مضطر لذلك. إن لم نعزز هذا الموقع، فقد نُضطر للتخلي عنه. نحن نحمي مواطني نافار بأرواحنا وأجنحتنا، لكني لا أستطيع أن أنقل لكِ بدقة مدى خطورة الوضع هنا. أعلم أنكِ تتلقين التقارير اليومية من وحدة النساخين الملحقة بنا، لكنني سأكون مقصراً في واجباتي كنائب لقائد الجناح الجنوبي إن لم أكتب لكِ شخصياً. نرجو توفير التعزيزات لنا.

المخلص،

الرائد كاليستا نيما

تنفستُ متجاهلة الألم الذي انفجر في صدري أمام التوسل في رسالته. لقد ناقشنا الهجمات شبه اليومية في الموجز القتالي، لكن لم يُذكر شيء بهذا الحجم.

ربما لا يريدون إخافتنا.

لكن إن كان الوضع مرعباً إلى هذا الحد هناك، فمن حقنا تماماً أن نعلم – فمن المرجح أن نُستدعى للخدمة قبل تخرجنا. وربما حتى هذا العام.

قالت إيموجين وهي تقلب أوراق طاولة الاجتماعات:

– «كل هذه... أرقام.»

قلتُ وأنا ألتقط الرسالة التالية:

– «نحن في أبريل. إنها تعمل على ميزانية العام القادم.»

توقف الجميع والتفتوا للنظر إليّ، وعلت وجوههم تعبيرات تتفاوت في درجات عدم التصديق.

هززتُ كتفي متسائلة:

– «ماذا؟ هل ظننتم أن هذا المكان يُدير نفسه بنفسه؟»

أمرت إيموجين:

– «واصلي البحث.»

فتحتُ الرسالة التالية.

القائدة العامة سورنجيل،

الاحتجاجات المتعلقة بقوانين التجنيد تتزايد داخل مقاطعة تايريندور. ونظراً لحجم تايريندور الذي يجعلها توفر الغالبية العظمى من مجندينا لتعزيز خطوط المواجهة، لا يمكننا تحمل فقدان دعم شعبها مجدداً. لعل ضخ المزيد من الإنفاق الدفاعي على المواقع الأمامية هنا لن يعزز اقتصاد المقاطعة فحسب ويذكر شعب تايريندور بمدى الحاجة إليهم في الدفاع عن مملكتنا، بل قد

يهدئ أيضاً من حدة الاضطرابات. يرجى النظر في هذا الحل كبديل لقمع الاضطرابات بالقوة.

المخلص،

المقدم أليسا ترافونتي

ما هذا بحق الجحيم؟ أغلقتُ الرسالة وأعدتها إلى مكتب أمي، ثم التفتُّ إلى الخريطة الضخمة المعلقة على الجدار فوقي مباشرة.

الاضطرابات ليست جديدة على تايريندور، ولا المشاعر المناهضة للتجنيد، لكننا بالتأكيد لم نسمع أي همهمات سياسية في الموجز القتالي. وبخلاف تهدئة السخط، لا يبدو من المنطقي زيادة الإنفاق الدفاعي هناك، خاصة وأنها تضم أقل عدد من مواقعنا الأمامية بفضل الحاجز الطبيعي الذي توفره منحدرات درالور، والتي يستحيل على الغريفيون تسلقها. من المفترض أن تكون تايريندور بالفعل واحدة من أكثر المقاطعات أماناً في القارة. حسناً، باستثناء أريتيا. حيثما كان يُفترض أن تكون تلك العاصمة، لم يكن هناك سوى علامة حرق، وكأن حرق المدينة قد شوه الخريطة أيضاً.

درستُ الخريطة لثوانٍ ثمينة، ملاحظة علامات التحصينات المتناثرة على طول الريف. منطقياً، هناك المزيد من المواقع الأمامية على طول مناطقنا الحدودية الأكثر نشاطاً، ووفقاً لهذه الخريطة، هناك المزيد من القوات في تلك المواقع.

كانت الخريطة تظهر كل نافار، ومقاطعة كروفلا إلى الجنوب، وبرايفيك وسيجنيسين إلى الشرق، وحتى حواجز الأرض اليباب، الأراضي المهجورة المدمرة في الطرف الجنوبي الشرقي من القارة. كما أظهرت كل موقع أمامي وطرق الإمداد داخل نافار.

انتشرت ابتسامة بطيئة على وجهي.

– «يا رفاق الفرقة الثانية. لقد عرفتُ ما الذي يجب علينا سرقته.»

استغرق الأمر منا بضع دقائق لإنزال الخريطة وقطعها عن إطارها، ودقيقة أخرى لطيها وتثبيتها بأربطة جلدية أخرجتها إيموجين من حقيبتها.

صفر ليام، وكاد قلبي يقفز من صدري.

ركض ريدوك نحو الباب وفتحه شقاً صغيراً بينما استعدينا جميعاً للهرب:

– «تباً! ما الذي يجري في الخارج؟»

همس ليام بصوت أقرب للصراخ وهو يفتح الباب بينما اندفعنا جميعاً نحو الممر:

– «إنه يطرق باب الممر بعنف! سينهار في أي لحظة. يجب أن نغادر الآن.»

كانت الخريطة أكبر من أن يحملها شخص واحد، فكافح سوير وإيموجين للمرور عبر إطار الباب بينما ركل الحارس الباب أبعد في الممر.

هوت معدتي إلى الأرض، وهدد الذعر بإغراق أي تفكير منطقي.

أعلنت نادين:

– «ونحن هالكون تماماً.»

صرخ الحارس وهو يندفع نحونا:

– «ما الذي تظنون أنكم تفعلونه بحق الجحيم؟»

ارتد ريدوك على أطراف أصابعه وكأنه يتهيأ للقتال:

– «نحن موتى إن قبض علينا بالخريطة.»

في أي يوم عادي، كنتُ لأجادل بأن الركاب هم المقاتلون الأفضل – يجب أن نكون كذلك – لكن حارس باسجيات هذا قد يكون نداً قوياً لنا حقاً.

احتججتُ:

– «لا يمكننا إيذاؤه.»

اندفع الحارس متجاوزاً بئر السلم الأول، وخطت ريانون إلى منتصف الممر، فارشة ذراعيها.

هتفت إيموجين مراراً:

– «أرجوكِ انجحي. أرجوكِ انجحي. أرجوكِ انجحي.»

اختفت الخريطة من يديها وعاودت الظهور أسفل الممر في يدي ريانون.

بالكاد كان لدي الوقت لأستوعب أن الأمر نجح حين تعثر الحارس، لكنه واصل الركض. خطوة أخرى أقرب وسيرى وجهي.

انتقل ليام للوقوف بجانبي وقال:

– «هذا لم يكن جزءاً من الخطة.»

هست إيموجين:

– «تكيفوا! إيمري!»

فتقدم طالب السنة الثالثة إلى مقدمة فرقة الإغارة الصغيرة خاصتنا.

قال إيمري:

– «أنا آسف جداً يا رجل.»

ثم مد يديه ودفع. اندفع سيل هائل من الهواء أسفل الممر، ممزقاً النسيج المزخرف من الجدران وصادماً الحارس، ليقذفه طائراً ضد الجدار الحجري.

– «اركضوا!»

ركضنا بأقصى سرعة أسفل الممر نحو المكان الذي يرقد فيه الحارس بلا حراك.

همستُ وأنا أفتح الباب المجاور بالقوة، والذي يعود لأحد وكلاء أمي:

– «أدخلوه إلى هنا.»

سحب ليام وريدوك الحارس للداخل، فوضعتُ أصابعي على عنقه.

– «نبضه قوي وجيد. لقد أفقدته الوعي وحسب. افتحوا فمه.»

أخرجتُ القارورة المخبأة في جيب سترتي الجلدية، وفتحتُ سدادتها، ثم تركتُ المنشط يتدفق في فم الحارس.

– «سينام بقية الليل.»

التقت عينا ليام المتسعتان بعينيّ وقال:

– «أنتِ مرعبة نوعاً ما.»

ابتسمتُ مجيبة:

– «شكراً لك.»

ثم خرجنا من هناك، نركض بأقصى سرعة ممكنة.

بعد خمس عشرة دقيقة، كانت صدورنا لا تزال تعلو وتهبط بشدة ونحن ننزلق إلى غرفة الموجز القتالي، بالكاد قبل انتهاء الوقت.

كنا آخر الواصلين، وتقلص فك داين من مكانه في الصف العلوي مع بقية القيادة أخبرني أننا سنستمع لتوبيخ طويل حول هذا الأمر.

أشحتُ بنظري عنه، ووجدنا مقاعدنا بينما بدأت العروض التقديمية بترتيب الفرق، مما منحنا وقتاً كافياً للتعافي من جلسة الركض الماراثونية قبل أن نضطر لاعتلاء المسرح.

سرقت فرقة من الجناح الأول دليل كاوري المكتوب بخط اليده عن العادات الشخصية والعيوب لكل التنانين النشطة. مبهر.

أثارت فرقة في الجناح الثاني همهمة إعجاب حين كشفوا عن زي أحد أساتذة المشاة، سليم تماماً وبشيء لا يحمله الركاب أبداً – بطاقة اسم. من شأن

هذا أن يمنح أي عدو حق الوصول إلى مواقعنا الأمامية، بالنظر إلى الرتبة المعلقة على الكتف.

أفضل ما قدمه الجناح الثالث كان نساخاً مذهولاً ومذعوراً، سُرق مباشرة من سريره، وبالنظر إلى أن فمه لا يتحرك... أجل، يبدو أن القدرة السحرية الفريدة لأحدهم تسلب القدرة على الكلام. سيعاني هذا المسكين من صدمة نفسية حين يطلقون سراحه أخيراً.

حين حان دورنا لاعتلاء المسرح، أمسك سوير وليام، أطول فردين في فرقتنا، بالزاويتين العلويتين لخريطتنا بحيث كانت مرئية للجميع بينما تُفتح.

وقفتُ في الخلف بجوار إيموجين، وبحثتُ بين القيادة عن زوج معين من العيون العقيقية. وها هو ذا.

كان زايدن يستند إلى الجدار بالقرب من قادة الأجنحة الآخرين، يراقبني بمزيج يسرع النبض من الفضول والترقب.

همست إيموجين وهي تدفعني للأمام:

- «لقد كانت فكرتكِ. تفضلي بالتقديم.»

اتسعت عينا ماركهام كالصحون وهو يجبر نفسه على الوقوف، وتبعته سريعاً ديفيرا، التي تدلى فكها بصورة تكاد تكون كوميدية.

تنحنحتُ وأشرتُ إلى الخريطة قائلة:

- «لقد جلبنا السلاح المطلق لأعدائنا. خريطة محدثة لجميع المواقع الأمامية الحالية لأجنحة نافار، بما في ذلك قوة القوات في تحصينات المشاة.»

أشرتُ إلى الحصون على طول حدود سيجنيسين وأضفت:

- «فضلاً عن مواقع جميع المناوشات الحالية في الثلاثين يوماً الماضية. بما في ذلك الليلة الماضية.»

دوت همهمة صدمة عبر القطاع بأسره.

سأل كاوري وهو يمسك بيوميته المستعادة تحت ذراعه:

– «وكيف نعلم أن هذه الخريطة محدثة بالفعل؟»

لم أستطع منع الابتسامة التي انتشرت على وجهي وأنا أجيب:

– «لأننا سرقناها من مكتب القائدة العامة سورنجيل.»

اندلعت فوضى عارمة ومطلقة، حيث اندفع بعض الركاب نحو المسرح بينما شق الأساتذة طريقهم نحونا بصعوبة، لكني تجاهلتُ كل ذلك حين ابتسم زايدن برفع زاوية واحدة من ذلك الفم الفاتن، ورفع قبعة خيالية لي، حانياً رأسه للحظة قبل أن يعيد نظراته لتلتحم بنظراتي.

غمرني الرضا في كل خلية من كياني وأنا أرد له الابتسامة.

لا يهم كيف ستنتهي نتيجة التصويت.

لقد فزتُ بالفعل.

«ليس ثمة رابط أمتن من ذلك الذي يجمع بين تنينين رفيقين. إنه يتجاوز في عمقه حدود الحب والعشق البشريين، ليغدو حاجة غريزية قاهرة للقرب الدائم. فلا حياة لأحدهما دون الآخر.»

– الدليل الميداني لسلالات التنانين، للعقيد كاوري



الفصل السادس والعشرون

أتدبر أمري جيدًا في الطيران لمسافات قصيرة. لكن المناورات الجوية –تلك الانقضاضات والالتفافات الحادة التي تتطلبها التشكيلات القتالية– تتركني أترنح في كبد السماء، لولا أن يثبتني تايرِن بأحزمة متينة من طاقته السحرية.

غير أن التحليق لست ساعات متواصلة لنيل جائزتنا، المتمثلة في جولة تدوم أسبوعًا كاملًا في إحدى النقاط الأمامية، قد يكون هو القاضية.

قالت نادين وهي تنحني مستندة بكفيها على ركبتيها:

– «أنا على يقين من أنني ألفظ أنفاسي الأخيرة.»

أجبتها مبدية تفهمي:

– «أشعر بكِ تمامًا.»

تصرخ كل فقرة في عمودي الفقري ألمًا وأنا أتمطط، وبدأت يداي، اللتان كانتا متجمدتين قبل دقائق قليلة، تتصببان عرقًا داخل قفازاتي الجلدية.

وكما هو متوقع، يبدو داين بالكاد متأثرًا بالرحلة، إذ لم يعترِ وقفته سوى تصلب طفيف، بينما يتقدم برفقة الأستاذة ديفيرا لتحية رجل فارع الطول يرتدي الزي الأسود المميز للركاب، افترضتُ أنه قائد النقطة الأمامية.

قال القائد بابتسامة عملية وهو يطوي ذراعيه على صدره المكسو بجلد خفيف:

– «مرحبًا بكم أيها المتدربون.»

كان شعره المختلط بالشيب يجعل من العسير تخمين عمره، وعلا وجهه ذلك الشحوب القاسي الذي يسم ملامح كل الركاب الذين طال مكوثهم على الحدود. تابع قائلًا:

– «أنا واثق من أنكم تودون جميعًا الاستقرار في غرفكم وارتداء ملابس تلائم هذا المناخ. بعد ذلك، سنأخذكم في جولة للتعرف على مونتسيرات.»

شهقت ريانون بحدة، وهي تمرر بصرها على امتداد الجبال. فسألتها:

– «هل أنتِ بخير؟»

أومأت برأسها وأجابت:

– «ليس الآن.»

وحلّ هذا الأوان بعد اثنتي عشرة دقيقة تفصدنا خلالها عرقًا، حين أُرشدنا إلى غرفنا المشتركة في الثكنات. كانت الغرف متقشفة، لا تحوي سوى سريرين، وخزانتين، ومكتب يتيم قبع تحت نافذة عريضة.

التزمت الصمت طوال طريقنا نحو غرف الاستحمام لننفض عن أجسادنا غبار الرحلة، وبقي صمتها مطبقًا ومثيرًا للقلق ونحن نرتدي دروعنا الجلدية الصيفية. قد نكون في شهر أبريل هنا في مونتسيرات، لكن الأجواء توحي وكأننا في باسجيات في عز يونيو.

سألتها وأنا أدس حقيبتي تحت السرير، قبل أن أتحسس خناجري لأتأكد من استقرارها في مواضعها:

– «هل ستخبرينني بما يجري؟»

كانت المقابض تكاد تتوارى داخل الأغماد المثبتة على فخذي، واستبعدتُ أن يميّز الكثيرون هنا في أقصى الشرق تلك الرموز التايريندوربة المنقوشة عليها.

ارتجفت يدا ريانون بطاقة متوترة وهي تثبت سيفها على ظهرها، وسألتني:

– «هل تدركين أين نحن؟»

استحضرتُ خريطة في ذهني وأجبت:

– «نحن على بُعد نحو مئتي ميل من الساحل–»

قاطعتني قائلة:

– «قريتي لا تبعد من هنا سوى أقل من ساعة سيرًا على الأقدام.»

التقت عيناها بعيني في رجاء صامت، ومارت في عمقيهما البنيين الداكنين مشاعر جياشة أطبقت على حنجرتي وخنقت الكلمات في حلقي.

أمسكتُ بيديها وعصرتهما بحنان، وأومأتُ برأسي. أعلم يقينًا ما تطلبه، وأدرك تمامًا الثمن الباهظ الذي سندفعه إن ضُبطنا.

همستُ لها، رغم أننا وحدنا في تلك الغرفة الضيقة:

– «لا تخبري أحدًا. أمامنا ستة أيام لتدبر الأمر، وسنفعلها.»

كان هذا وعدًا قاطعًا، وكلتانا تدرك ذلك.

قرع أحدهم باب غرفتنا بقوة صائحًا:

– «هيا بنا، يا الفرقة الثانية!»

إنه داين. قبل تسعة أشهر، كنتُ لأستمتع بهذا الوقت الذي أقضيه بعيدًا برفقته. أما الآن، فأجدني أتهرب من توقعاته المستمرة تجاهي، بل أتهرب منه هو شخصيًا. من المضحك كيف تنقلب الأمور رأسًا على عقب في لمح البصر.

انضممنا إلى البقية، واصطحبنا الرائد كويد في الجولة الشاملة للنقطة الأمامية. زمت معدتي جوعًا، لكنني تجاهلتها، مستوعبةً تلك الطاقة المحمومة التي تعج بها القاعدة.

الحصن في جوهره عبارة عن أربعة جدران هائلة، تغص بالثكنات والغرف المتنوعة، وتتوج زواياه أبراج مراقبة، وله مدخل مقوس ضخم يتصدره باب شبكي ذو مسامير مدببة يبدو مهيئًا للسقوط في أي لحظة. في أحد أطراف الباحة، يقع إسطبل ملحق به حدادة ومستودع أسلحة لسرية قطاع المشاة المتمركزة هنا، وفي الطرف المقابل تقع قاعة الطعام.

قال الرائد كويد ونحن نقف في منتصف الباحة الموحلة:

– «كما ترون، بُني هذا المكان ليصمد أمام الحصار. في حال التعرض لهجوم، يمكننا توفير المأكل والمأوى للجميع هنا لفترة كافية.»

تمتم ريدوك بشفتيه دون أن يُصدر صوتًا، رافعًا حاجبيه باستنكار:

– «كافية؟»

أطبقتُ شفتي بقوة لأكبح ضحكتي، بينما رمقه داين –من موقعه بجانبي– بنظرة تتوعده بالعقاب. فتلاشت ابتسامتي في مهدها.

تابع كويد الشرح:

– «باعتبارنا إحدى النقاط الأمامية الشرقية، يتمركز هنا اثنا عشر راكبًا بالتمام. ثلاثة منهم في دورية الآن، وثلاثة في حالة تأهب للتدخل عند الحاجة، بينما البقية يأخذون قسطًا من الراحة بنسب متفاوتة.»

همس داين متسائلًا:

– «ما خطب تلك النظرة؟»

أجبته، بالتزامن مع زئير تنين مميز تردد صداه بين الجدران الحجرية:

– «أي نظرة؟»

قال كويد مبتسمًا ابتسامة بدا أنه يود إظهار صدقها، لكنه افتقر إلى الطاقة اللازمة لذلك:

– «يبدو أن إحدى دورياتنا قد عادت لتوها.»

رد داين، مميلًا رأسه قليلًا وخافضًا صوته بالكاد ليقتصر على مسمعي:

– «تلك النظرة التي توحي بأن أحدهم قد سلب بهجة الحياة من عالمكِ للتو.»

كان بوسعي أن أكذب عليه، لكن ذلك سيجعل هُدنتنا الهشة أكثر حرجًا وثقلًا. لذا قلت:

– «كنتُ أسترجع ذكرى الفتى الذي طالما تسلقت معه الأشجار، هذا كل ما في الأمر.»

جفل وكأنني صفعته للتو.

استرسل كويد حديثه:

– «حسنًا، سنقدم لكم أيها الركاب طعامًا ساخنًا ومكانًا لتناموا فيه، ثم سنقرر غدًا من سترافقون في مهامه لغرض المراقبة والتعلم طوال فترة إقامتكم هنا.»

سأل هيتون وهو يكاد ينتفض حماسًا:

– «هل سنحظى بفرصة المشاركة في أي عمليات ميدانية حقيقية؟»

قاطعته ديفيرا بحزم قاطع:

– «مطلقًا!»

أجاب كويد:

– «إذا شهدتم أي قتال، فهذا يعني أنني قد فشلت في جعل هذا المكان الأكثر أمانًا على طول الحدود لإرسالكم إليه. لكنك تنال نقاطًا إضافية على حماسك هذا. دعني أحزر. أنت طالب في السنة الثالثة، أليس كذلك؟»

أومأ هيتون بالإيجاب.

التفت كويد قليلًا ورسم ابتسامة لثلاثة أطياف مبهمة ترتدي زي الركاب الأسود، تعبر أسفل الباب الشبكي. وقال:

– «ها هم قد وصلوا. لمَ لا تتقدمون أنتم الثلاثة للتعرف على–»

قاطعه صوت مألوف:

– «ڤيوليت؟»

التفتُّ برأسي بحدة نحو البوابة، واشتعل قلبي بسلسلة من النبضات المضطربة التي جعلتني أقبض على صدري تحت وطأة أجمل صدمة ممكنة.

مستحيل. هذا ضرب من الخيال. تعثرت خطواتي وأنا أندفع نحو البوابة، متناسية كل ادعاء بالصلابة، وكل درع عاطفي كنت أتدثر به، بينما انطلقت هي الأخرى راكضة، وفتحت ذراعيها على مصراعيهما قبيل أن نصطدم ببعضنا.

انتشلتني من الأرض، وشدتني إلى صدرها بعناق اعتصرني بقوة. كانت تفوح منها رائحة التراب، والتنانين، والنفحة النحاسية اللاذعة للدم، لكنني لم ألقِ لذلك بالًا، وبادلتها العناق بالحدة ذاتها.

همستُ واسمها يتردد على شفتي:

– «ميرا.»

دفنت وجهي في كتفها، وشعرت بحرقة الدموع في عيني حين وضعت يدها فوق الجديلة التي علمتني هي كيف أضفرها. بدا الأمر وكأن ثقل كل ما كابدته

خلال الأشهر التسعة الماضية قد انهار دفعة واحدة، ليصطدم بي بقوة سهم أُطلق من قوس ونشاب.

رياح المتراس الصخري العاتية.

النظرة التي سكنت عيني زايدن حين أدرك أنني أنتمي لآل سورنجيل.

صدى صوت جاك وهو يقسم على إزهاق روحي.

رائحة اللحم البشري المحترق في ذلك اليوم الأول.

الملامح التي ارتسمت على وجه أوريلي وهي تهوي من القفاز.

براير ولوكا وترينا و... تاينان. أورين وآمبر مافيس.

اختيار تايرِن وأندارنا لي.

قبلة زايدن.

تجاهل والدتنا لوجودي.

دفعتني ميرا إلى الخلف قليلًا، بمسافة تكفي لتتفحصني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، وكأنها تبحث عن أي إصابات. أومأت برأسها وأسنانها تنغرس في شفتها السفلى:

– «أنتِ بخير. أنتِ بخير، أليس كذلك؟»

أومأت برأسي، لكن صورتها تضببت في عيني؛ فصحيح أنني على قيد الحياة، بل وربما أزداد قوة، لكنني لم أعد قط تلك الفتاة التي تركتها عند قاعدة ذلك البرج، ومن تلك النظرة المثقلة بالهم في عينيها، أيقنتُ أنها تدرك ذلك أيضًا.

همست وهي تضمّني إليها مجددًا بقوة:

– «أجل.. أنتِ بخير يا ڤيوليت. أنتِ بخير.»

لو كررتها مرات كافية، لربما أبدأ بتصديقها.

تراجعتُ بحدة لأتأملها وسألتها:

– «وهل أنتِ بخير؟»

كان هناك ندبة جديدة تمتد من شحمة أذنها حتى عظمة ترقوتها.

– «بحق الآلهة يا ميرا!»

طمأنتني بلهجة جازمة قبل أن تتسع ابتسامتها:

– «أنا بخير، وانظري إليكِ! لم تموتي!»

انفجرتُ في ضحكة غير منطقية ومفعمة بالنشوة:

– «لم أمت! لستِ الطفلة الوحيدة بعد!»

غرقنا كلتانا في نوبة ضحك هيستيرية، وانحدرت الدموع على وجنتي.

سمعتُ إيموجين تُعلق ببرود:

– «عائلة سورنجيل غريبو الأطوار بحق.»

أجابها داين:

– «ليس لديكِ أدنى فكرة.»

ولكن عندما التفتُّ لأنظر إليه، كانت شفتاه تفتران عن أول ابتسامة صادقة ألمحها على وجهه منذ أشهر.

هتفت ميرا بحدة وهي تطوق كتفي بذراعها:

– «اخرس يا آيتوس. هيا يا ڤيوليت، أطلعيني على كل ما فاتني.»

قد نكون على بُعد مئات الأميال من باسجيات، لكنني لم أشعر قط بأني في منزلي كما شعرتُ في تلك اللحظة.

***

بعد انقضاء يومين، وفي مستهل المساء بُعيد العشاء مباشرة، تسللتُ أنا وريانون عبر نافذة غرفتنا في الطابق الأول، وقفزنا إلى الأرض. كانت ميرا في دورية خارجية، ورغم الروعة التي غمرتني لوجودها بقربي، إلا أن هذه كانت فرصتنا اليتيمة.

تواصلتُ ذهنيًا مع التنين:

'نحن في طريقنا.'

حذرني تايرِن:

'إياكما أن تُضبطا.'

أجبته:

'هذا ما نحاول تجنبه.'

تسللتُ أنا وريانون بمحاذاة جدار الحصن، ولدى التفافنا عند الزاوية المؤدية إلى الساحة—

اصطدمتُ بميرا بقوة جعلتني أرتد إلى الخلف.

صاحت ريانون وهي تسندني لئلا أسقط:

– «تبًا!»

بدأت ميرا بتوبيخي، وهي تعقد ذراعيها على صدرها وترمقني بنظرة قاسية ربما كنت أستحقها. حسنًا، أنا أستحقها بلا شك.

– «ألا تتحققين من الزوايا العمياء على الأقل؟»

أجبتها ببطء، في محاولة للدفاع عن نفسي:

– «عذري هو أنني لم أتوقع وجودكِ هنا من الأساس. من المفترض أنكِ في دورية الآن.»

أمالت رأسها وتأملتني وكأننا عدنا طفلتين، مستشفةً ما يدور في خلدي بوضوح تام، وقالت:

– «كانت تصرفاتكِ مريبة للغاية على العشاء، لذا بدّلتُ مناوبتي. هل تتكرمين بإخباري ماذا تفعلان خارج الأسوار؟»

اختلستُ نظرة إلى ريانون، لكنها أشاحت بوجهها بعيدًا.

تنهدت ميرا وفركت جسر أنفها قائلة:

– «لا إجابة من كلتيكما؟ حقًا؟ أنتما بحاجة إلى التسلل خلسة من موقع دفاعي شديد التحصين لأن...؟»

رفعتُ نظري نحو ريانون وقلت:

– «ستكتشف الأمر عاجلًا أم آجلًا. إنها ككلب صيد بارعٍ في مثل هذه الأمور، ثقي بي.»

تقلصت معدتي توترًا.

رفعت ريانون ذقنها بتحدٍ وأجابت:

– «سنطير إلى منزل عائلتي.»

شحب وجه ميرا وسألت باستنكار:

– «ستفعلان ماذا؟»

تدخلتُ لأشرحِ الموقف:

– «سنحلق إلى قريتها. لا يستغرق الأمر سوى رحلة طيران لخمس دقائق، وفقًا لتقدير تايرِن، و–»

قاطعتني ميرا وهي تهز رأسها نفيًا:

– «مستحيل! لا. لا يمكنكما التحليق بعيدًا وكأنكما في عطلة. ماذا لو أصابكما مكروه؟»

سألتها ببطء وسخرية مبطنة:

– «في منزل والديها؟ هل تتوقعين أن هناك كمينًا محكمًا أُعد خصيصًا لاحتمال أن نقرر فجأة المرور لإلقاء التحية؟»

ضاقت عينا ميرا.

سحقًا. الأمور لا تسير على ما يرام، ومن قبضة ريانون الحديدية على ذراعي الآن، أدركتُ أنها تشاركني الرأي.

جادلتها قائلة:

– «صدقيني، زيارة والديها أقل خطورة بكثير من البقاء في باسجيات.»

زمت ميرا شفتيها وأقرت:

– «نقطة وجيهة.»

اندفعتُ أقول:

– «تعالي معنا إذن. أنا جادة، رافقينا يا ميرا. كل ما تبتغيه هو رؤية شقيقتها.»

ارتخت كتفا ميرا. لقد بدأت تلين، فقررتُ بلا رحمة توجيه الضربة القاضية:

– «كانت رايغان حاملًا حين غادرت ريانون. هل تتخيلين ألا تكوني بجانبي لو رُزقتُ بطفل؟ ألن تفعلي المستحيل، بما في ذلك التسلل من موقع دفاعي شديد التحصين، إن كان ذلك يعني احتضان ابنة أو ابن شقيقتك؟»

جعدتُ أنفي تحسبًا لردها، وأضفت:

– «ثم إنه، بوجود بطلة ستريثمور إلى جانبنا، ما الذي قد يسوء؟»

تنهدت بضيق ونظرت إليّ، ثم إلى ريانون، ثم عادت بنظرها إليّ قبل أن تتذمر:

– «لا تبدئي بهذا الهراء. بحق الجحيم... حسنًا.»

لوحت بإصبعها مهددةً حين ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهينا، وأضافت:

– «ولكن، إن فكرتما مجرد تفكير في إخبار أي مخلوق، فسأجعلكما تندمان على ذلك طوال ما تبقى من حياتكما البائسة.»

همستُ لريانون:

– «إنها تعني كل كلمة.»

أجابتني ريانون:

– «لا يساورني شك في ذلك.»

تمتمت ميرا باستنكار:

– «لم يمضِ على وجودكِ هنا سوى يومين، وها أنتِ تخرقين القواعد بالفعل. هيا، سلك هذا الممر سيختصر علينا الوقت.»

بعد مرور ساعة، كنت أنا وميرا نتكئ براحة على المقاعد المبطنة التي تحيط بطاولة الطعام في منزل رايغان، نراقب ريانون وهي تهدهد ابن شقيقتها بجوار المدفأة، منغمسة في حديث دافئ مع أختها، بينما يرمقهم والداها وصهرها بحنان من على أريكة قريبة.

كان مشهد لمّ شملهم هذا يستحق كل العناء والمجازفة.

اختلستُ نظرة عبر الطاولة نحو ميرا وقلت:

– «شكرًا لمساعدتك لنا.»

ارتسمت على شفتيها ابتسامة رقيقة وهي تتأمل العائلة، وتطوق بكفها قدح النبيذ البيوتري الذي تفضلت والدة ريانون بتقديمه لنا سابقًا، وقالت:

– «كنتِ لتفعليها بي أو بدوني. فكرتُ أنني على الأقل، بهذه الطريقة، سأضمن سلامتك. ما هي القواعد الأخرى التي كسرتها يا شقيقتي الصغرى؟»

ارتشفت من نبيذها ورمقتني بنظرة ذات مغزى.

تسللت ابتسامة ماكرة إلى شفتي ورفعت كتفًا واحدة غير مبالية:

– «ربما بضع قواعد هنا وهناك. لقد صرتُ بارعة جدًا في تسميم خصومي قبل حلبات النزال.»

كادت ميرا تبصق نبيذها، ووضعت يدها على فمها بسرعة.

ضحكتُ وعقدت ساقي المكسوتين بالحذاء العسكري إحداهما فوق الأخرى:

– «أليس هذا ما كنتِ تتوقعينه؟»

أطل بريق الاحترام في عينيها وأجابت:

– «بصراحة، لا أعرف ما الذي توقعته. كنتُ يائسة وأرغب في بقائك على قيد الحياة وحسب. ثم ذهبتِ وتجاوزتِ كل التوقعات؛ لم تكتفي بالارتباط بواحد من أقوى التنانين الحية فحسب، بل ارتبطتِ بتنين ذي ذيل ريشي أيضًا!»

هزت رأسها بذهول وأضافت:

– «شقيقتي الصغرى مقاتلة شرسة لا يُستهان بها.»

مررت إبهامي على مقبض قدحي وقلت:

– «لست متأكدة من أن والدتنا ستشاطرك هذا الرأي. لم تتجلَّ قدرتي السحرية بعد. أنا ممتازة في التجذير، وبإمكاني رفع درع ذهني قوي لا بأس به، لكن...»

لم أستطع إخبارها بالبقية؛ بالهبة التي منحتني إياها أندارنا، على الأقل في الوقت الراهن. تابعتُ:

– «إذا لم تظهر قدرتي السحرية قريبًا...»

كلتانا تعلم عاقبة ذلك.

تأملتني بصمتها المعهود والمخترق، ثم قالت:

– «إليكِ الخلاصة؛ إن أردتِ لقدرتكِ السحرية أن تتبلور، فتوقفي عن كبتها بربطها بوالدتنا بأي شكل من الأشكال. قوتكِ ملككِ، وملككِ أنتِ وحدكِ، يا ڤاي.»

تململتُ تحت وطأة نظراتها الفاحصة وسارعتُ بتغيير الموضوع، ونظري ينخفض نحو رقبتها:

– «كيف أُصبتِ بهذا؟»

أومأت برأسها وأجابت:

– «غريفيون. حدث ذلك بالقرب من قرية كرانستون قبل نحو سبعة أشهر. ظهر ذلك الوحش من العدم في خضم غارة على القرية. انهارت التعاويذ الوقائية، وعادةً ما تمنحني قدرتي السحرية بعض الحصانة ضد سحرة الأعداء، لكن ليس ضد طيورهم الملعونة. استغرق الأمر من المعالجين ساعات طوال لتقطيب جراحي، لكنه خلف لي ندبة رائعة المظهر.»

رفعت ذقنها لتستعرضها متباهية.

استرجعتُ في ذهني حصص الموجز القتالي وقلت:

– «كرانستون؟ لم نتلقَّ أي معلومات عن هذه الواقعة. أنا...»

نبّهتني الفطرة السليمة بضرورة إطباق شفتي.

أخذت رشفة أخرى من نبيذها وسألت:

– «أنتِ ماذا؟»

اعترفتُ بصوت خافت:

– «أعتقد أن ما يدور على الحدود يتجاوز بكثير ما يُنقل إلينا.»

رفعت ميرا حاجبيها وقالت:

– «بالطبع هناك الكثير. لا تتوقعين من حصة الموجز القتالي أن تبوح بمعلومات سرية، أليس كذلك؟ أنتِ أذكى من ذلك. وبكل صراحة، بالنظر إلى وتيرة الهجمات المتصاعدة على حدودنا، سيحتاجون إلى تخصيص اليوم بأكمله للموجز القتالي لتشريح كل هجوم على حدة.»

وافقتها الرأي:

– «هذا منطقي. هل تتلقون أنتم كل المعلومات؟»

أجابت هزّة خفيفة من كتفيها:

– «فقط ما تمس حاجتنا إليه. على سبيل المثال، كنت أقسم أنني رأيت سربًا ضخمًا من التنانين عبر الحدود أثناء هذا الهجوم، لكن طرح الأسئلة حول العمليات السرية يتخطى صلاحياتي. فكري في الأمر من هذه الزاوية – لو كنتِ معالجة، هل ستحتاجين إلى معرفة تفاصيل حالات جميع المرضى الآخرين؟»

هززت رأسي نافية:

– «لا.»

رمقتني بنظرة لا تقبل الأعذار وقالت:

– «بالضبط. الآن أخبريني، بحق الجحيم، ما الذي يجري بينكِ وبين داين؟ لقد رأيت أوتار أقواس نشاب أقل توترًا منكما، ولا أقصد هنا التوتر المحمود.»

قدمتُ لها التفسير الأبسط لكل ما حدث في الأشهر التسعة الماضية:

– «احتججتُ للتغيير كي أبقى على قيد الحياة، وهو أبى أن يمنحني تلك الفرصة. كما أنني تسببتُ في مقتل صديقته آمبر؛ لقد كانت قائدة جناح. وبصراحة، كل ما يتعلق بزايدن باعد بيننا لدرجة أنني لم أعد أدرك كيف يمكنني ترميم صداقتنا. على الأقل، لن تعود لسابق عهدها.»

تأملتني ميرا للحظة هادئة ثم قالت:

– «إعدام قائدة الجناح تلك خبر يعرفه القاصي والداني. أنتِ لم تتسببي في مقتلها، بل هي من جلبت الموت لنفسها بانتهاكها الدستور العسكري. هل صحيح أن ريورسون أنقذ حياتكِ في تلك الليلة؟»

أومأت بالإيجاب:

– «زايدن موضوع معقد.»

معقد لدرجة أنني أعجز عن تحديد مشاعري تجاهه. مجرد التفكير فيه يثير في داخلي زوبعة تتركني عالقة في عقد متشابكة. أرغبه بشدة، لكنني لا أستطيع منحه ثقتي، ليس بالشكل الذي أتمناه. ورغم ذلك، ومن زوايا أخرى، هو أكثر شخص أئتمنه على حياتي.

اشتدت قبضتها على قدحها وقالت بلهجة محذرة:

– «آمل أن تكوني مدركة لما تورطين نفسك فيه. لأنني أتذكر بوضوح تام تحذيري لكِ بالابتعاد عن ابن ذلك الخائن الأكبر.»

تقلصت معدتي اشمئزازًا من نعت ميرا لزايدن، فقلت بتهكم مرير:

– «يبدو جليًا أن تايرِن لم يعر تحذيركِ أي اهتمام.»

أطلقت شخرة ساخرة.

توقفتُ قليلًا ومال جسدي للأمام لألمس يدها، وتابعت:

– «لكن حقًا، لولا ظهور زايدن في تلك الليلة، ولولا نومي بالدرع الذي أعطيتني إياه... لا يمكنني حتى أن أحصي لكِ كم مرة أنقذتِ فيها حياتي دون أن تكوني حاضرة حتى.»

ابتسمت ميرا وقالت:

– «يسعدني أنه أدى الغرض. أقسم لكِ أن جمع كل تلك الحراشف استغرق موسم طرح كامل.»

سألتها بفضول:

– «هل فكرتِ في إخبار والدتنا عنه؟ ليتم تصنيعه لجميع الركاب؟»

أسندت ظهرها إلى الخلف وتناولت رشفة أخرى قبل أن تجيب:

– «لقد أبلغتُ قادتي. قالوا إنهم يدرسون الأمر.»

رحنا نراقب ريانون وهي تقبل وجنتي ابن أختها الممتلئتين برقة. اعترفتُ قائلة:

– «لم يسبق لي أن رأيت عائلة تغمرها هذه السعادة البسيطة. حتى عندما كان برينان وأبي على قيد الحياة، لم نكن أبدًا... هكذا.»

ارتسمت على شفتيها ابتسامة حزينة وهي تنظر إليّ وأجابت:

– «لا، لم نكن كذلك. لكنني أستطيع تذكر ليالٍ لا تُحصى قضيناها ملتفين حول المدفأة مع أبي وكتابكِ الأثير ذلك.»

رفعت حاجبي بخبث:

– «آه أجل، الكتاب الذي أجبرتني على تركه في غرفتي القديمة.»

تحولت ابتسامتها إلى ضحكة صريحة:

– «تقصدين الكتاب الذي انتشلته خلسة تحسبًا لجنون مفاجئ قد يصيب والدتنا، فتقرر التخلص من أغراضكِ أثناء وجودكِ في القطاع؟ إنه معي في مونتسيرات. افترضتُ أنك ستستشيطين غضبًا لو تخرجتِ ولم تجديه. أعني، ماذا عساك تفعلين لو نسيتِ تفصيلًا دقيقًا عن كيف سحق الركاب البواسل جيش تنانين الويفرن والفينين الذين امتصوا سحر الأرض حتى جفت؟»

رمشتُ بذهول وقلت:

– «سحقًا. لا أستطيع التذكر. لكن يبدو أنني سأتمكن من قراءته مجددًا في القريب العاجل!»

تفجرت فقاعة من الفرح في صدري، وأضفتُ:

- «أنتِ الأفضل حقًا.»

أسندت ظهرها إلى الوراء ورمقتني بنظرة متأملة:

- «سأسلمك إياه في القاعدة. أعلم أنها مجرد أساطير وحكايات خرافية، لكنني لم أستوعب قط في الماضي لِمَ قد يختار الأشرار إفساد أرواحهم طواعية ليتحولوا إلى فينين، أما الآن...»

قطبت حاجبيها في تفكير عميق.

مازحتها قائلة:

- «الآن أصبحتِ تتعاطفين مع الأشرار؟»

هزت رأسها نافية:

- «لا، ولكننا نمتلك نوعًا من القوة قد يرتكب البشر الفظائع في سبيل الحصول عليها يا ڤيوليت. التنانين والغريفيون هم حراس البوابات، وأنا على يقين من أن التضحية بالروح قد تبدو ثمنًا بخسًا ومقبولًا للحصول على القدرة السحرية، في نظر شخص يتآكله الحسد ويعميه الطموح.»

هزت كتفيها وتابعت:

- «هذا يجعلني ممتنة للغاية لحكمة تنانيننا وبصيرتها الخارقة، ولتعاويذنا الوقائية التي تبقي ركاب الغريفيون بعيدًا. فمن يدري بحق الجحيم أي صنف من البشر تختاره تلك المخلوقات المكسوة بالفرو؟»

مكثنا هناك لساعة أخرى، حتى أدركنا أن بقاءنا لدقيقة إضافية سيوقعنا في شرك الانكشاف. حينها، تركنا أنا وميرا لريانون بعض الخصوصية لتودع عائلتها، وخرجنا من المنزل لنواجه ليلًا مشبعًا بالرطوبة. كان تايرِن هادئًا على غير عادته طوال الساعتين الماضيتين.

سألت ميرا وأنا أغلق الباب خلفنا:

- «هل سبق لك أن خدمتِ في قاعدة واحدة مع ركاب تنانين متزاوجة؟»

ضيقت عينيها وهي تحدق في الممر المظلم أمام المنزل وأجابت:

- «حالة واحدة فقط. لماذا تسألين؟»

أوضحت لها:

- «أتساءل فحسب عن أقصى مدة يمكنهم تحملها بعيدًا عن بعضهم.»

- «كما اتضح، ثلاثة أيام هي الحد الأقصى.»

انبعث هذا الرد من زايدن وهو يخطو خارجًا من بين الظلال.

«تقديرًا لشجاعتها التي فاقت نداء الواجب في معركة ستريثمور، حيث لم يُسفر إقدامها عن تدمير مدفعية خلف خطوط العدو فحسب، بل أنقذت أيضًا أرواح سرية مشاة بأكملها، أوصي بمنح ميرا سورنجيل نجمة نافار. وإن لم تُستوفَ المعايير المطلوبة -وأنا أؤكد لكم أنها استُوفيت- فإن تخفيض التكريم إلى وسام المخلب سيكون أمرًا مؤسفًا، ولكنه يف بالغرض.»

– توصية بمنح وسام من الرائد بوتسدام إلى الجنرال سورنجيل



الفصل السابع والعشرون

سأل ريدوك في عصر اليوم التالي، وهو يسند ظهره إلى مقعده ويرفع حذاءه العسكري ليضعه على طرف الطاولة الخشبية الممتدة بطول غرفة الموجز:

– «إذن، كل ما علينا فعله هو انتظار حدوث مكروه ما؟»

أجابت ميرا من موقعها على رأس الطاولة:

– «أجل.»

ثم نفضت معصمها بحركة سريعة، لتطيح بريدوك إلى الخلف، وأردفت:

– «وأبقِ قدميك بعيدتين عن الطاولة.»

ضحك أحد ركاب مونتسيرات، وهو يعيد ترتيب العلامات على الخريطة الضخمة التي تحتل الجدار الحجري الوحيد في الغرفة المنحنية المليئة بالنوافذ.

نحن الآن في أعلى برج مراقبة في النقطة الأمامية، والذي يوفر إطلالات لا مثيل لها على سلسلة جبال إسبن المحيطة بنا.

قُسّمنا اليوم إلى مجموعتين. أمضت ريانون، وسوير، وسيانا، ونادين، وهيتون الصباح برفقة الأستاذة ديفيرا في هذه الغرفة، لدراسة المعارك السابقة التي شهدتها النقطة الأمامية، وهم الآن في دورية خارجية.

أما أنا، وداين، وريدوك، وليام، وإيميري، وكوين، فقد أمضينا الصباح في تحليق دام ساعتين استكشفنا خلاله المنطقة المحيطة، بمرافقة ضيف إضافي ثقيل الظل؛ زايدن. لقد كان مصدرًا لأسوأ أنواع التشتيت منذ وصوله الليلة الماضية.

فداين لا يكف عن رمقه بنظرات حارقة وتوجيه التعليقات اللاذعة إليه.

وميرا، بدورها، تبقيه تحت أنظارها طوال الوقت، متدثرة بصمت مريب منذ البارحة.

أما أنا؟ فلا يبدو أنني قادرة على كبح نظراتي. ثمة طاقة ملموسة ترافقه في كل غرفة يخطو إليها، طاقة تلامس بشرتي كالنسيم كلما التقت عيوننا. وحتى في هذه اللحظة، أجدني واعية بكل خفقة نفس يصدرها وهو يجلس بجواري في منتصف الطاولة.

تابعت ميرا حديثها وهي ترمق ريدوك بطرف عينها بينما ينهض متخبطًا ليعود إلى مقعده:

– «اعتبروا هذه حصة الموجز القتالي الخاصة بكم. ما أنجزناه هذا الصباح يعادل ربع الدورية المعتادة التي نُسيّرها، لذا، في العادة، نكون الآن في طريق عودتنا لنرفع تقاريرنا إلى القائد. ولكن، من باب تمضية الوقت، وبما أننا نرابط في

هذه الغرفة كفريق التدخل السريع لظهيرة هذا اليوم، لنتخيل أننا اصطدمنا بنقطة معادية مستحدثة ومحصنة تتخطى حدودنا...»

التفتت نحو الخريطة وغرزت دبوسًا يحمل راية قرمزية صغيرة بالقرب من إحدى القمم، على بُعد نحو ميلين من حدود سيغنيسن، وأردفت:

– «هنا.»

سأل إيميري بشك صريح:

– «هل يُفترض بنا أن نتخيل أنها نبتت من العدم بين ليلة وضحاها؟»

ضيقت ميرا عينيها نحوه وقالت:

– «من باب الجدل فحسب يا طالب السنة الثالثة.»

فاعتدل إيميري في جلسته قليلًا.

علق راكب آخر من مونتسيرات من نهاية الطاولة، وهو يشبك أصابعه خلف عنقه:

– «تروقني هذه اللعبة.»

سألت ميرا وهي تمرر بصرها على الحاضرين، متجاهلة زايدن بوضوح:

– «ماذا سيكون هدفنا إذن؟»

ففي الليلة الماضية، اكتفت بإلقاء نظرة واحدة على أثر التمرد المنقوش على عنقه ومضت دون أن تنبس ببنت شفة. وتابعت موجهة حديثها:

– «آيتوس؟»

انتفض داين من موقعه، حيث كان يرمق زايدن عبر الطاولة بنظرات غاضبة، واستدار ليواجه الخريطة قائلًا:

– «ما طبيعة التحصينات القائمة هناك؟ هل نتحدث عن هيكل خشبي أُقيم عشوائيًا؟ أم شيء أكثر متانة؟»

تمتم ريدوك:

– «وكأنهم امتلكوا الوقت الكافي لتشييد حصن متكامل في ليلة واحدة! لا بد أن يكون خشبيًا، أليس كذلك؟»

تنهدت ميرا وفركت جبهتها بإبهامها قائلة:

– «تبًا، إنكم تأخذون الأمور بحرفية شديدة. حسنًا، لنقل إنهم احتلوا معقلًا قائمًا بالفعل. جدران حجرية وكل شيء.»

سألت كوين وهي تحك ذقنها المدبب:

– «ولكن ألم يطلب المدنيون النجدة؟ ينص البروتوكول على إطلاق إشارة استغاثة عند هذا العمق في الجبال. كان ينبغي عليهم إشعال منارة الاستغاثة لتنبيه الدراجين في دورياتهم، وحينها كانت التنانين المحلقة ستنقل الخبر إلى جميع التنانين المتاحة في المنطقة. وكان الركاب في هذه الغرفة بالتحديد سيمتطون تنانينهم أولًا كقوة تدخل سريع، في حين سيتم إيقاظ البقية من سباتهم، مما يمكن الركاب من الحيلولة دون سقوط المعقل من الأساس.»

أطلقت ميرا شخرة استهزاء، وأسندت يديها على طرف الطاولة لتحدق بنا جميعًا بصرامة وقالت:

– «كل ما تتلقونه في باسجيات لا يعدو كونه نظريات. أنتم تحللون الهجمات السابقة وتتعلمون تلك المناورات القتالية... النظرية بحتة. غير أن مجريات الأمور هنا لا تسير دائمًا وفق الخطة. لذا، لِمَ لا نناقش كافة السيناريوهات التي قد تنقلب فيها الأمور رأسًا على عقب، لتعرفوا كيف تتصرفون حين يقع المحظور، بدلًا من إضاعة الوقت في الجدال حول أن المعقل لم يكن ينبغي له أن يسقط؟»

تململت كوين في وقفتها بانزعاج.

اعتدلت ميرا في وقفتها، وطوت ذراعيها فوق درعها الجلدي الأسود والحزام الذي يثبت سيفها على ظهرها، وسألت:

– «كم منكم استُدعي للخدمة وهو في السنة الثالثة؟»

رفع إيميري وزايدن أيديهما، وإن كانت إيماءة زايدن بالكاد تُلحظ.

بدا داين وكأن رأسه على وشك الانفجار، فصاح:

– «هذا غير صحيح. نحن لا نُستدعى للخدمة أبدًا قبل التخرج.»

زمّ زايدن شفتيه في خط رفيع، وأومأ برأسه موجهًا إليه إبهامه إلى الأعلى في لفتة تقطر سخرية.

ضحك إيميري وقال:

– «أجل، حسنًا. انتظر حتى العام القادم فحسب. لا أستطيع إحصاء المرات التي كنا فيها نحن من يجلس في هذه الغرف بالذات في الحصون الوسطى، لأن ركابها استُدعوا إلى الجبهة في حالات الطوارئ.»

شحب وجه داين وغاض منه الدم.

قالت ميرا وهي تمد يدها أسفل الطاولة لتستخرج مجموعة من المجسمات، وتضع مجسمًا لمعقل حجري بارتفاع ست بوصات في وسط الطاولة:

– «بما أننا حسمنا هذه المسألة... التقطوا.»

رمت إلينا مجسمات خشبية ملونة لتنانين واحدًا تلو الآخر، واحتفظت بواحد لنفسها، ثم قالت:

– «تخيلوا أن ميسينا وإكسال لا وجود لهما هناك، وأننا الفرقة الوحيدة المتاحة لاستعادة ذلك المعقل. فكروا في حجم القوة الموجودة في هذه الغرفة. فكروا فيما يقدمه كل راكب بمفرده، وكيف يمكنكم توحيد هذه القدرات بتناغم لتحقيق هدفكم.»

تحدث ليام ببطء من الجانب الآخر لي:

– «لكنهم لا يعلمون طلاب السنة الأولى هذه الأمور.»

اختلست ميرا نظرة إلى الدوامات السحرية المنقوشة على معصمه، لكن يُحسب لليام أنه لم يسحب كمه ليخفيها. من الصعب أحيانًا تذكر أن طلاب السنة الثالثة هم أول دفعة من الركاب الذين سيخدمون جنبًا إلى جنب مع أبناء قادة التمرد التايريندورب – ذلك التمرد الذي كاد أن يترك حدودنا مستباحة في نهاية المطاف، ويُحيل أبرياء نافار إلى ضحايا حرب. لقد اعتاد الجميع في هذه الغرفة على وجود ليام، وإيموجين... بل وحتى زايدن. أما أولئك الذين يؤدون الخدمة الفعلية حاليًا، فلم يسبق لهم قط التحليق برفقة شخص يحمل أثر التمرد.

لقد رُقّي الركاب التايريندوريون الذين حافظوا على ولائهم لنافار خلال التمرد، ولم يُعاقبوا. أما من انقلبوا على الملك والوطن، فقد لاقوا حتفهم أو أُعدموا. ومثلما صببتُ جام حزني على فقدان بريْنان فوق رأس زايدن في ذلك اليوم الأول على المتراس الصخري، سيكون هناك أكثر من راكب يوجه غضبه الدفين نحو الركاب الموشومين بشكل خاطئ.

تنحنحتُ لأصفي حلقي.

التقت نظرات ميرا بنظراتي، فرفعتُ حاجبي محذرة إياها بوضوح: إياكِ والعبث مع أصدقائي.

اتسعت عيناها قليلًا، قبل أن تعيد انتباهها إلى ليام قائلة:

– «ربما لا يعلمونكم هذه الإستراتيجية القتالية في سنتكم الأولى لأنكم جميعًا تكونون منشغلين بمحاولة التشبث بظهور تنانينكم وعدم السقوط. لقد تذوقتم أولى تجاربكم الإستراتيجية خلال معركة الفرق، ونحن نقترب من شهر

مايو، مما يعني أن مناورات ألعاب الحرب النهائية يفترض أن تبدأ قريبًا، أليس كذلك؟»

أجاب داين:

– «بعد أسبوعين.»

علقت ميرا:

– «توقيت ممتاز إذن. لن ينجو جميعكم من تلك المناورات إن لم تكونوا مستعدين.»

ثبتت نظراتها عليّ للحظة، ثم أردفت:

– «هذا النمط من التفكير سيمنح فرقتكم –بل وجناحكم بأكمله– أفضلية حاسمة، إذ أضمن لكم أن قائد جناحكم يعكف بالفعل على تقييم قدرات كل راكب على حدة.»

أخذ زايدن يقلب مجسم التنين الخاص به بين مفاصل أصابعه ببرود دون أن ينبس بكلمة. فهو لم يوجه حرفًا واحدًا لميرا منذ وصوله.

تراجعت ميرا خطوة إلى الوراء وقالت:

– «حسنًا، لنبدأ. من يتولى القيادة؟»

اختلست نظرة نحو كوين وأضافت:

– «ولنتظاهر بأنني لا أسبق حتى أعلاكم رتبة بثلاث سنوات من الخبرة.»

اعتدل داين في جلسته، ورفع ذقنه قليلًا بزهو قائلًا:

– «إذن، أنا من يتولى القيادة.»

عارضه ليام وهو يشير إلى زايدن:

– «قائد جناحنا حاضر بيننا. أعتقد أن هذا يضعه تلقائيًا في سدة القيادة.»

وضع زايدن مجسم التنين على الطاولة وأسند ظهره إلى مقعده، ممددًا ذراعه على ظهر مقعدي في حركة جعلت داين يصر على أسنانه غيظًا، وقال:

– «بوسعنا التظاهر بأنني لست هنا، من باب التدريب فحسب. امنحوا آيتوس هذا المنصب الذي نعلم جميعًا أنه يتضور شوقًا إليه.»

همستُ له توبيخًا:

– «لا تكن وغدًا.»

'أنتِ لم تري بعد حتى بداية وغادتي.'

التفتُّ برأسي نحوه بسرعة أثارت دوارًا في رأسي، وانعقد لساني وانفرجت شفتاي وأنا أحدق في جانب وجه زايدن. لقد كان صوته... يتردد داخل رأسي اللعين.

استدار نحوي، لتلتقط البقع الذهبية في عينيه الضوء، وأقسم أنني سمعت صدى ضحكته يتردد في ذهني، رغم أن شفتيه كانتا مطبقتين، ترتسم عليهما تلك الابتسامة الماكرة التي تسرع نبضاتي.

'أنتِ تحدقين بي. سيصبح الأمر محرجًا بعد ثلاثين ثانية تقريبًا إن لم تتوقفي.'

فحستُ بصوت خافت:

– «كيف؟»

'بالطريقة ذاتها التي تتحدثين بها إلى سجايل. نحن جميعًا مترابطون بطريقة رائعة ومزعجة في آنٍ واحد. وهذه إحدى المزايا. رغم أنني بدأت أتمنى لو جربتها في وقت أبكر. الملامح المرتسمة على وجهك الآن لا تقدر بثمن.'

غمز بعينه وعاد ليوجه انتباهه نحو الطاولة.

لقد. غمز. لي. بحق. الجحيم! وهل كان ذلك طيف ابتسامة؟

تحدث داين من بين أسنانه المطبقة، مشددًا على كل كلمة:

– «أنت. قائد. الجناح.»

هز زايدن كتفيه بلامبالاة وأجابه:

– «لم يكن من المفترض أن أكون هنا من الأساس. ولكن إن كان هذا سيريحك، فلأغراض مناورات ألعاب الحرب، ستتلقى أوامرك من قائد قسمك، غاريك تافيس، والذي سيتلقاها بدوره مني. وستنفذون مناوراتكم كفرقة واحدة بما يخدم مصلحة الجناح. تخيل فحسب أنني مجرد عضو آخر في فرقتك ووظفني كما تشاء يا آيتوس.»

طوى زايدن ذراعيه على صدره.

اختلست نظرة إلى ميرا، التي كانت تتابع تفاصيل هذا التراشق بحاجبين مرفوعين.

تحدّاه داين متسائلًا:

– «ما الذي أتى بك إلى هنا أصلًا؟ مع كامل الاحترام يا سيدي، لم نكن نتوقع حضور القيادة العليا في هذه الرحلة.»

رد زايدن ببرود:

– «أنت تدرك تمامًا أن سجايل وتايرِن متزاوجان.»

انقض داين قائلًا وهو يميل بجسده للأمام:

– «ثلاثة أيام؟ ألم تحتمل فراقًا لثلاثة أيام؟»

تدخلتُ مقاطعة، ووضعت مجسم التنين الخاص بي على الطاولة بقوة فاقت الحاجة:

– «لا علاقة له بالأمر. هذا شأن يخص تايرِن وسجايل.»

'ألم يخطر ببالكِ قط أنكِ أنتِ من لم أستطع البقاء بعيدًا عنها؟'

ثنيت ذراعي الأيمن ووخزت عضلة ذراع زايدن ذات الرأسين بمرفقي. إنه لا يعني ما يقوله. ليس وهو لا يزال يصر بعناد على أن تقبيلي كان خطيئة. وإن كان يقصدها حقًا... فلن أسمح لأفكاري بالانجراف في هذا التيار.

'على رسلك، ستفضحين سر تواصلنا الصغير إن لم تكفي عن كونكِ... عنيفة هكذا.'

بالكاد كبح ابتسامته، مستمتعًا بوضوح بكونه صاحب الكلمة الأخيرة.

يجب أن أكتشف كيف يفعل ذلك بحق الجحيم، لأتمكن من مجادلته ذهنيًا.

رمقني داين بنظرة مجروحة وقال:

– «بالطبع تسارعين للدفاع عنه. رغم أنني أعجز عن استيعاب كيف تنسين أن هذا الرجل كان يطمح لقتلك قبل ستة أشهر.»

رمشت بذهول وأنا أنظر إليه:

– «لا أصدق أنك تدنيت للحديث عن هذا.»

حك زايدن أثر التمرد على عنقه –والذي أكاد أجزم أنه لم يكن يثير حكته حقًا– وعلق بسخرية:

– «أحسنت في الحفاظ على مهنيتك يا آيتوس. هذا يُبرز حقًا صفاتك القيادية في أبهى صورها.»

أطلق أحد الركاب في آخر الطاولة تصفيرة خافتة وقال:

– «هل تودان يا فتيان إخراج ما لديكما وقياس من الأطول بينكما؟ سيكون ذلك أسرع بلا شك.»

كتم ليام ضحكته، لكن كتفيه اهتزتا بشدة.

ضربت ميرا بيديها على الطاولة وصاحت:

– «يكفي هذا الهراء!»

تذمر الراكب الجالس في آخر الطاولة بابتسامة عريضة:

– «أوه، هيّا يا سورنجيل.»

التفتُّ أنا وميرا ننظر إليه في آنٍ واحد.

فاستدرك موضحًا:

– «أقصد... سورنجيل الكبرى. هذا أفضل عرض ترفيهي حظينا به منذ دهور.»

هززتُ رأسي ونظرتُ حولي عبر الطاولة قائلة:

– «تمتلك ميرا القدرة على تمديد الدرع إن انهارت التعاويذ الوقائية، لذا أول ما سأفعله هو إرسالها لاستكشاف المنطقة برفقة تين. علينا معرفة ما إذا كنا نواجه مشاة أم ركاب غريفيون.»

حركت ميرا مجسم تنينها ليقترب من المعقل وقالت:

– «جيد. لنفترض الآن أن هناك غريفيون.»

سألت داين بابتسامة رقيقة مصطنعة:

– «هل تود القيام بعملك؟ أعني، كيف تنسى أنك قائد الفرقة، أمر يفوق قدرتي على الاستيعاب.»

اعتصر مجسم التنين في قبضته، وأشاح بنظره عني بصعوبة. ثم سأل:

– «كوين، هل يمكنك الإسقاط النجمي من على ظهر تنينك؟»

أجابته:

– «أجل.»

أصدر داين أوامره:

– «إذن، سأطلب منك الإسقاط داخل الحصن للبحث عن نقاط الضعف، ثم العودة بالتقرير. والأمر ذاته ينطبق على ليام. سنستغل بصرك الثاقب لنرى ما إذا كان بوسعك تحديد مواقع ركاب الغريفيون واكتشاف أي أفخاخ محتملة.»

أشارت ميرا بينما تحرك كوين وليام مجسمي تنينيهما إلى موقعهما:

– «ممتاز. نقاط الضعف تتجلى في البوابة الخشبية، والمواطنين النافاريين الذين يحتجزونهم كأسرى في الأقبية.»

علق ريدوك بأسف:

– «تبخرت إذن خطة نسف المكان برمته.»

سأل داين إيميري:

– «أنت تتحكم بالهواء، أليس كذلك؟ هذا يعني أن بإمكانك تشكيل نيران تنينك، وتوجيهها عبر الأجزاء المحتلة من المعقل دون المساس بالمدنيين.»

أجاب إيميري:

– «أجل، لكن سيتعين عليّ التواجد داخل المعقل لتحقيق ذلك.»

هزت ميرا كتفيها وقالت:

– «إذن سيتعين عليك التسلل إليه.»

اتسعت عينا إيميري دهشة:

– «تريدين مني ترك تنيني والترجل سيرًا على الأقدام؟»

قالت ميرا وهي تنفض معصمها، فيطير مجسم التنين الخاص بإيميري من يده ليستقر في يدها، قبل أن تضعه في وسط المعقل:

– «لِمَ تظن أننا نتلقى كل تلك التدريبات على القتال اليدوي؟ أم أنك تنوي ترك كل أولئك الأبرياء لملاقاة حتفهم؟ السؤال الحقيقي هنا: كيف نوصلك لدرجة كافية من القرب دون أن تُقتل؟»

مررت بصرها على الحاضرين وأضافت:

– «لأنني أخمن أن البقية سيكونون منشغلين في التصدي للغريفيون التي ستنطلق بمجرد أن تشتعل الشرارة الأولى للمعركة.»

سألت كوين داين بفضول:

– «ما هي قدرتك السحرية يا آيتوس؟»

أجاب داين، ممررًا نظره عبر الطاولة، متجاوزًا زايدن، قبل أن يعيد الكرّة ليتنهد في النهاية:

– «هذا يتجاوز مستوى تصريحك الأمني. هل من أفكار؟»

هل يُجبر القطاع داين حقًا على إبقاء قدرته على قراءة الذكريات طي الكتمان؟ هل كان مد يده نحو رأسي يوم أُحرقت آمبر مجرد زلة وفقدان للسيطرة؟ كيف تسنى له بلوغ هذه المرحلة المتقدمة دون البوح لأي شخص بطبيعة قدرته؟

هززتُ رأسي استنكارًا.

قلتُ وأنا ألتقط مجسم تنين زايدن وأدفعه نحو المعقل، غارسة إحدى قدمي الذهنيتين في "الأرشيف" حيث أختزن قوتي، لأستخدمها في رفع المجسم ليحوم فوق المبنى:

– «بالتأكيد. تكف عن تجاهل حقيقة امتلاكك لموجه ظلال جبار تحت إمرتك، وتطلب منه تغطية المنطقة بالظلام الدامس كي لا يرصد أحد هبوطك.»

وافقت ميرا بكلمات مقتضبة:

– «إنها محققة.»

نظر داين إلى زايدن على مضض وسأله:

– «أبإمكانك فعل ذلك حقًا؟»

رد زايدن متهكمًا:

– «هل تسأل بجدية؟»

برر داين:

– «لم أكن واثقًا من قدرتك على تغطية مساحة بـ–»

رفع زايدن يده بضع بوصات فوق الطاولة، لتنبعث الظلال متدفقة من أسفل مقاعدنا، وتغمر الغرفة وتحيلها إلى ظلام دامس كسواد منتصف الليل في طرفة عين. قفز قلبي ذعرًا حين انحجب بصري تمامًا.

'استرخي. هذا أنا فحسب.' لامس طيف خفي وجنتي برقة.

مجرد كونه هو... أمر مرعب قليلًا. رميتُ بتلك الفكرة باتجاهه ذهنيًا، لكنني لم أتلقَّ أي رد. لربما نختبر تواصلًا من طرف واحد هنا، لأنني لا أعتقد أنني أستطيع التحدث إليه بالآلية ذاتها التي يستخدمها معي.

ماذا قالت سجايل عن القدرات السحرية؟ إنها مرآة تعكس جوهر كينونتك. هذا منطقي تمامًا. ميرا غريزتها الحماية. داين مهووس بمعرفة كل شاردة وواردة. أما زايدن... فهو كتلة من الأسرار.

تمتم أحدهم:

– «تبًا لي.»

قال زايدن، لتتلاشى الظلال في اللحظة ذاتها وتتراجع مسرعة لتختبئ تحت الطاولة:

– «بإمكاني تطويق هذه النقطة الأمامية بأكملها، لكنني أخشى أن يثير ذلك ذعر البعض.»

سحبت نفسًا عميقًا، ولاحظت أن وجوه جميع من على الطاولة –باستثناء إيميري الذي لا شك أنه شهد زايدن يؤدي مثل هذه الحيل من قبل– قد اكتست بشحوب مخضر.

حتى ميرا، كانت تحدق فيه وكأنه تهديد داهم يجب عليها تقييمه. انقلبت معدتي توجسًا.

مازحني زايدن ذهنيًا:

'آمل ألا تكون قد راودتكِ أي أفكار جامحة بينما كنا غارقين في الظلام هناك.'

وهكذا، تبخر أي تعاطف كنت أكنه لهذا الوغد في لحظة. لم أكلف نفسي عناء الالتفات إليه، بل اكتفيت برفع إصبع واحد في وجهه.

ضحك بخفة، فصررتُ على أسناني غيظًا.

رميت بطلبي في اتجاه تايرِن:

'أخرجه من رأسي.'

أجابني تايرِن ببرود:

'ستعتادين على الأمر.'

سألته:

'هل هذا مألوف بين جميع الأزواج المتزاوجة وركابها؟'

'لدى البعض. إنها ميزة تكتيكية عظيمة في أرض المعركة.'

تذمرت:

'حسنًا، إنه يمثل صداعًا مزعجًا لي في الوقت الراهن.'

أفتقد أندارنا. تفصلنا مسافات شاسعة لدرجة أنني بالكاد أستشعر وجودها.

تذمر تايرِن قائلًا:

'إذن استخدمي الدروع الذهنية لحجبه بالطريقة ذاتها التي تفعلينها معي – أو ابدئي في الرد عليه بالمثل. أنتِ أيضًا تمتلكين القدرة على أن تكوني مصدر إزعاج بالغ، ثقي بي.'

رمقت زايدن بنظرة جانبية حادة، لكنه كان منغمسًا تمامًا في المعركة الافتراضية التي نشنها ضد المعقل الخيالي. وتساءلت:

'وكيف لي أن أرد عليه بالضبط؟'

'اكتشفي أي الممرات المؤدية إلى عقلك تخصه هو.'

يا للفرحة. ينبغي أن يكون ذلك في غاية السهولة.

أنهينا العملية الافتراضية، بعد أن سخر كل منا قدرته لأقصى إمكاناتها... الجميع باستثنائي أنا. ولكن عندما حان وقت الإطاحة بالغريفيون في الجو، سحق تايرِن كل تنين آخر في الغرفة.

قالت ميرا وهي تختلس نظرة إلى ساعة جيبها:

– «عمل ممتاز. آيتوس، وريورسون، وسورنجيل، أريد رؤيتكم في الرواق. البقية، أنتم منصرفون.»

لم يمتلك أي منا خيارًا آخر، لذا تبعنا ميرا إلى الخارج نحو الدرج الحلزوني.

أغلقت الباب خلفنا، وأطلقت خطًا من الطاقة الزرقاء غطى المدخل بالكامل.

قال داين مبتسمًا بإعجاب:

– «درع عازل للصوت. خطوة ذكية.»

استدارت ميرا بحدة على الدرجة العليا، وصوبت إصبعها في وجه داين قائلة:

– «اخرس! لا أعرف أي شيطان تلبسك يا داين آيتوس، لكن هل نسيت أنك قائد فرقة؟ وأن أمامك فرصة حقيقية ومؤكدة لتصبح قائد جناح في العام المقبل؟»

تبًا، إنها مستشاطة غضبًا، وهذا موقف لا أود أن أكون طرفًا فيه. تراجعتُ خطوة أخرى إلى الوراء، لكن بوجود زايدن تحتي على الدرج، لم يعد ثمة مهرب آخر ألتجئ إليه.

بدأ داين يدافع عن نفسه:

– «ميرا–»

قاطعته ميرا بحزم:

– «الملازم سورنجيل! أنت تضيع كل شيء من بين يديك يا داين. أنا أدرك تمامًا مدى توقك لانتزاع منصبه في العام القادم.»

أشارت بإصبعها نحو زايدن وتابعت:

– «لا تنسَ أننا نشأنا سويًا ولم يفصل بيننا سوى بضعة أقدام. وأنت تضيع فرصتك، لماذا؟ لأنك مستاء من ارتباط ڤيوليت برفيقة تنينه؟»

لسعت الحرارة وجنتي. لطالما كانت صريحة لا تداري كلماتها، لكن... سحقًا!

رد داين محتدًا:

– «إنه أسوأ كابوس قد يحل بها!»

مالت ميرا مقتربة من وجهه وقالت:

– «أوه، أنا لا أجادلك في ذلك البتة. ولكن لا حيلة لأي شخص أمام خيارات التنانين. إنها لا تعير آراءنا نحن البشر أي اهتمام، أليس كذلك؟ لكن أيًا كان ما يجري بينكما...»

تأرجح إصبعها بيني وبين داين.

– «فإنه يدمر فرقتك اللعينة. إن كنت قادرة على ملاحظة ذلك بعد أربعة أيام فقط من مرافقتكم، فمن المؤكد أنهم يلحظونه أيضًا. ولو كنت أعلم أنك ستتحول إلى متعنت صلب يفتقر لأدنى مرونة تجاه أمور خارجة عن إرادتها، لما نصحتها قط بالبحث عنك بعد عبور المتراس الصخري.»

نقلت بصرها بيني وبينه وأردفت:

– «لقد كنتما أعز الأصدقاء منذ أن كنتما في الخامسة من العمر. سويّا خلافاتكما السخيفة هذه.»

كان داين متوترًا لدرجة بدا معها وكأنه قد ينشطر إلى نصفين، لكنه اختلس نظرة إليّ وأومأ برأسه موافقًا.

فبادلته الإيماءة.

قالت ميرا وهي تومئ برأسها نحو الباب:

– «جيد، عُد إلى الداخل الآن.»

فغادر داين مخترقًا الدرع العازل.

هبطت ميرا درجتين، ورمقت زايدن بنظرة ثاقبة وتابعت:

– «أما أنت. هل هذا ما ينتظرها في العام المقبل؟»

سألها زايدن ويداه مرتخيتان على جانبيه:

– «أن يكون آيتوس وغدًا؟ ربما.»

ضيقت ميرا عينيها وقالت:

– «هناك حكمة وراء ارتباط التنانين المتزاوجة بركاب من الدفعة ذاتها في العادة. لا يمكنك أن تتوقع من جناحك المعين أو من معلميها السماح لكما بالتحليق بعيدًا كل ثلاثة أيام.»

هز كتفيه مبررًا:

– «لم يكن ذلك خياري.»

سألتُ شقيقتي باستنكار:

– «ما عسانا نفعل إذن؟ هل نُملي على تنانين عملاقة تنفث النيران ما يجب عليها فعله؟»

هتفت وهي تستدير نحوي:

– «أجل! لأنكِ لن تطيقي العيش بهذه الطريقة يا ڤيوليت. أنتِ من سينتهي بها المطاف بتفويت التدريب الذي تمس حاجتك إليه، لأنه الطرف الأقوى بينكما في الوقت الراهن. وإذا لم تُمنحي الفرصة للتركيز على تدريبكِ، فستظلين على هذا الحال للأبد. ولن تصبحي أبدًا تلك النسخة التي يمكن لتايرِن أن يدفعكِ لتكونيها.»

ثم وجهت حديثها إليه:

– «هل هذا ما تسعى إليه يا ريورسون؟»

همستُ وأنا أهز رأسي نفيًا:

– «ميرا، أنتِ مخطئة بشأنه.»

أمسكت بكتفيّ وقالت بحزم:

– «استمعي إليّ. قد يتحكم هو بالظلال يا ڤيوليت، لكن إن أطلقتِ له العنان، فستستحيلين أنتِ إلى واحد منها.»

طمأنتها واعدة:

– «لن يحدث ذلك.»

انتقلت نظراتها الخاطفة إلى ما ورائي وقالت:

– «سيحدث إن كان له يد في الأمر. إزهاق روح أحدهم ليس السبيل الوحيد لتدميره. حرمكِ من بلوغ أقصى إمكاناتك يبدو وكأنه مسار مثالي للانتقام الذي أقسم على تنفيذه ضد والدتنا. فكري مليًا وبعمق. ما مدى معرفتك الحقيقية به أصلًا؟»

سحبتُ نفسًا عميقًا. أنا أثق بزايدن. أو على الأقل، أعتقد ذلك. لكن ميرا محقة؛ فهناك سبل لا تُحصى لسحق إنسان دون إنهاء حياته.

تحولت النظرة في عينيها إلى ما هو أشد قسوة من الغضب؛ كانت نظرة شفقة.

– «هذا ما ظننته. هل تعلمين حتى سر كراهيته العميقة لوالدتنا؟ ولِمَ يُزج بالأطفال أمثاله على المتراس–»

قاطعها زايدن، صاعدًا إلى الدرجة ذاتها ليقف بجانبي:

– «أنا هنا بالمناسبة. في حال لم تلاحظي وجودي.»

ردت متهكمة:

– «من الصعب حقًا تجاهل وجودك.»

انخفضت نبرة صوته لتتخذ طابعًا حازمًا:

– «أنتِ لا تصغين لما أقوله. أنا. متواجد. هنا. تايرِن لم يسحبها عنوة لإعادتها إلى باسجيات. لم يخترق دروعها الذهنية ليغرقها بمشاعره. ولم يطالبها بالتحليق عبر المملكة اللعينة. شقيقتك لا تزال هنا. أنا من تخلى عن موقعه، ومنصبه، وترك نائبته تتولى قيادة جناحي. شقيقتك لم تفوت أي تدريب لعين.»

سألته ميرا بحدة:

– «وماذا عن العام القادم؟ حين تصبح ملازمًا حديث العهد؟ ما التدريب اللعين الذي ستفوته حينذاك؟»

مددت يدي وعصرت كفها قائلة:

– «سنتدبر أمرنا. ميرا، لقد كرس كل دقيقة فراغ يمتلكها لتدريبي على البساط استعدادًا لحلبات النزال، أو لاصطحابي في رحلات طيران، أملًا في أن أكتشف أخيرًا كيف أتشبث بمقعدي الملعون دون حاجة لتثبيت تايرِن لي. إنه يـ–»

جفلت ميرا وقاطعتني:

– «ألا يمكنك التشبث بمقعدك؟»

أجبتها بصوت لم يكد يغادر حنجرتي، بينما لسعت حرارة الإحراج بشرتي:

– «لا.»

تدلى فكها ذهولًا وتساءلت:

– «وكيف لا يمكنك ذلك بحق الجحيم؟»

صرخت في وجهها:

– «لأنني لست أنتِ!»

ارتددت إلى الخلف وكأنني صفعتها، وانفصلت أيدينا.

– «ولكنكِ... تبدين أكثر صلابة الآن.»

أوضحت بمرارة:

– «مفاصلي وعضلاتي أصبحت أقوى لأن إيموجين تجبرني على رفع تلك الأوزان المروعة، لكن هذا لا... يصلح الخلل في تكويني.»

شحب وجه ميرا وقالت باعتذار:

– «لا، لم أقصد ذلك يا ڤاي. أنتِ لست شيئًا معطوبًا يحتاج إلى إصلاح. لم أكن أعلم وحسب أنكِ تعجزين عن التشبث بمقعدك. لِمَ لم تخبريني؟»

رسمتُ ابتسامة مريرة على شفتي وأجبت:

– «لأنه لا حيلة لكِ في هذا الشأن. لا أحد يملك تغيير الطبيعة التي خُلقت بها.»

خيم بيننا صمت طويل وثقيل. فرغم كل تلك الأواصر الوثيقة التي تجمعنا، لا تزال هناك مساحات شاسعة لا نتشاركها.

تدخل زايدن بصوت هادئ ومستقر:

– «إنها تتحسن. كانت الأسابيع القليلة الأولى... كارثية.»

دافعت عن نفسي قائلة:

– «مهلًا، لقد التقطني قبل أن أرتطم بالأرض.»

تذمر زايدن قائلًا قبل أن يلتفت إلى ميرا مجددًا:

– «بالكاد فعل. لستِ ملزمة بمنحي ثقتك–»

قاطعته بحدة:

– «جيد، لأنني لا أثق بك. كل تلك القوة بين يدي شخص يحمل تاريخك المظلم هي كارثة بحد ذاتها، أما أن أعلم أن تنانينكما متشابكة لدرجة تعجز معها عن الابتعاد عن ڤيوليت لأكثر من ثلاثة أيام، فهذا أمر غير مقبول بأي معيار يخطر ببالي–»

تجمدت في مكانها فجأة، وتشتت نظرة عينيها لتصبح غائمة.

زمجر تايرِن في عقلي:

'سرب من الغريفيون يتجه نحوكم!'

تمتمت ميرا، وقد تلقت على ما يبدو الإنذار ذاته من تين:

– «تبًا! لقد انهارت التعاويذ الوقائية.»

أمسكت بكتفي وجذبتني في عناق قوي وأردفت:

– «عليكِ الرحيل.»

حاولت معارضتها:

– «يمكننا المساعدة!»

لكنها ضمتني بقوة قيدت حركتي تمامًا.

– «لا تستطيعين. وإن كان تايرِن يستنزف طاقته لتثبيتك في مقعدك، فذلك يعني أن قوته ستتضاءل هو الآخر. يجب أن تغادري. اخرجي من هنا. إن كنتِ تحبينني يا ڤيوليت، فسترحلين كي لا أُضطر للقلق بشأنكِ أيضًا.»

حررتني من عناقها، ونظرت إلى زايدن بالتزامن مع اندفاع أفراد فرقتنا من الباب العلوي، متقاطرين كالسيل الهادر وهم يركضون نزولًا على الدرج، وقالت:

– «أخرجها من هنا.»

صاح داين:

– «لنتحرك! الآن!»

زمجر زايدن في وجه ميرا:

– «حتى وإن انعدمت ثقتك بي، فأنا السلاح الأمضى الذي تمتلكونه.»

أجابته ميرا:

– «إن كان ما تقوله حقًا، فأنت السلاح الأمضى الذي تمتلكه هي. سيصل النصف الآخر من الفرقة في غضون لحظات، وتين يعتقد أن أمامنا نحو عشرين دقيقة قبل وصول الغريفيون.»

التقت عيناها بعيني وأردفت:

– «عليكِ الوصول لبر الأمان يا ڤيوليت. أنا أحبكِ. إياكِ أن تموتي. سأكره أن أكون الطفلة الوحيدة.»

غابت تلك الابتسامة المغرورة التي ودعتني بها في يوم التجنيد في باسجيات.

سحبني زايدن بقوة إلى جانبه بينما ركضت ميرا صعودًا على الدرجات المتبقية نحو السطح.

مستحيل أن يحدث هذا. لا يمكنني الفرار للنجاة بنفسي وترك شقيقتي هنا، دون أي وسيلة لمعرفة ما إذا كانت حية أم ميتة. يبدو هذا بالضبط كأحد تلك المواقف التي لن نسمع عنها أبدًا في حصص الموجز القتالي.

مستحيل بحق الجحيم. تمردت كل خلية في جسدي ضد هذه الفكرة.

قاومت صارخة:

– «لا!»

لكن مقاومتي كانت بلا جدوى؛ فقوته تتجاوزني بكثير.

– «ميرا! ماذا لو أصابك مكروه؟ قد تكون سرعة تايرِن هي طوق نجاتك الوحيد. دعينا نبقى على الأقل.»

نظرت ميرا من فوق كتفها عند المدخل، وقد كسا وجهها تعبير فولاذي صلب:

– «أتريدني أن أمنحك ثقتي يا ريورسون؟ أخرجها من هذا المكان اللعين، وجد طريقة تجعلها قادرة على التشبث بمقعدها. كلانا يعلم أنها هالكة لا محالة إن لم تفعل.»

صرختُ وأنا أغرس أظافري في ذراعي زايدن:

– «ميرا!»

لكنه كان قد بدأ بالفعل بنصف حملي نزولًا على الدرج، مطوقًا خصري بذراعه وكأن وزني أخف من وزن السيف المثبت على ظهره. ناديتها بأعلى صوتي عبر برج المراقبة:

– «أنا أحبكِ!»

لكن لم يكن هناك سبيل لمعرفة ما إذا كانت كلماتي قد بلغتها.

سألني زايدن وهو يخطو مسرعًا في رواق الثكنات:

– «هل يمكنني الوثوق بكِ لإحضار حقيبتكِ بنفسك؟ أم سأضطر لحملكِ خارج المكان دون أمتعتكِ؟»

دفعته عني بقوة فأفلتني، وقلت:

– «سأحضرها بنفسي.»

لم يستغرق الأمر سوى بضع دقائق لالتقاط حقيبتي وحقيبة ريانون، إذ كنا قد تركناهما كما هما، حتى أننا حشرنا عباءتينا بداخلهما. ثم عدتُ أدراجي إلى الرواق حيث كان زايدن ينتظرني، وقد ألقى حقيبته على كتفه. بدت أصغر بكثير من تلك التي وصل بها، ولم أرغب حتى في التفكير فيما اضطر لتركه خلفه ليتمكن من إخراجي بسرعة أكبر.

لم أُكلف نفسي عناء النظر إليه، بل انطلقتُ بخطوات حثيثة نحو الباب، لكنه أمسك بمرفقي وأدارني نحوه قائلًا:

– «لا. من الخطورة بمكان مغادرة أسوار الحصن. سنصعد للأعلى.»

طوق خصري بذراعه وشبه سحبني نحو أقرب برج مراقبة، وأمرني:

– «تسلّقي.»

صرخت في وجهه، غير عابئة بأن بقية أفراد فرقتنا الذين يتسلقون البرج ذاته يمكنهم سماعي:

– «هذا هراء! يمكن لتايرِن مساعدتهم!»

أجابني بصرامة:

– «شقيقتك محقة. يجب أن تنجي بحياتك، لذا سنغادر. الآن تسلقي بحق الجحيم.»

جادلته حين أدركتُ وجود داين أمامنا مباشرة:

– «داين...»

استدار داين وأخذ حقيبة ريانون ليلقيها على كتفه، وقال:

– «لمرة واحدة، نتفق أنا وريورسون. لستِ أنتِ وحدكِ من يجب أن نخرجه من هنا يا ڤيوليت. فكري في كل طالب آخر من السنة الأولى.»

أخرس الرجاء الذي أطل من عينيه لساني. فتابع وكلماته متقطعة بينما نتسابق صعودًا نحو الباب المفتوح:

– «هل ستحكمين على فرقة كاملة غير مدربة بالموت؟ لأنني سأنجو. وسيانا، وإيميري، وهيتون سينجون أيضًا. وجميعنا يعلم بحق الجحيم أن ريورسون سينجو. ولكن ماذا عن ريانون؟ وريدوك؟ وسوير؟ هل تودين تلطيخ يديكِ بدمائهم؟»

الأمر لا يتمحور حولي أنا.

اقتحمنا السطح في اللحظة التي امتطى فيها إيميري تنينه، والذي كان يستقر بوضع محفوف بالمخاطر على الجدار الذي بدا أرق بكثير من جدران القطاع.

يا للآلهة! لن أتمكن أبدًا من امتطاء تايرِن من هذه الزاوية.

أخبرنا ليام بينما ينطلق إيميري محلقًا نحو السماء، حيث يحوم كاث وديغ بأجنحتهما التي تضرب الهواء بقوة:

– «ريدوك وكوين في الجو بالفعل.»

صاح زايدن بليام، وأومأ داين موافقًا:

– «أنت التالي!»

فتت ديغ الحجارة تحت وطأة هبوطه العنيف، وانطلق ليام راكضًا عبر الممر الضيق نحو تنينه ذي الذيل الخنجري الأحمر الضخم.

نباح زايدن كالأمر العسكري:

– «دورك يا آيتوس.»

حاول داين الجدال:

– «ڤاي–»

قاطعه زايدن:

– «هذا أمر عسكري.»

لم تدع نبرته أي مجال للنقاش، وجميعنا أدرك ذلك، خاصة عندما احتل كاث مكان ديغ على الجدار. وأضاف زايدن:

– «إنها في عهدتي. اذهب.»

ألححتُ عليه:

– «اذهب.»

لن أتمكن أبدًا من مسامحة نفسي إن أصاب داين أي مكروه بسببي. ربما كان وغدًا في الأشهر القليلة الماضية، لكن هذا لا يمحو سنوات طوالًا كان فيها أقرب أصدقائي.

بدا داين مستعدًا للقتال، لكنه رضخ أخيرًا وأومأ برأسه، ثم التفت إلى زايدن قائلًا:

– «أنا أأتمنك على إخراجها سالمة.»

رد زايدن متهكمًا:

– «أسمع هذه العبارة كثيرًا اليوم. الآن امتطِ تنينك لأتمكن من إيصالها إلى تنينها.»

رمقني داين بنظرة طويلة وعميقة، ثم استدار وركض مسرعًا يتسلق الساق الأمامية لـ كاث بأسلوب أعاد إلى ذهني ذكرى "القفاز" لدرجة أصابتني بومضات من الماضي.

سألتُ تايرِن حين رأيت السماء فارغة فوقنا:

'أين أنت؟'

'كنا قاب قوسين أو أدنى. كنتُ أفعل ما يجب القيام به.'

استدرت بين ذراعي زايدن لأواجهه وقلت:

– «لا يسعني فعل هذا. البقية غادروا. اعتبر هذا سدادًا للمعروف الذي تدين لي به، لا أكترث. يمكننا البقاء. لا يمكنني تركها هنا وحسب. هذا خطأ، وهو تصرف لم تكن لتفعله بي أبدًا. يجب أن أبقى من أجلها. يجب عليّ ذلك.»

فاضت عيناه بقدر هائل من التعاطف والتفهم، لدرجة أنني حين أفلت خصري، خُيل إليّ أنه سيسمح لي بالبقاء. لكن سرعان ما امتدت يداه لتلامس وجنتي، وتنزلقا نحو الخلف لتحيطا بقاعدة عنقي بينما يطبق بشفتيه على شفتي.

كانت القبلة جامحة وجارفة، وبادلته إياها بكل جوارحي، موقنة أنها قد تكون الأخيرة. تذوقت اندفاعه العنيف، وبادلته الإلحاح ذاته، مميلة رأسي لأعمق الاتصال بيننا.

يا إلهي! لم يكن الأمر بروعة خيالاتي حين أسترجع ذكرى تلك الليلة فحسب، بل كان أروع بكثير. لقد كان حذرًا معي حين ساندني إلى ذلك الجدار، لكن لم تكن ثمة ذرة من التردد في الطريقة التي استولى بها على شفتي، ولم يكن هناك أي تأنٍ في الألم اللذيذ الذي نبض في أسفل معدتي. لم يقطع تلك القبلة إلا عندما كنا نلهث معًا، ثم أسند جبهته إلى جبهتي وهمس:

– «ارحلي من أجلي، يا ڤيوليت.»

أخبرني تايرِن:

'أوشكت على الوصول.'

لقد كان زايدن يماطل ليمنح تايرِن وسجايل الوقت للوصول. هوى قلبي كحجر ثقيل، مسمرًا قدمي في مكانهما. فقلت له:

– «سأكرهك بسبب هذا.»

أومأ برأسه، ومضت شرارة من الندم الخالص على وجهه وهو يبتعد عني:

– «أجل. يمكنني التعايش مع ذلك.»

انزلقت يداه عن وجهي لتمسكا بذراعي، ورفعهما ليصبح جسدي على شكل حرف T، وأمرني:

– «ارفعي ذراعيك. تماسكي بقوة.»

قلت بمرارة:

– «تبًا. لك.»

تجلى طيف تايرِن الهائل خلفه، وانخفض زايدن نحو الأرضية الحجرية بالتزامن مع تحليق تايرِن فوقنا مباشرة، فغطى ظله جسدي لثانية واحدة قبل أن تنتشلني مخلبه الأمامية، تمامًا كما فعل مرارًا وتكرارًا حين كنت أهوي في منتصف رحلات الطيران.

صرختُ في تايرِن ذهنيًا:

'عليك إعادتنا!'

'لقد بذلتُ قصارى جهدي، ولن أجازف بحياتك.'

ارتفع في عنان السماء، ثم قذفني بمهارة على ظهره في مناورة متقنة، وأضاف:

'والآن، تشبثي بقوة لنتمكن من التفوق عليهم في الطيران.'

نظرتُ من فوق كتفي فرأيتُ زايدن على ظهر سجايل، يقتربان بسرعة، وفي الأفق البعيد خلفهما، على عمق مئات الأقدام، كان اثنا عشر غريفيون يطوقون المعقل كالسوار.

«الانتصار في مناورات ألعاب الحرب لا يرتكز على القوة البدنية، بل على الدهاء. لكي تدرك كيف تسدد ضربتك، يجب أن تعي مكامن الضعف لدى أعدائك – أو أصدقائك. لا تدوم الصداقات للأبد يا ميرا. ففي النهاية، يتحول أقرب الناس إلينا إلى أعداء بطريقة أو بأخرى، حتى وإن كان ذلك بدافع الحب الصادق أو اللامبالاة، أو إن طال بنا العمر بما يكفي لنغدو نحن أشرار حكاياتهم.»

– الصفحة الثمانون، كتاب برينان



الفصل الثامن والعشرون

تنغرس حجارة الجدار خارج مكتب الأستاذ ماركهام في قطاع راكبي التنانين في ظهري، مهيجةً أثر التمرد المنقوش على بشرتي بينما أسند ثقلي كله بجوار الباب المغلق. أكاد أنسلخ من جلدي لفرط القلق، وتحت وطأة ذلك التكدس الخانق للطاقة السحرية التي تنذر بالانفجار في أية لحظة.

يومان انقضيا منذ مغادرتنا مونتسيرات. يوم استغرقناه في التحليق عائدين إلى باسجياث، تبعه يوم طويل وموجع من الصمت المطبق.

بالكاد أشرقت الشمس. لم أؤدِّ نوبتي في المكتبة منذ عودتنا، وتمكنت بطريقة ما من التسلل خارج الباب قبل أن يلحظ ليام غيابي. لا أكترث لوجبة

الإفطار، ولا يعنيني مطلقًا إن تخلفْتُ عن التشكيل الطابوري. فهذا هو المكان الوحيد الذي تطيق نفسي البقاء فيه.

تتصلب معدتي لسماع دوي خطوات على الدرج الحلزوني عن يساري، ويتسارع نبضي بينما تندفع نظراتي نحو المدخل، بحثًا عن أول طيف لسترة ذات لون كريمي.

عوضًا عن ذلك، يخطو زايدن إلى الرواق، حاملًا قدحين يتصاعد منهما البخار، ويتجه نحوي مباشرة.

سألني:

– «هل ما زلتِ تمقتينني؟»

أجبته:

– «بلا شك.»

ليس هذا صحيحًا تمامًا، لكن من السهل أن ألقي على كاهله عبء كل هذا الشعور بالذنب الذي ينهشني منذ يومين متتاليين.

قال وهو يمد أحد القدحين إليّ كعربون صلح:

– «توقعتُ أن أجدكِ تنتظرين هنا بالفعل. إنها قهوة. تقول سجايل إنكِ لم تذوقي طعم النوم.»

رددتُ بحدة:

– «ليس من شأن سجايل إن كنتُ أنام أم لا. لكن، شكرًا لك.»

تناولتُ القدح من يده. بدا وكأنه نعم بثماني ساعات كاملة من النوم المريح وقضى عطلة استجمام منذ الأمس. فأضفتُ:

– «أراهن أنك تنام قرير العين كالأطفال.»

تذمرتُ موجهة حديثي إلى تايرن ذهنيًا:

'كف عن إخبار سجايل بعادات نومي.'

فأجابني:

'لن أمنح هذا الطلب شرف الرد عليه.'

'أندارنا هي المفضلة لدي.'

أطلق تايرِن شخرة ساخرة.

أسند زايدن ظهره إلى الجدار المقابل لي وارتشف من قهوته، وقال:

– «لم أهنأ بنوم عميق منذ الليلة التي غادر فيها والدي أريتيا ليعلن الانفصال.»

انفرجت شفتاي دهشة وأجبته:

– «لقد مضى على ذلك أكثر من ست سنوات.»

حدق بصمت في قهوته.

قلتُ وأنا أتردد:

– «لقد كنتَ حينها– لا أعرف حتى كم تبلغ من العمر الآن.»

كانت ميرا محقة. أنا بالكاد أعرف شيئًا عنه. ورغم ذلك... أشعر وكأنني أعرف جوهره حتى النخاع. هل يمكن لمشاعري أن تكون أكثر تخبطًا وتبعثرًا عندما يتعلق الأمر به؟

أجاب:

– «ثلاثة وعشرون عامًا. كان عيد ميلادي في شهر مارس.»

وأنا لم أكن أعلم حتى.

قلت:

– «أما أنا ففي–»

قاطعني وطيف ابتسامة يرتسم على شفتيه:

– «يوليو. أنا أعلم. لقد جعلتُ من صميم عملي معرفة كل شاردة وواردة عنكِ منذ اللحظة التي وقعت فيها عيناي عليكِ على المتراس الصخري.»

قلتُ وأنا أترك حرارة القهوة تتسرب إلى يديّ المتجمدتين:

– «لأن هذا ليس تصرفًا مريبًا على الإطلاق.»

قال بهدوء:

– «لا يمكنك معرفة كيف تدمر شخصًا ما دون أن تفهمه أولًا.»

رفعتُ نظري لأجد عينيه مصوبتين نحوي بالفعل، فسألته:

– «وهل ما زالت هذه خطتك؟»

كلمات ميرا تطاردني منذ يومين كشبح لا يهدأ.

جفل للحظة ثم أجاب:

– «لا.»

سألته والإحباط يشدد قبضتي على القدح:

– «ما الذي تغير إذن؟ متى قررت بالضبط ألا تدمرني؟»

قال:

– «ربما حين رأيتُ أورين يضع سكينه على رقبتكِ. أو ربما حين أدركتُ أن الكدمات المطبوعة على عنقكِ ما هي إلا بصمات أصابع، وتمنيتُ لو أقتلهم جميعًا مرة أخرى لأفعل ذلك ببطء شديد. وربما كانت المرة الأولى التي قُبلتكِ فيها بتهور، أو حين تيقنتُ أنني هالك لا محالة لأنني أعجز عن التوقف عن التفكير في القيام بما هو أكثر من مجرد تقبيلكِ.»

احتبست أنفاسي إثر اعترافه هذا، لكنه اكتفى بتنهيدة عميقة، وأسند رأسه إلى الخلف ليلامس الجدار، وتابع:

– «هل يهم متى حدث ذلك حقًا، طالما أن الأمور قد تغيرت بيننا؟»

همستُ:

– «لا تفعل ذلك.»

فرفع رأسه مجددًا ليلتقي بصره ببصري وسأل:

– «لا أفعل ماذا؟ ألا أخبركِ أنني لا أستطيع إخراجكِ من رأسي؟ أم ألا أتحدث مباشرة داخل رأسكِ؟»

أجبته:

– «كلاهما.»

قال:

– «بإمكانكِ أن تتعلمي كيف تفعلين ذلك أيضًا.»

لماذا بحق الجحيم يستحيل عليّ أن أشيح بنظري عنه؟ أن أتذكر أن تلك القبلة على ذلك البرج كانت مجرد لعبة بالنسبة له، وأن هذا كله قد لا يعدو كونه لعبة؟ أن أُخمد هذا الوجع المستحيل الذي يدوّم في معدتي كلما فكرتُ فيه؟

تابع مشجعًا:

– «هيا، حاولي.»

بينما أطيل النظر في عينيه الموشحتين ببقع ذهبية، أقرر أنه محق. يمكنني على الأقل أن ألاقيه في منتصف الطريق وأحاول. أغرس قدمًا ذهنية واحدة داخل الأرشيف الخاص بي، فأستشعر الطاقة تسري كالأمواج في عروقي. تتدفق طاقة برتقالية ساطعة ومفرقعة من الباب خلفي، وهناك ضوء ذهبي ينبعث من النافذة التي صنعتها خصيصًا لأندارنا. أسحب نفسًا عميقًا وأستدير ببطء.

وهناك، يدوّم عند حافة خط السقف، ظل يحاكي ليلًا متلألئًا بالنجوم. إنه زايدن.

يتردد صدى دوي خطوات على الدرج، فنلتفت كلانا لاستكشاف الأمر.

قال داين حين رآنا، متقدمًا ليقف بمحاذاة الجدار بجانبي:

– «أخمن أن الفكرة ذاتها قد راودتكما. منذ متى وأنتما تنتظران؟»

أجاب زايدن:

– «ليس وقتًا طويلًا.»

وقلتُ أنا في اللحظة ذاتها:

– «منذ ساعات.»

قال داين ممررًا يده في شعره الرطب:

– «تبًا يا ڤيوليت. هل تشعرين بالجوع؟ هل ترغبين في تناول الإفطار؟»

تردد تعليق زايدن الساخر في رأسي:

'لا يا غبي، من الواضح أنها لا ترغب في ذلك.'

قذفتُ ردي إليه ذهنيًا:

'توقف عن هذا الهراء بحق الجحيم.'

ثم وجهت حديثي لداين:

– «لا، شكرًا لك.»

علق زايدن في ذهني وشفتاه ترتفعان في ابتسامة خاطفة:

'انظروا من اكتشف الأمر أخيرًا.'

دوى وقع أقدام أخرى صعودًا على الدرج، فحبستُ أنفاسي وسمرتُ عيني على المدخل.

توقف الأستاذ ماركهام للحظة حين رآنا نحن الثلاثة خارج مكتبه، ثم واصل تقدمه نحونا قائلًا:

– «بمَ أدين بهذا الشرف؟»

قلتُ وأنا أتقدم نحو منتصف الرواق:

– «أخبرني فقط إن كانت قد ماتت.»

رمقني ماركهام بنظرة تقطر استنكارًا وقال:

– «أنتِ تعلمين أنني لا أستطيع إفشاء معلومات سرية. إن كان هناك ما يستوجب النقاش، فسنطرحه في حصة الموجز القتالي.»

جادلته ويداي تبدآن بالارتجاف بينما أعتصر قدح البيوتر بقوة متزايدة:

– «لقد كنا هناك. إن كانت معلومات سرية، فنحن نعلم بها مسبقًا.»

سحب زايدن القدح من يدي بهدوء.

حاول ماركهام التملص:

– «ليس من اللائق على الإطلاق أن أـ»

قاطعته متوسلة:

– «إنها شقيقتي! من حقي أن أعرف إن كانت على قيد الحياة، ومن حقي ألا أتلقى خبرًا كهذا في غرفة تعج بالركاب.»

تصلب فكه وأجاب:

– «لحقت أضرار جسيمة بالنقطة الأمامية، لكننا لم نفقد أي ركاب في مونتسيرات.»

الحمد للآلهة. خارت قواي وانهارت ركبتاي، فتلقفني داين وسحبني إلى عناقه المألوف بينما اجتاح شعور عارم بالارتياح كل خلية في جسدي.

همس داين في شعري:

– «إنها بخير يا ڤاي. ميرا بخير.»

أومأت برأسي، مصارعة طوفانًا من المشاعر لأحافظ على رباطة جأشي. لن أنهار. لن أبكي. لن أُظهر أي ضعف. ليس في هذا المكان.

ليس هناك سوى مكان واحد يمكنني اللجوء إليه، وشخص واحد لن يوبخني إن تداعت حصوني.

ما إن استعدتُ السيطرة على نفسي، حتى انسحبتُ من بين ذراعي داين.

كان زايدن قد اختفى.

تجاهلتُ وجبة الإفطار وتخلفتُ عن التشكيل الطابوري لأتجه صوب ميدان الطيران، متماسكةً لفترة كافية لبلوغ منتصف المرج، حيث خويتُ على ركبتي.

انتحبتُ ودُفن رأسي بين كفيّ:

– «إنها بخير. لم أتركها لتموت. إنها حية.»

هبت لفحة هواء تبادلها الملمس الصلب للحراشف ضد ظهر يدي. ملتُ بجسدي للأمام لأستند إلى كتف أندارنا، وألقيت بثقلي عليها مرددة:

– «إنها حية. حية. حية.»

كررتها مرارًا حتى أيقنتها.

سألتُ زايدن في المرة التالية التي وقفنا فيها على البساط:

– «هل لديك أشقاء؟»

ربما كان السبب هو تعليق ميرا حول جهلي التام به، أو ربما هي مشاعري المتضاربة، لكنه يعرف عني أكثر بكثير مما أعرف عنه، ولا بد لي من تسوية هذه الكفة المائلة.

أجاب متفاجئًا وتوقف للحظة:

– «لا. لماذا؟»

اتخذتُ وضعية القتال وقلت:

– «مجرد سؤال. هيا بنا.»

في اليوم التالي، سألته في منتصف حصة الموجز القتالي عن طعامه المفضل، مستعينة برابطنا الذهني. أكاد أجزم أنني سمعته يسقط شيئًا في مؤخرة الغرفة قبل أن يجيب:

'كعكة الشوكولاتة. كفي عن غلق الأطوار هذه.'

ابتسمتُ باتساع.

بعد يوم آخر، وبعد أن أخضعني تايرِن لمجموعة مستنزفة تمامًا من مناورات الطيران المتقدمة التي يعجز حتى طلاب السنة الثالثة عن التشبث بمقاعدهم خلالها، كنا نجلس على قمة جبل برفقة تايرِن وسجايل، حين سألته كيف يعرف ليام، أردتُ فقط أن أختبر ما إذا كان سيخبرني الحقيقة.

أجاب:

– «لقد نشأنا معًا في عائلة كافلة. ما قصة كل هذه الأسئلة مؤخرًا؟»

أجبته:

– «أنا بالكاد أعرفك.»

رمقني بنظرة تنم عن نفاد صبره وقال:

– «أنتِ تعرفينني بما فيه الكفاية.»

رددت:

– «بالكاد. أخبرني بشيء حقيقي.»

استدار في مقعده ليواجهني وسأل:

– «مثل ماذا؟»

قلت:

– «مثل ما هو مصدر تلك الندوب الفضية على ظهرك؟»

حبست أنفاسي بانتظار إجابته، منتظرة منه أن يتفوه بأي شيء قد يمنحني حق العبور إلى عالمه.

حتى من على بُعد عشرين قدمًا، أمكنني رؤية جسده يتصلب، وسأل:

– «لماذا تودين المعرفة؟»

اشتدت قبضتي على حراشف المقبض. أدركتُ بالفطرة أن تلك الندوب تحمل طابعًا شخصيًا للغاية، لكن ردة فعله تفضح أن وراءها ما هو أعمق من مجرد ذكرى مؤلمة. فسألته بدورها:

– «ولِمَ لا تود إخباري؟»

جفلت سجايل، ثم انطلقت محلقة في السماء، مخلفة تايرِن وإياي وراءها.

سألني تايرِن:

'هل تضغطين عليه لسبب محدد؟'

أجبته:

'هل يمكنك منحي سببًا يمنعني من ذلك؟'

أجاب تايرِن:

'إنه يهتم لأمركِ. وهذا بحد ذاته أمر بالغ الصعوبة بالنسبة له.'

سخرتُ من كلامه:

'إنه يهتم بإبقائي على قيد الحياة. وهناك فرق شاسع بين الأمرين.'

رد تايرِن بحزم:

'بالنسبة له، لا يوجد أي فرق.'

***

تتألق سماء ظهيرة باسجيات بصفاء بلوري في منتصف شهر مايو، إيذانًا بانطلاق المعركة الأولى من مناورات ألعاب الحرب التي تبشر باقتراب التخرج. وبقدر ما أتوق للشعور بالحماس لاقترابي الفعلي من النجاة من سنتي الأولى في قطاع راكبي التنانين، تعتصر معدتي بقبضة من القلق.

ملفات الموجز القتالي تزداد غموضًا وتشطيبًا. الأستاذ كار يزداد توترًا لعدم تجلي قدرتي السحرية بعد، خلافًا للغالبية العظمى من متدربي السنة الأولى. داين يتصرف بغرابة مفرطة؛ تراه ودودًا في لحظة، ومتبلد المشاعر في اللحظة التي تليها. زايدن يزداد تكتمًا وسرية –إن كان ذلك ممكنًا من الأساس– فيلغي بعض تدريباتنا دون إبداء أي مبررات. حتى تايرِن يخالجني شعور بأنه يخفي عني أمرًا ما.

سألني ليام من يميني بينما نقف في التشكيل الطابوري في قلب الباحة برفقة بقية أفراد الجناح الرابع:

– «ماذا تعتقدين ستكون مهمتنا؟ يظن ديغ أننا في موقف الهجوم. إنه لا يكف عن الثرثرة حول رغبته في ركل مؤخرة غلين–»

توقف لبرهة وكأنه يصغي لتنينه، ثم همس أخيرًا:

– «أخمن أن التنانين تحمل ضغائن أيضًا.»

تجمعت القيادات أمامنا لتتلقى تكليفاتها من زايدن.

أجابت ريانون من يساري بحزم:

– «نحن في موقف الهجوم بلا شك. وإلا لكنا في الميدان بالفعل. لم ألمح راكبًا واحدًا من الجناح الأول منذ الغداء.»

هوى قلبي بين ضلوعي. الجناح الأول. كان من المتوقع أن يكونوا خصومنا الأوائل. كل شيء مباح هناك في ميدان ألعاب الحرب، وجاك بارلو لم ينسَ قط

أنني أرسلته إلى المستوصف لأربعة أيام. لقد تحاشاني لأسابيع بعد إعدام زايدن لأورين والآخرين الذين هاجموني – وبالطبع كف الجميع عن مضايقتي بعد حادثة آمبر مافيس. لكن، رغم ذلك، كنت أضبطه يرمقني بنظرات أثناء مرورنا في الأروقة أو الكافتيريا، كراهية خالصة تستعر في أعماق عينيه الزرقاوتين الجليديتين.

قلت لليام مكافحةً لعدم التململ بينما تشوي الشمس جلدي عبر درع الطيران:

– «أعتقد أنها محققة.»

لقد مضى وقت طويل منذ أن حسدتُ النُسّاخ على زيهم الكريمي، لكن هذا الطقس يشعرني وكأننا نلنا النصيب الأسوأ من الأزياء. ومما زاد الطين بلة أنني لا بد وأنني نمت بوضعية خاطئة، لأن ركبتي تقتلني ألمًا، والضمادة المثبتة تبدو وكأن حرارتها تبلغ مليون درجة. وسألته:

– «برأيك، لماذا يرتدي الركاب اللون الأسود أصلًا؟»

أجاب ريدوك من خلفي:

– «لأنه يوحي بالهيبة والبطش.»

تدخلت إيموجين:

– «كي يصعب ملاحظة دمائنا حين ننزف.»

تمتمتُ وأنا أترقب أي إشارة تنبئ بقرب انتهاء اجتماع القيادة:

– «انسيا أنني سألت.»

النزيف هو آخر ما أود القيام به اليوم.

سألت زايدن ذهنيًا:

'هل نحن في موقف هجوم أم دفاع؟'

أجاب:

'أنا مشغول قليلًا الآن.'

رسمت ابتسامة على فمي وقلت:

'أوه لا، هل أشتت انتباهك؟'

تبًا، هل أنا أغازله؟ ربما.

هل أكترث؟ من الغريب أن الإجابة هي... لا.

رد بنبرة غليظة لدرجة أجبرتني على زم شفتي بقوة لأكبح ضحكتي:

'أجل.'

قلت:

'هيا. لقد استغرقتَ دهرًا هناك. ألمح لي ولو قليلًا.'

زمجر ذهنيًا:

'كلاهما.'

لكنه لم يصدني بدروعه الذهنية –وهو أمر أعلم يقينًا أنه قادر عليه– لذا أشفقت عليه قليلًا وعلى الاجتماع الذي يُفترض به قيادته، وتركته وشأنه.

هجوم ودفاع؟ يبدو أن ظهيرة هذا اليوم ستكون حافلة بالإثارة.

همست ريانون وهي ترمقني بنظرة خاطفة:

– «هل وصلكِ أي خبر من ميرا؟»

هززتُ رأسي نفيًا.

علقت:

– «هذا ببساطة... تجرد من الإنسانية.»

أجابتها:

– «هل ظننتِ حقًا أنهم سيكسرون قاعدة حظر المراسلة؟ وحتى لو حاولوا، فإن والدتي كانت لتئد تلك المحاولة في مهدها وبسرعة فائقة.»

تنهدت ريانون، ولم ألمها على ذلك. لم يعد هناك الكثير ليقال في هذا الشأن.

انفض اجتماع القيادة، وتوجه داين نحونا برفقة سيانا. كان وجهه يتهلل إشراقًا، ويداه تنقبضان وتنبسطان بطاقة متوترة.

سأله هيتون:

– «أيهما إذن؟ هجوم أم دفاع؟»

أجاب بينما يعود قادة الفرق الأخرى لإبلاغ ركابهم:

– «كلاهما.»

اصطنعتُ المفاجأة واختلستُ نظرة من خلفه، لكن لم يكن لزايدن ولا لقادة الأقسام أي أثر.

أخبرنا داين، فتعالت همهمات الحماس بين الركاب الأقدم سنًا في فرقتنا:

– «لقد اتخذ الجناح الأول موقعًا دفاعيًا في أحد حصون التدريب في الجبال، وهم يتولون حراسة بيضة كريستالية.»

هذا منطقي. لعلها إشارة رمزية إلى سلالات التنانين المختلفة التي جلبت بيوضها إلى باسجياث إبان توحيد نافار.

تساءل ريدوك:

– «ما الذي يفوتنا هنا؟ لأنكم تبدون في غاية النشوة بسبب بيضة.»

أجابته سيانا بابتسامة متقدة حماسًا:

– «من خبرتنا في السنوات الماضية، نعلم أن البيوض تمنح نقاطًا أعلى. أما الرايات فكانت دائمًا الأقل شأنًا من الناحية الإحصائية، في حين يأتي الأسرى من الأساتذة في مرتبة متوسطة.»

أضاف داين:

– «لكنهم يفضلون المباغتة وتغيير القواعد. تمامًا كما قد نهاجم هدفًا حيويًا على خط النار لنكتشف لاحقًا أنه ليس بالقيمة التي توقعناها.»

سألت ريانون:

– «وكيف نكون في موقف هجوم ودفاع في آنٍ واحد؟ إذا كانوا هم من يمتلك البيضة، فمن البديهي أن ننطلق لانتزاعها.»

أجاب داين وابتسامة عريضة تعلو وجهه:

– «لأننا كُلفنا أيضًا بحماية راية، دون أن يُخصص لنا نقطة أمامية للتحصن بها. وقد أُوكلت إلى فرقتنا مهمة حملها.»

سألتُ زايدن ذهنيًا:

'هل أوكلت لداين مهمة الدفاع عن راية الجناح الرابع؟'

أجابني، لكن صوته كان أضعف، وهو ما بدأتُ أدرك أنه يعني ابتعاده أكثر في المسافة:

'آمُل أن يكون قد استوعب شيئًا من درس شقيقتكِ في مونتسيرات.'

لا أملك سوى أن أتساءل عما إذا كنا سنحتفظ بقدرتنا على التواصل بهذا الشكل بعد بضعة أشهر حين تفصلنا مسافات شاسعة. يعتصر قلبي ألمًا لفكرة أنه لن يكون هنا. بل سيخاطر بحياته على خطوط المواجهة الأولى.

سألت إيموجين:

– «ومن سيحمل هذه الراية؟»

اتسعت ابتسامة داين بطريقة ما وقال:

– «هذا هو الجزء الأكثر متعة.»

على مدار العشرين دقيقة التالية، خضعنا لتدريب مكثف على الإستراتيجية أثناء توجهنا سيرًا نحو ميدان الطيران. ومن الواضح أن داين كان يصغي لميرا بانتباه.

الخطة بسيطة: استغلال نقاط القوة الفردية لكل منا، وتمرير الراية مرارًا وتكرارًا، لئلا نمنح الجناح الأول أدنى فرصة لتحديد هوية حاملها.

عند وصولنا إلى الميدان الموحل، كانت عشرات التنانين تملأ الأرجاء، متأهبة وكأنها اتخذت تشكيلها الخاص بفرقها. من السهل تمييز تايرِن، إذ يشمخ برأسه فوق الجميع.

كان هناك جو مشحون بالترقب الملموس ونحن نمر بجوار الفرق الأخرى، حيث يمتطي الجميع تنانينهم بينما يلقي قادة الفرق والأقسام أوامر اللحظة الأخيرة.

قالت ريانون بثقة وهي تشبك ذراعها بذراعي ونحن نقترب من الجزء المخصص لنا في الميدان:

– «سننتصر لا محالة.»

سألتها:

– «ما الذي يجعلكِ واثقة إلى هذا الحد؟»

ابتسمت وأجابت:

– «لأننا نمتلككِ، ونمتلك تايرِن، وريورسون، وسجايل. وبالطبع... نمتلكني أنا. من المستحيل أن نخسر.»

قلت:

– «أنتِ بالتأكيد–»

تلاشت الكلمات على شفتي حين تجلى تايرِن أمامي بوضوح.

كان يقف بشموخ وكبرياء في مقدمة قسمنا، غير عابئ بإبداء أي توقير لـ كاث بصفته تنين داين. لكن ليس موقعه هو ما سلب أنفاسي، بل ذلك السرج المثبت على ظهره والذي جعلني أحدق مشدوهة.

تفاخر تايرِن:

'سمعتُ أن هذا هو آخر صيحات الموضة.'

قلت عاجزة عن التعبير:

– «هذا...»

بدت الأشرطة المعدنية السوداء مترابطة بتعقيد وهي تلتف حول كل ساق أمامية، لتلتقي عند مقدمة صدره مشكلة لوحة مثلثة الشكل، قبل أن ترتفع فوق كتفيه لتتصل بسرج مزود بركائب آمنة ومربوطة بإحكام. وأكملت:

– «هذا سرج.»

ربتت ريانون على ظهري وقالت:

– «هذا مذهل، هذا ما هو عليه حقًا. ويبدو مريحًا بكثير من عمود فيرجي الفقري العظمي، أؤكد لكِ ذلك. أراكِ في الأعلى.»

تجاوزت تايرِن متجهة نحو تنينها.

هززتُ رأسي نافية:

– «لا يمكنني استخدامه. هذا غير مسموح.»

زمجر تايرِن، خافضًا رأسه لمستوى نظري ونافثًا سحابة من البخار الساخن في وجهي:

'أنا من يقرر ما هو مسموح وما هو غير ذلك. لا توجد أي قاعدة تمنع تنينًا من تعديل مقعده لخدمة راكبه. لقد بذلتِ جهدًا مضنيًا –إن لم يكن أكثر– من أي راكب آخر في هذا القطاع. مجرد أن تكوين جسدك يختلف عن البقية لا يعني أنكِ لا تستحقين التشبث بمقعدك. ركوب التنانين لا يقتصر تعريفه على بضعة أشرطة جلدية ومقبض.'

أيده زايدن مقتربًا منا:

– «إنه محق كما تعلمين.»

وتساءلتُ للحظة أين كان ليختفي ويعود بهذه السرعة.

أجبته ونبضي يتسارع بينما تتورد بشرتي لرؤيته:

– «لم يطلب أحد رأيك.»

صحيح أن أزياءنا تضفي وسامة على كل راكب، لكن زايدن يرتقي بهذا المظهر إلى مستوى آخر، بالطريقة التي يُبرز بها الزي الخطوط العضلية لجسده الممشوق.

طوى ذراعيه على صدره متأملًا الأربطة وقال:

– «إن لم تستخدميه، فسأعتبر ذلك إهانة شخصية لي. بالنظر إلى أنني أمرتُ بصنعه خصيصًا لكِ، وكدتُ أُحرق حيًا أثناء محاولتي تثبيته عليه.»

رفع حاجبًا نحو تايرِن وأضاف:

– «رغم أنه شارك في تصميمه، كما يجدر بي أن أضيف.»

ضيّق تايرِن عينيه الذهبيتين نحو زايدن وقال:

'النماذج الأولى كانت مرفوضة تمامًا، ولقد بلغت بك الوقاحة حد قرص حراشف صدري أثناء تجميعك الأخرق له هذا الصباح.'

رد زايدن ببرود:

– «وكيف لي أن أعرف أن جلد النموذج الأولي سيحترق بتلك السهولة؟ وليس الأمر وكأن هناك الكثير من الأدلة الإرشادية حول كيفية تركيب سرج لتنين.»

استدرتُ لأواجه زايدن وقلت:

– «لا يهم كل ذلك، لأنني لا أستطيع استخدامه. إنه رائع بلا شك، بل تحفة هندسية...»

تصلب فكه وسأل:

– «و؟»

أجبته وحرارة الخجل تلسع وجنتي:

– «و... الجميع هنا سيدرك أنني لا أستطيع التشبث بمقعدي دونه.»

أشار نحو السرج وقال:

– «أكره أن أصدمك يا ڤيولينس، لكن الجميع يعلم ذلك مسبقًا. هذا السرج أمامه هو الوسيلة الأكثر عملية لركوبك. إنه مزود بأشرطة تلتف حول فخذيك لتربطي نفسك فور صعودك. ونظريًا، يُفترض أن تتمكني من تغيير وضعيات جلوسك في الرحلات الطويلة دون فك الأربطة، إذ ثبتنا حزامًا للخصر أيضًا.»

سألته بشك:

– «نظريًا؟»

أجاب زايدن:

– «لم يكن متقبلًا لفكرة أن أقوم برحلة تجريبية عليه.»

علق تايرِن:

'يمكنك ركوبي حين يتعفن اللحم عن عظامي، أيها القائد.'

حسنًا، هذا وصف دقيق للغاية.

قال زايدن:

– «اسمعي، لا توجد قاعدة تحظر ذلك. لقد تحققت من الأمر. وإن كان لذلك أي تأثير، فستسدين خدمة لتايرِن بتحرير كل طاقته وإزاحة ثقل القلق عن كاهله. وعن كاهلي أنا أيضًا، إن كان هذا سيشفع للأمر.»

انغرست أظافري في باطن كفيّ باحثة عن سبب آخر، عن عذر آخر أتحجج به، لكن لم يكن هناك أي عذر. قد لا أرغب في الظهور بمظهر مختلف عن بقية الركاب في هذا الميدان، لكنني مختلفة بالفعل.

تحدث زايدن ذهنيًا بينما حافظت ملامحه على جمودها، بل وبدت أقرب للملل، لكن حرارة استعرت في عينيه وهو يخفض نظره نحو شفتي:

'تبًا، هذه النظرة العنيدة والمشاكسة تدفعني دائمًا للرغبة في تقبيلكِ.'

أجبته بأنفاس محتبسة:

'وأنت تخبرني بهذا الآن، حيث سيراك الناس إن أقدمتَ على ذلك فعلًا.'

ارتفع أحد جانبي فمه في ابتسامة ساحرة، وباتت هي كل ما أستطيع التركيز عليه، سحقًا له. وقال:

'متى منحتكِ الانطباع بأنني أعبأ بما يعتقده الناس عني؟ أنا أكترث فقط لما يظنونه بكِ أنتِ.'

لأنه قائد جناح.

لا شيء أسوأ من شائعات المتدربين بأنك تتقربين من القيادة لضمان نجاتك. هذا ما حذرتني منه ميرا عند المتراس الصخري.

نطق زايدن بصوت مسموع هذه المرة:

– «امتطِ تنينكِ يا سورنجيل. أمامنا معركة لننتصر فيها.»

انتزعت نظراتي من عينيه وتأملت الهيكل الرائع والمعقد للسرج، ثم قلت:

– «إنه جميل. شكرًا لك يا زايدن.»

استدار مبتعدًا قبل أن يميل مقتربًا من مساحتي الشخصية، وسرت قشعريرة على طول عمودي الفقري حين لامست شفتاه أذني وهو يهمس:

– «اعتبري أنني قد رددتُ لكِ صنيعكِ.»

قاطعنا داين بصوت متسائل:

– «هل هذا سرج؟»

قفزت مبتعدة عن زايدن، الذي لم يتزحزح قيد أنملة، بينما وقف داين ممسكًا براية صفراء ضخمة مثبتة على عمود بطول أربعة أقدام، وعيناه متسعتان ذهولًا وهو يحدق في تايرِن.

زمجر تايرِن مطبقًا فكيه بقوة:

'لا، إنه طوق.'

فتراجع داين بضع خطوات إلى الوراء.

أجاب زايدن ببرود:

– «أجل. هل لديك أي اعتراض؟»

رمق داين زايدن بنظرة توحي بأن الأخير يتصرف بغير منطقية، وأجابه:

– «لا. ولِمَ قد يزعجني الأمر؟ أنا موافق على أي شيء يضمن سلامة ڤيوليت، في حال لم تلحظ ذلك.»

أومأ زايدن برأسه والتفت نحوي قائلًا:

– «جيد.»

ثم وجه كلماته ذهنيًا لي:

'أراهن أن الموقف سيصبح أشد حرجًا لو قبلتكِ الآن، أليس كذلك؟'

أجل، أرجوك افعل.

أجبته ذهنيًا:

'المرة القادمة التي نتبادل فيها القبل، يُفضل ألا تكون مجرد نكاية في داين.' من الأفضل أن تكون المرة القادمة نابعة من رغبتنا الخالصة وحسب.

انخفض نظره نحو شفتي مجددًا وسأل:

'المرة القادمة، هاه؟'

وبالطبع، أصبح هذا كل ما يشغل تفكيري الآن؛ ملمس شفتيه على شفتي، الطريقة التي تحتضن بها يداه مؤخرة عنقي دائمًا، وانزلاق لسانه. كبحتُ نفسي بصعوبة بالغة عن الميل نحوه، وقلت له:

– «اذهب لقيادة جناحك، أو افعل ما تفعله عادة.»

لاح بريق ابتسامته قبل أن يلتفت مجددًا نحو داين ويقول:

– «سأكون منشغلًا بسرقة بيضة. أبقِ رايتنا بعيدة عن أيدي الجناح الأول.»

أومأ داين، وغادر زايدن متجهًا عبر الميدان حيث تنتظره سجايل.

قال داين:

– «إنه سرج ممتاز.»

وافقته الرأي:

– «أجل، إنه كذلك.»

منحني داين ابتسامة دافئة قبل أن يمضي نحو كاث.

توجهتُ نحو الساق الأمامية لتايرِن، ولم أتمالك نفسي من الضحك حين خفض كتفه لأجلي، فقلت:

– «ماذا؟ ألا يوجد سلم؟»

أجابني:

'لقد فكرنا في الأمر، وقررنا أن ذلك سيجعلكِ عرضة لخطر كبير.'

قلت قبل أن أشرع في التسلق:

– «بالطبع لقد فكرتم في–»

توقفت حين رأيت وميضًا ذهبيًا يعدو نحوي.

– «أندارنا؟»

انزلقت لتتوقف أمامي مباشرة وقالت:

'أريد أن أقاتل أنا أيضًا.'

انفتح فمي وانغلق دون أن أنطق بكلمة. لقد كانت أندارنا تحلق معنا، وبإمكانها مواكبة سرعة تايرِن لفترات وجيزة، لكن الطريقة التي تتلألأ بها حراشفها تحت أشعة الشمس ستجعلها منارة جاذبة لـ... الجميع.

ولكن، إن كان بإمكاني الحصول على سرج، فإذن–

أشرت إلى الوحل بعد أن مررت بصري على ميدان الطيران، الذي بلغ ذروة وحوله إثر موسم ذوبان الجليد المتدفق من القمم الثلجية في الأعلى، وقلت:

– «فهمت. اذهبي وتمرغي في الوحل.»

وأضفت بتساؤل:

– «إلا إن كان ذلك سيضر بأجنحتكِ؟ أكثر ما أخشاه هو حراشف بطنك التي يسهل رصدها.»

أجابتني بحماس وهي تنطلق راكضة:

'لا مشكلة!'

امتطيتُ تايرِن، لأجد السرج الفعلي يغطي المقعد عند قاعدة عنقه وحراشف المقبض.

سألت تايرِن بينما أنحني لأضبط الركائب باستخدام نظام الأبازيم على الأشرطة:

– «ظننتك قلت إن الجلد خيار سيء؟»

كان السرج بحد ذاته مصنوعًا من جلد أسود فاخر، ومزودًا بمقبضين بارزين ليديّ، وحين استقريت عليه، احتضنني كحلم مثالي.

أجاب تايرِن:

'الجلد يشكل خطرًا على صدري إن تعرضنا لهجوم ناري، إذ سينزلق سرجكِ على الفور. لكن إن تلقيتِ ضربة نارية مباشرة في الأعلى، فإن جلوسكِ على قطعة معدنية لن يكون كافيًا لإنقاذك.'

لم أُكلف نفسي عناء الإشارة إلى أن النيران الوحيدة التي قد نتعرض لها ستأتي من تنانين أخرى، وهي مشكلة غير واردة، بما أن الغريفيون لا تمتلك سوى المناقير والمخالب. وبدلًا من ذلك، عثرتُ على الأشرطة المخصصة لفخذي وأحكمت ربطها.

قلت لزايدن ذهنيًا:

'هذا ابتكار عبقري.'

أجاب:

'أخبريني إن كان يحتاج لأي تعديلات بعد انتصارنا اليوم.'

يا له من وغد مغرور.

حلقنا في السماء بعد لحظات، مع مواكبة أندارنا لسرعتنا وبقائها قريبة من تايرِن كما تدربنا تمامًا.

مهمتنا تقتضي إبعاد الراية عن أيدي الأعداء، لذا رحنا نحوم حول محيط ساحة المعركة الممتدة لمئة ميل والتي تشمل معظم السلسلة الجبلية الوسطى، في حين تتولى الفرق الأخرى مهام الاستطلاع والاسترداد.

بعد مرور نحو ساعة من فترة الظهيرة، راودني شك فيما إذا كانت هذه المهمة في حقيقتها عقابًا لداين وليست تشريفًا. انقسمنا نحن الاثني عشر إلى

تشكيلين متراصين، كل منهما يضم ستة أفراد، أو سبعة باحتساب أندارنا. كان داين يحمل الراية في مجموعته التي تتقدمنا مباشرة، وعند بلوغنا قمة جبلية أخرى في السلسلة، انشقت مجموعته واتجهت يمينًا.

انحرف تايِرن يسارًا، وانقلبت معدتي بينما ننقض نزولًا بمحاذاة سفح الجبل. انغرست الأشرطة العريضة في فخذي، مثبتة إياي بقوة في مكاني، وقرع قلبي كطبول هادرة حين اجتاحتني نشوة خالصة بقوة توازي اندفاع الرياح التي تصفع وجهي ونظاراتي الواقية بينما نغوص، ونغوص، ونغوص في الهواء.

وللمرة الأولى، لم يساورني أي خوف من الانزلاق عن ظهره. ببطء، أرخيت قبضتيّ عن المقابض، وبعد نبضة قلب واحدة، رفعتُ يديّ عاليًا فوق رأسي ونحن نهوي متسارعين نحو الوادي بالأسفل.

لقد عشتُ عشرين عامًا، ولم أشعر قط بنبض الحياة يتراقص في عروقي كما أشعر به في هذه اللحظة.

ودون أن أتجذر حتى في الأرشيف الخاص بي، تدفقت الطاقة بقوة في أوردتي، مفرقعة بحياة مستقلة خاصة بها، وصاعقة كل حاسة من حواسي بدرجة تلامس حدود الألم.

بسط تايِرن أجنحته فجأة، محتضنًا الهواء لينتشلنا من ذلك الانقضاض الحر.

قال لي:

'سيتعين عليكِ تقوية عضلات كتفيكِ أيتها الفضية. سنتدرب على ذلك هذا الأسبوع.'

ملتُ بجسدي خارج السرج بأقصى ما أستطيع، فرأيت أندارنا مستقرة بين مخالب تايِرن بينما نستعيد توازننا محلقين بانسيابية فوق قاع الوادي.

قالت أندارنا:

'شكرًا! يمكنني تدبر أمري الآن.'

فحررها تايرِن من قبضته.

رجرجت الطاقة عظامي، وكأنها تبحث يائسة عن منفذ للخروج، فأجبرتُ نفسي على الجلوس بانتصاب. كان شعورًا مختلفًا عن المعتاد... وكأنها، بدلًا من الوقوف طوعِ يديّ لأشكلها كيفما أشاء، تسعى هي لتشكيلي.

تسللت قشعريرة خوف على طول عمودي الفقري. ماذا لو اختارت طاقة قدرتي السحرية المكبوتة –بسبب عدم تجليها– هذا اليوم تحديدًا لتنفجر برد فعل عكسي؟ هززتُ رأسي رافضة الفكرة. ليس لدي متسع من الوقت للقلق حيال ما قد يحدث؛ ليس في خضم ألعاب الحرب. ما أشعر به هو مجرد تحرر لطاقتي لأنني لم أعد منشغلة تمامًا بخوف السقوط من مقعدي. هذا كل ما في الأمر.

جلستُ منتصبة في السرج، ومررتُ بنظراتي المضطربة على امتداد المشهد بينما يبدأ تايرِن في التسلق مجددًا، فتعثرت نبضات قلبي. عاليًا على خط التلال الغربي، برز برج رمادي يكاد يندمج مع سفح الجرف الصخري. كنتُ لأتجاوزه دون ملاحظته لولا الـ–

سألت تايرِن ذهنيًا والخوف يغذي تلك الطاقة الجامحة التي توخز بشرتي:

'هل هذا ما أعتقد أنه هو؟'

كان رأس تايرِن ملتفًا بالفعل نحو ذلك الاتجاه حين أجاب:

'تنانين.'

اختلستُ نظرة من فوق كتفي نحو ليام وريانون، وأدركتُ أن تايرِن لا بد وأنه قد نقل التحذير إليهما، إذ كسرنا التشكيل وتفرقنا مع انطلاق ثلاثة تنانين من الجرف الصخري فوقنا، منقضة في اتجاهات مختلفة. لقد شتتنا انتباههم بتوفير أهداف متعددة، لكننا سنواجههم الآن رجلًا لرجل.

انهال وابل من حبيبات الجليد القاسية ليضرب بشرتي ويرتد عن حراشف تايرِن، مجبرًا إياه على ضم أجنحته بإحكام لتجنب الإصابة.

قفزت معدتي إلى حنجرتي ونحن نهوي في سقوط حر، بينما يقترب قاع الوادي منا بسرعة مرعبة. هددت الحرارة والطاقة بالتهام كل إنش في جسدي، حتى عيناي بدتا وكأنهما تحترقان. يا للآلهة! قدرتي السحرية ستنفجر بوجهي وسط المناورات.

زمجر تايرِن آمرًا:

'تجذري الآن!'

أطبقتُ جفنيّ بقوة، وغرست كلتا قدميّ الذهنيتين على الأرضية الرخامية للأرشيف، رافعة الجدران حولي، ولم أترك سوى منافذ لتدفق طاقة تايرِن الجارفة، ولأندارنا، ومسارًا للتواصل مع زايدن، فشعرتُ على الفور بسيطرة أكبر.

حين فتحتُ عيني، كنا نحلق صعودًا، وأجنحة تايرِن تضرب الهواء بقوة عاتية تدفعني للانزلاق إلى الخلف في السرج مع كل خفقة.

لقد خلف تايرِن متدرب الجناح الأول –موجه الجليد– غارقًا في انقضاضة خلفنا، وتقلص وجهي قلقًا حين رأيت التنين بالكاد يسيطر على هبوطه، لينحرف في اتجاه معاكس لمسارنا.

قلت لتايرِن:

'هناك حيث يخبئون البيضة ويحرسونها.'

لا بد أن يكون الأمر كذلك، بالنظر إلى أن ثلاثة تنانين أخرى اتخذت مواقعها بدلًا من تلك التي انطلقت، متأهبة عند حافة الجرف.

أجاب تايرِن:

'أوافقك الرأي. تماسكي.'

بالكاد امتلك تايرِن ثانية واحدة ليصرخ محذرًا قبل أن يندفع تنين من الوادي عن يميننا، وينفث سيلًا من النيران باتجاهنا.

صرخت برعب وأنا أراقب النيران تندفع نحونا كإعصار مدمر:

– «تايرِن!»

انحرف تايرِن بمهارة، متلقيًا الضربة المباشرة على بطنه، ليحيل بيني وبين اللهب، ولم يصلني سوى لفح الحرارة الخانقة التي عبرت من فوقنا.

ما هذا بحق الجحيم؟

ناديت بخوف:

'أندارنا؟'

إن أصابها أي مكروه لأن الجناح الأول متعطش للدماء...

أجابتني مطمئنة:

'مقاومة للنيران، هل نسيتِ؟'

زفرتُ أنفاسي بوهن. انزاح هم واحد عن كاهلي، لكن التنين الآخر يلاحقنا في أعقابنا، فاتحًا شدقيه ولاويًا لسانه.

انتفض تايرِن فجأة وأرجح ذيله بقوة، ليصيب التنين المهاجم في جانبه، أسفل جناحه مباشرة. زمجر التنين الآخر متألمًا، وهوى جانبيًا فاقدًا ارتفاعه بسرعة تنذر بالخطر.

لكنني لم أركز على سقوطه. بل استغليتُ الوقت لتمشيط سفح الجبل بحثًا عن النقطة الأمامية التي لمحتها سابقًا. تسارعت نبضات قلبي حين وجدتها تطل من بين التلال، ولم يتبقَّ سوى تنين واحد يتولى حراستها.

أرسلتُ رسالتي الذهنية عاجلة:

'زايدن! البيضة هنا!'

أجابني:

'أنا في طريقي بالفعل. تفصلنا عنكم عشرون ميلًا.'

زرعت نبرة الذعر الخفية في صوته غصة من الخوف في حلقي، غصة سرعان ما تعاظمت حين لمحتُ ديغ وليام مشتبكين في معركة ضارية فوقنا مع تنين برتقالي ذي ذيل عقربي مألوف للغاية؛ بايد.

جاك.

قلت لتايرِن بحدة:

'يجب أن نساعد ليام.'

أجابني تايرِن:

'سأتكفل بالأمر.'

تسارع تايرِن وابتعدت أندارنا عن مسارنا. وبمجرد أن رأيتها تلجأ إلى ملاذ آمن في سفح الجبل، انحنيتُ ملتصقة بعنق تايرِن لأقلل من مقاومة الرياح بينما نتسلق السماء بسرعة غير مسبوقة. عبثت الرياح بجديلتي المتوجة، وتطايرت الخصلات المتحررة لتجلد وجهي، في حين سمرتُ عيني على ديغ وليام.

أطلقت بايد ذيلها كالسوط نحو ديغ، لتقترب بصلتها السامة بشكل مروع من حنجرته.

حذرني تايرِن وهو يرتقي عاليًا:

'حراشفه أسمك مما تتخيلين. ليام هو من يحدق به الخطر.'

كنا على وشك الوصول حين استل جاك سيفه وقفز من ظهر بايد إلى ظهر ديغ، مباغتًا ليام بينما تتصارع التنانين بالقرب من البرج الذي نقترب منه بسرعة جنونية.

بالكاد تسنى لليام الوقت للنهوض على قدميه قبل أن يغرس جاك سيفه في خاصرته.

تمزقت حنجرتي بصرخة مدوية:

– «ليام!»

في اللحظة التي ركل فيها جاك حذاءه الثقيل في معدة ليام، دافعًا جسده لينتزِع منه النصل... ويُسقطه عن ديغ.

لا. لا. لا.

هوى ليام، وذراعاه تتخبطان في الهواء بينما يتردى في الهاوية أمامنا.

صرختُ في تايرِن مرعوبة من ألا نتمكن من إنقاذه:

'التقطه!'

اصطدم ديغ وبايد بالبرج، ولمحتُ جاك يتدحرج بسلام نحو أعلى برج مراقبة، وابتسامته السادية تتسع لدرجة يمكنني رؤيتها من موقعي هنا، بينما يغير تايرِن مساره بانعطافة يمينية حادة ودرامية.

لم يحافظ على ثباتي في مقعدي سوى الأشرطة الجلدية الملتفة حول فخذي ونحن نطارد جسد ليام المتهاوي. ضم تايرِن أجنحته بإحكام، لكن النتوءات الصخرية كانت قريبة للغاية، وكنا نرتفع عاليًا جدًا.

لا. اختنقت حنجرتي. أرفض أن أفقده. ليس بعد أن كرس أشهرًا من حياته لحمايتي وإبقائي على قيد الحياة. الفشل ليس خيارًا مطروحًا. إنه ليس كذلك البتة.

ناديت باكية ومشرعةً النافذة في عقلي حيث تقبع هديتها المتلألئة بالانتظار:

'أندارنا؟'

أجابتني بحسم:

'افعليها! ركزي على كل شيء عداكِ أنتِ وتايرِن!'

إنها محقة. لا جدوى من اللحاق بليام إن كان تايرِن متجمدًا في الزمن.

صرخت مجددًا:

'افعليها!'

مددتُ ذهني نحو الطاقة الذهبية، فتقوس ظهري حين اندفعت بقوة على طول عمودي الفقري، لتغمر أصابع يدي وقدمي، وتحتضن كل خلية في جسدي قبل أن تنفجر للخارج في موجة صدمية عبرت من فوق تايرِن.

وفجأة، بتنا الوحيدين الذين نتحرك، نغوص في سماء خالية من الرياح نحو جسد ليام المتجمد في الهواء، على بُعد أقدام قليلة من النتوءات الصخرية الوعرة بالأسفل.

نبضات معدودة؛ هذا كل ما نملكه. ارتجف جسدي بأكمله تحت وطأة الجهد المبذول للحفاظ على هذه الحالة، بينما بدأت الطاقة المتدفقة من أندارنا بالانحسار حين بسط تايرِن أجنحته ومخالبه، لينتزع جسد ليام من منتصف الهواء، محطمًا الصخور بقوة ذيله بينما ننجو نحن أنفسنا من الموت بأعجوبة.

قال تايرِن:

'أمسكت به.'

انفك أسر الزمن ليجري مجددًا، وصفعتني الرياح في وجهي بقوة بينما نصعد، ملتفين بحدة لتجنب الاصطدام بخط التلال.

سألت بقلق:

'أندارنا؟'

كان صوتها بالكاد يهمس في رأسي:

'أنا بأمان.'

غلى دمي بغضب وحنق مستعرين بينما تثبت عيناي على ذلك الطيف المنتصب فوق البرج. ستكون هذه هي المرة الأخيرة التي يلاحق فيها هذا الوغد أصدقائي أو يلاحقني.

انبثقت فيرجي من الأسفل، وذراعا ريانون ممدودتان بينما يصعدان تحتنا. أبطأ تايرِن سرعته بالقدر الكافي لتسليم ليام إليها. إنه حي؛ لا بد أن يكون كذلك. هذه هي النتيجة الوحيدة التي سأقبل بها.

في مجال رؤيتي المحيطية، لمحتُ كاث وتنانين أخرى تصل من الشمال في اللحظة ذاتها التي تنطلق فيها فرقة أخرى من الجرف الصخري فوقنا.

كانت بايد تحلق خلفنا، مسرعة باتجاه راكبها الوغد، الذي لا يزال يشمت بانتصاره المزعوم فوق ذلك البرج اللعين.

أمرت تايرِن:

'ارتفع!'

استللتُ نصلًا من عند أضلاعي، تاركة يدًا واحدة حرة لفك الأبازيم حين تحين اللحظة المناسبة.

زمجر تايرِن في وجهي بينما نندفع بقوة تاركين التنين البرتقالي الأصغر خلفنا:

'لن تغادري مقعدكِ!'

أدار تايرِن رأسه يسارًا، ونافثًا سيلًا من النيران نحو خط تنانين الجناح الأول لتحذيرهم، ونجح في إبعادهم بينما نمرق كالسهم.

أزيز طاقة متنامية يغلي في صدري بينما أُسمر نظري على جاك. يمكنني رؤية متعة سادية مريضة ترتسم على وجهه كلما اقتربنا منه، والدماء التي تقطر من سيفه. دماء ليام.

ظهر تنين هائل في الأفق. لم أكن بحاجة للنظر أو حتى لفتح بوابات مشاعري لأدرك أنه زايدن، لكنني لم أملك لحظة واحدة لأهدرها عليه. كان تايرِن يرتقي بسرعة لم نبلغها من قبل، والطاقة تتسابق على امتداد بشرتي، وتحرق دماء عروقي.

إن كانت هذه هي النهاية، وإن كانت قدرتي السحرية ستنفجر لتسحقني، فلتُلعن روحي إن لم آخذ هذا الوغد معي إلى الجحيم. تايرِن مقاوم للنيران... لكن جاك ليس كذلك.

صرختُ بيأس متخوفة من ألا نصل في الوقت المناسب:

- «أسرع!»

اندفع تايرِن نحو البرج، وأجنحته تخفق بسرعة جنونية تتزايد مع كل لحظة، وبحركة غريزية، رميتُ يديّ إلى الأمام، وكأنني قادرة على قذف كل هذه الطاقة التي تجلد أعماقي نحو العدو الذي حاول للتو قتل صديقي، والذي بذل قصارى جهده لقتلي في كل فرصة سنحت له.

تحول أزيز السحر إلى دوامة قاتلة ومجنونة من الطاقة، ورغم أن قدميّ كانتا لا تزالان متجذرتين بصلابة، تصاعدت القوة لتبلغ نقطة الانكسار، ليتلاشى سقف الأرشيف في عقلي ويندثر تمامًا. تفرقعت الطاقة فوق رأسي، ودوّمت حولي، والتفت حول قدميّ بالأسفل.

أنا السماء، وأنا قوة كل عاصفة هبت على مر العصور.

أنا بلا حدود.

انشقت حنجرتي بصرخة مدوية في اللحظة ذاتها التي شق فيها البرق عنان السماء، مصحوبًا بزمجرة رعد مرعبة.

اصطدم خيط الموت الفضي المائل للزرقة بالبرج، وتطايرت الشرارات مع انفجاره محولًا الحجارة إلى شظايا متناثرة. انحرف تايرِن بقوة ليتجنب الانفجار، واستدرتُ أنا في سرجي.

هوى جاك على امتداد سفح الجبل وسط انهيار صخري مميت، وأدركتُ يقينًا أنه يستحيل أن ينجو منه.

ومن صرخة الألم التي أطلقتها بايد من تحتنا، أدركتُ أنها تعلم ذلك أيضًا.

ارتجفت يدي وأنا أعيد الخنجر النظيف إلى غمده عند أضلاعي. الدماء الوحيدة التي أُريقت كانت هناك على الصخور بالأسفل، ورغم ذلك حدقتُ في يديّ وكأن الموت يخضبهما.

أطلق تايرِن زئيرًا يحمل نبرة فخر لا تخطئها الأذن وقال:

'موجهة البرق.'

«موت أحد المتدربين هو مأساة حتمية ومقبولة في الوقت ذاته. فهذه العملية تصفي القطيع، ولا تبقي إلا على أقوى الركاب، وطالما أن سبب الوفاة لم ينتهك الدستور العسكري، فإن أي راكب تورط في إزهاق روح أخرى لن تطاله يد العقاب.»

– دليل الرائد أفيندرا لقطاع راكبي التنانين (نسخة غير مصرح بها)



الفصل التاسع والعشرون

هبطنا في ميدان الطيران بعد ما بدا وكأنه دقائق معدودة. أو ربما دهرًا بأكمله. لست متأكدة حقًا.

تهتز الأرض تحت وطأة وصول التنانين عن يميننا ويسارنا، وسرعان ما يعج الميدان بركاب الجناح الرابع المحتفلين، وبركاب الجناح الأول الغاضبين. تحلق التنانين مجددًا بمجرد ترجل ركابها، باستثناء أندارنا، التي تنتظر بين الساقين الأماميتين لـ تايرِن بينما أتخبط في فك أبازيم السرجِ.

جاك مات.

أنا من قتله.

أنا السبب وراء الرسالة المشؤومة التي ستُرسل لوالديه، وأنا السبب وراء نقش اسمه على حجر الموتى.

على الجانب الآخر من الميدان، يرفع غاريك البيضة الكريستالية عاليًا فوق رأسه بينما يلوح داين بالراية، وتتعالى هتافات الجناح الرابع، مندفعة نحو الاثنين وكأنهما آلهة هبطت من السماء.

يتحول ثقل تايرِن تحتي حين ينزلق آخر إبزيم من بين أصابعي، فأنزلق من السرج. يدور رأسي، ولا شك أن التوتر هو ما استدعى نوبة الدوار التي تجعلني أكافح للحفاظ على توازني بينما أشق طريقي نحو كتفه لأترجل.

أتعثر في الوحل، وأهوي على ركبتي حين أصل إلى المكان الذي تستلقي فيه أندارنا بين الساقين الأماميتين لتايرِن، وقد بدا عليها الإنهاك التام.

قلتُ لتايرِن:

– «أخبرني أن ليام حي. أخبرني أن الأمر كان يستحق كل هذا.»

أجاب تايرِن:

'يقول ديغ إنه حي. لقد اخترق السيف خاصرته.'

قلتُ وأنا ألتفت إلى أندارنا:

– «جيد. جيد. هذا مريح. شكرًا لكِ، يا أندارنا. أدرك تمامًا الثمن الباهظ الذي تكبدتِه.»

رفعتُ نظري نحو عينيها الذهبيتين، فرمشت ببطء.

قالت:

'كان الأمر يستحق ذلك.'

أطبق الغثيان قبضته عليّ، واعتصرني القيء. قتلته. لقد قتلته.

صاح سوير مقتربًا:

– «تبًا لكِ يا سورنجيل! البرق؟ لقد كنتِ تخفين عنا هذه القوة طوال الوقت!»

برق استخدمته لسلب حياة إنسان.

تشنجت معدتي، وخيم عليّ ظل داكن، لكنه لم يكن زايدن. لقد بسط تايرِن جناحيه فوقنا، عازلًا إياي عن العالم بأسره بينما أتقيأ كل ما أكلته اليوم.

قال تايرِن:

'لقد فعلتِ ما كان محتمًا.'

لكن كلماته لم توقف معدتي عن التقلص والانقباض مجددًا، باذلة قصارى جهدها لطرد ما لم يعد موجودًا أصلًا.

أضافت أندارنا:

'لقد أنقذتِ صديقكِ.'

أخيرًا، هدأت معدتي، فأجبرت نفسي على النهوض ومسحتُ فمي بظهر يدي. وقلت لأندارنا:

– «تحتاجين لبعض الراحة، أليس كذلك؟»

ارتعش صوت أندارنا، وأصبحت رمشات عينيها أبطأ:

'أنا فخورة بأنكِ راكبتي. حتى وإن كنتُ بحاجة إلى حمام الآن.'

سحب تايرِن جناحيه، فتقدمت أندارنا واندفعت محلقة نحو السماء بخفقات أجنحة واثقة باتجاه الوادي.

حدقتُ في السرج. يجب أن أحرره من هذا ليتمكن من الراحة هو الآخر. لكن كل ما يطوف في ذهني هو أنني أخيرًا أمتلك قدرة سحرية، قدرة حقيقية وأصيلة، وأول ما اقترفته بها هو قتل إنسان.

ظهر داين فجأة عن يساري وقال:

– «ڤيوليت؟ هل كنتِ أنتِ من أطلق تلك الصاعقة البرقية؟ تلك التي دمرت البرج؟»

تلك التي أردت جاك قتيلًا.

أومأتُ برأسي، مسترجعة في ذاكرتي كل تلك المرات التي صوبت فيها نحو الكتف بدلًا من القلب. السموم التي استخدمتها لتكبيل الخصوم لا لقتلهم. لقد تركتُ أورين فاقدًا للوعي على الأرض يوم التصفية، ولم أسعَ حتى لنحره حين اقتحم غرفتي.

كل هذا لأنني أبيت أن أكون قاتلة.

قال داين وهو لا يزال تحت تأثير الصدمة:

– «لم يسبق لي أن رأيت شيئًا كهذا. لا أعتقد أن هناك موجه برق قد وُجد منذ أكثر من قرن–»

توقف فجأة وأردف:

– «ڤيوليت؟»

همستُ وأنا أتأمل صفيحة الصدر المركزية للسرج:

– «لقد قتلته.»

لا بد أن يكون هذا هو الموضع الذي تتصل فيه جميع الأجزاء، أليس كذلك؟ يجب أن يتخلص من هذا الشيء بأي طريقة.

ستغمر والدتي السعادة حين تعلم أنني أصبحتُ كالبقية الآن. نسخة مطابقة لها.

انقلبت معدتي الخاوية مجددًا، وتهوعت وكأن جسدي يصارِع لطرد شعور الذنب الذي يتآكلني.

قال داين وهو يمسح على ظهري برفق:

– «تبًا. لا بأس يا ڤاي.»

توقف التشنج أسرع هذه المرة، فجذبني داين إلى صدره، وبدأ يهدهدني برفق بينما تمسح يده على طول عمودي الفقري بحركات مهدئة.

تساءلتُ وأنا أرتجف:

– «لقد قتلته. لماذا بحق الجحيم هذه هي العبارة الوحيدة التي أستطيع نطقها؟»

أصبحتُ كصندوق موسيقى معطوب، يكرر اللحن ذاته مرارًا وتكرارًا، والجميع يراقبني. الجميع يعلم أنني أعجز عن تحمل عواقب قدرتي السحرية.

قال وهو يطبع قبلة على قمة رأسي:

– «أعلم، أعلم. وإن كنتِ لا ترغبين في استخدام هذا النوع من القوة مجددًا، فلستِ مضطرة لذلك–»

قاطعه زايدن بحدة وهو يدفع صدر داين ويسحبني من بين ذراعيه، ثم يقبض على كتفيّ ويديرني لأواجهه:

– «ابتعد عنها بهذا الهراء اللعين! أنتِ قتلتِ بارلو.»

أومأت برأسي إيجابًا.

سألني وعيناه تحدقان بي بتركيز شديد، وكأن إجابتي تحمل مفتاحًا لشيء يحتاجه بشدة:

– «البرق. قدرتكِ السحرية هي البرق، أليس كذلك؟»

أجبته:

– «أجل.»

تصلب فكه وأومأ برأسه مرة واحدة وقال:

– «ظننتُ ذلك، لكنني لم أكن متيقنًا حتى رأيتكِ تنسفين ذلك البرج.»

ظن ذلك؟ ماذا يعني هذا بحق الجحيم؟

قال وهو يرفع يده ليزيح خصلات شعري المتمردة خلف أذني، بلمسة حملت رقة مفاجئة:

– «استمعي إليّ يا سورنجيل. العالم بات مكانًا أفضل بدون بارلو. كلانا يدرك هذه الحقيقة جيدًا. هل كنت أتمنى لو كنتُ أنا من أنهى حياته البائسة؟ بالتأكيد. لكن ما فعلتِه اليوم سينقذ أرواحًا لا تُحصى. لم يكن سوى متنمر حقير، وكان سيزداد وحشية كلما تعاظمت قوته. تنينه ستختار راكبًا آخر حين تكون مستعدة. أنا سعيد بموته. بل وأنا سعيد لأنكِ أنتِ من أنهاه.»

همست بصوت بالكاد يُسمع:

– «لم أقصد ذلك. كنت أستشيط غضبًا بحق الجحيم، وكنا قد أمسكنا بليام للتو. ظننت أن أثر التمرد الخاص بي قد بدأ أخيرًا بالانفجار عكسيًا.»

اتسعت عيناي وأضفت:

– «لقد كان قريبًا جدًا يا زايدن. قريبًا لدرجة مرعبة. كان لا بد لي من التصرف.»

قال وهو يمسح بإبهامه على وجنتي، في حركة تتناقض تمامًا مع نبرة صوته الحازمة:

– «أيًا كان ما فعلتِه، فهو ما أبقاه حيًا.»

التمعت عيناه ببريق أكد لي أنه يدرك تمامًا حقيقة ما فعلته.

اندفعت أقول:

– «أنا لا أريد هذا. ريانون قادرة على نقل الأشياء عبر الفضاء، وداين يمتلك قدرة استرجاع الذكريات–»

قاطعني داين بحدة:

– «مهلًا.»

لكن زايدن التفت إليه بزمجرة فوق كتفه:

– «أتظنني لم أكن أعلم بذلك مسبقًا؟»

ثم عاد ليوجه حديثه إليّ:

– «كاوري يمكنه تجسيد خيالاته، وسوير قادر على طي المعادن. وميرا تستطيع تمديد التعاويذ الوقائية. كل واحد منهم يمتلك قدرة سحرية لا تقتصر فائدتها على ساحات المعارك فحسب. إنهم أدوات لخير العالم. وماذا عساي أن أكون أنا بحق الجحيم يا زايدن؟ أنا مجرد سلاح فتاك لعين.»

بدأ داين بصوت ناعم ومطمئن:

– «لستِ مجبرة على استخدام قوتكِ يا ڤاي–»

قاطعه زايدن، مشددًا على كل كلمة وهو يرميه بنظرة قاطعة:

– «كف. عن. معاملتها. كطفلة. لينة! إنها ليست طفلة. إنها امرأة ناضجة. راكبة تنين. ابدأ بمعاملتها على هذا الأساس، وتحلَّ بالحد الأدنى من اللياقة لتصارحها بالحقيقة. هل تظن حقًا أن ميلغرين أو أي جنرال آخر –بما في ذلك والدتها شخصيًا– سيتركها تهدر قوة كهذه؟ ليس الأمر وكأنها قادرة على إخفائها، ليس بعد أن سوت أحد حصون التدريب بالأرض لتوها.»

جادله داين:

– «أنت فقط تود أن تراها نسخة منك. قاتلة بدم بارد. قريبًا ستخبرها أن الأمر لا بأس به، وأنها ستعتاد على القتل.»

شهقت بصدمة.

ثبته زايدن بنظرة حارقة وقال:

– «الدم الذي يجري في عروقي دافئ كدمك تمامًا يا آيتوس، وإن كنت تطمح لانتزاع منصبي في العام القادم، فمن الأفضل أن تبدأ باستيعاب أنك لن تعتاد أبدًا على القتل، لكنك ستتفهم ضرورته.»

استدار نحوي مجددًا، وعيناه الداكنتان تخترقان عينيّ:

– «نحن لسنا في مدرسة ابتدائية هنا. هذه حرب – ولقد سمعتني أقولها من قبل، لكن الحقيقة البشعة التي يتجاهلها من لا يقفون على خطوط المواجهة الأمامية هي أن الحروب تخلف وراءها دائمًا أكياس جثث.»

بدأتُ أهز رأسي نفيًا، لكنه ضيق عينيه وتابع:

– «قد لا يروقكِ الأمر، بل قد تمقتينه بشدة، لكن قوة كقوتكِ هي ما ينقذ الأرواح.»

صرختُ في وجهه:

– «بقتل الآخرين؟»

إن كانت سجايل محقة، والقدرات السحرية تعكس جوهر أرواحنا، فأنا إذن بالضبط ما نعتني به زايدن... ڤيولينس *(أي: عنيفة)*.

أجاب:

– «بسحق جيوش الغزاة قبل أن تسنح لهم فرصة المساس بالمدنيين. هل تودين إبقاء ابن شقيقة ريانون حيًا في تلك القرية الحدودية الصغيرة؟ هذه هي الوسيلة. هل تودين إبقاء ميرا حية حين تكون محاصرة خلف خطوط العدو؟ هذه. هي. الوسيلة. أنتِ لستِ مجرد سلاح يا سورنجيل. أنتِ السلاح الأوحد. دربي هذه القدرة، تملكي زمامها، وستمتلكين القوة الكافية لحماية مملكة بأكملها.»

أزاح المزيد من خصلات شعري التي عبثت بها الرياح خلف أذني، ليجلي رؤيتي، فلم يترك لي أي عذر سوى أن أرى الصدق الساطع في عينيه. وحين تيقن من أنني لن أستمر في جداله، التفت إلى جانبه وسأل:

– «ريانون، هل بإمكانكِ مرافقتها للعودة إلى القلعة؟»

أجابته ريانون وهي تهرع نحونا:

– «بكل تأكيد.»

أطلق داين شخرة استهزاء واستدار مبتعدًا ليلتحق بقادة الفرق الأخرى، تاركًا إيانا.

بدأتُ أقول:

– «السرج–»

قاطعني زايدن:

– «تايرِن قادر على فكه بنفسه. لقد كان ذلك أحد شروطه العديدة عند تصميمه.»

استدار زايدن ليغادر، لكنه توقف فجأة وأضاف:

– «شكرًا لإنقاذكِ ليام. إنه يعنيني كثيرًا.»

تنهدتُ وأنا أرمق ظهره وقلت:

– «لست مضطرًا لشكري... وقد ذهب بالفعل.»

قالت ريانون وهي تشبك ذراعها بذراعي:

– «علاقتكما غريبة الأطوار بحق.»

نظرتُ إلى تايرِن، الذي التزم الصمت بشكل مدهش طوال ما حدث مع زايدن وداين، وقلت:

– «نحن لسنا في علاقة.»

حثني تايرِن:

'اذهبي. لكن إياكِ أن تتركي نفسكِ فريسة للشعور بالذنب أيتها الفضية. كل ما تخالجكِ من مشاعر هو أمر طبيعي. اسمحي لنفسكِ باستشعارها ثم حرريها. لقد طرح قائد الجناح وجهة نظر سديدة. بقدرة سحرية كهذه، أنتِ الأمل الأعظم الذي تمتلكه المملكة في مواجهة جحافل الشر التي تسعى لتدميرها. ارتاحي الآن وسنلتقي غدًا. سأتولى فك سرجي بنفسي.'

تابعت ريانون وهي تسحبني خارج الميدان:

– «أنتما بلا شك في علاقة. كل ما في الأمر أنني أعجز عن تحديد ما إذا كانت تلك الشراكة بين الأضداد التي تجعلكما تكشران عن أنيابكما لبعضكما، أم أنه الاحتراق البطيء والقاتل لتوتر جنسي مشتعل.»

اختلست نظرة جانبية إليّ وأضافت:

– «الآن أخبريني بحق الجحيم، كيف تمكنتما من التحرك بتلك السرعة الخارقة هناك؟»

سألتها متظاهرة بعدم الفهم:

– «ماذا تقصدين؟»

أوضحت:

– «حين كان ليام يهوي، حلقتُ أنا وفيرجي بأقصى سرعة ممكنة، لكنني أدركتُ أننا سنكون أبطأ من أن نلحق به نظرًا لزاويتنا وسرعتنا، وظننتُ أنكِ...»

هزت رأسها بذهول وتابعت:

– «بدا الأمر وكأنكِ تحلقين عاليًا فوقه في ثانية، وفي الثانية التي تلتها كان بين أحضان تايرِن. لم يسبق لي أن رأيت تنينًا يحلق بتلك السرعة. بدا الأمر وكأنني رمشتُ ففاتني المشهد بأكمله.»

الآن، نهشني شعور بالذنب لسبب مختلف تمامًا. ريانون صديقتي، أقرب صديقة لي هنا، إن كنت صريحة مع نفسي بشأن ما آلت إليه علاقتي بداين. ومن بين الجميع، هي بالذات من ينبغي أن تعرف–

حذرني تايرِن:

'إياكِ أن تشعري بالذنب لعدم قدرتكِ على البوح لها. هذا السر هو أمانة جنس التنانين، وليس ملكًا لكِ. لا يحق لأحد أن يعرض فراخنا للخطر. ولا حتى أنتِ، أيتها الفضية.'

قلت محاولة التبرير:

- «تايرِن سريع للغاية.»

لم تكن كذبة، لكنها لم تكن الحقيقة كاملة أيضًا.

ردت ريانون:

- «والشكر للآلهة على ذلك. لا بد أن زيهنال يُكن حبًا عظيمًا لليام، ليسمح له بمخادعة الموت مرتين في يوم واحد.»

لكن لم يكن ليام هو من خادع الموت.

لقد كنتُ أنا.

ولا يسعني سوى أن أتساءل عما إذا كان مالِك، إله الموت، يجلس على عرشه في بُعد ما، مستشيطًا غضبًا لأنني اختطفتُ روحًا من بين براثنه.

لكن من جهة أخرى، لقد قدمتُ له روح جاك كقربان.

وبالطبع، لعل هذا الثمن قد شق روحي أنا إلى الأبد.

***

يهتز الهدف الخشبي في غرفتي حين ينغرس فيه أحد خناجري بجوار الخنجر الذي سبق ورميته. قد أكون ناقمة على العالم بأسره، لكن عزائي الوحيد أن مهارتي في التصويب لم تتأثر. فلو أخطأتُ، كان الخنجر ليطير من النافذة لا محالة، نظرًا للموقع الذي أسندتُ فيه الهدف على الجدار.

ألقيتُ بثلاثة خناجر أخرى بتتابع سريع، فأصابت حنجرة الهدف المصمم على هيئة إنسان في كل مرة.

ما الجدوى من استهداف الأكتاف بعد الآن إن كنتُ قادرة على سحق أعدائي بصواعق البرق؟ لأجل ماذا كان كل هذا ضبط النفس؟ بحركة خاطفة من معصمي، أرسلتُ الخنجر التالي ليخترق جبهة المجسم مباشرة، بالتزامن مع قرعة على بابي.

إما أنها ريانون تسأل للمرة العاشرة عما إذا كنتُ أرغب في الحديث عما حدث اليوم، أو أنه ليام–

توقفت للحظة. لا يمكن أن يكون ليام، قادمًا ليطمئن على أنني أويت إلى فراشي، لأنه لا يزال قابعًا في المستوصف، يتعافى من طعنة السيف في خاصرته.

قلت:

– «تفضل بالدخول.»

ما همني إن كنتُ لا أرتدي سوى ثوب النوم الخفيف؟ ليس وكأنني عاجزة عن إردائها قتيلًا بخنجر، أو... ببرق لعين.

انفتح الباب بجانبي، لكنني لم أُكلف نفسي عناء الالتفات إليه بينما أُطلق خنجرًا آخر. ذلك الطول الفارع؟ ذلك الطيف من الشعر الداكن الذي التقطته في مجال رؤيتي المحيطية؟ وتلك الرائحة الآسرة؟ لم أكن بحاجة حتى للنظر بتمعن – جسدي بأكمله يخبرني أنه زايدن.

ثم تولى جسدي تذكيري بالضبط بشعور شفتيه على شفتي، فارتجفت معدتي. تبًا، أنا في حالة من التوتر الشديد لا تسمح لي بالتعامل معه أو مع المشاعر التي يثيرها في داخلي الليلة.

أغلق الباب وأسند ظهره إليه، وطوى ذراعيه على صدره، ثم سألني:

– «أتتخيلين أن ذلك المجسم هو أنا؟»

ثم ألقى نظرة فاحصة، وعيناه المتقدتان تجوبان تفاصيل جسدي.

وفجأة، لم يعد نسيم الربيع العليل المتسلل عبر النافذة المفتوحة كافيًا لتبريد بشرتي المحترقة تحت وطأة نظراته.

تأرجحت جديلتي الطويلة على ظهري وأنا أتناول خنجرًا آخر من على خزانتي وقلت:

– «لا. لكنه كان أنت بالفعل قبل عشرين دقيقة.»

سأل رافعًا حاجبًا وعاقدًا كاحلًا فوق الآخر:

– «ومن هو الآن؟»

بحركة سريعة من معصمي، اخترق النصل التالي عظمة القص للمجسم وأجبته:

– «شخص لا تعرفه. ما الذي أتى بك إلى هنا؟»

اختلست نظرة سريعة نحوه، تكفي فقط لألاحظ أنه قد استحم وارتدى زينا الرسمي الموحد بدلًا من درع الطيران، وبالتأكيد لم تكن نظرة طويلة بما يكفي لألاحظ كم يبدو وسيمًا بحق الجحيم. لمرة واحدة فقط، أود أن أراه أشعثًا أو مرتبكًا، أي شيء يكسر ذلك الدرع من السيطرة الهادئة الذي يرتديه كدرع حصين. وأضفت:

– «دعني أحزر. بما أن ليام خارج الخدمة، فقد أخذت على عاتقك مهمة توبيخي لأنني أنام بقميص قطني خفيف.»

قال بنبرة خافتة، وأنا أستشعر حرارة نظراته تلامسني كمداعبة رقيقة وهي تنساب فوق الأشرطة السوداء الرفيعة لثوب نومي:

– «لم آتِ لتوبيخكِ. لكنني أرى بوضوح أنكِ لا ترتدين درعكِ.»

أخذتُ خنجرًا آخر من الخزانة، وقد بدأت كومة الخناجر تتناقص، وقلت:

– «لن يتجرأ أي أحمق على مهاجمتي الآن. ليس وأنا قادرة على حصد أرواحهم من بُعد خمسين ياردة.»

نقرتُ بطرف السلاح الحاد، واستدرتُ قليلًا لأواجهه جزئيًا، وسألته:

– «هل تعتقد أن الأمر يفلح في الداخل؟ أعني، كيف لامرئ أن يوجه البرق إن لم يكن هناك سماء فوقه؟»

سمرتُ عيني في عينيه، وأطلقتُ الخنجر نحو الهدف. وأكد لي صوت الخشب المنشق الذي يثلج الصدر أنني أصبتُ الهدف بدقة.

سحب نفسًا عميقًا وقال:

– «تبًا، هذا مثير أكثر مما ينبغي. أعتقد أن هذا شيء سيتعين عليكِ اكتشافه بنفسكِ.»

انخفض نظره نحو شفتي وتصلبت عضلات ذراعيه.

طقطقت بلساني، واجتاحني دافع سخيف ومجنون لتمريره على خطوط أثر التمرد المنقوش على عنقه، وتتبع نمطه المعقد، وقلت:

– «ألن تتدخل وتخبرني أن بإمكانك تدريبي؟ أن بإمكانك إنقاذي؟ هذا لا يشبه زايدن المعتاد على الإطلاق.»

مرر نظره على طول جسدي من أطراف أصابع قدمي العاريتين إلى حاشية الثوب التي تلامس فخذي، مرورًا بصدري وصولًا إلى عنقي، ليصطدم أخيرًا بعينيّ، وفي عينيه شوق خالص وهو يقول:

– «ليس لدي أدنى فكرة عن كيفية تدريب موجه برق، ومما شهدته اليوم، أنتِ لستِ بحاجة لمن ينقذكِ.»

تمتمت:

– «بل من نفسي.»

الأشياء التي تخطر ببالي أن أفعلها به حين يرمقني بتلك النظرة ستدمرني لا محالة، والليلة، لست متأكدة من أنني أبالي بذلك. وهذا مزيج شديد الخطورة. فسألته:

– «إذن، لماذا أتيت إلى هنا يا زايدن؟»

بدا وكأنه أي شيء سوى مسرور بهذا الاعتراف، لكن كلماته سرقت أنفاسي على أية حال:

– «لأنني على ما يبدو أعجز عن البقاء بعيدًا.»

قلت:

– «ألا ينبغي أن تكون بالخارج تحتفل؟»

فالجميع يحتفلون الآن.

دفع نفسه بعيدًا عن الباب وخطا خطوة واحدة، ملغيًا المسافة بيننا، ورفع جديلتي عن كتفي، واضعًا إبهامه يمسد خصلاتها ببطء، وقال:

– «لقد كسبنا معركة، وليس الحرب. وافترضتُ أنكِ ربما لا تزالين مستاءة.»

طويت ذراعي على صدري، مؤثرةً الغضب على الشهوة، وقلت:

– «لقد أمرتني بأن أتجاوز الأمر، هل نسيت؟ فلماذا بحق الجحيم تكترث إن كنتُ مستاءة أم لا؟»

أسقط جديلتي وقال:

– «لقد قلتُ لكِ إن عليكِ أن تكتسبي صلابة لتحمل القتل. لم أقل قط إنكِ ستتجاوزينه.»

هززت رأسي وتراجعت نحو منتصف الغرفة قائلة:

– «لكن كان يجب عليّ ذلك، أليس كذلك؟ نحن نمضي ثلاث سنوات هنا نتعلم كيف نصبح قتلة، ونرقي ونمجد أولئك الذين يتقنون القتل ببراعة.»

لم يجفل حتى، بل استمر في مراقبتي بتلك النظرة المتأملة والهادئة التي تثير حنقي.

تابعت:

– «لست غاضبة لموت جاك. كلانا يعلم أنه أراد قتلي منذ المتراس الصخري، وأنه كان سيفعلها في النهاية. أنا غاضبة لأن موته يغيرني.»

نقرت على صدري فوق قلبي مباشرة وأضفت:

– «أخبرني داين أن هذا المكان يجرد الإنسان من قشور اللياقة ليُظهر معدنه الحقيقي.»

قال وهو يراقبني أذرع الغرفة جيئة وذهابًا:

– «لن أجادلكِ في هذا.»

توقفت أمامه مباشرة ورفعت يديّ قائلة:

– «ولا يسعني إلا أن أفكر أنه حين كنت أصغر، سألتُ والدي عما سيحدث إن أردتُ أن أكون راكبة تنين كأمي أو برينان، فأخبرني أنني لست مثلهما. وأن مساري مختلف، لكن هذا المكان جردني من تهذيبي، ومن كل لطفي، واتضح في النهاية أن قوتي أكثر تدميرًا من أي منهم.»

تكونت غصة في حلقي وأضفت:

– «وليس الأمر وكأنني أستطيع إلقاء اللوم على تايرِن في هذه القوة، ولست أنوي ذلك أصلاً. القدرات السحرية تنبع من الراكب، وتستمد وقودها من التنين، مما يعني أن هذا كان دائمًا مختبئًا تحت السطح، ينتظر اللحظة المناسبة ليُطلق العنان. ومجرد التفكير...»

تابعت بصوت مختنق:

- «طوال هذا الوقت، كنت أتمسك بأمل ضئيل وصغير بأن أكون كبرينان، وأن يكون هذا هو التحول السعيد في حكايتي الصغيرة. أن تكون قدرتي السحرية هي الإصلاح، فأتمكن من ترميم كل الأشياء المكسورة. ولكن بدلًا من ذلك، خُلقتُ لأمزقها إربًا. كم شخصًا سأقتل بهذه القوة؟»

لانت نظراته وقال:

- «بقدر ما تختارين أنتِ. حصولكِ على القوة اليوم لا يعني أنكِ فقدتِ إرادتكِ الحرة.»

هززت رأسي وأحكمت قبضتيّ قائلة:

- «ما خطبي بحق السماء؟ أي راكب آخر كان ليطير فرحًا.»

حتى الآن، أستشعر غليان الطاقة تحت بشرتي.

اقترب أكثر لكنه لم يلمسني وقال:

- «أنتِ لم تكوني قط كأي راكب آخر. ربما لأنكِ لم ترغبي أبدًا في أن تكوني هنا.»

يا للآلهة، أريده أن يلمسني، أن يمسح بشاعة هذا اليوم، أن يجعلني أشعر بأي شيء، أي شيء سوى هذا الخزي الذي يغمرني.

رمقتُ أثر التمرد على عنقه بنظرة ذات مغزى وقلت:

- «لا أحد منكم أراد التواجد هنا. وجميعكم تبلون حسنًا.»

نظر إليّ، نظر حقًا، وشعرت وكأنه يرى في أعماقي أكثر مما ينبغي:

- «معظمنا كان ليحرق هذا المكان حتى الأساس لو خُيرنا، لكن كل الموشومين منا يريدون التواجد هنا لأنه سبيلنا الوحيد للنجاة. الأمر ليس كذلك بالنسبة لكِ. أنتِ أردتِ حياة هادئة تعج بالكتب والحقائق. أردتِ تدوين تاريخ

المعارك، لا أن تكوني وقودًا لها. لا يوجد أي خطب بكِ. من حقكِ أن تغضبي لأنكِ قتلتِ إنسانًا اليوم. ومن حقكِ أن تغضبي لأن ذلك الإنسان حاول سلب حياة صديقكِ. لكِ مطلق الحرية في أن تشعري بما تشائين بين هذه الجدران.»

بات قريبًا بما يكفي لأستشعر حرارة جسده عبر القطن الرقيق لثوب نومي.

قلت موقنة:

– «ولكن ليس خارجها.»

أجاب وكأن ذلك التفسير كافٍ:

– «نحن ركاب تنانين.»

أمسك بيديّ وضمهما إلى صدره وتابع:

– «لذا افعلي كل ما تحتاجينه لتنفيسي عن غضبكِ. أتريدين الصراخ؟ اصرخي في وجهي. أتريدين ضرب شيء ما؟ اضربيني. يمكنني تحمل ذلك.»

ضربه هو آخر ما أود القيام به، وفجأة، استسلمتُ تمامًا ولم أعد قادرة على المقاومة.

همس:

– «هيا. أريني ما في جعبتكِ.»

نهضتُ على أطراف أصابعي وقبلته.

«رغم أنه ليس محظورًا تمامًا، إلا أنه يُنصح المتدربون بشدة بتجنب التورط في علاقات عاطفية عميقة أثناء فترة دراستهم في القطاع، حفاظًا على كفاءة الوحدة العسكرية.»

– المادة الخامسة، القسم السابع، دستور راكبي التنانين



الفصل الثلاثون

تصلب جسده لنبضة، ثم اثنتين، قبل أن يديرني بسرعة خاطفة تفوق الوصف، ليسند ظهري إلى الباب بقوة جعلت الإطار يرتجف. يا إلهي. أسر معصميّ بيد واحدة وثبتهما فوق رأسي كالسجين. تأوه زايدن ضد فمي، هامسًا واسمي يتردد بين شفتيه:

– «ڤيوليت.»

سرى رجاء مبطن في نبرته، ليضخ في عروقي نوعًا مختلفًا كليًا من القوة. معرفتي بأنه يقع تحت تأثير جاذبيتنا بالقدر ذاته الذي أقع فيه هي نشوة بحد ذاتها. تابع قائلًا:

– «هذا ليس ما تريدينه حقًا.»

تحديته قائلة:

– «هذا هو تحديدًا ما أريده.»

أريد أن أستبدل غضبي بالشهوة، وأن أمحو موت اليوم بيقين نابض بالحياة يثبت أنني لا أزال على قيد الحياة، وأنا أعلم أنه قادر على منحي ذلك وأكثر.

وأضفت:

– «لقد قلتَ لي أن أفعل كل ما أحتاجه.»

قوست ظهري، دافعة قمتي نهديّ ضد صدره.

تسارعت أنفاسه، واشتعلت في عينيه حرب أنا مصممة على الانتصار فيها.

حان الوقت لنكف عن الدوران حول هذا التوتر الذي لا يُحتمل ولنكسره تمامًا.

انحنى مقتربًا، ولم تعد تفصل بين شفتينا سوى إنشات قليلة، وقال:

– «وأنا أخبركِ أنني آخر شيء تحتاجين إليه الآن.»

تصاعدت زمجرة خافتة، بالكاد مكبوحة، من أعماق صدره، لتوقظ كل نهاية عصبية في جسدي وتلهبها.

سألته محاولة كشف أوراقه، بينما يتسارع نبض قلبي:

– «هل تقترح شخصًا آخر؟»

زمجر بحدة:

– «لا، بحق الجحيم.»

اشتعل بريق غيرة لا تخطئه العين، مضيقًا عينيه للحظة، قبل أن يثبتني بخصره ضد الباب، وحل محل ارتياحي الفوري لإجابته صدمة من الشهوة الخالصة. أمكنني رؤية سيطرته الشهيرة تتأرجح على الحافة، متوازنة بخطورة على نصل سكين. كل ما يحتاجه هو دفعة. واحدة. صغيرة. وأنا على وشك أن أدفعه بلا ذرة خجل.

همستُ:

– «جيد.»

رفعتُ رأسي نحوه، واحتويتُ شفته السفلى بين شفتي، أمتصها قبل أن أعضها برفق بأسناني، وأضفت:

– «لأنني لا أريد أحدًا سواك يا زايدن.»

اخترقت الكلمات شيئًا في أعماقه، فاستسلم.

أخيرًا.

اصطدمت شفاهنا، وكانت القبلة ساخنة وقاسية وخارجة تمامًا عن سيطرتنا. سرت الرغبة كالنار على طول عمودي الفقري حين أمسك بمؤخرتي وسحبني بقوة نحو خصره، بينما كشط ظهري حواف الباب خلفي وأنا أستند إليه كدعامة لأدفع نفسي أقرب نحو صلابته.

طوقتُ خصره بساقيّ وأحكمت قفل كاحليّ. ارتفع ثوب نومي إثر حركتي، لكنني لم ألقِ لذلك بالًا، ليس وهو يقبلني بتلك الطريقة الجارفة التي تلتهم كل شيء. سرقت مداعبة شفتيه وحركات لسانه الماكرة كل فكرة عقلانية من رأسي، وتقلص عالمي ليقتصر على هذه القبلة، هذه الدقيقة، وهذا الرجل. رَجُلي. في هذه اللحظة، زايدن ريورسون ملكي.

أو ربما أنا ملكه. من يكترث بحق الجحيم طالما أنه مستمر في تقبيلي؟

تدفقت الحرارة في جسدي باندفاع إدماني، لتشعل كل إنش في بشرتي بينما ينزلق فمه هبوطًا نحو عنقي في هجوم حسي انتزع مني تأوهًا.

همس ضد حنجرتي:

– «يا للآلهة.»

ثم بدأنا في التحرك.

احتك الخشب بالأرضية وأصدر ضجيجًا قبل أن ترتطم مؤخرتي بالمكتب، وانفك كاحلاي من أسفل ظهره حين انحنى فوقي، ممررًا أصابعه في شعري عند مؤخرة عنقي ليلتهم فمي مجددًا. بادلته القبلة بجوعٍ لم أعهده إلا معه.

تطايرت يداي إلى الخلف لأسند ثقلي، مطيحة بأي شيء وكل شيء يعترض طريقي، مرسلة كل ما كان هناك ليتناثر على الأرضية. توقفت عقارب الساعة عن الدوران.

همس وهو يطبع قبلة مع كل كلمة ينطقها على طول فكي، شاقًا طريقه نحو أذني:

– «ستكرهينني في الصباح. أنتِ. لا. تريدين. هذا. حقًا.»

ثم عض شحمة أذني، فذابت أحشائي وانصهرت.

قلتُ بأنفاس لاهثة ومتقطعة، وأنا أخلل أصابعي في خصلات شعره القصيرة، مميلة رأسي لأمنحه وصولًا أفضل:

– «توقف عن إخباري بما أريده.»

فاستغل الفرصة، متدرجًا هبوطًا على طول عنقي وصولًا إلى الانحناء حيث يتصل بكتفي.

تبًا، هذا شعور خيالي. كل لمسة من فمه على بشرتي المحمومة كانت كشرارة تلقى على الحطب اليابس، وسحبتُ نفسًا حادًا حين أطال البقاء عند نقطة حساسة، متأنيًا في مداعبتها. لكنه توقف مجددًا، وأنفاسه ساخنة ورطبة ضد جانب عنقي.

قطبتُ حاجبيّ تحت وطأة فكرة غير مرحب بها، فقلت:

– «إلا إذا كنتَ أنت من لا يريدني.»

أجابني:

- «هل يبدو لكِ حقًا أنني لا أريدكِ؟»

أخذ يدي وزلقها بين جسدينا، فالتفت أصابعي حول صلابته عبر درعه الجلدي. أصدرتُ أنينًا خافتًا نابعًا من رغبة خالصة وأنا أستشعر مدى تصلبه من أجلي.

تأوه حين ضغطتُ بيدي، ثم رفع رأسه، وأسر نظراتي في عينيه، فرأيتُ تلك الحاجة الجامحة تتأجج في أعماق تلك البقع الذهبية. كانت مرآة تعكس حاجتي.

تابع قائلًا:

- «أنا أريدكِ دائمًا بحق الجحيم. تدخلين إلى غرفة، فلا أستطيع إشاحة بنظري عنكِ. أقترب منكِ، فيحدث هذا. أتصلب فورًا. تباً لكل شيء، بالكاد أستطيع التفكير وأنتِ في الجوار.»

حرك خصره دافعًا إياه ضد يدي، فاشتدت قبضتي بالتزامن مع تقلص معدتي. وأردف:

- «رغبتي بكِ ليست هي المشكلة هنا.»

سألته:

- «ما المشكلة إذن؟»

تصلب فكه وأجاب:

- «أحاول أن أتحلى بالشرف وألا أستغل ضعفكِ بعد أن قضيتِ يومًا مريعًا.»

ابتسمتُ وقبلت جانب فمه قائلة:

- «كل الأيام مريعة هنا. ولا يُعد هذا استغلالًا حين أكون أنا من يطلب-»

عضضتُ على شفتيه وأضفت:

- «تصحيح، يتوسل إليك لتجعل يومي أفضل.»

نطق اسمي وكأنه تحذير، وكأنه شيء يجب أن أحذره:

– «ڤيوليت.»

ڤيوليت. لا ينطق اسمي إلا حين نكون وحدنا، حين تنهار كل الجدران وتتساقط الأقنعة، وكم أتوق بحق الآلهة لسماعه يردده مرارًا وتكرارًا، بهذه النبرة تحديدًا.

قلتُ وأنا أحرر قبضتي عنه:

– «لا أريد التفكير يا زايدن. أريد أن أشعر وحسب.»

سحبة واحدة للشريط كانت كافية لفك جديلة شعري الطويلة المرتخية، فمررت أصابعي عبر الخصلات المتدفقة.

اغمقت عيناه، وأدركتُ حينها أنني قد انتصرت.

قال وهو يمرر فمه فوق فمي:

– «تبًا لي، هذا الشعر... وهذا الفم. كل ما أرغب في فعله هو تقبيلكِ، حتى حين تثيرين حنقي.»

قلتُ وأنا أقوس جسدي نحوه وأستحوذ على شفتيه، مقبلة إياه وكأن هذه هي المرة الأخيرة التي سأحظى فيها بهذه الفرصة:

– «إذن قبّلني.»

هذا النوع من اليأس ليس طبيعيًا؛ إنه حريق غابات كفيل بإحراقنا كلانا حتى الرماد إن أطلقنا له العنان.

كانت القبلة حسية بشفافية، وشهوانية بلذة، فذبتُ ضد جسده، مبادلة كل اندفاعة من لسانه بمثلها من جانبي. كان طعمه مزيجًا من النعناع، وزايدن، ولم أستطع الاكتفاء منه.

إنه أسوأ أنواع الإدمان، خطير، ويستحيل الشبع منه.

همس وإبهامه يمسح على البشرة الشديدة الحساسية لفخذي الداخلي:

– «اطلبي مني التوقف.»

أجبته:

– «لا تتوقف.»

سأموت حتمًا إن فعل.

تأوه وهو يزلق يده بين فخذي:

– «تبًا، ڤيوليت.»

انسَ الأمر. هذه هي الطريقة التي أريده أن ينطق بها اسمي من الآن فصاعدًا. هكذا تمامًا.

مرر قماش ملابسي الداخلية فوق جلدي، فتقوس ظهري إثر انفجار اللذة التي اجتاحت جسدي، لذة حلوة لدرجة أنني أمكنني تذوقها.

استحوذ على فمي مجددًا في هجوم جائع، ولسانه ينزلق ضد لساني بينما تداعبني أصابعه عبر القماش، مستخدمة إياه ببراعة لتوليد الاحتكاك. حاولتُ دفع خصري ضد يده طلبًا للمزيد، لكن قدمي المتدليتين عن حافة المكتب سلبتا مني قوة الدفع. ليس بوسعي سوى التلقي، وما يقرر هو منحه.

طالبته، وأظافري تنغرس في مؤخرة عنقه القوي، بينما تدق الرغبة في عروقي كقرع الطبول:

– «المسني.»

كان صوته أجشًا ضد فمي:

– «إن وضعت يدي عليكِ، إن لمستكِ حقًا وبصدق، فلا أدري إن كنتُ سأتمكن من التوقف.»

أعلم أنه لن يفعل. أعلم ذلك في أعماق روحي. ولهذا السبب أأتمنه على جسدي.

أما قلبي؟ فليس له دور في هذا القرار.

قلت:

– «توقف عن هذا الشرف اللعين وضاجعني يا زايدن.»

اشتعلت عيناه، ثم قبلني وكأنني الهواء الذي كان يفتقده، وكأن حياته تعتمد على ذلك، وأظن أن حياتي تعتمد عليه أيضًا. انزلقت أصابعه أسفل ملابسي الداخلية وداعبت مركزي الرطب، فانفلت أنين من شفتي. كانت لمسته مشحونة بالكهرباء.

همس وهو يقبلني بعمق بينما أصابعه تلمس وتداعب، جاعلة تلك العقدة الحلوة من اللذة تشتد في مركزي:

– «بالغة النعومة.»

غرزتُ أظافري في كتفه، وقوس ظهري بينما كان يرسم دوائر أضيق فأضيق على جلدي. وأضاف:

– «أراهن أن مذاقكِ بروعة ملمسكِ.»

ارتجفت اللذة عبر جسدي، كنار حية تتنفس تحت بشرتي.

توسلته:

– «المزيد.»

كان هذا أقصى ما يمكنني نطقه، وما أمكنني المطالبة به، بينما توردت بشرتي وحلق نبضي في السماء. كنتُ على وشك الاحتراق، الانفجار إلى ألسنة لهب.

انخفض صوته، وبدا وكأنه قد حُك على جمر متقد:

– «أنتِ ساخنة جدًا بحق الجحيم. قد يكون هذا هلاكنا كلانا، لكنني لا أطيق الانتظار لأشعر بانقباضكِ حولي.»

همستُ:

– «أوه، يا للآلهة.»

ذلك الفم. دفعتُ يديّ إلى الخلف ضد الجدار لأستمد قوة الدفع، فأسقطتُ شيئًا ما بينما كنت أُأرجح خصري. تحطم شيء على الأرضية عن يساري وأنا أركب أصابعه المندفعة. قوس أصابعه ضد جدراني الداخلية فشهقتُ، وقبضت فخذي حول خصره المكسو بالجلد. وحين استخدم إبهامه لمداعبتي، دفعني الاحتكاك والضغط إلى حافة نشوة أفقدتني صوابي.

صرختُ، فكتم الصوت بفمه، مقبلًا إياي بحركات ماكرة من لسانه تزامنت مع حركة أصابعه بداخلي.

اندفعت الطاقة متدفقة عبر عظامي، فتشبثت بزايدن بقوة أكبر، متفاجئة من ذلك الاندفاع غير المتوقع للطاقة المفرقعة.

تسللت كلماته إلى عقلي، بينما فمه ملتحم بفمي:

'انظري إليكِ. أنتِ جميلة بحق الجحيم يا ڤيوليت. حرري نفسكِ من أجلي.'

ودفعتني تلك الحميمية المطلقة إلى ذروة اللذة، ثم قذفتني متجاوزة إياها.

ابتلع صرختي بينما تقوس ظهري، لتغمرني الموجة الأولى من نشوتي، محررة تلك العقدة المشدودة من التوتر في انفجار من الشرر عند حافة رؤيتي، محطمة إياي إلى مليون نجمة متناثرة. ضرب البرق خارج نافذتي، لتومض الغرفة بالضوء مرارًا وتكرارًا بينما يداعبني بخبرة نقلت النشوة الأولى لتبلغ ذروة ثانية.

تأوهت بينما تنحسر اللذة ثم تشتعل مجددًا:

– «زايدن.»

ابتسم وسحب أصابعه من جسدي، ولم أكن سوى أنفاس لاهثة وجوعٍ خام وأنا أمد يدي نحو قميصه. أريده أن يخلعه الآن. استجاب لإلحاحي، فمزق

القماش، ثم عدنا للتقبيل مجددًا، في دوامة من الألسنة الملتفة والأيدي المتجولة. كان ملمس بشرته تحت أطراف أصابعي سماويًا، بنعومة مستحيلة تخفي تحتها ياردات من العضلات الصلبة. تتبعتُ خطوط ظهره، حافظة كل الانخفاضات والتجاويف بينما تتموج الأوتار مع كل حركة يأتي بها.

شهقتُ وأنا أمد يدي نحو أزرار درعه الجلدي:

– «أحتاجك الآن.»

سألني وأنا أدفع القماش –وأي قماش تحته– متجاوزة خصره، لأحرر طول قضيبه الغليظ:

– «هل تدركين ما تقولينه؟»

كان ساخنًا وصلبًا في يدي، والأنين الذي انشق من شفتيه جعلني أشعر بأنني لا أقهر.

أجبتُ وأنا أقوس ظهري لأقبله:

– «أنا أطلب منك أن تضاجعني.»

تأوه، ويسحب خصري نحو حافة المكتب، ثم أنزل ملابسي الداخلية على طول ساقي، ليتركني عارية تمامًا.

حلق نبضي في السماء. فقلت محذرة:

– «أنا أتناول مثبط الخصوبة.»

بالطبع، كلانا يفعل ذلك. فآخر ما يريده أي شخص هنا هو أن يركض أطفال صغار في أروقة القطاع. لكن من الأفضل التأكيد بدلًا من الندم.

أجاب وهو يمسك بخصري ويرفعني للحصول على زاوية أفضل:

– «وأنا كذلك.»

شهقتُ، فالتقى بصره ببصري. كان الجوع المحفور في كل خط متوتر من جسده هو دافعي للانهيار. لا يهمني إن كان هذا سيجلب لنا الهلاك. أنا أحتاجه.

لا مزيد من التراجع. ليس بعد الآن.

مددتُ يدي بيننا، موجهة رأس قضيبه نحو مدخلي، لكن هذه الوضعية مريعة. إنه أطول بكثير من المكتب، ولولا يأس حاجتي إليه لكنت قد ضحكت، لكنني في الواقع يائسة. قوّستُ ظهري، لكن ذلك لم يجدِ نفعًا. كل ثانية انتظار بدت وكأنها تمتد لقرن من الزمان.

شتم بحدة:

– «تبًا لهذا المكتب.»

هذا بالضبط ما كان يدور في خلدي.

انقبضت عضلاته ذات الرأسين حين رفعني من خلف فخذي، فطوقت ذراعي حول عنقه وساقي حول خصره، بينما علق ثوب نومي بيننا وهو يدور. التقت شفاهنا في قبلة نهمة حين اصطدم ظهري بالخزانة، لكنني بالكاد رمشت، فقد كنت غارقة تمامًا في حركة لسانه، وفي الإحساس به بين فخذي.

سألني:

– «تبًا. هل أنتِ بخير؟»

أجبته:

– «أنا بخير. لن تكسرني.»

اندفع داخل الإنش الأول الضيق مني، فشهقتُ من ضيق المكان والتمدد.

قلتُ بين القبلات:

– «المزيد. أحتاجك كلك.»

قال، ويبدو أن ما تبقى من سيطرته قد تبخر، فأخذني بالكامل بدفعة واحدة قوية:

– «ستكونين هلاكي يا ڤيوليت.»

تأوهت في القبلة. عميق. إنه عميق جدًا بحق الجحيم لدرجة أنني أشعر به في كل مكان.

قال، وقد بدأ يتحرك بالفعل، والحمد للآلهة:

– «أخبريني أنكِ بخير.»

أجبته:

– «أنا في أتم الكمال.»

بل أفضل من الكمال. اشتعلت الطاقة تحت بشرتي مجددًا، طنينًا يطالب بلا كلمات وبصخب محموم.

قال وهو يضربني بقوة مرارًا وتكرارًا، بوقع قاسٍ ومستقر، بينما ينزلق فمه على طول عنقي وترتفع يده لتقبض على ثديي:

– «ملمسكِ مذهل بحق الجحيم.»

لم أعد قادرة حتى على التفكير من فرط اللذة الجنونية بينما يقرع ظهري باب الخزانة مع كل دفعة، ليملأ الغرفة بصوت أجسادنا المجهدة وأنين الخشب. كل دفعة كانت أروع من التي سبقتها. تعثرت أنفاسي.

قال، ووجهه مدفون في عنقي بينما أقوس جسدي نحوه:

– «تبًا، لن أكتفي منكِ أبدًا، أليس كذلك؟»

أجبته:

– «اخرس وضاجعني يا ريورسون.»

الغد قريب بما يكفي للندم.

مددتُ إحدى يدي لأمسك بالحافة العلوية للخزانة، لأتمكن من الارتداد بقوة أكبر، ملبية اندفاع خصره، لآخذه بشكل أعمق وأقوى. سحب أحد شريطي ثوب نومي عن كتفي، فقبل هواء الليل البارد القمة المتصلبة لحلمتي للحظة قبل أن يغطيها فمه الساخن. تصاعدت الأحاسيس دائرية ومتشابكة، مشكلة عقدة ضيقة من اللذة عميقة جدًا بداخلي، لدرجة أن التوتر بات لا يُحتمل بروعته.

أنين باب الخزانة، ثم تشقق وانفصل عن مفصلاته، فانطلقت ظلال زايدن لتحميني بينما تحطم الإطار وانهار الخشب من حولنا. اشتعلت طاقتي، صاعدة تلبية لنداء طاقته، تفرقع تحت بشرتي بينما تشبثتُ بكتفيه، وبحث فمي عن فمه.

لا مجال للتوقف. لا يمكننا التوقف.

لعن وهو يأخذني مرارًا وتكرارًا، دون توقف، ليديرنا مرة أخرى فيلامس ظهري قماشًا. لكنه لم يكن السرير. بل الستائر المدفوعة إلى جانب النافذة.

فرقعت الطاقة مجددًا حين التقت شفاهنا، ومع ذلك واصل الدفع، شادًا تلك العقدة بداخلي بألم لذيذ مع كل حركة.

والطاقة... كانت تفوق الاحتمال. كانت تحرقني، تسخن دمي بالحاجة للتحرر. فصرختُ:

– «زايدن.»

أتلوى وفي الوقت ذاته أتشبث به وكأنه مرساتي الوحيدة في هذا العالم.

وعدني، وأنفاسه تلهث متقطعة ضد شفتي:

– «أنا معكِ يا ڤيوليت. أطلقي العنان لها.»

انطلق البرق كالسوط عبر جسدي، ساطعًا بلمعان أجبر عيني على الإغلاق بقوة. واشتعلت الحرارة فوقي بينما دوى الرعد فورًا.

وشممتُ رائحة الدخان.

قال زايدن:

- «تبًا.»

ملأت طاقته الغرفة، حاجبة ما كان لدينا من ضوء، وسقطت الستارة، لكننا كنا نتحرك قبل أن يتمكن القماش المتفحم حتى من لمس بشرتي.

بلغت عقدة اللذة نقطة الانكسار حين طرحني أرضًا، وأخيرًا، تحملتُ كل وزنه بينما يندفع داخلي. تلاشت الظلال، وكان مشهده فوقي، ونظراته الداكنة مثبتة على عينيّ بتركيز شديد، هو أجمل مشهد رأيته في حياتي.

نطقتُ وأنا أطبع قبلة مع كل كلمة:

- «في. غاية. الجمال.»

تراجع قليلًا، باحثًا في عينيّ لنبضة أو اثنتين، قبل أن يدمرني بقبلة أخرى جعلتني أتلوى طلبًا للمزيد، وأدفع خصري ضد خصره.

هذا الرجل يُقبّل بجسده كله، لافًا خصره بالتزامن مع اندفاع لسانه، ساندًا ما يكفي من وزنه لأتمكن من التنفس، بينما أداعب صدره فوق حلمتيّ شديدتي الحساسية. أبقاني على الحافة ذاتها التي يقودها، ولم أدرِ كم من الوقت سأحتمل قبل أن أشعل هذه الغرفة بأكملها.

بحثتُ عيناي المحمومتان في عينيه. أين ذهبت كلماتي؟ قلت:

- «أنا أحتاج... أنا أحتاج...»

أجاب:

- «أعلم.»

استحوذ على فمي مجددًا، ومد يده بيننا، مستخدمًا تلك الأصابع الماهرة ليداعبني حتى بلغتُ ذروة أخرى، وومض الضوء مجددًا، متبوعًا بالرعد والظلام بينما أنهارتُ تحته. أخذتني اللذة في أمواج عاتية، تتدحرج عبر جسدي مرارًا

وتكرارًا حتى لم أعد قادرة سوى على التشبث بكتفي زايدن والاستسلام في خضوع مبتهج.

همس:

– «جميلة.»

في اللحظة التي هبطتُ فيها من ذروتي، انكسر إيقاعه، ودفع ركبتي نحو صدري ليأخذني بعمق أكبر. دفعتُ خصري لألتقي بخصره، وتصبب العرق على بشرتنا بينما راقبته وهو ينهار بسحر آسر. أحببتُ فقدانه للسيطرة بقدر ما أخشى فقداني لسيطرتي، وحين أدير خصري، يتأوه ويقوس عنقه بينما يندفع مرة. اثنتين.

وفي الثالثة، صرخ ثم ارتجف بداخلي، وانطلقت طاقته في خيوط من الظلال، فشطرت قوتها الهدف الخشبي على الجانب الآخر من النافذة.

تطايرت الشظايا، فأطلق زايدن موجة أخرى من الظلام، دامت لفترة تكفي لحمايتنا من الحطام. ثم تراجعت الظلال وسقطت الخناجر أرضًا خلفي بقعقعة.

بدا مصدومًا، ومسحورًا، بقدر ما كنتُ أشعر بينما نستلقي هناك، نحدق في بعضنا البعض، وصدورنا تعلو وتهبط في أعقاب ما لا يمكن وصفه إلا بجنون مطبق وكامل.

قال وهو يسند وزنه على ذراع واحدة ويبعد شعري عن وجهي بالذراع الأخرى، في حركة كانت في غاية الرقة، متناقضة تمامًا مع ما عشناه للتو، لدرجة لم أملك معها سوى أن أرمش، ثم أبتسم:

– «لم يسبق لي أن فقدت السيطرة هكذا من قبل.»

أجبته والابتسامة تتسع لتشمل وجهي كله:

– «ولا أنا.» وأضفتُ: «رغم أنني لم أمتلك قوة لأفقد السيطرة عليها من قبل أصلًا.»

ضحك وأدارنا على جانبه، محتفظًا بي قريبة، وموسدًا رأسي على عضلته ذات الرأسين.

تنشقتُ رائحة الدخان العالقة في الهواء وسألت:

– «هل قمتُ بـ...»

سألني رافعًا حاجبًا:

– «بإشعال النار في الستائر؟» ثم أجاب: «أجل.»

قلتُ:

– «أوه.»

لم أجد في نفسي ما يدعو للخجل، فمررت بظهر أصابعي على ذقنه الخشنة وأضفت:

– «وأنت أطفأتها.»

قال مقطبًا حاجبيه:

– «أجل. قبل لحظات من تدميري لهدف التصويب الخاص بكِ. سأحضر لكِ واحدًا جديدًا.»

اختلستُ نظرة نحو الخزانة المحطمة وقلت:

– «ونحن قد...»

أجابني وهو يرفع حاجبيه:

– «أجل. وأنا متأكد تمامًا أنكِ بحاجة إلى كرسي جديد أيضًا.»

تمتمتُ:

– «كان ذلك...»

لم أتمكن حتى من خلع بنطال الرجل بالكامل، وثوب نومي يتدلى بعشوائية من على كتف واحد.

أكمل هو:

– «مثاليًا لدرجة مخيفة.»

كوب جانب وجهي بكفه وتابع:

– «يجب أن ننظفكِ وندعكِ تنامين. يمكننا القلق بشأن... غرفتكِ غدًا. من المفارقات الساخرة أن سريركِ هو الشيء الوحيد الذي لم نحطمه.»

جلستُ لأتأكد من سلامة السرير، ففعل زايدن المثل بجانبي، مائلًا للأمام. وعلى الفور، فقدتُ اهتمامي بكل شيء عدا الخطوط العضلية لظهره، وأثر التمرد الأزرق الداكن الذي نقلته إليه سجايل.

مددت يدي وتتبعتُ أثر التنين على ظهره، وتلكأت أصابعي على الندوب الفضية البارزة، فتصلب جسده. كانت كلها خطوطًا قصيرة ورفيعة، دقيقة للغاية لتكون ضربات سوط، لا نمط واضح يجمعها ولا تتقاطع أبدًا. همستُ وأنا أحبس أنفاسي:

– «ماذا حدث؟»

قال وهو لا يزال متوترًا لكنه لم يبتعد عن لمستي:

– «أنتِ حقًا لا تريدين أن تعرفي.»

أكدتُ له:

– «بل أريد.»

لا تبدو كندوب عرضية. لقد أذاه أحدهم عمدًا، وبخبث، مما يثير في نفسي رغبة عارمة في تعقب ذلك الشخص وإيقاع الأذى ذاته به.

تصلب فكه وهو يلتفت من فوق كتفه، والتقت عيناه بعينيّ. عضضتُ شفتي، مدركة أن هذه اللحظة قد تتخذ أي مسار. يمكنه أن يصدني كالمعتاد، أو يمكنه أخيرًا أن يمنحني حق العبور إلى عالمه.

غمغمتُ وأنا أمرر أصابعي أسفل عموده الفقري:

– «إنها كثيرة.»

أشاح بنظره وأجاب:

– «مئة وسبعة.»

جعل هذا الرقم معدتي تتقلب، ثم توقفت يدي. مئة وسبعة. هذا هو الرقم الذي ذكره ليام. فقلت:

– «هذا هو عدد الأطفال دون سن الرشد الذين يحملون أثر التمرد.»

أجاب:

– «أجل.»

تحركتُ لأتمكن من رؤية وجهه وسألته:

– «ماذا حدث يا زايدن؟»

أبعد خصلات شعري عن وجهي، ومرت على ملامحه نظرة قاربت الرقة لدرجة جعلت قلبي يتعثر، وقال بصوت خافت:

– «رأيتُ فرصة لعقد صفقة، فاغتنمتها.»

سألته:

– «وأي نوع من الصفقات يخلف لك ندوبًا كهذه؟»

احتدم الصراع في عينيه، لكنه تنهد وأجاب:

– «الصفقة التي أتحمل بموجبها المسؤولية الشخصية عن ولاء مئة وسبعة أطفال خلفهم قادة التمرد وراءهم، وفي المقابل، يُسمح لنا بالقتال من أجل حياتنا في قطاع راكبي التنانين بدلًا من إعدامنا كآبائنا.»

تجنب النظر إليّ وأضاف:

– «اخترتُ احتمال الموت على يقينه.»

اصطدمتني قسوة العرض والتضحية التي قدمها لإنقاذ الآخرين كضربة جسدية. احتضنتُ وجنته ووجهتُ وجهه ليقابل وجهي. فسألته رافعة حاجبيّ:

– «إذن إن خان أي منهم نافار...»

أجاب:

– «حينها تُزهق روحي. هذه الندوب هي مجرد تذكير.»

لهذا السبب يقول ليام إنه يدين له بكل شيء.

قلت:

– «أنا آسفة جدًا لأنك مررت بهذا.»

خاصة وأنه لم يكن هو من قاد التمرد من الأساس.

نظر إليّ وكأنه يسبر أغوار هويتي وأجاب:

– «ليس لديكِ ما تعتذرين عنه.»

أمسكتُ بيده حين تحرك لينهض، وقلت:

– «ابقَ.»

قال، وقد ظهر خطان بين حاجبيه وهو يتأمل عينيّ:

– «لا ينبغي لي ذلك. الناس سيتهامسون.»

استخدمتُ كلماته السابقة ضده وجلستُ، ملفوفة يدي حول الجزء من عنقه الذي يحمل أثر التمرد، وقلت:

– «ومتى منحتك الانطباع بأنني أعبأ بحق الجحيم بما يعتقده الناس؟ ابقَ معي يا زايدن. لا تجبرني على التوسل.»

قال:

– «كلانا يعلم أن هذه فكرة سيئة.»

أجبته:

– «إذن فلتكن فكرتنا السيئة.»

ارتخت كتفاه، وأدركتُ أنني قد انتصرت. إنه ملكي لهذه الليلة. تناوبنا التسلل خلسة لفترة كافية لننظف أنفسنا، ثم انزلق إلى السرير خلفي. قال بهدوء:

– «فقط بين هذه الجدران.»

وأدركتُ ما يرمي إليه.

وافقته الرأي:

– «فقط بين هذه الجدران. ليس وكأننا في علاقة أو ما شابه. سيكون ذلك... كارثيًا بالنظر إلى التسلسل الهرمي للقيادة. فنحن ركاب تنانين في النهاية.»

قال:

– «أنا فقط لا أثق بضبط أعصابي إن تفوه أحدهم بـ–»

طبعتُ قبلة على فمه، مسكتة إياه.

– «أعلم ما تقصده. إنه... أمر لطيف.»

عض بشرتي بخفة وقال:

– «أنا لست لطيفًا. أرجوكِ، لا تخطئي أبدًا وتظني أن أي جزء مني رقيق أو طيب. فهذا لن يجلب لكِ سوى الأذى، وأيًا كان ما تفعلينه...»

دفن وجهه في عنقي، مستنشقًا بعمق، وأضاف:

– «إياكِ أن تقعي في حبي.»

مسدتُ بيدي على ذراعه الموشومة، ودعوتُ ألا أكون بصدد فعل ذلك تحديدًا. هذا التناقض الساحق بين الشوق والرضا في صدري لا بد أن يكون من الآثار الجانبية لبلوغي النشوة، ليس لمرة واحدة، بل لثلاث مرات، أليس كذلك؟ لا يمكن أن يكون أكثر من ذلك.

سألته، وأنا أنظر من نافذتي إلى السماء السوداء اللامتناهية، مغيرًا الموضوع، بينما تثقل جفوني ثانية بعد ثانية:

– «يا ڤيولينس؟»

– «لِمَ خمنت أنني قادرة على توجيه البرق؟»

تمدد قليلًا ليضع رأسي تحت ذقنه وأجاب:

– «ظننتكِ فعلتِ ذلك في الليلة الأولى التي وجه فيها تايرِن قوته إليكِ، لكنني لم أكن متيقنًا، لذا آثرتُ الصمت.»

رمشتُ متفاجئة، محاولة استرجاع الذكريات، لكن عقلي كان يضج بطنين خافت ومريح بينما يصارع النوم لسحبي إلى أعماقه. سألته وعيناي تغمضان:

– «حقًا؟ متى؟»

اشتدت ذراعاه حولي، وضمني أقرب إليه، بينما تلتصق خلفية فخذي بقوة ببنطاله وأنا أستسلم للنعاس.

أجاب:

– «في أول مرة قبلتني فيها.»

حين أستيقظ، لا أجد زايدن، لكن هذا لم يكن مفاجأة حقًا. أما حقيقة بقائه طوال الليل في المقام الأول؟ فهذه هي الصدمة بعينها.

ولكن العثور على جرة زجاجية على طاولتي الجانبية تحوي حفنة من زهور البنفسج الربيعية؟ يتضخم قلبي. أنا في ورطة حقيقية بحق الجحيم.

لقد تكفل حتى بجمع كل الحطام في كومة بالزاوية، مما يعني أنه لا بد أن يكون قد استخدم ظلاله أثناء نومي لأنني لم أسمع شيئًا.

لا أزال منهكة، لكنني أرتدي ملابسي وأرفع شعري بسرعة، ملاحظة أن الشمس قد أشرقت بالفعل. وبما أن ليام لا يزال في المستوصف، سأؤدي نوبتي في الأرشيف بمفردي اليوم، لكن ربما أتمكن من التسلل لزيارته في طريق عودتي.

كنت أربط حذائي حين طُرق باب غرفتي.

قلت بصوت مسموع لمن يطرق:

- «لا بد أنك تمزح.»

فتحتُ الباب وأنا أتعثر في الكلمة الأخيرة وأضفت:

- «مجرد أن ليام يتعافى لا يعني أنني بحاجة إلى حارس شخصي آخر.»

يقف الأستاذ كار في الرواق، وشعره منتصب وهو يتأملني بنظرة علمية فاحصة، ثم يرفع حاجبيه متجاوزًا إياي بنظره ليرى حطام غرفتي، ويقول:

- «لدينا عمل لننجزه.»

جادلته:

- «لدي نوبة في الأرشيف.»

أطلق شخرة ساخرة وقال:

- «لقد أُعفيتِ من نوبة الأرشيف حتى نتيقن من أنكِ لن تحرقي المكان بأكمله. البرق والورق مزيج سيء. ثقي بي يا سورنجيل، لن يرغب النُسّاخ في رؤيتك تقتربين من كتبهم الثمينة، ومما أراه هنا، لا يبدو أنكِ قادرة على السيطرة على قواكِ حتى أثناء نومكِ.»

حاولت تجاهل لدغة كلماته، إذ كان بعيدًا عن الحقيقة، لكن انتهى بي المطاف باتباعه في الرواق حين غادر، وسألته:

- «إلى أين نحن ذاهبان؟»

أجاب دون أن يلتفت:

– «إلى مكان لن تتسببي فيه باندلاع حريق غابات.»

بعد عشرين دقيقة، كنا في ميدان الطيران، ولدهشتي، كان تايرِن مسرجًا.

سألته بذهول:

– «كيف بحق الجحيم فعلت ذلك؟»

أطلق نفخة حانقة وقال:

'وكأنني سأسمح لهم بتصميم شيء أعجز عن تركيبه بنفسي. تذكري من أين تستمدين قوتكِ أيتها الفضية.'

سألته بينما يدس الأستاذ كار حقيبة في يدي:

– «كيف حال أندارنا؟ ولأي غرض هذه الحقيبة؟»

أجاب تايرِن:

'نائمة، لكنها بخير.'

أجاب الأستاذ كار:

– «إفطار. فبكمية السحر التي أنتِ على وشك توجيهها، ستحتاجين إليه.»

امتطى تنينه البرتقالي ذا الذيل الخنجري، وبعد أن امتطيت تايرِن وأحكمت أربطتي، حلقنا في الهواء.

لسعتني برودة رياح الربيع في وجنتي ونحن نحلق في أعماق السلسلة الجبلية، وحمدت الآلهة أنني ارتديت دروع الطيران هذا الصباح، ظنًا مني أنني سأخضع لجلسة تدريب قبل الغداء.

هبطنا بعد نحو نصف ساعة، عاليًا فوق خط الأشجار.

ارتجفتُ وفركتُ ذراعيّ لأقاوم درجات الحرارة المتدنية التي ترافق الارتفاعات الشاهقة.

طمأنني كار وهو يترجل ويسحب مجلدًا صغيرًا من جيبه:

– «لا تقلقي. لن تشعري بالبرد طويلًا. فوفقًا لما طالعته الليلة الماضية، هذه القدرة تحديدًا تملك القوة لرفع حرارة جسدك بشكل مفرط، ومن هنا...»

أشار إلى محيطنا وأضاف.

إضافة إلى أنه لا يوجد الكثير مما يمكن حرقه هنا في الأعلى، أليس كذلك؟ ولا شهود عيان إن قرر كسر عنقي أيضًا. اختلستُ نظرة سريعة إليه قبل أن أشيح بنظري، مفكة أبازيم سرجي، ثم انزلقتُ على طول ساق تايرِن الأمامية. وقلت له:

– «لا تتركني.»

أجابني تايرِن:

'أبدًا. سأحرقه حيًا قبل أن يخطو خطوة واحدة نحوكِ.'

قال كار، وهو يتأملني بعناية، فتجنبتُ النظر إلى عينيه بينما أتفقد ضمادة ركبتي لأتأكد من عدم انزلاقها تحت درعي:

– «بالضبط. لطالما أثار إعجابي كيف تجد الطبيعة طريقتها للحفاظ على التوازن.»

قلت:

– «لست متأكدة من أنني أفهم ما ترمي إليه أيها الأستاذ.»

تنهد وقال:

– «هذا النوعِ من القوة حين يكمن في شخص... ألا تصفين نفسكِ بالهشة؟»

انتفضت بحدة:

– «أنا ما أنا عليه.»

لم يسبق لي أن منحت هذا الأستاذ بالذات أي سبب ليعتبرني مختلفة.

هز كتفيه ناظرًا إلى السرجِ وقال:

– «هذه ليست إهانة أيتها المتدربة. إنه التوازن. خلال تأديتي لمهامي، لاحظتُ وجود نوعٍ من الترابط الذي يُبقي القوة تحت السيطرة. ويبدو أن جسدكِ هو أداة التوازن الخاصة بقوتكِ.»

دوى هدير في صدر تايرِن وهو يزاحم تنين كار الأصغر حجمًا خارج مساحته.

قال كار، وكأنه يواجه معضلة أكاديمية بحاجة إلى حل:

– «تنينكِ لا يثق بي. وبالنظر إلى أنه الأقوى في القطاع حاليًا–»

أكد تايرِن ذهنيًا:

'لكن ليس الأقوى في القارة بأسرها.'

تابع كار:

– «فهذا يعني أنكِ أنتِ أيضًا لا تثقين بي أيتها المتدربة سورنجيل.»

ثبت نظره عليّ، وجعلت رياح قمة الجبل شعره الأبيض يرقص كالريش وأردف:

– «لِمَ ذلك؟»

أجبته:

– «لا جدوى من الكذب.»

سأل:

– «هل هناك سبب آخر غير أنني وصفتكِ بالهشة؟»

بقيتُ عند قاعدة ساق تايرِن الأمامية، متأهبة للصعود إن لزم الأمر، وقلت:

– «كنتُ حاضرة يوم قتلتَ إرميا. تجلت قدرته السحرية، فكسرتَ عنقه كغصن جاف أمامنا جميعًا.»

أمال كار رأسه متأملًا وقال:

– «أجل، حسنًا، لقد كان في حالة ذعر عارمة، ومن المعروف للجميع أنه لا يُسمح للمتوغلين الذهنيين بالعيش. لقد أنهيتُ معاناته قبل أن يرى نهايته المحتومة تلوح في الأفق.»

وضعتُ يدي على ساق تايرِن وكأنني أستقي من قوته، رغم أنني أشعر بها تتدفق في عروقي بالفعل، وقلت:

– «لن أستوعب أبدًا لِمَ تعتبر قراءة الأفكار عقوبة إعدام.»

أجاب:

– «لأن المعرفة هي القوة بحد ذاتها. وباعتباركِ ابنة جنرال، ينبغي لكِ إدراك ذلك. لا يسعنا السماح بوجود شخص يتجول بحرية مع إمكانية الوصول غير المحدود لمعلومات سرية للغاية. إنهم يمثلون تهديدًا أمنيًا للمملكة بأسرها.»

ومع ذلك، داين لا يزال حيًا يُرزق.

همس تايرِن في عقلي:

'لأن آيتوس سيكون ذا منفعة لهم طالما أنهم قادرون على إبقائه تحت سيطرتهم.'

ثم نفث تايرِن سحابة من البخار الساخن فوق رأسي، فتراجع التنين البرتقالي ذو الذيل الخنجري مسافة أبعد.

وأضاف تايرِن:

'كما أن قدرته تقتصر على اللمس، مما يجعل السيطرة عليها أكثر سهولة.'

قال كار:

– «الآن، لستِ مضطرة لمنحي ثقتكِ، ويمكنكِ حتى توجيه سحركِ من مقعدكِ على تنينكِ إن شئتِ، لكنني آمل أن تصدقيني حين أؤكد لكِ أنني لا

أضمر أي نية لقتلكِ أيتها المتدربة سورنجيل. ففقدان أصل قيم كأنتِ سيمثل مأساة للجهود الحربية.»

أصل قيم.

ضيّق عينيه وقال:

– «وحقيقة ارتباطكِ بتايرِن تجعل منكِ وريورسون الزوجين الأكثر مطمعًا في هذه المملكة منذ زمن طويل جدًا. فهل لي أن أسدي لكِ نصيحة؟»

أجبته:

– «تفضل، كلي آذان صاغية.»

على الأقل هو صريح بقسوة، لذا أعرف أين أقف معه.

قال، وقد تجعدت حاجباه الكثيفان:

– «حافظي على وضوح ولاءاتكِ. أنتِ وريورسون تمتلكان قوة استثنائية وفتاكة قد يحسدكما عليها أي راكب. لكن معًا؟ ستشكلان عدوًا هائلًا لن تملك القيادة خيارًا سوى سحقه.»

لانت نبرة صوته وأردف:

– «هل تستوعبين ما أقوله؟»

أجبته:

– «نافار هي وطني أيها الأستاذ. وسأبذل روحي فداءً لها، تمامًا ككل سورنجيل امتطى تنينًا قبلي.»

أومأ برأسه وقال:

– «ممتاز. لنبدأ العمل إذن. فكلما أسرعتِ في ترويض البرق، تمكنا من التوقف عن تجمد مؤخرتينا.»

نظرتُ عبر السلسلة الجبلية وقلت:

– «نقطة وجيهة. أنت فقط تريدني أن...»

وأشرتُ بيدي نحو الجبال المحيطة بنا.

أجاب:

– «يُفضل أن يكون في أي مكان إلا هنا، أجل.»

حدقتُ في الجبال البعيدة وقلت:

– «لستُ متأكدة تمامًا مما فعلته لاستدعائه في المرة السابقة. لقد كان... رد فعل عاطفي.»

وما حدث الليلة الماضية ليس مطروحًا للنقاش بأي حال من الأحوال.

دوّن شيئًا في دفتر ملاحظاته بقطعة من الفحم وقال:

– «مثير للاهتمام. هل سبق ووجهتِ البرق في مناسبات أخرى غير ما رأيناه بالأمس خلال مناورات ألعاب الحرب؟»

فكرتُ في الاحتفاظ بإجابتي لنفسي، لكن صمتي لن يحل المشكلة.

– «بضع مرات.»

سأل:

– «وفي كلتا المرتين كان نتيجة انفعال عاطفي؟»

أطلق تايرِن شخرة ساخرة، فضربتُ ساقه الأمامية بظهر يدي وأجبت:

– «أجل.»

عاد إلى دفتره وقال:

– «حسنًا، ابدئي من هناك إذن. تجذري في قوتكِ وحاولي استحضار المشاعر ذاتها التي اختبرتِها آنذاك.»

ضحك تايرِن في عقلي ضحكة مجلجلة وقال:

'هل ينبغي لي استدعاء قائد الجناح؟'

قلت له:

'اخرس.'

غرست كلتا قدميّ الذهنيتين في الأرشيف الخاص بي، فتدفقت الطاقة حولي ومن خلالي. كان نور أندارنا الذهبي حاضرًا أيضًا، لكنه خافت بعض الشيء لكونها استنزفت طاقتها يوم أمس، وفي الأعلى تدوّم تلك الظلال شديدة السواد التي أعلم أنها تمثل اتصالي بزايدن.

سأل زايدن وكأنه استشعر تساؤلي الذهني:

'هل من خطب ما؟ وما الذي تفعلينه بعيدًا إلى هذا الحد؟'

أجبته، ووجنتاي تشتعلان حرارة لسماع صوته العميق:

'أتدرب مع كار. وبالمناسبة، كيف علمت مدى بعدي أصلًا؟'

قال، وكان ينبغي لـ "وعده" أن يكون بمثابة تهديد، لكنه لم يكن كذلك. لقد كان مريحًا بشكل لا يوصف:

'تطوري في توجيه قدرتكِ، وستتمكنين من فعل ذلك أيضًا. لا يوجد مكان في الوجود بأسره يمكنكِ الذهاب إليه دون أن أعثر عليكِ، يا ڤيولينس.'

رددت:

'في الوقت الراهن، سأكتفي بتوجيه بعض البرق. كار يحدق بي، والأمر على وشك أن يصبح محرجًا بحق الجحيم إن لم أكتشف كيف–'

تدفقت صور... لي في ذهني. إنها الليلة الماضية، غير أنني أراها الآن بطريقة ما عبر عينيّ زايدن، مستشعرة ذلك الاحتراق الذي لا يخطئه القلب لشهوة لا تُطفأ. سيطرتي تفلت – لا، إنها سيطرة زايدن هي التي تتداعى بينما أئن تحته، وخصري يركب يده، وأظافري تنغرس في بشرته بألم يلامس حدود اللذة وأنا أتلوى.

يا للآلهة، أنا أحتاج– لا– هو يحتاجني. جوعه يتأرجح على حافة الهلاك ليعرف لمستي، ومذاقي، والإحساس بـ–

اجتاحت الطاقة جسدي بأكمله، مفرقعة على طول بشرتي، وومض ضوء ساطع خلف جفنيّ المغلقين.

توقفت الصور، وعادت مشاعري لتصبح ملكًا لي وحدي مجددًا.

وتبًا إن لم أكن في قمة الإثارة لدرجة أنني أضطر لتغيير وقفتي لأخفف من ذلك الوجع النابض بين فخذي.

أومأ الأستاذ كار برأسه، مدونًا شيئًا ما وقال:

– «عمل ممتاز!»

قلت لزايدن:

'لا أصدق أنك فعلت ذلك للتو.'

أجاب ببرود:

'على الرحب والسعة.'

كانت وجنتاي تشتعلان نارًا حين رفعتُ ظهر يدي لألامس بشرتي.

رفع كار دفتره وقال:

– «أرأيتِ؟ لقد أخبرتكِ بذلك. موجه البرق الأخير ذكر أن قدرته كانت ترفع حرارة جسده بشكل مفرط. الآن كرري الأمر مجددًا.»

قهقه تايرِن بسخرية.

حذرته:

– «ولا حتى كلمة واحدة بحق الجحيم!»

هذه المرة، ركزتُ على شعور اندفاع الطاقة بحد ذاته، متجاهلة ما قادها إلى هناك، وشرعت كل حواسي لتسري الطاقة البيضاء المتوهجة عبر جسدي، متجمعة

حتى بلغت نقطة الانكسار. ثم أطلقتها، فضربت صاعقة برق على بُعد أكثر من ميل. حسنًا، انظروا إلى هذا. أنا مقاتلة شرسة ومعتمدة رسميًا.

سأل الأستاذ كار وهو يختلس النظر من فوق دفتره:

– «ربما يمكنكِ المحاولة في توجيه الهدف هذه المرة؟ وتذكري فقط ألا تستنزفي القوة البدنية التي تسيطرين بها على طاقتكِ السحرية. لا أحد يود رؤيتكِ تحترقين تمامًا. فقوة كقوة تايرِن ستلتهمكِ حية إن لم تتمكني من ترويضها.»

ضرب البرق خمس مرات أخرى قبل أن ينهار جسدي إنهاكًا، ولم تصب أي منها الهدف الذي كنت أصوب نحوه.

سيكون هذا الأمر أصعب بكثير مما تخيلت.

«بموجب هذا المرسوم، يُعلن الأول من يوليو، ذكرى معركة أريتيا، يومًا لـ "لم الشمل" ، ليُحتفل به في كافة أرجاء نافار في هذا التاريخ من كل عام، إجلالًا للأرواح التي أُزهقت خلال الحرب لإنقاذ مملكتنا من الانفصاليين، وتقديرًا للذين نالوا الخلاص بفضل معاهدة أريتيا.»

– مرسوم ملكي صادر عن الملك تاوري الحكيم



الفصل الحادي والثلاثون

طُرق باب غرفتي بينما كنت أجمع حفنة من الملابس المتناثرة بين البقايا المهشمة لما كان يُعرف سابقًا بخزانتي.

ناديته وأنا ألقي بها على السرير:

– «تفضل بالدخول.»

انفتح الباب وخطا زايدن إلى الداخل، بشعر أشعث تعبث به الرياح وكأنه قادم للتو من ميدان الطيران، فقفز نبضي.

بدأ قائلًا:

– «أردتُ فقط...»

ثم توقف لبرهة، ممررًا نظره على الحطام الذي خلفناه في غرفتي الليلة الماضية، وتابع:

– «بطريقة ما، أقنعتُ نفسي اليوم بأننا لم نحدث كل هذا الدمار، لكن...»

أجبته:

– «أجل، إنه...»

التقت نظراتنا، وانفرجت شفاهنا عن ابتسامة متزامنة.

هززتُ كتفيّ محاولة تخفيف وطأة التوتر وقلت:

– «اسمع، لا ينبغي لهذا الموقف أن يكون محرجًا أو ما شابه. كلانا ناضج.»

ارتفع حاجبه الموشوم بندبة وقال:

– «جيد، لأنني لم أكن أنوي جعله كذلك. لكن أقل ما يمكنني فعله هو مساعدتكِ في التنظيف.»

انتقل انتباهه إلى الخزانة، فتقلص وجهه وامتعض وأضاف:

– «أقسم لكِ أنها لم تكن تبدو بهذا السوء في الظلام حين غادرتُ هذا الصباح. ويبدو أيضًا أنكِ أشعلتِ النار في أكثر من بضع أشجار الليلة الماضية. تطلب الأمر استدعاء اثنين من موجهي المياه لإخمادها.»

توردت وجنتاي خجلًا وقلت محاولة إضفاء أقصى درجات اللامبالاة على نبرتي:

– «لقد غادرتَ باكرًا.»

اتجهتُ نحو مكتبي –الذي نجا بأعجوبة– وانحنيتُ لألتقط بعض كتبي التي أسقطناها أرضًا.

برر وهو يقترب، لتلامس ذراعه ذراعي بينما ينحني ليلتقط كتاب حكاياتي المفضل؛ ذلك الذي دسته ميرا في حقيبتي بمجرد عودتنا إلى مونتسيرات في تلك الليلة:

– «كان لدي اجتماع للقيادة واحتجتُ لبداية مبكرة.»

خف العبء عن صدري وقلت:

– «أوه. هذا يفسر الأمر تمامًا.»

نهضتُ واضعة كتبي على المكتب وأضفت:

– «إذن لم يكن السبب أنني أشخر أو شيء من هذا القبيل.»

ارتفع أحد جانبي فمه في ابتسامة خفيفة وأجاب:

– «لا. كيف سار تدريبكِ مع كار؟»

تغيير ماهر للموضوع.

أجبته وأنا أزم شفتي مسترجعة الصاعقة الأولى التي وجهتها:

– «بإمكاني توجيه السحر، لكنني أعجز عن التصويب، والأمر منهك تمامًا. أتعلم، لقد كنتَ وغدًا حقًا في ميدان الطيران البارحة.»

اشتدت قبضته على الكتاب وقال:

– «أجل. أخبرتكِ بما ظننتُ أنكِ بحاجة لسماعه لتجاوز تلك اللحظة. أعلم أنكِ لا تحبين أن يراكِ الآخرون في لحظات ضعفكِ، وأنتِ...»

أكملتُ عبارته:

– «كنتُ ضعيفة.»

أومأ برأسه وأردف:

– «إن كان هذا سيواسيكِ، فأنا أيضًا لم أتمكن من إبقاء أي شيء في معدتي بعد أول مرة أزهقتُ فيها روحًا. لا ينتقص هذا من قدركِ في عينيّ إطلاقًا. بل يثبت فقط أن إنسانيتكِ لا تزال حية بداخلكِ.»

قلتُ وأنا أتناول الكتاب من يده برفق:

– «وأنت كذلك.»

قال:

– «هذا أمر قابل للنقاش.»

يقول هذا من يحمل مئة وسبع ندوب على ظهره.

قلت بحزم:

– «إنه ليس كذلك. ليس بالنسبة لي.»

أشاح بنظره، وأدركتُ أنه سيرفع دفاعاته في أي لحظة الآن.

قلتُ بيأس في محاولة لإبقائه معي:

– «أخبرني بشيء حقيقي.»

سأل، تمامًا كما فعل سابقًا حين كنا نحلق، وحين تركني جالسة على ذلك الجبل حين واتتني الجرأة لسؤاله عن ندوبه:

– «مثل ماذا؟»

تسابق عقلي باحثًا عن سؤال، فقلت:

– «مثل... أين ذهبتَ في الليلة التي وجدتكَ فيها في الباحة.»

قطب حاجبيه وقال:

– «عليكِ أن تكوني أكثر تحديدًا. طلاب السنة الثالثة يُرسلون في مهام طوال الوقت.»

مررتُ لساني بتوتر على شفتي السفلى وأوضحت:

– «كان بودهي برفقتك. حدث ذلك قبل القفاز مباشرة.»

أجاب وهو يلتقط كتابًا آخر ويضعه على المكتب، مماطلًا بوضوح بينما يقرر ما إذا كان سيفتح لي قلبه أم لا:

– «أوه.»

وعدته:

– «لن أُفشي لأي مخلوق أي شيء تخبرني به. آمل أن تكون موقنًا من ذلك.»

فرك مؤخرة عنقه وقال:

– «أعلم. لم تنبسي بكلمة واحدة عما رأيتِه تحت الشجرة في الخريف الماضي. آثبين. لا يمكنكِ معرفة السبب أو طرح أي أسئلة أخرى، لكن هذا هو المكان الذي كنا فيه.»

أوه. لم يكن هذا ما توقعته إطلاقًا، لكنه ليس بالأمر غير المألوف أن يوصل المتدربون شيئًا إلى نقطة أمامية.

قلت:

– «أوه. شكرًا لإخباري.»

تحركتُ لإعادة الكتاب إلى مكانه، فلاحظتُ أن الغلاف قد تضرر بشدة بعد أن أسقطنا هذا المجلد العتيق من على المكتب الليلة الماضية.

– «تبًا.»

فتحتُ الغلاف الخلفي لأجد التجليد قد انشق.

كان هناك شيء يبرز من الشق.

سأل زايدن وهو يختلس النظر من فوق كتفي:

– «ما هذا؟»

أجبته:

– «لست متأكدة.»

وازنتُ الكتاب الثقيل بيد واحدة، وسحبتُ ما بدا وكأنه قطعة صلبة من الورق الرقي من المكان الذي دُست فيه خلف التجليد. اختل توازني حين ميزتُ خط يد والدي، وكان يحمل تاريخًا يسبق وفاته ببضعة أشهر فقط.

ڤيوليت عزيزتي،

حين تعثرين على هذه الرسالة، ستكونين على الأرجح في قطاع النساخين.
تذكري دائمًا أن الفلكلور الشعبي يُتوارث من جيل إلى جيل ليعلمنا عن ماضينا.
فإن فقدناه، فقدنا روابطنا بجذورنا. ولا يتطلب الأمر سوى جيل واحد يائس لتغيير مسار التاريخ – بل وحتى محوه.
أنا واثق من أنكِ ستتخذين القرار الصائب حين يحين الوقت. لقد كنتِ دائمًا تجسيدًا لأفضل ما في والدتكِ وما فيّ.

مع حبي،
والدكِ

قطبتُ حاجبيّ، ومررتُ الرسالة إلى زايدن، وبدأت أُقلب صفحات الكتاب.
جميع الحكايات مألوفة، ولا يزال صدى صوت والدي يتردد في أذني وهو يقرأ كل كلمة، وكأنني لا أزال تلك الطفلة المتكورة في حضنه بعد يوم طويل.

علق زايدن:

– «هذا غامض.»

اعترفتُ بصوت خافت:

– «لقد أصبح غامضًا بعض الشيء في السنوات التي تلت وفاة بريننان. فقدان شقيقي زاد من انطواء والدي وعزلته. لم أحظَ حقًا بفرصة قضاء الوقت معه إلا لأنني كنتُ دائمًا في الأرشيف، أدرس لأصبح نساخة.»

رفت الصفحات بين أصابعي وأنا أستعرض حكايات عن مملكة قديمة امتدت من المحيط إلى المحيط، وعن حرب عظمى نشبت بين ثلاثة أشقاء تقاتلوا للسيطرة على السحر في تلك الأرض الغامضة. تروي بعض الحكايات قصص الركاب الأوائل الذين تعلموا الارتباط بالتنانين، وكيف يمكن لهذه الروابط

أن تنقلب على الراكب إن حاول استنزاف قدر مفرط من الطاقة. بينما تتحدث أخرى عن شر عظيم اجتاح الأرض حين أفسد السحر الأسود قلوب البشر، فمسخهم إلى مخلوقات تُعرف بـ الفينين، والذين خلقوا أسرابًا من المخلوقات المجنحة المسماة تنانين الويفرن، وجردوا الأرض من كل سحرها مدفوعين بتعطشهم للمزيد من القوة. وتحذر حكاية أخرى من مخاطر توجيه السحر من الأرض بدلًا من السماء، إذ يسهل على المرء أن يبدأ في استنزاف سحر الأرض لينتهي به المطاف إلى الجنون التام.

إحدى الغايات من هذه الحكايات هي تعليم الأطفال عن مخاطر الإفراط في استخدام القوة. فلا أحد يرغب في التحول إلى فينين؛ فهم الوحوش التي تتربص تحت أسرتنا في كوابيسنا. وبالتأكيد، لن نفكر أبدًا في محاولة السيطرة على السحر دون وجود تنين ليجذرنا. لكنها في النهاية لا تعدو كونها حكايات ما قبل النوم للأطفال. فلماذا إذن ترك لي والدي هذه الملاحظة الغامضة – وأخفاها داخل الكتاب؟

سأل زايدن:

– «ما الذي تظنين أنه كان يحاول إخباركِ به؟»

أجبته:

– «لا أدري. كل حكاية في هذا الكتاب تتمحور حول كيف تفسد القوة المفرطة صاحبها، لذا ربما شعر أن أحد أفراد القيادة فاسد.»

اختلستُ نظرة إلى زايدن ومازحته قائلة:

– «بالتأكيد لن أتفاجأ لو مزق الجنرال ميلغرين قناعًا في أحد الأيام ليكشف أنه فينين مرعب. لطالما أثار ذلك الرجل قشعريرتي.»

قهقه زايدن وقال:

– «حسنًا، لنأمل ألا يكون الأمر كذلك. كان والدي يقول دائمًا إن الفينين يتحينون الفرصة في الأرض اليباب وسيأتون ذات يوم لاختطافنا – إن لم نأكل خضرواتنا.»

نظر من النافذة عن يساره، وأدركتُ أنه يسترجع ذكرى والده.

– «كان يقول إن المملكة ستخلو من أي سحر يتبقى فيها ذات يوم إن لم نكن حذرين.»

بدأتُ أقول:

– «أنا آسفة–»

لكنه تصلب، فقررتُ أن تغيير الموضوع هو ما يحتاجه حقًا.

– «إذن، أي فوضى سنعالجها أولًا؟»

قال وهو يضع كومة أخرى من الملابس على سريري:

– «لدي فكرة أفضل لكيفية قضاء ليلتنا.»

سألته:

– «أوه؟»

نظرتُ إليه ولاحظتُ عيناه تغمقان وهو يحدق في فمي. تسارع نبضي على الفور، وفكرة لمسه تبعث موجة من الطاقة عبر جسدي.

إياكِ أن تقعي في حبي...

كانت كلماته ليلة أمس تتناقض تمامًا مع النظرة التي يرمقني بها الآن.

تراجعتُ خطوة إلى الوراء وقلت:

– «لقد حذرتني من الوقوع في حبك. هل غيرتَ رأيك؟»

تصلب فكه وأجاب:

– «مطلقًا.»

قلت:

– «صحيح.»

لم أتوقع أن يؤلمني هذا الرد بهذا القدر، وهذا جزء من المشكلة. لقد تورطتُ عاطفيًا بالفعل لدرجة تعجز معها مشاعري عن فصل العلاقة الجسدية، مهما بلغت روعتها. وأردفت:

– «إليك الحقيقة. لا أعتقد أنني أستطيع فصل الجنس عن العاطفة عندما يتعلق الأمر بك.»

حسنًا، تبًا، لقد قلتها.

– «نحن بالفعل أقرب من أن نفعل ذلك، وإن تورطنا مجددًا، فسأنتهي بالوقوع في حبك عاجلًا أم آجلًا.»

خفق قلبي بعنف إثر هذا الاعتراف المتسرع، بانتظار رده.

قاطعني شيء أقرب إلى الذعر في عينيه، فطوى ذراعيه. وأقسم أنني أستطيع رؤية الرجل يبني دفاعاته ضد مشاعره الخاصة.

– «لن تفعلي. أنتِ لا تعرفينني حقًا. ليس في جوهري.»

ومن يلام على ذلك؟

جادلته بهدوء:

– «أعرف ما يكفي. وسيكون لدينا كل الوقت في العالم لاكتشاف الباقي إن توقفتَ عن التصرف كجبان عاطفي واعترفتَ ببساطة أنك ستقع في حبي أنت أيضًا، إن استمرت الأمور على هذا النحو.»

من المستحيل أن يكون قد صمم ذلك السرج، وأمضى كل ذلك الوقت في تدريبي على القتال والطيران، إن لم يكن يكنّ لي شيئًا. سيتعين عليه القتال من أجل هذا أيضًا، وإلا فلن ينجح الأمر أبدًا.

قال، وعيناه تضيقان وهو يلفظ كل كلمة بوضوح قاطع، وكأنني قد أُسيء فهمه:

– «ليس لدي أدنى نية للوقوع في حبكِ يا سورنجيل.»

تبًا. لذلك. لقد سمح لي بالدخول. أخبرني عن ندوبه. وجعلهم يصنعون ترسانة كاملة من الأسلحة خصيصًا لي. إنه يهتم. إنه متورط في هذا الأمر بقدر تورطي، حتى وإن كان فاشلًا في إظهاره.

تأوهت مصطنعة الألم وقلت:

– «آوتش. حسنًا، من الواضح أنك لست مستعدًا للاعتراف إلى أين تتجه الأمور بيننا. لذا أجل، أظن أنه من الأفضل أن نتفق على أن ما حدث كان لمرة واحدة فقط.»

أجبرتُ كتفيّ على الهز بلامبالاة وأضفت:

– «كلانا كان بحاجة لتنفيس بعض الضغط، وقد فعلنا، أليس كذلك؟»

وافقني الرأي، وقد ارتسم التوجس على جبهته:

– «أجل.»

قلت:

– «إذن في المرة القادمة التي أراك فيها، سأتصرف ببرود تام كما تفعل أنت الآن، وسأتظاهر بأنني لا أستحضر إحساس انزلاقك بداخلي.»

دافئ وصلب. إنه يمتلك جسدًا مذهلًا حقًا، لكنه لا يملك حق إملاء ما أفعله بقلبي.

تقدم نحوي بابتسامة متكلفة، ونظراته تذيب كل إنش في جسدي.

– «وأنا سأتظاهر بأنني لا أستحضر إحساس فخذيكِ الناعمتين تلتفان حول خصري، أو تلك الأصوات اللاهثة التي تصدرينها قبل أن تبلغي ذروتكِ مباشرة.»

مرر أسنانه على شفته السفلى، وتطلب الأمر كل قوة إرادتي لألا أمتص تلك الشفة داخل فمي.

تراجعتُ، وانفرجت شفتاي بينما يقفز قلبي بأروعِ طريقة ممكنة حين تبعني، محاصرًا إياي ضد الجدار. وقلت:

– «وأنا سأتجاهل ذكرى يديك تنغرسان في خصري، وتثبتانني ضد الخزانة لتتمكن من أخذي بشكل أعمق، وفمك على حنجرتي. سهل للغاية.»

أسند يده بجوار رأسي وانحنى مقتربًا من مساحتي الشخصية، وشفتيه تتقوسان في نصف ابتسامة.

– «إذن أعتقد أنني سأتجاهل ذكرى حرارتكِ ورطوبتكِ تلتفان حول قضيبي، وكيف تصرخين متوسلة للمزيد حتى لا أعود قادرًا على التفكير في شيء سوى دفع كل حدودي الجسدية لأكون بالضبط ما تحتاجين إليه.»

تبًا. إنه أبرع مني في هذه اللعبة. توردت بشرتي حرارة. أريده أقرب. أريد بالضبط ما حظيت به الليلة الماضية. لكنني أريد المزيد. ضربت أنفاسه اللاهثة شفتي، ولم أكن أنا في حال أفضل.

فليذهب كل شيء إلى الجحيم. يمكنني الحصول عليه، أليس كذلك؟ يمكنني أخذ ما يقدمه والاستمتاع بكل دقيقة. يمكننا تمزيق كل قطعة أثاث في هذه الغرفة ثم الانتقال إلى غرفته. لكن أين سيتركنا ذلك في الصباح؟ في المكان ذاته، كلانا يتوق للآخر ولكن واحد منا فقط يملك الشجاعة الكافية للأخذ، وأنا أستحق أكثر من مجرد علاقة تُفرض عليّ بشروطه هو.

وضعتُ يدي على صدره وشعرتُ بنبض قلبه المتسارعِ وقلت:

– «أنت تريدني. وأعلم أن هذا يخيفك رغم أنني أريدك بالقدر ذاته.»

تصلب جسده.

أمسكتُ بنظراته، مدركة أنه قد يهرب في أية ثانية، وتابعت:

– «ولكن إليك الحقيقة. لا يحق لك إملاء ما أشعر به. قد تُصدر الأوامر هناك في الخارج، ولكن ليس هنا. لا يحق لك أن تخبرني أنه يمكننا المضاجعة ولكن يُحظر عليّ الوقوع في حبك. هذا ليس عدلًا. كل ما يمكنك فعله هو احترام اختياري. لذا، لن نفعل هذا مجددًا حتى أكون مستعدة للمخاطرة بقلبي. وإن وقعتُ في حبك، فهذه مشكلتي أنا، وليست مشكلتك. لست مسؤولًا عن خياراتي.»

انقبض فكه مرة. مرتين. ثم دفع نفسه بعيدًا عن الجدار، مانحًا إياي مساحتي الخاصة.

– «أعتقد أن هذا هو الخيار الأفضل. سأتخرج قريبًا، ومن يدري أين سينتهي بي المطاف. علاوة على ذلك، نحن مقيدان معًا بسبب سجايل وتايرِن، مما يعقد... كل شيء.»

تراجع خطوة تلو الأخرى، وكانت المسافة أبعد من مجرد مسافة جسدية. وأضاف:

– «وبالنظر إلى كل هذا التظاهر، أنا واثق من أننا سننسى في النهاية أن الليلة الماضية قد حدثت أصلًا.»

الطريقة التي ننظر بها إلى بعضنا البعض تخبرني أن أيًا منا لن ينسى أبدًا. وبإمكانه التهرب من الأمر قدر ما يشاء، لكننا سننتهي في هذا الموقف مرارًا وتكرارًا حتى يصبح مستعدًا للاعتراف بحقيقة ما يجمعنا. لأنني إن كنت موقنة من شيء واحد، فهو أنني سأقع في حب هذا الرجل –إن لم أكن قد وقعت بالفعل– وأنه قطع نصف الطريق نحوي أيضًا، سواء أدرك ذلك أم أبى.

أدرتُ ظهري له، ومضيتُ نحو نصفي هدف التصويب المحطم، والتقطتهما قبل أن أعود أدراجي عبر الغرفة. دفعتُ النصفين في صدره وقلت:

– «لم أتخيل يومًا أنك كاذب يا زايدن. يمكنك إحضار هدف جديد لي حين تثوب إلى رشدك. وحينها، سننفّس عن بعض الضغط.»

طردتُ الرجل المثير للأعصاب خارج غرفتي.

***

سأل سوير وهو يمرر ساقه فوق المقعد بجواري على الغداء:

– «هل سمعتِ أن الملك تاوري سيحتفل بيوم لم الشمل هنا؟»

هاجمتُ دجاجي المشوي بشراهة وقلت:

– «حقًا؟»

منذ أن بدأتُ التدرب يوميًا مع كار، أصبحت شهيتي أشبه بحفرة لا قاع لها. لحسن الحظ أنه لا يجرني إلى قمة ذلك الجبل سوى لساعة واحدة يوميًا، ورغم ذلك، بحلول موعد الإفطار، أكون أتضور جوعًا.

بعد مرور شهر، لا أزال فاشلة تمامًا في تصويب البرق. لكنني وصلتُ إلى معدل يقارب العشرين صاعقة في الساعة، وهو ما يُعد تحسنًا. مررتُ بنظري عبر الطاولات، فالتقت عيناي بعينيّ زايدن وهو يتناول طعامه مع القيادة على المنصة المرتفعة.

كان يبدو في غاية الجاذبية هذا الصباح. حتى تلك السحابة الكئيبة الصغيرة التي ترافقه أينما حل كان لها سحرها الخاص، خاصة حين دحرج عينيه استنكارًا لشيء قاله غاريك.

قال زايدن ذهنيًا:

'لا تنظري إليّ هكذا.'

رفعتُ حاجبًا وسألته:

'هكذا كيف؟'

التمعت عيناه وهو ينظر إليّ وأجاب:

'وكأنكِ تفكرين بصالة التدريب الليلة الماضية.'

قالت ريانون الجالسة أمامي:

– «هذا واضح كعين الشمس. لهذا السبب تمتلك ديفيرا حوالي خمسمائة بدلة رسمية سوداء في الصالة المشتركة الآن. أينما ارتحل الملك، ارتحل الاحتفال معه.»

مررتُ لساني على شفتي السفلى، مسترجعة كيف ثبت خصره خصري على البساط بعد مغادرة الجميع ليلًا. وكيف كدنا كلانا نستسلم لتلك الحاجة النابضة بيننا. وقلت:

'الآن وقد ذكرتَ الأمر.'

انقبض فكه، واشتدت قبضته على شوكته. وقال:

'بجدية. أعجز عن التفكير حين تنظرين إليّ بتلك الطريقة.'

تساءل ريدوك:

– «حقًا؟ ظننتها مخصصة لحفل التخرج؟»

أطلقت إيموجين شخرة استهزاء وقالت:

– «وكأن هناك من يتأنق لحفل التخرج! إنه في جوهره تشكيل ضخم يقف فيه بانشيك ليقول: "انظروا، لقد نجوتم. عمل ممتاز. تعالوا لتسلموا تعييناتكم، ثم احزموا قذارتكم وارحلوا."»

انفجر الجميع ضاحكين على تقليدها المتقن.

ذكرته:

'أنت من فرض تلك القاعدة السخيفة بعدم الوقوع في الحب.'

أجبر نفسه على تحويل انتباهه إلى طبقه وقال:

'أنتِ لا تزالين تنظرين.'

اعترفت:

'أنت من يجعل إشاحة النظر أمرًا في غاية الصعوبة.'

أفتقد فمه على بشرتي، وإحساس جسده الملتصق بجسدي. أفتقد النظرة التي ارتسمت على وجهه حين راقبني أصل إلى ذروتي. لكنني أفتقد أكثر إحساس احتضانه لي أثناء النوم.

رد زايدن:

'أنا أجلس هنا وأبذل قصارى جهدي لكبح يديّ وذكرياتي لأنكِ طلبتِ مني ذلك، وأنتِ تضاجعينني بعينيكِ. هذه ليست لعبة عادلة.'

أسقطتُ شوكتي، فالتفت جميع من على الطاولة ليحملقوا بي.

سألت ريانون وقد ارتفع حاجباها:

– «هل أنتِ بخير هناك؟»

أومأتُ برأسي متجاهلة موجة الحرارة التي تزحف صعودًا على عنقي، وأجبت:

– «أجل. أنا في أفضل حال.»

وضع ليام كأسه، واختلس نظرة بين زايدن وبيني، وهز رأسه مكافحًا ابتسامته. بالطبع هو يدرك ما يجري. يجب أن يكون غافلًا تمامًا لكي لا يلاحظ، خاصة وأنه ساعد زايدن وغاريك في نقل الخزانة الجديدة.

كانت نبرته تحمل مسحة من الضحك، لكن وجهه ظل خاليًا من التعابير كعادته:

'لقد أخبرتكِ أن تكفي عن التحديق.'

نقرتُ بشوكتي على طبقي من فرط الإحباط الخالص. أتعلمون ماذا؟ تباً لهذا. يمكننا كلانا لعب هذه اللعبة.

قلت بجرأة:

'لو تحليتَ بقليل من الشجاعة واعترفتَ بأن هناك شيئًا يجمعنا، لتعريتُ أمامك حتى جلدي لترى كل إنش في جسدي. وحين أجعلك تتوسل، سأجثو على ركبتيّ، وأفك درعِ الطيران الذي ترتديه، وألف شفتيّ حول–'

اختنق زايدن بلقمته.

التفت كل الرؤوس في قاعة الطعام نحوه، وراح غاريك يربت على ظهره بقوة حتى أشار له زايدن بالتوقف، متناولًا رشفة من مائه.

ابتسمتُ باتساع، مما جلب لي نحو ست نظرات حائرة من طاولتنا، ودحرجة عين واحدة من ليام.

قال زايدن ذهنيًا:

'ستكونين هلاكي حتمًا.'

***

لم يتبقَّ سوى عشرة أيام على التخرج، وأنا أعدها يومًا بيوم. حينها سنعرف مدى المسافة التي سيُرسل إليها زايدن بعيدًا عن باسجيات. يُعين معظم الملازمين الجدد في مناصب وسطى، لإدارة الحصون المنتشرة على طول الطرق المؤدية إلى

النقاط الحدودية الأمامية، لكن شخصًا يمتلك قوة زايدن؟ لا أود حتى التفكير في مدى بُعد المكان الذي سيُرسل إليه.

أو في سبب استمرار عناده في عدم الاعتراف بوجود شيء بيننا. أو حتى التلميح بأنه على الأقل لم يندم على تلك الليلة اليتيمة. كنت لأرضى بذلك.

إياكِ أن تقعي في حبي...

شعرتُ بوخز مألوف في فروة رأسي، وأدركتُ أن زايدن قد دخل إلى غرفة الموجز القتالي مع بقية المتدربين والقادة. شرعت الأستاذة ديفيرا مباشرة في موجز اليوم، لكنني وجدتُ صعوبة بالغة في التركيز.

يصادف اليوم مرور ست سنوات على مقتل بريـنان. كان ليكون نقيبًا الآن، أو ربما رائدًا، بالنظر إلى المسار التصاعدي الذي اتخذته مسيرته. ربما كان ليتزوج. ربما كنتُ لأكون عمة. ربما لم يكن قلب والدي ليتوقف في تلك المرة الأولى إثر صدمة فقدانه، أو في تلك المرة الأخيرة في الربيع قبل عامين.

اندفعتُ ذهنيًا أقول:

'خذني إلى السرير.'

ثم انزلقتُ في مقعدي قليلًا. لكنني لم أندم على ما قلته. فاليوم، أكثر من أي يوم آخر، أشد ما أحتاجه هو الإلهاء.

أجابني:

'قد يكون الأمر محرجًا أمام كل هؤلاء الناس.'

لم أتمكن من رؤيته من المكان الذي أعلم أنه يجلس فيه في أعلى غرفة الموجز القتالي، لكن كلماته لامست مؤخرة عنقي كمداعبة رقيقة.

فأجبته:

'قد يكون الأمر يستحق العناء.'

سألت ديفيرا وهي تمسح الحشد بنظراتها:

– «وما الذي كنتم ستفعلونه بطريقة مختلفة؟»

أجابت ريانون:

– «كنتُ لأطلب تعزيزات لو علمتُ أن التعاويذ الوقائية تضعف في تلك المنطقة.»

قال زايدن ذهنيًا:

'لم أغير رأيي يا ڤيولينس. لا مستقبل لنا معًا.'

سألت ديفيرا رافعة حاجبها:

– «وماذا لو لم تكن هناك تعزيزات متاحة؟ هل لاحظتم أن الدفعات المتخرجة من قطاع راكبي التنانين تتضاءل عامًا بعد عام، بينما كلفنا تصاعد الهجمات هذا العام فقدان سبعة ركاب وتنانينهم؟ يتطلب الأمر سرية مشاة كاملة على الأقل لتعويض فقدان راكب واحد.»

قلت في عقلي:

'التخرج بعد عشرة أيام.'

هذا الموعد النهائي المقترب يضع أعصابي على صفيح ساخن.

أجابت ريانون:

– «كنتُ لأسحب ڤ كابًا من الحصون الوسطى مؤقتًا للمساعدة في إعادة بناء التعاويذ الوقائية.»

علق زايدن:

'لا تذكريني.'

أومأت ديفيرا وقالت:

– «ممتاز.»

سألته:

'هل يعقل أن تغادر باسجيات حقًا دون أن-'

دون أن ماذا؟ دون أن تعلن عن... شهوتك الأبدية؟

أجاب بحسم:

'أجل.'

بالطبع سيفعل. زايدن محترف في كبح مشاعره، وربما لهذا السبب هو مصمم على كبح مشاعري أنا أيضًا. أو هل هناك سبب آخر يدفعه لكبح نفسه لم أضعه في الحسبان؟ الجنس كان رائعًا. الكيمياء بيننا؟ متفجرة. نحن حتى... أصدقاء، رغم أن الوجع الدائم في صدري يخبرني أن الأمر تجاوز ذلك بأشواط. لو كان مجرد وغد لئيم، لكنت قد اعتبرت تلك الليلة مجرد مضاجعة -مضاجعة مذهلة بشكل لا يُصدق- وتجاوزتُ الأمر. لكنه ليس كذلك... ليس عادة على الأقل، والآن بتُّ أتفهم لِمَ يأخذ منصبه بكل هذه الجدية. إنه يحمل على عاتقه مسؤولية كل موشوم هنا.

قال زايدن:

'أيًا كان ما تفكرين فيه، يمكنه الانتظار حتى لا يكون بيننا غرفة مليئة بالناس.'

تابعت ديفيرا وهي تشير إلى أحد طلاب السنة الثانية:

- «ماذا لديكم أيضًا؟»

لقد مر شهر ونصف منذ أن دمرنا غرفتي - ونجحنا في إبقاء أيدينا بعيدة عن بعضنا البعض، رغم أن ليلة واحدة لم تكن كافية لإشباع أي منا، إن كانت الأمسيات المشحونة بالتوتر على بسط حلبات النزال تمثل أي دليل. وبالطبع،

كلانا يعلم أن أي تجاوز لذلك لن يؤدي إلا إلى زيادة تعقيد موقف هو في الأصل معقد للغاية.

لكن من المؤكد أنه لا ينفس عن هذا التوتر الجنسي الممتد بيننا – مع شخص آخر. من المؤكد. تسللت هذه الفكرة الخبيثة وانتشرت بسرعة مقززة.

توقفتُ عن الإصغاء حين تقلصت معدتي إزاء احتمال بات يبدو واقعيًا للغاية. وسألته:

'هل هناك شخص آخر؟'

أجاب بحدة:

'لن أخوض في هذا النقاش معكِ الآن. انتبهي للدرس.'

تطلب الأمر كل ذرة من إرادتي لألا أستدير وأصرخ في وجهه. لو أنني أمضيتُ كل ليلة أتقلب في فراشي وحيدة بينما هو–

ابتسمت ديفيرا وقالت:

– «هذه فكرة سديدة أيضًا يا آيتوس. وإجابة تليق حقًا بقائد جناح، إن جاز لي القول.»

يا للآلهة، غرور داين سيكون لا يُحتمل اليوم أثناء حلبات النزال إن استمرت ديفيرا في الإطراء عليه.

حلبات النزال... قبضتُ على قلمي بقوة مفرطة حين تذكرتُ النظرة التي رمقت بها إيموجين زايدن في تلك الليلة. تبًا. هذا سيفسر الكثير. إنها تحمل أثر التمرد، وبالتأكيد ليست ابنة المرأة التي قتلت والده، لذا فهذا في صالحها أيضًا. سألته مجددًا:

'هل هي إيموجين؟'

أشعر برغبة عارمة في التقيؤ.

زمجر زايدن:

'بحق الجحيم يا ڤيولينس.'

ألححت:

'هل هي كذلك؟ أعلم أننا اتفقنا ألا نعود لهذا الموضوع، لكن–'

ألعن نفسي الآن لأنني أخبرته أنني أريد المزيد، ولأنني أهدر وقتي في الشجار معه بدلًا من الانتباه للدرس.

'على الأقل أخبرني.'

صاح زايدن بصوت مسموعٍ:

– «سورنجيل.»

تجمدتُ في مكاني، مستشعرة ثقل كل العيون المسلطة عليّ.

حثته ديفيرا:

– «نعم يا ريورسون؟»

تنحنح ليصفي حلقه وقال:

– «لو لم تكن التعزيزات متاحة، لكنتُ طلبتُ نقل ميرا سورنجيل مؤقتًا. التعاويذ الوقائية قوية في مونتسيرات، وبفضل قدرتها السحرية، كان بإمكانها تعزيز نقاط الضعف حتى وصول ركاب آخرين لتدعيم تلك التعاويذ.»

أومأت ديفيرا وقالت:

– «فكرة ممتازة. وأي من الركاب يُعدون الخيار الأكثر منطقية للمساعدة في إعادة بناء التعاويذ الوقائية في هذا الممر الجبلي تحديدًا؟»

أجبتُ فورًا:

– «طلاب السنة الثالثة.»

أمالت ديفيرا رأسها نحوي قائلة:

– «استمري.»

هززتُ كتفيّ وقلت:

– «يتلقى طلاب السنة الثالثة تدريبات على بناء التعاويذ الوقائية، وفي هذه المرحلة من العام، هم مغادرون على أية حال. لذا قد يكون من الأفضل إرسالهم مبكرًا ليكونوا ذا نفع.»

علق زايدن في ذهني:

'وجهة نظر صائبة بحق الجحيم.'

أسقطتُ درعي الذهني بعنف وأغلقته في وجهه.

قالت ديفيرا:

– «هذا خيار منطقي. وهذا كل ما لدينا لليوم. لا تنسوا أن عليكم الاستعداد للمناورة الأخيرة من ألعاب الحرب قبل التخرج. كما أننا نتوقع حضور كل فرد منكم في الباحة أمام باسجيات الليلة في تمام التاسعة لمشاهدة الألعاب النارية احتفالًا بيوم لم الشمل. بالزي الرسمي الموحد حصرًا.»

رفعت حاجبيها نحو ريدوك.

هز ريدوك كتفيه وقال:

– «وما الذي قد أرتديه غيره؟»

قالت ديفيرا وهي تأذن لنا بالانصراف:

– «لا أحد يعلم أبدًا ما قد يخطر ببالك.»

رفع ليام حاجبيه وهو يسألني بينما نجمع أغراضنا:

– «هل هناك أي جديد يجب أن أعرفه عما يجري بينك وبين...؟»

أصررتُ بنبرة قاطعة:

– «لا شيء على الإطلاق يجري بيننا. ولا حتى شيء واحد لعين.»

إن كان زايدن لا يود استكشاف ما إذا كان هناك شيء أعمق بيننا، فالرسالة وصلت. التفتُّ إلى ريانون وسألتها:

– «إذن، هل أنتِ متحمسة لأنكِ ستتمكنين أخيرًا من مراسلة شقيقتك بعد عشرة أيام؟»

ابتسمت باتساع وقالت:

– «لقد كنتُ أكتب لها رسالة كل شهر منذ وصولنا إلى هنا. والآن سأتمكن أخيرًا من إرسالها.»

على الأقل هناك شيء واحد جيد سيجلبه لنا التخرج. سنتمكن جميعًا من التواصل مع أحبائنا مجددًا.

***

في وقت لاحق من تلك الليلة، كنت أضبط الوشاح الذي يتقاطع على صدر صدريتي من الزي الرسمي الأسود، وأُدس خصلة شعر متمردة في التسريحة الأنيقة التي ساعدتني كوين في إعدادها سابقًا، قبل أن ألتقي بريانون في الرواق.

كانت قد حررت شعرها من تسريحة الضفائر الواقية المعتادة، لتشكل الخصلات المتجعدة هالة ساحرة حول وجهها الذي زينته بلمسات من أحمر الخدود الذهبي. كان اختيارها لسروال رسمي أنيق ومفصل، وسترة متقاطعة تلتف قطريًا حول جذعها، يبدو مذهلًا على قوامها الممشوق. أومأتُ برأسي إعجابًا وقلت بينما تشد وشاحها:

– «مثيرة.»

اخترتُ أنا سترة بلا أكمام ذات ياقة عالية لأخفي درعي، وتنورة فضفاضة تصل إلى الأرض بفتحة تمتد حتى الفخذ، والتي أخبرتني ديفيرا أنها مصممة

لتسهيل الحركة في حال التعرض لهجوم. وشخصيًا، لا أمانع لمحة الفخذ التي تظهر عند حركتي، خاصة بعد كل الجهد الذي بذلته لتقوية ساقي مع إيموجين. كان وشاحي بسيطًا، من نفس الساتان الأسود الذي يرتديه الجميع، وطُرز اسمي أسفل كتفي مباشرة، بالإضافة إلى نجمة طالبة السنة الأولى.

قالت نادين وهي تنضم إلينا:

– «سمعتُ أن حشدًا كبيرًا من رجال المشاة سيكونون هناك.»

تدخل ريدوك فورًا، وسوير بجانبه، قائلًا:

– «ألا تفضلين قليلًا من العقل مع كل تلك العضلات؟»

صاح ليام وهو يركض نحونا، مخترقًا الحشد بينما نتجه نحو الدرج المؤدي إلى الحرم الرئيسي لباسجيات:

– «إياكم أن تكونوا قد حاولتم المغادرة بدوني!»

أجبته بصدق حين وصل إلى جانبي:

– «كنتُ آمل أن تُمنح إجازة الليلة. تبدو وسيمًا للغاية.»

عدل وشاحه فوق سترته ذات اللون الأسود الداكن وتباهى بسخرية:

– «أعلم ذلك. سمعتُ أن متدربي المعالجين يميلون لركاب التنانين.»

ضحكت ريانون وقالت:

– «لا أظن ذلك. بعد كل المرات التي يُضطرون فيها لإعادة تجميع أشلائنا؟ أراهن أنهم يفضلون النُسّاخ.»

سألني ليام ونحن نهبط الدرج وسط بحر من الزي الأسود، سالكين الدرب الذي نقطعه كل صباح نحو الأرشيف:

– «وما الذي يميل إليه النُسّاخ؟ بما أنكِ كدتِ تصبحين واحدة منهم؟»

أجبته:

– «غالبًا نُسّاخ آخرين. لكن في حالة والدي، أعتقد أنهم يفضلون الركاب.»

قال ريدوك وهو يمسك الباب مفتوحًا لنتمكن من العبور عبر النفق:

– «أنا متحمس فقط لرؤية أشخاص ليسوا من ركاب التنانين. فالأمر بدأ يبدو أشبه بزواج الأقارب هنا.»

وافقته ريانون:

– «أتفق معك.»

قالت نادين:

– «أوه، لا تهتمي لذلك. أنتِ وتارا في علاقة متقطعة طوال العام.»

ثم شحب وجهها فجأة وأضافت:

– «تبًا. هل انفصلتما مجددًا؟»

أجابت ريانون بينما ندخل قطاع المعالجين:

– «قررنا أخذ استراحة حتى عبور المتراس الصخري.»

علق سوير:

– «من الصعب تصديق أننا سنصبح طلاب سنة ثانية في غضون أسبوعين ونيف.»

أضفتُ:

– «ومن الصعب تصديق أننا نجونا أصلًا.»

لم يُسجل سوى اسم واحد في سجل الموتى هذا الأسبوع، طالب سنة ثالثة لم يعد من مهمة ليلية.

بحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى الباحة، كان الحفل في أوجه.

كان هناك مزيج من الأزرق الفاتح للمعالجين، والكريمي للنُسّاخ، والزي الأزرق الداكن لقطاع المشاة الذي طغى بكثافة على الزي الأسود المتناثر للركاب. لا بد أن هناك ألف شخص أو يزيد هنا.

تدلت الأضواء السحرية فوقنا على هيئة عشرات الثريات، وغطت ستائر المخمل الفاخر الجدران الحجرية لباسجيات، لتحول هذه المساحة الخارجية العملية إلى ما يشبه قاعة رقص. حتى أن هناك فرقة وتريات تعزف في إحدى الزوايا.

سألتُ زايدن ذهنيًا:

'أين أنت؟'

لكنني لم أتلقَّ أي إجابة.

بدا وكأننا تفرقنا بمجرد دخولنا، لكن ليام بقي لصيقًا بي، متوترًا كوتر قوسي النشاب. وقال:

– «أخبريني أنكِ ترتدين درعكِ تحت كل هذا.»

أشرتُ إلى الشرفة المكشوفة حيث تبدو والدتي وكأنها تعقد بلاطها الخاص، متأملة مملكتها، وقلت:

– «أتظن أن أحدهم قد يطعنني أمام ناظري والدتي؟»

التقت نظراتنا، فهمست والدتي بشيء للرجل الواقف بجوارها، ثم توارت عن الأنظار.

من الجميل رؤيتكِ أنتِ أيضًا.

اشتدت نبرة ليام وقال:

– «أعتقد أنه إن كان أحدهم ينوي طعنكِ، فهذا هو الوقت الأنسب، خاصة وأنهم يعلمون أن قتلكِ يحمل فرصة كبيرة للقضاء على ابن فين ريورسون.»

حينها لاحظتُ نظرات الضباط والمتدربين المحيطين بنا. لم يكونوا يحدقون في شعري أو في الاسم المطرز على وشاحي. بل اتسعت عيونهم وهم يحدقون في معصم ليام والدوامات الظاهرة لأثر التمرد الخاص به.

شبكتُ ذراعي بذراعه ورفعتُ ذقني باعتزاز قائلة:

– «أنا آسفة للغاية.»

ربت على يدي مطمئنًا وقال:

– «ليس لديكِ أي سبب لتتأسفي على الإطلاق.»

همستُ:

– «بالطبع هناك.»

يا للآلهة، الجميع مجتمعون هنا للاحتفال بنهاية ما يسمونه هو والآخرون بالتمرد. إنهم يحتفلون بوفاة والدته. وأضفت:

– «بإمكانك المغادرة. يجب عليك أن تغادر. هذا...»

هززت رأسي غير مصدقة.

شدد قبضته على يدي وقال:

– «أنا أذهب حيث تذهبين.»

تكونت صخرة في حلقي، ومسحتُ الحشد بعينيّ، موقنة بالفطرة أنه ليس هنا. لا وجود لغاريك، ولا بودهي، ولا إيموجين، وبالتأكيد لا وجود لزايدن. لا عجب إذن أنه كان في مزاج متعكر طوال اليوم.

حدقتُ بحدة في ضابط المشاة الذي واتته الوقاحة ليبدو مشمئزًا من رؤية معصم ليام، وقلت:

– «هذا ليس من العدل بحقك.»

رد ليام بكرامة يعجز خيالي عن تصورها:

– «وأشك كثيرًا في أنكِ تستمتعين بالاحتفال بذكرى مقتل شقيقكِ أيضًا.»

أشرتُ إلى الحشد وقلت:

– «برينان كان ليمقت كل هذا. كان يولي إنجاز العمل أهمية أكبر من الاحتفال بإتمامه.»

بدأ ليام يقول:

– «أجل، يبدو وكأنه–»

ثم تلاشت كلماته، فعصرتُ ذراعه بقوة أكبر حين لاحظتُ الحشد ينشق أمامنا.

كان الملك تاوري يسير إلى جانب والدتي، ومن اتجاه ابتسامته العريضة التي تظهر كل أسنانه، أدركتُ أنه قادم نحونا. تقاطع وشاح أرجواني على سترته، وثُبتت على صدره عشرات الأوسمة التي لم ينلها قط، من مئات ساحات المعارك التي لم تطأها قدماه يومًا.

أما أوسمة والدتي، فكلها مستحقة عن جدارة، وتزين وشاحها الأسود كالجواهر وهو ينسدل فوق زيها الرسمي ذي الياقة العالية والأكمام الطويلة.

همستُ لليام بحدة:

– «اذهب!»

ثم رسمتُ ابتسامة مصطنعة من أجل والدتي حين انضم إليهم الجنرال ميلغرين. قد يكون ميلغرين عبقريًا، لكن التواجد بقربه يثير الأعصاب بشكل مرعب.

انتصب عموده الفقري بصلابة وقال:

– «حين يقترب منكِ الخطر الأكبر؟ لا أعتقد ذلك.»

سأنتزِع رأس زايدن الفاتن من مكانه لإجباره ليام على المرور بهذا الموقف.

تمتمتُ وأنا أرجع قدمًا إلى الخلف كما علمتني ميرا، وأحني رأسي بوقار، ملاحظة أن ليام قد انحنى عند خصره:

– «جلالتك.»

قال الملك تاوري، مبتسمًا من تحت شاربه:

– «أخبرتني والدتكِ أنكِ لم ترتبطي بتنين واحد استثنائي، بل باثنين.»

أضاف ميلغرين، وابتسامته الجليدية تتفحصني بتقييم سافر:

– «أجل، إنها واثقة جدًا في قوتكِ.»

أجبتُ بابتسامة مهذبة:

– «لن أدعي ذلك في الوقت الراهن.»

لقد أمضيتُ ما يكفي من الوقت بين جنرالات وساسة وأفراد عائلة مالكة مغرورين لأدرك متى يجب التظاهر بالتواضع. وأضفت:

– «لا أزال أتعلم كيف أوجه سحري.»

وبختتني والدتي:

– «لا تكوني مفرطة في التواضع يا ابنتي. فوفقًا لما يقوله أساتذتها، لم يشهدوا هبة بهذه القوة سوى مرات قليلة خلال العقد الماضي، في برينان وفي فتى آل ريورسون.»

ذلك الفتى هو رجل يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا، لكنني أذكى من أن أصحح لها وأجعل من زايدن هدفًا أكبر من ذي قبل.

سأل الملك تاوري ليام:

– «وما هي هبتك أنت؟»

أجاب ليام:

– «البصر الثاقب يا جلالتك.»

ضاق نظر ميلغرين على أثر التمرد المكشوف على معصم ليام، ثم ارتفع إلى وشاحه وسأل:

– «مايري، كابن العقيد مايري؟»

عصرتُ ذراعه ضد ذراعي بقوة أكبر في دعم صامت، ولاحظت والدتي ذلك.

أجاب ليام، واقتصرت علامات انزعاجه الجسدية على انقباض فكه:

– «أجل أيها الجنرال. رغم أنني نشأتُ في كنف الدوق ليندل في تيرفين.»

أومأ الملك تاوري وقال:

– «آه، أجل. الدوق ليندل رجل صالح ومخلص.»

ذلك التعالي في نبرته يجعلني أرغب في تمزيق الأوسمة عن صدره.

قال ليام ببراعة في لعب هذه اللعبة:

– «أدين له بالفضل في صلابتي يا جلالتك.»

أومأ ميلغرين مجددًا، ممررًا بصره على الحشد وقال:

– «أجل، فعلت. والآن أخبريني، أين فتى آل ريورسون؟ أحب دائمًا أن ألقي نظرة عليه مرة في السنة لأتأكد أنه لا يثير أي متاعب.»

أجبتُ، فنلت نظرة خاطفة وحادة من والدتي:

– «لا متاعب. في الواقع، إنه قائد جناحنا. لقد أنقذ حياتي حين كنا على خطوط المواجهة في مونتسيرات.»

بإجباري على المغادرة بدلًا من البقاء للمساعدة، لكنه مع ذلك يستحق التقدير لعدم تسببه في تشتيت ميرا وقتلها هي وأنا وتايرِن. لقد فعل زايدن ما هو أكثر من مجرد إنقاذي. لقد صدقني حين أخبرته أن آمبر قادت غير المرتبطين إلى غرفتي. أمر بصنع ترسانة كاملة من الخناجر خصيصًا لي. صمم سرجًا لتايرِن

لأتمكن من الانطلاق إلى المعركة مع أقراني. حماني حين احتجتُ لذلك، وعلمني كيف أدافع عن نفسي لكي لا أظل بحاجة للحماية للأبد.

وحين كان الآخرون يسارعون للوقوف أمامي، كان زايدن يقف دائمًا إلى جانبي، واثقًا من قدرتي على الصمود بمفردي.

لكنني لم أتفوه بأي من هذا. ما الجدوى؟ زايدن لا يكترث قيد أنملة بما يظنه هؤلاء الناس فيه – ولذا لن أكترث أنا أيضًا. وعوضًا عن ذلك، اكتفيتُ بالاستمرار في رسم ابتسامة بلهاء، متظاهرة بالرهبة من الرجال الأقوياء الواقفين أمامي.

قالت والدتي، وابتسامتها تقشعر لها الأبدان:

– «تنيناهما متزاوجان. لذا فقد تقربت منه كثيرًا بحكم الضرورة.»

بحكم الشهوة والحاجة والوجع في صدري الذي أخشى تعريفه، لكن، بالتأكيد، الضرورة تفي بالغرض.

تهلل وجه الملك تاوري وقال:

– «هذا ممتاز. من الجيد أن يكون هناك فرد من آل سورنجيل يراقبه من أجلنا. ستخبريننا إن قرر، أوه، لا أدري...»

ضحك وأضاف:

– «إشعال حرب أخرى؟»

ميلغرين قادر تمامًا على رؤية نتيجة أي حماقة كهذه، ورغم ذلك، راح يحدق فيّ وفي ليام بتركيز مقلق.

تصلب جسدي بأكمله وقلت:

– «أؤكد لك أنه موالٍ تمامًا.»

سأل الملك تاوري وهو يمسح الباحة بنظره:

– «إذن أين هو؟ طلبتُ أن يحضروا جميعًا، جميع الموشومين.»

ابتسمتُ وأنا أنطق نصف كذبة:

– «لقد رأيته قبل قليل.»

حصة الموجز القتالي كانت قبل قليل.

– «لربما بحثتم عند الأطراف؟ إنه لا يميل كثيرًا للحفلات.»

قالت والدتي، مشيرة برأسها إلى مكان ما خلف كتفي:

– «أوه، انظروا! هناك داين آيتوس!»

ثم حثت الملك قائلة:

– «سيكون في غاية التواضع لو ألقيتم عليه التحية.»

قال الملك:

– «بالطبع.»

ومضى الثلاثة، تاركين ليام وإياي واقفين في صمت مطبق بينما نلتف لمراقبتهم لئلا ندير ظهورنا للملك عن طريق الخطأ. أشعر وكأنني نجوتُ للتو من موت محقق، أو على الأقل من كارثة طبيعية.

تمتمتُ بصوت خافت بينما يحيي داين الملك بلباقة تامة:

– «سأقتله لأنه أجبرك على حضور هذا.»

أجاب ليام:

– «زايدن لم يجبرني على المجيء.»

التفتُّ إليه بذهول وسألته:

– «ماذا؟»

أجاب بابتسامة ملتوية:

– «لم يكن ليطلب مني هذا أبدًا. لن يطلبه من أي شخص. لكنني أخبرته أنني سأحافظ على سلامتكِ، وهذا ما أفعله، أحافظ على سلامتكِ.»

أسندتُ رأسي إلى ذراعه وقلت:

– «أنت صديق حقيقي يا ليام مايري.»

قال:

– «لقد أنقذتِ حياتي يا ڤيوليت. أقل ما يمكنني فعله هو الابتسام وتحمل هذه الحفلة اللعينة.»

قلت:

– «لست متأكدة من أنني أستطيع الابتسام والتحمل.»

ليس مع الطريقة التي يختلس بها الناس النظرات إلى معصمه، وكأنه هو من قاد الجيش شخصيًا إلى الحدود.

ابتسم داين حين غادر الملك، ثم نظر من فوق كتفه، فالتقى بصره ببصري وتوجه نحونا.

ابتسم، وكان من السهل جدًا تذكر كم من المناسبات المشابهة حضرناها معًا على مر السنين. كانت لمسته رقيقة حين كوب وجنتي وقال:

– «تبدين فاتنة الليلة يا ڤاي.»

ابتسمتُ وأجبته:

– «شكرًا لك. وأنت أيضًا تبدو في غاية الأناقة.»

أسقط يده حين التفت إلى ليام وسأل:

– «هل حاولت هذه الفتاة الهرب بعد؟ لطالما مقتت هذه الفعاليات.»

أجاب ليام:

– «ليس بعد، لكن الليلة لا تزال في بدايتها.»

لا بد أن داين قد قرأ خطوط التوتر على وجه ليام، لأن ابتسامته تلاشت حين عاد بنظره إليّ وقال:

– «الدرج يبعد نحو خمسة أقدام عن يميننا. سأقوم بتشتيت الانتباه بينما تتسللين مبتعدة.»

أومأتُ برأسي شاكرة إياه، ورمقته بابتسامة ناعمة وقلت:

– «شكرًا لك.»

ثم التفتُّ إلى ليام وقلت:

– «لنخرج من هنا.»

بمجرد أن غادرنا الحفل وعدنا إلى قطاع راكبي التنانين، توجهتُ مباشرة نحو الباحة وتجذرتُ في الأرشيف الخاص بي، تاركة الطاقة تدوّم حولي ومن خلالي. استشعرتُ الطاقة الذهبية من أندارنا، والقوة المشتعلة من تايرِن التي تربطني بسجايل، وأخيرًا، الظلال المتلألئة لزايدن.

فتحتُ عينيّ، متتبعة انحسار وتدفق ذلك الظل المتلألئ، وعلمتُ أنه في مكان ما أمامي.

قلت لليام:

– «أنت تعلم أنني أكن لك معزة خاصة، أليس كذلك؟»

أجاب:

– «حسنًا، هذا لطف من–»

قاطعته:

– «ارحل الآن.»

ومضيتُ في طريقي عبر الباحة.

لحق بي ليام متسائلًا:

– «ماذا؟ لا يمكنني تركُكِ هنا بمفردكِ وحسب.»

ربتُّ على ذراعه وواصلت التقدم نحو الإحساس الذي يوجهني، وقلت:

– «مع كامل الاحترام، لكن بإمكاني إحراق هذا المكان بأكمله بصاعقة برق إن شئت، وأحتاج لرؤية زايدن، لذا اذهب.»

صاح ليام متراجعًا للخلف:

– «أعني، وفقًا لكلامك تصويبكِ سيء، لكنني فهمت المقصد!»

لم أُكلف نفسي عناء إضاءة نور سحري وأنا أتجاوز المنطقة التي نطف فيها عادة للتشكيل، وواصلتُ السير نحو الأطياف المتكئة على الفتحة الوحيدة في هذا الجدار اللعين. ليس هناك سوى مكان واحد يمكن أن يتواجد فيه زايدن.

قلت لغاريك وبودهي، اللذين بالكاد أميز ملامحهما في ضوء القمر:

– «أخبراني أنه ليس هناك في الخارج.»

أجاب بودهي وهو يفرك مؤخرة عنقه:

– «يمكنني إخباركِ بذلك، لكنني سأكون كاذبًا.»

حذر غاريك بامتعاض:

– «لن ترغبي في رؤيته. ليس الليلة يا سورنجيل. غريزة البقاء على قيد الحياة تقتضي ذلك. لاحظي أننا لسنا معه، ونحن أقرب أصدقائه.»

قلت:

– «أجل، حسنًا، أنا...»

فتحتُ فمي ثم أغلقته عدة مرات لأنني... تبًا، لا أعرف حتى ما أنا بالنسبة له. لكن هذا الشوق الذي يأسر قلبي، هذه الحاجة الملحة لأكون بجانبه لأنني أعلم أنه يتألم، بغض النظر عما إذا كان ذلك يعني إلقاء نفسي بتهور في المجهول... لا يسعني إنكار ما يمثله بالنسبة لي. خلعتُ الحذاء الجلدي الخاص بزيي الرسمي – فقد كان يشكل خطرًا أكثر من أي شيء آخر، وفي هذه الرياح؟ حسنًا، سنرى كيف تسير الأمور.

- «أنا ببساطة... ملكه.»

وللمرة الأولى منذ العام الماضي، أخطو فوق المتراس الصخري.

«أما فيما يخص الأبرياء المئة والسبعة، أبناء الضباط الذين نُفذ فيهم حكم الإعدام، فإنهم سيحملون من الآن فصاعدًا ما سيُعرف بـ "أثر التمرد"، والذي نقله إليهم التنين الذي تولى تنفيذ عدالة الملك. وتجسيدًا لرحمة مليكنا العظيم، سيُجندون جميعًا للخدمة في قطاع راكبي التنانين المرموق في باسجياث، ليتسنى لهم إثبات ولائهم لمملكتنا، إما بخدمتهم أو بموتهم.»

– الملحق 4.2، معاهدة أريتيا



الفصل الثاني والثلاثون

العبور فوق المتراس الصخري في يوم التجنيد هو مخاطرة مؤكدة.

أما عبوره بزي رسمي، حافية القدمين، في جنح الظلام؟ هذا هو الجنون بعينه.

كانت الأقدام العشرة الأولى، طالما أنني لا أزال داخل الأسوار، هي الأيسر، ولكن ما إن بلغتُ الحافة، حيث تعبث الرياح بتنورتي كشراع قارب، حتى بدأتُ أشكك في خطتي. سيكون من الصعب الوصول إلى زايدن إن هويتُ لملاقاة حتفي.

لكنني ألمحه جالسًا على بُعد ثلث المسافة تقريبًا على ذلك الجسر الحجري الضيق، شاخصًا ببصره نحو القمر، وكأن ضوءه يزيده ثقلًا على ما يحمله من أعباء، فاعتصر الألم قلبي. لقد حُفرت أرواح المئة والسبعة الموشومين في ظهره،

متقبلًا المسؤولية عنهم جميعًا. ولكن من يأخذ على عاتقه مسؤوليته هو – من يعتني به؟

الجميع على الضفة الأخرى من الوادي يحتفلون بموت والده، وهو هنا يرثيه وحيدًا. حين مات بريندان، كان لدي ميرا وأبي، أما زايدن فلم يكن لديه أحد.

أنتِ لا تعرفينني حقًا. ليس في جوهري. أليس هذا ما أجابني به حين أخبرته أنني سأقع في حبه في النهاية؟ وكأن معرفته ستجعلني بشكل ما أرغبه بدرجة أقل، لكن كل ما أكتشفه عنه لا يزيدني إلا سقوطًا أسرع وأعمق.

يا إلهي. أنا أعرف هذا الشعور. وإنكاره لن يجعله أقل حقيقة. مشاعري هي ما هي عليه. لم أتهرب من تحدٍ منذ أن عبرت هذا المتراس قبل عام، ولن أبدأ الآن.

في المرة الأخيرة التي وقفتُ فيها هنا، كنتُ أرتعد رعبًا، لكن المسافة الفاصلة عن الأرض ليست ما يسرع نبضي الآن. فهناك أكثر من طريقة للسقوط. تبًا. هذا الوجع في صدري يشتعل بقوة تفوق الطاقة التي تسري في عروقي.

أنا واقعة في حب زايدن.

لا يهم أنه سيرحل قريبًا، أو أنه على الأرجح لا يبادلني المشاعر ذاتها. لا يهم حتى أنه حذرني من الوقوع في حبه. ليست مجرد افتتان، أو كيمياء جسدية بيننا، أو حتى الرابط الذي يجمع تنينينا هو ما يجعلني أمد يدي بكل السبل الممكنة نحو هذا الرجل. بل هو قلبي المتهور.

لقد أبقيتُ نفسي بعيدة عن سريره –خارج ذراعيه– لأنه مُصر بعناد على ألا أقع في حبه، لكن تلك السفينة قد أبحرت منذ زمن طويل، فما الجدوى من التراجع إذن؟ ألا يجدر بي التشبث بكل لحظة يمكننا قضاؤها معًا بينما لا يزال هنا؟

أخطو خطوتي الأولى على الجسر الحجري الضيق وأبسط ذراعيّ لحفظ توازني. الأمر أشبه تمامًا بالسير على طول عمود تايرِن الفقري، وهو ما فعلته مئات المرات.

باستثناء أنني أرتدي فستانًا.

وأن تايرِن لن يلتقطني إن هويت.

سيستشيط غضبًا حين يعلم أنني فعلت هذا–

قاطعني تايرِن ذهنيًا:

'أنا غاضب بالفعل.'

التفت رأس زايدن بحدة نحوي وقال:

– «يا ڤيولينس؟»

أخطو خطوة، ثم أخرى، محتفظة بانتصاب جسدي بفضل ذاكرة عضلية لم أكن أمتلكها العام الماضي، وأبدأ في العبور.

أرجح زايدن ساقيه للأعلى ثم قفز واقفًا على قدميه، وصرخ:

– «استديري وعودي أدراجكِ في هذه اللحظة!»

ناديتُه بصوت يعلو فوق عويل الرياح، متشبثة بتوازني حين ضربت عاصفة تنورتي ضد ساقيّ:

– «تعال معي.»

وتمتمتُ في نفسي بينما أواصل السير:

– «كان يجدر بي ارتداء السروال.»

كان قد بدأ بالفعل بالتقدم نحوي، بخطوات واسعة وواثقة وكأنه يسير على أرض صلبة، مبتلعًا المسافة الفاصلة بيننا بينما أتقدم ببطء حتى التقينا.

سألني وهو يحكم قبضتيه على خصري:

– «ما الذي تفعلينه هنا بحق الجحيم؟»

كان يرتدي درع الطيران الجلدي، لا الزي الرسمي، ولم يسبق له أن بدا أكثر وسامة.

ما الذي أفعله هنا؟ أنا أجازف بكل شيء للوصول إليه. وإن صدني... لا. لا مكان للخوف على المتراس الصخري.

أجبته:

– «يمكنني أن أوجه لك السؤال ذاته.»

اتسعت عيناه وقال:

– «كان من الممكن أن تسقطي وتلقي حتفكِ!»

ابتسمتُ، لكن ابتسامتي كانت مهتزة، وقلت:

– «ويمكنني أن أقول الشيء ذاته.»

كانت النظرة في عينيه جامحة، وكأنه دُفع متجاوزًا النقطة التي يمكنه فيها احتواء نفسه خلف ذلك القناع الأنيق واللامبالي الذي يرتديه عادة في العلن.

لم يخفني ذلك. أنا أفضله حين يكون حقيقيًا معي على أية حال.

انحنى مقتربًا فقفز نبضي وهو يسأل:

– «وهل توقفتِ لتفكري في أنكِ إن سقطتِ ومتِ، فقد أموت أنا أيضًا؟»

قلتُ بنعومة وأنا أضع يديّ على صدره الصلب، فوق دقات قلبه مباشرة:

– «مجددًا، يمكنني أن أقول الشيء ذاته.»

حتى وإن لم يكن موت زايدن كفيلًا بقتل سجايل، لستُ واثقة من أنني كنتُ لأنجو من ذلك.

تصاعدت الظلال، أشد حلكة من الليل الذي يحيط بنا.

– «أنتِ تنسين أنني أوجه الظلال يا ڤيولينس. أنا في أمان تام هنا كما لو كنتُ في الباحة. هل كنتِ ستوجهين البرق لتخفيف سقطتكِ؟»

حسنًا. نقطة وجيهة.

اعترفتُ:

– «أنا... ربما لم أفكر في هذا الجزء بعمق كما فعلتَ أنت.»

أردتُ أن أكون قريبة منه، فاقتربت، وليذهب المتراس الصخري إلى الجحيم.

قال وأصابعه تشتد على خصري:

– «ستكونين هلاكي حقًا. عودي من حيث أتيتِ.»

لم يكن ذلك رفضًا، ليس مع النظرة التي يرمقني بها. لقد كنا نتنازل عاطفيًا طوال الشهر الماضي، بل ولفترة أطول من ذلك، ولا بد لأحدنا أن يكشف عن عنقه للآخر. أنا أثق به أخيرًا بما يكفي لأعلم أنه لن يوجه الضربة القاضية.

قلت:

– «لن أعود إلا إن عدتَ معي. أريد أن أكون حيثما تكون.»

وأنا أعني ذلك حقًا. يمكن للجميع– يمكن لكل شيء آخر في العالم أن يتلاشى ولن أكترث طالما أنني معه.

همس:

– «يا ڤيولينس...»

اندفعت الكلمات من فمي بينما يخفق قلبي وكأنه يحاول التحليق:

– «أعلم لماذا قلت إنك لا ترى مستقبلًا لنا.»

قال:

– «حقًا؟»

بالطبع لن يسهل الأمر. لست متأكدة حتى ما إذا كان هذا الرجل يدرك معنى السهولة.

قلتُ وأنا أنظر مباشرة في عينيه:

– «أنت تريدني. ولا، أنا لا أتحدث فقط عن السرير. أنت. تريدني يا زايدن ريورسون. قد لا تقولها، لكنك تفعل ما هو أفضل وتثبتها بأفعالك. تثبتها في كل مرة تختار فيها أن تثق بي، وفي كل مرة تتلكأ فيها نظراتك في عينيّ. تثبتها مع كل حصة تدريب قتالية لا تملك وقتًا لها، وكل درس طيران يسحبك بعيدًا عن دراستك. تثبتها حين ترفض لمسي خوفًا من ألا أكون راغبة بك حقًا، ثم تثبتها مجددًا حين تقتطع من وقتك لتبحث عن زهور البنفسج قبل اجتماع القيادة كي لا أستيقظ لأجد نفسي وحيدة. أنت تثبتها بمليون طريقة مختلفة. أرجوك، لا تنكر ذلك.»

تصلب فكه، لكنه لم ينكر.

تابعتُ:

– «أنت تظن ألا مستقبل لنا لأنك خائف من ألا يعجبني حقيقتك خلف كل تلك الجدران التي شيدتها. وأنا خائفة أيضًا. يمكنني الاعتراف بذلك. أنت ستتخرج. وأنا لا. سترحل في غضون أسابيع قليلة، وربما نحن نمهد الطريق لانفطار قلبينا. لكن إن سمحنا للخوف بقتل أيًا كان هذا الذي بيننا، فنحن لا نستحقه.»

رفعتُ يدي لألامس مؤخرة عنقه وأضفت:

– «لقد أخبرتك أنني أنا من سيقرر متى أكون مستعدة للمخاطرة بقلبي، وها أنا أقولها الآن.»

الطريقة التي ينظر بها إليّ، بذلك المزيج من الأمل والتوجس الذي يغمر كياني حاليًا، تمنحني الحياة المطلقة.

قال وهو يهز رأسه:

– «أنتِ لا تعنين ذلك.»

وها هو يعود، ليمتص تلك الحياة مجددًا.

أكدتُ له:

– «أنا أعنيه حقًا.»

بدأ يقول:

– «إن كان هذا بسبب مسألة إيموجين–»

قاطعته وأنا أهز رأسي، فتتلاعب الرياح بالتموجات التي أمضت كوين وقتًا طويلًا في تصفيفها:

– «ليس الأمر كذلك. أعلم أنه لا توجد أي امرأة أخرى. لم أكن لأعبر المتراس الصخري في منتصف الليل لو ظننتُ أنك تتلاعب بي.»

قطب حاجبيه، وسحبني أقرب نحو دفء جسده وقال:

– «إذن ما الذي دفعكِ حتى للتفكير في ذلك؟ عليّ أن أعترف، لقد أثار ذلك غضبي. لم أمنحكِ أي سبب على الإطلاق لتظني أنني في سرير أي شخص آخر.»

مما يعني أنه في سريري أنا فقط.

أجبته:

– «شكوكِ الخاصة والطريقة التي نظرت بها إليك وأنت تواجه غاريك. قد لا تكنّ لها أي مشاعر، لكنها بالتأكيد تكنّ لك الكثير. أنا أعرف تلك النظرة. إنها النظرة ذاتها التي أرمقك بها حين أراقبك.»

توردت وجنتاي خجلًا. كان بإمكاني تغيير الموضوع أو التهرب، لكن إخفاء مشاعري لن يخدم علاقتنا –إن كانت هذه علاقة حقًا– حتى وإن جعلتني تلك المشاعر غير المنطقية أبدو ضعيفة.

كبح ابتسامته وقال:

– «أنتِ تغارين.»

اعترفتُ:

– «ربما.»

ثم قررتُ أن هذه الإجابة فاترة ولا تكفي.

– «حسنًا. أجل. إنها قوية وشرسة وتمتلك تلك النزعة القاسية ذاتها التي تمتلكها أنت. لطالما ظننتُ أنها خيار أنسب لك.»

هز رأسه وقال:

– «أعرف هذا الشعور جيدًا. وأنتِ أيضًا قوية وشرسة وتمتلكين نزعة قاسية. ناهيكِ عن أنكِ أذكى شخص التقيته في حياتي. ذلك العقل الذي تمتلكينه مثير بحق الجحيم. أنا وإيموجين مجرد أصدقاء. ثقي بي، لم تكن تنظر إليّ، وحتى لو كانت...»

توقف لبرهة، وانزلقت يده لتهدئ مؤخرة رأسي بينما يثبتنا في مكاننا رغم هبات الرياح.

– «فليساعدني الآلهة، أنا لا أنظر إلى أحد سواكِ.»

كان الأمل مسكرًا أكثر من أي شراب قُدم في الحفل. فسألته:

– «لم تكن تنظر إليك؟»

أجابني رافعًا حاجبيه، منتظرًا أن أتوصل للاستنتاج الصحيح:

– «لا. أعيدي التفكير فيما قلتِه للتو ولكن أخرجيني من المعادلة.»

استوعبتُ الأمر واتسعت عيناي:

– «لكن على بساط النزال... إنها تكنّ مشاعر لغاريك.»

قال:

– «تستوعبين الأمور بسرعة، أليس كذلك؟»

أجبته:

– «أجل. هل انتهيتَ من دفعي بعيدًا؟»

تراجع قليلًا، باحثًا في عينيّ تحت ضوء القمر قبل أن يختلس نظرة من فوق كتفي ويسأل:

– «وهل انتهيتِ أنتِ من تعريض نفسكِ للخطر لإيصال فكرتكِ؟»

أجبتُ:

– «على الأرجح لا.»

تنهد وقال:

– «ليس هناك سواكِ، يا ڤيولينس. هل هذا ما كنتِ بحاجة لسماعه؟»

أومأتُ برأسي.

وتابع، متشبثًا كالصخر بينما تعصف الرياح حولنا:

– «حتى حين لا أكون معكِ، ليس هناك سواكِ. في المرة القادمة، اسألي وحسب. لم تترددي يومًا في أن تكوني صريحة بفظاظة معي. بل إنني أذكر أنكِ رميتِ خناجر باتجاه رأسي، وهو ما أفضله بكثير على رؤيتكِ تتخبطين في أفكاركِ. إن كنا سنمضي في هذا الطريق، فعلينا أن نثق ببعضنا البعض.»

حبستُ أنفاسي وسألته:

– «وأنت تريد المضي في هذا الطريق؟»

تنهد تنهيدة طويلة وعميقة، ثم اعترف:

- «أجل.»

انزلقت يده للأعلى، وداعب وجنتي بإبهامه.

- «لا يمكنني أن أقطع لكِ أي وعود، يا ڤيولينس. لكنني سئمتُ من مقاومة هذا.»

أجل. لم يسبق لكلمة واحدة أن عنت لي الكثير هكذا. ثم رمشتُ، مسترجعة تعليقه السابق حول الغيرة. فسألته:

- «ماذا تقصد بأنك تعرف شعور الغيرة جيدًا؟»

اشتدت يداه على خصري، وأشاح بنظره.

قلتُ، مصممة ألا أكون الوحيدة التي تكشف عن ضعفها على هذه الحافة:

- «أوه لا، إن كان عليّ أن أثق بك وأخبرك بما أفكر فيه، فإنني أتوقع المثل منك.»

تذمر، ساحبًا نظراته لتعود وتلتقي بنظراتي وقال:

- «رأيتُ آيتوس يقبلكِ بعد يوم التصفية وكدتُ أفقد صوابي تمامًا.»

لو لم أكن واقعة في حبه بالفعل، لكان هذا الاعتراف كفيلًا بدفعي للهاوية. سألته:

- «كنت ترغب بي حينها؟»

اعترف:

- «لقد رغبتُ بكِ منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناي عليكِ، يا ڤيولينس. وإن كنتُ فظًا معكِ اليوم... حسنًا، إنه مجرد يوم سيء.»

قلت:

- «أتفهم ذلك. وأنت تعلم أن داين وأنا مجرد أصدقاء، أليس كذلك؟»

قال وهو يمرر إبهامه على امتلاء شفتي:

– «أعلم أن هذا هو ما تشعرين به، رغم أنني لم أكن متيقنًا حينها. الآن، أعيدي مؤخرتكِ إلى أرض صلبة.»

إنه يود البقاء هنا ليغرق في أحزانه.

قلتُ وأنا أقبض بأصابعي على قماش درعه الجلدي، مستعدة لسحبه معي إن لزم الأمر:

– «تعال معي.»

هز رأسه وأشاح بنظره وقال:

– «لستُ في حالة تسمح لي بالاعتناء بأي شخص الليلة. وأجل، أعلم أن هذا قول بشع، خاصة وأنه يصادف ذكرى فقدان برينان–»

قاطعته وأنا أزلق يديّ على طول ذراعيه:

– «أعلم. تعال معي يا زايدن.»

انسدلت كتفاه، والحزن الذي يتخلل الهواء بيننا شكّل غصة في حلقي وهو يقول:

– «ڤاي...»

تراجعتُ من بين ذراعيه وأمسكتُ بيديه وقلت:

– «ثق بي. هيا.»

مرت لحظة من الصمت المتوتر قبل أن يومئ برأسه مرة واحدة، متقدمًا ليثبتني بينما أستدير.

قلت له:

– «أنا أبرع بكثير في هذا مما كنتُ عليه في يوليو الماضي.»

أجابني، وبقي قريبًا، واضعًا إحدى يديه على خصري بينما أقطع الجزء الأخير من المتراس:

– «هذا ما أراه. وفي فستان لعين.»

قلتُ من فوق كتفي، وأنا على بُعد أقدام قليلة من الجدار:

– «إنه تنورة في الواقع.»

تذمر قائلًا، ولم يمنعني من القيام بحركة متعجرفة كالقفز في الأقدام القليلة المتبقية سوى الخوف الملموس في نبرته:

– «أبقِ عينيكِ للأمام!»

وما إن أصبحنا داخل حدود الجدار، حتى سحبني بقوة نحوه، ليلتصق ظهري بصدره، وزمجر بصوت خفيض ضد أذني، مرسلًا قشعريرة على طول عمودي الفقري:

– «إياكِ أن تخاطري بحياتكِ مجددًا من أجل شيء تافه كالتحدث إليّ.»

مازحته وأنا أتقدم للأمام وأشبك أصابعي بأصابعه ليتبعني:

– «سيكون العام القادم ممتعًا للغاية.»

تمتم قائلًا:

– «سيكون ليام هنا العام القادم ليتأكد من أنكِ لا تقومين بأي حماقات.»

وعدته وأنا أقفز القدم الأخير من المتراس إلى الباحة بالأسفل:

– «ستستمتع بقراءة رسائله.»

توقفتُ ونظرتُ حولي في الباحة الخاوية بينما أرتدي حذائي مجددًا.

– «هاه. كان غاريك وبودهي هنا قبل قليل.»

قال:

– «من المرجح أنهما يدركان أنني سأقتلهما لسماحهما لكِ بالخروج إلى هناك. فستان يا سورنجيل؟ بجدية؟»

أمسكتُ بيده وتوجهنا عبر الباحة.

سألني، وبدا صوته وكأنه ذلك الوغد الذي التقيته في اليوم الأول:

– «إلى أين نحن ذاهبان؟»

أجبته من فوق كتفي ونحن نقترب من مبنى السكن:

– «ستأخذني إلى غرفتك.»

– «سأفعل ماذا؟»

فتحتُ الباب، ممتنة للأضواء السحرية التي جعلت من السهل رؤيته الآن، بابتسامته الساخرة وكل شيء. وقلت:

– «ستأخذني إلى غرفتك.»

انعطفتُ يسارًا، وقدته متجاوزين الرواق المؤدي إلى غرفتي، ثم بدأنا صعود الدرج الحلزوني الواسع.

حاول الجدال:

– «سيلمحنا أحدهم. لستُ قلقًا على سمعتي يا سورنجيل. أنتِ طالبة سنة أولى وأنا قائد جناحكِ–»

ذكرته ونحن نصعد متجاوزين الباب المؤدي لرواق طلاب السنة الثانية:

– «أنا متأكدة تمامًا أن الجميع يعلمون بالفعل – لقد أحرقنا نصف الغابة في تلك الليلة. هل تعلم أنني في المرة الأولى التي صعدتُ فيها هذا الدرج مع داين، كنتُ مرعوبة لعدم وجود درابزين؟»

سألني وهو يصعد الدرجات خلفي، بينما تتلوى الظلال من الجدار وكأنها تستشعر مزاجه ولا تريد أي جزء منه. لكن ظلاله لا تخيفني. لم يعد هناك أي شيء في هذا الرجل يخيفني بعد الآن، سوى حجم مشاعري تجاهه.

– «وهل تعلمين أنني لا أطيق سماع اسمه على شفتيكِ وأنتِ تقودين الطريق إلى غرفتي؟»

ابتسمتُ باتساع حين بلغنا طابق السنة الثالثة، ودفعتُ الباب المقوس المفتوح وقلت:

– «المغزى هو، انظر إليّ الآن. أكاد أرقص على المتراس الصخري بفستان.»

رد وهو يتبعني إلى الرواق:

– «ربما ليس هذا هو الوقت الأنسب لتذكيري بذلك.»

كان الرواق يشبه طابق السنة الثانية، باستثناء وجود أبواب أقل وسقف مقبب وعالٍ.

سألته:

– «أيها غرفتك؟»

تمتم وهو يُبقي أصابعي مشبوكة بأصابعه بينما نمشي إلى نهاية الرواق الطويل للغاية:

– «كان يجدر بي أن أجعلكِ تخمنين.»

بالطبع هي الغرفة الأخيرة.

سخرتُ قائلة:

– «الجناح الرابع. دائمًا ما يأخذ أبعد مسافة.»

فك تعاويذه الوقائية وفتح بابه، ثم تراجع ليسمح لي بالدخول أولًا وقال:

– «سأضطر إما لوضع تعاويذ وقائية على باب غرفتكِ الجديدة قبل مغادرتي، أو تعليمكِ كيف تفعلين ذلك خلال الأيام العشرة القادمة.»

لم أكن أفكر في الموعد النهائي المقترب لرحيله وأنا أخطو داخل غرفته للمرة الأولى. إنها ضعف مساحة غرفتي – وكذلك السرير. النجاة للسنة الثالثة تأتي مع امتيازات جدية. أو ربما يعكس الحجم رتبته، من يدري.

كانت الغرفة نظيفة بشكل لا تشوبه شائبة، وتحوي كرسيًا كبيرًا بذراعين بجوار السرير، وسجادة رمادية داكنة، وخزانة خشبية عريضة، ومكتبًا مرتبًا، ورف كتب أثار حسدي على الفور. احتل رف سيوف المساحة المجاورة للباب، مزودًا بعدد من الخناجر يفوق قدرتي على إحصائه، وفي الجهة المقابلة للمساحة، بجوار المكتب، يقف هدف تصويب مطابق للذي أملكه في غرفتي. كانت هناك طاولة وكراسي في الزاوية، ونافذته تطل على باسجيات، لكنها كانت محاطة بستائر سوداء سميكة تحمل شعار الجناح الرابع في الأسفل.

قال من عند المدخل:

– «نعقد أحيانًا اجتماعات قيادة للأقسام هنا.»

استدرتُ لأجده يراقبني بعيون فضولية، وكأنه ينتظر مني أن أُصدر حكمًا على مساحته. مشيتُ متجاوزة رف السيوف، وتركتُ أصابعي تلامس مقابض الخناجر المختلفة وسألته:

– «كم عدد التحديات التي فزتَ بها على أية حال؟»

أجاب وهو يخطو للداخل ويغلق الباب خلفه:

– «السؤال الأفضل هو كم عدد التحديات التي خسرتها.»

تمتمتُ وأنا أشق طريقي نحو السرير، المكسو باللون الأسود تمامًا كسريري:

– «ها هو الغرور الذي أعرفه وأحبه كثيرًا.»

انخفض صوته وقال:

– «هل أخبرتكِ كم تبدين فاتنة الليلة؟ إن لم أفعل، فأنا أحمق، لأنكِ فائقة الجمال.»

صعدت الحرارة إلى وجنتي، وتقوست شفتي في ابتسامة.

– «شكرًا لك. والآن، اجلس.»

وربتُّ على حافة سريره.

ارتفع حاجباه متفاجئًا:

– «ماذا؟»

أمرته وأنا أحدق فيه:

– «اجلس.»

قال:

– «لا أريد التحدث عن الأمر.»

قلت:

– «لم أطلب منك ذلك.»

لا داعي لأسأل عما يعنيه، ولن أسمح لما حدث قبل ست سنوات تقريبًا أن يدق إسفينًا بيننا، ولا حتى لليلة واحدة.

ولدهشتي المطلقة، فعل ما طلبته، وجلس على حافة سريره. مدد ساقيه الطويلتين أمامه، ومال للخلف قليلًا مستندًا على كفي يديه وسأل:

– «وماذا الآن؟»

تحركتُ لأقف بين فخذيه وخللتُ أصابعي في شعره. أغمض عينيه ومال برأسه نحو لمستي، وأقسم أنني شعرتُ بقلبي ينفطر من فرط الحب.

– «الآن سأعتني بك.»

فتحت عيناه فجأة، ويا للآلهة، كم هما جميلتان. لقد حفظتُ كل بقعة ذهبية في تلك الأعماق العقيقية، وهذا من حسن حظي، إذ لا أعلم أين سيُرسل بعد التخرج. فرؤيته مرة كل بضعة أيام لا تعادل أبدًا قدرتي على لمسه في أي وقت أشاء.

سحبتُ يدي من شعره، وركعتُ على ركبتيّ أمامه.

بدأ يقول:

– «ڤيوليت–»

ابتسمتُ بمكر وأنا أفك أربطة أحدهما، ثم الآخر، وأخلعهما وقلت:

– «أنا أخلع حذاءك فقط.»

نهضتُ وحملتُ حذائه نحو الخزانة.

اندفع قائلًا:

– «بإمكانكِ تركهما هناك وحسب.»

وضعتهما على الأرض بجوار الخزانة وعدتُ أدراجي.

– «لم أكن أنوي التطفل والتنقيب في ملابسك، وليس وكأنني لم أرها كلها من قبل على أية حال.»

تسمرت نظراته على تنورتي، وتزداد حرارتها في كل مرة تكشف فيها الفتحة عن جزء من فخذي. وسأل:

– «هل كنتِ ترتدين هذا طوال الليل؟»

مازحته وأنا أقف بين فخذيه مجددًا:

– «هذا ما تجنيه من السير خلفي.»

رفع ذقنه لينظر إليّ وقال:

– «لا يمكنني التذمر من المنظر من الخلف أيضًا.»

أمرته وأنا أفك صف الأزرار القطرية عبر صدره:

– «ابقَ هادئًا ودعني أخلع هذا عنك.»

خلع سترته الجلدية فسألته:

– «هل كنتَ تحلق الليلة؟»

أومأ برأسه بينما أنحني لأضع السترة على الكرسي.

– «عادة ما يساعدني ذلك. هذا اليوم دائمًا ما يكون...»

نظرتُ في عينيه وأنا أقولها، آملة أن يدرك مدى صدقي بينما أعود لأفك قميصه:

– «أنا آسفة.»

رفع ذراعيه، فسحبتُ القميص ووضعته مع سترة الطيران، وأجاب:

– «وأنا آسف أيضًا.»

حافظتُ على نظراتي في عينيه وأنا أحتضن زوايا وجهه القاسية بكفيّ، ثم تتبعتُ الندبة التي تشطر حاجبه وقلت:

– «ليس لديك ما تتأسف عليه. تحدٍ؟»

هز كتفيه وأجاب:

– «سجايل. يوم التصفية.»

قلتُ شاردة الذهن، بينما تنزلق يدي نحو أسفل عنقه:

– «معظم التنانين تترك ندوبًا على ركابها، لكن تايرِن وأندارنا لم يؤذياني قط.»

مرر أصابعه على طول الندبة الفضية الطويلة على ذراعي من نصل تاينان وقال:

– «أو ربما أدركا أنكِ تحملين ندبة بالفعل. أردتُ أن أقتلهم بحق الجحيم. وعوضًا عن ذلك، اضطررتُ للوقوف هناك ومراقبتهم يهاجمونكِ ثلاثة ضد واحدة. كنتُ على حافة فقدان السيطرة ومستعدًا للتدخل حين هبط تايرِن.»

ذكرته:

– «أصبحوا اثنين ضد واحدة بمجرد أن هرب جاك. ولم يكن بإمكانك التدخل. إنه مخالف للقواعد، أتذكر؟»

لكنه اتخذ تلك الخطوة. تلك الخطوة اليتيمة التي أخبرتني أنه كان ليفعل.

ارتفع أحد جانبي فمه في واحدة من أكثر الابتسامات الساخرة والمثيرة التي رأيتها في حياتي وقال:

– «في نهاية المطاف، خرجتِ من هناك بتنينين.»

ثم تلاشت ابتسامته وأضاف:

– «بعد أسبوعين من الآن، لن أكون هنا حتى لأراقبكِ حين تتعرضين لتحدٍ، ناهيكِ عن فعل أي شيء حياله.»

وعدته:

– «سأكون بخير. من لا أستطيع التغلب عليه في تحدٍ، سأقوم ببساطة بتسميمه.»

لم يضحك.

انحنيتُ وقبلتُ الندبة على حاجبه وقلت:

– «هيا، دعنا نأخذك إلى السرير. سيكون يومًا جديدًا حين تستيقظ.»

طوق خصري بذراعه وسحبني أقرب إليه وقال:

– «أنا لا أستحقكِ. لكنني سأحتفظ بكِ على أية حال.»

ملتُ نحوه ومررتُ شفتي على شفتيه وقلت:

– «جيد. لأنني أعتقد أنني وقعتُ في حبك.»

خفق قلبي بعنف، ومزق الذعر قفصي الصدري. لم يكن يجدر بي قول ذلك.

اتسعت عيناه واشتدت ذراعاه حولي وسأل:

– «تعتقدين؟ أم أنكِ متيقنة؟»

تحلي بالشجاعة.

حتى وإن لم يبادلني الشعور ذاته، على الأقل سأكون قد صدحتُ بحقيقتي.

أجبته:

– «أنا متيقنة. أنا غارقة في حبك بجنون لدرجة أنني أعجز عن تخيل كيف ستبدو حياتي بدونك فيها. وربما لم يكن يجدر بي قول ذلك، لكن إن كنا سنمضي في هذا، فسنبدأ من نقطة صدق مطلق.»

سحق فمه على فمي وسحبني بالكامل إلى حضنه لأجلس مفرجة ساقيّ فوقه. قبلني بعمق لدرجة أنني ضعتُ فيه، وفي تلك القبلة. لم تكن هناك أي كلمات بينما يخلع وشاحي، وسترتي، ويفك أزرار تنورتي، كل ذلك دون أن يقطع القبلة.

قال ضد شفتي:

– «قفي.»

تسارع نبض قلبي وهمست:

– «زايدن.»

أجاب بحدة:

– «أحتاجكِ بحق الجحيم يا ڤيوليت. الآن. وأنا لا أحتاج لأي شخص، لذا لستُ متأكدًا تمامًا من كيفية التعامل مع هذا الشعور، لكنني أبذل قصارى جهدي. وإن كنتِ لا تريدين هذا الليلة، فلا بأس، لكنني سأحتاج منكِ أن تخرجي من هذا الباب الآن، لأنكِ إن لم تفعلي، فسأجردكِ من ملابسكِ وأطرحكِ على ظهركِ في الدقيقتين القادمتين.»

الحدة في عينيه وقوة كلماته كان ينبغي أن تخيفني، لكنها لم تفعل. حتى وإن فقد هذا الرجل كل ذرة من سيطرته على نفسه، أعلم يقينًا أنه لن يؤذيني أبدًا. ليس بجسده، على الأقل.

توسلني:

– «ارحلي أو ابقي، لكن في كلتا الحالتين، أحتاج منكِ أن تقفي.»

اختلستُ نظرة إلى درعي وقلت:

– «أعتقد أن دقيقتين هي مبالغة في تقدير مهاراتك في التعامل مع المشد.»

ابتسم ورفعني من حضنه.

لامست قدماي الأرض وقلت:

– «سأقوم بتوقيتك.»

سأل:

– «هل هذا–»

رفعتُ أصابعي وبدأتُ العد:

– «واحد. اثنان. ثلاثة.»

كان واقفًا على قدميه في غمضة عين، ثم استحوذ فمه على فمي، وتوقفتُ عن العد. كنتُ مشغولة جدًا بتتبع حركات لسانه، واستشعار تموج عضلاته تحت أطراف أصابعي، لأكترث بحق الجحيم أين ستنتهي ملابسي.

شعرتُ باندفاع الهواء ضد ساقيّ حين سقطت تنورتي على الأرض، فساعدته بخلع حذائي بينما أمتص لسانه.

تأوه، وتطايرت يداه على ظهري. ارتخت الأربطة في وقت قياسي، وسقط المشد على الأرض، تاركًا إياي بملابسي الداخلية فقط، إذ لم يكن هناك مساحة لارتداء الكثير تحت ذلك الزي الرسمي.

سقطت الخناجر، خناجره وخناجري، على الأرض حين فك الأغماد المثبتة على فخذي وفك أغماده. كان تناغمًا رائعًا من أصوات المعدن حتى تجردنا كلانا من ملابسنا، وبدأ يقبلني حتى سلب أنفاسي.

ثم تخللت يداه شعري، وتطايرت الدبابيس حتى انسدل الشعر بحرية على ظهري، غير مقيد. تراجع قليلًا فقط لفترة تكفي ليمرر نظراته الجائعة على طول جسدي وقال:

– «فاتنة بحق الجحيم.»

بدأتُ أقول:

– «أعتقد أن ذلك استغرق أكثر من دقيقـ–»

لكنه أمسك بمؤخرة فخذي ورفعني، مطيحًا بقدميّ من تحتي. اصطدم ظهري بالسرير بارتداد خفيف، وبصراحة، كان يجدر بي أن أتوقع هذه الحركة بالنظر إلى أنه كان يطرحني على ظهري طوال العام الماضي تقريبًا.

سأل وهو يجثو على ركبتيه بجوار السرير ويسحبني عبر الغطاء الناعم نحو الحافة:

– «لا تزالين تعدين؟»

مازحته حين اصطدمت مؤخرتي بحافة السرير:

– «هل تحتاجني لتسجيل النقاط؟»

ابتسم وقال:

– «خدي راحتك.»

وقبل أن أتمكن من نطق كلمة أخرى، كان فمه بين فخذي.

سحبتُ نفسًا حادًا وألقيتُ رأسي للخلف مستسلمة للذة الخالصة من حركة لسانه.

– «أوه يا للآلهة.»

سأل ضد لحمي:

– «باسم من تصرخين؟ لأنه ليس في هذه الغرفة سواي أنا وأنتِ يا ڤاي، وأنا لا أشارك.»

تشابكت أصابعي في شعره وأجبت:

– «أنت. أنا أصرخ باسمك أنت.»

قال:

– «أقدر ترفيعي لمقام الآلهة، لكن اسمي سيفي بالغرض.»

رفع فخذي ليضعهما على كتفيه، واستقر وكأنه ليس لديه مكان آخر ليذهب إليه الليلة.

ثم افترسني تمامًا بلسانه وأسنانه.

النشوة، ساخنة وملحة، تلتف كالحلزون في معدتي، وضعتُ في غمرة الإحساس، يرتفع خصري وينخفض بينما أطارد تلك الذروة التي يدفعني نحوها مع كل طعنة خبيرة من لسانه.

ارتجفت فخذاي وتشنجت عضلاتي حين حرك أصابعه بالتزامن مع لسانه. لقد غاب عقلي، أصبحتُ ببساطة بلا عقل.

تدفقت الطاقة عبري كطوفان، ممتزجة باللذة حتى أصبحتا شيئًا واحدًا، وحين دفعني عبر حافة النسيان، صرختُ باسمه بينما انطلقت تلك الطاقة كالسوط مع كل موجة من موجات ذروتي.

دوى الرعد، ليرج الزجاج في نوافذ غرفة زايدن.

قال وهو يطبع قبلاته صعودًا على جسدي المرتخي:

– «هذه واحدة. رغم أنني أعتقد أن علينا العمل على إخفاء عرض الألعاب النارية، وإلا سيعرف الناس دائمًا ما نفعله.»

هززتُ رأسي حين انزلقت يداه تحتي، ليحركنا نحو منتصف سريره وقلت:

– «فمك... لا توجد كلمات لوصف ذلك.»

همس وشفتاه تمران على سطح معدتي:

– «لذيذ. أنتِ لذيذة بشكل مطلق. لم يكن يجدر بي الانتظار كل هذا الوقت لأضع فمي عليكِ.»

شهقتُ حين امتص قمة ثديي داخل فمه، يجلد لسانه حلمتي ويداعبها بينما يعبث بالأخرى بين إبهامه وسبابته، مشعلًا نارًا جديدة تمامًا في داخلي، مبنية على جمر النار الأولى.

بحلول الوقت الذي وصل فيه إلى عنقي، كنتُ أتلوى كشعلة تحته، ألمس كل جزء منه أستطيع الوصول إليه، ممررة يديّ على ذراعيه، وظهره، وصدره. يا للآلهة، هذا الرجل مذهل، كل خط فيه نُحت للمعركة وبُني من خلال القتال والمبارزة بالسيوف.

التقت شفاهنا في قبلة عميقة، وتذوقتُ طعم كلينا فيها بينما سحبتُ ركبتيّ للأعلى، لتستقر وركاه تمامًا حيث ينبغي لهما أن تكونا – بين فخذي.

تأوه:

– «ڤيوليت.»

وشعرتُ برأسه عند مدخلي.

مازحته وأنا أقوس خصري لينزلق ضدي، مما جعل أنفاسي تتعثر مع الحركة:

– «ألا أحصل على وقت متساوٍ للعب؟»

عض شفتي السفلى وقال:

– «بإمكانكِ اللعب قدر ما تشائين لاحقًا إن أمكنني الحصول عليكِ الآن.»

أجل، هذه خطة يمكنني الموافقة عليها.

أجبته:

– «أنا لك بالفعل.»

اصطدمت نظراته بنظراتي وهو يحوم فوقي، مسندًا وزنه ليمنع نفسه من سحقي. وقال:

– «أنتِ تمتلكين كل ما أملك لأقدمه.»

هذا يكفي... في الوقت الحالي. أومأتُ برأسي، وقوست خصري مجددًا.

وعيناه معلقتان بعينيّ، اندفع داخلي بحركة طويلة من خصره، ملتهمًا كل إنش ثم أخذ إنشًا آخر حتى استقر بعمقه الكامل. الضغط، والتمدد، واحتواؤه لي كان شعورًا يفوق الوصف.

قلتُ وأنا أدير خصري لأنني لم أستطع منع نفسي:

– «شعوركِ رائع بحق الجحيم.»

ابتسم مستخدمًا كلماتي السابقة ضدي:

– «ويمكنني أن أقول الشيء ذاته عنكِ.»

قاسٍ، وعميق، وبطيء، حدد إيقاعًا جعلني أقوس ظهري مع كل دفعة بينما نلتحم معًا مرارًا وتكرارًا.

دفعنا إلى أعلى السرير، فأسندتُ ذراعيّ إلى اللوح الأمامي لأستمد منه قوة دفع لألبي كل غطسة من خصره. يا للآلهة، كل دفعة أفضل من سابقتها. وحين حثثته على التحرك أسرع، رمقني بابتسامة ماكرة وأخذني بالإيقاع ذاته المذهل الذي يخطف الأنفاس.

وقال:

– «أريد لهذا أن يدوم. أحتاج لهذا أن يدوم.»

أجبته:

– «لكنني...»

تلك النار في مركزي مشدودة كزنبرك، ومستعدة للانفجار لدرجة أنني أكاد أتذوق حلاوة تحررها.

قال وهو يندفع للأمام مجددًا، فتأوهتُ من روعة الشعور:

– «أعلم.»

– «فقط ابقي معي.»

عدل الزاوية، وضغط على ركبتي للأمام، ليأخذني بعمق أكبر.

لن أنجو من هذا. سأموت هنا في هذا السرير.

وعدني وهو يقبلني:

– «إذن سأموت معكِ.»

لقد ضعتُ تمامًا، لدرجة أنني لم أدرك حتى أنني نطقتُ كلماتي بصوت مسموع، ثم تذكرتُ أنه لم يكن عليّ ذلك.

قلت:

– «المزيد. أحتاج للمزيد.»

غلت الطاقة تحت بشرتي وقُفلت ساقاي حوله.

قال:

– «لقد أوشكتِ. تبًا، انقباضكِ حولي مذهل بحق الجحيم. لن أكتفي من هذا أبدًا، لن أكتفي منكِ أبدًا.»

قلت:

– «أنا أحبك.»

كانت الكلمات متحررة بشكل لا يُصدق، حتى وإن لم يبادلني إياها.

التمعت عيناه، وانفلتت سيطرته وهو يضربني بقوة، وانفجرت تلك اللذة الملتفة بينما انطلقت قواي مجددًا، متفرقعة عبر الغرفة، ومتحطمة كالزجاج حين

ألقى بوزنه إلى الجانب، ساحبًا إياي معه بينما يندفع نحو ذروته، متأوهًا في جانب عنقي بينما تركتني الموجات الأخيرة من نشوتي أرتجف ضده.

مرت دقائق طويلة قبل أن تستقر أنفاسنا، وقبل نسيم خفيف فخذي الملقاة فوق فخذه.

سأل وهو يبعد شعري عن وجهي:

– «هل أنتِ بخير؟»

أجبته:

– «أنا رائعة. أنت رائع. كان ذلك...»

اقترح:

– «رائعًا؟»

– «بالضبط.»

قال وأصابعه تتشابك في شعري:

– «كنتُ سأستخدم كلمة 'متفجر'، لكن أعتقد أن 'رائع' تفي بالغرض. أنا أعشق شعركِ بحق الجحيم. إن أردتِ يومًا أن تركعيني على ركبتيّ أو أن تنتصري في أي نقاش، فما عليكِ سوى إسداله. وسأفهم الرسالة.»

ابتسمتُ حين حفت الرياح خصلات شعري التي تتدرج من البني إلى الفضي.

مهلًا. لا يُفترض أن يكون هناك نسيم.

هوت معدتي حين استندتُ على مرفقي لأنظر من فوق كتف زايدن.

قلتُ ويدي تغطي فمي حين لمحتُ الدمار:

– «أوه لا، لا، لا. أنا متأكدة تمامًا أنني نسفتُ نافذتك.»

ضحك وقال:

– «ما لم يكن هناك شخص آخر يلقي بصواعق البرق هنا، فأجل، لقد كنتِ أنتِ. أرأيتِ ما أعنيه؟ متفجر.»

شهقت. لهذا السبب ألقى بنفسه جانبيًا، ليحميني من حطامي الخاص.

اعتذرت:

– «أنا آسفة جدًا.»

مسحتُ بنظري على الأضرار، لكن لم يكن هناك سوى الرمال على السرير.

– «سيتعين عليّ السيطرة على هذا الأمر.»

طمأنني وهو يسحبني مجددًا لقبلة:

– «لقد رفعتُ درعًا. لا تقلقي حيال ذلك.»

سألته:

– «ماذا سنفعل؟»

إصلاح نافذة أمر مختلف تمامًا عن استبدال خزانة.

أجاب وهو يمسح شعري عن وجهي مجددًا:

– «الآن؟ كانت هذه هي الجولة الثانية، إن كنا لا نزال نعد، وأنا أقول فلننظف المكان، وننفض الرمال عن السرير، ونصل بكِ إلى الجولة الثالثة، وربما الرابعة إن كنتِ لا تزالين مستيقظة.»

سقط فكي ذهولًا:

– «بعد أن حطمتُ نافذتك للتو؟»

ابتسم وهز كتفيه وقال:

– «لقد قمتُ بتأميننا في حال قررتِ تدمير الخزانة ذات الأدراج تاليًا.»

تأملتُ جسده، واشتعلت رغبتي به مجددًا. كيف لا، وهو يبدو وكأن الآلهة قد باركته، ويبدو لي وكأن الآلهة قد باركتني به؟

أجبته:

– «أجل، فلننتقل للجولة الثالثة.»

كنا في طريقنا للجولة الخامسة، ووركي بين يدي زايدن بينما أمتطيه ببطء، حين مررتُ أصابعي على الدوامات السوداء لأثر التمرد على عنقه. لستُ متأكدة كيف لا يزال أي منا قادرًا على التحرك، ومع ذلك يبدو أننا نعجز عن التوقف الليلة، نعجز عن الاكتفاء.

قلتُ له وأنا أرتفع فقط لأغوص مجددًا، آخذة إياه بعمق داخلي:

– «إنه حقًا جميل.»

التمعت عيناه الداكنتان حين انقبضت يداه.

– «كنتُ أعتبره لعنة، لكنني أدرك الآن أنه هبة.»

قوس خصره، ليضربني بزاوية مذهلة.

سألته:

– «هبة؟»

يا للآلهة، إنه يسلبني القدرة على التفكير.

دوى طرق على الباب.

زمجر زايدن وهو يمد يده على ظهري ويشتبك بكتفي ليسحبني للأسفل لتلقي دفعته التالية:

– «اغرب عن وجهي بحق الجحيم!»

سقطتُ للأمام، كاتمة أنيني في عنقه.

جاء صوت يحمل من الندم ما يكفي لأصدقه:

– «أتمنى حقًا لو كان بإمكاني ذلك.»

رد زايدن:

– «من الأفضل أن يكون أحدهم قد مات إن كنتُ سأغادر هذا السرير يا غاريك.»

زمجر غاريك مجيبًا:

– «أعتقد أن هناك الكثير من القتلى، ولهذا السبب استدعوا القطاع بأكمله للتشكيل، أيها الأحمق!»

جفلنا كلانا، أنا وزايدن، والتقت نظراتنا في صدمة. انزلقتُ من فوقه، فغطاني زايدن بغطائه قبل أن يدس ساقيه في درعه الجلدي ويخطو واسعًا نحو الباب.

سأل من خلال فتحة صغيرة في الباب:

– «عما تتحدث بحق الجحيم؟»

أجاب غاريك:

– «احمل درع الطيران الخاص بك، ومن الأفضل أن تحضر سورنجيل معك أيضًا. نحن نتعرض لهجوم.»

«إن العجز عن ترويض قدرة سحرية جبارة لا يقل خطورة على الراكب –وعلى كل من يحيط به– عن عدم تجلي أي قدرة سحرية على الإطلاق.»

– دليل الرائد أفيندرا لقطاع راكبي التنانين (نسخة غير مصرح بها)



الفصل الثالث والثلاثون

لم يسبق لي أن ارتديتُ ملابسي بهذه السرعة الخاطفة طوال حياتي، حتى أنني لم أُكلف نفسي عناء تثبيت أغماد فخذي. سألتُ زايدن وأنا أسحب فستاني الرسمي وحذائي وأنفخ خصلات شعري المتمردة عن وجهي:

– «كم الساعة؟»

دعوة إلزامية وعاجلة للتشكيل الطابوري للقطاع بأكمله تعني الانصياع فورًا.

التعاويذ الوقائية تنهار. كم نافاريًا سنفقد هذه المرة؟

أجابني زايدن وهو ينتهي من ربط حذائه، مدججًا بالسلاح حتى أسنانه بينما أجمع أغمادي، شبه متيقنة من ضياع أحدها:

– «الرابعة والربع.»

وأضاف:

– «ستتجمدين من البرد في الخارج.»

طمأنته وأنا أجثو على ركبتيّ باحثة عن الخنجر المفقود، ثم أسحبه من حزام غمده قبل أن أنهض مجددًا:

– «سأكون بخير.»

قال زايدن وهو يرمي بإحدى سترات الطيران الخاصة به فوق كتفيّ، محتجزًا شعري تحتها:

– «خذي هذه. إن كان غاريك محقًا ونحن نتعرض لهجوم، فتخميني أنهم سيكلفون الركاب الأقدم سنًا بتعزيز نقاط الحراسة الوسطى، لذا لن تطول وقفتكِ في التشكيل. لا أطيق فكرة أن تقاسين البرد.»

مما يعني أنه سيغادر.

شقلب قلبي بينما أدس ذراعيّ بخرق في أكمام سترته. سيكون بأمان، أليس كذلك؟ ستكون مجرد مهمة في الحصون الوسطى، وهو أقوى راكب في القطاع بأسره.

وبينما تمتلئ يداي بالأسلحة، لم أمانع تزريره للسترة فوق صدري.

كوب وجهي بكفيه وقال:

– «يجب أن نلتحق بالتشكيل. وإن اضطررتُ للمغادرة، فلا تقلقي. أنا واثق أن سجايل ستسحبني عائدًا في غضون أيام قليلة.»

انحنى وطبع قبلة قوية وخاطفة على شفتي، وأردف:

– «رغبتي بكِ ستكون هلاكي. دعينا نذهب.»

أفضل ما في كلية حربية تغرق في فوضى عارمة وتامة؟ أن لا أحد يلاحظ حين أتسلل من غرفة قائد جناحي لأندمج في بحر الركاب، الذين ينهمكون جميعًا في ارتداء ملابسهم للحاق بالتشكيل الطابوري. الجميع يعملون بطاقة الأدرينالين، مشتتين تمامًا بمحاولة ترتيب أمورهم لدرجة تمنعهم من ملاحظة ما أفعله أو اللمسة الخاطفة ليد زايدن ليدي قبل أن يتجه نحو القيادة المجتمعة بالقرب من المنصة في الباحة.

ولستُ الوحيدة التي لا تزال ترتدي زيها الرسمي.

كانت الرياح تلسع ببرودتها حين وقفتُ في مكاني في التشكيل، لكن سترة زايدن على الأقل أبقت شعري محتجزًا بعيدًا عن وجهي.

تذمر ريدوك وهو يأخذ مكانه خلفي في التشكيل:

– «من الأفضل أن يكون هذا الاستدعاء لأمر يستحق، لأنني كنتُ أخيرًا أُجرب حظي مع تلك المعالجة السمراء الفاتنة.»

وقف ليام عن يميني، ولا يزال يزرر ياقة زيه الرسمي.

سألته:

– «ليلة سعيدة إذن؟»

تمتم ووجنتاه تكتسيان بحمرة خفيفة تحت ضوء القمر:

– «لا بأس بها.»

سألتُ نادين بينما تتقدم لتأخذ مكانها أمامي:

– «هل رأى أحدكم داين؟»

أجابتني من فوق كتفها بالتزامن مع ركض ريانون نحونا:

– «جميع قادة الفرق مجتمعون مع القيادة.»

أطلقت ريانون تثاؤبًا واسعًا، ثم اختلست نظرة إليّ وحدقت بذهول للحظة، قبل أن تقترب وتهمس:

– «ڤيوليت سورنجيل، هل ترتدين سترة الطيران الخاصة بـ ريورسون؟»

التفت رأس ليام نحوي بحدة؛ تباً لسمعه الحاد اللعين.

اصطنعتُ الصدمة ببراعة رديئة، وشرعتُ في حشر الأغماد في كل جيب متاح في هذه السترة –الجيوب الثلاثة جميعها أعمق بكثير من تلك الموجودة في سترتي– وسألتها:

- «وما الذي يجعلكِ تظنين ذلك؟»

نقرت بإصبعها على موضع لا يحمل سوى نجمة واحدة على زيها الرسمي وأجابت:

- «أوه، لا أدري. ربما لأنها تبتلعكِ حجمًا وهناك ثلاث نجوم هنا؟»

حسنًا، تباً. هذا يثبت فقط أن أيًا منا لم يكن يفكر بصفاء.

هززتُ كتفيّ وقلت:

- «قد تكون لأي طالب من السنة الثالثة.»

رفعت حاجبًا وسألت:

- «وتحمل شعار الجناح الرابع على الكتف؟»

وافقتها الرأي:

- «هذا يضيق دائرة الاحتمالات قليلًا.»

مازحتني:

- «وتحمل شارة قائد جناح أسفل تلك النجوم؟»

همستُ بسرعة حين اعتلى القائد بانشيك المنصة، متبوعًا بوالد داين وقادة الأجنحة:

- «حسنًا، إنها له.»

زايدن بارعٍ بحق الجحيم في إبقاء عينيه بعيدتين عني، لكنني لا أستطيع ادعاء المثل، خاصة وأنه من شبه المؤكد أنه سيُرسل بعيدًا بينما لا أزال أستشعر طعم فمه على بشرتي.

ابتسمت ريانون باتساع وقالت:

- «كنتُ أعلم ذلك! أخبريني أنه رائع.»

توردت وجنتاي وامتعض وجهي قائلة:

– «لقد كسرتُ نافذته.»

قطبت حاجبيها وسألت:

– «هل تقصدين... أنكِ رميتِ شيئًا عليها؟»

اختلستُ نظرة نحو المنصة وأجبت:

– «لا. أقصد، ضرب البرق... كثيرًا، فحطمتُ نافذته. وانظري، ها هو ذا يقف هناك الآن، هادئًا، باردًا، ومسيطرًا تمامًا على نفسه.»

انقبض صدري وأنا أتساءل: أيهما هي نسخته الحقيقية؟ تلك التي تقف هناك، تسيطر على كل شيء ببرود، متأهبة لقيادة جناحها؟ أم تلك التي استقبلتها داخلي قبل أقل من نصف ساعة؟ تلك التي صرحت بأنها لا تستحقني لكنها ستحتفظ بي على أية حال؟

بدا زايدن أي شيء سوى مسرور، والتقطت نظراته نظراتي لجزء من الثانية وقال:

'مناورات ألعاب الحرب اللعينة.'

اجتاحني الارتياح وعدم التصديق بمقدار متساوٍ.

سألته:

'هل تمزح معي؟ لقد سُحبنا من أسرتنا من أجل ألعاب الحرب؟'

أجاب ببرود:

'لا.'

ابتسمت ريانون وقالت:

– «يا إلهي، أتمنى لو أن أحدهم يدفعني لتحطيم النوافذ.»

التفتُّ نحوها داحرجة عينيّ:

– «أوه أرجوكِ، لقد حظيتِ بأكثر من–»

قالت ريانون وهي تسند ذراعها على كتفي، متدلية يدها بسرعة فوق ترقوتي لتخفي شارة ورتبة زايدن:

– «مرحبًا يا آيتوس. صباح الخير، هاه؟»

رمق داين ريانون بنظرة توحي بأنه يظنها قد أسرفت في الشرب وهو يقترب من الفرقة، وأجاب:

– «ليس حقًا، لا.»

ثم مرر بنظره على بقيتنا وأردف:

– «أعلم أن الوقت مبكر... أو متأخر، حسبما أمضيتم ليلتكم، لكننا تدربنا طوال العام من أجل هذه اللحظة، لذا استيقظوا بحق الجحيم.»

استدار ليواجه المنصة حين تولى بانشيك المنبر.

همستُ لريانون وهي تعود للوقوف بجانبي:

– «شكرًا.»

لستُ في مزاج يسمح لي بالاستماع لداين يلقي عليّ محاضرة حول خياراتي. ليس الليلة.

صاح بانشيك وصوته يتردد عبر الباحة:

– «قطاع راكبي التنانين! مرحبًا بكم في الحدث الختامي لألعاب الحرب لهذا العام.»

سرت همهمة عبر التشكيل.

وتابع بانشيك:

– «الإنذار الذي دُويّ صُمم ليحاكي تمامًا ما كان سيحدث في حال وقوع هجوم حقيقي – لنختبر سرعة استجابتكم وحشدكم – وسنواصل هذه المناورة كما لو أنها واقع ملموس. فلو تعرضت الحدود لهجوم متزامن، وانهارت التعاويذ

الوقائية، لتم استدعاؤكم جميعًا للخدمة لتعزيز الأجنحة. العقيد آيتوس، هل تتفضل بشرف قراءة سيناريو المناورة؟»

تقدم والد داين خطوة للأمام، حاملًا لفافة في يده، وبدأ يتلو:

– «اللحظة التي طالما تخوفنا منها قد حانت. التعاويذ الوقائية التي كرسنا حيواتنا للحفاظ عليها تتهاوى، وشُن هجوم غير مسبوق ومتعدد الجبهات على طول حدودنا، ليضع قرانا تحت حصار أسراب من ركاب الغريفيون. وقد تواترت التقارير بالفعل عن وقوع خسائر بشرية هائلة بين المدنيين والمشاة، فضلًا عن مقتل العديد من الركاب.»

إنه يبالغ في الدراما بشكل ملحوظ.

وواصل، مركزًا نظره على كل جناح حتى وصل إلى جناحنا:

– «وكما كنا سنفعل لو كنتم قوة قتالية متأهبة، سنرسل أجنحتكم في كافة الاتجاهات. الجناح الرابع نحو الجنوب الشرقي. ستختار كل فرقة النقطة الأمامية التي ستعززها ضمن تلك المنطقة.»

رفع إصبعًا محذرًا وأضاف:

– «الاختيارات ستكون بأسبقية الوصول. أما قادة الأجنحة، فسيُعينون في مواقعهم لغرض تحديد مقر قيادة لهذه المناورة.»

التفت إلى كل قائد جناح، مصدرًا الأوامر، لكنه اختلس نظرة باتجاهنا – مبحثًا عن داين بلا شك– قبل أن يتجه نحو زايدن. ثمة شيء في الطريقة التي تلاشت بها ابتسامته للحظة جعل شعر مؤخرة عنقي يقف.

– «ريورسون، ستُقيم مقر قيادة الجناح الرابع في آثبين. أيها قادة الأجنحة، شكلوا فرق مقرات قيادتكم وفقًا لتقديركم الخاص، بانتقاء أي عدد تشاؤونه من الركاب ضمن أجنحتكم. اعتبروا هذا اختبارًا لمهاراتكم القيادية، إذ لا توجد قيود

في سيناريوهات العالم الحقيقي. ستتلقون الأوامر المحدثة بمجرد وصولكم إلى النقاط الأمامية التي اخترتموها لهذه المناورة التي ستستغرق خمسة أيام.»

ثم تراجع خطوة إلى الخلف.

آثبين؟ إنها تقع خارج نطاق التعاويذ الوقائية... هناك حيث نفذ زايدن مهمته السرية. بحثتُ بنظري عنه، لكنه كان يركز انتباهه على العقيد.

صاح هيتون ببهجة مرعبة وهو يمرر يده على ألسنة اللهب الأرجوانية المصبوغة في شعره:

– «خمسة أيام كاملة؟ سيكون هذا ممتعًا للغاية. سنتظاهر بخوض حرب.»

أضافت إيموجين بصوت خافت:

– «أجل، أعتقد أننا سنفعل ذلك.»

أصدر بانشيك مرسومه:

– «تمامًا كما في الحياة الواقعية، عليكم أيها قادة الفرق اتخاذ خياراتكم بسرعة، ثم التوجه إلى ميدان الطيران في غضون ثلاثين دقيقة. انصراف.»

قلت ذهنيًا:

'تايرِن.'

أجاب:

'أنا في طريقي بالفعل.'

التفت داين ليواجهنا، بينما انحنت ريانون فوق كتفي مجددًا لتخفي شارة زايدن، وقال:

– «سنستولي على النقطة الأمامية في إلتوفال، أقصى نقطة في الشمال ضمن منطقتنا المحددة. لن أسمح بأن نعلق في نقطة ساحلية بينما ندرك تمامًا أن هذا

ليس التكتيك الذي ستختاره پورروميل للهجوم. هل لدى أي منكم اعتراض على ذلك؟»

هززنا رؤوسنا نفيًا.

أضاف داين:

– «جيد، لقد سمعتم القائد. أمامكم ثلاثون دقيقة لتبديل ملابسكم، وحزم ما يمكنكم حمله لخمسة أيام، والتوجه فورًا إلى ميدان الطيران.»

انفض التشكيل وهرعنا جميعًا نحو غرفنا في مبنى السكن.

سألت ريانون بينما نشق طريقنا بصعوبة عبر زحام المتدربين المتدافعين لدخول الثكنات:

– «ماذا تعتقدين ستكون أوامرنا حين نصل إلى هناك؟ المزيد من البيوض لنبحث عنها؟»

أجبتها:

– «أعتقد أننا على وشك اكتشاف ذلك.»

استغرقني الأمر عشر دقائق للف ركبتيّ ودعم كتفيّ استعدادًا لرحلة طيران طويلة، ثم ارتداء درع الطيران الخاص بي. وتطلب الأمر خمس دقائق أخرى لفك تشابك شعري من عبث يدي زايدن وتضفيره، مما ترك لي خمس دقائق بالضبط لأحزم أمتعتي. دسستُ سترة زايدن في حقيبتي تحسبًا لتلصص أي شخص في غرفتي أثناء غيابي.

فاجأني صوت زايدن في عقلي مطالبًا:

'ارتدي كل خنجر تملكينه.'

أجبته وأنا أواصل إلقاء الأغراض في حقيبة سفري:

'أنا أرتدي اثني عشر خنجرًا بالفعل.'

قال:

'جيد.'

سألته:

'سأراك في ميدان الطيران، أليس كذلك؟'

إن غادر دون أن يودعني، فسأتعقبه وأقتله بنفسي.

كان رده مقتضبًا:

'أجل.'

أنهيتُ حزم أمتعتي وغادرتُ، لألتقي بريانون وليام في الرواق.

رافقتنا حماسة صاخبة ونحن نشق طريقنا وسط الحشود نحو ميدان الطيران، متناولين حصص الإعاشة التي يوزعها طاقم المطبخ بالقرب من الصالة المشتركة في طريقنا. من المؤكد أننا سنتناول إفطارنا في الجو.

حين وصلنا، استغرقني الأمر ثانية لأستوعب المشهد. كانت كل تنانين القطاع تملأ الميدان، متخذة التشكيل ذاته الذي نقف فيه في الباحة، ومئات من الأضواء السحرية تطفو فوقنا كنجوم متلألئة، لتضفي على المكان طابعًا أسطوريًا، وكأننا في قاعة عظيمة لا في ميدان طيران. كان المشهد ساحرًا ومخيفًا في آنٍ واحد.

امتزج التوتر بالترقب، واضطر أكثر من شخص للتقيؤ لتفريغ معدته بينما يفيض الميدان بالركاب.

قالت ريانون بوجه يفيض تصميمًا ونحن نشق طريقنا عبر الأجنحة وسط عدد لا يُحصى من التنانين المزمجرة والأسنان المطبقة:

– «سننتصر. لسنا الوحيدين الذين يشعرون بالقلق الليلة. نحن الأفضل. وسننتصر. أكاد أتذوق طعم ترقيتي لمنصب قائدة فرقة للعام القادم.»

شجعتها قائلة:

– «ستنالينها حتمًا.»

ثم التفتُّ نحو ليام ونحن نقترب من قسمنا وسألته:

– «وماذا عنك؟ هل تطمح لتمييز نفسك بالمجد لترتقي لمنصب قائد فرقة؟»

إنه مرشح مثالي بمهاراته في القتال اليدوي وعلاماته الممتازة في الفصول.

أجاب وهو يسير متصلبًا على غير عادته:

– «سنرى.»

وصلنا إلى تنانيننا، ولم أستطع إلا أن ألاحظ أن تايرِن يقف في الموقع الذي يُفترض أن يشغله كاث، مجبرًا تنين داين على التراجع للجانب بينما يقوم داين بإحصاء أفراد الفرقة. كان تنيني المغرور مسرجًا بالفعل، وأندارنا تقبع تحت جناحه.

تبًا. سيجبرون أندارنا على مجاراتنا.

كان تايرِن يوجه تعليماته لأندارنا:

'وإن تعرضنا لنيران معادية، فابحثي عن أول ساتر متاح واختبئي تمامًا كما فعلتِ في السيناريو الماضي. فحراشفكِ اللامعة ستكون وبالًا عليكِ.'

أجابت:

'حسنًا.'

سألتُ أندارنا، التي تبخترت خارجة من تحت جناح تايرِن برأس مرفوع، متباهية بجهاز يذكرني بالسرج ولكنه ليس كذلك:

– «ما هذا الذي ترتدينه؟»

أجابتني بفخر:

'قائد الجناح أمر بصنعه خصيصًا لي. أرأيتِ؟ إنه يُربط بسرَج تايرِن.'

لم يسعني سوى الابتسام حين رأيت شكل المثلث على ظهر أندارنا، والذي أنا متأكدة أنه يتطابق مع المثلث الموجود على صدر تايرِن.

قلت:

– «إنه مذهل.»

أوضحت:

'إنه مجرد إجراء احتياطي في حال عجزتُ عن مجاراتكم. الآن يمكنني مرافقتكم!'

مجرد سبب آخر يجعلني أهيم عشقًا بزايدن.

قلت:

– «حسنًا، أنا أُغرمتُ به.»

ثم التفتُّ إلى تايرِن، الذي كان مشغولًا بالزمجرة في وجه كاث ليمنحه مساحة أكبر، وسألته:

– «هل تحتاجني لربط أي شيء؟»

أجاب:

'لقد توليتُ الأمر.'

قلت:

– «أنا متأكدة من ذلك.»

ثم أدركتُ الأمر. خمسة أيام. سحقًا.

– «هل ستكونان بخير إن تم فصلكم–»

قاطعني داين صائحًا:

– «الفرقة الثانية! استعدوا للمرحلة الأولى من رحلتنا والتي ستستغرق أربع ساعات. سنحتاج للحفاظ على تشكيل متراص لأول خمس عشرة دقيقة بينما تتفرق الفرق.»

ثم اختلس نظرة باتجاهي، ثم من فوق كتفي وقال:

– «قائد الجناح؟»

استدرتُ فرأيت زايدن يتقدم نحونا بخطوات واثقة، مقابض سيفيه المثبتين على ظهره ترتفع فوق كتفيه، فانعقدت حنجرتي. كيف يُفترض بي أن أودعه أمام كل هؤلاء الناس؟ والأسوأ من ذلك، كيف ستتعامل تنانيننا مع هذا الفراق؟

تدخل تايرِن بنبرة حازمة:

'لا تقلقي أيتها الفضية. كل شيء يسير كما ينبغي له.'

سأل داين وهو ينتصب واقفًا بصرامة:

– «كيف يمكنني مساعدتك؟»

قال زايدن موجهاً حديثه إليّ:

– «أنا بحاجة إليكِ.»

اعترض داين قبل أن أتمكن حتى من الإيماء:

– «عفوًا؟»

شرحتُ لداين:

– «اهدأ، إنه يريد توديعي فقط.»

صحح زايدن وهو يومئ برأسه نحو داين:

– «إن كنتِ تودعين أحدًا، فهو هو. أنا بصدد تشكيل فرقة مقر قيادتي وأنتِ قادمة معي. وكذلك ليام وإيموجين.»

تدلى فكي ذهولًا. أنا ماذا؟

صاح داين بحدة وهو يتقدم خطوة للأمام:

– «مستحيل بحق الجحيم أن تفعل ذلك! إنها طالبة في السنة الأولى، وآثبين تقع خارج نطاق التعاويذ الوقائية.»

رمش زايدن وقال ببرود:

– «لا أسمعك تقدم لي الحجة ذاتها بشأن مايري.»

اختلستُ نظرة من فوق كتفي، وبالفعل، كان ليام يقف رافعًا ذقنه بفخر أمام ديغ. بدا وكأنه كان يتوقع هذا تمامًا.

سألتُ زايدن:

– «ما الذي يجري؟»

جادل داين وهو يطوي ذراعيه على صدره:

– «ليام هو أفضل متدرب بين طلاب السنة الأولى، حتى مع تكليفك له بمهمة حراسة ڤيوليت.»

رد زايدن، متقدمًا خطوة ليحتك ذراعه بكتفي:

– «وسورنجيل توجه البرق. ورغم أنني لست مدينًا لك بتفسير أيها الطالب في السنة الثانية، لأنني لست كذلك، إلا أن سجايل وتايرِن لا يمكن فصلهما لأكثر من بضعة أيام–»

بالطبع. الآن كل شيء يبدو منطقيًا.

قاطعه داين بحرارة:

– «على حد علمك! أم هل يمكنك أن تخبرني بصدق أن سجايل كادت تفقد صوابها حين ظهرتَ في مونتسيرات؟ أنت لم تختبر قط أقصى مدة يمكنهما تحملها منفصلين.»

سأله زايدن رافعًا حاجبًا بتهكم:

– «هل تود سؤالها بنفسك؟»

دوى زمجرة خفيضة حين تقدمت سجايل، والتهديد يلمع في عينيها. قفز قلبي إلى حنجرتي خوفًا على داين. لا يهم كم من الوقت أقضيه بقربها – هناك دائمًا جزء مني يراها كحكم إعدام محتوم كما هي.

جادل داين:

– «لا تفعل هذا. الركاب معروفون بموتهم خلال ألعاب الحرب، وهي أكثر أمانًا معي. قد يحدث أي شيء بمجرد ابتعادنا عن باسجيات، ناهيك عن أخذك لها خارج نطاق التعاويذ الوقائية.»

رد زايدن بحزم:

– «لن أمنح هذا الهراء شرف الرد عليه. هذا أمر عسكري.»

ضيق داين عينيه وقال:

– «أم أن هذه كانت خطتك منذ البداية؟ أن تفصلها عن فرقتها لتتمكن من استخدامها لإشباع رغبتك في الانتقام من والدتها؟»

هززتُ رأسي رافضة ادعاءه:

– «داين! أنت تعلم أن هذا لن يحدث أبدًا.»

رد داين متسائلًا بحدة:

– «هل أعلم حقًا؟ لقد أثار ضجة كبيرة حول مسألة إن-ماتت-أموت، ولكن هل تعرفين ذلك كحقيقة مطلقة؟ هل تعلمين يقينًا أن تايرِن لن ينجو من موتك؟ أم هل كان كل هذا مجرد حيلة لكسب ثقتكِ يا ڤيوليت؟»

سحبتُ نفسًا حادًا وقلت:

– «عليك أن تتوقف فورًا.»

قال زايدن، والغضب يستعر في صوته:

– «أرجوك، استسلم بينما لا تزال قادرًا يا آيتوس. أتريد الحقيقة؟ إنها أكثر أمانًا بحق الجحيم معي خارج التعاويذ الوقائية مما هي عليه معك داخلها. وكلانا يعلم ذلك.»

كانت النظرة في عينيه مطابقة لتلك التي في عيني سجايل، وأدركتُ حينها لماذا اختارته. كلاهما قاسٍ ولا يرحم، وكلاهما مستعد لسحق أي شيء يعترض طريقهما نحو ما يريدان.

وداين الآن يقف في طريق زايدن.

وضعتُ يدي على ذراع زايدن وقلت:

– «توقف. زايدن، توقف. إن كنت تريدني أن أرافقك، فسأفعل. الأمر بهذه البساطة.»

التقت نظراته بنظراتي، ولانت على الفور.

همس داين غير مصدق:

– «مستحيل بحق الجحيم.»

لكن همسته تردد صداها في عظامي كصاعقة برق.

استدرتُ، ساحبة يدي عن ذراع زايدن، لكن كان جليًا من تعبير داين أنه بات يدرك الآن أن هناك شيئًا يجمعني بزايدن – وأنه مجروح. هوت معدتي.

– «داين...»

اتسعت عينا داين وتورد وجهه وسأل:

– «هو؟ أنتِ و... هو؟»

هز رأسه وأضاف:

– «الناس يتهامسون، وظننتُ أن الأمر لا يتعدى كونه ثرثرة، لكنكِ...»

انسدلت كتفاه خيبة أمل.

– «لا تذهبي يا ڤيوليت. أرجوكِ. إنه سيقودكِ إلى حتفكِ.»

تقدمتُ نحو داين وقلت:

– «أعلم أنك تظن أن لزايدن دوافع خفية، لكنني أثق به. لقد سنحت له كل فرصة ممكنة ولم يؤذني قط. في مرحلة ما، عليك أن تتجاوز هذا الأمر.»

بدا داين مرعوبًا للحظة لكنه سرعان ما أخفى ذلك.

تنهد وقال:

– «إن كان هو خياركِ... فأعتقد أن عليّ الاكتفاء بذلك، أليس كذلك؟»

أومأتُ برأسي وقلت:

– «أجل.»

والحمد للآلهة أن كل هذا الهراء على وشك أن يصبح من الماضي.

ابتلع ريقه بصعوبة وانحنى ليهمس:

– «سأشتاق إليكِ يا ڤيوليت.»

ثم استدار على عقبيه وتوجه نحو كاث.

قال زايدن حين وصلتُ إلى ساق تايرنِ الأمامية:

– «شكرًا لثقتكِ بي.»

أجبته:

– «دائمًا.»

قال:

– «علينا التحليق.»

توقف لبرهة، وكأنه سيضيف شيئًا، لكنه استدار مبتعدًا بدلًا من ذلك. وبينما يتجه عائدًا نحو سجايل، لم يسعني سوى ملاحظة أن كلا الرجلين المهمين في

حياتي يبتعدان عني في هذه اللحظة، في اتجاهين متعاكسين، وبالنظر إلى من اخترتُ اتباعه، فإن حياتي على وشك أن تتغير إلى الأبد.

«إن أول هجوم معروف للغريفيون وقع في العام الأول ب.ت (أي: بعد التوحيد)، بالقرب مما يُعرف اليوم بنقطة "ريسون" التجارية. نظرًا لوقوعها على حافة الحدود المشمولة بحماية التنانين، لطالما كانت هذه النقطة عرضة للهجمات. وعلى مدى القرون الستة الماضية، تداول السيطرة عليها ما لا يقل عن إحدى عشرة مرة، في خضم ما بات يُعرف بحرب لا تنتهي لتأمين حدودنا من أعدائنا المتعطشين للسلطة.»

– "نافار: تاريخ غير منقح"، بقلم العقيد لويس ماركهام



الفصل الرابع والثلاثون

حلقنا طوال الصباح ثم امتد تحليقنا إلى فترة ما بعد الظهيرة، وحين عجزت أندارنا عن مجاراتنا، شبكت نفسها بحزام تايرِن في منتصف الرحلة. وبحلول الوقت الذي قرر فيه زايدن التحليق بمحاذاة منحدرات درالور التي يبلغ ارتفاعها آلاف الأقدام –والتي تمنح تايريندور ميزة جغرافية لا تضاهى على كل مقاطعة في المملكة، بل وعلى كل مقاطعة في القارة بأسرها حقًا– والالتفاف حولها متوجهًا نحو الجبال الواقعة شمال آثبين، كانت قد غطت في نوم عميق.

شعرتُ بجذبة مباغتة في صدري، تلتها طرقعة خفيفة حين عبرنا حاجز التعاويذ الوقائية.

قلتُ لتايرِن:

'الجو هنا يبدو مختلفًا.'

أجابني:

'خارج نطاق التعاويذ الوقائية، يكون السحر أكثر جموحًا. التواصل بين التنانين داخل نطاق التعاويذ أسهل بكثير. سيتعين على قائد الجناح أخذ هذا الأمر في الحسبان حين يقود جناحه من هذه النقطة الأمامية.'

قلت:

'أنا واثقة من أنه قد وضع ذلك في حسبانه بالفعل.'

كانت الساعة تقارب الواحدة ظهرًا حين اقتربنا من آثبين، وتوقفنا –بناءً على أوامر التنانين– عند أقرب بحيرة للنقطة الأمامية ليتسنى لها الشرب. كان سطح البحيرة أملس كالزجاج، يعكس القمم المسننة أمامنا بدقة تسلب الأنفاس، قبل أن يهبط السرب على الضفة ويرسل تموجات عبر الماء على هيئة موجات صدمية صغيرة. غابة كثيفة من الأشجار وصخور ضخمة كانت تطوق أحد أطراف البحيرة، والعشب القريب كان مداسًا، مما يعني أننا لسنا أول سرب يستريح هنا.

كنا برفقة عشرة تنانين في المجمل، ورغم أنني قد لا أميز كل واحد منها، إلا أنني أدرك تمامًا أنني وليام طالبا السنة الأولى الوحيدان في المجموعة. هبط ديغ بجوار تايرِن، فقفز ليام من مقعده وكأننا لم نمضِ للتو سبع ساعات متواصلة في التحليق.

قلتُ لهما وأنا أفك أبازيم سرجي:

– «كلاكما بحاجة للشرب وربما لتناول شيء ما.»

كان فخذاي يؤلمانني ويتقلصان، لكن الألم لم يكن بسوء ما عانيته في مونتسيرات. الساعات الإضافية التي أمضيتها في السرج خلال الشهر الماضي آتت ثمارها.

نقر تايرِن بمخلبه على أحد الأقفال، فسقطت أندارنا على الأرض محدثة دويًا مكتومًا، ثم نفضت رأسها وجسدها، وأخيرًا ذيلها.

قال تايرِن:

'وأنتِ بحاجة للنوم. لقد كنتِ مستيقظة طوال الليل.'

أجابته:

'سأنام حين تنام أنت.'

تجاوزتُ أشواكه بحذر وانزلقتُ على طول ساقه الأمامية وصولًا إلى الحافة المغطاة بالطحالب على ضفة البحيرة.

قال تايرِن:

'بإمكاني البقاء لأيام دون نوم. وأفضل ألا تطلقي صواعق البرق عشوائيًا نتيجة الحرمان من النوم.'

كانت الإجابة على طرف لساني بأن توجيه البرق يتطلب جهدًا وعناءً، لكن بعد أن حطمتُ نافذة زايدن ليلة أمس، لستُ واثقة من أنني أمتلك أي خبرة فعلية في هذا الشأن. أو ربما زايدن وحده هو من يفقدني صوابي وسيطرتي. في كلتا الحالتين، أنا شخص خطير على من حولي. من المدهش أن الأستاذ كار لم يفقد الأمل فيّ بعد.

قلتُ مغيرًا الموضوع:

– «من الغريب التواجد خارج نطاق التعاويذ الوقائية.»

انغرست مخالب تايرِن في التربة حين اقترب ليام، رافعًا عنقه عاليًا فوق كتفيه. ومن حالة الاضطراب العامة التي تسود السرب، تساءلتُ عما إذا كان هذا الشعور بالغرابة والانزعاج في الأجواء –والذي أوقف شعر مؤخرة عنقي– هو شعور يشاركونني إياه جميعًا.

نادى زايدن، وصوته يتردد عبر الفرقة:

– «نحن على بُعد عشرين دقيقة من آثبين، لذا ارتوا جيدًا! ليس لدينا أدنى فكرة عن طبيعة السيناريو الذي ينتظرنا.»

سألني ليام مقتربًا باتجاهي، بينما يخطو تايرِن وأندارنا بضع خطوات للوصول إلى الماء:

– «هل أنتِ بخير؟»

أمرتُ أندارنا:

'ابقي قريبة من تايرِن.'

إنها هدف لامع ومغرٍ، خاصة ونحن بعيدون جدًا عن حماية الوادي.

أجابت:

'سأفعل.'

يا للآلهة، كان ينبغي لي تركها في باسجيات. ما الذي كنتُ أفكر فيه بحق الجحيم حين أحضرتها إلى هنا؟ إنها مجرد طفلة، ورحلة الطيران هذه كانت مرهقة للغاية.

أنبني تايرِن:

'لم يكن القرار بيدكِ يومًا. البشر، حتى المرتبطين منهم، لا يملكون حق إملاء مسار التنانين. حتى تنينة يافعة كأندارنا تملك إرادتها الخاصة.'

لم تمنحني كلماته سوى القليل من المواساة. في نهاية المطاف، أنا المسؤولة عن سلامتها.

سأل ليام، وقد جعد القلق حاجبيه:

– «فيوليت؟»

أجبته:

– «إن قلتُ إنني لستُ واثقة، هل سيقلل ذلك من شأني في عينيك؟»

هناك طرق لا تُحصى للإجابة على هذا السؤال. جسديًا، أشعر بالألم لكنني بخير، أما ذهنيًا... حسنًا، أنا كتلة من القلق والترقب لما ستجلبه ألعاب الحرب. لقد حُذرنا من أن القطاع يفقد دائمًا عشرة بالمئة من دفعته الخريجة في الاختبار النهائي، لكن الأمر يتجاوز ذلك. لا أستطيع تحديد ماهية هذا الشعور بدقة.

قال:

– «بل سأظن أنكِ تتحلين بالصدق المطلق.»

اختلستُ نظرة إلى اليسار، فرأيتُ زايدن منغمسًا في محادثة عميقة مع غاريك. بطبيعة الحال، اختار زايدن قائد القسم ليكون جزءًا من فرقته الشخصية.

نظر زايدن باتجاهي، والتقت أعيننا للحظة واحدة، وكانت تلك اللحظة كافية لتذكير جسدي بأنني حظيتُ به عاريًا قبل بضع ساعات فقط، مستشعرة خطوط عضلاته المنحوتة تلتصق ببشرتي. أنا واقعة في حب هذا الرجل بجنون. كيف يُفترض بي أن أُخفي ذلك عن ملامح وجهي؟

كوني مهنية فحسب. هذا كل ما عليكِ فعله. رغم أن الوعي المفرط بكل كلمة نطقها وكل فعل قام به منذ مغادرتنا غرفته يجعلني مثالًا حيًا يجسد بوضوح سبب منع طلاب السنة الأولى من النوم مع قادة أجنحتهم، ناهيك عن الوقوع في حبهم. من حسن الحظ أنه لن يظل قائد جناحي سوى لأسبوع إضافي أو نحو ذلك.

حذرني زايدن ذهنيًا دون أن يلتفت إليّ:

'استمري في النظر إليّ بتلك الطريقة وسنضطر للتوقف لأكثر من نصف ساعة.'

سألته:

'أتعدني بذلك؟'

التفتت نظراته نحوي بحدة، وأقسم أنني رأيته يبتسم فعلًا قبل أن يعود للالتفات نحو غاريك.

سألني ليام، مباغتًا إياي:

– «هل أنتِ متأكدة أنكِ بخير مع كل ما يجري هناك؟»

أجبته والابتسامة ترتسم على شفتي، مكررةً ردي السابق:

– «وإن أخبرتك أنني لست واثقة؟»

تلاشت أي مسحة من المزاح عن وجهه وهو يقول:

– «لظننتُ أنكِ ورطتِ نفسكِ في أمر يفوق قدرتكِ على التعامل معه.»

قلتُ وأنا ألقي بحقيبتي أرضًا وأدلك عضلات كتفيّ المتوترة:

– «بالنسبة لشخص ادعى أنه يدين لزايدن بكل شيء، فهذه ليست بالضبط توصية حماسية. لا تتقمص شخصية داين أمامي الآن.»

سألني زايدن ذهنيًا:

'هل أنتِ بخير؟'

أجبته:

'بخير. مجرد ألم طفيف.'

آخر ما أريده هو أن أكون عبئًا عليه.

قال ليام متجهمًا:

– «ليس هذا هو القصد. الأمر وما فيه أنني أدرك تمامًا ماهية أولوياته.»

قلتُ بصوت خافت لئلا يسمعنا الآخرون:

– «أنا متأسفة حقًا لأنك سُحبت إلى هنا بسببي. كان يجدر بك أن تكون في أحد حصون الوسط مع داين، لا أن تُجر خارج نطاق التعاويذ الوقائية. العقيد

آيتوس رجل منصف، لكنني لا أشك لحظة في أن هذا التعيين كان مقصودًا لـ "منح قائد الجناح الموشوم ما يستحقه".»

أنهيتُ جملتي بتقليد متقن لوالد داين، فدحرج ليام عينيه استنكارًا.

مازحني بابتسامة، مظهرًا غمازتيه وهو يضرب وركه بوركي بخفة:

– «لستُ خائفًا، ولا أحد يجرني، وصدقي أو لا تصدقي يا ڤيوليت، أحيانًا أوامري لا تتمحور حصريًا حولكِ. لدي مهارات أخرى كما تعلمين.»

قلتُ بصدق تام:

– «لم أنسَ يومًا مدى روعتك يا ليام.»

سعل بحرج، فأشرتُ له بيدي مبعدة إياه وقلت:

– «والآن، أحتاج إلى لحظة من الخصوصية.»

انحنى ليام ملوحًا بيده وكأنه يقدمني للغابة خلفنا، فانطلقتُ أشق طريقي نحو أعماقها المظللة.

حين عدتُ إلى ضفة البحيرة، ابتعد زايدن عن غاريك، واقترب مني مادًا يده نحوي.

ارتفع حاجباي ذهولًا. هل سـ... لا. لن يجرؤ. ليس أمام ثمانية متدربين آخرين.

شبك أصابعه بأصابعي. أخمن أنه سيفعل. لم يكن مجرد تلامس بشرتنا هو ما جعل نبضي يتسارع. بل حقيقة أنه يكسر قاعدته الخاصة.

اختلستُ نظرة ذات مغزى نحو تجمع الآخرين، الذين كانوا في درجات متفاوتة من الاسترخاء على الضفة، لكن يدي اشتدت حول يده.

قال وهو يقودني نحو مجموعة من الصخور الضخمة، يكاد ارتفاعها يبلغ ضعف طوله، على الجانب الآخر من البحيرة:

– «لن يتفوه أي منهم بكلمة واحدة عنكِ – أو عنا. أنا أأتمن كل شخص هنا على حياتي.»

قلت:

– «الناس يتهامسون. دعهم يفعلون.»

لستُ خجلة من حبي له، وبإمكاني التعامل مع أي ثرثرة خبيثة قد تطالني.

انقبض فكه وقال:

– «تقولين هذا الآن. هل شربتِ ما يكفي؟ أو أكلتِ؟»

أجبته:

– «أحضرتُ كل ما أحتاجه في حقيبتي. لا داعي للقلق بشأني.»

مرر إبهامه على ظهر يدي وقال:

– «القلق بشأنكِ يشغل تسعة وتسعين بالمئة من وقتي. حين نصل إلى النقطة الأمامية، أريدكِ أن ترتاحي بمجرد تلقينا لهدف السيناريو الخاص بنا. سيبقى ليام معكِ، بينما سآخذ طلاب السنة الثالثة في دورية على الأرجح.»

احتججتُ على الفور:

– «أريد المساعدة.»

ألم يكن هذا هو سبب إحضاره لي؟ من أجل برقي؟ صحيح أنني لست مرشحة للفوز بأي جوائز في دقة التصويب، لكن مع ذلك.

قال:

– «ستفعلين، بعد أن تأخذي قسطًا من الراحة. يجب أن تكوني في ذروة قوتكِ لتوجيه تلك القدرة السحرية، وإلا ستخاطرين بالاحتراق الداخلي. طاقة تايرِن هائلة جدًا.»

كانت حجته منطقية، لكن هذا لا يعني أن عليّ تقبلها برحابة صدر.

بمجرد أن ابتعدنا عن أنظار الآخرين، دفعني لتسند ظهري إلى أكبر الصخور، ثم انخفض ليجلس القرفصاء أمامي.

سألته وأنا أمرر أصابعي في شعره لمجرد أنني أستطيع ذلك:

– «ما الذي تفعله؟»

حقيقة أنني أمتلك امتياز لمس هذا الرجل تذهلني تمامًا، وأنا عازمة على استغلال هذا الامتياز إلى أقصى حد طالما استطعت.

بدأ من ربلتي ساقيّ، مفككًا العقد العضلية بمهارة يديتيه القويتين وقال:

– «ساقاكِ متصلبتان.»

كانت لمساته تبعث شعورًا بالانحلال اللذيذ. فقلت:

– «أفترض أنه لا يمكننا المغادرة حتى تكون التنانين مستعدة على أية حال، أليس كذلك؟»

رمقني بابتسامة ماكرة وقال:

– «صحيح. أمامنا عشر دقائق أخرى أو نحو ذلك.»

عشر دقائق. بالنظر إلى أننا لا نملك أدنى فكرة عما يخبئه لنا بقية اليوم، يسعدني تمامًا استغلال أي وقت متاح لنا.

تأوهتُ حين ذابت عضلاتي وتهاوى رأسي ليستند إلى الصخرة.

– «هذا يؤلم بطريقة رائعة حقًا. شكرًا لك.»

ضحك وهو يواصل طريقه صعودًا نحو العضلات المشدودة في فخذي، وقال:

– «ثقي بي، دوافعي ليست نبيلة على الإطلاق، يا ڤيولينس. سأختلق أي عذر يتيح لي وضع يديّ عليكِ.»

خدشت اللحية الخفيفة على وجنتيه باطن كفيّ حين مررتُ يديّ على جانبي وجهه لأحتضن مؤخرة عنقه، وقلت:

– «الشعور متبادل، وأكثر.»

تغير إيقاع أنفاسه حين بلغ قمة فخذي، وأصابعه تدلك عضلاتي لتخضعها تمامًا. وقال:

– «أنا آسف بشأن ما حدث هذا الصباح.»

سألته:

– «بشأن ماذا؟»

نظر إليّ، فالتقط ضوء الشمس البقع الذهبية في عينيه، ورفع حاجبه الموشوم بندبة وقال:

– «كنا في منتصف شيء ما، إن كنتِ قد نسيتِ.»

ارتسمت ابتسامة بطيئة على وجهي وقلت:

– «أوه، أنا أذكر تمامًا.»

كان الزر العلوي لسترته الجلدية مفتوحًا، فأمسكتُ بالقماش وجذبته نحوي. متى سيهدأ هذا التوق المستمر له؟ لقد نلته عدة مرات خلال الأربع وعشرين ساعة الماضية، وما زلتُ مستعدة لجولة أخرى... أو ثلاث.

وسألته:

– «هل من الخطأ أن أتمنى لو كان لدينا الوقت للإكمال؟»

نهض، وكل منحنى في جسده يلامس جسدي في طريقه للأعلى، وقال:

– «لست متأكدًا من أنني سأكتفي يومًا. أنا طماع جدًا بحق الجحيم عندما يتعلق الأمر بكِ.»

أمال رأسه فوق رأسي، ومحا بقية العالم بقبلة بطيئة وفاخرة. انزلق لسانه بين شفتي المفتوحتين ليلامس لساني، وكأنه لا يملك أي خطط أخرى لهذا اليوم سوى حفظ كل زاوية في فمي.

اشتعل جسدي بأكمله، ثم بدأ يغلي حين طبع قبلات متتالية هبوطًا على حنجرتي. أحاط خصري بكفه، ساحبًا منحنياتي لتلتصق بصلابة جسده، فذبتُ تمامًا في بوتقة من الحرارة والحاجة. كان قلبي يقرع بعنف لدرجة بدا وكأنه خفقات أجنحة تصم أذنيّ. يا للآلهة، لن أكتفي من هذا أبدًا.

تأوه وانزلقت إحدى يديه نحو مؤخرتي، وقال:

– «أخبريني بما تفكرين فيه.»

طوقتُ ذراعيّ حول عنقه وأجبته:

– «كنت أفكر في أنك تمامًا كما توقعتك في المرة الأولى التي أخذتني فيها في غرفتي.»

تراجع قليلًا، وفضول يلمع في عينيه، وسأل:

– «أوه حقًا؟ وما كان ذلك التوقع تحديدًا؟»

أجبته:

– «إدمان خطير للغاية.»

مررتُ نظري على الخط الفضي لندبته، وتلك الرموش الكثيفة التي قد تقتل العديد من النساء للحصول عليها، والنتوء الطفيف في أنفه، وصولًا إلى ذلك الفم المنحوت بمثالية. لقد أخبرته بالفعل أنني أحبه، لذا ليس وكأنني أخفي أسرارًا هنا. بحق الجحيم، مقارنة به، أنا كتاب مفتوح. وأضفت:

– «ويستحيل إشباعه.»

أظلمت عيناه وقال، تمامًا كما وعد الليلة الماضية، أو هل كان ذلك هذا الصباح؟:

– «سأحتفظ بكِ. أنتِ ملكي يا ڤيوليت.»

رفعتُ ذقني وأجبته:

– «فقط إن كنت أنت ملكي.»

قال، وكأن الكلمات قد حررته من قيده:

– «لقد كنتُ ملككِ منذ وقت أطول مما تتخيلين أبدًا.»

أمسك بمؤخرة عنقي وقبلني بقوة وعمق، سارقًا كل نفس مني، وكل فكرة تتجاوز حدود لسانه وطوفان الحاجة الذي يغمر بشرتي بالحرارة.

انتزع زايدن فمه فجأة بشهقة، قاطعًا القبلة، وأمال رأسه إلى الجانب وكأنه يصغي لشيء ما.

سألته وقد تصلب جسده بين ذراعيّ:

– «ما الخطب؟»

اتسعت عيناه وعاد بنظراته لتلتقي بنظراتي وقال:

– «تبًا. ڤيوليت، أنا آسف جـ–»

قاطعه صوت امرأة من خلفه، صوتها مخملي لكنه يحمل خشونة طريق غير ممهد:

– «هل هذه حقًا هي الطريقة التي تمضون بها وقتكم أيها ركاب التنانين؟»

استدار بسرعة خاطفة حتى أنه بدا كطيف غير واضح. طوقتني الظلال، كثيفة كغيمة رعدية.

لم أعد أرى شيئًا بحق الجحيم.

صرخ أحدهم:

– «زايدن!»

وسمعتُ صوت عدة أقدام تقتحم الأحراش بقوة. هل هو بودهي ربما؟

قالت المرأة بنبرة حادة:

– «من الحماقة إخفاء ما بات مكشوفًا بالفعل. وإن صدقت الشائعات، فلا يوجد سوى راكب واحد بشعر فضي في كليتكم التي تفوح منها رائحة الموت، مما يعني أن هذه هي ابنة الجنرال سورنجيل الصغرى.»

لعن زايدن وقال:

– «تبًا. أحتاج منكِ أن تحافظي على هدوئكِ، يا ڤيولينس.»

هدوئي؟ انقشعت الظلال، فتركتُ يديّ مرتخيتين على جانبيّ، متأهبة لاستلال خنجر أو توجيه قدرتي إن لزم الأمر، وخطوتُ جانبًا لأتجاوز زايدن وأتمكن من الرؤية.

يقف زوج من ركاب الغريفيون في المرج على بُعد نحو ثلاثين قدمًا، وخلفهما وحشاهما في صمت مريب. كان حجم الغريفيون يعادل ثلث حجم تنانيننا، لكن تلك المناقير والمخالب بدت قادرة على تمزيق الجلد والحراشف بالضراوة ذاتها.

صرختُ ذهنيًا:

'تايرِن!'

أجابني:

'أنا قادم.'

أمرتُ أندارنا:

'ابقي مع سجايل.'

ردت أندارنا:

'الغريفيون يبدون كوجبة شهية من هنا.'

قلت لها بحزم:

'إنهما بحجمكِ تمامًا. لا.'

تمتمت المرأة، التي بدت أكبر مني ببضع سنوات فقط، لكنها تحمل سمات راكب متمرس:

– «سورنجيل لعين.»

رفعت حاجبًا داكنًا، ورمقتني بنظرة وكأنني قذارة تحتاج للتجريف من إسطبل خيول.

ملأ دوي خفقان الأجنحة الهواء حين اقتحم حفنة من ركاب التنانين المساحة المحيطة بنا. إيموجين. بودهي. طالب في السنة الثالثة أذكر ندبة شفته. ليام. لكن لم يمد أي منهم يده نحو سلاحه.

على الأقل، الكفة تميل لصالحنا الآن. تمددت الطاقة تحت بشرتي، فشرعتُ باب الأرشيف على مصراعيه، تاركة الطاقة تتدفق عبري في سيل من الحرارة الحارقة. بدأت السماء تتشقق وتتفرقع.

صاح زايدن، مستديرًا ليسحبني بقوة نحو صدره، ومطوقًا إياي بذراعيه ليثبت ذراعيّ إلى جانبيّ:

– «لا!»

قاومته ملقية بثقلي ضده، لكن بلا جدوى. لقد قيدني بإحكام تام:

– «ما الذي تفعله؟»

هبت عاصفة من الرياح على جانبي الأيمن إثر هبوط تايرِن.

قالت المرأة بذهول:

– «يا للآلهة، هذا ضخم حقًا.»

من خلف ذراع زايدن الثابتة، رأيتُ ركاب الغريفيون يتراجعون بخطوات سريعة، وعيونهم تتسع ذعرًا وهم ينظرون للأعلى.

رفع زايدن يده ليحتضن مؤخرة عنقي حين نظرتُ إليه. ما الذي يفعله بحق الجحيم؟ هل يودعني بقبلة قبل أن نموت؟

قال والرجاء في عينيه يتركني مصدومة:

– «إن كنتِ قد وثقتِ بي يومًا يا ڤيوليت، فأنا بحاجة لثقتكِ هذه الآن.»

أعداؤنا يقفون على بُعد أقدام، وهو يود... أن نحظى بلحظة رومانسية؟

بحث في عينيّ عن إجابة لسؤال لم يُطرح بعد، وقال:

– «ابقي هنا. حافظي على هدوئكِ.»

ثم ناولني إلى ليام.

ناولني. وكأنني حقيبة ظهر ملعونة.

ثبت ليام ذراعيّ إلى جانبيّ بقوة حذرة لكنها لا تلين وقال:

– «أنا آسف حيال هذا يا ڤيوليت.»

لِمَ يعتذر الجميع بحق الجحيم؟

طالبتُ وأنا أرى زايدن يتقدم بخطوات واسعة نحو زوج ركاب الغريفيون، وغاريك بجانبه:

– «دعني. أذهب.»

عصر الخوف قلبي كالكماشة؛ هل يعتقد أنه قادر على مواجهة الغريفيون وركابهم بمفرده؟

اعتذر ليام بصوت خفيض:

– «لا يمكنني فعل ذلك. أتمنى حقًا لو كان بإمكاني.»

أطلق تايرِن زئيرًا مدويًا عن يميني، بقوة جعلت لعابه يتطاير ليصفع وجه ليام، وأصابتني بطنين في أذنيّ. أفلت ليام يديّ وتراجع ببطء، رافعًا كفيه استسلامًا. وقال:

– «فهمت. الرسالة وصلت. لا للمس.»

متحررة من قبضته، استدرتُ نحو المرج حين وصل زايدن إلى الركاب.

قال زايدن:

– «لقد وصلتم مبكرًا بحق الجحيم.»

وتوقف قلبي عن النبض.

«في أيامه الأخيرة تحت الاستجواب، فقد فين ريورسون صلته بالواقع، وظل يصب جام غضبه على مملكة نافار. اتهم الملك تاوري، وكل من سبقه، بمؤامرة شاسعة ومروعة لدرجة أنه لا يسعني، كمؤرخ، أن أكررها. كان الإعدام سريعًا ورحيمًا لرجل مجنون تسبب في إزهاق أرواح لا تحصى.»

– "نافار: تاريخ غير منقح" بقلم العقيد لويس ماركهام



الفصل الخامس والثلاثون

أستمر في التنفس بطريقة ما، وهو أمر مذهل بالنظر إلى أن قلبي يكاد يتحطم إلى مليون قطعة، وأضيق عينيّ محدقة في العدو.

لم يسبق لي رؤية راكب غريفيون من قبل. عادة ما تحيلهم التنانين إلى رماد، هم ومطاياهم التي نصفها نسر ونصفها أسد.

يقول زايدن لراكب الغريفيون بنبرة هادئة ومستقرة:

– «ماذا حدث لاتفاقنا على اللقاء غدًا؟ لا نملك شحنة كاملة.»

تهز المرأة رأسها قائلة:

– «الشحنة ليست هي المشكلة.»

على عكس ملابسنا الجلدية السوداء، يرتدي هؤلاء الركاب جلودًا بنية تتناغم مع الريش الداكن لوحوشهم... التي تحدق بي الآن وكأنني وجبة دسمة.

يقول تايرِن:

'إن حاولوا فعل أي شيء، فسيكونون هم الوجبة الخفيفة.'

شحنة. بالكاد أستوعب ما قاله تايرِن وسط صدمتي من كلمات الراكبة.

وزايدن يعرفهم. إنه يعمل معهم، يساعد عدونا. تمزقني الخيانة كزجاج مهشم في حلقي وأنا أحاول ابتلاع ريقي. لهذا السبب كان يتسلل مبتعدًا عن القطاع.

يسأل زايدن:

– «إذًا، كنتم تنتظرون بالجوار للدردشة على أمل أن نمر من هنا محلقين قبل الموعد بيوم كامل؟»

تقول المرأة:

– «كنا في دورية من درايثوس بالأمس – وهي تبعد حوالي ساعة إلى الجنوب الشرقي من هنا ــــ»

يقاطعها زايدن بحدة:

– «أعرف أين تقع درايثوس.»

يسخر راكب الغريفيون الذكر:

– «من يدري، فأنتم يا أهل نافار تتصرفون وكأنه لا يوجد شيء خارج حدودكم. لا أعرف لماذا نكلف أنفسنا عناء تحذيرهم.»

يميل زايدن رأسه إلى الجانب ويتساءل:

– «تحذيرنا؟»

يقول الرجل:

– «فقدنا قرية في الجوار لصالح حشد من الـ فينين قبل يومين. لقد أبادوا كل شيء.»

أنتفض، وتتوسع عيناي بصدمة. ماذا قال للتو؟

تقول إيموجين من يساري:

– «الفينين لا يأتون إلى هذا الحد غربًا أبدًا.»

فينين. نعم، هذا ما قالاه كلاهما. بحق الجحيم، ما الذي يحدث؟ كنت لأظن أن أحدهم يتلاعب بي لولا الغريفيونين الهائلين اللذين يلوحان خلف الراكبين. لكن لا أحد يضحك.

ترد المرأة، محولة نظرها مجددًا إلى زايدن:

– «حتى الآن. كانوا فينين بلا شك، وكان معهم أحد ـــــ»

يقاطعها زايدن:

– «لا تقولي شيئًا آخر. تعلمين أنه لا ينبغي لأحد منا معرفة التفاصيل وإلا سنعرض كل شيء للخطر. يكفي أن يخضع أحدنا للاستجواب.»

'هل تسمع هذا؟'

أسأل تايرِن ذهنيًا، وأنا ألتفت يمينًا ويسارًا لأرى إن كان أي شخص آخر قد لاحظ التفاهة المطلقة التي تتفوه بها هذه المرأة، لكن الجميع يبدون... مرعوبين، وكأنهم يصدقون فعلًا أن كائنات أسطورية قد دمرت قرية.

يجيب تايرِن:

'للأسف، نعم.'

يقول الرجل:

– «سواء عرفت التفاصيل أم لا، يبدو أن الحشد يتجه شمالًا. مباشرة نحو نقطة التجارة الخاصة بنا على الحدود مقابل حاميتكم في آثبين. هل أنتم مسلحون؟»

يعترف زايدن:

– «نحن مسلحون.»

يقول الرجل:

– «إذًا، انتهت مهمتنا هنا. لقد حُذرتم. الآن علينا الذهاب للدفاع عن شعبنا. في الواقع، هذه الرحلة الجانبية لا تمنحنا سوى ساعة واحدة تقريبًا للوصول إليهم في الوقت المناسب.»

في لحظة، يتغير الجو، ويشتد التوتر، ويبدو الركاب من حولي وكأنهم يتأهبون لشيء ما.

ينظر زايدن من فوق كتفه إليّ، وبدلًا من الضحك على السخافة المطلقة لما يناقشونه، تكتسي ملامحه بجمود كئيب.

يقول الرجل بابتسامة ساخرة موجهة إليّ:

– «إن كنت تعتقد أنك ستقنع أحد أفراد عائلة سورنجيل بالمخاطرة بعنقه من أجل أي شخص خارج حدودهم، فأنت أحمق.»

أزيز طاقة مؤلم يسري تحت جلدي، مطالبًا بمنفذ.

يميل الرجل قليلًا إلى الجانب ويتفحصني من الأعلى إلى الأسفل بحكم واضح:

– «أتساءل عما سيكون ملكك مستعدًا لدفعه لاستعادة ابنة جنراله الأبرز. أراهن أن فديتك ستساوي ما يكفي من الأسلحة للدفاع عن درايثوس بأكملها لعقد من الزمان.»

فدية؟ أوه، لا أعتقد ذلك.

يزمجر تايرِن بشراسة.

يغمغم بودهي، مقتربًا مني:

– «تبًا.»

أقول بحزم:

– «جرب. أتحداك.»

أثني أصابعي نحوهم، محررة من الطاقة ما يكفي لتومض السماء ببرق بين السحب فوقنا.

تتسابق الظلال بتهديد من أشجار الصنوبر على حافة المرج بينما يرفع زايدن يديه إلى جانبيه، ويتوتر كلا راكبي الغريفيون عندما يتوقف الظلام على بعد إنشات فقط من أقدامهما.

يقول زايدن بنبرة خفيضة ومميتة:

– «اخطُ خطوة واحدة نحو تلك السورنجيل، وستكون في عداد الموتى قبل أن تتمكن حتى من نقل ثقل جسدك. إنها ليست مسألة مطروحة للنقاش.»

ترمق المرأة الظلال بنظرة، ثم تتنهد قائلة:

– «سنكون هناك مع بقية سربنا. فقط أعطنا إشارة إن تمكنت من الابتعاد عن غير المؤمنين.»

تبتعد، مقودة الرجل عائدين نحو غريفيوناتهم.

يمتطيان مطاياهما في ثوانٍ وينطلقان نحو السماء.

تلتفت كل الوجوه نحوي بنظرات تتراوح بين الترقب وشيء أقرب إلى الخوف، وتغوص معدتي. لم يتفاجأ أحد بألفة راكبي الغريفيونات أو بإلقاء كلمات مثل «فينين» في الهواء. وكلهم كانوا يعلمون أن زايدن يساعد العدو.

أنا الدخيلة هنا.

تقول إيموجين:

– «حظًا موفقًا يا ريورسون.»

تدس خصلة من شعرها الوردي خلف أذنها، ويطل أثر التمرد الخاص بها من فوق كُم سترة طيرانها الجلدية وهي تستدير لتمنحنا مساحتنا.

تهوي معدتي ويتسارع عقلي، متشبثًا بأي شيء سوى الحقيقة الواضحة والمدمرة بينما يتبعون جميعًا إيموجين ببطء عائدين نحو البحيرة.

ألمح أثر تمرد يلتف على ساعد طالب في السنة الثالثة أثناء مروره أمامي.

غاريك هنا. إنه قائد قسم، لكنه... هنا، ليس مع أي من فرق قسم اللهب. وكذلك بودهي وإيموجين. وتلك الراكبة السمراء بقرط الأنف هي سوليل، على ما أعتقد، وهذا بالتأكيد أثر على ساعدها الأيسر. وطالب السنة الثانية من قسم المخلب؟ لديه واحد أيضًا.

وليام... ليام يقف إلى جانبي.

'تايرِن.'

أحافظ على انتظام أنفاسي قدر الإمكان بينما يحدق زايدن بي، وقد تقنع وجهه بجمود قائد جناح خالٍ من المشاعر.

'أيتها الفضية؟'

يتأرجح رأس تايرِن العملاق باتجاهي.

'جميعهم يحملون آثار تمرد،' أخبره. 'كل من في هذه الفرقة باستثنائي هو ابن لأحد الانفصاليين.'

وسط فوضى ميدان الطيران، شكّل زايدن فرقة تتألف بأكملها من الموشومين.

وجميعهم. خونة. أوغاد.

وأنا انطلت عليّ الحيلة. لقد وقعت في حبه.

'نعم. إنهم كذلك،' يوافق تايرِن، بنبرة يشوبها الاستسلام.

يوشك صدري على الانهيار عندما تضربني الحقيقة بكامل ثقلها. هذا أسوأ بكثير من مجرد خيانة زايدن لي، وللمملكة بأكملها. ليس هناك سوى تفسير واحد لكون تنينَيّ صاغرَين تمامًا في حضور العدو.

'أنت وأندارنا كذبتما عليّ أيضًا.'

مرارة الخيانة تفوق الوصف، وتتهدل كتفاي تحت وطأتها.

'كنتما تعرفان ما يفعله.'

تقول أندارنا:

'كلانا اختاركِ،'

وكأن ذلك يخفف من وقع الأمر.

'لكنكما كنتما على علم.'

أتجاوز بنظري ليام الذي يجرؤ على التحديق بي بحزن، لأنظر إلى تايرِن، الذي يتجه تركيزه المميت إلى الأمام مباشرة وكأنه لم يقرر بعد ما إذا كان سيحرق زايدن حيًا أم لا.

يوضح تايرِن بينما يقترب زايدن:

'التنانين مقيدة بالروابط. وهناك رابطة واحدة فقط أكثر قدسية من رابطة التنين براكبه.'

رابطة التنين برفيقه.

الجميع كان يعرف عداي. حتى تنينَيّ. يا إلهي، هل كان داين محقًا؟ هل كان كل ما فعله زايدن حيلة لكسب ثقتي؟

ذلك الوهج العذب للسعادة والحب والثقة والمودة، الذي كان يتوهج في صدري بقوة قبل بضع دقائق فقط، يخبو الآن بألم، لاهثًا بحثًا عن الأكسجين كأنه نار خيم أُخمدت بدلو من الماء بعد أن انتفت الحاجة إليها. لا أملك سوى أن أراقب الجمرات وهي تغرق وتموت.

يراقبني زايدن بتوجس متزايد كلما اقترب، وكأنني حيوان محاصر يوشك على شق طريق النجاة بأسنانه ومخالبه.

كيف كنت غبية لدرجة الوثوق به؟ كيف وقعت في حبه؟ تؤلمني رئتاي ويصرخ قلبي. هذا لا يمكن أن يحدث. لا يمكن أن أكون بهذه السذاجة. لكنني أظن أنني كذلك، لأننا وصلنا إلى هذا الحد. جسده بالكامل هو جرس إنذار لعين، خاصة ذلك الأثر الداكن الذي يبدو واضحًا بشكل صارخ على رقبته الآن. ربما كان والده هو الخائن الأعظم، وربما كان هو السبب في فقدان شقيقي لحياته، لكن خيانة زايدن تجرحني بالعمق نفسه.

يجفل زايدن عندما تضيق عيناي محملتين بالغضب.

أهمس لليام، باحثة عن القوة لأصرخ:

- «هل كنا يومًا أصدقاء حقًا؟»

يجيب ليام، وعندما أرفع نظري، أجده يراقبني ببؤس شديد جعلني أكاد أشعر بالأسف تجاهه. أكاد.

- «نحن أصدقاء يا ڤيوليت، لكنني مدين له بكل شيء. جميعنا مدينون له. وبمجرد أن تمنحيه فرصة للشرح ــــ»

ها هي ذي. يهب الغضب لنجدتي، متغلبًا على الألم.

أدفعه في صدره، فيتعثر ليام متراجعًا على العشب الأخضر:

- «لقد راقبتني وأنا أتدرب معه! وقفت متفرجًا وأنت تراني أقع في حبه!»

يشبك بودهي يديه خلف رقبته الغليظة ويقول:

- «تبًا.»

يقول زايدن:

- « ڤيولينس، دعيني أشرح لكِ.»

لقد عرف دائمًا طبيعتي الحقيقية، وبصراحة، كان يجب أن تشي ظلاله بطبيعته. إنه سيد الأسرار.

تموج قوة غير مستهلكة في عظامي وأنا أولي ظهري لليام لأواجه زايدن:

– «إن فكرت حتى في لمسي، أقسم أنني سأقتلك أيها الوغد.»

تتأجج قدرتي السحرية مع غضبي، وتتشقق السماء ببرق يقفز من سحابة إلى أخرى.

يحذر ليام:

– «أعتقد أنها تعني ما تقوله.»

يشتد فك زايدن وهو يقول، بينما تتلاقى نظراتنا وتلتحم:

– «أعلم ذلك.»

ثم يضيف:

– «على الجميع العودة إلى الشاطئ. الآن.»

يراقبني بتوجس وهو يقترب.

يقول زايدن بصوته الهادئ الخادع، وثمة ومضة من الخوف في أعماق عينيه العقيقيتين:

– «أعرف بمَ تفكرين.»

أرد:

– «ليس لديك أدنى فكرة عما أفكر فيه.»

خائن. وغد.

يتابع:

– «تظنين أنني خنت مملكتنا.»

أرد:

– «تخمين منطقي. أحسنت.»

تنفلت صاعقة أخرى، شاقة طريقها بين السحب.

– «أنت تعمل مع راكبي الغريفيون؟»

أترك ذراعيّ مرتخيتين إلى جانبي، تحسبًا لاحتياجي ليديّ للتوجيه السحري، رغم أنني أعلم أنني لست ندًا له. ليس بعد.

– «يا إلهي، أنت مستهلك ومكرر جدًا يا زايدن. أنت مجرد شرير لعين يختبئ في مرأى الجميع.»

يجفل، ويقول بهدوء مثبتًا نظره عليّ:

– «في الواقع، يُطلق عليهم اسم طيارون، وقد أكون الشرير بالنسبة للبعض، لكن ليس لكِ.»

أصيح:

– «عفوًا؟ هل نناقش الآن بجدية دلالات الألفاظ لخيانتك؟»

يوضح:

– «التنانين لها ركاب، والغريفيونات لها طيارون.»

أرد:

– «وهو ما تعرفه لأنك متحالف معهم.»

أتراجع بضع خطوات للوراء حتى لا أستسلم للرغبة العارمة في لكمه على وجهه.

– «أنت تعمل مع عدونا.»

يسألني:

– «هل توقفتِ مرة واحدة لتفكري في أنك قد تبدئين أحيانًا على الجانب الصحيح من الحرب، وينتهي بكِ المطاف على الجانب الخاطئ؟»

أرد، وأنا أشير نحو الشاطئ:

– «في هذه الحالة بالذات؟ لا. لقد تدربت لأكون نساخة، هل تتذكر؟ كل ما فعلناه هو الدفاع عن حدودنا لستمائة عام. هم من يرفضون السلام كحل. ما هي الشحنات التي كنت تزودهم بها؟»

يجيب:

– «أسلحة.»

تهوي معدتي إلى الأرض:

– «يستخدمونها لقتل راكبي التنانين؟»

يهز رأسه مؤكدًا بقوة:

– «لا. هذه الأسلحة مخصصة لقتال الفينين فقط.»

ينفرج فكي بذهول:

– «الفينين هم محض حكايات أسطورية. مثل الكتاب الذي... والدي ــــ»

أرمش. الرسالة. ماذا كتب؟ يُمرر الفلكلور الشعبي من جيل إلى آخر ليعلمنا عن ماضينا.

هل كان يحاول القول... لا. هذا مستحيل.

يقول زايدن بهدوء، وكأنه يحاول التخفيف من وقع الصدمة:

– «إنهم حقيقيون.»

أنطق كلماتي ببطء لأكون واضحة تمامًا:

– «أنت تقول إن الأشخاص الذين يمكنهم بطريقة ما استغلال مصدر السحر دون وجود تنين أو غريفيون لتوجيه طاقتهم، فيُفسدون قواهم بصورة لا يُرجى معها أي خلاص، موجودون بالفعل. ليسوا مجرد جزء من أسطورة التكوين.»

تتجعد جبهته:

– «نعم. لقد استنزفوا كل السحر من الأرض اليباب ثم انتشروا كوباء.»

أطوي ذراعيّ فوق صدري:

– «حسنًا، هذا على الأقل يتوافق مع الفلكلور. ماذا كانت الأسطورة؟ شقيق ارتبط بغريفيون، والآخر بتنين، وعندما استشاط الثالث غيرة، استمد سحره مباشرة من المصدر، ففقد روحه وشن حربًا على الاثنين الآخرين.»

يتنهد:

– «نعم. لم تكن هذه هي الطريقة التي أردت إخبارك بها.»

أرد بحدة:

– «بافتراض أنك كنت تنوي إخباري يومًا ما!»

ألقي نظرة سريعة حيث يراقب تايرِن، ورأسه منخفض وكأنه قد يضطر لإحراق زايدن في أي لحظة، وأسأله ذهنيًا:

'هل ترغب في إضافة شيء إلى النقاش؟'

يجيبني تايرِن:

'ليس بعد. أفضل أن تصلي إلى استنتاجك الخاص. لقد اخترتكِ لذكائكِ وشجاعتكِ، أيتها الفضية. لا تخذليني.'

أكبح نفسي بالكاد عن رفع إصبعي الأوسط في وجه تنيني.

أقول بصوت مسموع:

– «حسنًا. لو افترضت أنني سأصدق أن الفينين موجودون ويجوبون القارة مستخدمين سحر الظلام، فسأضطر أيضًا لتصديق أنهم لا يهاجمون نافار أبدًا لأن...»

تتوسع عيناي أمام الاستنتاج المنطقي لهذا الاحتمال.

– «لأن التعاويذ الوقائية الخاصة بنا تجعل أي سحر لا ينبع من التنانين مستحيلًا.»

ينقل ثقل جسده ويقول:

– «نعم. سيكونون بلا قوة في اللحظة التي يعبرون فيها حدود نافار.»

سحقًا، هذا يبدو منطقيًا، ولا أريد بشدة أن يكون كذلك.

أعقد حاجبيّ وأقول:

– «وهذا يعني أن عليّ التصديق بأننا لا نملك أدنى فكرة عن أن بوروميل تتعرض لهجوم شرس ومستمر من قِبل سحرة الظلام خلف حدودنا مباشرة.»

يُشيح بنظره ويأخذ نفسًا عميقًا قبل أن ينظر مباشرة في عيني:

– «أو عليكِ أن تصدقي أننا نعلم، ونختار ألا نفعل شيئًا حيال الأمر.»

يرفع السخط ذقني وأردفة:

– «ولماذا بحق الجحيم نختار ألا نفعل شيئًا حيال أشخاص يُذبحون؟ هذا يتعارض مع كل ما نمثله.»

يجيب:

– «لأن الشيء الوحيد الذي يقتل الفينين هو الشيء ذاته الذي يغذي تعاويذنا الوقائية.»

لم يقل شيئًا آخر ونحن نقف هناك. كان الصوت الوحيد هو تلاطم المياه على الشاطئ، متزامنًا مع صدى كلماته التي تضرب أطراف قلبي.

أسأله:

– «هل هذا هو سبب الغارات على حدودنا؟ إنهم يبحثون عن المادة التي نستخدمها لتغذية تعاويذنا الوقائية؟»

لا أسأله لأنني أصدقه، ليس بعد، بل لأنه لا يحاول إقناعي. الحقيقة نادرًا ما تحتاج إلى مجهود، هكذا كان يقول والدي.

يومئ برأسه قائلًا:

– «تُصهر المادة وتُشكل كأسلحة لمحاربة الفينين. خذي، أمسكي هذا.»

يرفع ذراعه اليمنى، ويسحب خنجرًا بمقبض أسود من الغمد المعلق بجانبه. أنا مدركة بقسوة لكل حركة يقوم بها، وواعية برعب أنه كان قادرًا على قتلي في أي وقت يشاء، وهذه اللحظة لا تختلف في شيء. رغم أن الموت كان ليكون أسرع لو أنه استخدم ببساطة أحد السيوف المربوطة على ظهره. يتحرك ببطء، ويمد يده بالخنجر كعربون سلام.

أتناوله، ملاحظة نصلة الشحذ، لكن السبيكة المدمجة في المقبض المزين بالرموز هي ما جعلتني أشهق:

– «هل أخذت هذا من مكتب والدتي؟»

يقفز نظري إلى عينيه.

يجيب:

– «لا. والدتك تمتلك واحدًا على الأرجح للسبب ذاته الذي يجب أن يدفعك لامتلاك واحد. للدفاع ضد الفينين.»

هناك الكثير من الشفقة في عينيه لدرجة أن صدري ينقبض.

الخنجر. الغارات. كل شيء يبدو متصلًا أمامي.

أهمس، متشبثة بآخر أمل لدي في أن يكون هذا كله مجرد مزحة مروعة:

– «لكنك قلت لي إنه لا توجد فرصة لأن نقاتل شيئًا كهذا.»

يقترب مني، ويمد يده نحوي ثم يسقطها وكأنه غيّر رأيه:

– «لا. قلت لكِ إنني آمل لو أن هذا التهديد موجود بالفعل، أن تخبرنا قيادتنا بذلك.»

أقول بغضب:

– «لقد لويت عنق الحقيقة لتناسب احتياجاتك.»

تلتف يدي حول مقبض الخنجر، وأشعر بطنين طاقته. الفينين حقيقيون. الفينين. حقيقيون.

يعترف:

– «نعم. وكان بإمكاني أن أكذب عليكِ يا ڤيولينس، لكني لست كذلك. بغض النظر عما تظنينه الآن، لم أكذب عليكِ أبدًا.»

بالتأكيد. طبعًا. أرد:

– «وكيف أعرف أن هذه هي الحقيقة؟»

يجيب:

– «لأنه يؤلم أن نعتقد أننا نوع المملكة التي تفعل شيئًا كهذا. يؤلم أن تعيدي ترتيب كل شيء تعتقدين أنكِ تعرفينه. الأكاذيب مريحة. أما الحقيقة فمؤلمة.»

أشعر بطنين القوة داخل النصل وأحدق بزايدن بغضب:

– «كان بإمكانك إخباري في أي وقت، لكنك بدلاً من ذلك أخفيت عني كل شيء.»

يجفل مجددًا:

– «نعم. كان ينبغي أن أخبرك منذ أشهر، لكني لم أستطع. أنا أخاطر بكل شيء بإخبارك الآن ــــ»

أقاطعه:

– «لأنك مضطر لذلك، وليس لأنك تريد ــــ»

يقاطعني زايدن بدوره:

– «لأنه إذا رأى أعز أصدقائك هذه الذكرى، فسنفقد كل شيء.»

أشهق بصدمة.

– «أنت لا تعرف ذلك ــــ»

يتابع زايدن:

– «داين لن يكسر قاعدة واحدة لإنقاذ حياتك يا ڤيوليت. ماذا تظنين أنه سيفعل لو امتلك هذه المعرفة؟»

ماذا سيفعل داين؟ أقول بصوت عالٍ:

– «يجب أن أصدق أنه لن يضع الدستور العسكري فوق معاناة الناس خارج حدودنا. أو ربما كان بإمكاني بناء دروع ذهنية تمنع داين من التطفل. أو ربما كان سيستمر في احترام حدودي ولن يحاول النظر في المقام الأول.»

أضيق عينيّ وأردف:

– «لكننا لن نعرف أبدًا، أليس كذلك؟ لأنك لم تثق في قدرتي على معرفة الشيء الصحيح الذي يجب فعله، يا زايدن، أليس كذلك؟»

يفتح ذراعيه باتساع ويقول:

– «هذا الأمر أكبر منكِ ومني يا ڤيولينس. والقيادة لن تتورع عن فعل أي شيء للبقاء خلف تعاويذهم الوقائية وإبقاء أمر الفينين سرًا.»

يصبح صوته أجش وهو يتوسل:

– «لقد شاهدت والدي يُعدم وهو يحاول مساعدة هؤلاء الناس. لم أستطع المخاطرة بكِ أنتِ أيضًا.»

يميل نحو مساحتي الشخصية أكثر مع كل كلمة، مما يطلق العنان لنبضي، لكنني انتهيت من ترك قلبي يتخذ القرارات نيابة عن عقلي.

– «أنتِ تحبينني، و ــــ»

أصوب له، وأنا أتحرك خطوة إلى الجانب لأخلق بعض المساحة اللعينة لنفسي:

– «أحببتك.»

يصرخ، موقفًا إياي في مكاني وجالبًا لنا أنظار كل راكب على مقربة منا:

– «تحبينني! أنتِ تحبينني.»

تحاول إحدى تلك الجمرات الصغرى في صدري أن تعود إلى الحياة، فأسحقها قبل أن تسنح لها فرصة الاشتعال.

أستدير ببطء لأواجهه:

– «كل ما أشعر به ـــــ»

أبتلع ريقي، وأكافح للتشبث بالغضب حتى لا أنهار.

– «كل ما شعرت به تجاهك كان مبنيًا على الأسرار والخداع.»

يحرقني الخزي في وجنتيّ لأنني كنت ساذجة بما يكفي للوقوع في حبه من الأساس.

يقول زايدن بقوة جعلت قلبي يؤلمني أكثر:

– «كل شيء بيننا حقيقي يا ڤيولينس. والباقي يمكنني شرحه حين أمتلك الوقت الكافي. لكن قبل أن نصل إلى النقطة الأمامية المخصصة لنا، أحتاج إلى معرفة ما إذا كنتِ تصدقينني.»

أنظر إلى الخنجر، وأسمع الكلمات في رسالة والدي بيقين وكأنه نطق بها أمامي. أعلم أنك ستتخذين الخيار الصحيح عندما يحين الوقت. لقد حذرني بالطريقة الوحيدة التي كان يملكها: عبر الكتب.

أقول وأنا أعيد الخنجر إلى زايدن:

– «نعم، أنا أصدقك. لكن هذا لا يعني أنني أثق بك بعد الآن.»

تلين وقفته براحة ويقول:

– «احتفظي به.»

أغمده عند فخذي وأسأله:

– «أنت تعطيني سلاحًا بعد أن أخبرتني للتو أنك كنت تخدعني لأشهر يا ريورسون؟»

يجيب:

– «بالتأكيد. لديّ واحد آخر، وإذا كان ما يقوله الطيارون صحيحًا، وأن الفينين يتجهون شمالًا، فقد تحتاجين إليه. لم أكذب أبدًا عندما قلت إنني لا أستطيع العيش بدونك يا ڤيولينس.»

يتراجع ببطء، وتتقوس شفتاه بابتسامة حزينة:

– «والنساء اللاتي لا يمتلكن وسيلة للدفاع عن أنفسهن لم يكن أبدًا من النوعِ المفضل لديّ، أتتذكرين؟»

لست مستعدة على الإطلاق للمزاح معه. أرد:

– «دعنا نصل إلى آثبين وحسب.»

يهز رأسه، وبعد بضع دقائق، أصبحنا في منتصف التحليق.

تقول أندارنا وهي تطير في جيب الهواء خلف تايرِن بأقل مقاومة للرياح، بينما نشق طريقنا إلى النقطة الأمامية:

'نحن نعلم أننا لم نكذب. نحن فقط لم نخبرك بكل شيء.'

أجادلها:

'هذا كذب بالإخفاء.'

وهناك الكثير من هذا الهراء يحدث اليوم.

يتدخل تايرِن:

'إنها محقة أيتها الذهبية.'

يشع التوتر في كل انحناءة من جسد تايرِن وفي ضربات أجنحته ذاتها.

'لديك كل الحق في أن تكوني غاضبة.' يميل في تحليقه، متتبعًا سلسلة الجبال الممتدة على طول الحدود. تعض أحزمة السرج على فخذيّ.

'لقد اتخذنا خيارًا لحمايتك – دون موافقتك. كان خطأً، ولن أكرره مجددًا.'

الشعور بالذنب الذي يجتاحه يطغى على مشاعري، مذيبًا أشد لحظات غضبي اشتعالًا، وأبدأ في التفكير.

تفكير حقيقي، وعميق.

إذا كان الفينين موجودين، فسيكون لدينا سجل بذلك. ومع ذلك، لم تكن هناك أي نسخ من "خرافات الأرض اليباب" في قطاع النساخين – وهو المكان الوحيد الذي يجب أن تحتفظ فيه نافار بنسخة من كل كتاب كُتب أو نُسخ في الأربعمائة عام الماضية. مما يعني أن والدي لم يعطني مجرد كتاب نادر... بل كتابًا محرمًا.

أربعمائة عام من المجلدات، ولا يوجد واحد منها ـــــ

أربعمائة عام. لكن تاريخنا يمتد لأكثر من ستمائة عام. كل شيء هو مجرد نسخة من عمل سابق. النص الأصلي الوحيد في الأرشيف الذي يتجاوز عمره الأربعمائة عام – وهو تقريبًا الوقت الذي اندلعت فيه الحرب مع بورروميل – هي المخطوطات الأصلية من حقبة التوحيد التي حدثت قبل أكثر من ستمائة عام.

لا يتطلب الأمر سوى جيل واحد يائس لتغيير التاريخ – أو حتى محوه. يا إلهي، لقد وضح لي والدي كل شيء. لطالما أخبرني أن النساخين يملكون القوة كلها.

يقول تايرِن بينما نلتف حول القمة الأخيرة، وقد عُريت ذروتها المسننة من الثلج بفعل حرارة الصيف، وتظهر نقطة آثبين الأمامية الجبلية في مرمى البصر بالتزامن مع منحدرات درالور:

'نعم. جيل واحد يغير النص. وجيل يختار تدريس ذلك النص. وينشأ الجيل الذي يليه، لتصبح الكذبة هي التاريخ.'

يميل تايرِن يسارًا، متتبعًا انحناء الجبل، ثم يبطئ من سرعته ونحن نقترب من ميدان الطيران الخاص بالنقطة الأمامية.

تقبض يداي على مقابض السرج عندما نهبط أمام الهيكل الضخم القابع على سفح القمة الأخيرة في هذه السلسلة. تصميمه مطابق لتصميم حامية مونتسيرات؛ قلعة مربعة بسيطة بأربعة أبراج، وجدران بالكاد تكفي سماكتها لإطلاق تنين. العسكرية ليست سوى زي وبناء موحد.

أفك إبزيم السرج وأنزلق على ساقه الأمامية وأغمغم بينما أضبط حقيبتي على كتفي، مفكرة في نقطة تجارية قد تتعرض أو لا تتعرض لهجوم من كائنات أسطورية قريبًا:

– «وبطريقة ما، يُفترض بنا أن نكون قادرين على التركيز في المناورات الحربية.»

يترجل الآخرون، وألقي نظرة خلفي لأرى أندارنا وقد تكورت بالفعل بين قدمي تايرِن.

يمشي زايدن برفقة غاريك، ناظرًا إليّ بما يبدو كشوق. لقد أعطيته كل شيء، لكنه لم يسمح لي أبدًا بالدخول إلى عالمه حقًا. يمزق الألم صدري بجرح لا يمكن أن يُحدثه سوى انكسار القلب، حاد ومسنن. أتخيل أن هذا هو الشعور حين يُشطر المرء بنصل باهت يغطيه الصدأ. ليس حادًا بما يكفي ليقطع بسرعة، وهناك احتمال بنسبة مائة بالمائة أن الجرح سيتقيح. إذا لم أستطع الوثوق به، فلا يوجد مستقبل لنا.

الجو مشحون بأكثر من مجرد التوتر بينما نمشي نحن العشرة تحت البوابة الحديدية المفتوحة وندخل النقطة الأمامية. النقطة الأمامية الفارغة تمامًا.

يتساءل غاريك وهو يخطو بخطوات واسعة عبر الساحة في وسط الهيكل، ناظرًا على طول مساحات التجمع التي يجب أن تصطف في الداخل تمامًا مثل مونتسيرات:

– «بحق الجحيم؟»

يأمر زايدن، وهو يمسح بنظره الجدران التي ترتفع من كل جانب فوقنا:

– «توقفوا. لا يوجد أحد هنا. انقسموا وابحثوا.»

يلمحني بنظرة سريعة ويقول:

– «أنتِ لا تفارقين جانبي. لا أعتقد أن هذه مناورة حربية.»

أبدأ في مجادلته بأنه لا يمكنه معرفة ذلك، لكن صفير الرياح عبر البوابة المفتوحة يجعلني أتوقف. الأصوات الوحيدة في قلعة يُفترض أن تأوي أكثر من مائتي شخص هي خطواتنا على الأرض الصخرية. وهو محق. كل شيء يبدو مريبًا.

أرد بجرعة كبيرة من السخرية:

– «رائع.»

ويتفرق الجميع باستثناء ليام – الذي عاد ليكون ظلي مرة أخرى – في مجموعات من اثنين أو ثلاثة، متسلقين السلالم المختلفة.

يقول زايدن متوجهًا مباشرة نحو البرج الجنوبي الغربي:

– «من هذا الطريق.»

نتسلق ونصعد، حتى نصل أخيرًا إلى قمة الطابق الرابع، حيث يقودنا الباب إلى نقطة مراقبة مفتوحة في الهواء الطلق تطل على الوادي بالأسفل، بما في ذلك نقطة التجارة الخاصة ببوروميل.

أقول باحثة عن أي أثر للمشاة والركاب الذين يجب أن يكونوا هنا:

– «هذه واحدة من أكثر الحاميات الاستراتيجية التي نديرها. من المستحيل أن يتخلوا عنها من أجل المناورات الحربية.»

ينظر زايدن عبر الوادي، ثم يضيق عينيه مركزًا على النقطة التجارية التي تبعد ألف قدم بالأسفل ويقول:

– «هذا بالضبط ما أخشاه. ليام.»

يجيب ليام متقدمًا للأمام، ومتكئًا على السور الحجري ليركز على الهياكل البعيدة أسفلنا:

– «علم.»

النقطة التجارية تبعد حوالي عشرين دقيقة سيرًا على الأقدام على طول المسار الحصوي الواسع الذي ينحدر من سفح الجبل الذي تربض عليه حاميتنا. تطل أسقف العديد من المباني بالكاد من فوق الجدار الحجري الدائري لدفاعاتها، وسرب من الغريفيونات وطياريها يقترب من الجنوب.

يلتفت زايدن إليّ، والنظرة في عينيه لا تحمل أي ترحيب:

– «ماذا قال لكِ داين قبل أن نغادر؟ لقد مال نحوكِ وهمس بشيء.»

أرمش محاولة التذكر، وأبحث في ذاكرتي:

– «قال شيئًا مثل... سأفتقدكِ يا ڤيوليت.»

يتصلب جسده ويقول:

– «وقال إنني سأتسبب في مقتلكِ.»

أهز كتفيّ قائلة:

– «نعم، لكنه يقول ذلك دائمًا. ما علاقة داين بإخلاء نقطة أمامية بأكملها؟»

ينادي غاريك من البرج الجنوبي الشرقي، حاملًا ما يبدو أنه مظروف، بينما يعبر هو وإيموجين السور السميك متجهين نحونا:

– «لقد وجدت شيئًا!»

يسألني زايدن وعيناه تزدادان قسوة:

– «هل أخبرتيه عن رحلاتي إلى هنا؟»

أهز رأسي نافية:

– «لا! على عكس بعض الناس، لم أخفِ عنك شيئًا أبدًا.»

يتراجع للوراء، ويتنقل نظره يمينًا ويسارًا وهو يفكر، قبل أن يستقر عليّ وتتسع عيناه:

– «ڤيولينس،» يقول بصوت خفيض، «هل لمسكِ آيتوس بعد أن أخبرتكِ عن آثبين؟»

أقطب حاجبيّ وأدفع خصلة شعر متمردة عن وجهي بينما تدور الرياح حولنا:

– «ماذا؟»

يرفع يده إلى وجنتي ويوضح:

– «هكذا. قدرته السحرية تتطلب لمس وجه الشخص. هل لمسكِ هكذا؟»

تنفرج شفتاي:

– «نعم، لكن هذه هي الطريقة التي يلمسني بها دائمًا. هو لـ.. لن يفعل أبدًا... كنت لأعرف لو أنه قرأ ذكرياتي.»

يسقط وجه زايدن، وتنزلق يده للأسفل لتمسك بمؤخرة عنقي:

– «لا يا ڤيولينس. صدقيني، لم تكوني لتعرفي.»

لا يوجد اتهام في نبرته، مجرد استسلام يؤذي ما تبقى من قلبي.

أهز رأسي رافضة الفكرة:

– «لن يفعل ذلك.»

داين يمتلك الكثير من الصفات، لكنه لن ينتهكني هكذا أبدًا، لن يأخذ شيئًا لم أقدمه له. إلا أنه حاول فعل ذلك مرة واحدة.

يقول غاريك وهو يناول المظروف لزايدن:

– «إنها موجهة إليك.»

يُسقط زايدن يده عني ويكسر الختم. أستطيع قراءة الحروف بينما يفتح الرسالة.

المناورات الحربية الخاصة بـ زايدن ريورسون، قائد الجناح الرابع.

أتعرف على خط اليد – وكيف لا أتعرف عليه وقد رأيته طوال حياتي؟

– «هذه من العقيد آيتوس.»

يسأل غاريك وهو يطوي ذراعيه على صدره:

– «ماذا تقول؟ ما هي مهمتنا؟»

يقول ليام من على السور الحجري:

– «يا رفاق، أرى شيئًا يتجاوز النقطة التجارية. أوه، تبًا.»

يشحب وجه زايدن ويتلاشى منه كل لون، ويجعد الرسالة في قبضته قبل أن ينظر إليّ:

– «تقول إن مهمتنا هي النجاة، إن استطعنا.»

يا إلهي. لقد قرأ داين ذكرياتي دون إذني. لابد أنه أخبر والده عن المكان الذي كانوا يتسللون إليه. لقد خنت زايدن دون أن أدري... خنتهم جميعًا.

يهز غاريك رأسه بذهول:

– «هذا غير...»

يصرخ ليام:

– «يا رفاق، الوضع سيء هنا.»

وتركض إيموجين لتقف بجانبه.

يقول لي زايدن:

– «هذا ليس ذنبكِ.»

ثم ينتزِع نظره عني ويلتفت إلى أصدقائه الذين يركضون أسفل الأسوار للانضمام إلينا:

– «لقد أرسلونا إلى هنا لنلقى حتفنا.»

«لأنه هناك، في الأرض القابعة خلف الظلال، وحوشٌ تسكن الليل وتقتات على أرواح الأطفال الذين يطوفون مقتربين أكثر مما ينبغي من الغابة.»

– «صرخة الويفرن»، خرافات الأرض اليباب



الفصل السادس والثلاثون

يناول زايدن الرسالة لغاريك، ونندفع جميعًا نحو الشرفات الحربية لنرى ما نحن بصدد مواجهته، لكنني لا ألمح أي تهديد في الوادي بالأسفل، ولا في السهول التي تمتد لأميال قبل منحدرات درالور.

يقول تايرِن:

'ثمة خطب ما. شعرت به عند البحيرة، لكنه أقوى هنا.'

أجيبه بينما يزحف الذعر إلى حلقي:

'هل يمكنك تحديد ماهيته؟'

إذا كان والد داين يعلم أن زايدن والآخرين كانوا يزودون طياري الغريفيون بالأسلحة، فهناك احتمال كبير أن تكون هذه عملية إعدام.

'إنه قادم من الوادي بالأسفل.'

يقول بودهي، وهو يميل بجسده فوق حافة السور الحجري:

– «لا أستطيع رؤية أي شيء بحق الجحيم هناك.»

يرد ليام:

– «حسنًا، أنا أستطيع، وإذا كانت تلك الأشياء هي ما أظنه، فنحن هالكون لا محالة.»

يأمره زايدن بحزم:

– «لا تخبرني بما تظنه – بل أخبرني بما أنت متيقن منه.»

يقرأ قائد القسم من خلفنا:

– «تقول الرسالة إن هذا اختبار لقيادتك. لديك الخيار بين التخلي عن قرية عدونا أو التخلي عن قيادة جناحك.»

يتساءل بودهي وهو يمد يده إلى الخلف ليأخذ الرسالة:

– «ماذا يعني هذا بحق الجحيم؟»

يطوي زايدن ذراعيه على صدره، واقفًا إلى جانبي:

– «إنهم يختبرون ولاءنا دون التصريح بذلك. وفقًا للرسالة، إذا غادرنا الآن، فسنصل إلى الموقع الجديد لمقر الجناح الرابع في إلتوفال في الوقت المناسب لتنفيذ أوامرنا الخاصة بالمناورات الحربية. ولكن إذا غادرنا، فسيتم تدمير نقطة ريسون التجارية بمن فيها.»

تسأل إيموجين:

– «تدميرها بواسطة ماذا؟»

يجيب ليام:

– «الفينين.»

تهوي معدتي برعب.

يسأل زايدن:

– «هل أنت متأكد؟»

يومئ ليام مؤكدًا:

– «متأكد بقدر ما يمكنني أن أكون، دون أن أراهم من قبل. أربعة منهم. أردية أرجوانية. أوردة حمراء منتفخة تتشعب كالعناكب حول عيون حمراء زاهية. مرعبون بحق الجحيم.»

ينقل زايدن ثقل جسده ويقول:

– «يبدو الوصف دقيقًا.»

يغمغم بودهي:

– «لقد أحببت الأمر أكثر عندما كنا نكتفي بتسليم الأسلحة وحسب.»

يتابع ليام:

– «أوه، وهناك رجل يحمل عصا ضخمة ملعونة. وأقسم بالإله دون، في ثانية واحدة كان السهل خاليًا، وفي الثانية التالية كانوا... هناك ببساطة، يمشون نحو البوابات.»

تتسع عيناه، وتتوسع حدقتاه وهو يستخدم قدرته السحرية للرؤية حتى قاع الوادي.

تتساءل إيموجين:

– «أوردة حمراء؟»

أغمغم، رافعة بصري نحو زايدن، متسائلة عما إذا كان يتذكر ما قالته أندارنا في الليلة التي سلكنا فيها النفق إلى ميدان الطيران:

– «لأن السحر يفسد دماءهم كلما فقدوا أرواحهم. الطبيعة تحب أن يكون كل شيء في حالة توازن.»

تستدير كل الرؤوس نحوي باستثناء ليام.

أردف قائلة:

– «إذا كانت الخرافات صحيحة، على الأقل.»

جزء مني يأمل أن تكون كذلك، وإلا فإنني لا أعرف شيئًا تقريبًا عن العدو القابع بالأسفل. بالطبع، إذا كانت صحيحة...

يخبرني تايرِن:

'سبعة غريفيونات هبطت بجوارنا.'

يتصلب جسد كل من حولي، ولا شك أنهم يتلقون الرسالة ذاتها من تنانينهم.

أقول:

'أندارنا، ابقِ مع تايرِن.'

قد يثق زايدن بالطيارين، لكن أندارنا تكاد تكون بلا دفاع على الإطلاق.

تجيبني:

'حاضر.'

يشرع ليام في القول:

– «الرجل ذو العصا قام للتو بـ ــــــ»

يدوي صوت انفجار، يتردد صداه عبر الوادي قليل الأشجار، متبوعًا بعمود من الدخان الأزرق. ينتفض قلبي لرؤية ذلك المشهد.

يكمل ليام جملته:

– «تلك كانت البوابات.»

يسأل بودهي:

– «كم عدد الذين يعيشون في ريسون؟»

تجيب إيموجين بينما يشق دوي انفجار آخر سكون الوادي:

– «أكثر من ثلاثمائة. إنها النقطة التي يجرون فيها الصفقات التجارية السنوية.»

يقول بودهي:

– «إذن فلننزل إلى هناك.»

يستدير بودهي، فيتراجع زايدن خطوة للوراء، قاطعًا طريقه بيده الممدودة.

يتابع بودهي:

– «أنت تمزح معي، أليس كذلك؟»

يقول زايدن بنبرة تذكرني بذلك اليوم الأول بعد عبور المتراس الصخري. إنه في وضع القيادة الكاملة:

– «ليس لدينا أدنى فكرة عما نحن مقبلون عليه.»

يتساءل بودهي، فيصيبني التوتر:

– «إذن يجب أن نقف هنا وحسب بينما يموت المدنيون؟»

نتوتر جميعًا، ونحن نراقب زايدن.

يهز زايدن رأسه قائلاً:

– «ليس هذا ما أقوله.»

عليه أن يختار. هذا ما جاء في رسالة المناورات الحربية. يمكنه التخلي عن تلك القرية أو التخلي عن قيادته التي تنتظره الآن في إلتوفال.

يتابع زايدن:

– «هذا ليس تدريبًا لعينًا يا بودهي. البعض منا – إن لم يكن جميعنا – سيموتون إذا نزلنا إلى هناك. لو تم تعييننا في جناح نشط، لكان هناك قادة أكبر سنًا وأكثر خبرة يتخذون هذا القرار، لكنهم ليسوا هنا. لو لم نكن موشومين بآثار التمرد، لو لم نكن نساعد العدو ـــــ»

تندفع نظراته نحوي لوهلة مقتضبة، ثم يكمل:

– «ـــــ لما كنا هنا من الأساس لنواجه هذا الخيار. لذا، وبعيدًا عن هيكل القيادة العسكرية بأكمله، ما هي آراؤكم؟»

تقول سوليل، وهي تضيق عينيها البنيتين مركزة على الميدان، وتنقر بأظافرها الخضراء الزاهية بإيقاع منتظم على شقوق السور الحجري:

– «نحن نتفوق عدديًا. ونملك التفوق الجوي.»

أقول وأنا أمسح السماء بنظري لأتأكد فقط:

– «على الأقل لا يوجد أي ويفرن هنا.»

ترتفع حاجبا بودهي متسائلًا:

– «عفوًا. ماذا؟»

أجيبه:

– «ويفرن. تقول الخرافات إن الفينين خلقوها لتنافس التنانين، وبدلاً من التوجيه السحري وسحب الطاقة منها، فإنهم يضخون الطاقة فيها.»

لنأمل أن يكون هناك شيء ما في ذلك الكتاب يجانبه الصواب.

يقول زايدن، وهو يرمقني بنظرة جانبية قبل أن يتأمل السماء:

– «نعم، دعونا لا نستبق المتاعب.»

يقول غاريك، مبتعدًا عن حافة الشرفة الحربية:

– «هناك أربعة من الفينين وعشرة منا.»

يقول ليام موليًا ظهره للوادي:

– «لدينا الأسلحة لقتلهم. وقد أخبرني ديغ أن هناك سبعة طيارين غريفيون ـــــ»

تقول المرأة السمراء الكبرى التي التقيناها عند البحيرة، مقتربة بخطوات واسعة على طول الشرفة من الزاوية الجنوبية الشرقية للنقطة الأمامية:

– «نحن هنا. لقد تركت بقية السرب بالخارج بمجرد أن لاحظنا أن نقطتكم الأمامية تبدو... مهجورة.»

تلقي نظرة من فوق السور على سحب الدخان المتصاعدة من الوادي بالأسفل بنظرة ملؤها الاستسلام، وتتهدل كتفاها وتضيف:

– «لن أطلب منكم القتال معنا.»

يرفع غاريك حاجبيه متسائلاً:

– «لن تفعلي؟»

تبتسم له بأسى وتجيب:

– «لا. أربعة منهم يُعد بمثابة حكم بالإعدام. بقية سربي يتصالحون الآن مع آلهتنا.»

تستدير نحو زايدن وتتابع:

– «جئت لأخبركم أن تغادروا. ليس لديكم أدنى فكرة عما هم قادرون على استخدامه من سحر. لقد تطلب الأمر اثنين منهم فقط لإسقاط مدينة بأكملها الشهر الماضي. اثنان. فقط. لقد فقدنا سربين محاولين إيقافهما. إذا كان هناك أربعة بالأسفل...»

تهز رأسها وتستطرد:

– «إنهم يسعون وراء شيء ما، وسيقتلون كل شخص في ريسون للحصول عليه. خذوا حشدكم وعودوا إلى دياركم ما دمتم قادرين على ذلك.»

يعتصر الخوف صدري، لكن قلبي يعتصر ألمًا لفكرة تركهم يواجهون الموت. إن هذا يتناقض مع كل ما نمثله، حتى وإن لم يكونوا مدنيين من نافار.

تقول إيموجين بنبرة مرتفعة:

– «لدينا تنانين. من المؤكد أن هذا يشكل فارقًا ما. نحن لا نخشى القتال.»

تسأل المرأة السمراء وهي تمرر بنظرها علينا جميعًا، وفجأة أشعر... بقلة حيلتي وصغر سني بينما نجيب بصمتنا المطبق:

– «هل تخشون الموت؟ هل خاض أي منكم قتالًا حقيقيًا من قبل؟»

تتابع قائلة:

– «ظننت ذلك. تنانينكم تشكل فارقًا بالفعل؛ يمكنها التحليق بكم بعيدًا وبسرعة. نار التنانين لن تقتل الفينين. فقط الخناجر التي كنتم تجلبونها قادرة على ذلك، ونحن نملكها.»

تنظر إلى زايدن وتختتم حديثها:

– «شكرًا لك على كل ما فعلته. لقد أبقيتنا أحياء خلال العامين الماضيين ومنحتنا فرصة للقتال.»

يقول زايدن بنبرة تقريرية خالية من المشاعر:

– «أنتم تنزلون إلى هناك لتموتوا.»

تومئ برأسها بينما يدوي انفجار آخر:

– «نعم. أخرجوا حشدكم من هنا. بسرعة.»

تستدير على عقبيها، وتعود أدراجها بخطوات واسعة على طول السور، رافعة رأسها بشموخ قبل أن تختفي داخل البرج في الطرف المقابل.

يُطبق زايدن على فكيه بقوة، وأستطيع رؤية المعركة المستعرة في عينيه.

يستقر ثقل لا يُحتمل في معدتي.

إذا غادرنا، فسيموتون جميعًا. كل مدني. وكل طيار. لن نكون نحن من قتلهم، لكننا سنكون شركاء في موتهم على أي حال.

وإذا قاتلنا، فالأرجح أننا سنموت معهم.

يمكننا أن نعيش كجبناء، أو نموت كركاب تنانين.

تستقيم كتفا زايدن، وتتحول الصخرة الجاثمة في معدتي إلى غثيان. لقد اتخذ قراره. أستطيع رؤية ذلك في خطوط وجهه، وفي العزم الذي يكسو وقفته.

يقول:

– «تقول سجايل إنها لم تهرب قط من أي معركة، ولن يكون اليوم هو المرة الأولى. وأنا أيضًا لن أقف مكتوف الأيدي بينما يموت الأبرياء.»

يهز رأسه ويتابع:

– «لكنني لن آمر أيًا منكم بالانضمام إليّ. أنا مسؤول عنكم جميعًا. لم يعبر أحد منكم ذلك المتراس الصخري لأنه أراد ذلك. لا أحد منكم. لقد عبرتموه لأنني عقدت صفقة. أنا من أجبركم على دخول القطاع، لذا لن أنتقص من قدر أي شخص يفضل التحليق نحو إلتوفال بدلاً من ذلك. اتخذوا قراركم.»

يمرر يده بقوة خلال شعره ويختتم:

– «لا أريدكم أن تكونوا في طريق الخطر.»

في عالم مثالي، كان هذا كل ما أحتاج لسماعه. أقول له:

– «إذا كان للآخرين حق الاختيار، فأنا كذلك.»

تشتد عضلات فكه.

تقول إيموجين بينما يدوي انفجار آخر:

– «نحن ركاب تنانين. نحن ندافع عن من لا يملكون وسيلة للدفاع عن أنفسهم. هذا هو ما نفعله.»

يقول بودهي:

– «لقد أنقذت كل واحد منا هنا يا ابن عمي، ونحن ممتنون لك. الآن، أود أن أفعل ما تدربنا عليه، وإذا كان هذا يعني ألا أعود إلى دياري، فأعتقد أن روحي ستُسلم إلى الإله مالك. لا أمانع رؤية والدتي على أي حال.»

يقول غاريك:

– «سأخبرك بالشيء ذاته الذي قلته لك بعد يوم التصفية في عامنا الأول عندما قررنا البدء في تهريب الأسلحة. لقد أبقيتنا أحياء طوال هذه السنوات؛ ومن حقنا أن نقرر كيف نموت. أنا معك.»

تؤكد سوليل، وهي تنقر بأطراف أصابعها فوق الخنجر المغمد عند فخذها:

– «بالضبط! أنا معكم.»

يتقدم ليام ليقف إلى جانبي ويقول:

– «لقد شاهدنا آباءنا يُعدمون لأنهم امتلكوا الشجاعة لفعل الصواب. أود أن أظن أن ميتتي ستكون بالقدر ذاته من الشرف.»

ينقبض صدري. لقد مات آباؤهم لكشف الحقيقة، بينما ضحت والدتي بشقيقي للحفاظ على هذا السر البشع.

تومئ إيموجين موافقة:

– «متفقون.»

ويوافقون جميعًا.

واحدًا تلو الآخر، يعلن الجميع موافقتهم، حتى لم يتبق سواي.

تأسرني نظرة زايدن.

إن كنت تعتقد أنك ستقنع أحد أفراد عائلة سورنجيل بالمخاطرة بعنقه من أجل أي شخص خارج حدودهم، فأنت أحمق. أليس هذا ما قاله الطيار عند البحيرة؟

سحقًا لذلك.

أسأل:

'تايرِن؟'

لست أنا وحدي من يذهب إلى الحرب.

'سنتولم على عظامهم أيتها الفضية.'

وصف دموي، لكن الرسالة وصلت.

لن أترك الأبرياء يموتون، بغض النظر عن الجانب الذي يعيشون فيه من الحدود. ولن أدع زملائي في الفرقة يخاطرون بحياتهم بينما ألوذ أنا بالفرار، على الرغم من الرجاء الذي ألمحه في عينيّ زايدن.

على الأقل ريانون، وسوير، وريدوك ليسوا هنا. سيعيشون ليصبحوا طلابًا في السنة الثانية.

شقيقتي ميرا ستتفهم الأمر. ليس لدي أدنى شك في أنها كانت لتفعل الشيء ذاته.

وأما بالنسبة لأمي... الخنجر الموجود على مكتبها يعني أنها تعلم ولم تفعل شيئًا لإيقاف هذا. أظن أنني سأكون الطفل الثاني الذي تضحي به لإبقاء وجود الفينين سرًا.

أقول لزايدن وأنا أرفع ذقني بشموخ:

– «لقد كنت مجردة من أي وسيلة للدفاع عن نفسي. والآن أنا راكبة تنانين. والركاب يقاتلون.»

يصيح الآخرون تأييدًا.

تلوح ألف مشاعر مختلفة على وجهه، لكن زايدن يكتفي بالإيماء وهو يتجه نحو الشرفات الحربية قائلًا:

– «ليام. أعطني تقريرًا.»

يتحرك أخوه بالتبني ليقف بجانبه ويركز بنظره:

– «الطيارون مشتبكون، السبعة جميعهم – بل ستة منهم. يبدو أنهم يحاولون سحب النيران بعيدًا عن المدنيين، لكن اللعنة، الفينين يستخدمون نوعًا من النار لم أره قط بين الركاب. ثلاثة يحيطون بالمدينة، وواحد يشق طريقه نحو مبنى في المنتصف. برج ساعة.»

يومئ زايدن برأسه، ثم يقسمنا وفقًا للأهداف. سيقوم غاريك وسوليل بتمشيط المحيط للاستطلاع، بينما يستهدف الباقون منا الفينين على الجوانب المختلفة لريسون، مع مراقبة التقدم نحو برج الساعة كلما اقتربنا منه في كل جولة تحليق فوق البلدة. يختتم أوامره:

– «الطريقة الوحيدة للقضاء عليهم هي باستخدام الخناجر.»

يضيف غاريك، وقد تيبست ملامحه بجمود كئيب:

– «هذا يعني أننا سنضطر للترجل والقتال بمجرد أن نوصل أهل البلدة إلى أي ملاذ آمن يمكننا العثور عليه. لا ترموا أسلحتكم الوحيدة إلا إذا كنتم واثقين من إصابة الهدف.»

يومئ زايدن:

– «أنقذوا أكبر عدد ممكن من الناس. فلننطلق.»

نشق طريقنا نزولًا عبر الدرج وعبر الساحة الصامتة، وزايدن يتقدمنا. عندما نخرج من النقطة الأمامية، نجد تنانيننا في الانتظار، جميعها جاثمة على حافة خط التلال، تنقل ثقلها باضطراب وهي تراقب النقطة التجارية بالأسفل.

أمشي مباشرة لأقف بين تايرِن وسجايل.

تقول سجايل، وهي ترمق المكان الذي يقترب منه زايدن بصحبة ليام، حيث تلامس خطواتهما حافة الجرف الخطرة على يساري:

'كنت أعلم أنك ستتخذين الخيار الصحيح. وهو أيضًا كان يعلم. حتى وإن كان لا يحب أن تضعي نفسك في طريق الخطر، فقد كان يعلم أنك ستفعلينها.'

أرد عليها وأنا أرفع حاجبي:

'حسنًا، إنه يعرفني أكثر بكثير مما أعرفه.'

ترمش بعينيها وتقول:

'لقد صرتِ بعيدة كل البعد عن تلك الفتاة المرتجفة التي وقفت في الساحة وحاولت إخفاء خوفها بعد المتراس الصخري. أنا أستحسن ذلك.'

أجيب:

'لم أكن أطلب استحسانك.'

إذا كنت سأموت، فقد أكون صريحة في لحظاتي الأخيرة.

تزفر هواءً حارًا وتضرب رأس تايرِن برأسها بخفة، لكنه يوجه تركيزه بالكامل على النقطة التجارية.

تطقطق الأرض الصخرية تحت حذائي وأنا أمشي أسفل تايرِن باتجاه المكان الذي تقف فيه أندارنا بين قائمتيه الأماميتين، تراقب الهجوم المتكشف أسفلنا. أضع نفسي أمامها مباشرة، لأحجب عنها رؤية ما لا بد وأنه مذبحة دموية وأقول لها بحزم:

'ابقِ هنا واختبئي.'

لن آخذ طفلة إلى المعركة، نقطة انتهى.

تتذمر أندارنا بسخرية ردًا عليّ:

'«ابقِ هنا».'

أكبح ابتسامة حزينة. من المؤسف حقًا أنني لن أتسنى لي رؤيتها تمر بسنوات مراهقتها المتمردة.

يقول تايرِن وهو يخفض كتفه لي:

'أوافقها الرأي. أنتِ مستهدفة يا صغيرتي.'

آمر أندارنا، وأنا أمرر يدي بحنان على أنفها المغطى بالحراشف:

'أنا أعني ما أقوله. إذا لم نعد بحلول الصباح، أو إذا شعرتِ باقتراب الفينين، طيري عائدة إلى الديار في الوادي. احتمي خلف التعاويذ الوقائية مهما كلف الأمر.'

تتسع فتحتا أنفها وتقول:

'لن أتركَكِ.'

يؤلمني صدري بشدة، وأكافح الرغبة في تدليك المنطقة فوق قلبي، وبدلًا من ذلك أفرد كتفيّ. يجب أن أقول هذا.

'ستشعرين باللحظة التي تدركين فيها أنه لم يعد هناك ما يمكن تركه. وربما يكسر هذا قلبك، لكن عندما تشعرين بذلك، يجب أن تطيري. عاهديني أنك ستطيرين.'

تمر عدة نبضات قبل أن تومئ أندارنا برأسها أخيرًا.

أهمس وأنا أمسد فكها الجميل لمرة أخيرة:

'اذهبي.'

ستكون بخير. ستتمكن من العودة إلى الوادي. لا يمكنني السماح لنفسي بتصديق أي شيء آخر.

تستدير وتتجه نحو النقطة الأمامية، بينما أستجمع شتات نفسي وأمشي بين قائمتي تايرِن الأماميتين، ملقية نظرة أخيرة وسريعة على الوادي. يقف زايدن وليام على يميني، ويفعلان الشيء ذاته.

تمزق صرخة حادة الهواء، ويخرج تنين رمادي هائل من وادٍ يبعد خطين من التلال إلى الجنوب... عبر حدود بوروميل. يثني قائمتيه الاثنتين أسفل جسده الضخم بينما يطير مبتعدًا عنا، متجهاً مباشرة نحو ريسون.

يسأل ليام:

– «هل لدينا أي حشد من التنانين بالجوار؟»

يجيب زايدن:

– «لا.»

يبدو الأمر وكأن الأرض تميد من تحت قدميّ.

كنت لأقسم أنني رأيت حشداً من التنانين عبر الحدود. أليس هذا ما قالته ميرا في مونتسيرات؟

يصرخ التنين مجددًا، نافثًا شريطًا من النار الزرقاء على سفح الجبل، مما أشعل النار في بعض الأشجار الصغيرة قبل أن يصل إلى السهول حيث تقع ريسون.

نار. زرقاء.

لا. لا. لا.

أقول، وقلبي يقفز إلى حلقي:

– «ويفرن. زايدن، إن له ساقين اثنتين فقط، وليس أربعًا. هذا ليس تنينًا. إنه ويفرن.»

ربما إذا قلتها بضع مرات أخرى، فسأصدق ما تراه عيناي.

تبًا. اللعنة. هل هذا ما كانت القيادة تخفيه وتحذفه من المناهج؟

من المفترض أنهم مجرد أسطورة، وليسوا كائنات من لحم ودم. ولكن مرة أخرى، الفينين كذلك أيضًا.

تقول إيموجين من أمامنا، ثم تهز كتفيها غير مبالية:

– «حسنًا، لقد طار تفوقنا الجوي هباءً. فليذهبوا إلى الجحيم. يمكنهم أن يموتوا هم أيضًا.»

يقول تايرِن، وزمجرة خفيضة تتردد في صدره:

'لقد خلقوا مسوخًا مشوهة.'

أسأله:

'هل كنت تعلم؟'

يجيبني:

'كنت أشك في الأمر. لماذا تظنين أنني كنت قاسيًا جدًا معك أثناء مناورات الطيران؟'

أرد:

'سيتعين عليّ أنا وأنت العمل على تحسين مهارات التواصل بيننا.'

يقول ليام:

– «أعتقد أننا نعرف كل التفاصيل الآن.»

يسأل زايدن ممررًا نظره على الصف:

– «هل هناك من يريد تغيير رأيه؟»

لا يجيبه أحد منا.

يتابع:

– «لا؟ إذن امتطوا تنانينكم.»

أمشي نحو كتف تايرِن بينما يخطو زايدن نحوي.

يأمرني:

– «استديري يا ڤيولينس.»

أستدير على عقبي وأرفع نظري إليه. يسحب أحد خناجره من غمده ويدخله في المكان الفارغ المخصص عند ضلوعي.

– «الآن لديك اثنان.»

أسأله، ومشاعري تعصف باضطراب لقربه مني:

– «ألن تلقي عليّ محاضرة حول البقاء آمنة في النقطة الأمامية؟»

لقد أخفى عني كل هذا، ومع ذلك يؤلمني صدري بمجرد النظر إليه.

تخترق عيناه عينيّ وهو يسأل:

– «إذا طلبت منك البقاء في الخلف، فهل كنتِ لتفعلي؟»

أجيب:

– «لا.»

يعقب قائلًا:

– «بالضبط. أحاول ألا أخوض معارك أعرف أنني لا أستطيع الفوز بها.»

تشتعل عيناي وأقول:

– «بالحديث عن معرفتك بمن سيفوز في المعارك، الجنرال ميلغرين سيعرف ما حدث هنا. سيكون قادرًا على رؤية نتيجة المعركة حتى الآن.»

يهز رأسه ببطء ويشير إلى رقبته، إلى أثر التمرد الذي يلتف حول عنقه مثل أفعى:

– «هل تتذكرين عندما أخبرتك أنني أدركت أن هذا كان هبة وليس لعنة؟»

– «نعم.»

حينها عندما كنت في فراشه.

يقول:

– «فقط ثقي بي. بسبب هذا الأثر، ميلغرين لا يمكنه رؤية أي شيء بحق الجحيم.»

تنفرد شفتاي، وأنا أتذكر قول ميلغرين بأنه يحب أن يُبقي عينيه على زايدن مرة واحدة في السنة. أسأله:

– «هل هناك أي أسرار أخرى تخفيها عني؟»

يجيب وهو يطوق عنقي بيده ويميل مقتربًا من مساحتي الشخصية:

– «نعم. ابقِ على قيد الحياة، وأعدك بأنني سأخبرك بكل ما تريد معرفته.»

يجعل هذا الاعتراف البسيط قلبي ينقبض. فرغم كل غضبي، لا يسعني تخيل عالم خالٍ منه. أقول له:

– «أحتاج أن تنجو من هذا، حتى لو كنت أكره حقيقة أنني ما زلت أحبك.»

– «يمكنني التعايش مع ذلك.»

يرتفع أحد طرفي فمه بابتسامة خفيفة بينما يسقط يده ويستدير مبتعدًا عني، متجهاً نحو سجايل.

يخفض تايرِن كتفه مجددًا فأمتطيه، وأستقر في السرج وأربط أحزمة فخذيّ بعد أن أُحكم تثبيت حقيبتي خلف المقعد. لقد حان الوقت.

أقول لأندارنا:

'جدي مكانًا جيدًا للاختباء يا أندارنا. لا أطيق فكرة أن يصيبك أي مكروه.'

تقول وهي تمشي لداخل النقطة الأمامية المهجورة:

'استهدفي أعناقهم.'

تنطلق سجايل محلقة عن يميني، وأتمسك بمقابض السرج بقوة عندما يقفز تايرِن نحو السماء بضربات هائلة وثقيلة من جناحيه.

يقول تايرِن وهو يميل في مساره برفقة سجايل:

'هناك شيء ما في تلك النقطة التجارية. جميعنا نشعر به.'

يهوي من خط التلال في غوص حاد يترك معدتي معلقة في الهواء. تنغرز أحزمة السرج في فخذيّ، لكنها تؤدي وظيفتها وتبقيني في مقعدي بينما أخفض نظارات الطيران الواقية لأحمي عينيّ من الرياح. نطير في العتمة، فالشمس تغوص خلف منحدرات درالور وتلقي بظلالها على ما تبقى من النهار.

يضرب انفجار آخر، مطيحًا هذه المرة بكتلة من الجدران الحجرية العالية للنقطة التجارية بينما يرتفع تايرِن بصعوبة متفاديًا بصعوبة راكب غريفيون، ليجعلنا في مستوى واحد عبر النقطة التجارية. كنا نطير بسرعة هائلة تحول دون سماع أي شيء سوى صرخات سكان البلدة وهم يركضون في الشوارع، فارين نحو بوابات الخروج.

أسأل تايرِن:

'أين ذهب الويفرن؟'

'تراجع إلى الوادي. لا تقلقي – سيعود مجددًا.'

يا للروعة.

يمسح نظري أسطح مباني النقطة التجارية الصغيرة حتى أرى ذلك الشيء – أو ذلك الشخص – أو أيًا كان. هناك طيف يقف على قمة برج ساعة خشبي، يرتدي أردية أرجوانية تنسدل حتى الأرض وتنتفخ بفعل الرياح، بينما يلقي بألسنة لهب زرقاء كأنها خناجر على المدنيين بالأسفل.

إنه مرعب أكثر مما كان يمكن لأي رسام أن يصوره؛ أنهار من الأوردة الحمراء تتشعب في كل اتجاه حول عينين بلا روح التهمهما السحر. وجهه هزيل

مجوف، بوجنتين ناتئتين حادتين وشفتين رقيقتين، ويد معقودة تقبض على عصا حمراء طويلة مصنوعة من خشب غريب الشكل.

أهتف:

'تايرِن!'

'أجل، فلنفعلها.'

يميل تايرِن مبتعدًا عن سجايل، ساحبًا إيانا في التفاف حاد ومأخذًا بنا نحو البلدة. وبعد بضع ضربات من جناحيه، تتدفق النيران من فمه، محولًا برج الساعة إلى رماد في تحليق خاطف.

أستدير في السرج وأنا أراقب الهيكل الخشبي ينهار بفعل الانفجار وأقول:

'نلنا منه!'

لكن لم تمر سوى ثوانٍ قبل أن يخرج الفينين من وسط النيران، دون أن يُصاب بخدش واحد.

أصيح بينما نقطع طريقنا عائدين عبر النقطة التجارية للوصول إلى منطقتنا المخصصة، أؤنب نفسي ذهنيًا لاعتقادي أن الأمر سيكون بهذه البساطة:

'أوه، سحقًا. إنه لا يزال هناك.'

هناك سبب يجعل هذه الكائنات هي البطل الرئيسي لقصص الكوابيس لدى معظم سكان نافار – وليس لأن قتلهم أمر سهل. يجب أن نقترب بما يكفي لغرس خنجر في جسده.

أستدير للأمام في اللحظة المناسبة لأرى كتلة عملاقة من الأجنحة والأسنان تقطع مسارنا بصرخة تصم الآذان، ويصطدم ذيل تايرِن بالجدران الحجرية خلفي، مطيحًا بقطع الحجارة المتناثرة وهو يتفادى الويفرن. بالكاد ننجو من دوامة النار الزرقاء التي تهسهس متدفقة من فمه، وتشعل النار في شجرة قريبة.

أقول:

'لقد عاد الويفرن!'

يزمجر تايرِن:

'هذا واحد مختلف. أنا أقوم بنقل الأوامر إلى الآخرين.'

بالطبع يفعل. قد يقود زايدن الركاب في هذا الميدان، لكن تايرِن بوضوح هو من يقود التنانين.

يستدير الويفرن ويتجه نحو وسط البلدة، مطويًا قائمتيه ومخفقًا بأجنحته التي تشبه شبكات العناكب. ويحمل على ظهره راكبة ترتدي ملابس طيران جلدية كستنائية اللون تشبه ملابسنا، وتتوهج عيناها بنفس اللون الأحمر المريب كعيني الفينين الذي يقف على برج الساعة.

أقول ذهنيًا:

'زايدن، هناك أكثر من ويفرن واحد.'

يحل صمت للحظة، لكنني أستطيع الشعور بصدمة زايدن الملموسة، ثم غضبه. يخبرني:

'إذا انفصلتِ عن تايرِن، اصرخي، ثم قاتلي حتى أصل إليكِ.'

يزمجر تايرِن بينما ألقي أول نظرة فاحصة على المجال الجوي فوق المدينة، والذي يعج بالتنانين، والغريفيونات، والويفرن، تمامًا كما في أسطورة التكوين:

'لا مجال لحدوث ذلك. لن أدعها تغادر ظهري أيها القائد.'

يقول زايدن:

'لقد وجدت سوليل مدخلًا مغلقًا لما يبدو أنه منجم. أحتاجكِ أن ـــــ'

يستدير تايرِن فجأة، محرفًا مساره باتجاه الجبال.

ويكمل زايدن:

'ـــــ أن تري ما إذا كان بإمكانك توفير غطاء ناري حتى يتمكن غاريك وبودهي من إجلاء سكان البلدة. ليام في طريقه إليك.'

أرد، ونبضي يتسارع:

'علم.'

ثم أقول لتايرِن:

'تايرِن، أنا لا أستطيع التصويب بدقة.'

يجيبني وكأنه يستنتج حقيقة لا تقبل الجدل:

'ستفعلين. يتم الآن توزيع الأوامر بين الغريفيونات.'

ترتفع حاجباي بدهشة وأسأله:

'التنانين تستطيع التحدث إلى الغريفيونات؟'

'بطبيعة الحال. كيف تظنين أننا كنا نتواصل قبل أن يتدخل البشر؟'

أنحني فوق عنقه بينما نندفع بسرعة فوق المدينة، عابرين فوق عيادة طبية، وما يبدو أنه مدرسة، وصفوف وراء صفوف من سوق مفتوح تلتهمه النيران الآن. لا يوجد أي أثر للفينين ذي الرداء الأرجواني الذي رأيناه في البداية بينما نحلق فوق الجسد المتفحم لغريفيون وراكبه بالقرب من وسط البلدة. تنقلب معدتي، خاصة عندما أرى ويفرن يحلق عائدًا نحوهما – وسجايل في مسار اعتراضي للاشتباك معه.

يذكرني تايرِن:

'إنها قادرة على حماية نفسها. وهو كذلك. لدينا أوامر. ركزي.'

التركيز. صحيح.

نمر فوق عائلات تهرع من منازلها المدمرة، ثم نتجاوز أسوار المدينة، متوجهين نحو الفتحة في جانب الجبل حيث يضرب التنين البني ذو الذيل الهراوي

الخاص بسوليل ذيله في الألواح الخشبية التي تغطي النفق المهجور. هناك عدد قليل من المباني الخارجية تصطف على طول الطريق ولكن ليس هناك الكثير غيرها.

ينحرف تايرِن بقوة إلى اليسار مع اقترابنا، وينغرز الحزام في ساقيّ مع انتقال ثقلي في السرج إثر الحركة المفاجئة. ثم يبسط جناحيه ليحوم أمام سوليل، مواجهًا ريسون والحشد الصارخ الذي يركض المسافة الفاصلة بين أسوار المدينة وبيننا والمقدرة بمائة ياردة، يقودهم زوج من الغريفيونات وطياروها الذين يستمرون في النظر خلفهم للوراء، ماسحين السماء بعيونهم.

لكن ما لا يرونه هو فينين تقترب بخطى واسعة نحونا من شمال البوابة، تراقب حركة الحشد بنظرة حمراء ضيقة. الأوردة على جانبي عينيها أكثر وضوحًا وبروزًا من الراكب السابق، ورداؤها الأزرق الطويل يذكرني بحامل العصا الذي نجا من انفجار برج الساعة.

يقول تايرِن، موجهاً نفسه نحو التهديد المحدق:

'لقد أخبرت فويل بالفعل. ستقوم بحماية سوليل.'

أقول له وأنا أشعر بالطاقة تغلي بالفعل تحت جلدي:

'أبعدنا عن الحشد.'

تتعثر طفلة على الطريق الترابي، وينتفض قلبي بينما يلتقطها والدها بين ذراعيه ويواصل الركض بأقصى سرعته.

يمر ديغ من جانبنا، وألمحه وهو يهبط بطرف عيني بينما أرفع ذراعيّ وأطلق العنان لقوتي، مركزة تمامًا على الفينين.

يتشقق البرق، وينهار جزء من سور المدينة.

سحقًا.

يحثني تايرِن:

'واصلي. يقول ديغ إنهم بحاجة إلى مزيد من الوقت!'

أرتكب خطأ الالتفاف في السرج، لألاحظ أن كلاً من ليام وسوليل قد ترجلا من تنينيهما، ليقودا سكان البلدة إلى داخل المنجم، بينما يحرس ديغ وفويل جانبين منفصلين من مسار الإجلاء. إذا حدث أي شيء – إذا قرر أحد تلك الويفرن التي تحوم حول البلدة الالتفات إليهم – فسيكونون بلا دفاع وعرضة للخطر. لكن كذلك حال الناس الذين يحمونهم.

يحلق ثلاثي من الغريفيونات للداخل، متدلين جميعًا ببعض من سكان البلدة بين مخالبهم، ينزلونهم عند مدخل المنجم ويلتفون عائدين للقيام بجولة أخرى.

تمزقني الطاقة وأنا أصوب صاعقة نحو الفينين، لتسحق هذه المرة مبنى خارجيًا على طول التل إلى يميننا. تتشقق الألواح وتتطاير شظايا الخشب بينما ينهار المبنى.

ينجذب انتباه الفينين للأعلى فجأة، وتتقلص معدتي عندما تلمحني. يقطر الخبث الصافي من عينيها الحمراوين وهي تمد يدها اليسرى للأمام، ثم تقلبها وتقبض على الهواء.

تتساقط الصخور وتتدحرج نزولًا على سفح الجبل.

ترفع سوليل يديها، وتوقف الانزلاق الصخري قبل أن يسحق الناس الذين يركضون نحو المنجم بالأسفل. ترتجف ذراعاها، لكن الصخور الضخمة تتساقط على جانبي مسار الإجلاء، تاركة طريق الهروب مفتوحًا.

أستدير بسرعة عائده بنظري نحو الفينين وأشهق بصدمة.

القوة الخام ملموسة في الهواء، توقف شعر ذراعيّ بينما تقف الفينين وكفاها موجهتان نحو الأرض. يتحول العشب من حولها إلى اللون البني، ثم تذبل أزهار شجيرات البرسيم البري وتتجعد أوراقها، فاقدة كل ألوانها.

'تايرِن، هل هي...'

يزمجر قائلاً:

'تقوم بالتوجيه السحري.'

أقذف بومضة طاقة أخرى بينما ينتشر الخراب متمددًا من الفينين، وكأنها تستنزف جوهر الحياة من الأرض نفسها، لكن الصاعقة تضرب مكانًا قريبًا جدًا من الطريق، ومن المتخلفين الذين يركضون نحو الأمان، مما يثير فزعي وعدم ارتياحي.

يقول لي تايرِن بينما أطلق صاعقة أخرى تسقط بعيدة كل البعد عن الفينين:

'احترسي. يقول ديغ إن ذلك المبنى على الجانب الآخر من الطريق يحتوي على صندوق لشيء يحمل شعار عائلة ليام.'

يتوقف قليلاً وهو ينقل المعلومات ثم يكمل:

'يقول إنه شديد... الانفجار وغير مستقر.'

أجيبه بينما تتسع دائرة الموت تحت أجنحة تايرِن الخافقة، وأستمد المزيد من القوة من تايرِن، متأهبة للضرب من جديد:

'لست قلقة بشأن المبنى.'

تندفع سوليل مهاجمة الفينين وفويل تتعقبها عن قرب، وقد أخفت خنجرها في راحة يدها متأهبة للقتال بينما ينجح بقية سكان البلدة في الدخول إلى النفق.

كل هذا العناء يستحق ما داموا سينجون.

تندفع موجة الموت للأمام من الفينين، تتدفق للخارج وتدرك مدنيًا هاربًا في منتصف الطريق. يسقط أرضًا، ثم يصرخ بلا صوت، متكورًا على نفسه بينما يتحول جسده إلى مجرد قشرة مجوفة.

يتجمد الهواء في رئتيّ ويتعثر نبض قلبي. هذه الفينين للتو...

أصرخ:

– «سوليل!»

لكن الأوان كان قد فات بالفعل. تتعثر طالبة السنة الثالثة بضع خطوات داخل منطقة الموت الخالية من الحياة، ويمد تنينها عنقه نحوها قبل أن ينهارا ويسقطا معًا، لتثير فويل سحابة من الغبار إثر ارتطامها الثقيل.

تجف أجسادهما في غضون ثوانٍ، وتتقلص وتذبل. تلتف ملزمة حول صدري، ولثانية واحدة، أعجز عن التنفس. الفينين تمتلك الآن قوة أكبر.

أنظر من فوق كتفي لأرى ليام يركض بأقصى سرعة نحو ديغ. إنه بحاجة إلى الوقت. أقول:

'أخبر ديغ!'

'لقد فعلت.'

يميل تايرِن إلى اليسار بينما تتلوى كرة نارية مندفعة نحونا، وهي الأولى من وابل نيران يجبرنا على التراجع عبر الطريق.

أخبر زايدن:

'لقد فقدنا سوليل.'

الاعتراف الوحيد الذي أتلقاه هو موجة من الأسى الساحق، وأنا أعلم أنها نابعة منه.

تحلق الغريفيونات، ويستخدم طياروها ما يبدو أنه سحر بسيط ضد الفينين بينما يقترب اثنان من الويفرن، كلاهما بلا راكب.

أقول لتايرِن:

'أخبرهم أن يغيروا تكتيكاتهم. لن يكون لديهم أي فرصة للنجاة إذا لم يتمكنوا من الاقتراب من تلك الفينين.'

تغير الغريفيونات مسارها، وأطلق العنان لقوتي مرة أخرى، فأضرب مكانًا أقرب إلى الفينين. ترمقني بنظرة غاضبة للأعلى، ثم تلتفت عند سماع صوت خفقان الأجنحة.

غاريك والطلاب الآخرون الموشومون من السنة الثالثة قادمون. إنها أقل عددًا، واللعنة، آمل أن تدرك ذلك.

تتحد الغريفيونات لتهاجم بضراوة أحد الويفرن المقتربين بينما يمتطي ليام ديغ الذي ينطلق محلقًا، فارًا من حلقة الموت المتسعة، لكن الويفرن الآخر ينخفض متجهًا نحو الفينين.

في مسار مباشر سيمر بجوار المبنى الخارجي.

أسأل:

'لقد قلت إن ذلك المبنى يحتوي على مواد غير مستقرة، أليس كذلك؟'

'نعم.'

لا يمكنني التأكد من إصابته بدقة، ولكن ــــ

يعقب تايرِن:

'فكرة ممتازة.'

يضعنا تايرِن في موقعنا، محومًا على ارتفاع عشرين قدمًا تقريبًا فوق سطح الأرض بينما يطير ليام لدعم الغريفيونات فوقنا، موجهًا رماحًا من الجليد نحو حلق

الويفرن المصاب. تتدفق الدماء بينما يسقط الويفرن من السماء بصرخة تخترق الآذان.

سقط واحد.

تصل الفينين إلى الطريق، وينزلق الويفرن في هبوطه على المسار الترابي لتتمكن من امتطائه.

أصرخ:

– «الآن!»

يأخذ تايرِن نفسًا عميقًا وينفث نارًا خالصة بمجرد أن يقلع الويفرن، ليحيل المبنى الخارجي إلى كتلة لهب تشعل كل ما بداخله. تندفع الحرارة لتلفح وجهي، وتحرق وجنتي بينما ينفجر المبنى، مبتلعًا كل ما يحيط به.

تكاد العاصفة النارية تدركنا، لكن تايرِن يميل بقوة نحو اليسار، مفلتًا من الانفجار بصعوبة بالغة.

أصيح منتشية رافعة قبضتي في الهواء ونحن نلتف عائدين، بينما تخفف الرياح من لسعة الحرارة في وجنتي. لقد أسقطنا ويفرن واحدًا، وأجلينا جزءًا كبيرًا من سكان البلدة، ومن المستحيل أن يكون أي شيء قد نجا من ذلك الانفجار.

يخفض تايرِن جناحه الأيمن ونستدير بحدة، متأهبين للقيام بجولة أخرى عبر البلدة. ألمح الجانب الأيمن بنظرة سريعة وأشهق بصدمة. لم يقتصر الأمر على أن ذلك الانفجار لم يقتل الويفرن فحسب، بل إن راكبته لا تزال حية وبصحة جيدة أيضًا، وتطير نحو ــــ

سحقًا. سحقًا. تبًا.

عدد الويفرن الخارجين من الوادي إلى الجنوب يفوق عدد التنانين، وأحاول جاهدة ألا أستسلم للذعر عندما يندفع تيار من النار الزرقاء الحارقة متجاوزًا إيانا.

أستدير في السرج لأرى ويفرن يتعقبنا من الخلف، ويقترب بسرعة مرعبة بينما ندور حول أسوار النقطة التجارية.

أسأل تايرِن، بينما يجثم الذعر على صدري كمرساة تهدد بسحبي للأسفل في فوضى أفكاري:

'أي أفكار حول كيفية قتل هذا العدد الكبير من الويفرن؟'

هناك ستة ويفرن على الأقل، مما يمكنني رؤيته، وجميعهم يمتلكون أجنحة مرعبة الاتساع وأسنانًا حادة، ويتجهون مباشرة نحونا.

يجيب تايرِن، وهو يستدرج الويفرن بعيدًا عن وسط النقطة التجارية، حيث يطارد غاريك وبودهي الفينين من برج الساعة على الأقدام، بخناجرهما المسلولة:

'بالطرق ذاتها التي يمكن أن تقتلنا نحن.'

'لا أملك قوسًا وسهامًا بين يديّ بالضبط في هذه اللحظة!'

'لا، لكنك تملكين البرق، وصاعقة واحدة منه كفيلة بإيقاف قلب أي تنين.'

أقول:

'أخبرني أنك حذرت الآخرين حول كيف لاقت سوليل وفويل حتفهما.'

أي شخص يلامس الأرض فهو عرضة للخطر.

يجيبني:

'جميعهم يعلمون حجم المخاطرة التي يخوضونها.'

يا إلهي، لا يزال هناك أطفال بالأسفل، بعضهم يصرخون، والبعض الآخر صامتون بصمت يفطر القلب بينما تسحب أمهاتهم أجسادهم الهامدة من الشوارِع.

لا توجد كلمات تصف ذلك.

أخبر زايدن ذهنيًا، ملتفة في السرج قدر ما تسمح به الأحزمة الملتفة حول فخذي للحصول على رؤية أفضل للمجال الجوي والويفرن، حيث بدا أن بعضهم قد أبطأ سرعته للدوران حول بقايا برج الساعة:

'علينا أن نستدرجهم بعيدًا عن المدينة.'

يقول تايرِن:

'مهما كان ما يبحثون عنه، فلا بد أنه هناك.'

يرد زايدن:

'أوافقكما على كلا الأمرين. افعلوا ما بوسعكم لمنح البقية وقتًا للإخلاء. نحن نطهر أطراف البلدة الآن.'

يتوقف للحظة، وتعبر موجة من القلق حاجزنا العاطفي ليضيف:

'حاولي ألا تموتي.'

أجيبه:

'أعمل على ذلك.'

يغوص ويفرن للأسفل فقط ليرتفع مرة أخرى وساق بشرية تتدلى من بين أسنانه.

نلتف عائدين، ثم نتجه جنوبًا عبر النقطة التجارية، مبتعدين عن وسط المدينة وعن أي كان ما يفعله بودهي وغاريك. يزمجر تايرِن:

'إنهم لا يتعقبوننا. سنحتاج إلى استدراجهم للخارج.'

أقول:

'لم يبدُ أن تلك الفينين أعجبها استخدامي للبرق.'

'أنتِ تمثلين تهديدًا.'

'إذن فلنلفت انتباههم ونصبح تهديدًا مباشرًا.'

يزمجر تايرِن مستحسنًا الفكرة.

أفتح بوابات سد قوة تايرِن، تاركة إياها تغلي وتتأجج تحت جلدي.

وبمجرد أن أصبحنا خارج الأسوار، أرفع يديّ عاليًا وأترك القوة تنفجر متحررة من قيودها.

تشق صواعق البرق كبد السماء، مجتذبة انتباه حشد الويفرن، لينفصل أحدهم عن تشكيل تحليقهم ويندفع نحونا، وذيوله الشائكة السامة تتأرجح خلفه.

ربما لم تكن هذه أفضل فكرة على الإطلاق.

يذكرني تايرِن:

'لقد تورطنا وتعهدنا بالأمر الآن.'

صحيح.

أصبحوا أخيرًا خارج أسوار المدينة.

أستدعي المزيد من القوة وأوجهها، وذراعاي ترتجفان من الجهد المبذول للسيطرة على طوفان الطاقة الخام. تضرب صاعقة برق مرة واحدة، وتخطئ الويفرن بمسافة أكبر مما أود الاعتراف به. يملأ الرعب فمي بطعم الرماد. أنا لست مستعدة لهذا.

'حاولي مجددًا.'

'لا أملك سيطرة كافية ـــــ'

يطالبني تايرِن بصرامة:

'حاولي مجددًا!'

أوجه طاقتي مجددًا، محطمة الجدران الفاصلة بيني وبين تايرِن، فتتدفق المزيد من الطاقة التي يوجهها لتمزق عروقي. يشق البرق السماء ذات لون الشفق بانفجار ساطع لدرجة أنني أرمش بقوة.

'مجددًا!'

أسمح للقوة باجتياحي مرة تلو الأخرى، مركزة على موقع الويفرن بينما يتفادى تايرِن اندفاعات النار الزرقاء. أخيرًا، تصيب صاعقة الويفرن الذي يتعقبنا، لتسقطه من السماء. يرتطم بسفح التل محطمًا بصوت يبعث على الرضا.

أسأله، وأنا أرتجف من الجهد المبذول للسيطرة على القوة، مكافحة لمنعها من السيطرة عليّ بالكامل. يتصبب العرق من وجهي:

'ماذا عن الفينين المرتبط به؟'

يجيبني:

'نأمل أن يكونوا مثلنا. تقتلين الويفرن فيموت الراكب، لكن من الصعب الجزم بذلك مع وجود هذا العدد الكبير من الويفرن بلا ركاب.'

أرد وأنا أستدير في السرج لأراقب برعب اثنين آخرين من الويفرن بلا ركاب يطيران خارج الوادي:

'«نأمل» ليست أفضل كلمة في الوقت الحالي... المدنيون يحتاجون المزيد من الوقت للوصول إلى المنجم. لنمنحهم إياه.'

يزمجر تايرِن بالموافقة، ونندفع مسرعين عائدين فوق النقطة التجارية.

زايدن يمسك بأحد الويفرن من حلقه، خانقًا إياه بظلاله بينما يلقي طالب سنة ثالثة بالجليد على راكبه، ويبذل الأربعة الآخرون قصارى جهدهم لدفع القادمين الجدد للوراء بمزيج من نيران التنانين والسحر.

تصعقني القوة في موجة تلو الأخرى من الاحتراق بينما أوجه قدرًا من البرق يفوق ما استخدمته يومًا في التدريب. أرجح ذراعي وأصوب صاعقة أخرى نحو ويفرن يطير بالقرب من البوابة الأمامية – أو ما كان يُعرف بالبوابة الأمامية. أخطئ الويفرن لكنني أضرب برجًا فارغًا، مرسلة الحجارة لتتطاير في كل الاتجاهات،

لتصيب قطعة ضخمة منها ذيل أحد الويفرن وتجعله يدور حول نفسه في منتصف الهواء.

يميل تايرِن في التفاف حاد آخر ونعود لندور حول المكان. آخذ نفسًا عميقًا، ثم أستدعي صاعقة برق – لتضرب هذه الصاعقة ويفرن مباشرة في أعلى ظهره بأزيز يثلج الصدر. يصرخ الوحش العملاق، ثم يتحطم على سفح تل قريب بدوي رعدي.

ألتف عائدة للقيام بجولة أخرى، ومنتشية بنشوة صيدي الأخير، أطلق ثلاث صواعق برق أخرى بتتابع سريع.

لسوء الحظ، السرعة الأكبر لا تعني دقة أكبر، واندفاع الأدرينالين لا يساعدني على التصويب أيضًا. ومع ذلك، تمكنت من إحداث ثلاثة انفجارات مروعة أخرى – شتت أحدها انتباه ويفرن ضخم نوعًا ما كان يتعقب بودهي، مما منحه لحظة من التفوق استغلها تنينه بالالتفاف يسارًا بحدة والصعود خلف الويفرن ليغرس أسنانه في عنقه الرمادي الجلدي. سُمع صوت طقطقة منذرة بالشؤم، ثم أفلت تنين بودهي جسد الويفرن الهامد، تاركًا إياه يسقط على الأرض من ارتفاع خمسين قدمًا بالأسفل.

أصرخ حين يظهر اثنان آخران من الويفرن في مجال الرؤية على جناحنا الخلفي:

– «على اليسار!»

أترك مناورات المراوغة والتفادي لتايرِن وأركز على إنزال أكبر عدد ممكن من الضربات بينما يكتسب الويفرن سرعة متزايدة نحونا. ترتجف ذراعاي، وتزدادان ضعفًا مع كل صاعقة أحاول السيطرة عليها لتجنب إصابة ركابنا.

تطير سجايل على الجانب الغربي من النقطة الأمامية، ويزحف قلبي إلى حلقي عندما تنخفض في طيرانها، ويقوم زايدن بقفزة ركض مذهلة من على ظهرها، ويهبط متدحرجًا على الشارع بالأسفل. على الفور تقريبًا، تنسحب الظلال في كل اتجاه لتغطي الأشخاص الذين يصرخون وهم يحاولون الركض بحثًا عن مخبأ من الفكوك الزمجرة لويفرن جائع.

لابد أن أحد الويفرن المتعقبين لنا لاحظ خروج زايدن من السرج، لأنه يطوي جناحيه للحظة، غائصًا نحو الأرض، ليفتحهما مجددًا ويندفع صعودًا في اللحظة الأخيرة، منزلقًا على بعد أقدام قليلة فوق الظلال الحريرية. تبًا. إنه يتجه مباشرة نحو زايدن، فاغرًا فكيه على اتساعهما وكأنه يخطط لالتقاط زايدن كوجبة خفيفة سريعة.

أصرخ بأعلى صوتي:

– «زايدن!»

لكنه كان قد لاحظ الويفرن بالفعل، فرمى حبلًا من الظلال عاليًا فوق المباني ليلتفه كأنشوطة مثالية حول رأس سجايل، فانتزعته عن الأرض وأخرجته من مسار الويفرن المندفع نحوه. في دقيقة واحدة كان زايدن يتدلى من حبل الظل، وفي الدقيقة التالية عاد إلى سرجه بينما تميل سجايل للقيام بجولة منخفضة أخرى عبر البلدة.

لكنني كنت شديدة التركيز على زايدن لدرجة أنني نسيت تمامًا أمر الويفرن الذي يتعقبني. غير أن تايرن لم ينسَ، وبدأ يتسلق أعلى فأعلى، مستدرجًا الويفرن بعيدًا عن النقطة التجارية بينما يكتسب ارتفاعًا بسرعة تثير الغثيان.

يصرخ زايدن:

– «ڤيولينس! أسفلك!»

أنظر للأسفل وأشهق. تيار من النار الزرقاء يتصاعد نحونا. أصرخ لتايرِن:

'مِل!'

يميل تايرِن يسارًا، وأفقد اتزاني في السرج، ولا يمسكني سوى الأحزمة وهو يقلبنا رأسًا على عقب ليتفادى الانفجار بصعوبة. لكن عندما يعتدل، لا يزال الويفرن يتعقبنا. يقفز قلبي إلى حلقي بينما ينفتح فم الوحش على اتساعه، وتصطك أسنانه الحادة الملطخة بالدماء وهو يندفع نحو جانب تايرِن.

أصرخ وأنا أرفع ذراعيّ لإلقاء صاعقة في اتجاهه وأستعد للارتطام:

– «لا!»

ينطلق وميض أزرق غامض بيننا، ويُطاح بالويفرن بعيدًا بفعل جسد تنين بلون أزرق داكن – إنها سجايل. تمزق فكوكها جانب الويفرن في عدة عضات سريعة ووحشية، لتمزق اللحم ويتناثر الدم في أكثر وجبة دموية ومروعة في منتصف الهواء أراها في حياتي. ثم تنقلب وتلتقط الويفرن الملتهم من رأسه بذيلها الخنجري، لتطير بجسده الميت عدة مئات من الأقدام قبل أن تلقيه ليتحطم على الأرض.

تزيد سجايل من سرعتها، وتميل محلقة بجوارنا مباشرة، وينزلق جناحها تحت جناح تايرِن بشيء يشبه المودة – وهو ما يتناقض تمامًا مع النظرة المهددة التي بدت موجهة إليّ، ولا تزال دماء الويفرن تقطر من فكيها. الرسالة وصلت. مهمتها هي حراسة ظهر زايدن، ومهمتي هي حراسة ظهر تايرِن.

أقوم بالتفافة سريعة في سرجي، متفحصة كل الجوانب بحثًا عن المزيد من الويفرن، ثم أقول لتايرِن:

'دعنا نرتفع أكثر لنتمكن من إحصاء أفضل لما نواجهه.'

بالكاد نصل إلى ارتفاع مائة قدم فوق البلدة عندما ألمح ليام وديغ يطيران بقوة وسرعة في الاتجاه المعاكس، وفي أثرهما فينين يمتطي ويفرن ليتعقبهما.

أندفع مفسرة:

'ليام بحاجة إلى المساعدة!'

يقول تايرِن وهو يقلبنا في منتصف الهواء:

'علم.'

نتعلق في السماء لثانية قبل أن تلتقط أجنحته الضخمة الهواء وتوجهنا لنتجه مباشرة نحو ليام.

يرفع الفينين عصا من نوعٍ ما، ويرسل كرات من اللهب الأزرق نحو ديغ، لكنه يتمكن من تفاديها جميعًا بينما يقف ليام ويركض على طول العمود الفقري لديغ نحو ذيله الخنجري. في اللحظة الأخيرة، يستخدم ديغ ذيله ليقذف بليام عاليًا في الهواء نحو الويفرن. لم يتسنّ لي حتى الوقت لأصرخ قبل أن يهبط ليام جاثيًا على مؤخرة الويفرن، ويسحب أحد الخناجر المزينة بالرموز كالتي أعطاني إياها زايدن.

يستدير الفينين بسرعة رافعًا عصاه، لكن ليام كان وحشيًا في سرعته فشق حلق الفينين بدقة مريعة. يتوقف الويفرن عن خفق جناحيه في غضون ثوانٍ، ويسقط جسده الثقيل سقوطًا حرًا نحو الأرض، بينما يقفز ليام من على ظهره تمامًا في اللحظة التي يطير فيها ديغ أسفله، ليلتقطه بسهولة.

يطير ويفرن نحونا من اليسار، مقتربًا بضربات قوية من جناحيه.

أصيح:

'تايرِن!'

يملأ السحر عروقي وأرفع يديّ، لكن تايرِن يتدحرج، قالبًا عالمي رأسًا على عقب وهو يمرر مخالبه وذيله الذي يشبه «صالب الدمار» على طول الويفرن، من حلقه حتى ذيله، شاقًا إياه في منتصف الهواء، ثم يعتدل بينما يرسم الويفرن مسارًا دمويًا نحو الأرض.

الاندفاع الذي يغمر رأسي ناتج عن ما هو أكثر من مجرد بهلوانيات تايرِن.

للمرة الأولى منذ أن وافقنا على محاولة الدفاع عن المدنيين في هذه النقطة التجارية، ومنذ أن أُخبرنا بوجود أربعة فينين وأنه لا سبيل لنا للفوز، يبدأ جزء من الذعر الجاثم على صدري في الانحسار. ربما نتمكن حقًّا من النجاة اليوم. ربما.

في تلك اللحظة بالذات، يسقط ويفرن آخر من سحابة فوقنا، منقضًا على تايرِن، ومكتسبًا سرعة وهو يطوي جناحيه ليتحول إلى رمح برأس مليء بالأسنان.

لا يوجد وقت لمناورات المراوغة. إنه على بعد ثوانٍ – لكن اللون الأحمر يملأ مجال رؤيتي، وكان ديغ هناك، مندفعًا ليصطدم بجانب الوحش الرمادي الضخم.

لا مجال لالتقاط أنفاس الراحة، حيث يؤدي الاصطدام إلى قذف ليام من على ظهر ديغ ليتطاير عبر قاعدة عنق تايرِن بسرعة قاتلة.

يصرخ:

– «ڤيوليت!»

– «ليام!»

أمسك بيديه المتخبطتين وهو ينزلق من بجانبي وأتشبث به بقوة، وتنفلت مني صرخة عندما تطقطق كتفاي وتتخلعان جزئيًا من شدة ضغط التقاط وزنه، ويميل تايرِن في التفافة حادة ليتعقب ديغ. أصرخ به:

– «تشبث جيدًا!»

بوجه يكسوه الألم، يزحف ليام للأمام على مرفقيه رغم الزاوية المستحيلة، ثم يمسك بمقابض السرج. ألقي بنفسي فوقه، محتمية برأسه ومتشبثة بكل ما أوتيت من قوة بينما يتدحرج تايرِن ويميل ليبقى قريبًا ولكنه بعيد بما يكفي عن مسار ديغ والويفرن الرمادي الضخم.

مشتبكين في معركة على بعد أقدام قليلة فقط، تمزق مخالبهما حراشف بعضهما البعض وسط اصطكاك الأسنان – وزئير ديغ الكارثي الناجم عن الألم. إنهما قريبان جدًا بحيث لا يسعني التصرف، وليس هناك ما يضمن أنني سأصيب الويفرن بالبرق دون أن أصيب ديغ.

لا يسعني فعل شيء سوى تأمين ليام.

أمسك بحزام الخصر الذي لا أستخدمه أبدًا، وألفه حول جذع ليام وأحكم إغلاقه وأصرخ وسط الرياح العاتية التي تضربنا من كل جانب:

– «هذا سيثبتك حتى نتمكن من إعادتك إلى ديغ، لكنني لا أستطيع التوجيه السحري دون أن أصيبه!»

العذاب الذي يرتسم في عينيه يسلبني أنفاسي.

أبكي وأنا أبحث بأصابعي عن نقطة إمساك في ملابسه الجلدية لأسحبه أقرب إليّ. أكتفي بمؤخرة ياقته وأجذبه:

– «لماذا فعلت ذلك؟ لماذا تخاطر بهذا الشكل؟»

يا إلهي، إذا حدث لهما أي شيء...

تتلاقى نظراته مع نظراتي ويقول:

– «ذلك الشيء كان سيقتطع جزءًا من تايرِن. لقد أنقذتِ حياتي، والآن جاء دوري. بغض النظر عما تظنينه بي بسبب إخفائي للأسرار، نحن أصدقاء يا ڤيوليت.»

يصبح الرد مستحيلاً عندما يتدحرج تايرِن مجددًا، رافعًا جسد ليام بالكامل، فينزلق الحزام الجلدي ليصبح أسفل ذراعيه مباشرة. أقبض بيديّ على الجزء الخلفي من ملابس طيرانه الجلدية، لكن لا يوجد الكثير لأتشبث به. تمر عدة نبضات ولا أقوى على التنفس، ولا أستطيع التفكير في شيء سوى يأسي لإبقاء

ليام آمنًا، حتى يعتدل تايرِن مرة أخرى، محاولاً البقاء قريبًا من ديغ قدر الإمكان دون المخاطرة بأي منا في هذه العملية.

ولكن بعد ذلك تمزقني صرخة ديغ حتى العظم بينما ينخرط الاثنان في غوص حاد.

أتوسل لتايرِن:

'ألا يمكنك أن تفعل شيئًا؟'

'أحاول!'

يميل تايرِن يمينًا ويهوي، متخذًا موقعًا حول المعركة التي تدور في دوامة نحو الأسفل ليتمكن من تسديد ضربة. كان ينبغي أن نكون نحن من يقاتل من أجل حياتنا، وليس ليام وديغ.

ويا إلهي، ديغ يخسر المعركة، وهذا يعني أن ليام ـــــ

ينقبض حلقي. لا. لن يحدث هذا.

أصرخ لزايدن ذهنيًا. تطقطق الطاقة بين يديّ، لكن لا يوجد هدف واضح.

إنهما يتحركان بسرعة كبيرة:

'تعال إلى هنا!'

يجيبني:

'أنا أطارد الفينين عند الأسوار!'

'ديغ يصارع من أجل حياته!'

نبض الرعب الذي يعتصر صدري كالملزمة ليس نبضي أنا. إنه زايدن.

يخبرني:

'إذا غادرت، سيموت كل هؤلاء المدنيين!'

نحن وحدنا الآن. نظرة سريعة إلى الميدان تخبرني أن كل التنانين الأخرى منخرطة في معركتها الخاصة.

يتأرجح ذيل تايرِن، ليصطدم بالأطراف الخلفية للويفرن، ويخرج ملطخًا بالدماء، لكن ذلك الشيء اللعين لا يفلت ديغ. تنقبض مخالبه، غائصة أعمق تحت حراشف التنين الأحمر.

يصرخ ليام بمرارة، وصوته ينكسر في النهاية:

– «ديغ!»

يندفع تايرِن، عاضًا كتف الويفرن ليسيل دمه، لكن ذلك لا يكفي. يلتف ليحصل على زاوية أفضل لمهاجمة الويفرن، والقوة الناجمة عن ذلك كادت تفقد ليام قبضته، لكن الإبزيم يصمد.

يطير ويفرن آخر بلا راكب نحونا من اليمين. أصرخ:

– «على اليمين!»

يلوي تايرِن جسده بسرعة لم أشعر بها من قبل ويمزق حلق التهديد الجديد، هازًا الويفرن كدمية، ثم يفلت فكيه ويترك الشيء يسقط مئات الأقدام نحو سفح الجبل بالأسفل.

ثم يغوص تايرِن للحاق بديغ والويفرن اللذين يتسابقان نحو الأرض.

يستقر الرعب في صدري، منذرًا بالشؤم وثقيلًا.

يقول زايدن:

'نحن في طريقنا!'

لكنه سيصل متأخرًا جدًا.

يصرخ ليام محاولًا التغلب على صوت الرياح، فأنتزع انتباهي من المعركة المروعة إلى جانبنا بينما نهوي في دوامة للأسفل:

– «ڤيوليت! يجب أن نقضي على الركاب.»

أجيبه:

– «أعلم! سنفعل ذلك!»

كل ما عليه هو التشبث. كلاهما عليهما ذلك.

يحاول ليام التوضيح:

– «لا، أقصد أن تلك هي ــــ»

يندفع تايرِن مجددًا، ونُقذف جانبيًا بينما يمزق فجوة أخرى في أجنحة الويفرن بأسنانه، ممررًا مخالبه على ذيله، لكن المخلوق يمسك بديغ بقبضة الموت. أجنحته ممزقة الآن، لكن لا يبدو أنه يبالي بينما تنغرز مخالبه في بطن ديغ السفلية، وكأنه مستعد للموت بتهور في سبيل إنجاز القتل.

أعد ليام والرياح تلسع وجنتيّ:

– «سيكون كل شيء على ما يرام.»

يجب أن يكون كل شيء على ما يرام؛ على الرغم من أن الأرض تندفع نحونا، وتقترب أكثر فأكثر في كل ثانية، يجب... أن يكون كذلك وحسب.

يصرخ ديغ مجددًا، بصوت أضعف وأكثر حدة من سابقه. إنها صرخة بكاء.

يحذر تايرِن:

'علينا أن نرتفع!'

يصرخ ليام وهو يندفع عبر ظهر تايرِن، مادًا يده نحو تنينه وكأنه يحاول لمس ذيله الخنجري الأحمر لمرة أخيرة:

– «إنه يحتضر!»

أشرع في القول:

– «فقط تشبث ــــ»

لكن صرخة ألم ديغ تغلق حلقي، وتخنق الكلمات. إنه يتم تمزيق أحشائه، ولا يوجد شيء يمكننا فعله.

يزأر الويفرن بنشوة الانتصار قبل نبضة واحدة من اصطدامهما بسفح التل بضربة مروعة. يبتعد الويفرن متعرجًا على ساقيه الخلفيتين والمخالب التي تتوج أجنحته.

لا يتحرك ديغ.

صرخة ليام الممزقة تحطم قلبي، ويفرد تايرِن جناحيه، ويميل بقوة ليقينا من المصير البشع ذاته.

يصرخ تايرِن بألم، ويجتاح حزنه جسدي بينما يوجه نارًا نحو ظهر الويفرن المنسحب:

'ديغ.'

وتملأ صرخة أندارنا رأسي.

لا. إذا كان ديغ...

لا أستطيع إجبار نفسي على إكمال الجملة وأنا أسأل تايرِن:

'هل هو ـــــ'

يقول تايرِن وهو يعكس مساره، منطلقًا نحو سفح التل خارج أسوار المدينة حيث سقط ديغ:

'لقد مات.'

لا. لا. لا. هذا يعني أن...

أصرخ ممسكة بصديقي بينما نهبط بسرعة، ومخالب تايرِن تنغرز في الأرض لتوقفنا بالقرب من جسد ديغ:

– «ليام!»

يحذرني تايرِن:

'ليس لديك سوى دقائق معدودة.'

يهمس ليام، ويسقط جسده هامدًا على ظهر تايرِن:

– «ديغ.»

أعده، وأنا أتعثر بالفعل في فك إبزيم الحزام:

– «سآخذك إليه.»

أبكي لزايدن، وصوتي يرتجف بشدة:

'لقد مات ديغ. ليام يحتضر.'

'لا.'

أشعر برعبه، وحزنه، وغضبه العارم يلتف حول عقلي، ممتزجًا بمشاعري حتى بات التنفس يؤلمني.

دقائق. لدينا دقائق.

أهمس لليام، وأنا أكافح كي لا أبكي بينما ينظر إليّ بتلك العينين الزرقاوين بلون السماء، المتسعتين صدمة وألمًا:

– «فقط تماسك.»

بعد كل ما تخلى عنه ليام من أجلي، هذا أقل ما يمكنني فعله من أجله. يمكنني أن أوصله إلى ديغ بالطريقة ذاتها التي أعرف أنه كان سيحملني بها إلى تايرِن أو أندارنا.

يرقد تايرِن تمامًا، مسطحًا هيكله الضخم قدر الإمكان بينما أفك أحزمة فخذيّ. ثم ألف ذراعيّ حول هيكل ليام الضخم وننزلق على جانب تايرِن، لتضرب أقدامنا التل الصخري بعيدًا عن النقطة التجارية.

يرقد ديغ على بعد بضع عشرات من الأقدام، وجسده مطوي بزاوية غير طبيعية.

هذا ليس عادلًا. هذا ليس صحيحًا. ليس ديغ. وليس... ليام. إنهما الأقوى في عامنا. إنهما الأفضل بيننا.

يقول ليام وهو يتعثر متخبطًا للأمام ويسقط:

– «لا أستطيع الوصول.»

أندفع لأمسك به وهو يسقط، لكن وزنه الهائل يفوق طاقتي، فنجثو كلانا على ركبتينا. أقول بصعوبة عبر حلقي المنقبض، وأنا أحاول وضع ذراعه فوق كتفيّ:

– «يمكننا الوصول.»

نحن قريبون جدًا.

إذا اقترب أي فينين، فسأتعامل معه.

يقول، وينهار جسده عليّ منزلقًا على جانبي:

– «لا يمكننا ذلك.»

أتراجع للخلف على كعبيّ ويسقط رأسه في حجري بينما يرتخي جسده تمامًا. ينظر إليّ ويقول:

– «لا بأس يا ڤيوليت.»

أرفع نظاراتي الواقية فوق رأسي لأتمكن من رؤيته بوضوح.

إنه يكافح ليتنفس.

– «ليس هناك ما هو على ما يرام.»

أريد أن أصرخ من شدة الظلم، لكن ذلك لن يفدي شيئًا. ترتجف يدي وأنا أسحب نظارات طيرانه إلى جبهته، ثم أبعد شعره الأشقر عن جبينه وأتوسله، والدموعِ التي لا أقوى على حبسها تنهمر بحرية على وجنتيّ:

– «لا شيء من هذا على ما يرام. أرجوك ابقَ. حارب لتبقى. أرجوك يا ليام. حارب لتبقى.»

يقول ووجهه يتلوى من الألم:

– «عند المتراس الصخري ـــــ عليكِ أن تعتني بشقيقتي.»

أختنق بالكلمات والدموعِ تسد حلقي:

– «لا يا ليام.»

أمسد شعره وأكمل:

– «ستكون أنت هناك.»

إنه بخير. جسديًا، هو بخير تمامًا، ومع ذلك أقف عاجزة وأنا أراقبه يتلاشى.

– «عليك أن تكون هناك.»

عليه أن يبتسم لشقيقته التي افتقدها لسنوات ويظهر غمازته تلك. عليه أن يعطيها رزمة الرسائل التي كتبها. إنه يستحق ذلك بعد كل ما مر به. لا يمكنه أن يموت من أجلي.

أبكي مناجية:

'تايرِن. أخبرني ماذا أفعل.'

'ليس هناك ما يمكنك فعله أيتها الفضية.'

يتوسلني ليام، وعيناه تبحثان عن عينيّ بينما تضطرب أنفاسه:

– «كلانا يعلم أنني لن أكون هناك. فقط عاهديني أنك ستعتنين بـ سلون. عاهديني.»

أهمس، ممسكة بيده بقوة، غير عابئة بمسح دموعي:

- «أعاهدك. سأعتني بسلون.»

إنه يحتضر ولا يوجد شيء يمكنني فعله. لا يوجد شيء يمكن لأي شخص فعله. كيف يمكن لكل هذه القوة أن تكون لعينة وعديمة النفع إلى هذا الحد؟

يتباطأ النبض تحت إبهامي.

يجبر نفسه على ابتسامة ضعيفة، وتظهر تلك الغمازة بوضوح خافت قبل أن تتعثر تعبيراته:

- «جيد. هذا جيد. وأنا أعلم أنكِ تشعرين بالخيانة، لكن زايدن يحتاجك. ولا أقصد فقط أن تبقي على قيد الحياة يا ڤيوليت. إنه يحتاجك. أرجوكِ اسمعي منه.»

أومئ برأسي، مكافحة لرسم ابتسامة دامعة. كان بإمكانه أن يطلب أي شيء الآن، وكنت لأعطيه إياه.

- «حسنًا. شكرًا لك يا ليام. شكرًا لكونك ظلي. شكرًا لكونك صديقي.»

تصبح صورته ضبابية في عينيّ مع انهمار الدموع بوتيرة أسرع.

يصدر صدر ليام حشرجة بينما تكافح رئتاه، ويقول بصعوبة:

- «كان هذا... شرفًا لي.»

تهب عاصفة من الرياح لتبعد خصلات ضفيرتي المتناثرة عن وجهي. بعد ثوانٍ، أشعر بزايدن يركض نحونا، وسيل عارم من مشاعره يطغى على مشاعري.

ينطق زايدن بصوت مخنوق وهو يجثو أمامنا:

- «لا يا ليام.»

تعمل عضلات وجهه للسيطرة على تعبيراته، لكن لا سبيل لإخفاء اليأس الذي يضغط على اتصالنا الذهني.

يتوسل ليام بهمس مخنوق، وهو يدير رأسه نحو زايدن:

– «ديغ.»

يشتد فك زايدن وتلتحم نظراتنا فوق ليام بينما تفيض الدموع من عينيّ ويقول:

– «أعلم يا أخي. أنا أعلم.»

ينحني للأمام ويرفع ليام بين ذراعيه، ثم يقف حاملًا إياه ويضيف:

– «سآخذك إليه.»

يمشي ببطء عبر التضاريس الحصوية نحو جسد ديغ، قائلًا أشياء لا أستطيع سماعها من مكاني حيث أجثو، والحجارة تنغرز في ركبتيّ عبر القماش الجلدي بينما أراقب زايدن وهو يودعه.

يخفض زايدن ليام، مسندًا إياه على كتف ديغ السليم، ثم يجثو بجانبه، مومئًا ببطء على أي شيء قاله ليام.

تشق صرخة ويفرن الهواء فوقنا، فأنظر للأعلى بغريزتي.

سحابة من الأجنحة الرمادية المرفرفة تتحرك نحونا من أعلى الوادي. ويفرن. العشرات والعشرات من الويفرن.

أصرخ:

– «انظرا للأعلى نحو الوادي!»

يتدحرج رأس ليام ببطء بينما ينظر كلاهما.

ينحني رأس زايدن، وتتجمد أنفاسي في رئتيّ بينما تندلع الظلال للحظة حوله، كانفجار من التهديد والحزن.

بعد ثوانٍ، تملأ صرخته الصامتة الممزقة للروح رأسي بقوة شديدة لدرجة أن قلبي يتحطم كالزجاج المرتطم بأرضية حجرية.

لا أحتاج للسؤال. لقد رحل ليام.

ليام، الذي لم يتذمر يومًا من كونه ظلي، ولم يتردد لحظة في المساعدة، ولم يتفاخر أبدًا بكونه الأفضل في عامنا. لقد مات وهو يحميني. يا إلهي، وأنا للتو سألته قبل ساعة عما إذا كنا يومًا أصدقاء حقًا.

وحش واحد فقط من تلك الوحوش تمكن من قتل صديقي؛ فماذا يمكن لهذا العدد الهائل أن يفعله بحق الجحيم؟

يغوص ويفرن ملطخ بالدماء نحونا، ويلقي تايرِن جناحه فوقي. أسمع صوت اصطكاك أسنانه وصرخة حادة فوقي قبل أن يسحب جناحه.

يقول تايرِن بينما يطير الويفرن بعيدًا:

'نحن أهداف سهلة على الأرض.'

أتعثر وأنا أقف على قدميّ في الوقت المناسب لأرى زايدن يركض باتجاهي وأقول:

'إذن فلنكن نحن الصيادين.'

يمسك زايدن بكتفيّ، والعزم يكسو ملامحه ويقول:

– «ڤيولينس! أخبرني ليام أن أقول لكِ إن هناك راكبين مع ذلك الحشد.»

أرد، وسندان يجثم على صدري:

– «لماذا يخبرني أنا وليس ـــــ»

يقاطعني:

– «لأنه كان يعلم أنه سيتعين عليّ أن أكون الشخص الذي يصد الويفرن لأطول فترة ممكنة.»

يتفحص وجهي وكأنه لن يراه مجددًا.

أقول:

– «وأنا الوحيدة التي يمكنها قتلهم جميعًا.»

سيقتلني أن أقوم بالتوجيه السحري لهذا العدد من المرات، لكني أفضل فرصة لدينا. أفضل فرصة له للبقاء على قيد الحياة.

يجذبني إليه بقوة ويقبل جبهتي قائلاً ضد بشرتي:

– «يمكنكِ قتلهم. لا وجود لي من دونكِ.»

قبل أن أتمكن من الرد، يستدير نحو الوادي ويرفع ذراعيه – مطلقًا جدارًا من الظلال يبتلع المساحة بين خطوط التلال ويصرخ:

– «اذهبي! سأمنحكِ أكبر قدر ممكن من الوقت!»

كل ثانية تمثل فارقًا، ولا بد أن هذه ستكون لحظاتي الأخيرة – لحظاتنا الأخيرة.

في غضون نبضة قلب واحدة، أنظر من فوق كتفي، متجاوزة تايرِن، لأرى الأنقاض المشتعلة للنقطة التجارية. يركض سكان البلدة خارجين من أسوار المدينة، فارين من الويفرن التي تحوم فوقهم. تهوي معدتي لفشلنا – لم نتمكن من إجلاء جميع المدنيين.

مع النبضة الثانية، أستنشق نفسًا متقطعًا من الهواء المثقل بالدخان بينما يطير غريفيون وحيد عبر الضباب، يتبعه غاريك وإيموجين على تنينيهما، ولا أملك سوى الأمل في أن يكون الآخرون لا يزالون على قيد الحياة.

في النبضة الثالثة، أستدير عائدة بنظري نحو جسدي ليام ودِيغ الهامدين، فيجتاح الغضب عروقي أسرع من أي صاعقة برق وجهتها يومًا. حشد الويفرن القابع خلف جدار زايدن سيمزق تايرِن وسجايل تمامًا كما فعلوا بديغ.

وزايدن... مهما بلغت قوته، فلن يتمكن من صدهم إلى الأبد. ترتجف ذراعاه بالفعل من الجهد المبذول للسيطرة على كل هذه القوة. سيكون أول من يموت إذا لم أكن تمامًا ما أطلق عليّ تحت تلك الشجرة قبل كل تلك الأشهر. ڤيولينس.

هناك العشرات من الويفرن وأنا وحدي.

يجب أن أكون استراتيجية كـ برينان وواثقة كـ ميرا.

لقد أمضيت العام الماضي أحاول أن أثبت لنفسي أنني لا أشبه والدتي في شيء. أنا لست باردة. أنا لست قاسية. لكن ربما هناك جزء مني يشبهها أكثر مما أود الاعتراف به.

لأنني الآن، وأنا أقف بالقرب من جثة صديقي وتنينه – كل ما أريده هو أن أري هؤلاء الأوغاد بالضبط إلى أي مدى يمكنني أن أكون عنيفة.

أسحب نظاراتي الواقية لأسفل بينما أستدير نحو كتف تايرِن، ممتطية إياه بسرعة. لا داعي لأطلب منه الانطلاق، ليس ومشاعرنا متوائمة ومصطفة هكذا. كلانا يريد الشيء ذاته تمامًا. الانتقام.

أربط الأحزمة حول فخذيّ بينما يقفز تايرِن لأعلى، محلقًا بضربات ثقيلة من جناحيه الهائلين. لقد عاد الويفرن الملطخ بالدماء أدراجه، ويطير تايرِن مباشرة نحوه. لا أهتم حتى إن كان هو ذاته الذي قتل أصدقاءنا للتو. سيموتون جميعًا.

بمجرد أن نقترب بما يكفي، أدفع بيديّ للأمام، مطلقة العنان لكل قوتي بصرخة مدوية من أعماقي. يضرب البرق الويفرن من الضربة الأولى، ليرسل الوحش هاويًا نحو الأرض بالقرب من أسوار المدينة.

لكنني لم ألمح قط ذلك الذي كان قادمًا نحونا من اليسار.

ليس حتى شعرت بزئير ألم تايرِن.

لكن الأخ الثالث، الذي أمر السماء بأن تتخلى عن أعظم قواها، هو الذي تمكن أخيرًا من قهر شقيقه الغيور بثمن فادح ومروع.

– «الأصل»، خرافات الأرض اليباب



الفصل السابع والثلاثون

أستدير بحدة في السرج لأرى فينين – تلك التي قتلت سوليل، وأوردة منتفخة تشبه الفروع تتشعب من عينيها الحمراوين – تقبض على السيف الذي غرزته بين حراشف تايرِن في المنطقة الواقعة خلف جناحيه.

أصرخ محذرة تايرِن بينما تلوح الفينين بكرة من النار نحو رأسي:

'هناك فينين على ظهرك!'

تقترب الكرة النارية لدرجة أنني أشعر بلسعة حرارتها على طول وجنتي.

يتدحرج تايرِن، منفذًا صعودًا حادًا يثير الدوار، مما يرمي بثقلي عائدًا إلى السرج، ومع ذلك تتشبث الفينين بقوة، قابضة على السيف المغروز بينما تتطاير قدماها في الهواء. وفي الثانية التي يعتدل فيها تايرِن، تحدق الفينين بي وكأنني وجبتها التالية، وتخطو نحوي بعزم يملأ عينيها، قابضة على خناجر مسننة ذات أطراف خضراء.

يصرخ تايرِن:

'ثلاثة آخرون بلا ركاب يتعقبونني!'

سحقًا. هناك شيء يفوتني. إنه يراوغني على حافة عقلي كإجابة لاختبار أعلم أنني درست من أجله.

تهسهس الفينين:

– «ألستِ صغيرة جدًا لتكوني راكبة تنانين؟»

أقول بينما أفك أحزمة فخذيّ:

– «كبيرة بما يكفي لقتلك.»

تايرِن وأنا في عداد الموتى إن لم أفعل شيئًا.

أخبر تايرِن:

'أحتاجك أن تحافظ على توازنك.'

يزمجر تايرِن:

'لن تترجلي!'

أدفع الخوف جانبًا وأقول:

'لن أدعها تقتلك! لا يمكنك التخلص منها. ستغرز نصلها فيك مجددًا. يجب أن أقتلها.'

لا مكان للخوف هنا.

أقف على قدميّ وأسحب الخنجرين اللذين أعطانيهما زايدن اليوم. كل تحدٍ، وكل عقبة، وكل ساعة أمضتها إيموجين في قاعة الأثقال، وكل مرة أسقطني فيها زايدن على بساط التدريب يجب أن تعني شيئًا، أليس كذلك؟

هذا مجرد تحدٍ آخر... مع سحرة ظلام ليسوا خياليين على الإطلاق... على المتراس الصخري.

متراس صخري متحرك ومحلق.

يأمرني تايرِن:

'عودي إلى مقعدك!'

على ضوء الشمس المحتضرة والتوهج المريب للمدينة المحترقة تحتنا، أتفادى الضربة الأولى من سكينها، ثم الثانية، وأنخفض متفادية طعنة أخرى، رافعة ساعدي لأصد طعنة هابطة، وموقفة انغراز المعدن المتجه نحو وجهي. يسفر الارتطام عن صوت طقطقة أعلم يقيناً أنها لإحدى عظامي.

يشلني الألم المبرح للحظة بينما يطير الخنجر من يدي. لم يتبق لي سوى واحد. يخفق قلبي بشدة عندما تتعثر قدماي في أحد أشواك تايرِن، وأترنح.

لا أستطيع حتى احتضان ذراعي المحطمة النابضة بالألم بينما تتقدم نحو، مقتربة مني مع كل طعنة وتلويحة من خناجرها ذات الأطراف الخضراء. وكأنها تعرف بالضبط ما سأفعله قبل أن أفعله. إنها تتصدى لكل هجوم من هجماتي برد أسرع، وكأنها تتكيف مع أسلوب قتالي من خلال لحظات فقط من الاشتباك. إنها سريعة بشكل غير طبيعي. لم أرَ زايدن أو إيموجين يتحركان بهذه السرعة من قبل.

أنجح في صد كل هجوم من هجماتها، لكن لا شك أنني في موقف دفاعي. إنها لا ترتدي حتى دروعًا جلدية، بل مجرد رداء يرفرف كالشراع، ومع ذلك ـــــ

يشتعل الألم في جانبي، حارًا وحادًا، وأتراجع للوراء غير مصدقة عندما أجد أحد خناجرها ناتئًا في أسفل جانبي، أسفل حافة الدرع المصنوع من حراشف التنين مباشرة.

يزأر تايرِن وتصرخ أندارنا.

ويصرخ زايدن:

– «ڤيوليت!»

أقول وأنا أكافح غثيانًا يسيل له لعابي لأوازن نصل الفينين الوحيد الذي تبقى لي وأنتزع خنجرها:

'إنها أسرع من اللازم!'

أشك في أن الخنجر قد أصاب أي عضو حيوي من موقعه.

لكن ثمة خطب ما. يبدأ الجرح في الاحتراق، وأكافح فورًا للحفاظ على توازني بينما يتسابق حمض ناري في عروقي. لم يعد طرف السكين أخضر اللون عندما يسقط من بين أصابعي.

تلوح لي بالخنجر الآخر وأنا أدرك أنها تتلاعب بي وتقول:

– «يا لها من قوة غير مستغلة. لا عجب أنهم استدعونا إلى هنا. يمكنك أن تأمري السماء بأن تتخلى عن كل قوتها، وأراهن أنك لا تعرفين ماذا تفعلين بها، أليس كذلك؟ الركاب لا يعرفون أبدًا. سأشقكِ نصفين لأرى من أين يأتي كل هذا البرق المذهل. أو ربما أدعه هو يفعل ذلك. ستتمنين الموت إذا سلمتك إلى المعلم الحكيم الخاص بي.»

هل لديها معلم؟

إنها مجرد طالبة لعينة، مثلي تمامًا، وأنا أواجه خصمًا يتفوق عليّ بشكل مميت. بالكاد أستطيع تتبع أي يد تحمل نصلها. ذراعي تنبض بنبضها الخاص، وجانبي يصرخ ألمًا.

يأمرني زايدن:

'ساوي فرص القتال.'

يفصل زايدن بين قواه، وتندفع الظلال من المنحدرات على يساري، لتغمر العالم من حولي – وكذلك الفينين – في سحابة من الظلام الدامس.

وأنا أملك قوة النور.

أنا من يسيطر على زمام الأمور الآن، وأنا أعرف تضاريس ظهر تايرِن كظهر يدي. أتحرك نحو اليمين، حيث أستطيع الشعور بانحدار كتفه، وأتخذ وضعية القتال، وأقبض على خنجري بيدي السليمة، وأطلق العنان لقوتي لتنفجر عبر الظلام، مضيئة السماء لثانية واحدة متفرقعة ولا تقدر بثمن.

تفقد الفينين توجيهها، وتولي ظهرها نحوي. أغرز الخنجر المزين بالرموز بين ضلوعها – تمامًا حيث أراني زايدن قبل كل تلك الأشهر – وأنتزعه كي لا أفقده. تترنح الفينين للخلف، ويتحول وجهها إلى اللون الرمادي الشاحب كرماد قبل أن تسقط من على ظهر تايرِن.

أتعثر وأترنح، بينما يحترق الحمض في عروقي بشكل أسطع وأقسى، محرقًا إياي من الداخل إلى الخارج.

ألقي بالكلمة نحو تايرِن، وزايدن، وأندارنا، وسجايل... وكل من قد يستمع: 'لقد ماتت.'

تتلاشى الظلال، سامحة لضوء الغسق الخافت بالدخول بينما أتعثر متجهة نحو السرج، ممسكة بجانبي لأوقف تدفق الدم من جرح الطعنة.

يقول تايرِن بلوم:

'أنتِ مصابة.'

أكذب، محملقة بعينين متسعتين بينما ينزلق دم أسود قاتم بين أصابعي:

'أنا بخير.'

ليس جيدًا. ليس جيدًا على الإطلاق.

لن أتمكن من خوض قتال آخر متلاحم، ليس مع الجرح في جانبي، وسرعان ما سأصبح أضعف من أن أوجه السحر. القوة تتسرب مني مع دمي. أُغمد الخنجر. أفضل سلاح لدي الآن هو عقلي.

آخذ نفسًا عميقًا، وأكافح لتنظيم ضربات قلبي والتفكير.

يقول تايرِن:

'إنهم يسقطون.'

أنتزع نظري من جانبي لأرى ثلاثة ويفرن يتساقطون من السماء ويتحطمون على الأرض.

ويفرن بلا ركاب.

مخلوقون بواسطة الفينين.

وقد ماتوا جميعًا لأنني قتلت فينين واحدة.

هذا ما كان ليام يحاول إخباري به. عندما يموت التنين، يموت راكبه. ولكن على ما يبدو، عندما يموت الفينين، يموت الويفرن الذين خلقهم. جميعهم. هكذا يمكننا إنقاذ كل من في ساحة المعركة هذه.

هناك راكبان بين الحشد الذي يتصدى له زايدن.

أهمس:

'علينا القضاء على الركاب.'

يوافقني تايرِن متابعًا أفكاري:

'نعم. فكرة ممتازة.'

أسأله:

'هل أنت مستعد للمقامرة بحياتك على ذلك؟'

إذا كنت مخطئة، فكلانا في عداد الموتى، وكذلك زايدن وسجايل.

يقول وهو يميل ليطير عائدًا نحو الوادي بينما تندفع التنانين الأخرى مع ركابها لتتبعنا، ولا شك أنهم يتبعون أوامر تايرِن:

'سأراهن بحياتي عليكِ كما فعلت منذ اليوم الأول.'

فقط غاريك وتنينه البني ذو الذيل العقربي يسبقوننا، محلقين على ارتفاع منخفض وبسرعة نحو زايدن. يتابع تايرِن:

'ثلاثة من الفينين قد ماتوا، لكن واحدًا ــــــ'

أراقب برعب بينما يخرج فينين يحمل عصا بطوله من بين الظلام، ونظرته المهددة مسلطة على زايدن.

أصرخ لزايدن:

– «إلى اليسار!»

تستدير سجايل وتنفث النيران نحو الفينين، لكنه لا يتوقف حتى لبرهة.

ينحني غاريك من مقعده ويلقي خنجرًا، ولكن قبل أن يصل إلى الفينين، يضرب الطيف ذو الرداء عصاه في الأرض ويختفي وكأنه لم يكن هناك من الأساس.

لقد تحرك. لكن إلى أين؟

أصيح في وجه الرياح:

– «بحق الجحيم؟»

يقول تايرِن:

'يمكن للجنرال أن يتعرف على جنرال آخر، وذلك هو قائدهم.'

المعلم الحكيم؟

يصرخ زايدن بينما نندفع نحو مدخل الوادي:

'لا يمكنني صدهم لفترة أطول!'

كانت ذراعاه ترتجفان بشدة لدرجة تبدو معها وكأن جسده يتمزق من طبقاته ذاتها.

أخبر زايدن بينما يدفع تايرِن نفسه إلى أقصى حد:

'خطة جديدة. أحتاجك أن تُسقط الظلال.'

'ماذا؟'

إنه يترنح بالفعل؛ أستطيع رؤية ذلك من خلال الأشكال المتوترة ضد ظلاله، ويفرن يائسون لشق طريقهم عبرها.

تهزني نبرة الألم في صوت أندارنا:

'الكثير من المعاناة.'

أدير رأسي بحدة نحو النقطة التجارية وألمح بريقًا ذهبيًا. ينقبض قلبي وأقول:

'لا! المكان هنا ليس آمنًا لكِ!'

تصرخ:

'أنتِ بحاجة إليّ!'

أقول لها بينما يطير تايرِن متجاوزًا زايدن وسجايل:

'أرجوكِ اختبئي. يجب أن ينجو أحدنا من هذا.'

'زايدن، عليك أن تُسقط الظلال. إنها الطريقة الوحيدة.'

تصرخ سجايل، والخوف يغلف نبرتها بطريقة لم أسمعها من قبل:

'تايرِن!'

حتى صوت زايدن يرتجف:

'لا تطلبي مني ذلك.'

تلك الظلال ستسقط سواء أراد ذلك أم لا. إنه يقترب من حد الاحتراق الداخلي.

أستخدم كلماته السابقة وأنا بالكاد أتنفس من الألم الحارق في جانبي:

'إذا كنت قد وثقت بي يومًا يا زايدن، فأنا بحاجة إلى أن تفعل ذلك الآن.'

سيفقد نفسه للاحتراق إن لم يثق بي.

'سحقًا!'

في طرفة عين، يسقط جدار الظل، وتطير الويفرن نحونا بسرعة مرعبة. إذا لم أتمكن من فعل هذا، فلن ينجو أحد. هناك عدد كبير جدًا منهم.

'حدد موقع الراكب الأقوى يا تايرِن.'

إنه الرهان الأفضل. بل الرهان الوحيد.

نحن على بعد دقيقة واحدة من الاصطدام.

'بمجرد أن أقضي على الراكب، لن يتبقى سوى واحد يا زايدن. فقط اقتل ذلك الواحد وسيسقط بقية الويفرن.'

يقول زايدن:

'أنا قادم.'

'لكنني سأصل أولًا. تايرِن أسرع من سجايل.'

أضيف:

'لقد أنقذتنا بصدهم كل هذا الوقت.'

عندما يبدأ في الرد، أُسقط درعي الذهني، مانعة إياه من الدخول لأتمكن من التركيز.

يدير تايرِن رأسه يمينًا ويسارًا، باحثًا، وأنا أحطم آخر جدران الأرشيف الخاص بي، مبقية قدمًا واحدة بثبات على تلك الأرضية الرخامية.

يقول تايرِن، وقد استدار رأسه نحو اليمين:

'هناك. ذلك الواحد.'

في زاوية الحشد الطائر يجلس فينين، وأوردة قرمزية تخطط صدغيه وتنحدر على وجنتيه.

أسأله:

'هل أنت متأكد؟'

'متيقن.'

تندلع نار زرقاء من الحشد، وبالكاد التقط أنفاسي قبل أن يتصاعد سيل من الظلال من حواف الوادي، ليخمد اللهب.

تتموج القوة في عظامي، مهتزة بكياني كله بكمية الطاقة التي أُجبر جسدي على احتوائها.

يسألني تايرِن بينما تنقطع أنفاسي:

'أخبريني أن خطتك لا تتمثل في محاولة القفز على ظهر الويفرن؟'

مجرد ثوانٍ قليلة أخرى وسنكون قريبين بما يكفي.

أخبره:

'لست مضطرة لذلك. ألم تسمع ما قاله الفينين؟ يمكنني أن آمر السماء بأن تتخلى عن كل قوتها، لكنني سأحتاج إلى كل قطرة من قوتك لأتمكن من ذلك.'

أطلق العنان لقدرتي السحرية وأضرب مرة واحدة، فأخطئ الويفرن، ثم أضرب مجددًا، لأخطئ مرة أخرى.

إنهم يكادون يطبقون علينا بينما أضرب مرة تلو الأخرى، دافعة نفسي إلى أقصى حد بينما يخمد زايدن النيران الزرقاء قبل أن تتاح لها فرصة إحراقي حية.

لا أستطيع التصويب بدقة. لست مستعدة. ربما لو كان لدي عام أو عامان آخران للتدريب، لكن ليس الآن. أقول:

'أحتاج المزيد يا تايرِن!'

يزمجر متفاديًا لهبًا أخطأه زايدن:

'ستحترقين من الداخل أيتها الفضية! أنتِ تسيرين بالفعل على الحافة.'

ترتجف ذراعاي وأنا أرفعهما مجددًا:

'هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني بها إنقاذهم. يمكنني إنقاذ سجايل. عليك فقط أن تقرر أن تعيش يا تايرِن. حتى لو لم أعيش أنا.'

'لن أقف متفرجًا على راكب آخر يموت لأنه لا يعرف حدود طاقته. ضربة واحدة أخرى قد تكون الأخيرة لكِ. أشعر بقوتكِ تتلاشى.'

أعده بينما تملأ الطاقة جسدي مرة أخرى، وينتفض قلبي مكافحًا للعثور على الإيقاع الصحيح:

'أعرف تمامًا ما أنا قادرة عليه.'

حار. أنا أشعر بحرارة لعينة لدرجة أنني أظن أنني قد أنفجر اشتعالًا. لقد استوعبت طاقة تفوق احتمالي. أقول:

'أنا لست نايولين.'

يكاد الخوف يبتلعني بينما يركض الفينين نحونا، قريبًا بما يكفي لأرى فمه الزمجر، لكنه ليس رعبي. إنه رعب تايرِن.

تصرخ أندارنا:

'دعيني أساعدكِ!'

ينشرح قلبي حتى وإن كان يتعثر بسبب الطاقة المتدفقة في عروقي. لا أملك الوقت لأنظر لأرى أين هي – أتمنى فقط أن تكون لا تزال في النقطة الأمامية.

أقول لها:

'فقط ما أحتاجه.'

أبتلع ريقي بصعوبة، ويدي السليمة تقبض على الخنجر الملطخ بالدماء بينما نطير نحو جدار الويفرن. أمد يدي نحو قوتها الذهبية، فتنتشر أسفل عمودي الفقري وتنفجر بداخلي، ليتوقف الزمن من حولنا.

يفرد تايرِن جناحه، محومًا بنا في الهواء بينما يتحرك الويفرن نحونا إنشًا بعد إنش ثمين، مكافحين سحر أندارنا بسحرهم.

يجب أن أرغب في قتل ذلك الفينين، ورب السماوات، أنا أرغب في ذلك بشدة.

'الآن!'

أدفع ذراعيّ نحو الفينين وآمر البرق بأن يشق السماء، ويفعل، متفرعًا في كل اتجاه، لكنني أحتاج للسيطرة على واحدة فقط من عروقه الفضية الزرقاء. أركز على تلك الأقرب للفينين، منزلة إياها في دفعات بطيئة تتحدى الزمن. تهتز ذراعاي، وأشعر بقوة تايرِن تدفع حدود جسدي وأنا أسحب الفرع جانبيًا في نزوله، إنشًا بإنش بآخر ما تبقى لي من قوة، لأضعه فوق الفينين.

'المزيد يا تايرِن!'

يزأر تايرِن ويمزق البرق نفسه من خلالي، محرقًا رئتيّ ومفحمًا أنفاسي ذاتها بينما تنحسر هبة أندارنا. لست مضطرة لأن أكون قريبة منها لأشعر بإرهاقها، وبقوتها وهي تتلاشى. لكنني آخذ فقط ما أحتاجه.

ستعيش أندارنا اليوم، حتى لو كانت هي الوحيدة.

لا أملك سوى بضع نبضات من القلب وإلا ستحرقني كل هذه القوة وتقضي عليّ.

يصرخ زايدن عبر الحاجز في عقلي، وتكاد أصوات ألمه وخوفه تفوق قدرتي على التحمل. لكن لا وقت للتركيز عليه، للتساؤل عما سيحدث إن لم أنجح. لأنني الآن أركز على الانتقام ببرود من شأنه أن يجعل حتى والدتي فخورة بي.

أخيرًا، وبعد سحب البرق إلى مكانه بينما يغلي جلدي ويحترق، أحرر الزمن وأُبقي نفسي منتصبة لفترة كافية لأراه يضرب هدفه بدقة، قاتلًا الفينين من اللمسة

الأولى لطاقته. وكأن الزمن لا يزال متجمدًا، يميل جسده ببطء ليسقط من على ظهر الويفرن.

في اللحظة التالية، يسقط أكثر من نصف الوحوش من السماء، وكأنهم ضُربوا هم أنفسهم، وكأنه كان ينتظرني لتحقيق هدفي، يهددني الجرح في جانبي بإحراقي حية.

يزأر تايرِن ويتأرجح نحو ويفرن وراكبه بينما يندفعان نحونا بنظرات ملؤها القتل:

'على اليسار!'

يطير حبل من الظل للأعلى، ويلتف حول عنق الفينين بينما يميل تايرِن يسارًا ليتجنب الضربة، وأكاد أفشل في الحفاظ على مقعدي.

يسحب زايدن الفينين من على ظهر الويفرن ويجذبه للأسفل، مباشرة نحو الخنجر الذي يحمله في يده الممدودة.

تبًا، أحيانًا أنسى كم هو مميت وبديع في آن واحد.

ولعلمي أنهم جميعًا سيعيشون، أترك للجاذبية السيطرة على جسدي وأنزلق من على ظهر تايرِن.

– «ڤيوليت!»

أسمع صرخة زايدن وأنا أسقط.

في حال صادفت سمًا لا تعرفه، فمن الأفضل أن تعالجه بكل ترياق ممكن وبأي ترياق متاح. في كلتا الحالتين، سيموت المريض، لكنك على الأقل بهذه الطريقة تكون قد تعلمت شيئًا.

– الدليل الحديث للمعالجين، بقلم الرائد فريدريك



الفصل الثامن والثلاثون

أظن أنني قد أموت اليوم.

ينسكب الهواء مندفعًا وتهوي معدتي وكأنها معلقة في مكان ما فوقي.

لأنني أسقط.

أسقط في هاوية لا قرار لها.

يزأر تايرِن، والذعر الكامن في نبرة ذلك الخوار هو ما يجبر عينيّ على الانفتاح لوقت يكفي فقط لرؤيته يغوص نحوي، لكنني لا أستطيع الشعور به في عقلي، ولا أستطيع الشعور بقدميّ على أرضية الأرشيف، ولا أستطيع الوصول إلى طاقتي. أنا مقطوعة ومبتورة تمامًا عن كل شيء، ولم أعد متجذرة.

يصطدم ظهري بشيء ما، ضاربًا الهواء خارج رئتيّ، مبطئًا من سقوطي لكنه لا يوقفه، ويرتفع وميض ذهبي متلألئ وينحسر من حولي. تسكن الرياح، وتتوقف صرخات الفوضى والدمار، لكن الاحتراق الداخلي يستعر، ملتهمًا إياي بأنياب نارية. الزمن.

لقد أوقفت أندارنا الزمن بما تبقى لديها من قوة.

أنا على ظهرها، أسقط... لأنها ليست قوية بما يكفي لحملي، لكنها شجاعة بما يكفي للطيران إلى هذه المعركة. الآن تحترق عيناي أيضًا. لم يكن ينبغي لها أن تكون هنا. كان يجب أن تكون مختبئة بأمان في النقطة الأمامية، بمنأى عن الويفرن الذين يفوقونها حجمًا بثلاثة أضعاف.

هل تبقى أي ويفرن؟ هل قضينا عليهم جميعًا؟

عندما يبدأ الزمن في الجريان مجددًا، وتجلد الرياح بشرتي المكشوفة، أنزلق من على ظهرها وتطوقني أذرع بشرية قوية لتبقيني قريبة.

أعرف ذلك الصوت العميق المذعور، إنه زايدن. يقول:

– «ڤيوليت.»

لكنني لا أستطيع الحراك، ولا أستطيع حتى إجبار شفتيّ على الانفراج لأصرخ من شدة الألم حين يضغط على الجرح.

يتابع زايدن:

– «تبًا، لا بد أنه سم. عليكِ أن تقاوميه.»

سم. الخنجر ذو الطرف الأخضر.

لكن أي سم هذا الذي يمكنه أن يشلني ليس فقط جسديًا بل سحريًا أيضًا؟

يقول بصوت مرتجف:

– «سأعتني بكِ. فقط... فقط عيشي. أرجوكِ عيشي.»

بالطبع يريدني أن أعيش. أنا جزء لا يتجزأ من بقائه على قيد الحياة.

تطلب الأمر كل ما أوتيت من قوة، لكنني أتمكن من رفع جفوني لثانية واحدة، والخوف الفاضح في عينيه يرجف قلبي قبل أن أفقد الوعي.

***

يقول أحدهم بصوت عميق بينما أستيقظ لكنني لا أستطيع فتح عينيّ:

– «ربما ليس سمًا.»

غاريك، ربما؟ يا إلهي، كل شيء يؤلمني.

ويكمل:

– «ربما هو سحر.»

يتساءل شخص آخر:

– «هل رأيتم كيف وجهت ذلك البرق مباشرة نحو رأس تلك الفينين؟»

يزمجر بودهي تقريبًا:

– «ليس الآن. لقد أنقذت حياتك اللعينة. لقد أنقذت حيواتنا جميعًا.»

لكنني لم أفعل. سوليل و... ليام قد ماتا.

يهتف زايدن، وتشتد ذراعاه ضامًا إياي إلى صدره:

– «دمها أسود بحق الجحيم.»

تصرخ إيموجين بصوت لم أسمعه منها من قبل:

– «لا بد أنه سم. انظروا إليه! يجب أن نعيدها إلى باسجياث. قد يتمكن نولون من المساعدة.»

نعم. نولون. يجب أن يأخذوني إلى نولون. لكنني لا أستطيع قول ذلك، ولا أستطيع تحريك شفتيّ، ولا أستطيع حتى التواصل عبر المسارات الذهنية التي أصبحت مألوفة لي كالتنفس. انقطاعي عن تايرِن، وعن أندارنا... وعن زايدن هو عذاب قائم بحد ذاته.

يرتفع صوت زايدن:

– «تلك رحلة طيران تستغرق اثنتي عشرة ساعة. وأنا متأكد تمامًا أن ذراعها مكسورة.»

سأكون في عداد الموتى في غضون اثنتي عشرة ساعة. وعد النسيان الحلو يحوم بالفعل على حافة وعيي، وعد بالسلام إذا وافقت فقط على الاستسلام.

يقول زايدن بهدوء:

– «هناك مكان أقرب.»

وأشعر بأصابعه تمر برقة على وجنتي. حركة حانية بشكل يثير القلق.

تلتهمُني موجة أخرى من النار، محترقة كل عصب في جسدي، لكن كل ما يسعني فعله هو الاستلقاء هناك وتحملها.

أوقفوا هذا. يا إلهي، أوقفوه.

ينخفض صوت أحدهم إلى فحيح:

– «لا يمكن أن تكون جادًا.»

يحذر غاريك بينما يشدني النعاس، وهو ملاذي الوحيد من الألم الحارق:

– «ستعرض كل شيء للخطر.»

يخور تايِرن بصوت عالٍ جدًا لدرجة أن قفصي الصدري يهتز. على الأقل هو قريب.

تغمغم إيموجين:

– «لا أنصحك بقول ذلك مرة أخرى، وإلا فمن المحتمل أن يأكلك. ولا تنسَ، إذا ماتت هي، فهناك احتمال كبير جدًا أن يموت زايدن أيضًا.»

يرد غاريك:

– «أنا لا أقول إنه لا ينبغي عليه ذلك، بل أذكره فقط بما هو على المحك.»

هل يستطيع تايرِن الشعور بالانقطاع بيننا؟ هل يعاني بالطريقة ذاتها التي أعاني بها؟ هل كان السيف مسمومًا أيضًا؟ هل تستطيع أندادنا الطيران؟ أم أنها بحاجة إلى النوم؟

النوم. هذا ما أريده. نوم بارد، هنيء، وفارغ.

يصرخ زايدن في وجه أحدهم:

– «لا يهمني بحق الجحيم ما سيحدث لي! نحن ذاهبون وهذا أمر.»

يقول أحدهم، أعتقد أنه بودهي:

– «لا حاجة للأوامر يا صاحبي. سننقذها.»

يهمس زايدن في أذني:

– «كوني على قدر لقبك وقاومي هذا يا ڤيولينس.»

ثم يقول بصوت أعلى لشخص أبعد:

– «يجب أن نأخذها إليه. فلنمتطِ تنانيننا.»

أشعر بالحركة عندما يبدأ في المشي، لكن ألم الحركة ضد الجرح لا يُحتمل، وأتلاشى غارقة في السواد الدامس.

***

تمر ساعات قبل أن أستيقظ مجددًا. ربما ثوانٍ. ربما أيام. ربما هو للأبد وقد حُكم عليّ بعذاب أبدي من قِبل الإله مالك بسبب تهوري المطلق، لكنني لا أستطيع أن أندم على إنقاذهم.

ربما من الأفضل أن أموت. لكن حينها قد يموت زايدن.

مهما كان ما يقف بيننا الآن، لا أريده ميتًا. لن أرغب في ذلك أبدًا.

اندفاع الرياح المستمر على وجهي والخفقان الإيقاعي للأجنحة يخبرني أننا نطير، ويستنزف الأمر كل طاقتي لأرفع جفنًا واحدًا بينما نمر فوق منحدرات درالور. السقوط الذي يبلغ ألف قدم لا يمكن أن تخطئه العين. إنه ما جعل التمرد التايريندي ليس ممكنًا فحسب، بل شبه ناجح.

يحرق السم كل وريد، وكل نهاية عصبية في جسدي وهو يسري فيه دون رادع، مبطئًا نبضات قلبي. حتى السخرية المتمثلة في أنني سأموت بالسم، وهو أمر أمتلك معرفة لا مثيل لها به، لا يمكنها أن تجعلني أستجمع الطاقة للتحدث، أو لتقديم أي أفكار حول ترياق. كيف يمكنني ذلك وأنا لا أعرف حتى ما الذي استُخدم عليّ؟ حتى بضع ساعات مضت، لم أكن أعلم حتى بوجود الفينين خارج الخرافات، والآن لا يوجد سوى الألم والموت.

إنها مسألة وقت فقط، ووقتي قصير.

***

الموت سيكون مفضلًا على البقاء لثانية أخرى في هذه المحرقة التي تسمى جسدي، لكن يبدو أنها رحمة غير مسموح لي بها حيث أُهز لأستيقظ.

الهواء. ليس هناك هواء كافٍ. رئتاي تكافحان لاستنشاق الهواء.

تسأل إيموجين:

– «هل أنت متأكد من هذا؟»

كل خطوة يخطوها زايدن تجلب موجة جديدة من الألم تبدأ في جانبي وتنتشر عبر جسدي كله.

يزجرها غاريك بحدة:

– «توقفي عن سؤاله هذا السؤال اللعين. لقد اتخذ قراره. ادعميه أو اخرجي من هنا بحق الجحيم يا إيموجين.»

يرد رجل آخر:

– «وهو قرار سيء.»

يزمجر بودهي:

– «عندما يكون لديك مائة وسبعة ندوب على ظهرك، حينها يمكنك اتخاذ القرارات اللعينة يا سياران.»

يفزعني زئير تايرِن، وأرتعش، مما يزيد من حدة التعذيب الذي لا يوصف والذي يمزق جسدي الآن.

يسأل غاريك من مكان ما إلى اليسار:

– «ماذا كان ذلك؟»

يجيب زايدن وهو يضمني إليه أكثر:

– «لقد قال أساسًا إنه سيشويني حيًا إذا فشلت.»

أعتقد أن ذلك الجزء من الرابطة لا يزال قائمًا. يسقط خدي على كتفه، وأكاد أقسم أنني أشعر به يطبع قبلة على جبهتي، لكن هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا.

أنت لا تخفي الأسرار عمن تهتم لأمرهم، ناهيك عن الأسرار التي ستكلفني حياتي في أي ثانية إذا كان نبض قلبي المتعثر مؤشرًا على أي شيء.

إنه يكافح لضخ النار السائلة التي تكوي عروقي.

يا إلهي، أتمنى لو يتركني أموت وحسب.

أنا أستحق ذلك. أنا السبب في موت ليام. أنا ضعيفة العقل لدرجة أنني لم أدرك حتى أن داين سلب ذكرياتي واستخدمها ضدي – ضد ليام.

يهمس زايدن على جبهتي ونحن نتحرك:

- «يجب أن تقاومي يا ڤيوليت. يمكنكِ أن تكرهيني قدر ما تشائين عندما تستيقظين. يمكنكِ الصراخ، والضرب، وإلقاء خناجرك اللعينة عليّ، لا أهتم، لكن يجب أن تعيشي. لا يمكنكِ أن تجعليني أقع في حبك ثم تموتي. لا شيء من هذا يستحق العناء بدونكِ.»

يبدو صادقًا لدرجة أنني أكاد أصدقه.

وهو بالضبط ما أوقعني في هذا الموقف في المقام الأول.

ينادي صوت مألوف، لكنني لا أستطيع تحديده. بودهي، ربما؟ أحد طلاب السنة الثانية؟ الكثير من الغرباء. ولا أصدقاء.

ليام قد مات.

- «يجب أن تنقذها.»

«أنتم جميعًا جبناء.»

– الكلمات الأخيرة لـ فين ريورسون (نص محذوف)



الفصل التاسع والثلاثون

زايدن

– «ستكون على ما يرام.»

كان صوت سجايل أرقّ مما تكرمت به معي في أي وقت مضى. لكن مرة أخرى، هي لم تخترني لأنني بحاجة إلى التدليل. لقد اختارتني من أجل الندوب التي تملأ ظهري، ولحقيقة بسيطة هي أنني حفيد راكبها الثاني – ذلك الذي لم ينجُ من القطاع.

– «أنتِ لا تعرفين أنها ستكون على ما يرام. لا أحد يعرف.»

لقد مرت ثلاثة أيام لعينة، ولم تستيقظ ڤيوليت بعد. ثلاثة أيام لا تنتهي أمضيتها في هذا الكرسي، أسير على حد سكين بين العقل والجنون، أراقب كل ارتفاع وانخفاض في صدرها فقط لأتأكد من أنها لا تزال تتنفس. لا تمتلئ رئتاي بالهواء إلا حين تمتلئ رئتاها، والوقت الفاصل بين نبضات قلبي مشحون بخوف حاد يبتلعني بالكامل.

لم تبدُ لي هشة قط، لكنها تبدو كذلك الآن، راقدة في منتصف سريري، شفتيها شاحبتان ومترهلتان، وأطراف شعرها باهتة وفقدت لمعانها الحاد المعتاد كالنصل. طوال ثلاثة أيام، بدا كل شيء فيها وكأن الحياة قد سُحبت من جسدها، ولم يتبق تحت جلدها سوى طيف من روحها.

لكن اليوم، على الأقل، يكشف ضوء الصباح عن حمرة خفيفة عادت إلى وجنتيها على طول الخط الداكن لنظارات الطيران الخاصة بها، أكثر مما كانت عليه بالأمس.

أنا أحمق لعين. كان ينبغي أن أتركها في باسجياث. أو أرسلها مع آيتوس، حتى لو أجهد ذلك سجايل وتايرِن. لم يكن ينبغي لها أبدًا أن تتكبد العقاب الذي أنزله العقيد آيتوس. من أجل جريمة لم تكن تعلم حتى أنني أرتكبها. ولم تساورها الشكوك حولها قط.

أمرر يدي في شعري. لم تكن هي الوحيدة التي عانت. كان ليام ليكون على قيد الحياة.

ليام. يمتزج الشعور بالذنب مع حزن يمتص الروح، وبالكاد أستطيع التقاط أنفاسي وسط الألم الذي يعتصر صدري. لقد أمرت أخي بالتبني بالحفاظ على سلامتها، وهذا الأمر هو ما أودى بحياته. موته يقع على عاتقي.

كان ينبغي أن أعرف ما ينتظرنا في آثبين...

'كان ينبغي أن تخبرها عن الفينين. لقد انتظرتك لتنقل لها المعلومات، والآن هي تعاني.'

هكذا يزمجر تايرِن في عقلي. هذا التنين هو التجسيد الحي، النافث للنار، لعارى. لكن على الأقل، الرابطة التي تجمعنا نحن الأربعة لا تزال قائمة، حتى وإن لم يتمكن من التواصل معها ـــــ مما يعني أن ڤيوليت على قيد الحياة.

يمكنه أن يصرخ في وجهي قدر ما يشاء طالما أن قلبها ينبض.

'كان ينبغي أن أفعل الكثير من الأشياء بطريقة مختلفة.'

أجيبه ذهنيًا. ما لم يكن ينبغي لي فعله هو محاربة مشاعري تجاهها. كان ينبغي أن أتشبث بها بعد تلك القبلة الأولى بالطريقة التي أردتها وأبقيها إلى جانبي، كان ينبغي أن أسمح لها بالدخول إلى عالمي بالكامل.

تخدش جفوني كقماش الصنفرة في كل مرة أرمش فيها، لكنني أقاوم النوم بكل عظمة في جسدي. فالنوم هو المكان الذي أسمع فيه صرختها التي تفطر القلب، وأسمع بكاءها لموت ليام، وأسمعها تدعوني بالخائن اللعين مرارًا وتكرارًا.

لا يمكنها أن تموت، وليس فقط لأن هناك احتمالًا بألا أنجو أنا أيضًا. لا يمكنها أن تموت لأنني أعلم أنني لا أستطيع العيش بدونها حتى لو نجوت. في مكان ما بين صدمة انجذابنا على قمة ذلك البرج، إلى إدراكي أنها خاطرت بحياتها لتتخلى عن حذاء لشخص آخر على المتراس الصخري في ذلك اليوم الأول، إلى إلقائها تلك الخناجر على رأسي تحت شجرة البلوط، بدأتُ أترنح. كان ينبغي أن أدرك خطر الاقتراب الشديد في المرة الأولى التي ألقيتها فيها على ظهرها وأريتها مدى سهولة قتلها لي على بساط التدريب ــــ وهي نقطة ضعف لم أسمح لأحد غيرها برؤيتها ــــ لكنني تجاهلت الأمر واعتبرته انجذابًا لا يُقاوم لامرأة فائقة الجمال. عندما شاهدتها تقهر القفاز، ثم تدافع عن أندارنا في يوم التصفية، تعثرت، مذهولًا بدهائها وحسها العالي بالشرف. وعندما اقتحمت غرفتها ووجدت يد أورين الغادرة تلتف حول عنقها، كان يجب أن يخبرني الغضب الذي جعل من السهل جدًا قتلهم جميعًا دون أن يرف لي جفن بأنني أسير نحو حافة الهاوية. وعندما ابتسمت لي بعد أن أتقنت درعها الذهني في بضع دقائق، وأضاء وجهها والثلج يتساقط من حولنا، وقعت في حبها، سحقًا لي، لقد وقعت.

لم نكن قد تبادلنا القبلات حتى، ووقعت في حبها.

أو ربما كان ذلك عندما ألقت سكاكينها على بارلو، أو عندما التهمتني الغيرة حيًا وأنا أرى آيتوس يقبل الثغر الذي حلمت به مرات لا تحصى. عندما أسترجع الماضي، أجد ألف لحظة صغيرة سحبتني نحو الحافة من أجل هذه المرأة النائمة في السرير الذي طالما تخيلتها فيه.

ولم أخبرها قط. ليس حتى بدأت تهذي من السم. لماذا؟ لأنني كنت خائفًا من منحها سلطة عليّ في حين أنها كانت تمتلكها بالكامل بالفعل؟ لأنها ابنة ليليث سورنجيل؟ لأنها استمرت في منح آيتوس فرصًا ثانية وثالثة؟

لا. لأنني لم أستطع أن أمنحها تلك الكلمات دون أن أكون صادقًا معها تمامًا وبشكل كامل، وبعد الطريقة التي نظرت بها إليّ عند البحيرة، ونظرة الخيانة المطلقة في عينيها...

حفيف الملاءات يجعل نظراتي تندفع نحو وجهها، وآخذ أول نفس كامل لي منذ أن سقطت من على ظهر تايرِن. عيناها مفتوحتان.

– «لقد استيقظتِ.»

يبدو صوتي وكأنه سُحب عبر الحصى، في حين ظننت أن قلبي وحده من تعرض لذلك.

أترنح واقفًا على قدميّ وأخطو الخطوتين اللتين تفصلانني عن سريرها. إنها مستيقظة. إنها على قيد الحياة. إنها... تبتسم؟ لا بد أن هذه خدعة من الضوء. فمن المرجح أن هذه المرأة تريد إضرام النار فيّ.

– «هل يمكنني فحص جانبك؟»

ينخفض الفراش قليلًا وأنا أجلس بالقرب من وركها.

تومئ برأسها وتمد ذراعيها لأعلى كقطة كانت تغفو تحت أشعة الشمس قبل أن تمد يدها إلى الأغطية.

أسحب الأغطية، وأفك الرداء الذي يغطي ثوب النوم القصير الذي ألبستها إياه في ذلك المساء الأول، وأرفع الحافة ببطء فوق البشرة الحريرية لوركها، مهيئًا نفسي لرؤية الخيوط السوداء التي شوهت لون أوردتها أثناء الرحلة ولكنها انحسرت ببطء منذ وصولنا. لا يوجد شيء. فقط خط فضي رفيع يقع على بعد إنش فوق عظمة حوضها. يندفع الهواء من رئتيّ براحة.

– «معجزة.»

تسأل بصوت مبحوح، وهي تنظر للأسفل نحو ندبتها الجديدة:

– «ما هي المعجزة؟»

تبًا. سأكون معالجًا مريعًا. أقول وأنا أصب كأسًا من الإبريق الموجود على الطاولة بجوار السرير، ويدي ترتجف من الإرهاق أو الراحة، لا يهمني أيهما:

– «الماء. لا بد أنكِ تشعرين بظمأ شديد.»

تدفع نفسها لتجلس، ثم تأخذ الكأس، وتفرغها كاملة في جوفها وتقول:

– «شكرًا.»

– «أنتِ كذلك.»

أضع الكأس الفارغة على المنضدة ثم ألتفت إليها مجددًا، محدقًا في العينين العسليتين اللتين طاردتاني منذ المتراس الصخري، وأكمل بهمس:

– «أنتِ هي المعجزة. كنت مرعوبًا بحق الجحيم يا ڤيوليت. لا توجد كلمات تكفي لوصف ذلك.»

تقول بهدوء، وترتفع يدها لتستقر فوق قلبي النابض بقوة:

– «أنا بخير يا زايدن.»

– «ظننت أنني سأفقدك.»

يخرج الاعتراف مخنوقًا، وربما أكون متماديًا في استغلال حظي بعد كل ما أوقعتها فيه، لكنني لا أستطيع منع نفسي من الانحناء للأمام ومسح شفتيّ على جبهتها، ثم صدغها. يا إلهي، كنت لأقبلها إلى الأبد لو ظننت أن ذلك سيبقي الجدال القادم بعيدًا، ويبقينا في هذه اللحظة النقية حيث يمكنني أن أصدق حقًا أن كل شيء قد يكون على ما يرام بيننا، وأنني لم أفسد إلى غير رجعة أفضل شيء حدث لي على الإطلاق.

– «لن تفقدني.»

ترمقني بنظرة حائرة، وتبتسم وكأنني قلت شيئًا غريبًا. ثم تميل نحوي وتقبلني.

إنها لا تزال تريدني. هذا الإدراك يجعل قلبي يحلق في السماء سحقًا. أعمق القبلة، ممررًا لساني على شفتها السفلية الناعمة وممتصًا المنحنى الرقيق بلطف. هذا كل ما يتطلبه الأمر لتغمرني الحاجة، حارة وملحة. الأمر دائمًا هكذا بيننا ـــــ شرارة خفيفة تشعل حريقًا هائلًا يلتهم كل فكرة لا تتعلق بعدد الطرق التي يمكنني بها جعلها تئن. سيكون أمامنا عمر كامل من هذه اللحظات، حين يمكنني تجريدها من ملابسها وعبادة كل منحنى وتجويف في جسدها، لكن هذه ليست إحداها، ليس وهي بالكاد مستيقظة منذ خمس دقائق. أتراجع للخلف، محررًا فمها ببطء، وأعدها وأنا أضم يديها الرقيقتين بين يديّ الخشنتين:

– «سأعوضكِ عن ذلك. لا أقول إننا لن نتشاجر أو أنكِ لن ترغبي في إلقاء تلك الخناجر عليّ عندما أتصرف كوغد لا محالة، لكنني أقسم أنني سأسعى دائمًا لأكون أفضل.»

تبتعد بابتسامة فضولية وتتساءل:

– «تعوضني عن ماذا؟»

أرمش وعقدي حاجبيّ يتجعد. هل فقدت ذكرياتها؟

– «كم تتذكرين؟ بحلول الوقت الذي أوصلناكِ فيه إلى هنا، كان السم قد انتشر إلى دماغك و ـــــ»

تتسع عيناها، ويتغير شيء ما، شيء يهوي بمعدتي كصخرة وهي تسحب يديها من يديّ.

تُشيح بنظرها بعيدًا، وتتزجج عيناها بتلك الطريقة التي تخبرني أنها تتواصل ذهنيًا مع تنينيها.

– «لا تذعري. كل شيء بخير. أندارنا لم تعد كما كانت تمامًا، لكنها... هي.»

لقد أصبحت ضخمة بحق الجحيم الآن، لكنني لن أقول ذلك لڤيوليت.

موهبتها قد اختفت أيضًا، وفقًا لتايرِن، لكن هناك متسع من الوقت لمشاركة تلك الأخبار. بدلًا من ذلك، أقول:

– «أخبرني المعالج أنه ليس متأكدًا من الآثار المستديمة التي قد يخلفها السم، لأنه شيء لم يره من قبل، ولا أحد يعرف حقًا كم من الوقت سيستغرق استعادة ذكرياتك إذا كان هناك أي ضرر دائم، لكنني سأخبرك ـــــ»

ترفع يدها مقاطعة، وتنظر حول الغرفة وكأنها تلاحظ مكاننا للمرة الأولى، ثم تتراجع إلى الخلف خارجة من السرير، وتحكم إغلاق ردائها. النظرة في عينيها تضع ملزمة حول صدري وهي تتعثر نحو النوافذ الكبيرة التي تصطف في غرفة نومي.

النوافذ التي تطل على الجبل الذي بُنيت عليه هذه القلعة، نزولًا إلى الوادي بالأسفل وخط الأشجار المتفحمة الذي يحدد المكان الذي احترقت فيه الأرض

وصولًا إلى الصخر، والبلدة الهادئة ـــ التي كانت في يوم من الأيام مدينة ـــ أريتيا القابعة تحتنا.

البلدة التي بذلنا دماءنا وعرقنا لإعادة بنائها من كومة من الرماد والأنقاض.

– «ڤيوليت؟»

أُبقي دروعي مرفوعة، محاولًا احترام خصوصيتها وأنا أمشي للوقوف بجانبها، لكن يا إلهي، أحتاج بشدة أن أعرف فيمَ تفكر.

تتسع عيناها بينما يمسح بصرها البلدة، كل مبنى بأسقفه الخضراء المتطابقة، ثم تتوقف نظراتها عند معبد أماري، الذي كان أبرز معلم إلى جانب مكتبتنا.

تسأل:

– «أين نحن؟ وإياك أن تجرؤ على الكذب عليّ. ليس مجددًا.»

ليس مجددًا. أقول:

– «أنتِ تتذكرين.»

– «أنا أتذكر.»

أغمغم، دافعًا يدي في شعري:

– «الحمد للآلهة.»

إنه أمر جيد، يثبت أنها قد شُفيت حقًا، لكن... تبًا.

تنطق كل كلمة بحدة وتقطيع، وتضيق عينيها نحوي:

– «أين. نحن؟ قلها.»

– «الطريقة التي تنظرين بها إليّ تقول إنكِ تعرفين بالفعل.»

من المستحيل ألا تتعرف هذه المرأة العبقرية على ذلك المعبد.

تشير إلى النافذة وتقول:

– «هذا المكان يبدو وكأنه أريتيا. لا يوجد سوى معبد واحد يمتلك تلك الأعمدة المميزة. لقد رأيت الرسومات.»

– «نعم.»

امرأة. عبقرية. لعينة.

يرتفع صوتها وتقول:

– «لقد سُويت أريتيا بالأرض حرقًا. لقد رأيت تلك الرسومات أيضًا، تلك التي جلبها النساخون من أجل الإعلانات العامة. أخبرتني والدتي أنها رأت الجمرات بأم عينيها، فأين نحن؟»

– «أريتيا.»

أشعر بتحرر لا يصدق وأنا أخبرها بالحقيقة.

توليني ظهرها وتسأل:

– «أُعيد بناؤها أم لم تُحرق قط؟»

– «في طور إعادة البناء.»

– «لماذا لم أقرأ عن هذا؟»

أشرع في إخبارها، لكنها ترفع يدها مقاطعة فأنتظر. ولم يستغرقها الأمر سوى دقيقة واحدة لتستنتج الإجابة أيضًا.

تشير إلى أثر التمرد الخاص بي وتقول:

– «ميلغرين لا يستطيع رؤية النتيجة عندما يجتمع أكثر من ثلاثة منكم معًا. لهذا السبب لا يُسمح لكم بالتجمع.»

لم أستطع منع نفسي. أبتسم. هذه المرأة العبقرية ملكي. أو كانت ملكي. وستكون ملكي مجددًا إذا كان لي أي كلمة في الأمر. وهو ما أفتقده على الأرجح. أتنهد، وتتلاشى الابتسامة على الفور. تبًا.

لا، لن أستسلم حتى تطلب مني ذلك صراحةً.

قد تكون الأمور معقدة، لكننا نحن الاثنان كذلك أيضًا.

– «هذا، بالإضافة إلى أننا لم نعد بتلك الأهمية التي تستدعي انتباه النساخين بعد الآن. نحن لسنا مختبئين. نحن فقط... لا نعلن عن وجودنا.»

وهو أيضًا السبب في أن هذا المكان لا يزال تقنيًا... ملكي. لم يكن النبلاء متحمسين تمامًا لإلقاء أموالهم على مدينة محترقة أو دفع ضرائب على أرض غير صالحة للاستخدام. في النهاية سيلاحظون. في النهاية سأفقده. وبعد ذلك سأفقد رأسي. أقول:

– «يمكنكِ معرفة أي شيء تريدينه. فقط اسألي.»

يتصلب جسدها وتقول:

– «أخبرني بشيء واحد الآن.»

– «أي شيء.»

ترتجف كتفاها وهي تستنشق الهواء وتقول:

– «هل... هل مات ليام حقًا؟»

ليام. طعنة جديدة من الأسى تخترق ضلوعي. تمر عدة نبضات قلب في صمت وأنا أحاول إيجاد الكلمات المناسبة، لكن لا توجد أي كلمات، لذا أُخرج من جيبي المنحوتة الخشبية لأندارنا بحجم كف اليد، والتي انتهى ليام للتو من العمل عليها.

تلتفت في اتجاهي، وتثبت نظراتها فورًا على التمثال الصغير، وتدمع عيناها وتقول:

– «إنه خطئي.»

– «لا، بل خطئي أنا. لو أنني أخبرتكِ بكل شيء في وقت أبكر، لكنتِ مستعدة. وربما كنتِ لتلقنينا جميعًا درسًا في كيفية قتلهم.»

تتحطم روحي من جديد عندما تمسح دمعتين متطابقتين بظهر يديها. أضع المنحوتة في يدها وأقول:

– «أعلم أنه كان ينبغي عليّ إحراقها، لكنني لم أحتمل فعل ذلك. لقد واريناه الثرى بالأمس. حسنًا، الآخرون فعلوا ذلك. لم أغادر هذه الغرفة منذ وصولنا إلى هنا.»

تتلاقى نظراتنا، وأبذل قصارى جهدي كي لا أمد يدي نحوها، لأنني أعلم أنني آخر مكان ستبحث فيه عن المواساة.

– «لم أتركَكِ أبدًا.»

تسخر بابتسامة دامعة وساخرة:

– «حسنًا، لديك مصلحة شخصية في بقائي على قيد الحياة. أمهلني ثانية لأرتدي ملابسي، وبعدها سنتحدث.»

– «تطردينني من غرفتي الخاصة.»

أستدعي تلك النبرة الساخرة والممازحة التي اعتادت أن تكون سهلة للغاية عندما يتعلق الأمر بها، وأتراجع للوراء.

– «هذه جديدة.»

– «الآن يا ريورسون.»

لا أستطيع منع نفسي من الجفول. إنها لا تستخدم اسم عائلتي أبدًا. ربما لأنها لا تحب أن تتذكر أنني ابن فين ريورسون، وكل ما كلفها إياه والدي، لكنني كنت دائمًا زايدن بالنسبة لها. يبدو فقدان هذا الود كهاوية بلا قاع، كضربة قاضية.

– «غرفة الاستحمام من هناك.»

أشير إلى الجدار البعيد وأخطو بخطوات واسعة نحو المخرج، متأرجحًا بسيفي فوق ظهري في طريقي للخروج.

ابن عمي يتكئ على الجدار، يتحدث إلى غاريك، الذي يتفاخر بندبة جديدة يبلغ طولها ستة إنشات تمتد من صدغه إلى فكه، لكن كليهما يصمتان عندما أغلق بابي خلفي. يتوتران ويقف غاريك بكامل طوله.

أقول:

– «لقد استيقظت.»

يقول بودهي، وتتهدل كتفاه براحة:

– «الشكر لأماري.»

لا تزال ذراعه في حمالة، تتعافى من الكسور الأربعة التي أحدثها فيها الفينين.

– «سيتعين عليها أن تختار.»

أنظر إلى غاريك، ملاحظًا القلق في عينيه. لقد أخبرني بالفعل أنه يعتقد أنها ستحفظ سرنا. هذا القلق هو من أجل حالتي العقلية إذا لم تسامحني لعدم إخبارها في وقت أبكر. أتابع:

– «إما أن تحفظ سرنا أو لا تفعل.»

يجيب غاريك:

– «هذا أمر سيتعين عليك اكتشافه. ثم تعليمها كيف تخفيه عن آيتوس إذا اختارت ذلك.»

أسأل:

– «أي أخبار من الطيارين؟»

يجيب بودهي:

– «سيرينا على قيد الحياة، إذا كان هذا ما تسأل عنه. وكذلك شقيقتها. لكن البقية...»

يهز رأسه.

على الأقل نجوا، والآن بعد أن استيقظت ڤيوليت، يمكنني أخيرًا أن أتنفس.

أسأل:

– «هل عرفتم ما كان بداخل ذلك الصندوق الذي انجذب إليه تشراد هناك في ريسون؟»

تنين غاريك حساس بشكل ملحوظ للرموز السحرية، وهو ما سمح لهما بتحديد مكان الصندوق الحديدي الصغير واستعادته من تحت أنقاض برج الساعة.

يجيب بودهي:

– «إنهم يعملون على ذلك الآن. نأمل أن نحصل على إجابة في غضون الساعتين القادمتين. أنا سعيد لأنها بخير يا زايدن. سأخبر الآخرين.»

يومئ برأسه مرة واحدة ويتجه عبر الرواق، وهو مألوف بتخطيط القلعة مثلي تقريبًا، نظرًا لأنه أمضى كل صيف هنا قبل التمرد، أو الانفصال، كما يُسمي أهل نافار تمرد والدي.

من المضحك كيف يعيد الناس تسمية كل شيء يجعلهم يشعرون بعدم الارتياح. لقد فقدنا إيماننا بأن ملكنا سيفعل الصواب يومًا ما. وهم يدعوننا بالخونة.

يجعد بودهي أنفه.

– «ماذا؟»

– «رائحتك تشبه مؤخرة التنين.»

– «اذهب إلى الجحيم.»

أجازف بشم رائحتي ولا يسعني المجادلة.

– «سأستخدم غرفتك.»

– «سأعتبر ذلك معروفًا شخصيًا.»

أرفع له إصبعي الأوسط وأتجه نحو غرفته.

***

بعد ساعة، أكون قد استحممت وأقف نافد الصبر أنتظر خارج غرفتي مرتديًا طقمًا نظيفًا من الملابس الجلدية برفقة بودهي، الذي يبذل قصارى جهده للتخفيف من توتري وتحسين مزاجي كما يفعل دائمًا، عندما يُفتح الباب وتقف ڤيوليت هناك.

أكاد أبتلع لساني عند رؤية شعرها الرطب والمحلول يتجعد تمامًا أسفل صدرها. لا أستطيع حتى التعبير عما في تلك الخصلات الذي يدفعني مباشرة إلى منطقة الحاجة-الماسة-لمضاجعتها-الآن، وأنا مشغول جدًا بالقتال لإبقاء يديّ إلى جانبي لدرجة تمنعني من التساؤل عن السبب.

مجرد وجودها يثيرني. لقد تقبلت هذه الحقيقة بالذات على مدار العام الماضي.

يبتسم بودهي باتساع، وتومض ابتسامة تبدو تمامًا مثل ابتسامة عمتي في الماضي.

– «من الجيد رؤيتكِ تقفين على قدميكِ يا سورنجيل.»

ثم يربت بقوة على كتفي وهو ينصرف، ناظرًا إليّ من فوق كتفه:

– «سأُحضر الخطة البديلة. حظًا موفقًا.»

يا إلهي، أود أن أجذبها إلى ذراعيّ وأحبها حتى تنسى كل شيء سوى مدى روعة توافقنا معًا، لكنني متأكد من أن هذا هو آخر شيء قد ترغب فيه مرة أخرى.

تقول بهدوء، وينتفض قلبي:

– «عد إلى الداخل.»

– «طالما أنكِ دعوتني.»

أمشي للداخل، وأنا أمقت نظرة عدم الثقة في عينيها.

سواء صدقتني ڤيوليت أم لا، أنا لم أكذب عليها أبدًا. ولا مرة واحدة. أنا فقط لم أكن صريحًا تمامًا أيضًا.

تسأل ونظراتها تمسح غرفة نومي:

– «هل كل هذا أصلي؟»

أقول بينما تتأمل الأقواس المزخرفة بدقة في السقف، والإضاءة الطبيعية من النوافذ التي تلتهم الجدار الغربي بأكمله:

– «غالبية القلعة مبنية من الحجر. والحجر لا يحترق.»

– «صحيح.»

أبتلع ريقي. بصعوبة.

– «أعتقد أنه بعد كل ما رأيته، السؤال الذي يجب أن أطرحه قبل أن أخبرك بكل شيء بسيط للغاية. هل أنتِ معنا؟ هل أنتِ مستعدة للقتال معنا؟»

يمكنها بنفس السهولة أن تقرر تسليمنا جميعًا. لم تكن تعرف ما يكفي لإدانتنا سابقًا، لكنها تعرف الآن.

تومئ برأسها وتقول:

– «أنا معكم.»

تجتاحني الراحة في اندفاع أقوى من أي شيء يمكنني توجيهه سحريًا من سجايل، وأمد يدي نحوها:

– «أنا آسف جدًا لأنني اضطررت لإخفاء...»

تموت الكلمات على لساني وهي تتراجع خطوة للخلف، متجنبة إياي.

– «هذا لن يحدث.»

يومض عالم من الألم في تلك العينين العسليتين، وأذبل سحقًا.

– «مجرد أنني أصدقك ومستعدة للقتال معك لا يعني أنني سأأتمنك على قلبي مرة أخرى. ولا يمكنني أن أكون مع شخص لا أثق به.»

شيء في صدري يتحطم.

– «لم أكذب عليكِ أبدًا يا ڤيوليت. ولا مرة واحدة. ولن أفعل أبدًا.»

تمشي نحو النافذة وتنظر للأسفل، ثم تستدير نحوي ببطء.

– «الأمر لا يتعلق حتى بأنك أخفيت هذا عني. أنا أتفهم ذلك. الأمر يتعلق بالسهولة التي فعلت بها ذلك. السهولة التي أدخلتك بها إلى قلبي ولم أحصل على الشيء نفسه في المقابل.»

تهز رأسها، وأراه هناك، الحب، لكنه مقنع خلف دفاعات أجبرتها بحماقتي على بنائها.

أنا أحبها. بالطبع أحبها. لكن إذا أخبرتها الآن، فستظن أنني أقول ذلك لكل الأسباب الخاطئة، وبصراحة، ستكون محقة.

لن أخسر المرأة الوحيدة التي وقعت في حبها دون قتال.

– «أنتِ محقة. لقد كتمت أسرارًا.»

أعترف، منقضًا للأمام مجددًا، آخذًا خطوة بعد خطوة حتى أصبح على بعد أقل من قدم منها. أضع راحتيّ على الزجاج على جانبي رأسها، محاصرًا إياها

بشكل غير محكم، لكن كلانا يعلم أنها قادرة على الابتعاد إذا أرادت ذلك. لكنها لا تتحرك.

– «لقد استغرقني الأمر وقتًا طويلًا لأثق بكِ، وقتًا طويلًا لأدرك أنني وقعت في حبك.»

يطرق أحدهم الباب. أتجاهله.

– «لا تقل ذلك.»

ترفع ذقنها، لكن لا تفوتني الطريقة التي تختلس بها النظر إلى فمي.

– «لقد وقعت في حبك.»

أخفض رأسي وأنظر مباشرة في عينيها الفاتنتين. قد تكون غاضبة بحق، لكنها، أقسم بمالك، ليست متقلبة.

– «وهل تعرفين ماذا؟ ربما لم تعودي تثقين بي، لكنكِ لا تزالين تحبينني.»

تنفرج شفتاها، لكنها لا تنكر ذلك.

– «لقد منحتك ثقتي مجانًا مرة واحدة، ومرة واحدة هي كل ما ستحصل عليه.»

تخفي الألم برمشتي عين سريعتين.

لن يحدث هذا أبدًا. لن تعكس تلك العينان ألمًا سببته لها أبدًا مرة أخرى.

– «لقد أفسدت الأمر بعدم إخباركِ في وقت أبكر، ولن أحاول حتى تبرير أسبابي. لكنني الآن أأتمنك على حياتي ــــ على حيوات الجميع.»

لقد خاطرت بكل شيء بمجرد إحضارها إلى هنا بدلًا من إعادة جسدها إلى باسجيات.

– «سأخبركِ بأي شيء تريدين معرفته وكل شيء لا ترغبين في معرفته. سأمضي كل يوم من أيام حياتي في كسب ثقتكِ مرة أخرى.»

لقد نسيت كيف يبدو الشعور بأن تُحب، أن تُحب حقًا وصدقًا ـــــ لقد مرت سنوات عديدة منذ وفاة والدي. وأمي... لن أتطرق إلى ذلك. ولكن بعد ذلك منحتني ڤيوليت تلك الكلمات، منحتني ثقتها، وقلبها، وتذكرت. سأكون ملعونًا إن لم أقاتل للحفاظ عليها.

– «وماذا لو لم يكن ذلك ممكنًا؟»

– «أنتِ لا تزالين تحبينني. إذن هو ممكن.»

يا إلهي، كم أتوق لتقبيلها، لتذكيرها بالضبط بما نكونه معًا، لكنني لن أفعل، ليس حتى تطلب مني ذلك.

– «أنا لا أخشى العمل الشاق، خاصة عندما أعرف مدى حلاوة المكافأة. أفضل أن أخسر هذه الحرب بأكملها على أن أعيش بدونكِ، وإذا كان ذلك يعني أن عليّ إثبات نفسي مرارًا وتكرارًا، فسأفعل ذلك. لقد منحتني قلبكِ، وأنا سأحتفظ به.»

هي تمتلك قلبي بالفعل، حتى وإن لم تدرك ذلك.

تتسع عيناها، وكأنها ترى أخيرًا العزم في عينيّ.

لقد حان الوقت لتعرف كل شيء. بمعرفتي بڤيوليت، هي لن تبقى مختبئة بأمان خلف جدران باسجياث، خاصة الآن بعد أن عرفت مدى فساد تلك الجدران.

ستخوض هذه الحرب إلى جانبي.

هناك طرقة ملحة أخرى على الباب.

أغمغم:

– «اللعنة كم هو نافد الصبر. لديكِ حوالي عشرين ثانية لطرح سؤال، هذا إن كنت أعرفه جيدًا.»

ترمش بعينيها وتسأل:

– «لا زلت آمل أن تكون تلك الرسالة في آثبين تخص المناورات الحربية حقًا. هل تعتقد أن هناك أي احتمال بأننا وجدنا أنفسنا بالصدفة في وسط هجوم للويفرن على تلك النقطة الأمامية؟»

يقول صوت من عند المدخل:

– «هذا بالتأكيد لم يكن حادثًا عرضيًا يا شقيقتي الصغرى.»

أتنهد وأبتعد إلى الجانب، مراقبًا عيني ڤيوليت تتسعان وهي تراه واقفًا في المدخل.

أخبرها بهدوء:

– «أخبرتكِ أنني أعرف خبراء سموم أفضل. أنتِ لم تُعالجي. لقد تم "إصلاحك".»

– «برينان؟»

تحدق في شقيقها بصدمة، فاغرة فاها.

يبتسم برينان باتساع ويفتح ذراعيه قائلًا:

– «مرحبًا بكِ في الثورة يا ڤيوليت.»

-تمت-

شُكرٌ وتقدير

أستهلُّ بحمدِ الربِّ على نِعَمٍ فاقتْ حدودَ أحلامي. ثمَّ أُزجي امتناني لزوجي **جيسون**؛ مُلهمي، وسندي المَكينِ في وجهِ عِلَّتي الجسديَّةِ، وصخرتي العاتيةِ التي ألوذُ بها. وإلى أبنائي السِّتةِ؛ غايةِ وجودي، وعائلتي، وصديقتي الصَّدوقةِ.

ويمتدُّ شُكري العميقُ لفريقِ «ريد تاور»، وعلى رأسهم مُحرِّرتي **ليز بيليتيير** التي أطلقتْ عِنانَ قلمي لأُحلِّقَ في سماءِ الفانتازيا، ووكيلتي **لويز فيوري** التي دَعمتني بلا تردّدٍ، ولكلِّ مَن سَهِرَ على تدقيقِ هذا السِّفرِ، وتزيينِه، وإخراجِه للنُّور.

ولرفيقاتِ دربي، وللقُرَّاءِ الكرامِ، أصدقُ الودِّ. وختامًا، أعودُ إليكَ يا زوجي، بدايتي ونهايتي؛ ففي كلِّ بطلٍ أخطُّه، قَبَسٌ من رُوحِك.

عن الكاتبة



تُعدُّ ريبيكا ياروس من أبرز الكاتبات تصدُّرًا لقوائم مبيعات صحيفة نيويورك تايمز؛ إذ أثرت الساحة الأدبية بما يربو على خمس عشرة رواية. وقد حصدت إشاداتٍ واسعةً بوصفها حكَّاءةً فذَّةً، ونالت جائزة التميُّز للرواية الرومانسية. نشأت في كنفٍ عسكريٍّ، فاقترنت ببطلها المغوار منذ عقدين، وتنعم معه بأسرةٍ متماسكةٍ تضمُّ ستة أبناءٍ، ويقيمون بولاية كولورادو بصحبة حيواناتهم الأليفة.

وقد أوقد احتضانها لابنتها الصغرى بالتبني شغفًا عميقًا بداخلها؛ فأسَّست برفقة زوجها جمعية وان أكتوبر الخيرية عام ٢٠١٩؛ لتمتدَّ أياديهما الحانية لدعم أطفال الرعاية البديلة. للاطلاع على مبادرتهم الإنسانية النبيلة، يُرجى التوجُّه لزيارة الموقع oneoctober.org، ولمتابعة أحدث إصداراتها ورواياتها المرتقبة، تفضَّلوا مشكورين بزيارة RebeccaYarros.com.



كيان للنشر والتوزيع

أفضل دار نشر مصرية ٢٠٢١

للتواصل معنا :

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زوروا موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01000405450 /01001872290

وللاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كتّابنا الثقافية، يمكنكم متابعتنا على حسابات التواصل الاجتماعي التالية:



KayanPublishing